مالكوم إكس

الحاج مالك الشباز

الزعيم الشهيد لمسلمي أمريكا السود

سيرة ذاتية كما رواها لكاتب الجذور

إليكس هيلي

ترجمة

د. أحمد عبد الرحمن



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مالكوم إكس

ترجمة : د. أحمد عبد الرحمن

رقم الإيداع :

٢٠١٢/٢٢٥٠

الطبعة الأولى ٢٠١١



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

المقدمة

بقلم: م.س. هاندلر

في يوم الأحد الذي سبق إعلانه رسميا الانشقاق من جماعه إلايجا محمد، حضر مالكوم إكس إلى منزلي لمناقشة خططه ولإعطائي بعض الأوراق المهمة. ولم تكن زوجتي، مسز هاندلر، قد قابلته قبل هذه الزيارة. قدمت زوجتي لنا القهوة والكعك بينما كان مالكوم يتكلم في ذلك الصوت الهادئ المهذب الذي كان طبعه في الجلسات الخاصة وكان واضحاً لي أن شخص مالكوم قد بهرها. لقد ملأت شخصيته غرفة جلوسنا.

كان موقف مالكوم هو موقف من قد وصل إلى مفترق طرق وعليه أن يختار، تدفعُه قوى داخلية. كانت ابتسامة عذبة تُضيء وجهه من آن لآخر – ابتسامة تقول عدة أشياء. لقد كان واضحاً لي أنه يود أن يقول شيئاً ولكن كبرياءه وشعوره يمنعانه من ذلك. وشعرت بأنه لم يكن واثقاً أن بإمكانه الهروب من ذلك العالم الغريب الذي سحره.

بعد خروج مالكوم بدت مسز هاندلر ساهمة تفكر ثم رفعت رأسها فجأة وقالت:

- أتعلم، لقد كان ذلك مثل تناول الشاي مع فهد أسود!

أدهشني ذلك الوصف فالفهد الأسود حيوان أرستقراطي في دنيا الغابة. إنه جميل وخطير معاً. وكان لمالكوم مظهر خارجي وثقة داخلية بالنفس وكأنما ولد أرستقراطيًا كما كان مظهره ينبئ عن خطورة. لم يتمكن رجل أسود من إثارة الخوف والحقد في نفس الرجل الأبيض مثلما فعل مالكوم لأن الرجل الأبيض شعر أنه أمام عدو لدود لا يمكن شراؤه بأي ثمن، رجل ملتزم بدون حدود بقضية تحرير الرجل الأسود في المجتمع الأمريكي وضد دمجه في ذلك المجتمع.

كان أول لقاء لي مع مالكوم في مارس ١٩٦٣ في المطعم الإسلامي الذي يتبع المعبد رقم ٧ في شارع لينوكس. وكنت حينها قد انتدبت من صحيفة نيويورك تايمز للتحري عن الضغوط المتزايدة داخل المجتمع الزنجي.

وكانت تجربتي، كمخبر لمدة ثلاثين عاماً في شرق وغرب أوروبا قد علمتني أن قوى الصراع الاجتماعي المتفاعلة تكون دائماً مقبورة تحت السطح وتُظهر نفسها بطرق مختلفة قبل مدة طويلة من انفجارها وأن هذه القوى تظهر أول ما تظهر في قوة

الفكرة قبل أن تتبلور في أشكال تنظيمية تتحدى السلطة في وضح النهار. يُحمد لعلماء السياسة والاجتماع في أوروبا إيمانهم بقوة الفكرة في الصراع الاجتماعي أما في الولايات المتحدة فإننا نخلط ما بين القوة العددية لجماعة ما والدعاية التي يلقاها زعماء تلك الجماعة وبين القوى التي تبذر بذور التغيير الاجتماعي. وفي دراستي للضغوط المتزايدة داخل المجتمع الزنجي كان عليَّ أن أبحث ليس عن آراء زعماء حركة الحقوق المدنية المعروفين فحسب بل عن آراء من هم على حافة الحركة أي من هم تحت الأرض كما يقولون. لهذا السبب بحثت عن مالكوم إكس الذي وصلتني بعض من أفكاره بواسطة دعاة الاندماج من الزنوج، وكانت أفكارهم قد بدأت تتأثر بفكر «القومية الزنجية» الوليد.

لم أدر ماذا أتوقع وأنا في انتظار مالكوم. لقد كنت الأبيض الوحيد في ذلك المطعم والذي كان مؤسسة يديرها سود مهذبون أنيقو الملبس يعملون في صمت. كانت هنالك إشارات «ممنوع التدخين » معلقة على المرآة اللامعة. قُدمت لي القهوة ولكني كنت غير مطمئن في هذا الجو الصامت ... وأخيراً وصل مالكوم وإذا أنا أمام رجل طويل وسيم ذي طلعة مهابة وبشرة برونزية. نهضت لأحييه ومددت له يدي فمد لي يده ببطء شعرت معه أنه يجد صعوبة في أخذ يدي ولكنه تكرم بذلك وهو الكريم. بعد ذلك فعل مالكوم شيئاً غريباً سيكرره في كل مقابلة لنا في مطعم عام في نيويورك أو واشنطن. سألني مالكوم إن كنت أمانع أن لو جلس مقابلاً باب المطعم وذلك طلب سمعت مثله كثيراً في عواصم أوروبا الشرقية. كان مالكوم حذراً يصر على رؤية كل من يدخل وحينها عرفت إلى أي مدى كان يعيش في خطر.

تحدثنا لأكثر من ثلاث ساعات في ذلك اللقاء الأول. كانت أفكاره عن الرجل الأبيض مدمرة ولكنه لم يشعرني للحظة أنه كان يقصدني شخصيًا أو يجعلني أنا - كفرد أبيض – أشعر بالذنب.

كان يرجع سبب تأخر الرجل الأسود إلى الرجل الأبيض ويقول أن حركة الدمج العنصري ما هي إلا خدعة ويصر على أن زعماء حركة الحقوق المدنية لو استمروا في كفاحهم فسيتحول الصراع إلى صراع دموي لأن الرجل الأبيض لن يوافق على الدمج التام. دافع مالكوم عن دعوة المسلمين السود «للانفصال» في دولة مستقلة قائلاً : إنها الطريقة الوحيدة التي سيحقق بها الزنوج ذاتهم ويطورون ثقافتهم ويضعون الأسس لمجتمع منتج يحترم نفسه، ولكنه لم يحدد أين ستقام تلك الدولة . كان مالكوم يرفض أن يرى استحالة قبول الرجل الأبيض بانفصالهم من الولايات المتحدة ، ولكنه كان يرى حينها أنها الحل الوحيد. كان يهاجم المسيحية لأنها في

نظره أداة استرقاق ويرى أن الكهنة الزنوج هم لعنة المجتمع الأسود يستغلون الرجل الأسود لأغراضهم بدلاً من العمل على فك إساره. وهم بذلك مجرد أداة في يد الرجل الأبيض الذي يصر على ترك الرجل الأسود في وضع المسحوق.

في هذا اللقاء سعى مالكوم أيضاً لتعريفي بعقلية الرجل الزنجي وحذرني في أكثر من مرة من أن أصدق تصريحات قادة الزنوج عن صدق شعورهم نحو الرجل الأبيض. قال لي إن غريزة البقاء دربّت الزنوج على إخفاء شعورهم الحقيقي وأن الرجل الزنجي يقول فقط ما يعتقد أن الرجل الأبيض يحب أن يسمع وأن مهارتهم في إخفاء شعورهم وصلت درجة لا يستطيع معها حتى الزنوج أنفسهم معرفة صدق ما يقوله الزنوج الآخرون. إن فن إخفاء الشعور عند الزنوج يقوم على فهمهم لنفسية الرجل الأبيض وعاداته في حين أن الرجل الأسود وعقليته ظلا كتاباً مقفولاً أمام الرجل الأبيض الذي لم تكن له رغبة في فهم الزنوج على أية حال.

كان عرض مالكوم لأفكاره واضحاً ومرتباً مع ما فيه من صدمة للأبيض الغر، غير أن أكثر ما كان يزعج في حديثه هو إيمانه بآراء الإيْجا محمد عن تاريخ الإنسان ونظرية الوراثة التي اخترعها ليبرهن على عظمة الرجل الأسود فوق الرجل الأبيض وهي نظرية مذهلة لإغراقها في السخف.

بعد هذه المقابلة تبين لي أن مالكوم في الحقيقة شخصيتان – شخصية عامة وأخرى خاصة. كان حينما يظهر على شاشات التلفزيون أو قاعات الاجتماعات يحدث أثراً رهيباً وكان في إعداده ودفعه للحجج ومنطقه شيء من الجدل الفاوستي الشرير. كان ذلك يفزع المشاهدين من البيض ويحطم معارضيه من السود إلا أنه كان يلقى استجابة ملحوظة من المستمعين السود مما جعل مخالفيه من السود يتهربون من مشاركته في النقاش. المستمعون البيض كان ينتابهم خوف ويشعرون أنهم في خطر ويرون في مالكوم الشيطان نفسه، أما في وسط الزنوج فقط كانت هنالك مجموعتان انجذبتا إلى مالكوم وهما الجماهير المسحوقة وتلك النخبة من الكتاب والفنانين الذين بدأوا يظهرون على المستوى القومي. أما الطبقة الوسطى من الزنوج «المؤسسة» فقد كانت تخاف وتحتقر مالكوم مثلما احتقرها هو.

يبجل فقراء الزنوج مالكوم كما يبجل الأطفال الضياع صورة جدهم. كان التمشي مع مالكوم في شوارع هارلم دائماً تجربة فريدة تهز الشعور إذ كان الكل يعرفه وتراهم ينظرون إليه في حياء. أحيانا يهرع إليه بعض اليافعين طالبين توقيعه. كان يبدو لي أن حبهم له نابع من كونه ما زال رجل الشارع مع أنه شخصية قومية ولمعرفتهم أنه لن يخونهم أبداً. لقد عانى الزنوج من خيانات كثيرة ولكنهم رأوا في مالكوم رجل رسالة. كانوا يعرفون عن تاريخ إجرامه وسجله في السجون الشيء

الكثير لأنه لم يخفه أبداً. كانوا يتطلعون إليه بإعجاب لأنه رجل أتى من قاع القاع الذي ما زالوا هم فيه وانتصر على نفسه وجرمه وجهله ليصبح الزعيم القوي والخطيب، وبطلاً شهماً لا يعرف المساومة. وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم لا يشاركونه معتقداته الدينية فإنهم وجدوا في طهارته تزكية لحياتهم. لقد طهر مالكوم نفسه من كل الأمراض التي كانت تنخر في جسم الجماهير الزنجية: المخدرات، الخمور، والتبغ، دعك من الممارسات الإجرامية. كانت حياته الشخصية نقية وطاهرة طهارة غير متاحة للعامة ، أما الخلاص النفسي فقد حققه مالكوم في حياته وكل المجتمع الزنجي كان يعرف ذلك.

على شاشات التلفزيون وفي المحاضرات العامة كان مالكوم يعرض مآسي وآمال وجماهير الزنوج المسحوقة بطريقة لم تكن الجماهير تستطيعها. كان يؤدي لهم بمهاجمته للرجل الأبيض ما لا يستطيعون أن يفعلوه لأنفسهم، إذ أنه كان يتحدث بعنف وغضب يحمل مآسي دهور . أما الكُتَّاب والفنانون الزنوج فقد أجلوا فيه الصدق القاسي الذي يعرض به قضيتهم ورفضه للمساومة وبحثه الدائب عن هوية الزنوج التي حطمها الرجل الأبيض بإحضاره لهم من أفريقيا . كان الكُتَّاب والفنانون الزنوج يرون فيه أداة البعث المنتظر والرجل الذي أعاد الثقة بالنفس للملايين المقهورة. في إحدى المرات كان عدد منهم بمنزلي وكنا نتحدث عن مالكوم وكان إخلاصهم له يهز الشعور . قال أحدهم: « لقد قاسينا من الخيانات طويلاً لكن مالكوم لن يخوننا أبداً» .

تعرضت نظرة مالكوم نحو الرجل الأبيض إلى تغيير ملحوظ في عام ١٩٦٤ أدى إلى انشقاقه عن الإليجا محمد وعن نظرياته العنصرية. كما أدى صعود مالكوم السريع على المستوى القومي إلى احتكاكه برجال بيض لم يكونوا الأشرار الذين تخيلهم. كان الطلب شديداً على محاضراته في جامعات الساحل الشرقي، وكان قد ظهر على منابر كثيرة في الفترة القصيرة التي أصبح فيها شخصيته قومية، وكان يتحدث بشيء من الدهشة والاحترام عن استجابة الطلاب البيض لحديثه. والعامل الثاني الذي أدى إلى التحول في تفكيره كان الشك المتزايد الذي بدأ يساوره عن حقيقة إسلام الإليجا محمد والذي تطور إلى قناعه بزيادة معرفته وتجاربه كما بدأ بعض ممارسات الإليجا محمد الدنيوية تتنامى إلى علمه وصدمته بعنف. وأخيراً قام مالكوم برحلة طويلة إلى مكة والدول الأفريقية حديثة الاستقلال بفضل مجهودات مكتب الجامعة العربية في الولايات المتحدة وبعد زيارته الأولى إلى مكة تيقن مالكوم أنه لم يعرف الإسلام بعد.

أنهت طلقة مغتال حياة مالكوم قبل أن يبلور موقفه الجديد والذي كان يتمثل

أساساً في أن الزنجي عضو كامل في المجتمع الأمريكي على خلاف نظرية الإنْجا محمد. وصل مالكوم إلى منتصف الطريق في بلورة موقفه نحو أمريكا وعلاقة الرجل الأسود بالأبيض. لم يعد يحقد على أمريكا بل على تلك الجماعات في أمريكا التي تمثل العنصرية المفضوحة في الجنوب والعنصرية المستترة في الشمال. كان هدف مالكوم هو أن يرتفع بالنضال الزنجي إلى درجات جديدة موجهة نحو العنصريين في الشمال والجنوب على السواء. وبدأت مشكلة الزنوج التي كان أسماها مالكوم مشكلة الرجل الأبيض، تأخذ أبعاداً جديدة في ذهنه في تلك الشهور الأخيرة من حياته.

وحتى النهاية كان مالكوم يسعى إلى إعادة الصلات المقطوعة بين الزنجي الأمريكي وثقافته الإفريقية. كان يرى في ذلك بعثاً للهوية الجماعية ووعياً بدور الزنوج التاريخي وفوق كل شيء شعوراً ذاتيًا وثقة بالنفس كان قد حطمها الرجل الأبيض.

أدبيات السيرة الذاتية في أمريكا ملأى بأمثلة عديدة لرجال عصاميين بنوا أنفسهم بأنفسهم ولكن ليس من بينها واحدة مؤثرة مثل سيرة مالكوم وكشهادة على قوة الخلاص والشخصية البشرية تبقى سيرة مالكوم وكأنها وحي!





■ الباب الاول

الكابوس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



أخبرتني أمي أنها عندما كانت حاملاً بي هجم ذات ليلة جماعة من فرسان الكلوكلوكس كلان علي منزلنا في اوماها بولاية نبراسكا . أحاطت تلك الجماعة بالمنزل وهي تشهر المسدسات والبنادق ويصرخ أفرادها طالبين خروج أبي لمقابلتهم . قامت أمي نحو الباب الخارجي ووقفت حتى يرو أنها حامل وأخبرتهم أنها وحدها مع صغارها الثلاثة وأن والدي كان بعيدًا يلقي مواعظه في مدينة ميلواكي . حينها صرخ رجال الكلان في وجهها مهددين ومنذرين أن علينا أن نغادر المدينة لأن المسيحيين البيض « الطيبين » لن يقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون علي أبي وهو يثير القلاقل بين زنوج أوماها الطيبين بحديثه ووعظه عن دعوة «العودة لأفريقيا » التي يحتضنها ماركوس جاري .

كان والدي -الأب إيرل لتل – قسًا معمدانيا وداعية مخلصًا « لمنظمة تحسين أوضاع الزنوج العالمية » التي يتزعمها ماركوس جاري . وكان جاري من رئاسته في هارلم يرفع شعار نقاء الجنس الأسود ويدعو جماهير الزنوج للعودة إلي القارة الأم ووطنهم إفريقيا يعاونه في ذلك حواريون مخلصون كأبي وجعلت تلك الدعوة من جاري أكثر رجل أسود مثار جدل في العالم .

ركض رجال الكلوكس كلان بخيولهم حول منزلنا يحطمون زجاج النوافذ بمؤخرة بنادقهم وهم يصرخون ثم ساروا بعيدًا واختفوا في الظلام فجأة كما جاءوا تلمع مشاعلهم من خلفهم .

طاش أبي غضبا عند عودته وقرر أننا سنبقي فقط لحين أن أولد أنا الشيء الذي كان متوقعا بعد حين. ثم تترك العائلة المكان. لا أدري لماذا قرر أبي ذلك لأنه لم يكن زنجيًّا جبانًا مثلما كان الكثيرون من الزنوج حينها وما زال كثيرون كذلك اليوم . كان أبي رجلاً ضخما فارع الطول – ستة أقدام وأربع بوصات ولونه في سواد الفحم كما كانت عينه واحدة وحتى اليوم لا أدري كيف فقد عينه الأخرى . نشأ أبي في مدينة رينولدز بولاية جورجيا حيث ترك الدراسة بعد الصف الثالث أو ربما الرابع وكان يؤمن بما كان يؤمن به ماركوس جارفي بأن الرجل الزنجي لن يحقق أبدًا الحرية والاستقلال واحترام الذات لنفسه طالما بقي في أمريكا ولذا علي الزنوج أن يتركوا أمريكا للرجل الأبيض ويعودوا إلي أفريقيا أرض أجدادهم . من الأشياء التي دفعت أبي إلى أن يغامر بحياته وينشر هذه الأفكار بين قومه هي أنه شاهد أربعة من أخوته الستة يقتلون . ثلاثة منهم علي يد الرجل الأبيض وأحدهم عُلّق من شجرة . ما لم يكن أبي بعلمه حينها أن واحداً فقط من بين ثلاثة الإخوة الباقين علي قيد الحياة سيموت موتاً طبيعياً وذلك هو العم جيم . في مستقبل الأيام أطلق البوليس الشمالي الأبيض الرصاص علي العم أوسكار ثم قتل أبي لاحقاً علي يد الرجل الأبيض .

كنت دائماً أؤمن بأنني أيضاً سأموت مقتولاً يوماً ما ولذا فقد أعددت عدتي لذلك بقدر ما أستطيع.

كنت سابع إخوتي إذ كان لأبي ثلاثة أطفال من زوجته السابقة – (إللا وإيرل وماري) الذين يعيشون في بوسطن. تعرف أبي على أمي وتزوجها في فيلادلفيا حيث ولد طفلهما الأول وأخي الشقيق وِلفرِد. من فيلادلفيا انتقل والداي إلى أوماها في التاسع عشر من مايو ١٩٢٥ وكان عمر والدتي حينها ثمانية وعشرين ربيعاً. ثم انتقلنا إلى ميلواكي حيث وُلد رِيجنالد والذي كان يعاني منذ طفولته من فتاق جعله معاقاً بقية حياته.

كانت أمي – لويز لِتِل – التي ولدت في غرانادا في جزر الهند الغربية تشبه النساء البيض في شكلها ولونها لأن أباها كان رجلاً أبيض. كان شعرها أسود ناعماً ولكنتها لا تشبه لكنة الزنوج. لم أكن أعرف شيئاً عن أبيها الأبيض إلا عارها والتبرؤ منه. وما زلت أذكر كيف كانت تقول : إنها سعيدة لأنها لم تره أبداً. لقد ورثت منها بشرتي البرونزية وشعري البرونزي اللون وكنت في اللون أكثر إخواني قرباً للبياض. (في مستقبل الأيام في نيويورك وبوسطن كنت واحداً من ملايين الزنوج الذين وصلت بهم البلاهة حد الاعتقاد أن لون بشرتهم الفاتح يمنحهم مركزاً اجتماعيًا أعلى، وأنهم لذلك من المحظوظين. ثم بعد سنوات تعلمت أن

أكره كل نقطة من دم المغتصب الأبيض في بدني).

بقيت عائلتنا فترة وجيزة في مدينة ميلواكي لأن أبي كان يبحث عن مكان يمكنه أن يزرع فيه غذاءه بنفسه وربما يبدأ فيه تجارة ما ، لأن فلسفة ماركوس جارفي كانت تؤكد على الاعتماد على النفس والاستقلال عن الرجل الأبيض. انتقلنا بعد ذلك إلى مدينة لانسِنْج في ولاية ميشجان ولا أدري لم اختارها أبي. اشترى أبي منزلاً في لانسينج وبعد مدة قصيرة بدأ كعادته يقوم بالوعظ في كنائس المعمدانيين الزنوج في أيام الآحاد وينتقل أثناء الأسبوع من مكان لآخر ناشراً دعوة جارفي.

بدأ أبي يدخر بعض النقود ليشتري متجراً كان دائماً يحلم به عندما بدأ بعض الزنوج من نوع العم توم (المنافق) كعادتهم في الوشاية به وبأفكاره الثورية عند الرجل الأبيض في المدينة. هذه المرة أتت التحذيرات والتهديدات بترك المدينة من جماعة حقد محلية تسمى « الكتيبة السوداء» والتي كانت تتكون من رجال بيض يلبسون أثواباً سوداء بدلاً من أثواب الكلوكس كلان البيضاء. بعد زمن قصير بدأوا يعترضون أبي في كل مكان وينادونه «بالزنجي المتطلع » ويسخرون من حلمه بامتلاك متجر وبسكنه خارج منطقة الزنج ونشره الأفكار «الخبيثة» بين الزنوج الطيبين.

ومثلما حدث في أوماها حملت أمي مرة ثانية بأصغر أخواتي، يفون، وبعد مولدها بفترة قصيرة تكرر ذلك الكابوس الذي شهدناه في عام ١٩٢٩ وذكراه مازالت حية في ذهني كأولى ذكرياتي. أتذكر كيف انتزعت أنا من مرقدي فجأة لأجد نفسي وسط هلع وضجيج وعويل وأصوات رصاص ودخان وحرائق. كان أبي يصرخ وهو يصوب بندقيته نحو رجلين من البيض وهما يفران بعد أن أشعلا النار. كان بيتنا يحترق من حولنا ونحن نركض ونقفز وتتلاطم أجسادنا ونحن نحاول الخروج والنجاة. بعد ثوان من بلوغ أمي ساحة البيت وهي تحمل طفلها انهار المنزل مشتعلاً من ورائها. أصبحنا خارج المنزل في ملابسنا الداخلية في بكاء وعويل شديدين حينما حضر رجال البوليس البيض ورجال المطافئ ووقفوا يتفرجون على بيتنا يحترق.

تمكن والدي من إحضار ملابس لنا وإقناع بعض أصدقائه بإيوائنا عندهم مؤقتاً قبل أن ننتقل إلى منزل آخر في أطراف مدينة شرق لانسنج. في تلك الأيام لم يكن مسموحاً للزنوج بالظهور بعد حلول الظلام في الجزء الرئيسي من مدينة شرق لانسنج الذي كان موقع جامعة ولاية ميشجان المشهورة. ذكرت كل ذلك بعد عدة سنوات لمنتدى طلابي في تلك الجامعة عندما تحدثت فيها في يناير ١٩٦٣ (كما قابلت فيها

أخي الأصغر – روبرت – لأول مرة بعد سنوات حيث كان يعد دراسات عليا في علم النفس .) حدثتهم عن كيف تحرشت بنا مدينة شرق لانسنج إلى أن اضطررنا للانتقال مرة أخرى وهذه المرة إلى خارج المدينة بمسافة ميلين وداخل الريف. هنا بنى لنا أبي بيديه منزلاً من أربع غرف وهنالك ترعرعت وبدأت أعي الأشياء.

أذكر أن أبي أُستدعي بعد الحريق وسئل عن البندقية التي أطلق منها النار على البيض الاثنين اللذين أشعلا النار، وهل عنده تصريح باقتنائها. كان رجال البوليس يأتون إلى منزلنا من آن لآخر ويدخلون بلا إذن مدعين أنهم فقط في مرور عادي وأنهم يبحثون عن سلاح مفقود ولكنهم لم يعثروا قط على بندقية أبي (التي رفضوا ترخيصها) لأن أمي كانت قد حاكتها داخل وسادة. أما المسدس والطبنجة الصغيرة فكانا في مكان بارز لأنهما كانا لغرض صيد الطيور والأرانب والكل يمتلك مثلهما.

بعد ذلك أذكر الشجار بين أبي وأمي فقد كانا دائماً على خلاف وأحيانًا كان أبي يعنفها ويضربها. ربما كان ذلك بسبب أن أمي كانت امرأة متعلمة والمرأة المتعلمة لا تستطيع أن تمنع نفسها من تصحيح زوجها. كانت حينما تأتيه بتلك الألفاظ المنمقة يهاجمها رأساً.

كان أبي رجلاً عنيفاً مع كل أطفاله إلا معي. كان يضرب كبار إخوتي بعنف إذا خالف أي منهم أوامره وكانت أوامره كثيرة بدرجة يصعب معها معرفتها كلها. كل العقاب الذي لقيته تقريباً مصدره أمي وقد فكرت كثيراً في أسباب ذلك. أعتقد أن أبي مع كراهيته للبيض كان لا شعورياً ينحاز لأطفاله ذوي البشرة الأكثر بياضاً لأن الرجل الأبيض قد غسل مخ السود تماماً. وكنت أنا طفله ذا البشرة الفاتحة اللون. هنالك كثير من الآباء الزنوج يعاملون أطفالهم ذوي البشرة البيضاء لا شعورياً أحسن من معاملتهم للآخرين ويرجع ذلك إلى تقليد العبودية الذي يضع المولاتو (مُوَلَّد) في مرتبة أعلى لأنهم أقرب لوناً للرجل الأبيض وبذا فهم «أفضل ».

أما صورتا أبي الأخيرتين في ذهني فهما له خارج المنزل. إحداهما عن دوره كواعظ معمداني فهو لم يكن واعظاً مرتبطًا بكنيسة معينة بل كان دائماً «واعظاً زائراً ». أذكر على وجه الخصوص موعظته المفضلة « أن القطار الأسود الصغير في الطريق إلينا وخير لكم أن تضعوا أموركم على الصواب ». أظن أن هذه تتناسب مع ارتباطه بحركة العودة لأفريقيا وشعار ماركوس جارفي « القطار الأسود العائد للوطن ». كان أخي فِلْبِرْت الذي يكبرني مباشرة يحب الكنيسة أما أنا فكانت تحيرني وأفكاري مشوشة حيالها. كنت أجلس جاحظ العينين وأنا

أراقب أبي يقفز ويصرخ وهو يعظ والمصلون يقفزون ويصرخون من خلفه بينما أجسامهم وأرواحهم تغني وتصلي. حتى في ذلك العمر اليافع لم أكن أستطيع أن أؤمن بالرؤية المسيحية ليسوع كشخص قدسي ولم يكن بمقدور أي شخص متدين أن يحادثني إلى أن صرت في العشرينات من عمري وكنت حينها في السجن. لم يكن عندي أدنى احترام لممثلي الأديان.

من خلال دوره كواعظ كان لأبي اتصالٌ شديد بزنوج مدينة لانسنج. صدقني حينما أقول أن أولئك الزنوج كانوا أسوأ حالاً في ذلك الوقت ومازالوا كذلك اليوم ولكن بطريقة مختلفة. أعني بذلك أنني لا أعلم عن مدينة أخرى بها هذه النسبة الكبيرة من الزنوج القانعين والمضللين من زنوج « الطبقة الوسطى » — النوع المعروف الذي يجري خلف المركز الاجتماعي واللاهث وراء الاندماج في المجتمع الأبيض. قبل عهد قريب كنت أقف عند مدخل الأمم المتحدة أتحدث إلى دبلوماسي أفريقي وزوجته حينما تقدم مني زنجي قائلاً: « أتعرفني؟ » شعرت حينها بشيء من الإحراج على أساس أنه شخص مفروض فيّ أن أعرفه ولكن اتضح أنه واحد من المتحذلقين المتفاخرين من زنوج « الطبقة الوسطى » في لانسنج. لم أنبهر طبعًا فهو واحد من هؤلاء الزنوج الذين لم يكونوا ليربطوا إسمَهُم بأفريقيا إلا عندما أصبحت موضة مصادقة الأفارقة من علامات المركز الاجتماعي لزنوج الطبقة الوسطى.

في ذلك الوقت كان الزنجي الناجح في مدينة لانسنج هو النادل أو ماسح الأحذية وقمة النجاح أن تكون ساعياً في أحد المتاجر الكبرى في وسط البلد. أما « الصفوة » و « عِلية القوم » ولسان حال المجموعة فهم نادلو نادي لانسنج الاجتماعي وماسحو الأحذية في مبنى البلدية. والزنوج الوحيدون الذين كانت بحوزتهم نقود يعتد بها كانوا ممن يعملون في المراهنات أو في كازينوهات القمار أو الطفيليين الذين يتعيشون من جمهرة الفقراء. في ذلك الزمن لم يكن مصنع عربات الأولدْزْ موبيل أو مصنع عربات ريو في المدينة يستأجر أي زنجي. (هل تذكرون عربات الريو؟ كانت تصنع في لانسنج وكان ر.أ. أولدز — الرجل الذي اسم عربة الأولدز من اسمه — يسكن أيضاً في لانسنج. عند قيام الحرب استأجرت المصانع بعض الزنوج لأعمال النظافة فقط). كانت أغلبية الزنوج تعيش من المعونة الحكومية أو تجوع.

كنا فقراء إلى درجة أن عائلتنا كانت لا تبقي فضلات طعام ولكننا في نفس الوقت كنا أحسن حالاً من أغلب زنوج المدينة لأننا كنا نزرع غذاءنا بأنفسنا في الريف. كنا أحسن حالاً من زنوج البلدة الذين يهتفون أثناء مواعظ أبي يحلمون بالجنة في العالم الآخر بينما يستمتع الرجل الأبيض بجنته هنا على الأرض. كنت

أدرك أن ما يجمعه المصلون لأبي هو مصدر غذائنا وكسائنا الرئيسي بالإضافة إلى الأعمال المتفرقة الأخرى التي كان يؤديها أبي. إلا أن أشد ما كان يشعرني بالفخر هو حملاته الدعائية وخطبه التي تدعو إلى أفكار ماركوس جارفي. بالرغم من حداثة سني كنت أحس أنه يقول كلاماً خطيراً يجعله شخصاً صعب المراس وقد سمعت مرة سيدة عجوز تقول لأبي: « إن ما تقوله يخيف هؤلاء البيض ».

أحد الأسباب التي جعلتني أعتقد أنني كنت ابن أبي المفضل هو ما أذكره من أنني كنت الابن الوحيد الذي يأخذه معه أحياناً لاجتماعات « جمعية جارفي لإصلاح وضع الزنوج » والتي كانت تعقد في منازل مختلفة. لم يكن يحضر هذه الاجتماعات كل مرة سوى عدد قليل لا يفوق العشرين شخصاً ولكن حشرهم في غرفة جلوس كان يجعل العدد يبدو كبيراً. كنت ألاحظ سلوكهم ومع أنهم كانوا نفس الناس الذين يصرخون ويقفزون في الكنيسة إلا أنهم كانوا يتكلمون في تواضع بحذر وذكاء وكان نفس الشعور ينتابني وأنا بينهم.

ما زلت أذكر حديثهم عن : « طرد آدم من الجنة إلى كهوف أوروبا » « وأفريقيا للأفريقيين » و « اصحوا أيها الأثيوبيون » وحديث أبي عن كيف أن أفريقيا قريباً سيحكمها الزنوج، الرجال السود كما كان دوماً يردد. « لا أحد يدري متى ستكون ساعة خلاص أفريقيا. لقد هبت ريحها ! إنها قادمة ويوماً كما العاصفة ستكون هنا ! ».

أتذكر رؤية صورة ماركوس جارفي الكبيرة اللامعة تتبادلها الأيدي وكان أبي دائماً يحمل معه إلى هذه الاجتماعات مجموعة من هذه الصور في مظروف كبير. كانت الصورة تظهر ما يبدو أنه ملايين من الزنوج يسيرون صفوفاً خلف جارفي وهو في عربة أنيقة يرتدي حلة عسكرية لامعة موشاة بالذهب وقبعة ذات أرياش طويلة. كنت أسمع أن له أنصاراً ليس في أمريكا فحسب بل في جميع أنحاء العالم. وفي نهاية الاجتماع كان أبي يقف ويردد جملة معينة يهتف بها الجميع من خلفه: « فلتنهض أيها الجنس القوي وحقق ما تشاء ! ».

لا أدري لِم لم يخطر ببالي أبداً أن أفكر بشعوب أفريقيا السوداء وأنا أسمع مثل هذه الأشياء. كانت صورة أفريقيا في ذهني حينها هي صورة بدائيين عراة وأكلة لحوم البشر، قرود وأسود وغابات كثيفة.

كان والدي يقود عربته السوداء ويأخذني معه أحياناً إلى اجتماعات في أماكن متفرقة في منطقة لانسنج. أتذكر اجتماعًا نهاريًا مرة (كانت أغلب الاجتماعات تتم في الليل) في مدينة أوسو التي تبعد أربعين ميلاً من لانسنج والتي كان الزنوج يسمونها « المدينة البيضاء » (أكثر ما أشهر أوسو هو أنها موطن توماس ديوي زعيم

الحزب الجمهوري). كان محظوراً على الزنوج زيارة المدينة في المساء مثلما كان الأمر في مدينة شرق لانسنج وفي أغلب مدن ولاية ميشجان ولذا كان الاجتماع يتم نهاراً. كان لكل مدينة صغيرة زنوجها المحليون بأعدادهم الصغيرة وأحياناً تكون أسرة واحدة فقط مثلما كان في مدينة ميسون عاصمة المقاطعة وكانت تلك الأسرة هي أسرة ليونز الذي كان نجم كرة قدم مشهور في مدرسة ميسون الثانوية ولذا حظي بشيء من التقدير مكنه من أن يقيم فيها ويشتغل ببعض الأعمال اليدوية التافهة.

كانت أمي لا تهدأ من العمل فهي دائماً تعمل: تطبخ، تغسل، تكوي، تنظف وتشكو من ثمانية أطفال وكانت دائماً إما في جدل مع أبي أو في مقاطعة كلامية معه. كان أحد أسباب الخلاف بينهما هي أنها كانت لا تريد لنا أن نأكل أشياء معينة مثل لحم الخنزير والأرانب الذين كان أبي يحبهم بشدة. كان أبي من زنوج جورجيا الذين يؤمنون بأن نأكل كثيراً مما يسمى اليوم في هارلم « غذاء الروح ».

ذكرت أن أمي هي التي كانت تضربني – على الأقل حينما كانت تصل درجة لا تهتم معها بما يقوله الجيران لأنني كنت دائما وعند أول إيماءة منها بأنها ستعنفني - أصرخ ملء فمي معلناً للعالم الخطر المحدق بي وإذا كان هنالك شخص على مقربة كانت أمي تدعني وحالي أو تضربني ضرباً خفيفاً. حينما أفكر بذلك الآن أعتقد أن نفس السبب الذي جعلني ابن أبي المفضل هو أيضاً السبب الذي جعل أمي تكرهني، ذلك هو لوني الفاتح نسبياً. كانت هي بيضاء البشرة ولكنها كانت تفضل عليّ أبناءها الأكثر سواداً. «ولفرد» كان ابنها المدلل. كانت تقول لي: « اخرج إلى الهواء الطلق ودع الشمس تعطيك لوناً أبهى .» كانت تضغط على نفسها حتى لا أصاب بعقدة العظمة من لوني وأنا متأكد أنها ما عاملتني كذلك إلا أنها لم تنس كيف جاءها ذلك اللون الأبيض.

تعلمت منذ صغري أن الصراخ يأتي بنتيجة . كان إخوتي حين يحضرون من المدرسة ويطلبون قطعة كعك بالزبدة أو شيئاً ما، ترفض أمي بهدوء أما أنا فكنت أصرخ وأقفز إلى أن أحصل على ما أريد. كانت أمي تقول لي لماذا لا تصبح ابناً مطيعاً مثل ولفرد ولكني كنت أقول لنفسي أن طيبة «ولفرد »هي التي تجعله ينام جائعاً. تعلمت في طفولتي أنك إذا أردت شيئاً فعليك أن تثير زوبعة لتحصل عليه.

كانت لنا حديقة كبيرة نربي فيها الدجاج وكان أبي يحضر الفراريج الصغيرة وتتعهدها أمي بالرعاية. كنا جميعاً نحب الدجاج وكان ذلك من الأطعمة التي لا جدال حولها مع أبي. هنالك حادثة خاصة أتذكرها جعلتني ممتناً لأمي لأني عندما سألتها أن تكون لي حديقتي الخاصة رضيت أن تكون لي قطعة صغيرة من

الحديقة. أحببت تلك القطعة وتعهدتها بالرعاية وغرست فيها البازلاء وكم كنت فخوراً حينما أطعمنا منها مرة. كنت أنزع الحشائش من حول البازلاء بيدي وأنثني باحثاً عن الدود والحشرات لأدفنها بجانبها وأحياناً حينما أنتهي من نظافة الحشائش أستلقي على ظهري بين صفوف الزرع شاخصاً ببصري نحو السماء الزرقاء والسحب المتحركة وتمر بذهني شتى الأفكار.

عندما بلغت الخامسة بدأت الذهاب للمدرسة مع «ولفرد ، وهِلْدا ، وفلبرت » حيث كنا نغادر المنزل سوياً في الصباح. كنا نذهب إلى مدرسة بِلِزَنْتْ جروف التي بها من الروضة حتى الصف الثامن والتي كانت تقع على بعد ميلين خارج المدينة. لم تكن هنالك مشكلة في قبولنا لأننا كنا الزنوج الوحيدين في المدينة ولم يكن السكان البيض يمانعون في قبول عدد بسيط من الزنوج لأن ذلك لم يكن يمثل خطراً كبيراً في رأيهم. أما بالنسبة للأطفال البيض فلم يكن ذلك يمثل أمراً عظيماً. كانوا ينادوننا بـ « زنجي » و « الداكن » و « راستوس » بكثرة ظننا معها أن تلك هي أسماؤنا الطبيعية. لم يكونوا يرون في ذلك إساءة بل أمراً طبيعياً اعتادوا عليه.

بعد ظهر أحد أيام عام ١٩٣٩ عدنا أنا وفلبرت وهِلْدا ووِلْفِرْد عندما وجدنا أبي وأمي في إحدى شجاراتهم. في تلك الأيام كان هنالك توتر وإزعاج بسبب تهديدات « الكتيبة السوداء ». أحضر أبي أحد الأرانب من مزرعتنا وطلب من أمي أن تعده للأكل فقد كنا نرعى الأرانب ونبيعها للبيض. أخذ الأرنب من القفص ونزع رأسه بيده إذ أن أبي كان قويًّا لدرجة أنه لم يكن يحتاج لمدية يقطع بها رؤوس الأرانب والفراريج. بقبضة من يده أخذ الأرنب من عنقه ولوى رأسه ثم رمى الأرنب الجريح تحت قدمي أمي. كانت أمي تبكي وهي تسلخ الأرنب ولكن أبي في ثورة غضب خرج ودفع الباب من خلفه بقوة وبدأ السير نحو المدينة. في تلك اللحظة رأت أمي رؤيا إذ أنها كانت امرأة غريبة ذات حدس قوي بما سيحدث كما كان أغلب أطفالها كذلك فيما أظن. كان ينتابني دائماً شعور غريب قبل أن يحدث شيء ما ولا أذكر أن شيئاً حدث من غير أن أتوقعه إلا مرة واحدة. حدث ذلك بعد سنين عديدة حينما انكشفت لي أشياء عن رجل كنت على استعداد قبل ذلك الاكتشاف أن أضحي بحياتي من أجله.

بعد فترة من خروج أبي بدأت أمي تركض نحو الباب وتصرخ باسم أبي: إيرلي إيرلي ! قبضت على مريلتها بيد واندفعت نحو الطريق. التفت أبي ورآها ولسبب ما لوح نحوها بيديه رغم غضبه ولكنه استمر في السير.

أخبرتني أمي بعد ذلك بسنوات أنها رأت نهاية أبي في الرؤيا. قضت أمي بقية

النهار على غير عادتها تبكي في عصبية وحرقة. أكملت أمي طهي الأرنب ووضعته في الجزء الدافئ من الفرن وجلست تنتظر وعندما حان وقت نومنا ولم يعد أبي بدأت أمي تضمنا وتشمنا وانتابنا شعور غريب ونحن لا ندري ما تفعل لأنها لم تفعل مثل ذلك أبداً من قبل. أذكر أنني صحوت على صراخ أمي وحينما قفزت من سريري خارجاً وجدت رجال الشرطة في غرفة جلوسنا وهم يهدئون من روع أمي بينما هي تضع معطفها لتخرج معهم. أما نحن أطفالها فقد كنا نحدق في صمت من غير حاجة لأن نعرف أن شيئاً رهيباً قد ألم بأبينا.

أخذ رجال الشرطة أمي إلى المستشفى ، إلى غرفة يرقد فيها أبي ومن فوقه ملاءة ولم تجرؤ أمي على النظر إليه لأنها كانت تخاف من ذلك. ربما كان من الحكمة أنها لم تنظر ناحيته لأن جمجمة أبي كانت ترقد محطمة في جانب السرير كما أخبروني بعد ذلك. كان زنوج لانسنج دائماً يهمسون أنه قد هُوجم ثم رمي جسده على قارعة الطريق حتى يظن أن عربة الترام دهسته. كان جسده قد قطع إلى نصفين. عاش أبي لمدة ساعة ونصف في تلك الحالة فزنوج ذلك الزمن كانوا أقوى جسداً من زنوج اليوم خاصة زنوج ولاية جورجيا لأن الصراع من أجل البقاء يتطلب ذلك.

كانت الدنيا صباحاً حينما وصلنا الخبر أن أبانا قد مات وكان عمري حينها ست سنوات وما زالت في ذهني صور باهتة لجلبة شديدة والبيت يعج بأناس يبكون ويرددون بمرارة أن «يد الكتيبة السوداء» طالته أخيراً وأمي تهذي في غرفة النوم بينما جمع من النساء يضع النشادر تحت أنفها.

استمرت أمي في الهذيان حتى يوم الدفن وذكرى الجنازة غير واضحة في ذهني ولكن ما أذكره هو أنها لم تكن في كنيسة وذلك شيء غريب أدهشني لأن أبي كان واعظاً وقد رأيته قبلا يلقي مواعظه في الجنائز داخل الكنيسة لكن مراسيم جنازة أبي تمت في مكان حانوتي.

أذكر أيضاً أن ذبابة حطت على وجه أبي أثناء تأدية شعائر الجنازة وكيف قفز «ولفِرْد» من مقعده وهشها بعيداً ثم عاد إلى كرسيه والدموع تجري من عينيه بغزارة. وعندما ذهبنا لنلقي النظرة الأخيرة على أبي في التابوت بدا لي وكأنما وجهه الأسود قد نثر عليه الدقيق وتمنيت لو أنهم لم يفعلوا ذلك.

عند العودة إلى البيت كان هنالك زوار كثيرون استمر سيلهم لحوالي أسبوع بعد ذلك. كان أولئك أصدقاء الأسرة مثل آل ليونز من مدينة ميسون وآل ووكرْز، آل ماكجوير، آل ليكوس، آل جرينز، آل راندولف وآل تيرنر وآخرين من مدينة

لانسنج وأناس من مدن أخرى كنت أراهم في اجتماعات جاري.

تأقلمنا نحن الأطفال على ما حدث بسهولة أكثر من أمنا. كأطفال لم نكن نشعر بما تشعر به هي عن ما يخبئه الغد. وعندما ابتدأ فوج الضيوف يضمحل بعد ذلك بمدة بدأت أمي تفكر في كيفية تحصيل قيمة بوليصتي التأمين اللتين كان أبي دائماً يفخر بأنه قد أمن بهما على حياته وكان دائماً يرى أن الأسر ينبغي أن تحمي نفسها في حالة الموت. تمكنت أمي فيما يبدو من تحصيل قيمة البوليصة الأصغر قيمة ولا أدري كم كانت قيمتها ولكنني أتخيل أن قيمتها لم تكن تزيد عن ألف دولار وربما نصف ذلك المبلغ.

استلمت أمي المبلغ ودفعت جزءاً كبيراً منه لتكاليف الجنازة ثم صارت تذهب إلى البلدة كل يوم وتعود مهمومة. لقد بدأت شركة التأمين التي أصدرت البوليصة الأغلى تماطل في دفع التعويض. كانوا يدعون أن أبي مات منتحراً. بدأت أفواج الزوار تعاودنا مرة أخرى وتتحدث بمرارة عن البيض: كيف يستطيع أبي أن يحطم رأسه ثم يلقي بنفسه تحت عجلات الترام لتجري من فوقه؟!

ذلك ما وجدنا عليه أنفسنا. أم لها أربعة وثلاثون ربيعاً من غير زوج تحتمي به ويرعاها هي وأطفالها الثمانية. غير أن روتين الحياة يستمر وعشنا مستورين إلى أن انتهى مال التأمين الأول. ثم بدأ وِلفِرْد الذي كان ذا وعي يسلك سلوك الكبار. أظن أنه كان يشعر بما يخبئه الغد بينما لم يكن بقيتنا نحن الأطفال نعي ذلك. كان يخرج ويؤدي أي عمل يجده ثم يعود في المساء منهكاً ويعطي أمي كل ما عنده. كذلك بدأت هِلْدا الهادئة تعتني بأخواتها الصغار. أما أنا وفِلْبِرْت فلم نكن نساهم بشيء فقط نتعارك مع بعض في المنزل وفي المدرسة نتعاون في عراك الأطفال البيض. أحياناً يكون سبب العراك عنصرياً وأحياناً نتشاجر معهم لأتفه الأسباب.

بدأ أخي الصغير رِيجْنالد يميل إليَّ منذ أن بدأ يمشي على رجليه واشتد ارتباطنا ببعض. أعتقد أنني كنت استمتع بحقيقة أنه أخي الصغير الذي يتطلع إلي وهو تحت حمايتي. بدأت أمي تقترض لتتحصل على الحاجيات رغم أن أبي كان يكره الاقتراض ويقول إنه الخطوة الأولى نحو الاستدانة ويعيد إلى العبودية. بعد ذلك بدأت تعمل بنفسها. كانت تذهب إلى لانسينج وتبحث عن العمل، أي عمل سواء الخدمة في منازل البيض أو حياكة ملابسهم. لم يكونوا يعلمون أنها زنجية وإلا لما سمح لها كثير من البيض بدخول منازلهم وكانت أمورها تسير على ما يرام إلى أن ينكشف أمرها ويعرفوا من كان زوجها وحينها تفقد عملها. أذكر كيف كانت تعود لنا باكية وتحاول أن تخفي ذلك عنا لأنها فقدت عملاً هي في أمس الحاجة إليه. وأذكر مرة أن أحدنا – لا أذكر من بالضبط – أضطر لأن يذهب لها حيث تعمل

وعندما رآه أصحاب البيت واكتشفوا أنها زنجية طردوها من العمل على الفور وحضرت إلينا تبكي من غير أن تحاول أن تخفي ذلك هذه المرة.

عندما بدأ رجال مصلحة الرعاية الاجتماعية يحضرون إلى منزلنا كنا نراهم يتحدثون إلى أمي ويسألونها ألف سؤال. كانوا يجوبون المنزل وينظرون إليها وإلينا نظرة فيها الكثير وكأننا لسنا بشراً. كانت عيونهم تقول إننا مجرد أشياء وذلك كل ما في الأمر. بدأت أمي تستلم شيكين أحدهما من مصلحة الرعاية الاجتماعية والآخر معاش أرملة وكانت هذه الشيكات تساعد ولكنها لم تكن تكفي مع عددنا الكبير. كانت الشيكات تصل أول كل شهر وأحدهما بالكاد يكفي ديون البقال والآخر لم يكن يبقى طويلاً قبل أن ينفذ. بدأنا في التدهور بسرعة مادياً ونفسانياً إذ أن أمي كانت امرأة ذات كبرياء وصعب عليها قبول الصدقة وانتقل ذلك الشعور إلينا.

كانت أمي تجادل البقال بشدة لتضخيمه الفاتورة مخبرة إياه بأنها ليست جاهلة ولم يكن البقال يحب ذلك. كانت أيضاً ترد بعنف على موظفي الرعاية الاجتماعية قائلة لهم إنها امرأة ناضجة تقدر على تربية أولادها وليس ثمة ما يدعو إلى زياراتهم المتكررة وتدخلهم في شؤون حياتنا ولم يستحسن موظفو الرعاية ذلك أيضاً. إلا أن شيك الرعاية الشهري كان تحت تحكمهم لو أرادوا لحرمونا منه بطريقة ما، ولذا كانوا وكأنما نحن ملكهم الخاص. كم كانت أمي تود أن تمنعهم من المجيء إلى بيتنا ولكنها كانت عاجزة عن ذلك. كان أشد ما يسوؤها هو إصرارهم على الانفراد بنا نحن أبناءها الصغار، كل على حدة، ثم يبدءون يسألوننا عن أشياء أو يقولون لنا أشياء ضد أمنا أو ضد بعضنا البعض.

ما لم نكن نفهمه هو، إذا كانت الدولة على استعداد لمنحنا اللحم والبطاطا والفواكه وجميع أنواع المعلبات لماذا تكره أمنا كل ذلك. لم نكن وقتها نعي ولكن عندما كبرنا عرفنا أنها كانت تحاول يائسة أن تحمي كبرياءها وكبرياءنا.

كان وِلْفِرْد يعمل وكذلك كانت أمي تعمل عندما تجد عملاً، أي عمل. كان هنالك مخبز في لانسينج يمكنك أن تشتري منه بنكلة كيساً طويلاً من الخبز البائت الذي كنا نحمله أنا وأخي ونمشي به مسافة ميلين إلى البيت. كانت أمي تعرف ألف طريقة وطريقة لتطبخ بها أو معها الخبز: صلصة الطماطم بالخبز، ما يشبه توست فرنسية، خبز باللبن مع الزبيب وإذا كانت عندنا شرائح لحم كنا نأكل خبزا بالشرائح. أما بعض الكعك الذي كنا نجده في كيس الخبز، فكنا نلتهمه مباشرة. ولكن كانت تمر علينا أوقات لا نجد فيها حتى تلك النكلة وكان

الجوع يشتد بنا إلى درجة الدوار وحينها تغلي أمنا نبات الطرخشوق لنأكله. ويسخر منا الأطفال بأننا أكلنا حشائش مشوية. في بعض الأحيان وإذا كان حظنا جيداً كنا نأكل عصيدة الحنطة ثلاث مرات في اليوم أو عصيدة في الصبح وخبزاً من الذرة في المساء.

بعد مدة كنا أنا وفِلْبِرت قد كبرنا بما فيه الكفاية لنترك الشجار ونحمل بندقية والدنا لنصطاد بها الأرانب التي نبيعها لبعض البيض القريبين وأنا أعلم الآن أنهم إنما كانوا يشترونها منا تصدقاً فقط لأن كل أهل البلدة كانوا يصطادون بأنفسهم. وكنا أحياناً نأخذ معنا رِيجْنالد الصغير الذي لم يكن عوده قد اشتد بعد ولكنه كان فخوراً بحضوره معنا. كنا أيضاً نصطاد الجرذان عند الجدول خلف المنزل كما كنا أيضاً نرقد في صمت عند الجدول إلى أن تظهر ضفدعة مطمئنة فننقض عليها ثم نقطع أرجلها ونحملها لنبيعها لبعض البيض مقابل نكلة لكل زوج منها. البيض لا يضعون أية حدود على ما يأكلون فيما يبدو!

فجأة في أواخر عام ١٩٣٤ بدأت تحدث أشياء. بدأ التدهور النفساني يلف العائلة وبدأت كبرياؤنا تتآكل ربما بسبب معايشة الفقر اليومية. كنا في الماضي نعرف عن عائلات تعيش على المساعدة الحكومية وكنا نفخر بأننا لسنا منهم وأننا لا نقف في طابور الخبز المجاني ولكننا الآن صرنا منهم وفي المدرسة بدأنا نسمع الهمهمة عن وضعنا وأحياناً كنا نسمعها واضحة. وفي البيت كان يبدو أن كل طعامنا عليه خاتم حكومي « ليس للبيع » حتى كدنا نعتقد أن علامة « ليس للبيع » إنما هي ماركة تجارية بينما كانت الحكومة تضعها حتى لا يبيع التجار طعام المعونة الحكومية.

أحيانًا بعد انتهاء المدرسة كنت أذهب إلى لانسنج بدلاً من أن أذهب للبيت. كنت أجوب السوق من متجر إلى آخر حيث تعرض السلع مثل التفاح في صناديق وبراميل وسلال وكنت أراقب وانتظر فرصتي وأسرق تفاحة واحدة. أو كنت أقوم بزيارة أسرة نعرفها قبل وقت العشاء وكنت أعلم أنهم يعلمون سبب مجيئي وعادة لا يخيبون آمالي بل كانوا يطلبون مني البقاء لتناول طعام العشاء وحينها كنت أملأ شر وعاء. أما أكثر أسرة كنت أحب زيارتها فهي آل يوهاناس. كانا رجلا وامرأة طيبين ومتقدمين في السن ومتدينين. كنت أشاهدهم يقفزون ويصرخون أثناء موعظة أبي في الكنيسة وكان يسكن معهم ابن أخ لهم يتعهدونه بالرعاية ولقبه « الواد الكبير » وكنت أنا وهو على وفاق. كانت تسكن معهم أيضاً امرأة تدعى مسز أدكوك ترافقهم إلى الكنيسة وكانت امرأة طيبة ذات مروءة تزور المرضى وتحمل لهم الهدايا. قالت لي تلك السيدة جملة لم أنسها أبداً: « هنالك شيء واحد يعجبني فيك. مع أنك شاب لا فائدة

ترجى منه لكنك لا تحاول أن تخفي ذلك. انك لست بمنافق».

مع ازدياد بقائي خارج البيت وازدياد زياراتي للناس وسرقتي من المتاجر، ازدادت ميولي العدوانية. أصبحت لا أطيق الصبر حتى أحصل على ما أريد. كذلك بدأ نموي يتسارع – النمو الجسدي أكثر من العقلي – بدأ الناس يعرفونني في جوانب البلدة المختلفة ثم بدأت أشعر بنظرة غريبة نحوي من جانب البيض وبدأت أحس أن لذلك علاقة بأبي. بدأت أسمع ما كنت أسمعه وأنا في المدرسة، فقط هذه المرة من الكبار. بدأ ذلك بالإيحاء والإيماءة أولاً ثم الهمهمة وأحيانا بصريح العبارة. كانوا يلمحون إليّ أن « الكتيبة السوداء » هي التي قتلت أبي وأن شركة التأمين قد مكرت على أمي برفضها دفع التعويض.

عندما تم ضبطي وأنا أسرق أكثر من مرة بدأ رجال مصلحة الرعاية يركزون عليّ في زياراتهم لمنزلنا. لا أذكر متى أدركت أنهم يتكلمون عن أخذي بعيداً ولكن أول ما أذكره في هذا الخصوص هو هيجان أمي فيهم قائلة أنها قادرة على تنشئة أبنائها. كانت تجلدني بالسوط عندما أسرق فكان صراخي يملأ الحي إلا أن ما أفخر به حتى اليوم هو أنني لم أمد يدي متحديًا لها أبداً.

في ليالي الصيف كنا نحن صبيان المنطقة نفعل أشياء كثيرة مثل الذهاب إلى المزارع وسرقة البطيخ. يربط البيض دائماً بين البطيخ والزنوج وأحياناً كانوا يسمون الزنوج بـ «كونز» وبذا أصبحت سرقة البطيخ « كونزتها » وإذا سرق الصبيان البيض البطيخ فهم إنما يحاكون الزنوج في نظر آبائهم. هكذا البيض دائماً يبررون أخطاءهم بلوم الزنوج والسخرية منهم.

في إحدى المرات في عشية « عيد جميع القديسين » (هالوين) خرجنا نحن مجموعة من الصبية نقلب المراحيض الريفية القديمة وكان هنالك مزارع عجوز – يبدو أنه شرب مقالب كافية – أعد لنا مصيدة . كانت الفكرة أن نتلصص من خلف المرحاض ثم ندفعه كمجموعة حتى ينقلب. أزال هذا المزارع المرحاض من فوق الحفرة ووضعه على مقدمتها ثم جئنا نحن نتلصص من خلف المرحاض يقودنا اثنان من الصبيان البيض وكان أن غطسوا في الحفرة حتى أعناقهم. كانت رائحتهم منفرة لدرجة أننا بالكاد استطعنا أن نخرجهم منها. هكذا انتهى عيد الهالوين بالنسبة لنا وكنت أنا محظوظاً إذ أنني كدت أنزلق في الحفرة التي وقع فيها الصبيان البيض. لقد اعتاد البيض على القيادة لدرجة أنها أوقعتهم في حفرة هذه المرة.

وهكذا تعلمت أشياء كثيرة وبطرق مختلفة. كنت مثلاً أذهب إلى المزارع وأقطف الفراولة وفي إحدى المرات عملت طوال يوم كامل أعطوني في نهايته دولارا والذي كان ثروة كبيرة بالنسبة لي. كنت جائعاً أسير نحو البلدة ممنياً النفس

بوجبة شهية حين أتى صوبي صبي أبيض يدعى رتشارد دكسون أكبر مني عمراً وسألني إن كنت أود أن ألعب « طرة – كتابة » وأعطاني عشرين نكلة صرفا لدولاري ثم بدأنا نلعب وفي نصف ساعة استعاد كل نكلاته ودولاري وبدلاً من أذهب للبلدة لشراء شيء ما، عدت إلى البيت خالي الوفاض أشعر بمرارة. زاد حنقي أكثر عندما علمت بعد ذلك بمدة أنه كان يغش. هنالك طريقة يمكن بها رمي القطعة المعدنية حتى تقع دائما على الوجه الذي يريده راميها وإذا رأيت شخصا يكسب دائماً فاعلم أنه لا يقامر بل يغش. في مستقبل الأيام كنت إذا وجدت نفسي أخسر دائماً في لعب القمار أبدأ بمراقبة اللاعب الآخر بدقة. ذلك هو حال الزنوج في أمريكا حيث يشاهدون الرجل الأبيض وهو يكسب طول الوقت فالرجل الأبيض مقامر محترف وقد رتب اللعبة حتى يكسب هو ونخسر نحن الزنوج.

في حوالي هذا الوقت بدأ يزور أمي بعض أنصار المذهب السبتي الذين سكنوا في منزل قريب منا وكانوا يتكلمون بالساعات عندما يحضرون ثم يتركون الكتب والمنشورات والمجلات من ورائهم لتقرأها أمي. كانت أمي تقرأها وكذلك أخي وِلفِرْد الذي كان قد عاد للمدرسة بعد أن بدأنا نتلقى الإعانة الغذائية. كان رأس ولفرد دائما غارقاً بين دفتي كتاب. بدأت أمي تقضي وقتاً طويلاً مع السبتيين وأعتقد أن ما جذبها نحوهم هو قيودهم على الطعام التي كانت تفوق قيودها. كانوا مثلنا لا يقربون لحم الخنازير والأرانب إذا أنهم كانوا يتبعون المذهب الموسوي. كانوا لا يأكلون لحم حيوان ليس له ظلف مشقوق أو غير مجتر. بدأنا نذهب مع أمي لاجتماعات السبتيين التي كانت تعقد بعيداً في الريف. وكان أكثر ما يجذبنا كأطفال هو طعامهم الشهي ولكننا كنا نصغي أيضاً لما يقولون. كنا نجد عدداً من الزنوج إلا أن الأغلبية العظمى كانت من البيض. يعتقد السبتيون أن زمننا هذا هو آخر الزمان وأن نهاية العالم قد قربت ولكنهم أيضاً كانوا بشوشين وأطيب من رأينا من البيض. وقد بدأنا نلاحظ كيف يختلفون عنا ونتكلم عن ذلك عندما نعود إلى المنزل وكيف أن طعامهم ماسخ وليست به بهارات وأن لهم رائحة مختلفة.

في غضون ذلك كان ضباط الرعاية وراء أمي التي لم تعد تخفي كراهيتها لهم وعدم رغبتها في حضورهم، ولكنهم استغلوا حقهم القانوني في المجيء وكنت قد بدأت أفكر في طريقة كلامهم معنا وبذور التفرقة التي بدأوا يبثونها بيننا. كانوا يسألون: أنت أشطر أم أخوك؟ أو لماذا أنت مختلف عن الآخرين؟ أعتقد أنهم كانوا يرون أن حل «مشكلتنا » هو في وضعنا نحن الأطفال في بيوت تتبنانا وأن تلك هي مهمتهم وعندما عارضت أمي ذلك بشدة بدأوا يطاعنونها. كنت أنا أول هدف لهم، أنا أسرق فإذن أمي لا تقدر أن تعتني بي. كنا كلنا أطفالاً أشقياء في وقت أو آخر وأنا أكثر شقاوة من

الآخرين وكان ذلك من الأشياء الكثيرة التي بدأت تثقل كاهل أمي.

لا أدري متى بدأت الفكرة تخرج من أفواه موظفي الرعاية وهي أن أمي بدأت تفقد عقلها ولكني أذكر بوضوح وصفهم لأمي بأنها « مجنونة » حينما رفضت أن تقبل لحم الخنزير الذي قدمه لنا مزارع زنجي من الجيران. كان خنزيراً كاملاً وربما اثنين ومع ذلك رفضتهم. سمعناهم يقولون لها « مجنونة » في وجهها لرفضها لحماً جيداً . لم يستطيعوا أن يفهموا حتى عندما أوضحت لهم أنها لم تأكل لحم الخنزير في حياتها وأن ذلك محرم في دينها كمؤمنة بالمذهب السبتي. كانوا في وحشية النسور بدون شعور أو تفهم أو رحمة واحترام لأمي. قالوا لنا: « إنها مجنونة لأنها رفضت الطعام» في تلك اللحظة بدأ بيتنا ووحدتنا في الانهيار. بدأ الزمن الصعب وأنا لا نفع مني مع أنه كان بإمكاننا الصمود والبقاء مع بعضنا البعض. ومع كل سيئاتي وكل المشاكل والقلق الذي سببته لأمي، كنت أحبها.

اكتشفنا بعد مدة أن المسؤولين قد قابلوا عائلة يوهاناس وتحدثوا معهم بخصوصي ووافق آل يوهاناس على أخذي عندهم وجن جنون أمي حينما علمت بذلك مما جعل رجال الرعاية يختفون لمدة بعد ذلك. في غضون ذلك بدأ يزورنا في البيت رجل أسود ضخم من أهالي لانسينج. لا أعرف كيف ومتى تعرف إلى أمي وربما كان ذلك قد تم بواسطة صديق للطرفين ولست أذكر ماذا كانت مهنته لأن الزنوج في ذلك الزمن لم يكن لهم ما يمكن أن يسمى مهنة. غير أن الرجل كان أسود ضخماً يشبه أبي إلى حد كبير ولا داعي لذكر اسمه الآن. كان عازباً أمام أرملة عمرها ستة وثلاثون عاماً وحراً طليقاً ومن الطبيعي أن ذلك أعجب أمي لأنها لم تكن تقدر على تأديبنا بمفردها ومجرد وجود رجل كبير سيساعد في ذلك حتماً وإذا كان يعيل أيضاً فسيبعد ذلك عنا رجال الرعاية الاجتماعية.

كلنا تفهمنا ذلك من غير أن نقول أو على الأقل لم نعترض – تقبلنا الأمر بغير تردد وحتى بشيء من الدعابة فيما بيننا لأننا كنا نلحظ أن أمنا تتهيأ لزيارته لنا بالزينة ولبس أحسن ما عندها فهي ما زالت مليحة الشكل كما أن سلوكها كان يختلف إذ تصبح ضاحكة وسعيدة ، الشيء الذي أصبح نادراً. استمر ذلك لمدة عام فيما أظن وفجأة في سنة ١٩٣٦ أو ١٩٣٧ نبذ الرجل أمنا ولم يعد يزورنا وفهمت فيما بعد أنه انسحب هرباً من مسؤولية إطعام ثمانية أفواه. وحتى الآن أنا مقدر لموقف أمي والمعضلة التي وقعت فيها فقد كنا عبئاً ثقيلاً كما أنني متفهم لهروب ذلك الرجل من تبني مسئوليتنا. إلا أن ذلك كان صدمة شديدة لأمي. كانت بداية النهاية لها. بدأت تحادث نفسها وهي جالسة أو ماشية وكأننا لسنا من حولها وكان الأمر يسوء من يوم إلى يوم.

حينما رآها موظفو الولاية تضعف بدأوا في اتخاذ الخطوات العملية لأخذي من المنزل وصاروا يحدثونني أنني سأكون سعيداً ومرتاحاً مع آل يوهاناس وأنهم هنالك بما فيهم مسز أدكوك « والواد » الكبير يحبونني ويتمنون أن آتي لأعيش معهم. وقد كنت فعلاً أستلطفهم ولكنني لم أكن أريد ترك أخي ولفرد فقد كنت معجباً بأخي الأكبر. لم أكن أود أن أترك هِلدا التي صارت أمي الثانية أو فلبرت الذي يعاني من الفتاق والذي كان يتطلع إليَّ كأخيه وحاميه مثلما كنت أتطلع أنا إلى ولفرد. كذلك لم يكن هنالك ما يجعلني أترك أخوتي الأطفال يفون، وزِلي وروبرت.

أصبحت أمي تتحدث إلى نفسها أكثر فأكثر وقلت استجابتها لنا كما قل شعورها بالمسئولية. أصبح المنزل أقل ترتيباً ومظهرنا فوضويًا بينما صارت هلدا تطبخ الطعام لنا. بدأنا نحن الأطفال نراقب مرساة سفينتنا تخذلنا. كان شيئاً رهيباً لا تستطيع أن تضع يدك عليه ولا مهرب منه. كنا نشعر أن شيئاً مريعاً سيقع وبدأنا نحن الصغار نستند أكثر وأكثر على تماسك ولفرد وهيلدا ، إخوتنا الكبار.

أخيراً أُرسلت إلى منزل آل يوهاناس وكنت ظاهرياً سعيداً. مازلت أذكر أنني وأنا أغادر المنزل مع موظفي الولاية ، سمعت أمي تقول شيئاً واحداً : « لا تدعهم يطعمونهم أي خنزير!» من جهة أخرى كان الوضع عند آل يوهاناس أفضل . شاركت « الواد » الكبير غرفته وبدأت بيننا صداقة. لكنه لا يمكن أن يقوم مقام إخوتي. كان آل يوهاناس متدينين وكنا أنا والفتى الكبير نصحبهم إلى الكنيسة. كانوا ورعين وينتمون إلى « الموجة المقدسة » حيث كان الواعظ والمصلون في الصلاة يقفزون عاليًا ويصرخون أكثر من المعمدانيين الذين أعرفهم. كانوا يغنون بأعلى أصواتهم وتتمايل أجسامهم يميناً ويساراً ويئنون ويضربون الدف وينشدون. كان الجو في الكنيسة عند الصلاة غريباً مع الأشباح والروحانيات تملأ الجو عندما خرجنا كلنا قاصدين البيت.

آل يوهاناس ومسز أدكوك كانوا يحبون صيد السمك ويأخذونني أنا و«الواد» الكبير معهم بعض أيام السبت لنخرج للصيد. كذلك انتقلت إلى مدرسة جديدة هي ثانوية غرب لانسنج الصغرى التي كانت تقع في وسط حي الزنوج وبها عدد قليل من الطلبة البيض لكن الفتى الكبير وأنا لم نكن لنختلط مع الطلاب الآخرين. كما كنا والفتى الكبير حينما نخرج نصطاد آل يوهاناس نضجر من مجرد الجلوس وانتظار السمك حتى يقرض الطعم أو يهز الصنارة وكنا نرى أنه لابد أن تكون هنالك طريقة أحسن لصيد السمك لكننا مع الأسف لم نكتشف تلك الطريقة.

كانت لمستر يوهاناس صداقات قوية مع رجال آخرين يخرج معهم أحياناً في أيام السبت لصيد الأرانب ويأخذوننا أنا والفتى الكبير معهم وكنت آخذ معي بندقية

أبي التي سمحت لي أمي بالاحتفاظ بها. كانوا يصيدون باستراتيجية معينة فالأرانب حينما يطاردها كلب تجري غريزيًّا في دائرة مما يعني أنها ستمر آجلاً أو عاجلاً بنفس النقطة التي بدأت منها وهنا يختبئ الرجال في انتظار الأرانب تمر في تلك النقطة ثم يصوبون نحوها. فكرت في ذلك وخطرت لي خطة كنا بمقتضاها ننفصل أنا والفتى الكبير عنهم وننتظر الأرانب في نقطة يمر بها الأرنب قربنا قبل أن يصل قرب مكانهم. ونجحت خطتي كالسحر وصرت أرمي ثلاثة وأربعة أرانب قبل أن يتحصلوا هم على واحد والمدهش أن أيا من الرجال لم يفهم لماذا نتحصل نحن على صيد أكثر منهم. كانوا يصرخون إعجاباً بي وكان عمري حينها حوالي اثنتي عشرة سنة. كل ما فعلته هو أنني طورت إستراتيجيتهم وكانت بداية درس مهم لي جداً في الحياة وهو أنه طالما كان هنالك شخص يبزك بينما أنتما في نفس المجال فاعلم أنه يعمل شيئاً فات عليك فابحث عن ذلك الشيء.

كنت أقوم بزيارة بيتنا كثيراً وأحياناً يأتي معي « الواد » الكبيرو/ أو أحد آل يوهاناس وكان اصطحاب شخص معي يسرني لأن الزيارة تصبح أقل إيلاماً للنفس بذلك.

بعد مدة قصيرة بدأ رجال مصلحة الرعاية الاجتماعية يخططون لأخذ بقية إخوتي والحاقهم ببيوت أخرى وبدأت حالة أمي تزداد تدهوراً وصارت تتحدث إلى نفسها طوال الوقت كما بدأ جمهور من الرجال البيض يزور بيتنا ويسألون جميع أنواع الأسئلة. كان بعضهم يزورونني عند آل يوهاناس ويسألونني في البلكونة، في الصالة أو هم جلوس في سياراتهم. في النهاية أصيبت أمي بانهيار تام ووقع القاضي باسمه على الأمر القضائي الذي بموجبه أخذوا أمي إلى مستشفى الأمراض العقلية في مدينة كالامازو في ولاية ميشجان التي تبعد حوالي سبعين ميلاً من لانسنج وحوالي ساعة ونصف ساعة (بالبص). أصبح لقاضٍ يدعى ماكلان في لانسنج سلطة على وعلى إخوتي وأصبحنا « أبناء الحكومة » وله مطلق السلطة علينا. رجل أبيض له سلطة على أطفال رجل أسود! ليس ذلك إلا عبودية حديثة مقننة مهما حسنت النوايا.

بقيت أمي في نفس المستشفى لما يقارب ستة وعشرين عاما. كنت أنا في ميشجان أذهب لأزورها الفنية بعد الفنية وليس هنالك شيء هزني بعمق مثلما هزتني حالتها في المستشفى. (في عام ١٩٦٣ أخرجناها من المستشفى وهي اليوم تعيش في لانسنج مع أخي فلبرت وأسرته.) كانت حالتها أسوأ مما لو كان مرضها عضوياً لأنه في تلك الحالة ربما عُرف سبب الداء وعرف له دواء أو علاج. كنت كل مرة حينما يأخذونها عند نهاية الزيارة، أراها وقد أصبحت مجرد حالة أو رقم ويزداد أساي بذلك.

كانت آخر زيارة لي وأنا أعلم أنها ستكون آخر مرة أزورها هنالك، عام ١٩٥٢

وكان عمري حينها سبعة وعشرين عاماً. أخبرني أخي فلبرت أنها تعرفت عليه نوعاً ما وفي لحظات متقطعة عند آخر زيارة له لكنها لم تتعرف عليّ مطلقاً.

فقط حملقت فيّ ولم تعرف من أنا.

كان ذهنها في مكان آخر وأنا أتحدث إليها وأحاول الوصول إلى عقلها. قلت لها: «أماه ! أتعرفين أي أيام الأسبوع هذا اليوم ؟ » قالت وما زالت تحملق فيّ : « كل الناس قد ذهبوا .»

لا أستطيع أن أصف شعوري. المرأة التي أتت بي إلى هذا العالم، التي رعتني ونصحتني وغسلتني وأحبتني، لا تعرفني! كنت كمن يحاول أن يطلع جبلاً من ريش . أنصتُ إليها « تتحدث » ولكن لم يكن بإمكاني أن أعمل شيئاً.

إنني أؤمن بحق أنه إذا كانت هنالك أسرة حطمتها وكالة حكومية، فقد كانت تلك أسرتنا. لقد أردنا وحاولنا أن نبقى سويًّا ولم يكن هنالك ما يدعو إلى هدم بيتنا ولكن الوكالة والمحاكم والطبيب أعطونا الضربات القاضية وليست حالتنا هي الوحيدة من نوعها.

كنت أعلم أنني لن أعود لرؤيتها مرة أخرى لأن ذلك سيجعل مني شخصاً متوحشاً وخطيراً لما أعلمه من نظرتهم إلينا كمجرد أرقام، مجرد حالة في دفاترهم وكأننا لم نكن بشراً. ولعلمي أن أمي لم تكن لتصبح مجرد إحصائية لولا فشل المجتمع والنفاق والجشع وفقدان الرحمة والعطف. لم تبق لدى رحمة أو تعاطف مع مجتمع يسحق البشر ثم يعاقبهم لأنهم لم يستطيعوا تحمل الضغط.

لم أكن أتحدث عن أمي مع أي شخص إلا نادراً لعلمي أنني قد أقتل أي شخص بدون تردد لأي ملاحظة غير كريمة قد يتفوه بها أحدهم عن أمي. لذلك وعن عمد لم أكن أفتح الموضوع مع أي شخص.

عندما تحطمت أسرتنا في عام ١٩٣٧ سمحوا لولفرد وهلدا أن يبقيا في المنزل ذي الأربع غرف الذي بناه أبي لبلوغهما سن الرشد. أما فلبرت فقد وضعوه مع أسرة أخرى في لانسنج تدعى السيدة هاكت بينما وضع رِيجنالد ووزلي مع أسرة أخرى تدعى آل ويليامز الذين كانوا من أصدقاء أمي كما أخذت يفون مع روبرت ليعيشا مع أسرة أصلها من جزر الهند الغربية تعرف بآل ماكجوير. ومع أننا كنا منفصلين فقد كنا على اتصال وثيق ببعضنا البعض، في لانسنج، في المدرسة وخارجها وحيثما سنحت لنا الفرصة وبالرغم من الحواجز الاصطناعية والبعد فقد استمررنا في تعاطفنا وحبنا لبعضنا البعض.



■ الباب الثاني

جالب السعد

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



في السابع والعشرين من يونيه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف انتصر جولويس على جيمس ج. برادوك بالضربة القاضية ليصبح بطل العالم في الملاكمة وطار الزنوج في لانسنج وفي كل مكان من الفرح في أكبر احتفال بعزة الجنس عرفه جيلنا. أصبح كل صبي زنجي يحلم بأنه سيصبح البطل القادم ولم يكن أخي فلبرت، الذي أصبح ملاكماً جيداً في المدرسة، يختلف في ذلك. (أما أنا فكنت أحاول لعب كرة السلة نسبة لطول قامتي ولكني لم أنجح فيها). في خريف ذلك العام دخل فلبرت منافسات الهواة التي كانت تعقد في إستاد بردون بلانسنج. كان أداؤه جيدا واجتاز التصفيات الصعبة وكنت أذهب إلى الإستاد لأتفرج عليه في مباريات مثيرة. ربما وبدون أن أدري كنت أغار منه في سري. لم أكن أحب أن أرى إعجاب أخي الصغير ريجنالد بي يتحول تدريجياً إلى فلبرت.

كان الناس يثنون على فلبرت ويقولون إنه ملاكم بالطبيعة وبما أننا من نفس العائلة ظننت أن بإمكاني أن أصبح ملاكماً أيضاً ولذا نزلت إلى الحلبة. كان عمري ثلاثة عشر ولكن مع طولي وهيكلي الجسمي قلت: لهم إن عمري ستة عشر أي الحد الأدنى للتسجيل وكان أن صنفوني في درجة وزن الديك لأن وزني كان ١٢٨ رطلاً وضعني الاختيار مع صبي أبيض مبتدئ مثلي يدعى بيل بيترسون والذي لن أنساه أبداً. عندما جاء دورنا في مباريات

الهواة كان كل أخوتي وأي شخص أعرفه تقريباً هنالك وقد أتوا ليس بسببي ولكن لأني شقيق فلبرت الذي بدأ صيته يذيع.

نزلت ماشياً بين الجموع التي ملأت المقاعد ودخلت إلى الحلبة. نودي على اسمي واسم بيل بيترسون وتم تقديمنا للجمهور ثم نادانا الحكم وقال كلاماً عن ضرورة اللعب النظيف ثم ضرب الجرس وترك كل منا ركنه وقمنا للمعركة. كنت خائفاً ولكن ما لم أكن أعلمه هو أن بيل بيترسون كان خائفاً أيضاً كما قال لي بعد ذلك. كان خائفاً أنني سأؤذيه إلى الدرجة التي لكمني فيها إلى أن أطاحني أيضاً بالضربة القاضية.

أشان فعله ذلك سمعتي لدرجة أنني اختبأت عمليًّا من الناس. لا يمكن لزنجي أن يدع أبيض يهزمه ثم يعود إلى الحي مرفوع الرأس خاصة في تلك الأيام عندما كانت الرياضة وعالم الفن هما المجالان الوحيدان المفتوحان أمام الزنوج وكانت الملاكمة هي المجال الوحيد الذي يستطيع فيه الزنجي أن يهزم الرجل الأبيض بدون أن يشنقوه. عندما ظهرت مرة أخرى سخر مني معارفي من الزنوج لدرجة عرفت معها أن علي أن أفعل شيئاً ما. أما أسوأ إذلال لي فكان موقف أخي فلبرت: فهو لم يذكر المباراة أمامي أبداً. كان شعوره نحوي ظاهراً في كونه يتحاشى النظر إلي. لذلك عدت إلى الإستاد وأصبحت أتدرب بعنف. كنت أضرب الأكياس وأقفز على الحبل وأجري .. إلخ. وأخيراً ذهبت وسجلت اسمي لمنازلة بيل بيترسون وفي هذه المرة تقرر أن تعقد المباراة في مدينة إلما موطن بيترسون.

كان الشيء الوحيد الجميل في المباراة الثانية هو أنه لم يكن هنالك بالكاد شخص يعرفني وكنت على وجه الخصوص سعيداً لعدم وجود ريجنالد. ومع بداية المباراة رأيت قبضة في الجو ثم أرض الحلبة وبعد عشر ثوان سمعت صوت الحكم يقول: « عشرة! » من فوقي. ربما كانت تلك أقصر مباراة ملاكمة في التاريخ. كنت منبطحاً أسمع الحكم ينادي بالعدد ولا أستطيع حراكاً وفي حقيقة الأمر لم أكن أريد التحرك.

كانت تجربتي مع ذلك الصبي الأبيض هي بداية ونهاية تجربتي في ميدان الملاكمة وفي كثير من المرات بعد أن أصبحت مسلماً كنت أفكر فيها وأقول لنفسي تلك إرادة الله أوقفتني إذ لربما جرحت أو تشوه وجهي لو استمررت.

بعد ذلك بمدة وأنا في المدرسة دخلت الصف الدراسي وقبعتي على رأسي بدلاً من أن أزيلها من رأسي كما هو مفروض فما كان من المدرس الذي كان أبيض إلا أن أمرني أن أستمر أتمشى بين الصفوف وقبعتي على رأسي. « بتلك الطريقة يستطيع كل شخص رؤيتك بينما نحن مستمرون في دراستنا حتى يستطيع من يود التعليم أن

يتعلم .» هذا ما قاله الأستاذ. كنت ما زلت ماشياً حينما قام الأستاذ من درجه واستدار نحو السبورة ليكتب شيئاً ما عليها. كان الكل ينظرون حينما اتجهت أنا في تلك اللحظة إلى مقعده وخطفت دبوساً ووضعته على مقعده وحينما استدار نحو كرسيه كنت أنا بعيداً عن مسرح الجريمة أدور في مؤخرة الغرفة. وحينما جلس سمعته يصرخ ولَحَظته يقفز وأنا أهرب من الباب.

مع مثل هذا السجل لم أصدم عندما ظهر قرار فصلي من المدرسة. ظننت أنها ستكون فكرة مبهجة لي وهي أنني إذا لم يفرض علي الذهاب للمدرسة فسيُسمح لي بالبقاء مع آل يوهاناس والتجول بحرية في المدينة أو ربما أستطيع الحصول على عمل إذ كنت أريد مصاريف للجيب. ولكنني صدمت عندما حضر أحد موظفي الولاية لم أره من قبل وأخذني للمحكمة. هنالك أخبروني أنني سأذهب إلى مدرسة إصلاحية وكان عمري ما زال ثلاثة عشرة عاما. كان علي أولاً أن أذهب إلى بيت الحجز الذي كان في مدينة ميسون بولاية ميشجان وعلى بعد اثنى عشر ميلاً من لانسينج. بيت الحجز هو المكان الذي يؤخذ إلية الأحداث في مقاطعة انجهام في انتظار « السماع » قبل أخذهم إلى الإصلاحية.

كان موظف المقاطعة الأبيض يدعى مستر ماينارد ألن وكان ألطف كثيراً من رجال الرعاية الاجتماعية لدرجة أنه قال بعض الكلمات مواسيا آل يوهاناس ومسز ادكوك « والواد » الكبير الذين كانوا يبكون. أما أنا فلم أكن أبكي وجمعت ملابسي القليلة في صندوق وركبنا أنا ومستر ألن العربة إلى ميسون . في الطريق تكلم معي ضابط الأحداث قائلاً إن علاماتي في المدرسة توضح إنني إذا ما استقمت فقد أصنع من نفسي شيئاً ما وأخبرني أن الإصلاحيات لا تستحق السمعة السيئة التي لها وأن كلمة « إصلاح » تعني التغيير للأحسن. كذلك أخبرني أن المدرسة التي أنا ذاهب إليها ما هي إلا مكان يستطيع فيه الصبيان مثلي أن يدركوا خطأهم ويبدأون حياة جديدة كي يصبحوا أشخاصاً يفخر بهم كل إنسان وقال لي إن السيدة التي تدير بيت الحجز – مسز سويرلن – وزوجها أناس طيبون جداً.

كانوا فعلاً أناساً طيبين وكانت مسز سويرلن أضخم من زوجها فيما أذكر – كبيرة الصدر ونشطة وضحوكة بينما زوجها نحيف، أسود الشعر والشارب، ذو وجه أحمر هادئ ومهذب حتى معي. أحبوني من أول نظرة. أخذتني مسز سويرلن إلى غرفتي – غرفتي أنا – أول غرفة لي بمفردي. كانت في مبنى كبير يشبه داخليات الطلبة ومن النوع الذي يبقى فيه الصبيان المحجوزون في تلك الأيام في معظم المدن. اكتشفت بعد ذلك ولدهشتي أنه مسموح لي الأكل مع آل سويرلن في نفس المائدة وكانت تلك أول مرة أجلس فيها للأكل مع أناس بيض – على الأقل مع أناس كبار –

منذ اجتماعات أصحاب المذهب السبتي. لم أكن في ذلك وحدي بالطبع فكل الصبيان يأكلون في نفس المائدة مع مسز سويرلن وزوجها فيما عدا المشاغبين جداً من الصبيان والفتيات كالهاربين المقبوضين فكانوا يحبسون في غرفهم.

كانت مساعدة الطباخ امرأة بيضاء تدعى لوسيل لاثروب. (واسترجاعي لهذه الأسماء يدهشني لأنني لم أفكر فيها لأكثر من عشرين عاماً .) عاملتني مسز لاثروب بطيبة وكان زوجها الذي يدعى دوان لاثروب يعمل في مكان آخر ولكنه يقضي عطلة نهاية الأسبوع مع زوجته في بيت الحجز. بدأت في بيت الحجز ألاحظ مرة أخرى كيف أن رائحة البيض مختلفة وأن طعامهم ليس متبلاً كطعام الزنوج. بدأت أيضاً أمسح الأرض وأكنس وأغبر في بيت سويرلن مثلما كنت أفعل أنا والواد الكبير في بيت آل يوهاناس.

كان الكل يحبني وجعلني حبهم مقبولاً لأنني كنت فألاً حسناً كما عرفت مؤخراً. كانوا يتحدثون بحرية عن كل شيء وأنا في وسطهم كما يتكلم الإنسان أمام طائر أليف. كانوا يتكلمون حتى عن الزنوج وكأنني لست موجوداً أو لا أفهم ما يقولون ويرددون كلمة نيجر « عبد » مائة مرة في اليوم. أعتقد أنهم لم يكونوا يقصدون الإساءة وربما كانت نواياهم حسنة. كانوا كلهم كذلك بمن فيهم الطباخ ولوسيل وزوجها دوان. أذكر مرة أن مستر سويرلن، ذلك الرجل الطيب، عاد من مدينة لانسنج التي مر فيها بحي الزنوج وقال لمسز سويرلن وأنا أمامه: « لا أدري كيف يمكن لهؤلاء (النيجروز) أن يكونوا بهذه السعادة مع هذا الفقر » . ثم تحدث عن كيف أنهم يعيشون في أكواخ بينما تقف أمامها عرباتهم الكبيرة اللامعة. وردت مسز سويرلن وأنا ما زلت أمامها « هؤلاء هم (النيجرز) وتلك هي طريقتهم ولا شيء غير ذلك .» بقى هذا المنظر في ذهني دائماً.

كذلك كان البيض الآخرون – وأغلبهم سياسيون محليون – عندما يحضرون لزيارة آل سويرلن. كان موضوع الزنوج أحد مواضيعهم المفضلة. أحد أولئك الزوار كان القاضي المسؤول عني في لانسنج والذي كان صديقاً حميماً لآل سويرلن. كان عندما يحضر يسأل عني فينادونني له وحينها كان يتفحصني بعينيه من فوق لتحت وعلى وجهه علامات الرضا كمن يتفحص حصاناً أصيلاً أو كلباً ذا نسب أصيل. كنت أدري أنهم أخبروه عن سلوكي واجتهادي في العمل.

ما أحاول أن أقوله هنا هو أنه لم يخطر ببالهم أبداً إنني أستطيع أن أفهم وأنني لست حيواناً للتدليل. لم يشاءوا أن ينصفوني كإنسان له نفس الإحساس والذكاء والفهم الذي لفتى أبيض في مثل وضعي. غير أن تلك تاريخيًّا كانت حالة البيض في نظرتهم للرجل الأسود وهي أننا قد نكون بينهم ولكننا لا نعتبر منهم وحتى عندما

يبدو أنهم فتحوا لنا الباب يظل الباب موصداً. وهكذا لم يحسوا بي أبداً.

هذا هو نوع التنازل والتواضع الذي أحاول اليوم أن أوضحه للزنوج المتعطشين للاندماج في المجتمع الأبيض مع أصدقائهم البيض « المتحررين» ومن يسمون «بالبيض الطيبين» أو أغلبهم على أية حال. لا تهتم بلطف الشخص نحوك بل عليك أن تتذكر دائماً أن ذلك الشخص لا يراك كما يرى جنسه، قد يقف معك عند الملمة الخفيفة وليس عند الثقيلة وفي ساعة الجد ستكتشف قناعته التامة المتأصلة في باطنه وهي أنه أحسن من أي شخص أسود.

لم يكن لدى سوى شعور مبهم بذلك في سنواتي في بيت الحجز. كنت أقوم بواجباتي الصغيرة داخل البيت وكان كل شيء على ما يرام وفي كل عطلة نهاية أسبوع لم يكونوا يمانعون في أن أذهب إلى لانسنج لقضاء فترة ما بعد الظهيرة أو المساء ومع أن عمري لم يكن كبيراً بدرجة تسمح لي بالبقاء في شوارع حي الزنوج حتى الليل فقد كان جسمي كبيرا ولم يحدث أن سألني أحد عن ذلك. لقد صرت أكبر حجماً حتى من ولفرد وفلبرت اللذين بدآ يقابلان الفتيات في حفلات المدرسة وأماكن أخرى كما عرفوني ببعض الفتيات. ولكني لم أكن أستلطف من استلطفتني منهن والعكس بالعكس. لم أكن أعرف الرقص على أية حال ولم أر معنى لإضاعة بريزة على الفتيات. كانت متعتي هي في التجول أمسيات السبت بين نوادي ومطاعم الزنوج حيث كانت صناديق الموسيقى تصرخ بأغنية أركسين هوكنز « تقاطع التوكسيدو » وأغنية سلم سلام «فلوجي الأشتر » وما شابه ذلك. أحيانا كانت تحضر الفرق الكبرى من نيويورك وتقيم حفلة رقص كبيرة لليلة واحدة في لانسنج ويخرج كل من له قدمان لمشاهدة أي مطرب أو عازف يحمل اسم نيويورك. كانت تلك أول مرة أسمع فيها بأسماء مثل لكي طومسون وميلت جاكسون الذين سأتعرف بهم جيداً في هارلم مستقبلاً.

عندما يحين دور معظم الصغار في بيت الحجز كانوا يؤخذون إلى المدرسة الإصلاحية ولكن عندما جاء دوري – مرتين أو ثلاثا – لم يهتم أحد بذلك. كنت أشاهد الصغار يجيئون ويذهبون إلا أنا وذلك من فعل سويرلن ولكني كنت بذلك سعيداً وممتناً لأنني لم أكن أود أن أترك بيت الحجز.

أخبرتني مسز سويرلن بأنني سأدخل مدرسة ميسون الثانوية الصغرى والتي كانت المدرسة الوحيدة في البلدة. لم يحدث أن انضم محتجز من بيت الحجز إلى تلك المدرسة ، على الأقل وهو تحت الاحتجاز. أدخلوني في الصف السابع وكان أطفال الليونز هم الزنوج الوحيدون في المدرسة وهم أصغر مني عمراً وفي الصفوف الأولى. كنا أنا وأبناء الليونز الزنوج الوحيدين في المدينة وكانوا زنوجاً محترمين فأبوهم مستر ليونز – رجل شاطر ومجد ومسز ليونز امرأة طيبة جداً . كانت هي وأمي – كما سمعت أمي تقول – اثنتين

من الأربع اللاتي من جزر الهند الغربية في كل ولاية ميشجان.

اكتشفت أن بعض الصبيان البيض ألطف كثيراً من بعض من عرفتهم في لانسينج وبالرغم من أن بعضهم – بمن فيهم المدرسين – كانوا ينادونني « نيجر » إلا أنه كان واضحاً لي أنهم لم يكونوا يقصدون الإساءة مثلهم مثل آل سويرلن في ذلك. وبصفتي الزنجي الوحيد في الصف كانت لي شعبية شديدة وربما كان ذلك جزئيًا لكوني كنت بدعة مختلفة في أعينهم. كان الكل يتودد إلي ويعطيني أسبقية لكنني أيضاً استفدت من كوني مرضياً عني من تلك المرأة المهمة جداً في مدينة ميسون – مسز سويرلن. لا أحد في ميسون يجرؤ على أن يغضبها. وكان هنالك دائماً شخص يطلب مني أن أنضم لهذه الجمعية أو أترأس تلك: الجمعية الأدبية، فريق كرة السلة أو أي نوع من النشاط الإضافي ولم أكن أرفض أبداً.

بعد دخولي المدرسة بفترة قصيرة ولأن مسز سويرلن كانت تعلم بحاجتي لبعض النقود وجدت لي عملاً في مطعم أغسل فيه الأطباق وكان رئيسي في العمل والد أحد زملائي في المدرسة وكنا أنا وذلك الزميل كثيراً ما نقضي وقتنا سويًا كما أن أسرته كانت تسكن عند المطعم. كان العمل جيداً وفي مساء كل جمعة حينما استلم راتبي كنت أشعر وكأن طولي صار عشرة أقدام. لا أذكر كم كان راتبي ولكنه كان يبدو لي مبلغاً محترماً وكانت تلك أول مرة في حياتي تكون بحوزتي مبالغ تذكر وكلها – لي أنا وحدي. وعندما صار عندي مبلغ كاف اشتريت لنفسي بذلة خضراء وبعض الأحذية كما كنت في المدرسة أدعو زملائي وأشتري لهم بعض الحاجيات الصغيرة مثلما كانوا يفعلون معي.

كانت مادتا التاريخ واللغة الإنجليزية هي علومي المفضلة وكان يدرّس اللغة الإنجليزية رجل يدعى مستر أوستروسكي، فيما أذكر وكان دائما يعطينا النصائح عن كيف نصبح شخصاً مهماً في هذه الحياة. والذي لم يكن يعجبني في مدرس مادة التاريخ – هو ولعه بدعابات الزنوج. في أحد المرات أثناء أسبوعي الأول في المدرسة إذ به يغني وأنا أدخل الفصل: « بعيداً هنالك في حقول القطن، بعض الناس يقولون أن النيجرو لا يسرق» يا له من سخف ! أحببت مادة التاريخ ولكني لم أحب مستر وليامز. أذكر مرة وحينما وصلنا إلى ذلك الجزء عن تاريخ الزنوج والذي كان مجرد فقرة واحدة في الكتاب، قرأها مستر وليامز ضاحكاً وبنفس واحد رافعاً صوته عن كيف كان الزنوج أرقاء وكيف تم تحريرهم وكيف أنهم في العادة كسولون وأغبياء وعديمو التدبير. أذكر أيضاً أنه أضاف وهو يضحك معلومة أنثروبولوجية من عندياته إذ قال: « إن أقدام الزنوج كبيرة لدرجة أنهم حينما يمشون لا يتركون أثراً وإنما يتركون حفرة في الأرض».

يؤسفني أن أقول إن الرياضيات كانت أكثر مادة أكرهها وقد فكرت في سبب ذلك وأعتقد أن السبب هو أن الرياضيات لا تترك مكاناً للجدل وإذا أنت أخطأت فيها فلا يمكن أن تجادل في ذلك.

كانت كرة السلة شيئاً مهمًا في حياتي فقد كنت من أعضاء فريق المدرسة وكنا نسافر لننازل فرق المدن المجاورة مثل هاول وشارلوت وحينما أظهر في إحدى هذه الإستادات كان المشاهدون يسمعونني كلمات مثل « نيجر وكون » وأحياناً « راستوس ». لم يكن ذلك يزعج زملائي في الفريق أو حتى مدربي مطلقاً وحتى أنا لم تكن تزعجني إلا بطريقة مبهمة وبعيدة. كانت نفسيتي مثل كثير من الزنوج حتى اليوم الذين كان يؤلمهم ذلك داخلياً، إلا أنهم لا يفتأون يخبرون الرجل الأبيض أن حالتهم في تحسن. لقد سمع الزنوج ذلك مراراً وتكراراً إلى أن أصبحوا يصدقونه أو على الأقل يتقبلونه.

بعد نهاية كل مباراة تقام عادة حفلة رقص للطلاب والطالبات. كنت حينما أدخل مع زملائي اللاعبين إلى قاعة الحفل في المدرسة التي نزور، أشعر بالآخرين ينكمشون مني إلا أنهم سرعان ما تنبسط أساريرهم حينما يرون أنني لا أحاول الاختلاط مع الفتيات البيضاوات. كنت أبقى مع أحد زملائي من الفريق أو أعزل نفسي وقد تعلمت أن أفعل ذلك بدون أن يبدو ملحوظاً. حتى في المدرسة كنت أحس بذلك الحاجز النفسي بالرغم من الابتسامات. لم يكن مفروضاً في « جالب السعد » أن يراقص الفتيات البيضاوات. كانت تلك رسالة نفسية منهم ومن داخلي وأنا فخور بأن أقول ذلك عن نفسي: كنت أقف هنا وهناك وأتحدث وأضحك معهم وأشرب من عصير الفواكه وأتناول بعض الساندوتشات ثم أقدم أي اعتذار وأنسحب.

كانت تلك الحفلات من النوع المعروف في المدن الصغيرة. أحياناً يأتون بفرقة موسيقية بيضاء من لانسينج لتعزف ولكن في أغلب الأوقات كان الفونوغراف هو مصدر الموسيقى تصخب منه أصوات معزوفة جلن ميلر « لحن ليلة مقمرة » حيث كانت شعبيته كبيرة في تلك الأيام – أو أصوات فرقة نقاط الحبر المشهورة وهي تغني « لو لم أكن أهتم ! ».

كنت أستغرق وقتاً طويلاً أفكر بظاهرة غريبة وهي أن كثيراً من أبناء مدينة ميسون البيض خاصة من كانت معرفتهم بي وثيقة أو رفقائي يضعونني في موقف حرج مع الفتيات البيضاوات ويشجعونني على التقرب إليهن وإغرائهن وأحياناً مع أخواتهم. كانوا يقولون لي : إنهم قضوا وطرهم مع هذه البنت أو تلك بمن فيهن أخواتهم أو أنهم حاولوا وفشلوا. بعد ذلك بزمن فهمت السر في ذلك: كانوا يتخيلون أنهم لو جعلوا فتاة ما تحطم التقاليد وتذهب معي إلى مكان ما سيتمكنون عندئذ من ابتزاز تلك الفتاة وقضاء وطرهم معها.

يبدو أن الصبيان البيض كانوا يعتقدون أنني بوصفي زنجياً من الطبيعي أن أفهم أكثر منهم في أمور الجنس والغرام وأنني غريزيًا أعرف ما ينبغي أن أفعل وأقول مع فتياتهم. ما لم أقله لأي شخص هو أنني فعلاً أعجبت ببعض الفتيات البيضاوات كما أعجب بي بعضهن وكن يلمحن لي بذلك بأكثر من طريقة ولكن ما أن نجد أنفسنا على انفراد أو على قرب إلا ويأتي بيننا حاجز. أما الفتيات التي كنت أتمناهن حقيقة فكانتا فتاتين زنجيتين عرفني بهما ولفرد أو فلبرت في لانسنج، ولكن كانت تنقصني الشجاعة.

كنت أعلم مما كنت أسمعه وأراه وأنا أتجول في أمسيات السبت في حي الزنوج، أن اختلاط الأجناس يحدث في لانسنج ولكن الغريب أن ذلك لم يؤثر في. كان كل زنجي في لانسنج يعلم أن الرجال البيض يقودون عرباتهم في شوارع معينة في أحياء الزنوج ويلتقطون بعض بنات الهوى من الشارع. من الجانب الآخر كان هنالك جسر يفصل بين الحي الزنجي وحي البولونيين الأمريكيين تعبره الفتيات البيضاوات راكبات أو راجلات ويلتقطن بعض الرجال الزنوج الذين كانوا ينتظرونهن في تلك المنطقة. كانت نساء لانسنج البيضاوات مشهورات بالجري وراء الرجال الزنوج حتى في تلك الأيام ولم أكن أعرف حينها أن النساء البيض يعتقدن أن للزنوج الرجال قوة جنسية خارقة. لم يحدث في لانسنج أن تسبب هذا النوع من الاختلاط في أية مشاكل وأتخيل أن الجميع كان يرى فيه شيئاً عاديًّا بمن فيهم أنا.

على أية حال ومن تجربتي كفتى غر في مدرسة لانسنج تعلمت أن أتفادى موضوع الاختلاط، على الأقل في أول عامين لي بالمدرسة. ثم حدث وأنا في الصف السابع أن انتخبني تلامذة الصف عريفاً للفصل وأدهشني ذلك وقتها أكثر مما أدهش الآخرين ولكني أفهم لماذا فعلوا ذلك. كانت درجاتي العلمية من أعلى الدرجات في الصف وكنت فريداً ككلب بنفسجي. ولا أخفي عليكم أنني كنت فخوراً بذلك وفي حقيقة الأمر نسيت أنني زنجي وكنت مثابراً أعمل بجد وبكل طريقة حتى أكون أبيض. ذلك هو السبب أنني أقضي معظم حياتي أنصح الأمريكيين السود أن محاولتهم الاندماج في المجتمع الأبيض إنما هي مضيعة للوقت فأنا أعلم ذلك من تجربتي الشخصية إذ أنني حاولت جهدي ولم أنجح.

« كم نحن فخورون بك يا مالكوم ! » ذلك ما هتفت به مسز سويرلن عندما سمعت باختياري عريفاً للصف. كان الخبر قد انتشر في جميع أرجاء المطعم الذي أعمل فيه وحتى مستر ماينرد ألن ضابط الرعاية – الذي كان يزورني من حين لآخر – أثنى علي. قال إنه لم ير أحسن مني كبرهان على جدوى المدرسة « الإصلاحية ». لقد كنت أحبه جداً ما عدا شيئاً واحداً لم يعجبني فيه: تلميحه من آن لآخر بأن أمي خذلتنا.

كنت أزور عائلة الليونز بكثرة وكانوا يعاملونني كواحد منهم كما كنت ألقى نفس الشعور الدافئ عندما كنت أزور إخوتي وأخواتي وأسرة يوهاناس في لانسنج.

شيء واحد أزعجني في إحدي المرات – كنت الزنجي الوحيد في الصالة عندما تم عرض فيلم « ذهب مع الريح » وعندما بدأت بتر فلاي ماكوين « الخادمة الزنجية» تظهر على الشاشة أردت أن اختبئ تحت المقاعد.

كنت أذهب إلى لانسنج كل يوم سبت تقريباً وقد قارب عمري الرابعة عشر وكان ولفرد وهلدا ما زالا يسكنان في بيتنا القديم. كانت هلدا تحتفظ بالبيت منظماً ونظيفاً وأحسن من حالته في أوقات أمي العصيبة ونحن الصغار نجري داخل المنزل. كان ولفرد يعمل ما سنحت له الفرصة ويقرأ أي كتاب تقع عليه عيناه كذلك بدأ اسم فلبرت يشتهر كواحد من أميز الملاكمين الهواة وتنبأ له الكثيرون بمستقبل باهر كملاكم محترف. أما أنا وريجنالد فقد عدنا أصدقاء بعد مهزلة ملاكمتي. كنت أبتهج كثيراً عندما أقوم بزيارته وولزلي عند مستر وليامز وكنت أدس في جيب كل منهم دولارين كمصروف. كذلك كان الصغيران يفون وروبرت بخير في منزل السيدة الآتية من جزر الهند الغربية، مسز ماكجوير. كنت أعطي كل منهما بريزة وأشعر بالسعادة وأنا أراهم يكبرون.

لم نكن نتحدث عن أمنا إلا لماما أما أبونا فلم نذكره على الإطلاق لأن لا أحد منا كان يدري ما ينبغي أن يقوله ولم نكن نريد لأحد أن يذكر اسم أمنا فيما أعتقد . ومع ذلك كنا نذهب لزيارتها في مستشفى كالامازو من آن لآخر وكنا نحن الكبار نذهب فرادي في أغلب الأحيان لأن الزيارة كانت تجربة يفضل الواحد منا أن يقوم بها لوحده حتى لو كان رفيقك أخاً أو أختا لك.

أما أكثر زيارة أتذكرها في ذلك الوقت فقد كانت وأنا في نهاية الصف السابع حينما حضرت أختي الكبيرة من زوجة أبي الأولى - واسمها «إللا» - لزيارتنا من بوسطن. كان ولفرد وهلدا يراسلونها بانتظام كما كتبت لها أنا مرة بناء على نصيحة من هلدا عندما كنت أسكن مع آل سويرلن. كم كنا سعداء عندما كتبت لنا تقول : إنها ستحضر إلى لانسنج وكان أهم انطباع تركه قدومها – على الأقل في ذهني أنا – هو أنها أول امرأة سوداء ذات كبرياء أراها في حياتي. كانت ببساطة، تفخر بلونها الداكن جدًّا ولم يكن ذلك مسموعاً به في لانسنج قبلاً.

لم أكن أعرف تاريخ قدومها بالضبط إلى أن حضرت من المدرسة إلى البيت ذات مرة لأجدها هنالك. احتضنتني ثم وقفت تتفحصني. كانت امرأة ذات شخصية قوية، أقوى حتى من مسز سويرلن ولم تكن إللا داكنة اللون فحسب بل كانت

كأبي، سوداء كالأبنوس. كانت تجلس وتتكلم وتتحرك بطريقة من لا يقف شيء دون حصوله على ما يريد. هذه إذن هي المرأة التي كان أبي دوما يفخر بها لأنها أخرجت الكثير من أفراد عائلتنا من جورجيا إلى بوسطن. كانت صاحبة أملاك كما يقول وسيدة مجتمع. هاجرت إلى الشمال خالية الوفاض ثم ثابرت وادخرت واستثمرت في ممتلكات زادت قيمتها ثم بدأت ترسل المال إلى أختها في جورجيا، ثم إلى أخت أخرى، ابن عم، ابن أخ، بنت أخت إلخ ... حتى يهاجروا إلى الشمال. كل ما سمعته عنها كان واضحاً في مظهرها وسلوكها ولم يبهرني شخص في حياتي مثلما بهرتني. كانت قد تزوجت للمرة الثانية بعد أن تطلقت من الطبيب، زوجها الأول.

ظلت إللا تسألني عن كل شيء – وكانت قد علمت باختياري عريفاً للصف – خاصة عن درجاتي العلمية وجريت وأحضرت لها بطاقة درجاتي المدرسية وكانت من أحسن ثلاث تقارير في الصف. أثنت إللا عليّ وسألتها عن أخيها إيرل وأختها ماري ووردت بالأخبار المفرحة أن إيرل مطرب مع فرقة في بوسطن وأن اسمه الفني كان جيمي كارلتون. ماري أيضاً كانت بخير.

أخبرتني إللا عن أقارب آخرين من الفرع الآخر للأسرة منهم عدد لم أسمع به مطلقاً من قبل ساعدتهم هي للخروج من جورجيا وهم بدورهم قاموا بمساعدة آخرين. « إننا آل لتل يجب أن نتعاون » ذلك ما كانت تقوله إللا وما كان يبهجني خاصة هو الطريقة التي قالت بها ذلك. كنت قد أصبحت فألاً حسناً ومع أن فرعنا العائلي تشتت وأصبحت أنسى أنني من عائلة آل لتل أعادتني إللا إلى وعيي. قالت :إن بعض أفراد الأسرة يعملون في وظائف جيدة وأن بعضهم يمتلك متاجر صغيرة وأن أغلبهم يمتلكون بيوتاً.

عندما اقترحت إللا أن نذهب كلنا نحن أفراد أسرة لتل معها لزيارة أمنا أمتثلنا لذلك. وشعرنا جميعاً أنه لو كان هنالك شخص واحد يمكنه مساعدة أمنا لتتعافى وتعود إلينا، فإن إللا هي ذلك الشخص. على أية حال ذهبنا ولأول مرة مجتمعين لزيارتها مع إللا في كالامازو. كانت أمنا تبتسم حينما أحضروها لترانا وكانت جد مندهشة لوجود إللا معنا. كانا نقيضين، امرأة بيضاء نحيفة، وأخرى سوداء ضخمة يحتضنان بعضهما البعض. لا أذكر أشياء كثيرة من تلك الزيارة إلا أننا تكلمنا كثيراً وأن كل شيء بيد إللا ثم تركناها وكلنا يشعر بشيء من الرضا عن الأوضاع أكثر مما شعرنا في أي وقت. أذكر أنني ولأول مرة شعرت بأننا وكأنما زرنا شخصاً مريضاً جسمانيا وليس نفسانياً، فقط طال مرضه.

بعد عدة أيام من ذلك وبعد أن زارت المنازل التي بها كل منا، غادرتنا إللا وذهبت إلى بوسطن ولكنها طلبت مني قبل أن تذهب أن أراسلها بانتظام. كذلك اقترحت عليّ أن أزورها في بوسطن لقضاء الأجازة الصيفية وقفزت فرحاً من ذلك.

أتى صيف عام ١٩٤٠ لأجد نفسي أقفز على حافلة الجريهاوند المسافرة إلى بوسطن أحمل حقيبة من الكرتون مرتدياً بذلتي الخضراء وحتى لو علقوا كلمة « ريفي » بخيط على رقبتي فلن يضيف ذلك معلومة جديدة للناظر . حينها لم تكن هنالك طرق المرور السريعة الحالية وكانت الحافلة تقف في كل ركن وكل قرية. ومن مقعدي – الخلفي إذا لم تخمن – كنت أنظر من النافذة إلى أمريكا الرجل الأبيض لمدة تبدو وكأنها شهر علماً بأنها كانت يوماً وبعض يوم.

أخيراً وصلنا وقابلتني إللا في موقف الحافلات وأخذتني إلى المنزل الذي كان يقع في شارع وومبك في حي شوجر هيل الذي يقع في روكسبري، أو هارلم مدينة بوسطن. قابلت هنالك زوج إللا الثاني، فرانك، الذي كان يعمل جندياً وأخاها إيرل المغني الذي يسمي نفسه جيمي كارلتون وأختها الصغرى ماري التي كانت جد مختلفة عن إللا. الغريب أنني كنت أنظر إلى ماري وكأنها أخت إللا وليست أختي مع أن كليهما أخواتي من أبي. ربما لأني أنا وإللا كنا نشبه بعضنا في أننا ذوو شخصيات قوية بينما كانت ماري هادئة وخجولة.

اهتمامات إللا كانت كثيرة وهي عضوة في عدة جمعيات ومنتديات وكانت من قادة ما يسمى « بالمجتمع الزنجي » في المدينة. هنالك أيضاً رأيت وقابلت عشرات السود يتكلمون بلغة المدينة المنمقة ولهم سلوك وطرق جعلتني أفغر فاهي طول الوقت. لم يكن من الممكن أن أتجاهل ذلك حتى لو أردت فالناس تتحدث عن شيكاجو وديترويت ونيويورك بعفوية غريبة ولم أكن أعلم أن العالم مليء بهذه الأعداد من الزنوج مثلما كنت أرى في الليل في حي روكسبري خاصة في أمسيات السبت. كانت هنالك أنوار النيون والنوادي الليلية وقاعات البلياردو والحانات والعربات التي يقودونها ورائحة المطاعم تملأ الشوارع بالأكلات الدسمة الدهنية التي يحبها ويطبخها الزنوج. صناديق الموسيقى تصرخ بأصوات ومعزوفات أرسكين هوكنز، ديوك إلنجتون، كوتي وليامز وعشرات الآخرين. لو قال لي أحدهم حينها : إنني سأتعرف يوماً ما إلى كل هؤلاء شخصيًّا لما صدقته. كانت الفرق الموسيقية الكبرى مثل أولئك تقدم عروضها في قاعة روزلاند ستيت في شارع ماساتشوستس في بوسطن – ليلة للزنوج وأخرى للبيض.

رأيت لأول مرة ثنائيات مختلفة، بيضاً وسوداً يمشون في الشوارع ذراعاً في ذراع. في أيام الآحاد حينما كانت تأخذني إللا أو ماري معها للكنيسة حيث رأيت كنائس للسود لم أر مثلها قبلاً. كانت أجمل كثيراً من كنائس البيض التي رأيتها في ميسون في ولاية ميشجان. في كنائس ميسون كان البيض يجلسون ويتعبدون في صمت أما زنوج بوسطن فكانوا مثل الزنوج في كل كنيسة رأيتهم فيها يلقون بأرواحهم وأجسادهم في الهواء أثناء العبادة.

مرتين أو ثلاثاً كتبت خطاباً لولفرد قاصداً به الجميع في لانسنج قائلاً لهم إنني سأصف لهم كل شيء حينما أعود.

ولكنني اكتشفت أنني لا أستطيع.

بدأت أمل من مدينة ميسون ولأول مرة في حياتي بدأت أضجر من وجودي وسط البيض بمجرد أن عدت إلى موطني ودخلت الصف الثامن بالمدرسة. كنت دوماً أفكر بما رأيت في بوسطن وعن شعوري وأنا هنالك. أعرف الآن الشعور الذي تملكني وأنا أكتشف لأول مرة أنني أنتمي لمجموعة كبيرة من بني جنسي – ذلكم هو سبب ضجري. لاحظ البيض – زملائي في الصف، آل سويرلن، أصحاب المطعم الذي أعمل فيه – لاحظوا التغيير فيَّ. بدأوا يقولون: « لقد تغيرت ولم تعد مالكوم الذي نعرفه. ما الذي جرى لك ؟ »

حافظت على موقفي كواحد من أوائل صفي وكانت المنافسة على المركز الأول فيما أذكر بيني وبين فتاة تدعى أودري سلاو وفتى يدعى جيمي كوتن. واستمر الوضع كذلك بينما ضجري وقلقي يزدادان خلال الفترة الدراسية الأولى إلى أن حدث ذات مرة وبينما الناجحون منا يستعدون للانتقال إلى الصف الثامن، حدث أول شيء غير مجرى حياتي . كنت وحدي في الصف مع مستر أوستروسكي، أستاذ اللغة الإنجليزية، وكان رجلاً طويلاً ذا بشرة بيضاء محمرة وشارب كث وعلى يديه تحصلت على أعلى الدرجات العلمية وكان سلوكه يجعلني أشعر وكأنه يحبني . كان كما قلت يسدي النصح بطبيعته عن ماذا نقرأ وماذا نفعل وما يجب أن نفكر فيه إلخ . كنا نسخر منه ومن نصائحه: لماذا بقي في ميسون بدلاً من أن يذهب إلى مكان آخر ؟ ليحصل على بعض «النجاح في الحياة » الذي يحدثنا عنه دوماً ! ».

أدرك أنه ربما كان حسن النية في نصحه لي ولا أعتقد أنه كان يقصد أن يحرجني. كانت في طبيعته كرجل أبيض وأنا أمامه تلميذ من أنجب تلاميذه بل من أنجب تلاميذ المدرسة أن يقول لي إن مستقبلي يتطلب أن « أبقى في مكاني.»

قال لي: «مالكوم، عليك أن تفكر فيما ستفعل في المستقبل. هل فكرت بذلك؟»

حقيقة الأمر أنني لم أفكر بذلك قبلاً ولست أدري ما جعلني أجيب قائلاً: «حسناً، نعم، سيدي، إني أفكر بأن أصبح محامياً.» طبعاً لم تعرف مدينة لانسنج محامياً أو طبيباً زنجياً في تلك الأيام ليصبح مثلاً أحتذي به. كل ما أعرفه أن المحامين لا يغسلون الأطباق مثلما كنت أنا أفعل.

أصيب مستر أوستروسكي بالدهشة فيما أذكر ومال إلى الخلف في مقعده ووضع يديه خلف رأسه ثم قال بنصف ابتسامة: « مالكوم إن أول ما ينبغي على المرء في هذه الحياة أن يفعله هو أن يكون واقعياً. أرجو ألا تسيء فهمي الآن فكلنا نحبك وأنت تعرف

ذلك ولكن عليك أن تصبح واقعياً كونك نيجرو فالمحاماة ليست هدفاً واقعياً للزنوج. عليك أن تفكر بالأشياء التي يمكنك أن تكونها فأنت مثلاً تجيد العمل اليدوي وتعمل بيديك أشياء مختلفة. الكل معجب بأدائك في ورشة النجارة فلماذا لا تفكر أن تصبح نجاراً ؟ إن الناس تحبك لشخصك وبإمكانك أن تحصل على أشغال كثيرة ».

بعد ذلك وكلما فكرت بما قال كلما ازداد قلقي وظلت تلك الأفكار تحوم حول رأسي.

ما جعل تلك الكلمات تبدأ في إزعاجي هو نصائح مستر أوستروسكي للآخرين في الصف وكلهم من البيض. كان أغلبهم قد قالوا إنهم يخططون ليصبحوا مزارعين ولكن الذين أرادوا أن يشقوا طريقهم بأنفسهم ويبدوا شيئاً جديداً وجدوا منه التشجيع. قال بعضهم وأغلبهم من الفتيات أنهم يريدون أن يصبحوا مدرسين بينما عدد غير قليل منهم قالوا إنهم يودون أن يحترفوا مهنة ما مثل صبي قال أنه يود أن يصبح وكيلاً للمقاطعة وآخر قال إنه يود أن يصبح بيطرياً بينما قالت فتاة واحدة أنها ستمتهن التمريض. كلهم قالوا أن مستر أوستروسكي شجعهم فيما يخططون له مع أنه لم يكن فيهم بالكاد من تحصل على درجات علمية أعلى أو مساوية لدرجاتي.

الغريب أنني لم أفكر فيها قبلاً بالطريقة التي فكرت فيها بعد ذلك ولكنني كنت على يقين أنني قد لا أكون أشياء كثيرة ولكني كنت تقريباً أكثر ذكاءً من أي من هؤلاء الشباب البيض. ولكن يبدو أنني لم أكن في نظرهم أحمل الذكاء الكافي لأصنع ما أشاء.

تلك كانت اللحظات التي بدأت فيها أتغير – من الداخل.

بدأت أتحاشى البيض. كنت أحضر إلى الصف وأجاوب فقط عندما أُسأل. أصبح مجرد الجلوس في صف مستر أوستروسكي إرهاقاً بدنياً ونفسياً. كنت في الماضي أتجاهل ما أسمعه عندما تقال كلمة نيجر ولكني أصبحت حينما أسمعها أقف وأحملق في القائل وحينها تظهر الدهشة على وجوههم. لم أعد أسمع أحدهم يناديني أو يلمح بتلك الكلمة أو يسألني: « ماذا جرى لي ؟ » لم يستطع أحد من الناس بما فيهم مدرسي أن يحار شيئاً فيما حدث لي. وكنت أدرك أنهم يتكلمون عن حالي. بعد عدة أسابيع من ذلك صارت تلك حالتهم في المطعم حيث كنت أغسل الصحون وكذلك في دار مسز سويرلن.

بعد ذلك بمدة قصيرة وفي أحد الأيام نادتني مسز سويرلن إلى غرفة الجلوس وهنالك وجدت مستر ماينارد الن ضابط الرعاية، ومن نظراتهما شعرت أن شيئاً ما سيحدث . أخبرتني مسز سويرلن أنه لا أحد يفهم لماذا – بعد أن كنت ممتازاً في

المدرسة وفي العمل وفي المسكن معهم وبعد أن بدأ كل إنسان في ميسون يحبني – لماذا بدأت أشعرهم كلهم بأني لم أعد سعيداً بينهم. أخبرتني أنه لم تعد هنالك حاجة لبقائي في بيت الحجز بعد ذلك وأنه قد تمت ترتيبات لأن أذهب وأعيش مع عائلة الليونز اللذين يحبونني كثيراً.

فجأة وقفت مسز سويرلن على قدميها ورفعت يديها قائلة : « أظن أنني سألتك مائة مرة، مالكوم، هل لك أن تخبرني ماذا جرى لك ؟ » صافحت يدها وهززتها قائلاً: « لا شيء، يا مسز سويرلن .» ثم قمت وجمعت حاجياتي وعدت لهم. وفي باب الغرفة رأيتها تمسح دموعها وحينها ساء شعوري. شكرتها وخرجت أمام مستر ألن الذي أخذني إلى الليونز.

حاول مستر ومسز ليونز وأطفالهم الذين قضيت بينهم شهرين وأنا أكمل الصف الثامن، حاولوا أيضاً أن يجعلوني أخبرهم بما جرى لي ولكنني لم أستطع إخبارهم أيضا.

كنت أقوم كل يوم سبت بزيارة إخوتي في لانسنج كما كنت أكتب خطاباً لإللا في بوسطن كل يومين تقريباً. وبدون أن أحدثها بالسبب قلت لها :إنني أود أن أحضر وأعيش في بوسطن ولا أدري كيف فعلت إللا ذلك ولكنها رتبت الأمور بحيث تنتقل الوصاية عليّ من محاكم ميشجان إلى ولاية ماساتشوستس وفي نفس الأسبوع الذي أكملت فيه الصف الثامن ركبت حافلة الجريهاوند إلى بوسطن.

لقد فكرت في موضوع انتقالي مرات عدة ولم يكن لأي انتقال في حياتي ذلك الأثر العميق والمحوري مثلما كان لتلك الرحلة. لو كنت بقيت في ميشجان لكنت تزوجت واحدة من الفتيات الزنجيات اللائي عرفت وأحببت في لانسنج وربما أصبحت أحد الذين يمسحون الأحذية في مبنى حكومة الولاية أو نادلاً في أحد نوادي الريف الاجتماعية في لانسنج أو اشتغلت في واحدة من الأعمال الحقيرة التي كان زنوج لانسنج في تلك الأيام يعتبرونها من علامات النجاح – أو ربما أصبحت نجاراً.

ما من عمل قمت به بعد ذلك إلا وضغطت على نفسي لكي أنجح في أدائه وكثيراً ما فكرت ماذا لو شجعني مستر أوستروسكي لكي أصبح محامياً. ربما كنت اليوم من بين البرجوازية السوداء من المهنيين في المدينة أشرب الكوكتيل وأمسح يدي كلسان حال المجموعة وواحدًا من « قادة » الجماهير المسحوقة بينما كل همي أن أتحصل على الفتات ترميه مجالس البيض المنافقين بينما يتسول «القادة » أمامهم مطالبين « بالاندماج ».

كل الحمد والشكر لله أنني ذهبت إلى بوسطن حينما ذهبت. لو لم أفعل ذلك لكنت ما زلت مسيحياً أسود مغسول الدماغ.

■ الباب الثالث

ابن البلد

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



كان مظهري يشبه منظر « ليل أبنَر » وكأنما كلمة « من بلدة ميسون، ميشجان » مكتوبة على وجهي. كان شعري الأحمر الأجعد مقصوصاً بطريقة ريفية مع أنني لم أكن أدهنه كما كانت يدا حلتي الخضراء تتدليان فوق رسغي وجواربي بادية للعيان من تحت بنطالي ومعطفي ذو الياقة الضيقة واللون الأخضر الباهت من فوقي. لم تحتمل حتى إللا مظهري ولكنها أخبرتني أن منظر بعض أقاربي عند حضورهم من ولاية جورجيا كان أسوأ من منظري.

جهزت لي إللا غرفة ملائمة في الطابق الأعلى ومثل أي امرأة زنجية من ولاية جورجيا هرعت إلى المطبخ للطناجر والمقلاة . كانت من نوع الطهاة الذي يملأ طبقك بشرائح الخنزير، والخضار والبازلاء والسمك المشوي والكرنب والبطاطا الحلوة والبرغل والصلصة وخبز الذرة، وكلما أكلت أكثر كلما أرضيتها أكثر. أكلت من مائدة إللا وكأنما كان ذلك آخر يوم للأكل.

كانت إللا ما زالت هي المرأة السوداء الضخمة الفصيحة المدهشة التي رأيتها في ميسون، ميشجان وكانت قد انفصلت قبل أسبوعين من زوجها الثاني – الجندي فرانك – الذي سبق وقابلته هنالك في الصيف السابق ومع ذلك فقد تحملت ذلك الانفصال بروح طيبة. بدا واضحاً لي مع ذلك أنه من الصعب لأي رجل عادي أن يعيش معها مدة طويلة إذ أنها كانت من النوع الذي يحب غريزياً أن يسيطر على كل شيء وكل شخص في حياتها بمن فيهم أنا. أخبرتني في اليوم الثاني لي في روكسبري

أنها لا تريد لي أن أبدأ البحث عن عمل فوراً مثلما يفعل كثير من الزنوج القادمين الجُدُد . قالت لي: إنها دائماً تحث القادمين الذين أحضرتهم هي للشمال أن يتمهلوا ويطوفوا بالبلد وأن يركبوا الحافلات والمترو حتى يتعرفوا على مدينة بوسطن قبل أن يربطوا أنفسهم بعمل في مكان ما لأنهم لن يجدوا فرصة أخرى ليعرفوا أي شيء عن البلد الذي فيه سيقيمون . وعدتني إللا أنها ستساعدني في العثور على عمل حينما يكون الوقت ملائماً .

وهكذا بدأت أتجول في المنطقة – في شوارع وومبك وهمبولت في حي روكسبري الذي يشبه منطقة شوجر هيل في هارلم والتي سأقيم فيها في مستقبل الأيام. رأيت زنوج روكسبري يعيشون ويسلكون بطرائق جد مختلفة عن أي زنوج رأيت في حياتي قبلا . كانت هذه منطقة زنوج يسمون أنفسهم « الأربعمائة » ويحتقرون زنوج «الجيتو» أو ما يسمون بزنوج وسط البلد حيث كانت تعيش ماري، أختي غير الشقيقة.

كنت أظن أنني أمام زنوج من الطبقة العليا ، متعلمين ومهمين، يعيشون في نعمة ويعملون في وظائف كبيرة، ويسكنون بيوتاً بها حدائق أمامية مشذبة. كانوا يمشون على قارعة الطريق في خيلاء وزهو وهم في طريقهم للعمل أو الكنيسة أو إلى السوق أو الزيارة. أدرك الآن أن من كنت أشاهدهم ليسوا إلا نسخة مدينة بوسطن من ماسحي الأحذية وعمال النظافة في لانسنج. كل الفرق بينهم أن عقول زنوج بوسطن كانت قد غسلت تماماً. كانوا يباهون أنهم أكثر « ثقافة » و « تحضراً » و« احتراماً » وأفضل من إخوانهم السود في الجيتو الذي كان على مرمى حجر من حيهم. بهذا الفهم المؤسف كانوا يجهدون أنفسهم في محاكاة البيض ظناً منهم أن ذلك يجعل منهم بشراً أفضل.

كانت أي عائلة بقيت في بوسطن مدة كافية تمكنت معها من امتلاك المنزل الذي تقطنه، تعد من نخبة الجبل (منطقة روكسبري) ولا يهم إذا كانت تلك العائلة تؤجر بعض غرف المنزل الذي تسكنه لأنها تحتاج إلى دخل إضافي فوق دخلها. أما المولودون في نيو إنجلاند من بينهم فكانوا ينظرون باستعلاء إلى المهاجرين الجدد الذين يجاورونهم مثل إللا وكان عدد كبير من سكان تلك المنطقة من النوع الأخير – جنوبيين متسلقين مثابرين وآخرين من جزر الهند الغربية يسمون « باليهود السود » من جانب الجنوبيين ومواليد نيو إنجلاند. عامة يمتلك الجنوبيون وأهل جزر الهند الغربية أكثر من منزل يسكنون في واحد ويؤجرون الآخر. بينما زنوج نيو إنجلاند المتحذلقون يملكون أقل من ذلك في المتوسط.

في تلك الأيام في حارة الجبل في روكسبري كان كل المهنيين من مدرسين

ووعاظ وممرضات يعتبرون أنفسهم الأحسن. كان سعاة البريد والحمالون ونادلوا عربة (السناطور) في القطار من الزنوج يمشون في الشوارع وكأنما هم دبلوماسيون بقبعاتهم العالية وبذلاتهم المفتوحة. في ظني أن ثمانية من كل عشرة من حارة الجبل في روكسبري كانوا إما خدماً أو عمالاً يدويين بالرغم من مظهرهم الباهر. كان الواحد منهم يقول إنه « يعمل بالبنوك » أو يعمل في « السندات » وكأنما هو روكفلر أو ميلون وليس مجرد عامل نظافة في بنك يتمخطر في حلة العمل الرسمية أو ساعي في شركة سندات. « أنا مع عائلة كبيرة » ذلك ما كان يقوله من يعمل طباخاً أو خادماً منزلياً بلكنة مصطنعة لا تكاد تفهمها. لا أستطيع أن أحصي عدد من هم فوق الأربعين أو فوق الخمسين الذين يعملون سعاة ولكنهم يتأنقون بالبذلات السوداء والياقات البيضاء وكأنما هم سفراء ويقصدون أماكن عملهم في « الدولة» أو في « دنيا المال » أو في « المحاكم ». كنت وما زلت أندهش للزنوج الذين يتحملون خداع النفس والإساءة إليها بهذه الدرجة.

بعد فترة قصيرة بدأت أخرج من روكسبري لأستكشف مدينة بوسطن نفسها. مبان تاريخية في كل مكان وأحجار تذكارية وأسواق وتماثيل لمشاهير الرجال والأحداث. تمثال معين في ميدان بوسطن أدهشني: ذلكم هو تمثال لزنجي يدعى كِرِسْبَسْ أطاكاس والذي كان أول شهيد في مذبحة بوسطن في حرب الاستقلال. لم أكن سمعت عن أي شيء مثل ذلك من قبل أبداً.

تجولت في كل مكان. وفي إحدى المرات ذهبت حتى جامعة بوسطن وفي مرة أخرى ركبت مترو الأنفاق لأول مرة وحينما خرج أغلب الركاب تبعتهم . كانت تلك كامبردج وفيها قمت بجولة حول جامعة هارفارد التي كنت قد سمعت بها في مكان ما لكني لم أكن أعرف عنها كثيراً. لم يكن أحد يعلم في ذلك اليوم أنني بعد عشرين سنة منه سأخاطب طلاب كلية القانون بجامعة هارفارد.

كذلك قمت بجولات استكشافية كثيرة في وسط البلد. لم أفهم لماذا تحتاج أي مدينة إلى محطتين ضخمتين للسكة الحديد – المحطة الشمالية والمحطة الجنوبية في كلا المحطتين وقفت أتفرج على الناس تروح وتغدو كما فعلت نفس الشيء في محطة الباص التي قابلتني فيها إللا. كذلك قادتني قدماي إلى الميناء حيث أحواض السفن والأرصفة وهناك قرأت اللوحات التذكارية عن السفن الشراعية القديمة التي كانت تزور ذلك الميناء.

وصفت كل ذلك في خطاب إلى ولفرد وهيلدا وفلبرت وريجنالد ووصفت لهم الطرق الضيقة الملتوية المرصوفة بالحجارة والبيوت المتلاصقة . قلت لهم إن في وسط البلد في بوسطن متاجر لم أر أكبر منها وحكيت لهم عن مطاعم الرجل الأبيض

وفنادقه. ذكرت لهم أنني صممت أن أشاهد كل فيلم يعرض في دور العرض الأنيقة مكيفة الهواء.

في شارع ماساتشوستس وبجوار أحد دور العرض هذه – دار لُوْي ستيت – تقع قاعة روزلاند للرقص الضخمة المثيرة. كانت لوحات الإعلان الكبيرة تعلن عن الفرق القومية الشهيرة – بيضاء وزنجية – التي تقدم عروضها في تلك القاعة. «تحضر الأسبوع القادم» ذلك ما كانت تقوله اللوحة، عن فرقة جلن ميلر. تذكرت كيف كانت أسطوانات تلك الفرقة تعزف طول المساء في حفلات الرقص في مدرسة ميسون الثانوية وتساءلت :هل هنالك شيء يأبى أولئك أن يدفعوه لمشاهدة فرقة جلن ميلر تعزف أمامهم ؟ لم أكن أدري كم ستصبح هذه القاعة مألوفة لدي في مستقبل الأيام.

بدأت إللا تقلق عليَّ لأنني حتى وبعد أن شبعت سياحة لم أكن أبقى كثيراً في المنزل. بدأت تلمح لي بأنني يجب أن أختلط بالصبيان الطيبين من عمري الذين كنت أراهم في بقالة تاونسند الصيدلية على بعد مربعين من المنزل وفي بعض الأماكن الأخرى. غير أنني كنت دائماً وقبل أن أحضر إلى بوسطن أنظر إلى الصبيان من عمري وأعاملهم وكأنهم أطفال في عمر أخي ريجنالد وكانوا بدورهم يتطلعون إليّ وكأنما أنا أكبُرُهم بكثير. في لانسنج كنت في نهاية الأسبوع أهرب من صحبة البيض وأبقى مع جوقة الكبار من أصدقاء ولفرد وفلبرت. ومع أنهم كانوا يكبرونني عمراً إلا أن حجمي كان أكبر وكنت أبدو وكأنني أكبر عمراً من معظمهم.

لم أشأ أن أغضب إللا ولكنني بالرغم من نصيحتها كنت أذهب إلى الجيتو (حي الفقراء) . كنت أنجذب طبيعياً إلى عالم البقالات والشقق المفتوحة والمطاعم الرخيصة والحانات وواجهات الكنائس ودكاكين الروبابيكا. لم يكن ذلك الجزء من المدينة أكثر إثارة فحسب، ولكنني كنت أيضاً أشعر بالاسترخاء الذهني وسط الزنوج العاديين غير المتكلفين. وبالرغم من أنني كنت أسكن في منطقة الجبل إلا أنني لم أشعر أبداً أنني أفضل من الزنوج الآخرين.

قضيت شهري الأول في المدينة فاغراً فاهي دوماً من الاستغراب وسلب لبي الشبان المتأنقون الذين يوجدون دوماً في قاعات البلياردو والحانات والمطاعم والذين لا يبدو أنهم يعملون في أي مكان. كنت أستغرب لشعرهم المتموج اللامع مثل شعر البيض وقد أخبرتني إللا أن ذلك يسمى « كُونْك ». لم أكن قد ذقت الخمر من قبل لا ولم أدخن سيجارة وهنا رأيت الأطفال الصغار من الزنوج وأعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يلعبون الورق ويتشاجرون ويجرون وراء الكبار ليضعوا لهم نكلة أو بريزة في

المراهنـات وأشـيـاء مثـل ذلـك. أمـا عـن لغـتهم فحـدِّث ولا حـرج مـن كلمـات بذيئـة وتعبيرات عامية مثل « الفحل » و « القط » و « الفروج» و« الرزين » و « الهب ». وكنت كل ليلة أسترجع هذه الكلمات في ذهني قبل النوم. أما ما صدمني فهو أن أرى وبخلاف ما رأيت في بلدتي فتاة بيضاء مع شاب أسود يتمشيان في المساء على قارعة الطريق وذراعها في ذراعه أو أن أرى ثنائياً من اللونين يحتسيان الخمر في الحانات وتحت الأضواء وليسا مختبئين في ركن المطعم. ذلك من الأشياء التي ذكرتها لفلبرت وولفرد في خطابي لهما.

أردت أن أجد لنفسي عملاً مفاجأة لألَلا وبعد ظهر أحد الأيام حدثتني نفسي أن أدخل في إحدى قاعات البلياردو التي كنت أحملق فيها من الخارج . كنت أمر بها كثيراً وأنظر من خلال زجاج النوافذ ولم أكن مشتاقاً للعب البلياردو إذ أنني حقيقة لم أحمل عصاتها مطلقاً من قبل. لكن ما جذبني إليها كان منظر «القطط» الذين تبدو عليهم الثقة بالنفس وهم يقفون حول الطاولات الخضراء والبيضاء يتراهنون ويضربون الكرات اللامعة الملونة في الثقوب المعدة لذلك. كنت واقفاً أحدق من خلال الزجاج في إحدى المرات بعد الظهر حينما قررت أن أغامر وأدخل لأتكلم إلى شخص سمين داكن البشرة مكوي الشعر رأيته يعد الكرات للاعبين وسمعتهم ينادونه بشورتي (القصير) وكان قبل ذلك بزمن رآني في الخارج وحياني «هالو ، رِدْ » مما جعلني أعتقد أنه شخص ودود.

تسللت إلى الداخل بدون جلبة وبعيداً عن الجانب الذي توجد فيه طاولة البلياردو متحاشياً الناس وقاصداً الخلف حيث كان شورتي يقف حاملاً علبة ألمنيوم بها المسحوق الذي يمسح به اللاعبون أيديهم. رفع شورتي رأسه ونظر إليّ. في المستقبل كان شورتي يقول مازحًا :كيف أنه من أول نظرة عرف قصة حياتي قائلاً وهو يضحك :« يا صاح، لقد كانت البداوة تشتم من ذلك القط ! » وكيف أن أرجلي كانت طويلة جداً وبنطالي قصير إلى درجة أن ركبي كانت بادية بينما شعري كرقعة من شعر كلب أسود ضخم.

لم يشعرني شورتي تلك الليلة بأن مظهري بدوي عندما قلت له أن يدلني كيف أعثر على عمل من نفس النوع.

« إذا كنت تقصد رص الكرات، فلست أعلم عن مكان هنا يحتاج إلى عمال. هل تبحث عن أي استرقاق (عمل) تجده ؟! » سألني عن خبرتي فأجبته أنني غسلت الأطباق في ميسون، ميشجان. كادت علبة المسحوق أن تسقط من يده وهو يقول : «يا بن بلدي ! يا صاح، ارفع قناعك. أنا من لانسنج أيضاً».

لم أخبر شورتي أبداً كما أنه لم يشك إطلاقاً أنه يكبرني بعدة سنوات إذ أنه افترض أننا متقاربان عمراً. في البداية كنت سأشعر ببعض الحرج لإخباره وبعد ذلك لم أعد أهتم. ترك شورتي المدرسة بعد السنة الأولى الثانوية في لانسنج وعاش لفترة مع عم وعمة له في ديترويت كما أن له الآن ست سنوات في روكسبري لكنه تذكر كثيراً من أسماء الأشخاص والأماكن في لانسنج التي ذكرتها له وبعد مدة بدا وكأننا ترعرعنا في نفس الحي. كنت أشعر بسروره لملاقاتي ومن جانبي لا أحتاج أن أقول :إنني شعرت بأنني محظوظ لمصادفة شخص متفتح مثلما كان يبدو على شورتي.

« يا صاح ، هذه مدينة مبهجة إذا عرفتها وأنت ابن بلدي ، سأعلمك أشياء كثيرة مما يجري هنا .» قال شورتي لي ذلك وأنا أقف وعلى وجهي ابتسامة بلهاء. « هل أنت في طريقك إلى مكان ما الآن ؟ لماذا لا تنتظر حتى ينتهي دوامي ؟ »

شيء واحد حببني في شورتي في الحال وذلك هو صراحته. وعندما أخبرته بمكان سكني أخبرني ما كنت أعرفه مسبقاً من أن لا أحد في المدينة يطيق زنوج الجبل ولكنه قال إن أختاً تهيئ لي مكاناً للسكن مجاناً وبدون أن تطلب مني أن أبحث عن عمل لا يمكن أن تكون إنساناً سيئاً. علمت منه أن عمله في قاعة البلياردو إنما كان بهدف إعاشته وهو يتدرب على إتقان عزف البوق وأنه كان قد ربح مالاً في المراهنات قبل عامين واشترى به ساكسفوناً « وهو الآن في الدولاب جاهزاً لدرس الليلة .» كان شورتي يأخذ دروساً مع « فحول » آخرين ويأمل أن تكون له فرقته الصغيرة في يوم من الأيام. « هنالك فرص كثيرة لعمل الخبز(كسب المال) هنا في روكسبري». شرح لي شورتي طموحه قائلاً:

« إنني لا أحب الانضمام إلى فرقة كبيرة لأنفخ طول الليل كي يقال إنني كنت مع كاونت باسي أو الدوق أو أي شخص. » قلت لنفسي إن ذلك تفكير سليم وتمنيت لو أنني كنت تدربت على عزف البوق ولكنني لم أكن تعرضت إلى ذلك أبداً من قبل.

قضيت كل الوقت بعد الظهر وأنا استمع إلى شورتي يحدثني بين جولاته وهو يرص الكرات متحدثاً من زاوية فمه يخبرني: مَن من المقامرين الواقفين حول الطاولة أو اللاعبين كان يبيع لفات المخدرات وأيهم خرج لتوه من السجن وأيهم كان من رجال الصف الثاني. أخبرني أيضاً أنه يقامر بدولار يومياً على الأقل في المراهنات وأنه حينما يكسب مبلغاً كبيراً سيستخدمه لإنشاء فرقته. شعرت بالخجل عندما اضطررت للاعتراف بأنني لم أقامر أبداً في المراهنات فعذرني شورتي قائلاً : « ذلك لأنك لم تكن تملك ما تقامر به ويمكنك أن تبدأ عندما تجد

عملاً وإذا كسبت فستكون لديك جائزة. »

أشار شورتي إلى بعض المقامرين والقوادين الذين كانت مع بعضهم مومس بيضاء ثم همس : « لا أكذبك فأنا أعجب بهؤلاء المومسات البيضاوات اللائي تتقاضى الواحدة منهن دولارين. هنالك نشاط كبير هنا وسترى.» أجبت بأنني رأيت بعضهن ثم سألني : « هل قضيت وطرك مع واحدة منهن ؟ »

شعرت بالخجل من عدم درايتي وهي تتكشف وهنا قال شورتي : « لا عليك يا رجل ولا تشعر بالحرج . لقد تمكنت أنا من بعضهن قبل أن أترك لانسنج – هل تذكر البولونيات اللائي كن يعبرن الجسر ؟ أما هنا فأغلبهن من أصل إيطالي وإيرلندي ولكن أصلهن لا يهم فهن شيء جد مختلف وليس هنالك شيء يحببن أكثر من فحل أسود».

طوال تلك الفترة كان شورتي يقدمني إلى العازفين والزبائن ويقول : « إنه ابن بلدي وهو يبحث عن عمل إذا كنت تعرف عن أي عمل.» وكلهم كانوا يردون بأنهم سيتذكرون ذلك.

في الساعة السابعة أتى ميعاد ذهابه وأخبرني أنه مستعجل لكي يذهب إلى درس الساكسفون ولكنه قبل أن يغادر مد لي يده وبها ستة أو سبعة الدولارات التي جمعها ذاك اليوم من البقشيش قائلاً : « هل معك خبز كاف، يا بن البلد ؟ » أخبرته أنني بخير وأن معي دولارين ولكنه أصر أن آخذ منه ثلاثة أخرى : « دعها تنفخ جيبك قليلاً.» قبل أن يترك شورتي المكان فتح حقيبة الساكسفون وأراني البوق الذي كان من نحاس لامع يرقد على مخمل أخضر من النوع الذي يسمى ألتو ساكس. « ابق ساكناً يا بن بلدي وعد إلى هنا غداً . بعض هؤلاء القطط سيجد لك عملاً».

عند وصولي البيت أخبرتني إللا أن شخصاً يدعى شورتي اتصل هاتفيًا وترك لي رسالة فحواها أن ماسح الأحذية في قاعة روزلاند ستيت للرقص سيترك العمل تلك الليلة وأن شورتي أخبره أن يحتفظ بالوظيفة لي.

« مالكوم، إنك عديم الخبرة في مسح الأحذية » ، قالت إللا ذلك وكان واضحاً من نبرة صوتها والتعبير الذي على وجهها أنها لا تريدني أن أقبل ذلك العمل . أما أنا فلم أكن مهتماً بما تقول إذ أنني كنت صامتاً أفكر في أنني سأكون على مقربة من أعظم الفرق الموسيقية في العالم. لم أنتظر ولا حتى لتناول طعام العشاء.

كانت قاعة الرقص تسبح في الأضواء عندما وصلت وكان رجل الباب يفسح الطريق لأعضاء فرقة بني جودمان عندما أخبرته أنني أود مقابلة فِردِي، ماسح

الأحذية . سألني: « أنت ماسح الأحذية الجديد ؟ » قلت :له أظن ذلك فضحك وقال: « ربما تكسب أنت في المراهنات وتشتري كاديلاكاً أيضاً. » أخبرني أنني سأجد فردي في غرفة الرجال في الطابق الثاني.

قبل أن أصعد إلى الطابق الأعلى تقدمت داخل القاعة لأسرق نظرة ولم أصدق كبر حجم تلك الأرضية الملمعة بالشمع . في الطرف الآخر وتحت الأضواء الهادئة كان المسرح وعليه موسيقيو فرقة بني جودمان يتحركون ويضحكون ويتكلمون وهم يجهزون آلاتهم ومنصاتها.

حياني في الطابق الأعلى شخص أسمر نحيف شعره مكوي قائلاً : « أنت بلديات شورتي ؟ » أجبته بالإيجاب فعرفني بنفسه قائلاً أنه فردي. « يا له من ولد طيب ! لقد اتصل بي حالما عرف أنني كسبت في المراهنات وقدر صائباً أنني سأترك العمل.» أخبرت فردي بما قاله لي رجل الباب عن الكاديلاك فضحك فردي وقال : « هؤلاء القطط البيض يغلون عندما يعلمون أن واحداً منا قد وجد لنفسه شيئاً . سأشتري كاديلاكاً وذلك فقط لإغاظتهم. »

بعد ذلك نصحني فردي أن أكون واعياً وأخبرني أنه سيكون مشغولاً وأن عليّ أن أبقى وأراقب ولكن بدون تدخل وأنه سيحاول أن يهيئني للوظيفة حتى أستلمها بعد حفلة الرقص القادمة أي بعد ليلتين. وبينما فردي مشغول بتهيئة منصة الأحذية قال لي : « أحضر إلى هنا مبكراً ... ضع الفرشاة وخرق المسح من هذا الجانب ... قوارير الطلاء والشمع والفرشاة الجلدية من هنا ... كل شيء في مكانه. فالعمل هنا مستعجل وعليك الاقتصاد في الحركة».

وأنا أمسح الأحذية تعلمت أن أراقب الزبائن وهم يدخلون غرفة المرحاض وأهرول إلى هنالك وأقدم لهم منشفة بيضاء صغيرة.

« كثير من هؤلاء القطط لا ينوون غسل أيديهم ولكنهم يخجلون من أنفسهم عندما تقدم لهم المنشفة. فلتعلم أن منشفتك هي أهم أدواتك فغسلها يكلفك بنساً واحداً بينما قد تحصل على ٥ بنسات بقشيش على الأقل . أيضاً أنفض الغبار عنهم وعن الزبائن الذين تمسح أحذيتهم وسيعطونك شيئاً. كذلك مثل دور العم توم (الزنجي المنافق) قليلاً فهؤلاء البيض يحبون ذلك وسيجزلون لك العطاء إن فعلت . لقد رأيت بعضهم يعود أكثر من مرة من أجل ذلك.»

من القاعة بالأسفل بدأ صوت الموسيقى يتسلل إلينا ويبدو أن الانبهار ظهر على وجهي لأن فردي سألني : « ألم تر حفلاً كبيراً راقصاً من قبل ؟ أدخل وتفرج حيناً.» كان هنالك قليل من الأجواز يرقصون تحت الأضواء البنفسجية لكن الجمهور كان أكثر شيء بهرني . كان هنالك أكبر عدد من السيدات البيضاوات الفاتنات

رأيته في حياتي – الصغار، الكبار، ورجال بيض يشترون التذاكر من الشباك ويحشرون حزماً خضراء من البنكنوت في جيوبهم، يناولون معاطف نسائهم للنادل، ثم يأخذون نسائهم من أيديهن إلى الداخل. عندما عدت إلى الطابق الأعلى وجدت بعض الزبائن المبكرين عند فردي وبدا لي فردي وهو يمسح الأحذية ويرمي إلىّ بالمنشفة وكأنما كان يقوم بأربعة أشياء في آن واحد. «هنا خذ منفضة الغبار وتذكر، مجرد هزتين خفيفتين أو ثلاث لكن تأكد أنهم أحسوا بها.» وعندما هدأت الأمور بعض الشيء قال فردي: « إنك لم تر شيئاً بعد. انتظر حتى ترى رقصة الشبح، ياه، سيرقصها بنو جنسنا.» كان فردي لا يدع فرصة تفوت وهو يعلمني. «هنا أربطة للأحذية هدية مني إليك بما أنك مبتدئ. اشتر الربطة بنكلة وذكرهم إن كانوا يحتاجون لرباط وبع لهم الواحد ببنسين.»

كل أسطوانة سمعتها لبني جودمان من قبل كان صوتها يأتينا خافتاً وفي إحدى الاستراحات دعاني فردي أن أتسلل لأتفرج. كانت بيجي لي تغني في المايكروفون. يا سلام! كانت بيجي والتي هي أصلاً من ولاية داكوتا الشمالية، قد انضمت حديثاً للفرقة وقد اكتشفها بني جودمان عندما كانت تغني مع مجموعة في شيكاغو. ذلك ما سمعت بعض الزبائن يقولون. أكملت بيجي الغناء وانفجر تصفيق الجمهور مدوياً إذ أنها كانت في قمة شعبيتها في ذلك الوقت.

« لقد انبهرت أنا مثلك حينما أتيت هنا لأول مرة »، قال فردي ذلك وهو يبتسم عندما عدت. « ولكن قل لي. هل مسحت أحذية من قبل؟ » ضحك حينما أخبرته أنني لم أمسح سوى حذائي. « حسناً. دعنا نبدأ فأنا أيضاً لم أفعل ذلك قبل مجيئي إلى هنا.» جلس فردي على المقعد وبدأ يمسح حذاءه بنفسه: مسح بالفرشة، بعض الطلاء، مسح، بعض الدهان، خرقة التلميع، ورنيش اللك، وخطوة بخطوة أراني فردي ما عليّ أن أفعل.

« ولكن عليك بالسرعة إذ لا ينبغي أن تضيع الوقت.» بدأ فردي يوضح لي ذلك مستعيناً بحذائي وعندما بدأ العمل يخف أراني فردي كيف أجعل صوت الخرقة تفرقع مثل الصاروخ وسألني: « أيروق ذلك لك؟ » كرر فردي التجربة بحركات بطيئة ثم نزلت أنا من على المقعد لأجربها على حذائه فتمكنت منها. « عليك بالسرعة. إن صوتها غريب، ذلك كل ما في الأمر ولكن هؤلاء القطط يجزلون العطاء حينما يسمعونه فهم يظنون أنك تجهد نفسك لإرضائهم.»

عند نهاية الحفل سمح لي فردي بمسح أحذية ثلاثة أو أربعة من السكارى المترنحين الذين أقنعهم بمسح أحذيتهم ثم تدربت على السرعة في حذاء فردي حتى صار يلمع كالمرآة. بعد أن انتهى الحفل وبعد أن ساعدنا الفراشين في نظافة قاعة

الرقص من الورق وأعقاب السجائر والزجاج الفارغ ، كان فردي لطيفاً وأخذني إلى بيت إللا في عربته البويك البنية التي سيستبدلها بكاديلاك. كان يتحدث طوال الطريق.« لا أعتقد أن هناك ضرراً من نصحك بأن تحمل معك درزناً من المطاط وتبيع الجوز منها بدولارين. هل لحظت بعض هؤلاء القطط الذين يحضرون إليّ في نهاية الرقص ؟ حسنا ، حينما تكون أمورهم سألكة مع فتاة جديدة سيحضرون إليك ويسألونك عن بعض المطاط . بع الواحدة بدولار وستتحصل على بقشيش إضافي.»

نظر إلى وجهي وقال: « بعض الأشغال الأخرى ليس لديك استعداد لها بعد . سيحضر إليك بعضهم يسأل عن خمر أو لفافة مخدرات ولكن لا عليك منها الآن حتى تعرف من فيهم الشرطي.»

« يمكنك أن تتحصل على عشرة أو اثنى عشر دولار كل ليلة إذا أتقنت أمورك . ما عليك أن تتذكره هو أن كل شيء في الحياة إنما هو سباق . مع السلامة ، يا أحمر.» تلك كانت آخر كلماته في تلك الليلة. في المرة الثانية التي رأيت فيها فردي كنت في وسط البلد ذات ليلة بعد عدة أسابيع من آخر لقاء وكان هو داخل عربته الكاديلاك ذات اللون الرمادي اللؤلؤي والتي كانت تلمع كالمسيمير.

« أنت حتمًا علمتني يا صاح !» قلت ذلك فضحك وهو يدري ما أقصد . لم أقض زمناً طويلاً قبل أن أدرك أن فردي كان بالكاد يمسح الأحذية ويقدم المناشف وأكثر عمله كان بيع الخمر واللفافات وتعريف الرجال البيض بالعاهرات السمراوات . كذلك أدركت أن الفتيات البيضاوات يهرعن إلى مراقص الزنوج ، بعضهن عاهرات أحضرهن قوادوهن بغرض المتعة والعمل وبعضهن حضرن مع أصدقائهن من الفتيان الزنوج وأخريات أتين معهن بحثاً عن المتعة وسط الرجال الزنوج المتلهفين.

في حفلات البيض الراقصة لم يكن مسموحاً ، بالطبع ، للزنوج بالدخول وهنا كان مجال قوادي العاهرات السمراوات حيث يعلمون ماسح الأحذية الجديد كيف يدس رقم هاتف أو عنواناً للبيض الذين يحضرون عند نهاية الحفل يبحثون عن «الفراريج السوداء».

كانت معظم حفلات قاعة روز لاند للبيض فقط وتعزف فيها فرق بيضاء فقط لكن الفرقة البيضاء الوحيدة التي عزفت في حفل رقص زنجي كانت فرقة شارلي بارنت فيما أذكر. حقيقة الأمر أن الفرق البيضاء لم تكن تطفئ عطش الزنوج إلا أن فرقة شارلي بارنت ومعزوفتها « شيروكي» و «رمبا البشرة الحمراء » كانتا تهيجان الزنوج . كانوا يزحمون القاعة والفتيات السمراوات يرتدين فساتين الحرير

وأحذية الساتان وشعورهن منسقة بألف طريقة وطريقة والرجال يلمعون في بذلاتهم الزوتية وشعورهم المكوية« كونك » والجميع يكشرون مدهونين.

كان بعض أعضاء الفرقة يحضر إلى غرفة الرجال في حوالي الثامنة ويمسح حذاءه قبل العمل . (ديوك النجتون، كاونت باسي ، ليونل هامبتون ، كوتي وليامز، جيمي لنصفورد)، تلك أسماء بعض من جلسوا على مقعدي . كنت أجعل خرقة المسح تفرقع كصاروخ صيني. ومازال جوني هودجز، عازف الألتوساكس في فرقة ديوك ومعبود شورتي، مديناً لي بثمن تلميع حذائه . كان على المقعد ذات ليلة يتجاذب أطراف الحديث مع ضارب الدف ، صني جرير، الذي كان واقفاً ، حينما خبطت على قعر حذائه معلنا الانتهاء . نزل هودجز من على المقعد وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها وفات ناسياً لي من خلفه . لم أكن أجرؤ على سؤال الرجل الذي فعل ما فعل بمقطوعة « حلم يقظة » أن يدفع خمسة عشر بنساً.

أذكر أنني بدأت حديثاً صغيراً في منصة مسح الأحذية مع جيمي رَشِنْج ، عازف البلوز العظيم في فرقة كاونت باسي (المشهور بمقطوعة « أرسلت في طلبك الأمس، ها أنت تحضرين اليوم» وأشياء أخرى مماثلة). كانت قدما رشنج – فيما أذكر – كبيرتين وشكلهما غريب ، لم تكن طويلة كمعظم الأقدام ولكنها مدورة ومفلطحة كرشنج نفسه. المهم أنه قدم إليَّ بعض قطط فرقة باسي الآخرين مثل (لستر يونج، هاري أديسون ، بضي تيت، دون بياز، ديكي ولز، وبك كليتون) – كانوا حين يدخلون إلى غرفة المرحاض يحيونني بعد ذلك : « هاي، رد ! » ثم يجلسون على مقعد مسح الأحذية وفرقعة صوت خرقة المسح ينطلق في تناسق مع أصوات الموسيقى ورأسي يدور معهما الاثنين . لم يكن لأولئك الموسيقيين معجب من بين ماسحي الأحذية في أي مكان في شدة إعجابي أنا . كتبت عن ذلك لولفرد وهلدا وريجنالد في لانسنج محاولاً وصف ذلك .

لم أكن أحصل على بقشيش محترم إلا بعد أن يكون حفل الزنوج في منتصفه حينما يبدأ الراقصون ينتشون ويزيد كرمهم . كنا بعد حفلات البيض ، ونحن ننظف قاعة الرقص نرمي بعيداً حوالي دستة من الزجاج الفارغ . ولكن بعد حفلات الزنوج كنا نرمي صناديق كاملة ملأى بزجاجات الخمر الفارغة ولم تكن من النوع الرديء بل أجود الأنواع بما فيها الوِسْكي الاسكتلندي.

عندما تهدأ حركة العمل في غرفة الرجال كنت أحياناً أجد لنفسي خمس دقائق أتفرج فيها على الرقص . كان البيض يرقصون وكأنما دربهم أحد على ذلك – يسار ، واحد، اثنين، يمين، ثلاثة، أربعة – نفس الخطوات ونفس النسق وكأنهم ساعة مُلِء زنبركها. أما أولئك الزنوج فلا يستطيع أي معلم رقص في العالم

أن يدرب على ذلك الذي كانوا يشعرون به وهم يرقصون. كانوا يخطفون شريكاتهم في الرقص خطفاً بمن فيهن الفتيات البيضاوات اللائي كن يحضرن لمراقص الزنوج . سيستاء مني كثير من أخوتي الزنوج اليوم حينما أقول إن بعض الرجال الزنوج كانوا يكادون يمشون فوق الفتيات الزنجيات وهم يتدافعون نحو الفتيات البيضاوات وكأنهن ملائكة نزلت من السماء . لقد تغيرت الأحوال بالتأكيد وإذا حدث ذلك اليوم فإن أولئك الفتيات الزنجيات لن يتركن أولئك الرجال الزنوج ولا الفتيات البيضاوات من غير توبيخ .

على أية حال، بعض هؤلاء ، الأزواج كانوا ينطلقون تماماً، يندفعون في الجانبين وإلى أعلى ويأتون خطوات وحركات لا تصدق. كنت أكاد أشعر بدوي الطبول في عظامي مع أنني لم أرقص أبداً .

« ساعة الاستعراض» كانت تحل حينما يبدأ الناس في الصراخ في الساعة الأخيرة من الرقص . حينها يبقى في الساحة دزينة من الثنائيات وتغير الفتيات أحذيتهن بأخرى منخفضة من القماش ثم تبدأ الفرقة في تفجير الموسيقى ويلتف البقية في دائرة حول الحلبة وهم يصفقون ويصرخون في انتظار المنافسة لتشتد وكل ذلك في جزء فقط من القاعة. كانت القاعة تشبه سفينة في طريقها إلى الغرق مع كل هؤلاء الموسيقيين والمتفرجين والراقصين والصراخ والتصفيق والرقص ، وكان الضوء يتحول بسرعة إلى بنفسجي، أحمر، أصفر، أخضر، وهو مركز على راقصي اللندي وكأنما بهم مس من جنون . « اندب، يا رجل، اندب ! » وتبدأ الموسيقى وكأنها تندب ثم بعد ذلك يبدأ الراقصون في التساقط مثنى إثر آخر يتعثرون نحو الجمهور منهكين في بحر من العرق. أحياناً كنت وأنا خارج الجمهرة أقفز فوق وتحت في بذلتي الرمادية وفرشاة الغبار في جيبي إلى أن يحضر مدير الدار ويهتف بي أن هنالك بعض الزبائن في إنتظاري .

لا أذكر متى تناولت أول كأس وأول سيجارة ولا حتى أول لفافة قنب ولكني أذكر أن كل هذه الأشياء أتت سويًا مع أول مرة ألعب الورق وأقامر في المراهنات عندما بدأت أختلط بشورتي وجماعته. كان شورتي يضحكنا بمزحاته عن بداوتي وكنت مازلت كذلك – أدرك ذلك الآن – إلا أنني تقبلتها في سرور لأنهم قبلوني كواحد منهم . كنا نجتمع في منزل أحدنا – عادة منزل إحدى الفتيات – وكانت اللفافات تدير رؤوسنا والوسكي يجعلها تنتشي . والكل عرف أن على شعر رأسي أن يبقى لفترة أطول ليطول بما فيه الكفاية قبل أن يكوى . ذات ليلة أخبرت شورتي أنني ادخرت ما يكفي لشراء بذلة زوت .

لم يصدق شورتي أذنيه وصاح : « ادخار ؟ ألم تسمع بالأقساط يا بن البلد ؟ »

أخبرني شورتي أنه سيتصل غداً صباحاً بأحد تجار الأزياء في المنطقة وأن علي أكون هنالك مبكراً . ذهبت وقابلني البائع ، شاب يهودي ، عندما دخلت وقد دهشت لكثرة معارف شورتي . كتب البائع اسمي على ورقة استمارة ومكان عملي وعنواني في منزل إللا ثم كتب اسم شورتي كمزكٍ لي ثم قال : « شورتي واحد من أحسن زبائننا.»

أخذ البائع مقاساتي ثم تناول بذلة زوت من بين البدل المعلقة وكانت بذلة صارخة: بنطال في زرقة السماء يضيق عند الركبة ثم الأرجل وجاكتة ضيقة في الوسط تنزل تحت الركبة . وكهدية أعطاني الرجل حزاماً جلدياً عليه حرفي الأول « ل » ثم نصحني أن أشتري قبعة فاشتريت واحدة عليها ريشة مغروزة في شريط عريض . ثم أعطاني هدية أخرى هي سلسلة طويلة وسميكة مطلية بالذهب تدلت إلى ما تحت الركب . منذ تلك اللحظة أصبحت مدمناً للشراء بالتقسيط .

عندما لبست البذلة أمام إللا نظرت إليَّ طويلاً وقالت : « حسناً ، كنت أعلم أن ذلك لابد من أن يحدث.» ذهبت بعد ذلك إلى إحدى ماكينات التصوير الذاتي الرخيصة ووقفت أمامها كأحد هؤلاء الصعاليك الذين يتمخطرون في بذلات الزوت، قبعتي مائلة، ركبي مضمومة وأقدامي منفرجة وأصابعي السبابة تشير إلى الأرض . مثل تلك الوقفة تجعل من الجاكتة الطويلة والسلسل المتدلي والبنطلون البنجابي أكثر درامة . وقعت بإسمي على إحدى الصور وأرسلتها إلى اخوتي في لانسنج ليروا أنني بخير ثم أعطيت واحدة لإللا والثالثة لشورتي الذي هزته تلك اللفتة كما بدا من تعليقه : « شكراً يا ابن بلدي.» كان عدم إبداء العاطفة جزءاً من العرف في سلوكنا.

بعد فترة قصيرة من ذلك قرر شورتي أن شعري كان طويلاً بدرجة كافية لكيه وكان قد وعدني أن يعلمني كيف أتفادى دفع ثلاثة أو أربعة دولارات للحلاق بعمل معجون الكونجولين بنفسي وكي الشعر به.

أخذت قائمة المقادير الصغيرة التي كتبها لي وذهبت إلى دكان البقال حيث اشتريت علبة من محلول القلي ماركة « الشيطان الأحمر» ، بيضتين وقطعتين من البطاطا متوسطتي الحجم . ثم من صيدلية قريبة اشتريت برطماناً كبيراً من الفازلين ، صابونة ، مشطاً كبيراً ، وآخر صغيراً ، أنبوبة بلاستيك طويلة برأس معدني ، مريلة مطاط وقفازات .

سألني صاحب الصيدلية : « هل تنوي كيَّ شعرك كونك لأول مرة ؟» أجبت فخوراً وأنا أبتسم : « تماما».

كان شورتي يدفع ستة دولارات أسبوعيًّا كإيجار لغرفة في شقة ابن عم له وكان ابن العم ذلك لا يبقى في الشقة كثيراً . « كأنما هي شقتي فهو يقضي أغلب وقته مع فتاته، » قال شورتي ذلك ثم طلب مني أن أراقبه. قشر شورتي البطاطا ثم قطعها إلى شرائح صغيرة في جرة فواكه فارغة ثم بدأ يمزجها بملعقة خشبية ثم صب تدريجياً نصف علبة محلول القلي فوقها. « لا تستعمل ملعقة معدنية لأن المحلول سيجعلها سوداء»، تلك كانت ملحوظته .

تحول المعجون إلى شكل هلامي بسبب محلول القلي والبطاطا ثم كسر شورتي البيضتين وصبهما وهو يمزج بسرعة منحنياً فوق المعجون الذي تحول لونه إلى أصفر باهت « تحسس الجرة » أمرني شورتي بذلك ووضعت يدي حولها لأسحبها بسرعة «أنت محق فهي ساخنة من أثر المحلول.» ثم استمر في الحديث « الآن تدري أنها ستحرق وأنا أمشط شعرك . أنها مؤلمة جداً ولكن كلما تحملتها لفترة أطول كلما زاد اعتدال شعرك.»

طلب مني شورتي أن أجلس ثم ربط المريلة حول عنقي بحزم ومشط شعري ثم ملأ يده من برطمان الفازلين ودلك بها شعري ورأسي بشدة كما دهن مؤخرة عنقي وأذني وجبهتي بشدة. حذرني شورتي قائلاً : « عندما أبدا في غسل شعرك تأكد أن تقل لي إذا شعرت بحروق في أي نقطة » ثم غسل يديه ووضع القفازات وربط مريلته هو وأضاف : « تذكر أن أي نقطة من الكونجولين نتركها ستحدث جرحاً في رأسك».

في البداية شعرت بدفء الكونجولين ولكن رأسي اشتعل بعد ذلك . ضغطت على أسناني وأنا أقبض على طاولة المطبخ . كان المشط وكأنما أسنانه تخرق جلد رأسي . أدمعت عيناي ورشحت أنفي . لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك فقفزت إلى حوض الغسيل لاعناً شورتي بكل اسم أتى على لساني عندما بدأ شورتي يرش شعري بالبخاخة ويدلك شعري برغوة الصابون . كان يضع الصابون ثم يغسل شعري بالماء ويكرر ذلك ربما عشر أو اثنتا عشرة مرة وكل مرة يقلل من الماء الساخن إلى أن برد الماء مما خفف عني بعض الشيء .

« هل تشعر بحرقان في أي نقطة ؟ ».

« لا» . قلت ذلك وأرجلي ترتجف .

« تمهل في جلستك . أعتقد أن كل شيء على ما يرام».

عادت النار إلى رأسي حينما بدأ شورتي يجفف شعري بمنشفة سميكة وهو يدلك . « مهلاً ، يا صاح، مهلاً !» استمررت أنا في الصراخ . « المرة الأولى دائماً هي أصعب مرة . ستعتاد عليها بعد فترة وجيزة. لقد تحملتها بصبر جميل يا بن البلد والآن عندك

مكـوة كونـك جيـدة » . عنـدما سمـح لـي شـورتي بـالوقوف والنظـر في المـرآة رأيـت شعري نـازلاً في سـبيبات رطبـة متموجـة وكـان رأسـي مـا زال مشـتعلاً ولكـن بدرجـة محتملة . لف شورتي المنشفة حولي ثم بدأ يمسح شعري بالفازلين مرة أخرى.

كنت أشعر به وهو يمشط شعري إلى الخلف بالمشط الكبير مرة ثم بالصغير . بعد ذلك أحضر موسي وبدأ يستعملها برقة في رقبتي من الخلف ثم أخيراً جعل لـي سـالفين قصيرين .

أول نظـرة في المـرآة جعلـت الألم يختفـي . لقـد رأيـت شـعوراً مكـوية وجميلـة قبـلاً ولـكـن عندما يكون الشعر المكوي على رأسك أنت لأول مـرة فيـا للتحـول العجيب بعد حياة من الشعر المجعد .

رأيـت صـورة شـورتي في المـرآة مـن خلفـي وكـلانـا مبتسـم وسـابح في العـرق وعلـى رأسـي هـذه الخصلـة الناعمـة مـن الشـعر الأحمـر – أحمـر جـداً – معتـدلاً كشـعر أي رجل أبيض.

يا للسخف ويا للغباء ! أن أقف أمام المـرآة مزهـواً بشـعري لأنـه صـار كشـعر البيض. أقسمت يومها أني لن أبقى بدون كي شعري في المستقبل وكذلك كنت لسنين طويلة قادمة.

تلك كانت خطوتي الأولى الكبرى نحو إذلال النفس. أن أتحمل كل ذلك الألم وأن أحرق لحمي فعليًا فقط كي أتشبه بـالبيض . انضممت إلى تلك الجمهـرة الكـبيرة من الزنوج في أمريكا الـذين تم غسـل مخهـم كـي يؤمنـوا بـأن الجـنس الأسـود جـنس أدنـى منزلـة وأن الجـنس الأبـيض أعظـم إلى درجـة أنهـم يمسـخون ويشـوهون أجسـامهم الـتي خلقها الله ليصبحوا في « أحسن تقويم » بمقاييس الرجل الأبيض.

انظر حولك اليوم ! انظر في كل مدينـة صـغيرة و كـبيرة ، في البقـالات الصـغيرة أو في ردهة فندق والدروف استوريا وستجد زنوجاً بشـعر مكـوي « كونـك ». سـتجد نسوة سوداء يرتـدين شـعوراً مسـتعارة حمـراء ، وخضـراء وبنفسـجية وقرمزيـة وشـعور شـقراوات بشعر بلاتين . ذلك أكثر سخفاً من أي كوميديا رخيصة . سيجعلك ذلـك تتساءل هل فقد الرجل الأسود حاسته وهويته ؟ هل فقد الإحساس بنفسه ؟

سترى رجالاً بشعر مكوي ومحروق بين ما تسمى « بالطبقـة العليـا » وسـط الزنـوج – ومع أني لا أحب أن أذكـر ذلـك – بـين كـثير مـن الفنـانين الزنـوج . أحـد الأسـباب الـتي كـانـت تجعلني أعجـب ببعضـهم علـى نحـو خـاص، هـي أن ذلـك الـبعض – مثـل ليونـل هامبتون وسيدني بواتيه – تركوا شعرهم على طبيعته وحاربوا ليصلوا القمة في فنهم .

لا أدري أيهما أكثر احتقاراً للنفس ومدعاة للخجل – الشعور المحروقة والمكوية

على رأس من يسمون « بالطبقة العليا » و« الطبقة الوسطى » المفترض فيهم المعرفة ، أم التي على رأس الطبقات الفقيرة المسحوقة الجاهلة من بين السود ؟ أقصد من يتقاضون أدنى الأجور قانوناً ويسكنون في الجيتو مثلي عندما كووا شعرهم لأول مرة . هذا النوع الأخير هو الذي يضع منديله على رأسه مثل « العمة جمايما » في الإعلانات والذين يحاولون أن يطيلوا من عمر الشعر وهو مكوي بين كل زيارتين للحلاق ولا يرفعون المنديل عن رأسهم إلا في مناسبات خاصة ليتباهوا بشعرهم . السخرية في الموضوع هي : أنني لم أسمع أبداً امرأة بيضاء أو سوداء تبدي إعجاباً بشعر مكوي . حتمًا إن المرأة البيضاء عندما تخرج مع شاب أسود لا تفكر بشعره . لكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لامرأة سوداء تفخر بجنسها أن تمشي في الشارع مع رجل أسود شعره مكوي بتلك الطريقة – أن علامة خجله هي أنه أسود.

عندما أقول هذا الكلام فأنا أقصد نفسي أولاً لأنه لم يكن هنالك زنجي أخلص للكي مثلي . إني أقول لأي رجل أسود يكوي شعره وأية امرأة سوداء تضع شعراً أبيض مستعاراً ، أنهم لو أعطوا المخ الذي في رؤوسهم نصف ما يعطونه لشعورهم من اهتمام لكانوا أحسن حالاً بألف مرة مما هم عليه .



■ الباب الرابع

لـــورا

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



كان شورتي يأخذني إلى أجواء أخدودية مثيرة في مختلف شقق الفراريج والقططط حيث الأضواء الخافتة والموسيقى الحالمة وحيث الكل ينفخ ويعتصر ويثب . قابلت فراريج في جودة خمر مايو وقططاً وأعين لكل ما يحدث من حولهم .

اختيار كلمات هذه الفقرة متعمد بالطبع لاستعراض كلمات أكثر من اللغة العامية التي كان يستعملها كل شخص متفتح كنت أحترمه في تلك الأيام . وقبل أن يمضي أي وقت كنت أتحدث تلك اللغة كشخص قضى عمره كواحد منهم . وكغيري من مئات الألوف من الزنوج الذين نشأوا في الريف ثم قدموا للجيتو الأسود في الشمال قبلي وبعدي ، حزت على كل المكملات الشائعة لسكان الجيتو — بذلات الزوت ، الشعر المكوي كما وصفت ، العرَق ، الدخان ولفافات الحشيش — وكل ذلك لكي أخفي أصلي الريفي . هنالك سر واحد لم أبح به لأحد من شدة خجلي هو أنني لم أكن أستطيع الرقص .

لا أذكر بالضبط في أي ليلة تعلمت الرقص غير أن الرقص كان في ذلك الزمن أهم شيء في حفلات الشقق إلا أنني لا أشك في كيف ومتى تم تدشيني في رقصة اللندي . مع الكحول والحشيش ونشوتهما في الرأس والموسيقى تصرخ من الفونوغراف المحمول لم تأخذ غرائز أصلي الأفريقي وقتاً طويلاً قبل أن تنطلق . كل ما أذكره أنه في أثناء إحدى الحفلات في تلك الفترة وعندما كان الكل تقريباً يرقص جرتني فتاة إلى الحلبة — أي فتاة لم تكن تتخيل أن أيًا من الحاضرين لا يعرف الرقص —

وهكذا وجدت نفسي في حلبة الرقص .

كنت أدفع بالمناكب مع الجميع وفجأة وبدون مقدمات تمكنت من الرقص . كانت كأنما أدار أحدهم زر الإضاءة فشقت كل غرائزي الأفريقية المكبوتة طريقها إلى السطح وانطلقت. كنت وأنا في بيئة بيضاء في مدرسة ميسون أتوجس من الرقص وأؤمن أنه يتطلب نظاماً معيناً ونسقاً محدداً من الخطوات كما كان يرقص البيض . أما هنا ووسط أهلي غير المكبوتين فقد اكتشفت أن الأمر لا يتعدى ترك قدميك ويديك وجسدك يتفاعلون بعفوية بأية حركات تثيرها تلك الموسيقى في النفس . منذ ذلك اليوم لم تقام حفلة إلا وأنا فيها – أحياناً بدون أن أُدعى إليها – أرقص اللندي إلى أن يطير رأسي .

كنت دائماً أتعلم الأشياء الجديدة بسرعة وبدأت بسرعة أعوض ما فاتني لدرجة أن الفتيات صرن يسألنني أن أراقصهن . من جانبي كنت أرهقهن رقصاً وذلك ما حببهن فيّ بشدة.

في مكان العمل في غرفة الرجال في روزلاند استيت لم أكن أطيق أن أبقى ساكناً . كان صوت خرقة تلميع الأحذية يفرقع مع نغمات موسيقى الفرق الكبيرة التي كانت تهز القاعة وكان الزبائن من البيض يضحكون عندما يحسون بقدمي تلمس أقدامهم وتنطلق فجأة في خطوة أو خطوتين . البيض محقون في اعتقادهم أن الزنوج راقصون بطبيعتهم . حتى الأطفال الصغار هم كذلك – ما عدا الزنوج الذين « اندمجوا » في المجتمع الأبيض مثلي لدرجة انكبتت معها غرائزهم. هل تعرفون لعبة « الجيجابو الراقص» التي تعبأ كالساعة ؟ حسناً ، كنت مثلها والموسيقى هي التي تحركني .

في ميعاد الحفل التالي للزنوج – والذي كان سيحيه ليونل هاميتون فيما أذكر – أخطرت مدير قاعة روزلاند أنني سأترك العمل . ضحكت إللا بصوت عال حينما أخبرتها بذلك وبأنني لا أستطيع أن أجد الوقت للرقص ومسح الأحذية معاً وقد سرها ذلك لأنها أصلاً لم تعجبها فكرة العمل في وظيفة وضيعة . وعندما أخبرت شورتي بذلك رد بأنه كان يعلم أنني سأكبر على تلك الوظيفة بسرعة .

كان شورتي يعرف الرقص إلا أنه لم يكن يهتم بحفلات الرقص الكبرى إذ أنه كان مولعاً بالجانب الموسيقي منها فقط . كان يتدرب على آلة الساكسفون وينصت إلى الإسطوانات وقد أدهشني كثيراً عدم ميله لحضور حفلات الفرق الكبرى والاستماع لموسيقاها. كان معبوده هو جوني هودحز عازف الألتوساكس في فرقة ديوك إلنجتون ولكنه كان يقول أن كثيراً من صغار الموسيقيين ليسوا إلا مجرد نسخة بالكربون من كبار العازفين . الشيء الوحيد الذي كان شورتي جاداً فيه هو موسيقاه واليوم الذي ستكون له فيه فرقته الصغيرة تعزف في أنحاء مدينة بوسطن .

في فجر اليوم التالي بعد أن تركت روزلاند حضرت إلى متجر الملابس الرجالية مبكراً وهناك اشتريت أخيراً بذلتي الزوت الثانية . راجع البائع حسابي ووجد أنه قد فاتني دفع قسط واحد فقط وأنني مصنف في درجة أ - ١ في سداد الديون فقلت أنني تركت العمل لتوي لكنه قال :إن ذلك لا يعني شيئاً ولا مانع من أن يفوتني قسطان إذا اضطررت لذلك . كان يعرف أنني سأسوي حسابي .

هذه المرة تفحصت كل البذلات الموجودة من مقاسي وأخيراً اخترت بذلتي الزوت رقم اثنين . كانت من الشركسين الرمادي بجاكتة كبيرة وطويلة وبنطال منتفخ عند الركبة وضيق عند الساقين لدرجة أنني خلعت حذائي قبل أن أرتدي البنطال وبتشجيع من البائع أخذت قميصاً آخراً وقبعة وحذاءاً جديداً من النوع الذي كان الموضة حينها: لونه برتقالي غامق، كعبه في خفة الورق مع عقدة في المقدمة . وبلغت التكلفة الكلية سبعين أو ثمانين دولاراً . كنت في ذلك اليوم طرباً إلى درجة أنني ذهبت وكويت شعري (كونك) في مكان حلاق لأول مرة وهذه المرة لم أتألم بشدة ، تماماً مثلما تنبأ شورتي .

في تلك الليلة خططت أن أدخل قاعة روزلاند في الوقت الذي يبدأ الناس فيه في الازدحام. في الردهة المكتظة رأيت بعضاً من حرابيق روكسبري وهم ينظرون منبهرين إلى بذلتي الزوت وبعض النساء الأنيقات ينظرن إليّ بإعجاب . ذهبت إلى غرفة الرجال لأتناول شيئاً من القنينة التي كانت في جيب معطفي . وهناك وجدت بديلي - شابا أسمر ضيق الوجه، جائع النظرة ، متوجساً وصل لتوه من مدينة كانساس . وعندما تعرف علي لم يستطع أن يخفي إعجابه وتعجبه فقلت له إن عليه أن يبقى هادئاً وأنه قريباً سيتفتح على الأحداث .

كان كل شيء على ما يرام عندما دخلت إلى قاعة الرقص ، فرقة هامبتون تعزف والأرضية اللامعة مكتظة بالناس ترقص في جنون . جررت فتاة لم أرها قبلاً وفي ثوان كنا نرقص بشدة ونبتسم لبعضنا . لم يكن هنالك ما هو أجمل من ذلك.

في السابق كنت أرقص اللندي في غرف الجلوس في الشقق الضيقة ، أما الآن فالمجال واسع . عندما سخنت وانفرجت أعصابي كنت أنتزع الفتيات من بين المئات اللائي كن بدون رفيق وكلهن يرقصن ببراعة وانطلقت أنا أرقص كالمتوحش . كانت موسيقى هامبتون تصرخ وأنا أدور بالفتيات في الرقص حتى تكاد تنوراتهن تطير . فتيات سود ، سمر ، صفر وحتى اثنتان من البيضاوات الموجودات . كنت أقذف بهن فوق حجري، فوق كتفي ، في الهواء . ومع أنني لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من عمري إلا أنني كنت طويلاً وهيكلي فاخراً مثل ابن الواحد والعشرين كما كان جسمي أقوى من عمري . كنت أدور، أنقر بقدمي ، أقذف

بهن في الهواء وأتلقاهن عندما يسقطن وأؤدي كل الرقصات مثل رقصة « الصقر نافض الجناجين » و « الكنغر » و « الانفصال ».

بعد ذلك لم تفتني رقصة لندي في روزلاند طالما أنا في مدينة بوسطن .

كانت أعظم شريكة لي في الرقص من جميع النواحي فتاة تدعى لورا . قابلت لورا في وظيفتي الجديدة. كان سرور إللا بتركي مسح الأحذية عظيماً إلى درجة أنها بحثت لي عن عمل من النوع الذي ترضاه . على بعد مربعين من بيتها كان متجر الصيدلي تاونسند على وشك أن يستبدل عامل صنبور المياه الغازية الذي كان في طريقه للانضمام إلى الدراسة الجامعية . وعندما أخبرتني إللا بذلك لم ترق لي الفكرة . كانت تعلم أنني لا أتحمل أهالي الجبل ولكني لم أشأ أن أصارحها لأنها كانت ستجن ولم أكن أريد لذلك أن يحدث وهكذا ارتديت الجاكتة البيضاء وبدأت أعبئ المياه الغازية والبوظة وخليط الحليب والأشياء المماثلة من صنبور المياه الغازية لأولئك الزنوج المزهوين . كنت حينما أعود للمنزل كل ليلة بعد الثامنة تخاطبني إللا : « لكم أتمنى أن تتعرف على بعض الفتيات الطيبات من عمرك هنا في روكسبري » إلا أنني كنت أتضايق من هؤلاء المعدمين الذين يمشون ويتحدثون وكأنهم مليونيرات ، كبارهم وصغارهم . أشخاص مثل الخادمة التي تعمل وتقيم عند عائلة بيضاء من بيكون هيل (حي البيض الأغنياء في بوسطن) والتي تأتي داخلة بلهجة « أواه يا عزيزي » وتطلب أعواد الذرة من عند متجر البقال اليهودي. أو مثل المرأة التي تعمل في كافتيريا المستشفى والتي تحضر في يوم أجازتها لتجلس وحول عنقها فراء لتقول لصاحب المحل أنها «فني أغذية» وكلاهما يعرف أنها إنما تكذب . وحتى الصغار من عمري الذين كانت إللا تتحدث عنهم ، كان محل صنبور المياه الغازية أحد أماكن تجمعهم و في فترة قصيرة جعلوني أفكر في ترك العمل وهم يتحدثون بلهجتهم التي إذا كنت سمعتها من غير أن تراهم لما خمنت أنهم زنوج . لم أكن أستطيع الانتظار حتى تأتي الساعة الثامنة لأذهب إلى المنزل وآكل طعام أخوان الروح من مائدة إللا ثم أرتدي بذلتي الزوت وأخرج لزيارة منازل بعض الأصدقاء في وسط البلد لكي أرقص وأنتشي أو أعمل أي شيء يريح أعصابي بعيداً عن أراجوزات الجبل .

لم يمض وقت طويل قبل أن أشعر أن الاستمرار في ذلك العمل بساعاته الثمانية كل يوم مستحيل وقد كدت أن أتركه . أذكر أنني ذات ليلة فكرت في ترك العمل بعد أن كسبت من عشرة بنسات دفعتها في المراهنات الجانبية التي اشتركت فيها في المتجر وكانت أول مرة أكسب شيئاً. (نعم كان سكان الجبل يراهنون وحتى الزنوج المحترمون يراهنون.) كسبت ستين دولاراً ابتهجنا بها أنا وشورتي . وتمنيت لو أني كسبت من الدولار الذي كنت أشارك به ابن بلدي كل يوم وأدفع

له كل أسبوع لكنت حينها تركت العمل واشتريت عربة .

على أية حال كانت لورا تسكن في بيت في الركن المقابل من الشارع الذي فيه الصيدلية وبعد مدة قصيرة صرت كلما أراها قادمة أعد بوظة الموز التي كانت تحبها كثيراً . كانت لورا تحضر متأخرة كل يوم بعد الظهر من المدرسة . استمررت أقدم لها البوظة كل يوم بإلحاح لمدة خمسة أو ستة أسابيع قبل أن استقر في ذهني أنها ليست كالأخريات . كانت الوحيدة من فتيات الجيل التي كانت حينما تحضر تتصرف بود وعلى سجيتها . كانت دائماً تحمل معها كتاباً وتنهمك فيه لمدة ثلاثين دقيقة قبل أن تكمل بوظة الموز . كذلك بدأت ألاحظ نوع الكتب التي معها وكانت من النوع الجاد : لاتيني ، جبر ، وأشياء مثل ذلك . فكرت وأنا أراقبها أنني لم أقرأ ولا حتى صحيفة منذ أن تركت مدينة ميسون .

لورا . سمعت بعضهم يناديها بذلك الاسم عندما كانت في المتجر ولكنني لاحظت أن ذلك الشخص لا يعرفها جيداً لأن « هالو » هي كل ما قاله . كانت تجلس وحيدة ولا تتكلم مع أحد سوى كلمة « شكراً » قالتها لي مرة . صوت جميل . ناعم . هادئ . ولا كلمة أخرى أبداً . ولكنها لم تكن متغطرسة مثل الآخرين . لم تكن « بوسطونية سوداء » بل كانت ذاتها فقط .

أعجبني ذلك كثيراً وبعد مدة قصيرة بدأت التحدث إليها ، لا أدري عن أي موضوع بدأت ولكنها تجاوبت معي بود وبدأنا نتحدث . عرفت منها أنها طالبة بالمدرسة الثانوية ومن طلبة الامتياز وأن والديها انفصلا عندما كانت صغيرة وأن جدتها – التي كانت عجوزاً متقاعدة ، متدينة وصعبة – قد ربتها . كانت لها صديقة واحدة هي فتاة زميلتها في المدرسة تسكن في كامبردج وكانتا تتحادثان من خلال الهاتف يومياً . وجدّتها لا تدعها تذهب للسينما دعك من الخروج مع الصبيان .

كانت لورا تحب المدرسة جدًّا وأخبرتني أنها تنوي أن تدخل الجامعة وأنها تحب علم الجبر وتخطط لأن تتخصص في العلوم . ولم تكن لورا لتتخيل أنها تكبرني بسنة وقد عرفت أنا ذلك بطريقة غير مباشرة لأنها كانت تتطلع إليّ وكأنما أنا خبير بأمور الدنيا أكثر منها وتلك حقيقة. بعض الأحيان عندما تروح كنت أشعر بالحسرة لأنني هجرت الكتب التي كنت أحبها حينما كنت في ميشجان .

صرت أتشوق لمقدمها كل يوم بعد المدرسة وأصبحت لا آخذ منها نقوداً وأعطيها بوظة إضافية ومن جانبها لم تخفِ إنها تستلطفني . ولم يمض وقت طويل قبل أن بدأت تترك القراءة عندما تحضر . كانت فقط تجلس وتلعق البوظة وتتحدث معي وبدأت تشجعني أن أكلمها عن نفسي . تأسفت حالاً ذكرت لها عرضاً أنني فكرت مرة أن أصبح محامياً

ولم تدع ذلك يمر بدون تعليق : « مالكوم ، ليس من سبب يمنعك من البدء من حيث أنت الآن لتصبح محامياً » . كانت لديها فكرة أن إللا ستساعدني بكل ما تستطيع . وحقيقة كانت إللا إذا سمعت أن أحد أعضاء أسرة لتل يود أن يمتهن أية مهنة – مدرس ، طبيب أقدام ، أية مهنة – تفعل أي شيء بوسعها لتساعده في تحقيق ذلك .

لم أذكر شورتي للورا قط لأني كنت أعلم أنها لم تكن لتفهمه أو تفهم أيًا من تلك المجموعة . وأنا متأكد أن أحدا لم يلمس لورا وأنها لم تذق خمراً ولم تكن لتعلم ما هي اللفافة . كانت مفاجأة كبيرة لي عندما ذكرت هي عرضاً ذات مرة أنها مغرمة برقص اللندي فسألتها كيف تمكنت من الخروج للرقص فردت أنها تعلمت رقصة اللندي في بيت والدي إحدى صديقاتها الزنجيات التي كانت قبلت لتوها في جامعة هارفارد .

كان الوقت وقت الإغلاق في المتجر حينما قلت لها أن كاونت باسي سيعزف تلك الليلة في الروزلاند وهل لها أن تصحبني ؟ كبرت عيناها وظننت أن عليّ أن أمسكها قبل أن تقع من الفرح . قالت إنها لم تزر الروزلاند أبداً من قبل ولكنها تتخيل ما تكون عليه من الداخل وأنها على استعداد أن تدفع كل ما تملك لتزورها إلا أن جدتها ستجن لو عرفت بذلك – قلت لها ربما تتمكن من ذلك في المستقبل .

ولكن في نفس يوم حفلة الرقص حضرت لورا بعد الظهر وكلها ابتهاج . همست لي أنها لم تكذب قط لجدتها من قبل ولكنها أخبرتها أن عليها أن تحضر بعض النشاطات المدرسية في تلك الأمسية . أخبرتني أنها ستذهب معي إذا كنت سأعيدها للبيت مبكراً وإذا كانت دعوتي مازالت قائمة . قلت لها أن علينا أن نذهب إلى البيت أولاً حتى أغير هندامي فترددت ثم وافقت وقبل أن نغادر خابرت إللا هاتفيًّا أنني سأحضر ومعي فتاة في طريقنا إلى المرقص وبالرغم من أنني لم أفعل شيئاً من ذلك النوع قبلاً أخفت إللا دهشتها .

كنت أضحك لنفسي كثيراً بعد ذلك حينما أتذكر كيف فغرت إللا فاها حينما رأتنا – أنا مع فتاة من الجبل ! كانت لورا ودودة وصادقة حينما قدمتها لإللا التي غمرتها بالإعجاب. تركتهن يتحادثن وصعدت إلى غرفتي لأرتدي ملابسي . أذكر أنني غيرت رأيي وبدلاً من أن أرتدي بذلة الشاركسين الزوت الرمادية التي كنت قررت ارتداءها مسبقاً ، ارتديت بذلتي الزوت الأولى الزرقاء . كنت أدرك أن عليّ أن أرتدي أكثر هندام محافظ عندي .

كانتا كأصدقاء قدامى حينما نزلت إليهما ووجدت أن إللا أعدت لها شاياً . كانت نظرة إللا المعترضة تكاد تنزع بذلتي الزوت من جسمي ولكنني متأكد أنها حمدت الله إنني لم أرتد الشاركسين . معرفتي بإللا تجعلني متأكداً أنها استخلصت من لورا تاريخ حياتها وأنها قررت في نفسها أنني يجب أن أتزوج لورا –

وكنت أبتسم داخل عربة الأجرة ، طول الطريق إلى روزلاند لأنني برهنت لإللا أن بإمكاني أن أصادق فتيات الجبل الراقيات إذا شئت .

كانت عيون لورا واسعة من الفرحة وأخبرتني ألا أحد من معارفها يعرف جدتها التي لم تكن تذهب إلى أي مكان سوى الكنيسة ، لذا لم يكن هنالك خوف من أن جدتها ستعرف . الشخص الوحيد الذي أخبرته لورا كان صديقتها التي شاركتها الفرحة .

ثم إذا بنا في ردهة روزلاند المزدحمة وها أنا أقابل بالتحايا والابتسامات والأيدي التي تلوح لي . كانوا ينادونني «يا صديقي» « هاي ، يا أحمر » وأرد عليهم بـ : « دادي — أو ».

لم نرقص سويًّا من قبل إلا أن ذلك لم يكن يمثل إشكالاً البتة . فأي شخصين يستطيعان الرقص الفردي يستطيعان الرقص معا . بدأنا الرقص في الأرضية وسط جمع كبير به أكثر من ثنائي وكنا في منتصف الرقص عندما أدركت كيف كانت ترقص .

إذا كنت رقصت اللندي مرة فستعرف ما أتحدث عنه . مع أغلب الفتيات يرقص الواحد في مواجهتهن — تدور وتتخطى وتميل وبأي ذراع تقود تكون تلك الذراع شبه منحنية إلى الخارج وتعطي يديك دفعة صغيرة ، شدة صغيرة ، تلمس خصرها ، كتفها ، ذراعها . وإذا كانت شريكة الرقص غير قديرة تشعر بثقلها وبطئها . أما إذا كانت راقصة قديرة فكل ما تحتاجه هو أن تقودها بالإيماء فقط . يقادنَّ بلا مجهود حتى والفتاة تقفز في الهواء وتؤدي أنت حركاتك على الأرض ثم تتلقاها وهي تهبط وعندما تنضم إليك على الأرضية تكون خطواتكما في توافق وانسجام .

لقد رقصت مع فتيات قديرات كثيرات ولكنني اكتشفت فجأة وأنا أرقص مع لورا أنني فقدت الوزن . لم أفكر بحركة إلا واستجابت راقصة . على أية حال كانت ترقص فقط فوق ، تحت، تحت ذراعي ، تطير في الهواء وأنا أختبر طريقتها في الرقص وألاحظ ما تعمله بقدميها . بإمكاني أن أغمض عيني الآن وأراها في مخيلتي وكأنما هي راقصة باليه — يا للجمال ! كانت خفيفة كالظل . لو سألوني من هي شريكتي المثالية في الرقص كنت سأقول أنها شخص في خفة لورا مع قوة تجعلها تواصل الرقص إلى أن ينتهي العرض . لكني كنت أعلم أن لورا ليست لديها كل تلك القوة .

في هارلم وبعد ذلك بسنوات علمني صديق لي يدعى « سامي القواد » شيئاً تمنيت لو كنت أعرفه عندما كنت أراقص لورا لأبحث عنه في وجهها . أعلن سامي أن العلامة التي لا تخطئ في معرفة شخصية المرأة الباطنية الحقيقية يمكن اكتشافها من الرقص . وإذا تذكرنا عدد النساء اللائي انتقاهن سامي وحولهن إلى بغايا فسندرك أنه خبير النساء . أقسم سامي أن المرأة ، أية امرأة ، تنغمس مندفعة بشدة في الرقص

ستكشف عن شخصيتها في تعابير وجهها أو عما يمكن أن تكون مستقبلاً .

لا أقصد أن صورة فتاة منحلة ظهرت على وجه لورا وهي ترقص – لكن الحياة قست عليها ابتداء بمقابلتي . كل ما أود أن أقوله أنني إذا كنت وقتها في خبرة سامي فلربما تعرفت إلى أشياء في داخلها ستتحقق وتصدم جدتها .

بعد أن ينقضي ثلث الأمسية تقريباً يأتي دور المغنيين والعازفين الكبار وتأتي ساعة الاستعراض التي يبقى فيها على الأرضية فقط أقدر الراقصين للتنافس وإزاحة بعضهم البعض من الحلبة . يقف كل الراقصين الآخرين في شكل نصف دائرة والفرقة في الجانب الآخر . أما الفتيات اللائي سيشتركن في المنافسة فينسحبن جانباً ويضعن أحذية قماش على أقدامهن بدلاً من الكعب العالي لأن الكعب العالي يعوقهن من المنافسة . كانت دائماً توجد أربع أو خمس فتيات بدون رفيق يبحثن عن فتى قدير في رقصة اللندي يشاركهن .

نفخ كاونت باسي معلناً بداية ساعة الاستعراض وتحرك الآخرون خارج الحلبة للوقوف في مكان استراتيجي للفرجة قبل أن يبدأوا يهتفون لراقصيهم المفضلين . « كل شيء تمام يا أحمر ! » ، « تقدم واهزمهم يا أحمر ! » وفجأة جرت نحوي فتاة بدون رفيق كنت رقصت معها تدعى مامي بيفيل تعمل نادلة وترقص بوحشية بينما لورا واقفة قبالي . لم أدر ماذا أفعل حينما بدأت لورا تنسحب نحو الجمهور وهي ترمقني بنظرة .

بدأت موسيقى كاونت تصرخ وخطفت مامي وبدأنا الرقص . كانت ضخمة قوية وخشنة ترقص مثل حصان مندفع . مازلت أذكر الليلة التي أصبحت فيها مامي من الراقصات المفضلات في ساعة الاستعراض في روزلاند . كانت الموسيقى تنفجر حينما قذفت بحذائها وبدأت ترقص حافية وهي تصرخ وجسدها يهتز وكأنما هي في حمى غابة أفريقية ثم كشفت عن رقص وهي تصرخ مع كل خطوة حتى أن زميلها في الرقص كاد يفقد السيطرة عليها . الجمهور عادة يحب أي نوع من رقص اللندي المفعم بالإثارة والحركة وذلك ما جعل مامي معروفة لديه .

بدأت أقتادها كالحصان بالطريقة التي تحبها وعندما انتهت النمرة وتركنا الأرضية كنا نسبح في العرق والناس تصيح وتدق الأرض بأقدامها من حولنا .

أذكر أنني غادرت مبكراً مع لورا لأوصلها إلى منزلها في الموعد . كانت هادئة طوال الطريق ولم تكن تقل شيئاً لمدة أسبوع بعد ذلك حينما تحضر إلى متجر الصيدلي . حتى في ذلك الوقت كنت أعرف عن النساء ما فيه الكفاية الشيء الذي منعني من أن أضغط عليها لتتكلم عندما تكون تفكر بشيء ما . سيخبرنك في الوقت الذي يناسبهن .

صارت إللا كلما تراني تغمرني بالأسئلة : « متى سأرى أنا لورا ثانيا ؟ هل

سأحضرها للمنزل مرة أخرى ؟ يا لها من فتاة مهذبة ! » لقد قررت لي من سأتزوج لكنني لم أكن أفكر بتلك الطريقة ولا في تلك الفتاة وعلى ذكر المواضيع الشخصية فقد كان بالي فقط في أناقتي وارتداء بذلة الزوت بعد العمل والجري إلى وسط البلد للاختلاط مع شورتي والآخرين – والفتيات اللائي يعرفون – مليون ميل بعيداً عن الجبل وأهله .

لم أكن أفكر في لورا عندما حضرت إليّ في دكان الصيدلي وطلبت مني أن آخذها إلى حفل الرقص القادم في روزلاند . كان ديوك النجتون سيعزف هنالك وكانت في قمة الإثارة . ولم تكن لدى أدنى فكرة عما سيحدث .

طلبت مني أن أحضر لأخذها من منزلها في هذه المرة وبالرغم من أنني لم أكن أود مقابلة جدتها العجوز إلا أنني ذهبت . أجابت جدتها على جرس الباب وكانت امرأة سوداء محافظة تملأ التجاعيد وجهها وشعرها أشيب منكوش . فتحت لي الباب لأدخل بدون أن تتفوه بأية كلمة ولا حتى « أدخل يا كلب ! » في غرفة الجلوس العتيقة كانت هنالك صور قديمة للمسيح وسجاد منسوج بالدعوات وتماثيل المسيح مصلوباً وأشياء دينية أخرى على الموقد والرف والطاولات والحائط وفي كل مكان .

بما أن السيدة العجوز لم تتحدث إليّ فلم أتحدث أنا بدوري إليها . إنني الآن أتعاطف معها كلية بالطبع فماذا كان يمكن أن تقول لشخص بهيئتي تلك ، بذلة زوت وشعر مكوي وحذاء برتقالي اللون . ربما كانت قد أسدت لنا جميلاً لو صرخت منادية الشرطة . وإذا طرق بابنا اليوم شخص في مثل حالتي تلك طالباً مقابلة ابنتي فإنني سأنفجر فيه غضباً .

هرعت لورا إلى الغرفة وهي ترتجف في معطفها وكان واضحاً لي أنها مستاءة وغاضبة ومحرجة . في داخل عربة الأجرة بدأت تبكي . كانت قد كرهت الكذب وقررت أن تخبر جدتها بحقيقة وجهتها ودارت معركة من الصراخ بينهما فيها أخبرت لورا جدتها أنها (لورا) ستذهب إلى أي مكان تحب وفي أي وقت تشاء وإلا فإنها ستترك المدرسة وتجد لنفسها عملاً وتسكن في مكان آخر لوحدها . هاجت الجدة لذلك ولكن لورا خرجت بلا مبالاة .

في روزلاند رقصنا في بداية الحفل مع بعضنا ومع شركاء آخرين إلى أن أفتتح ديوك ساعة الاستعراض .

كنت أعلم ولورا تعلم أنه ليس بمقدورها منافسة فتيات ساعة الاستعراض ولكنها أخبرتني أنها تود أن تنافس . في لحظة كانت بين الفتيات اللائي ينسحبن جانباً لتغيير أحذيتهن. هززت رأسي بالرفض حينما جرت نحوي اثنتان من الفتيات

اللائي لا رفيق لهن . وكالعادة بدأ الجمهور يصفق ويهتف مع ضربات الموسيقى : «تقدم ، يا أصهب ، تقدم ! » تركزت الأضواء علينا وذلك بسبب أسلوب لورا في الرقص الذي يشبه رقص الباليه . لم يكونوا قد رأوا الرشاقة وخفة الريش التي عكستها في أدائها لرقصة اللندي – أسلوب جديد تماماً أمام جمهور ذواقة . رفعت أنا الحرارة وكانت أقدام لورا تطير في الجو – كنت أقذفها في الهواء ، تحت ، جانباً ، حولي ، خلفي ، فوق مرة أخرى ، تحت وهي تدور .

كان الضوء مركزاً علينا أغلب الوقت. التفت لألحظ الثنائيات الأربعة أو الخمسة الأخرى – فتيات قويات متوحشات تفر وتكر كالحيوانات . ولكن لورا الصغيرة أوحت لي بقمم جديدة ، كان شعرها يغمر وجهها وهي تتصبب عرقاً ولم أصدق قوة جسدها والجمهور يصرخ ويدق الأرض بقدميه . لقد اكتشفوا نجماً جديداً وكان حائط من الصراخ حولنا . شعرت بها تتعب وكانت قد بدأت ترقص كمحارب على قدميه وتعثرنا نحو الجمهور . كانت موسيقى الفرقة ما زالت تتفجر فاضطررت أن أحملها جزئيًا وهي تتنفس بصعوبة . صفق لها بعض العازفين وحتى ديوك النجتون قام بنصف انحناءة من مقعده أمام البيانو .

إذا أحب جمهور ساعة الاستعراض أداءك فإنه يحيط بك عندما تنتهي ويحتضنك الناس ويربتون على ظهرك بشدة ويكادون يهرسونك كفريق كسب الجولة . التف بعض من الجمهور حول لورا وساعدوها على الوقوف أما أنا فكانوا يربتون على ظهري بشدة حينما وقعت عيناي على عيني هذه الشقراء الجميلة ... لم أكن رأيتها أبداً بين الفتيات البيضاوات اللائي كن يحضرن إلى حفلات روزلاند الراقصة للسود . كانت تنظر إليّ من فوق لتحت .

أن تكون لك فتاة بيضاء ليست بغيًا معروفة في ذلك الوقت كان يعطي الزنجي مرتبة مميزة في روكسبري وفي كل جيتو أسود في أمريكا. وهذه التي كانت واقفة تحدق فيّ كانت أجمل من أن تصدق . شعرها على كتفيها وقدها ممتاز وملابسها لابد قد كلفت أحدهم كثيراً .

إنني أخجل من نفسي وأنا أعترف بأنني كنت قد نسيت لورا حينما خلصت نورا نفسها من الجمهور وجرت نحوي وعيناها جاحظتان – ثم وقفت . أظن أنها رأت ما رأت في تعابير وجه تلك الفتاة وتعابير وجهي حينما قمنا لنرقص أنا وتلك الفتاة . فلنسمها صوفيا.

لم تكن راقصة ماهرة ، على الأقل بمقاييس الزنوج ولكن ماذا يهمني ذلك . كنت أشعر بعيون الآخرين من حولنا تحدق فينا . تحادثنا أثناء الرقص وقلت لها إنها راقصة ماهرة وسألتها إين تعلمت ذلك . كنت أحاول أن أعرف لماذا هي هنالك

. أغلب الفتيات البيضاوات يحضرن إلى مراقص السود لأسباب أعلمها ولكنك نادرًا ما تجد واحدة مثلها هنالك . كانت إجاباتها عائمة لكننا اتفقنا أثناء الرقص أنني سآخذ لورا إلى منزلها مبكراً وأعود بسرعة في عربة أجرة كما أنها سألتني إن كنت أود أن أركب معها عربتها للتنزه بعد ذلك . شعرت بأنني محظوظ جداً .

أخذت لورا لمنزلها وعدت إلى الروزلاند في ساعة واحدة فقط وكانت صوفيا في انتظاري في الخارج . مشينا مسافة خمسة مربعات حيث كانت عربتها المكشوفة . ركبنا العربة واتجهنا خارج مدينة بوسطن حيث دلفت في شارع جانبي ثم إلى طريق مهجور وأوقفت كل شيء ما عدا مذياع السيارة . في ستة الشهور التالية كانت صوفيا تحضر وتأخذني في عربتها وكنت آخذها إلى المراقص والحانات المختلفة في روكسبري وتقود العربة إلى كل مكان . في بعض الأحيان كنا نسهر حتى الفجر حينما توصلني أمام بيت إللا.

كنت أمشي معها متباهياً وكان الزنوج الرجال يحبونها وهي من جانبها تحب كل الزنوج . كنا نتقابل ليلتين أو ثلاثاً كل أسبوع وقد اعترفت لي أنها تخرج أيضاً مع الرجال البيض ولكن ذلك مجرد تعمية للأبصار إذ أقسمت أنه لا اهتمام عندها برجل أبيض .

كثيراً ما سألت نفسي ولكني لم أجد إجابة لسبب اقترابها مني بتلك الجرأة عندما تقابلنا أول مرة . كنت أظن أن ذلك ربما بسبب تجربة سابقة لها مع رجل زنجي ، لكنني لم أسألها أبداً ومن جانبها لم تذكر لي السبب قط . لا تسأل امرأة عن تجاربها مع الرجال لأنها إما أن تكذب عليك وتبقى جاهلاً أو تقول لك الحقيقة فيسوءك ما تقول .

المهم أنها كانت مسلوبة اللب بي فيما يبدو . لم أعد أقابل شورتي إلا قليلاً وحينما كنت أقابله مع الجوقة كان يمزح قائلا: « يا رجل ، لقد كنت أمشط الأوشاب من شعر ابن بلدي وها هو الآن وله فروج من بيكون هيل .» في الحق لقد ارتفع شورتي مرتبة لأن لتلميذه صديقة بيضاء . وعندما قدمتها له احتضنته وكأنها أخته مما هز شورتي . كان أحسن ما لقي حتى ذلك الوقت لا يتعدى بغايا بيض أو بعض النساء البيضاوات الفقيرات اللائي « اكتشفن » الزنوج وهن يعملن في المصانع القريبة .

بدأت مرتبتي تزيد عندما صرت أشاهد وأنا أتجول مع صوفيا في أنحاء المدينة المختلفة . قبل ذلك كنت مجرد واحد من الشباب أصحاب الشعور المكوية الذين يتمخطرون في بذلات الزوت ، ولكني الآن وأنا بصحبة واحدة من أروع الفتيات البيضاوات اللائي وطئت أقدامهن تلك الحانات والبارات وهي تعطيني النقود التي

أصرف ، أصبح أفذاذ « الزعران » السود وكبار « المعلمين » من مديري الكازينوهات وكبار المغامرين والعاملين في المراهنات يتوددون إليّ . صاروا يربتون على ظهري ويدعونني إلى الجلوس وتناول كأس معهم وينادونني رد (يا أصهب!) طبعاً كنت أعرف غرضهم من ذلك معرفتي لاسمي : كانوا يريدون أن يسرقوا مني امرأتي البيضاء الرائعة .

في الجيتو كما في الضواحي الراقية كان الصراع من أجل الظهور بمظهر تحسد عليه يميزك عن الآخرين هو نفس الصراع . كنت في السادسة عشرة من عمري ولم تكن لي نقود أشتري بها كلاديلاكاً ولكن كان لها « مطاطها » الخاص الرفيع كما كنا نسمي العربات في تلك الأيام . كانت لي وذلك أفضل بكثير .

لم تعد لورا إلى الصيدلية بعد ذلك طالما أنا أعمل هنالك وفي المرة التي رأيتها فيها بعد ذلك كانت حطام امرأة ذات سمعة سيئة حول روكسبري ، تدخل وتخرج من السجن . أكملت دراستها الثانوية ولكنها كانت قد بدأت تسير في طريق معوج . تحدت جدتها وبدأت تخرج وتساهر ليلاً وتشرب الخمر الشيء الذي قادها إلى المخدرات ثم إلى أن تبيع جسدها للرجال. وعندما بدأت تكره الرجال الذين يشترون جسدها تحولت إلى سحاقية . لعدة سنوات كنت أخجل من نفسي وألومها لكل ما حدث للورا وزاد من تأنيب ضميري أنني عاملتها كذلك من أجل فتاة بيضاء . العذر الوحيد الذي يمكن آن أجده لنفسي هو أنني كنت أخرس وأطرش وأعمى مثل كثير من أخوتي السود اليوم .

على أية حال لم يمض وقت طويل على تعرفي إلى صوفيا قبل أن تكتشف إللا الحقيقة عندما رأتني من النافذة في فجر أحد الأيام وأنا أنزل من عربة صوفيا . لم يكن غريبًا بعد ذلك أن تعاملني وكأنني أفعى سامة .

في حوالي ذلك الوقت ترك ابن عم شورتي الشقة ليقيم مع الفتاة التي جن بها وتكفلت صوفيا بدفع نصف الإيجار كي أسكن أنا مع شورتي ثم تركت العمل في الصيدلية ووجدت عملاً جديداً . صرت أعمل كصبي مساعد في مطعم باركر هاوس في بوسطن . كنت أرتدي معطفي الأبيض المنشي في قاعة الطعام وأحمل الأطباق والملاعق والشوك المتسخة التي يضعها النادل على صينية المونيا كبيرة وأحملها عائداً إلى ماكينة غسل الصحون في المطبخ .

بعد أسابيع وفي صباح يوم الأحد كنت أسرع إلى العمل متوقعاً أن أفصل منه لأنني وصلت متأخراً . عندما وصلت وجدت كل طاقم المطعم مشغولاً عني وفي جلبة : قصفت الطائرات اليابانية لتوها مكاناً يدعى بيرل هارير .

■ الباب الخامس

هــارلمي

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



« سندوتشات جبن وهام ممتازة ! قهوة ! حلوى ! كعك! بوظة !» وأنا أقفز بين العربات وأمر في الممرات لمدة أربع ساعات مرة كل يومين في القطار الذي يسمى «سفينة اليانكي السريعة » من بوسطن إلى نيويورك ماراً بنيوهافن وهارتفورد .

كلمنا مستر راونتري الحمال العجوز في عربة البولمان وصديق إللا عن وظيفة لي في سكة الحديد . أخبر العجوز إللا أن الحرب كانت تخطف رجال السكة الحديد بسرعة وأنهم إذا اعتقدوا أن عمري واحد وعشرون سنة فسيحصل لي على وظيفة هنالك . كانت إللا تريدني أن أترك بوسطن وأبتعد عن صوفيا وأكثر ما كانت تتمناه هو أن تراني في الزي العسكري بالكاكي والأحذية الثقيلة مثل كثير من الزنوج الذين بدأوا يكثرون في روكسبري وهم في أجازة من المعسكر . لكن صغر عمري منع ذلك .

قبلت العمل في سكة الحديد لأسبابي الخاصة . كنت دائماً أود زيارة مدينة نيويورك وقد سمعت كثيراً من القصص عن « التفاحة الكبيرة » كما كان يسميها كثيرو الترحال من الموسيقيين ، جنود البحرية ، الباعة المتجولون ، سائقو عربات البيض وأنواع مختلفة من الفتوات الذين قابلت . وحتى عندما كنت في لانسنج كنت أسمع عن سحر نيويورك ، خاصة هارلم . حقيقة كان أبي يصف لنا هارلم بفخر وأرانا صوراً لمظاهرات وصفوف أتباع ماركوس جارفي من سكان هارلم . وكلما فاز جو لويس

في بطولة ملاكمة ضد منافس أبيض كانت تظهر على الصفحات الأولى من صحف الزنوج مثل **حامي شيكاجو** و **بتسبيرج كورير والأفرو أمريكي**، صور أمواج كبيرة من زنوج هارلم يهتفون ويلوحون والمدفعجي الأسمر يحييهم من شرفة تيريزا هوتيل في هارلم . كان كل ما سمعته عن نيويورك مثيراً – أشياء مثل أضواء برودواي الوهاجة وقاعة السافوي ومسرح لمبولو في هارلم حيث تعزف أعظم الفرق وحيث ولدت أجمل الأغاني والرقصات وبزغ النجوم السود .

لكن الذهاب إلى نيويورك كان يتطلب أكثر من مجرد حزم الحقائب ومغادرة بوسطن أو لانسنج أو أي مدينة أخرى قاصداً نيويورك . كان الذهاب إلى نيويورك يتطلب بعض المال ، لذلك لم أكن أفكر كثيراً في زيارة نيويورك إلى أن أتت الفرصة المجانية للذهاب من حديث العجوز راونتري مع إللا التي كانت في جماعة كنيسته .

ما لم تكن إللا تعرفه هو أنني سأستمر في مقابلة صوفيا . عندما أخبرت صوفيا عن العمل في القطار قالت أنها ستتفلت لمقابلتي في كل ليلة أعود فيها إلى بوسطن وكان ذلك يعني مرة كل ليلتين إذا كانت ورديتي تسمح بذلك . لم تكن صوفيا تريدني أن أترك بوسطن إطلاقاً ولكن لأنها كانت تظن أنني في عمر التجنيد فإن العمل في القطار سيبعدني عن الجيش .

كان رأي شورتي أنها فرصة طيبة لي وكان هو مهموماً يخشى من استدعائه للتجنيد الذي كان يدرك أنه لابد آت قريباً . كان مثل المئات من شباب الجيتو السود الذين كانوا يتناولون مادة ما يقال أنها تجعل قلب الشخص يبدو معتلاً لأطباء التجنيد . وكان لشورتي وأنا وجميع زنوج الجيتو رأي في الحرب : « الرجل الأبيض يملك كل شيء ثم يريدنا أن نرمي أجسادنا من أجله ؟ فليحارب وحده ! » .

على أية حال وفي مكتب التخديم في السكة الحديد على شارع دوفر ، كان هنالك كاتب أبيض عجوز متعب عندما دخلت لأسجل اسمي . « العمر ، يا لتل؟ » وعندما قلت واحداً وعشرين لم يرفع رأسه من الكتابة . تأكدت أنني سأتحصل على وظيفة .

وعدوني بأني سأحصل على أول وظيفة طاه – رابع تشغر في سفرية بوسطن نيويورك وإلى أن يحين ذلك جعلوني أساعد في تحضير الإمدادات الغذائية في الفناء المقضب في شارع دوفر . « طاه رابع » كانت مجرد اسم كبير لمنظف الأطباق ولكنني لم أهتم طالما أنها تمنحني الفرصة لأسافر حيث شئت . وضعوني مؤقتاً للعمل في قطار « الاستعماري » الذي يذهب إلى واشنطن د س. كان طاقم الطهاة هنالك وعلى رأسهم طاه من جزر الهند الغربية يدعى ديوك فون ، يعملون بكفاءة لا تصدق في مكان ضيق . وكان النادلون يهذرمون بطلبات الزبائن وصوت كركرة القطار من خلفهم والطهاة يعملون كالآلات وخمسمائة ميل من الأطباق والقدور والأواني الفضية تشق طريقها نحوي . عندما يبيت

القطار ليلة في واشنطن كنت طبيعياً أذهب أتفرج في وسط البلد في واشنطن . ذهلت حينما رأيت وعلى بعد خطوات من مبنى الكونجرس زنوجاً يعيشون في حالة أسوأ مما رأيت في أفقر أحياء روكسبري ، في أكواخ خشبية أرضيتها متسخة وأزقة قذرة بأسماء مثل زقاق الخنزير وزقاق العنزة . لقد شاهدت أشياء كثيرة في حياتي ولكني لم أر مثل هذا العدد الكثيف من المتبطلين السكارى وبائعي المخدرات والقوادين وعاملي المراهنات. حتى الأطفال الصغار كانوا يجرون حفاة ونصف عراة يتسولون من أجل بنسات في منتصف الليل . أخبرني بعض الطهاة والنادلين أن أكون حذراً جداً لأن السلب والنهب والذبح يحدث كل ليلة بين هؤلاء الزنوج .... على بعد خطوات من البيت الأبيض .

لكنني رأيت أيضاً زنوجاً أحسن حالاً يعيشون في مباني طابوق أحمر مهترئة . كذلك علمت من قدامي موظفي قطار « الاستعماري » كيف أن بواشنطن « طبقة وسطى » من الزنوج يحملون شهادات من جامعة هوارد ويشتغلون كعمال نظافة وحمالين وخفراء وسائقي عربات أجرة وعمال مما شابه . وكانت وظيفة موزع البريد وظيفة ذات مكان محترم بين زنوج واشنطن .

بعد عدة زيارات عمل لواشنطن أعلمني مكتب التخديم أنه بإمكاني أخذ مكان بائع الساندوتشات في قطار « قابض اليانكي » إلى نيويورك مؤقتاً فانتهزت الفرصة . كنت في بذلتي الزوت قبل أن ينزل أول الركاب . أخذني الطهاة إلى هارلم في عربة أجرة ومرت نيويورك البيضاء أمام ناظري كفيلم سينمائي وعندما مررنا من سنترال بارك في الجهة العليا عند الجادة رقم ١١٠ فجأة بدأ لون بشرة الناس يتغير .

يمر الشارع السابع المزدحم بمكان يدعى جنة سمول التي حدثني عنها طاقم الطهاة ونحن نغادر بوسطن وكيف أنها مكانهم المفضل في هارلم وينبغي ألا تفوتني زيارته . لم أنبهر بمكان للزنوج مثلما بهرني ذلك المكان . في مشربه الدائري الفاخر الضخم رأيت ثلاثين أو أربعين زنجياً أغلبهم من الرجال يحتسون المشروبات ويتحدثون . كان أول ما بهرني ، فيما أعتقد ، أزياؤهم المحافظة وسلوكهم . قبل ذلك كنت ما رأيت عشرة من زنوج بوسطن – دعك من زنوج لانسنج – وهم يشربون إلا وهم في جلبة ولكن هنا كان كل هؤلاء الهارلميين يحتسون ويتحدثون بدون جلبة ، فقط همهمة خفيفة . كان الزبائن يدخلون ويخرجون والساقي يعرف الشراب المفضل لكل منهم ويعده لهم آلياً وأمام بعضهم قنينة كاملة .

الزنوج الذين عرفت قبلاً كانوا يعرضون أية نقود لديهم متباهين ولكن زنوج هارلم يضعون ورق البنكنوت بهدوء على المشرب . كانوا يحتسون الخمر ويومئون للساقي بلا مبالاة أن يصب كأساً لصديق بينما السقاة الذين هم في أناقة الزبائن كانوا يصرفون الأوراق النقدية أمام المشرب . كان سلوك الجميع يبدو طبيعياً وغير مصطنع وأثار ذلك

روعي . بعد خمس دقائق في جنة سمول تركت روكسبري وبوسطن إلى الأبد .

لم أكن قد عرفت بعد أن أولئك لم يكونوا ما يمكن أن نسميهم بزنوج هارلم العاديين . بعد ذلك وفي نفس الليلة اكتشفت أن في هارلم عشرات الألوف من بني جنسي الذين كانوا يثرثرون في ملابسهم الرثة مثلهم مثل الزنوج في أي مكان آخر . أما الذين رأيتهم في محل سمول فقد كانوا الصفوة الناضجة متقدمة العمر من دهاة هارلم . انتهت أعمال مراهنات اليوم ولم يبدأ قمار الليل وأعمال الإجرام الأخرى بعد . أما رواد حياة الليل العاديين الذين يعملون في وظائف عادية فقد كانوا في بيوتهم يتناولون عشاءهم بينما كان الزعران في لقائهم المسائي اليومي وحاناتهم المفضلة في كل أنحاء هارلم لهم وحدهم في تلك الساعة .

من جنة سمول ركبت عربة أجرة لمسرح أبولو . (أذكر جيداً أن فرقة جاي ماكشان كانت تعزف لأن مغني الفرقة أصبح صديقي بعد ذلك ، والتر براون الذي كان يغني « هوتي هوتي بلوز ».) من هناك وفي الجانب الآخر من الجادة ١٢٥ عند الشارع السابع رأيت تيريزا هوتيل الرمادية الضخمة العالية . كانت أروع فندق مسموح للزنوج أن ينزلوا فيه قبل أن تبدأ فنادق وسط البلد أن تقبلهم بسنوات . (تيريزا هوتيل مشهور بأنه الفندق الذي نزل فيه فيدل كاسترو عندما زار الأمم المتحدة وحقق نصراً معنويًا على وزارة الخارجية الأمريكية التي حصرت خطواته في حدود مانهاتن ولم تكن تتخيل أنه سينزل في هارلم ويترك ذلك الاثر في الزنوج.)

في الجادة١٢٦ قرب المدخل الخلفي لمسرح أبولو توجد برادوك هوتيل التي كنت أعرف أن مشربها هو مكان لقاء الزنوج المشهورين . دخلته ورأيت أمام المشرب المزدحم نجوماً مشهورين مثل دزي جلسبي ، بيل إكتساين ، بيلي هوليداي ، إللا فتزجرالد وداينا واشنطون .

بينما كانت داينا واشنطون خارجة سمعت أحدهم يقول إنها في طريقها إلى قاعة السافوي حيث كانت فرقة ليونل هامبتون ستعزف تلك الليلة وكانت داينا مغنية الفرقة . مقارنة بقاعة السافوي بدت قاعة روزلاند في بوسطن صغيرة ورثّة كما كان رقص اللندي في السافوي في حجم وروعة المكان . كان أداء هامبتون المنطلق يتماشى مع سرعة أعضاء فرقته العظام مثل أرنت كوب ، إلنوي جاكت ، دكتسر جوردون ، إلفن هايز ، جو نيومان وجورجيا جنكنز . أديت جولتين من الرقص مع فتيات في جانب الحلبة .

كان حوالي ثلث الموائد الجانبية مزدحماً بالبيض الذين يأتون غالباً لمشاهدة الزنوج يرقصون إلا أن بعضهم كان يراقص البعض وكما في بوسطن كانت هنالك عدة فتيات بيضاوات يراقصن زنوجاً . كان الناس يهتفون لهامبتون ليؤدي « طائر للوطن » وأخيراً

أداهـا. جعلني أداؤه أصدق القصة التي سمعتها في بوسطن عن تلك المقطوعة وعن كيف أنه كان ذات مرة يؤديها في مسرح أبولو حتى ظن أحد الزنوج المسطولين في البلكونة الثانية أن بإمكانه أن يطير فحاول ذلك وقفز من البلكونة فكسرت رجله الشيء الذي جعل إيرل هاينز يخلدها في أغنية عندما ألف مقطوعة تسمى « قفزة البلكونة الثانية ». لم أر في حياتي رقصاً حامياً في مثل تلك الحرارة . بعد ذلك عزفوا نمرتين هادئتين فخمدت حركة المكان وهنا ظهرت داينا واشنطون . عندما أدت أغنية « بلوز بابا المالحة » كاد الناس أن يمزقوا سقف السافوي . (أقيمت جنازة داينا المسكينة قبل مدة في شيكاجو وقرأت أن عشرين ألف شخص اصطفوا ليلقوا نظرة أخيرة على جثمانها وكان ينبغي أن أكون هنالك . مسكينة داينا ! لقد صرنا أصدقاء في تلك الأيام .)

إلا أن ليلة زيارتي الأولى تلك كانت ليلة فنيي المطبخ في السافوي حيث يكون مساء الخميس أجازة لخدم المنازل . سأقول أن عدد النساء في تلك الليلة كان ضعف عدد الرجال ولسن فقط عاملات مطبخ وخادمات ولكن زوجات جنود حرب وعاملات في الدفاع المدني يبحثن عن أنيس لوحدتهم . في الشارع عندما خرجت سمعت عاهرة تسب بحرقة قائلة أن المحترفات تعطلن من العمل بسبب الهواة .

في أعلى المنطقة وأدناها ، في عرض الشوارع وفيما بين شارع لينوكس والشارعين الثامن والسابع كانت هارلم مثل بازار بألوان التكنكلر . مئات الجنود والبحارة الزنوج يحدقون ببلاهة ومن في مثل عمري يمرون . في ذلك الوقت أصبحت هارلم مكاناً محظوراً على الجنود البيض فقد حدثت عدة حوادث نهب وسلب كما وجد بعض الجنود البيض مقتولين . كان البوليس يحاول أن يثني البيض عن زيارتها ولكنه لم يستطع منع من أراد الزيارة منهم . وكان أي رجل يسير بدون امرأة في صحبته هدفاً للبغايا . « بيبي ، هل لك في شيء من المرح ؟ » كان القوادون يمشون جانباً ويقتربون من المارة ثم يهمسون : « كل أنواع النساء يا جاك – هل تريد امرأة بيضاء ؟ » كذلك كان المحتالون ينادون على بضاعتهم بصوت خفيض في أذنيك : « خاتم الماس ثمنه مائة دولار الماس ، يا رجل ، أيضاً ساعة ثمنها تسعون دولار – أنظر إليهما . خذ الاثنين مقابل خمسة وعشرين».

في مدى عامين سأصبح أستاذاً في هذا المجال ولكنني في تلك الليلة كنت قد فتنت بذاك العالم . هذا هو عالمي ! كنت في طريقي لكي أصبح واحداً من أكثر المجرمين الطفيليين من بين الثمانية ملايين شخص الذين يسكنون مدينة نيويورك – أربعة ملايين منهم يعملون والأربعة الملايين الآخرين يعيشون عالة على الأولين .

لم أكن أصدق كل ما سمعته ورأيته تلك الليلة عندما عدت لأحمل صندوق ساندوتشاتي المعلق بحزام من كتفي وقدر القهوة الثقيل سعة خمس جالونات المصنوع من الألمونيا وأنا أركض في ممرات « سفينة اليانكي » العائدة إلى بوسطن . تمنيت لو

أن علاقتي بإللا كانت أحسن لأصف لها شعوري . لكنني تحدثت إلى شورتي حاثا إياه على الأقل ليرى عالم موسيقى التفاحة الكبيرة (نيويورك) . أنصتت صوفيا إليَّ وقالت : إنني لن يهدأ لي بال حتى أقيم في نيويورك وكانت محقة في ذلك . في ليلة واحدة أصبحت مخدراً بسحر نيويورك وهارلم .

لم تكن هنالك من فرصة أمام بائع الساندوتشات الذي حللت محله لاستعادة وظيفته فقد اندمجت في العمل وأصبحت أطلع وأنزل في القطار وأنادي على بضاعتي بصوت عال في ممرات القطار . كنت أبيع الساندوتشات والقهوة والحلوى والكعك والبوظة بنفس السرعة التي كان مخزن مصلحة السكة الحديد يمدنا بها . لم يأخذني الزمن وقتاً طويلاً قبل أن أتعلم أن كل ما عليك أن تفعله هو أن تقدم استعراضاً وسيشتري الرجل الأبيض منك كل شيء ، تماماً مثلما كنت أفرقع صوت خرقة التلميع من قبل. كذلك كان النادلون في عربة المطعم والحمالون في البولمان يدركون ذلك ولذا أتقنوا دور العم توم (المسكين) حتى يتحصلوا على أكبر بقشيش . كنا في ذلك العالم من عوالم الزنوج الذين عليهم أن يصبحوا خدماً ونفسانيين في نفس الوقت مدركين أن الرجل الأبيض مستبد لدرجة أنه يجزل لك العطاء إذا أشعرته بأهميته وسريت عنه.

في كل ليلة يبيت فيها القطار في نيويورك كنت أركض إلى هارلم وأكتشف أماكن جديدة . في البداية كنت أقيم في مركز الشباب المسيحي لأنه كان على بعد مبنى واحد من جنة سمول ثم بعد ذلك صرت أقيم في غرفة رخيصة في بنسيون مسز فيشر الذي كان قريباً من مركز الشباب المسيحي حيث كان ينزل أغلب رجال السكة الحديد . كنت أمشط ليس مناطق الأنوار اللامعة فحسب بل مناطق هارلم السكنية أيضاً ، أرقاها وأحقرها ، من شوجر هيل قرب ملاعب البولو حيث كان يقيم كثير من المشاهير إلى الأحياء القذرة المزدحمة ذات الشقق التي تسكنها الفئران والتي تزخر بكل ما هو غير قانوني وفاسق تخيله . قذارة وبراميل زبالة تتدفق أو مقلوبة ، سكارى ، مدمنو مخدرات ومتسولون . حانات خربة ، وواجهات كنائس يسمع منها صراخ المصلين ، متاجر رخيصة ومحلات رهن ومحال حانوتية . مطاعم أكلات منزلية دهنية ، كوافير نسائية تدخن من الداخل حيث يشوي شعر الزنجيات ، دكاكين حلاقة تعلن عن كي الشعر كونك . عربات كاديلاك جديدة ومستعملة تبرز وسط العربات الأخرى .

وكل ذلك ما هو إلا طرف لانسينج الغربي أو جنوب روكسبري مكبر ألف مرة . قاعات رقص في السرداب عليها علامة « للإيجار». أشخاص يقدمون لك بطاقات صغيرة تعلن عن « حفلة لجمع تكلفة الإيجار ». ذهبت إلى واحدة من هذه الحفلات ووجدت ثلاثين أو أربعين زنجيًا يعرقون ويشربون ويأكلون ويرقصون ويقامرون في شقة مهترئة مزدحمة

والفونوغراف يلعلع ، والفراخ المشوية أو المصارين مع سلطة البطاطا والخضر بدولار للطبق وعلبة الجعة أو كأس العرق بخمسين سنتاً . في الشارع كان هنالك طوافون زنوج وبيض يمشون بجانب الشارع ويتحدثون إليك بسرعة علك تشتري نسخة من جريدة العامل اليومي : « هذه الصحيفة من أجل تخفيض إيجارات بيوتكم ... أجعل المالك الجشع يقتل الفئران في شقتك ... هذه الصحيفة تمثل الحزب السياسي الوحيد الذي رشح زنجيًا لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة ... من يا ترى جاهد لإطلاق سراح أبناء سكوتزبورو ؟ » من حديث الزنوج عند مرور هؤلاء الباعة التقطت ما معناه أن لتلك الصحيفة صلة ما بروسيا ولكن ذلك لم يكن يعنيني في كثير بعقلي العقيم في ذلك الوقت . في تلك الأيام كانت الإذاعة والصحف ملأى بالحديث عن حلفائنا الروس ، قوم أقوياء وفلاحون شديدو البأس وجدوا أنفسهم وظهرهم إلى الحائط وهم يساعدون أمريكا لتحارب هتلر وموسوليني .

كانت نيويورك هي الجنة بالنسبة لي وهارلم هي الجنة السابعة . كنت أتسكع في جنة سمول وفندق برادوك بكثرة لدرجة أن السقاة أصبحوا يصبون لي كأساً من مشروبي المفضل ، البيربون ، عندما يرونني أدخل . كذلك أصبح الزبائن الدائمون في كلا المكانين ، والزعران في سمول والعازفون في برادوك ، ينادونني (رد) وهو لقب طبيعي نظراً لشعري الأحمر المكوي اللامع . بدأت أكوي شعري في محلات أبوت وفوجي في بوسطن الذي كان أحسن مكان لكي الشعر في الساحل الشرقي على حسب روايات عظماء الموسيقيين الذين رشحوه لي .

أصبح في عداد أصدقائي الآن أشخاص مثل صوني جرير ، ضارب الطبل الشهير في فرقة ديوك إلنجتون وراي نانس الذي يفعل أشياء مذهلة بالكمان . ذلك هو الشخص الذي كان يرتجل الغناء بكلمات مبهمة مع الكمان : « بليب – بلب – دي – بلوب – دي – بلام – بلام ». وشخصيات مثل كوتي وليامز وإدي ذي الرأس النظيف فنسون الذي كان يمزح معي عن شعره المكوي إذ كان أصلعاً . كان نجمه مرتفعاً في تلك الأيام بأغنيته : « هاي ماما المليحة ، اكتنزيني في سريرك النحاسي الكبير» كنت أيضاً أعرف صاي أوليفر الذي كان متزوجاً من فتاة ذات بشرة حمراء ويقيمان في شوجر هيل . وزع صاي عدداً من القطع الموسيقية لتومي دورصي في تلك الأيام وكانت أشهرهن : « نعم ، تماما » .

عندما عاد رجل الساندوتشات النظامي في « سفينة اليانكي » وضعوه في قطار آخر مما جعله يتظلم محتجاً بأقدميته إلا أن سجلي في المبيعات جعلهم يسترضونه بطريقة ما . بعد ذلك بدأ الطهاة والنادلون ينادونني بـ : « الساندوتشي الأصهب.»

عند ذلك الوقت صاروا يتراهنون مازحين أنني لن أعمر طويلاً في تلك الوظيفة بالرغم من مبيعاتي العالية لأنني كنت بسرعة أتحول إلى شاب زنجي غير مهذب

ومتوحش . أصبحت التجديفية لغتي وكنت أسب الزبائن خاصة الجنود فلم أكن أطيقهم . أذكر مرة بعد أن تسلمت لفت نظر بسبب شكوى بعض الزبائن وأصبحت حريصاً ، أن تقدم مني وأنا في أحد الممرات جندي أبيض بدين أحمر الوجه ، يترنح من السكر وأعلن بصوت عال ليسمعه كل من في العربة : « إنني سأصارعك يا نيجر .» التهب الجو ولكنني ضحكت قائلاً : « ولم لا ؟ ولكنك ترتدي ملابس أكثر من اللازم.» كان يرتدي معطفاً عسكرياً ثقيلاً فخلعه فاستمررت أضحك وقلت له أن ذلك لا يكفي . ظللت أقول له ذلك وهو يخلع ملابسه إلى أن وقف هنالك سكران وعار تماماً إلا من بنطال وكل العربة تضحك عليه وهنا قام بعض الجنود وأبعدوه من طريقي . ذهبت لحالي إلا أنني لم أستطع نسيان ذلك – نسيان أنه كان بإمكاني ضرب ذلك الرجل ضرباً مبرحاً بعصاة مثلما ضربته في مخيلتي .

سيذكر الكثير من الطهاة والندلاء في خط نيوهافن الذين مازالوا في الخدمة إلى اليوم ، سيذكرون العجوز بوبي كوظنز . كان بوبي قهرمان « سفينة اليانكي » ، وهو رجل أبيض ، بالطبع ، ومن ولاية مين . (قضى الزنوج في خدمة الطعام في القطارات ثلاثين وأربعين سنة ، ولكن في تلك الأيام لم يكن بينهم قهرمان واحد في خط نيوهافن.) المهم أن بوبي كوظنز هذا كان يحب الويسكي ويحب الجميع بمن فيهم أنا . كان بوبي يدع كثيراً من الشكاوي عني تمر بدون عقاب ، فقط يطلب من بعض كبار الزنوج الذين أعمل معهم أن يهدئوني .

كانوا يردون : « إنه لا يصغي لأي شيء نقوله له » وذلك حقيقي . كانوا يرونني أتهادى مع صوفيا في روكسبري مرتديًا بذلتي الزوت الصارخة ، ثم بعد ذلك أحضر إلى العمل هائجاً مسعوراً ونصف مخمور ومخدراً وأستمر على تلك الحالة أدفع بالساندوتشات في وجوه الركاب إلى أن نصل نيويورك . عندما أنزل من القطار كنت أشق جمهور ساعة الذروة في محطة جراند سنترال بعد الظهر ويقف كثير من البيض ليتفرجوا عليَّ وأنا أمر . إذا كنت طويلاً فسيظهر جمال وخطوط بذلة الزوت أكثر وطولي حينها كان ستة أقدام ، كذلك كان لون شعري المكوي أحمر رائعاً . حقيقة كنت بهلواناً ولكن تفكيري الضيق جعلني أعتقد أنني كنت قمة في الأناقة . أما حذائي البرتقالي ذو العقدة الأمامية فكان مجرد فلورشايم (ماركة تجارية) الذي كان كاديلاك الأحذية في الجيتو في تلك الأيام . (بعض شركات الأحذية كانت تنتج مثل هذه الموديلات المضحكة لتبيعها خصيصاً في أحياء الزنوج الفقيرة ليشتريها الجهلاء أمثالي ويدفعون لها أثماناً باهظة لأنهم يربطونها بالثراء في نظرهم.) وما بين جنة سمول وفندق برادوك ومحلات أخرى أنفق عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً ، والتي هي راتبي ، في شرب العرق وفي المخدرات مع الأصدقاء ثم أخيراً أذهب إلى

بنسيون مسز فيشر لأنام بضع ساعات قبل أن تتحرك « سفينة اليانكي » عائدة .

والحال كذلك كان من المحتم أن أُفصل من العمل ، آجلاً أم عاجلاً إلا أن السبب المباشر كان خطاب استياء من راكب أيده بائعو التذاكر بملاحظاتهم عن الشكاوي الشفوية المتكررة التي تلقوها من الزبائن وعن عدد الإنذارات التي تلقيتها بدون جدوى .

لكني لم أهتم لأنه في أيام الحرب تلك كانت الوظائف من النوع الذي يناسبني تبحث عمن يملؤها . وعندما دفعت لي إدارة خط نيوهافن استحقاقاتي قررت أنه سيكون جميلاً لو زرت أخواتي وإخواني في لانسينج خاصة أنه قد تجمعت لديّ تذاكر مجانية استحققتها من العمل في سكة الحديد .

لم يصدق أي شخص التغيير الذي حدث عندما رأوني . إلا أن أخي الأكبر ، ولفرد ، لم يكن موجوداً لأنه ذهب للدراسة في جامعة ويلبرفورص في ولاية أوهايو . أما فلبرت وهلدا فكانا يعملان في لانسنج وريجنالد الصغير الذي كان يتطلع إليَّ كبر بدرجة تفوق عمره وكان ينوي أن ينضم إلى البحرية . والآخرون – يفون ، وزلي وروبرت – كانوا في المدرسة .

كان شعري ولبسي صارخين في نظرهم وكأنني حضرت من القمر . وتسببت في حادث حركة صغير فقد توقف سائق إحدى العربات فجأة ليحدق فيَّ فاغراً فاه فما كان من سائق العربة الخلفية إلا أن صدمه من الخلف . صعق منظري كبار الصبيان الذين كنت أحسدهم في السابق وكنت أخرج لهم يدي قائلاً : « تحسسني ، دادي – أو» كنت أحدثهم عن التفاحة الكبيرة وكيف كنت أسطل طوال الوقت – وحيثما ذهبت كنت أنا روح اللقاء : « يا صديقي ، مد يدك ! »

الشيء الوحيد الذي أعادني إلى عقلي هو زيارتي للمستشفى الحكومي في كالامازو . تفرست أمي في وجهي وكأنما عرفتني بعض الشيء .

ذهبت لزيارة والدة شورتي لعلمي أن زيارتي لها ستسره . كانت سيدة عجوزاً وقد سرها أن تسمع عن إبنها مني . أخبرتها أن شورتي بخير وأنه سيصبح قائداً عظيماً لفرقته الصغيرة في أحد الأيام . سألتني أن أخبره بأنها تود لو يرسل لها مكتوباً وبعض المال .

كذلك ذهبت إلى ميسون لزيارة مسز سويرلن المرأة التي اعتنت بي لمدة عامين في بيت الحجز . فغرت فاها من التعجب حين رأتني بعد أن فتحت الباب – كان منظري أكثر مما تتحمل وأنا ببذلتي الشاركسين الرمادية الصارخة والحذاء الضيق الطويل ذي العقدة الأمامية وقبعتي الفضية بشريطها العريض فوق الشعر المكوي بلون النار . تمالكت أعصابها ودعتني إلى الداخل وبين طريقة كلامي ومنظري شعرت هي بضيق وعصبية جعلت كلينا يرتاح عندما تركتها .

في ليلة مغادرتي البلدة كان هنالك حفل راقص في ملعب مدرسة لنكون . (منذ ذلك الوقت تعلمت أنك إذا كنت في مدينة غريبة تبحث عن منطقة الزنوج فما عليك إلا أن تبحث في دليل التلفونات عن عنوان أي مدرسة تسمى « مدرسة لنكون » ، فهي دائماً تقع في الأحياء الفقيرة التي يسكنها الزنوج – أو على الأقل كانت في تلك الأيام.) عندما تركت لانسنج في المرة الأولى لم أكن أعرف الرقص ولكنني هذه المرة كنت أتجول في الملعب أراقص الفتيات الصغيرات وأقذف بهن فوق أكتافي وحجري مستعرضاً حركاتي المدهشة . عدة مرات كادت الفرقة الصغيرة أن تتوقف عن العزف والكل تقريباً ترك الحلبة ليقفوا ويتفرجوا عليَّ وحدقات أعينهم توسعت كطبق . في تلك الليلة وقعت باسمي على الأوتوجرافات « أصهب هارلم » وتركت لانسنج مصدومة ومشدوهة .

عدت إلى نيويورك وأنا مفلس وبدون سند واكتشفت أن العمل في السكة الحديد هو الخبرة الوحيدة التي أمتلكها . لذلك ذهبت إلى مكتب التخديم في خط الساحل وكانت السكة الحديد في حاجة شديدة إلى العمال فلم أحتج لأكثر من إخبارهم أنني عملت في خط نيوهافن قبل أن يعينوني في ظرف يومين على « النيزك الفضي » الذي يعمل ما بين سانت بيترزبيرج وميامي . كنت أنظف العربات وأؤجر المخدات وأتأكد من راحة الركاب البيض وأكسب مبلغاً مماثلاً لما كنت أكسبه من بيع الساندوتشات .

بعد مدة قصيرة دخلت في إشكال مع رجل أبيض من فلوريدا كان يعمل مساعداً لبائع التذاكر وعندما عدت إلى نيويورك أخبروني أن أبحث عن وظيفة أخرى . لكن وفي مساء نفس اليوم ناداني أحد السقاة وأنا أدخل جنة سمول ولمعرفته بحبي لنيويورك تنحى بي جانباً وقال لي إذا كنت على استعداد لترك السكة الحديد فيمكن أن أحل مكان نادل الدوام النهاري الذي سينضم إلى الجيش .

كان صاحب المحل إد سمول وأخوه شارلي لا يفترقان . وظني أنه لم يكن بهارلم ثنائي محبوب ومحترم مثلهما . كانا يعلمان أنني من رجال السكة الحديد وتلك أحسن تزكية لمن سيعمل نادلاً . تحدثت إلى شارلي في مكتبه وكنت أخشى أنه سينتظر حتى يسأل عني بعض أصدقائه القدامى من السكة الحديد لأن شارلي لم يكن ليوظف شخصاً معروفاً بالطيش. لكنه قرر أن يعتمد على انطباعاته عني إذ أنه رآني في محلهم عدة مرات وأنا أجلس هادئاً وكأنني في حالة خشوع أراقب مجموعة الزعران . أخبرته أنه لم تكن لدي أية مشاكل مع الشرطة وتلك كانت حقيقة حتى ذلك الوقت . أوضح لي شارلي قوانين المكان : لا تأخير ، لا كسل ، لا سرقة أو أية مشاكل مع الزبائن خاصة الجنود . وهكذا التحقت بالعمل .

كان ذلك في عام ١٩٤٢ وكنت قد بلغت السابعة عشر لتوي .

مع وجود مكان سمول على مقربة من كل مكان مهم كانت الخدمة فيه هي الجنة السابعة سبعة أضعاف في نظري . لم يكن شارلي سمول بحاجة ليحذرني من التأخير لأنني كنت لا أقدر على الانتظار حتى يحين ميعاد العمل وأحضر قبل ساعة منه . أخذت مكان نادل الصباح الذي أخبرني أن العمل بطيء في ذلك الوقت وبالكاد أتحصل على بعض البقشيش كما أنه كان يبقى لمدة ساعة ليعلمني أسرار المهنة لأنه لم يكن يود لي أن أفصل من العمل .

بفضله تعلمت عشرات الأشياء الصغيرة التي تحبب الطهاة والسقاة في نادل جديد لأن بإمكان هاتين المجموعتين أن تسهلا أو تصعبا عمل النادل وكنت أنوي أن أجعلهم لا يستغنون عني . في ظرف أسبوع نجحت في كسب ود المجموعتين . أما الزبائن الذين كانوا يرونني بينهم حول المشرب فقد تعرفوا عليَّ في زي النادل وسرهم ذلك وأدهشهم ولذا كانوا ودودين . من جانبي كنت أفرط في الاعتناء بهم .

« أتريد كأساً آخر ؟ ... حالاً سيدي ... هل تود أن تأكل ؟ ... هنالك وجبات جيدة اليوم ... هل لي أن أحضر لك قائمة الطعام ، سيدي ؟ أو ربما ساندوتشاً ؟ » .

لم يكن الطهاة والسقاة هم وحدهم الذين يعرفون كل شيء بل حتى الزبائن بدأوا يلقنوني في كلمات بسيطة عند المشرب حينما لا أكون مشغولاً . أحياناً كان زبون ما يتحدث إليَّ وهو يأكل وأحياناً كنت أنهمك في حديث طويل أنصت فيه إلى كل كلمة مع واحد من كبار المجربين الذين عاشوا في هارلم قبل أن يأتيها الزنوج – وكانت مفاجأة كبيرة لي أن هارلم لم تكن دوماً حياً للزنوج .

في البداية كانت هارلم مقرًّا للمهاجرين الهولنديين كما عرفت . ثم بدأت بعد ذلك تغزوها أمواج من المهاجرين الأوروبيين الفقراء نصف الجياع الذين كانوا يصلون حاملين كل ما يملكون من متاع الدنيا في أكياس على ظهورهم . بدأ ذلك بالألمان فانسحب الهولنديون منها وصارت هارلم ألمانية تماماً . ثم أتى بعد ذلك الإيرلنديون هاربين من مجاعة البطاطا الشهيرة . هرب الألمان من هارلم وهم ينظرون إلى الايرلنديين بازدراء وصارت هارلم للإيرلنديين وعندما وصل اليهود إلى هارلم كانت للإيطاليين الذين تركوها بعد ذلك . ما يحدث اليوم هو أن سلالة هؤلاء المهاجرين البيض تجري قدر ما تستطيع هرباً من سلالة الزنوج الذين كانوا يفرغون السفن التي حملت أولئك المهاجرين .

صعقت عندما علمت أنه بينما لعبة الكراسي الموسيقية هذه مستمرة ، عاش الزنوج في مدينة نيويورك منذ عام ١٦٨٣ قبل أن يأتي أي من هؤلاء المهاجرين وينتشرون في كل أنحاء المدينة . كان الزنوج في البداية يقيمون في منطقة وول

ستريت الحالية ثم أخلوهم منها إلى منطقة جرينوتش فيلدج . ثم دُفع الزنوج بعد ذلك إلى منطقة محطة بنسلفانيا وكانت المحطة قبل الأخيرة التي دفع إليها الزنوج هي منطقة الجادة ٥٢ وذلك هو السبب أنها تعرف بالجادة المتمايلة حيث احتفظت بسمعتها لمدة طويلة بعد أن تركها الزنوج .

بعد ذلك وفي عام ١٩١٠ تمكن تاجر عقار زنجي من أن يجد لأسرتين أو ثلاث من الزنوج مسكنا في عمارة يملكها يهود في هارلم . هرب اليهود من تلك العمارة ثم من كل المربع وبدأ الزنوج يحلون محلهم تدريجياً ثم بدأت مربعات بأكملها تخلو من اليهود ويحل محلهم زنوج . في فترة قصيرة غدت هارلم كما نعرفها اليوم – زنجية خالصة .

من ثم وفي أوائل العشرينيات بدأت الموسيقى والملاهي تزدهر في هارلم يدعمها البيض الذين كانوا يأتون إلى هارلم من وسط البلد كل ليلة . بدأت الموسيقى في هارلم أول ما بدأت حينما وصل إلى نيويورك عازف بوق صغير العمر صعب المراس من نيوأورلينز يدعى لويس « ساتشمو » آرمسترونج يرتدي حذاء كأحذية الشرطة وبدأ يعزف مع فلتشر هندرسون . في عام ١٩٢٥ تم افتتاح جنة سمول والجمهور يملأ الشارع السابع ، في ١٩٢٦ افتتح « نادي القطن » العظيم الذي ستعزف فيه فرقة ديوك النجتون لمدة خمس سنوات ، كذلك افتتحت في نفس العام قاعة السافوي التي كانت تشغل مربعاً كاملاً في شارع لينوكس وبها أرضية للرقص طولها مائتا قدم تحت الأضواء المركزة وبها منصتان للفرق الموسيقية ومسرح خلفي .

بدأت سمعة هارلم تنتشر وبدأ البيض من كل أنحاء العالم يغزونها ليلاً وبدأت حافلات السياح تملأ المكان . كان نادي القطن مخصصاً للبيض فقط كما انتشرت نوادي أخرى كثيرة من جميع الأنواع بما فيها غير الشرعية وهدفها هو نقود البيض . من بين النوادي المحترمة كانت هنالك حانة كوني ، نادي لينوكس ، البارون ، نادي العش ، كوخ جيمي للفراخ ومنتون. كانت قاعات السافوي والجسر الذهبي والنهضة يتنافسون على الزبائن وقد ابتدع السافوي أفكاراً جذابة مثل أمسية فنيي المطبخ ، مسابقات الجمال ومسابقة كل ليلة سبت جائزتها عربة. كانت الفرق الفنية تأتي من جميع أنحاء القطر لتقدم عروضها في تلك القاعات كما في مسرح أبولو ومسرح لافاييت بقيادة عازفين مبهرجين مثل فس وليامز بسترته المحلاة بالماس وقبعته أو كاب كالواي ببذلته الزوت البيضاء التي ما بعدها زوت وقبعته البيضاء بخطوطها العريضة وربطة عنق سلكية . أشعل كالواي النار في هارلم بمقطوعاته « خرقة التمر » ، « هاي – دي – هاي – دي – هو » ، « مستشفى سانت جيمس » و « ميني المتسكعة » .

كانت مدينة الزنوج تعج بالبيض ، القوادين ، العاهرات ، بائعي الخمور الممنوعة ، والزعران من كل الأنواع بشخصياتهم النابضة بالحياة بالإضافة إلى الشرطة ورجال

محاربة الخمور . كان الزنوج يرقصون كما لم يرقصوا في أي مكان قبل وبعد . أظن أن أكثر من خمسة وعشرين من العجائز في جنة سمول أقسم لي كل منهم بأنه كان أول من رقص « قفزة اللندي » في السافوي حيث ولدت هنالك في عام ١٩٢٧ وسميت على لندبيرج الذي قام بأول رحلة طيران من نيويورك إلى باريس .

حتى المحلات الصغيرة في السراديب التي لم تكن تسع إلا البيانو كان عندها فنانون بارعون مثل جيمس ب. جونسون وجلي رول مورتون ، ومغنيات مثل إيثل وترز . وعند الساعة الرابعة صباحاً حيث تقفل كل المحلات المرخصة في نيويروك كان الموسيقيون بيضاً وسوداً يهرعون إلى مكان متفق عليه في هارلم وحينها يقدمون فواصل بأربعين أو ثلاثين آلة موسيقية ويستمرون حتى الصباح .

عندما انتهى كل شيء بانهيار البورصة في عام ١٩٢٩ كانت هارلم قد اشتهرت عالميًا بأنها قصبة أمريكا وكان مكان سمول جزءاً من كل ذلك وهنالك سمعت القدامى يجترون الذكريات عن عظمة الأيام الخوالي .

كل يوم أسبح في عالم آخر وأنا أصغى إلى الزبائن يتحدثون إليّ وكل ذلك زاد من خبرتي . كانت أذناي تمتصان كالسفنجة كل كلمة يقولها لي أحدهم في لحظة تجلي أو حينما ينتشي ويعترف لي من خلال حديثه عن نوع النصب الذي كان طريقه لكسب العيش . وهكذا تلقيت دروساً متقنة من خبراء في أشياء مثل المراهنات ، القوادة ، أساليب الغش من جميع الأنواع ، بيع المخدرات والسرقة بمختلف أنواعها بما فيها النهب المسلح .





■ الباب السادس

أصهب ديترويت

THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X



كنت أقامر في المراهنات كل يوم بكل ما أجمعه من البقشيش الذي يصل خمسة عشر وعشرين دولار أحياناً وأحلم بما سأفعله حينما أكسب جائزة كبرى .

رأيت أناساً في فورة إنفاق طويلة مسعورة بعد أن وفقوا وفازوا بالجائزة . لا أقصد بذلك الفتوات الذين كان المال بحوزتهم دوماً وإنما أقصد الناس العاديين من النوع الذي لولا ذلك لما كنت تراه في مكان مثل سمول والذين تركوا عملهم مع شركات الرجل الأبيض بعد أن فازوا . كانوا في الغالب يشترون كاديلاكاً ولمدة ثلاثة أو أربعة أيام يبحبحون ويعزمون أصدقاءهم على الشرب وشرائح البفتيك . وكنت أضطر لضم طاولتين في واحدة حتى يسعهم المجلس وفي كل مرة أحضر حاملاً صينيتي كانوا يمنون عليَّ بدولارين أو ثلاثة كبقشيش .

يقوم مئات الألوف من الزنوج في مدينة نيويورك بالمقامرة كل أيام الأسبوع ما عدا يوم الأحد ويضعون مبالغ تتراوح من بنس واحد إلى مبلغ كبير في مراهنات الثلاثة أرقام ويكسب الإنسان عندما تتطابق الأرقام الثلاثة التي اختارها مع آخر ثلاثة أرقام من مجموع مبيعات البورصة المحلية والأجنبية التي تنشر يومياً . ومع احتمال الكسب الذي يعادل واحد من ستمائة فرصة ، فإن البنس الواحد يكسب ٦ دولارات والدولار يكسب ستمائة دولار وهكذا دواليك أي أنك إذا وضعت ١٥ دولارا فستكسب تسعة آلاف دولار . خبطات مشهورة مثل هذه أتت لصاحبها بنصيب الأغلبية في ملكية حانة أو مطعم في هارلم أو حتى تملكها بالكامل. كانت

فرص الفوز واحدة من الألف وكان بعض اللاعبين يمارسون ما يسمى بالخلطة مثل وضع ست بنسات في ست مجموعات أرقام ، بنس لكل مجموعة من ثلاثة أرقام . الرقم ٨٤٠ مثلاً يمكن أن يخلط لتعمل منه ٨٤٠ ، ٨٠٤ ، ٠٤٨ ، ٨٤. ، ٤٠٨ ، ٤٨٠ .

عمليًا كان كل سكان الجيتو السود الفقراء في هارلم ، يلعبون كل يوم ولذا احتمال فوز شخص تعرفه كل يوم وارد وإذا كانت الخبطة كبيرة فستصبح تلك الأخبار المثيرة الشغل الشاغل في الحي . لكن المكسب كان في العادة بسيطاً لأن المبالغ المقامر بها بسيطة ، بريزة ، نكلة أو ربع دولار ، إذ كان الكثيرون يقامرون بدولار يوميًا ولكنهم يجزئونه . كان عالم المراهنات في هارلم نشطاً كل صباح وعند الظهيرة وعاملو المراهنات يدونون اختيارات المراهنين على ورق في الممرات والبيوت والحانات والمتاجر ومحال الحلاقة وفي الطريق العام . كل ذلك والشرطة تراقب وأي عامل مراهنات يعلم أنه لن يعمر طويلاً في ذلك العمل بدون أن يدفع شيئاً للشرطي المحلي كما أنه كان معروفاً للجميع أن كبار رجال المراهنات كانوا يدفعون بسخاء لمراتب الشرطة الأعلى.

يتحصل صغار عمال المراهنات على عمولة تساوي عشرة بالمائة من حصيلة اليوم التي يقدمونها مع أوراق الرهان لمخدمهم المراقب . (وإذا كسبت فعليك أن تدفع ١٠٪ كبقشيش لعامل المراهنات) . يعمل تحت كل مراقب عدد من عمال المراهنات قد يصل الخمسين ويتحصل المراقب على خمسة بالمائة من حصيلة ما يقدمه للصراف الذي يدفع الجائزة ويدفع للشرطة ويثري بما تبقى . بعض الناس يلعب بنفس تشكيلة الأرقام طوال العام وآخرون لديهم قائمة بالأرقام الرابحة في السنوات الماضية يحسبون منها احتمال تكرار الرقم أو يجدون أية طريقة أخرى للاختيار . البعض الآخر كان يخمن ويختار أرقامه من عنوان ، رخصة سيارة عابرة أو أية أرقام يجدها في خطاب ، برقية ، فاتورة ... إلخ كما كانت هنالك كتب تباع بدولار تريك كيف تحقق أحلامك وتربح الجائزة الكبرى وحتى الوعاظ الذين يروجون للمسيح والغيبيات في أيام الأحد ، كانوا على استعداد للدعاء لك لتكسب مقابل رسوم معينة تدفعها لهم .

قبل مدة قصيرة فاز رقم الرمزالبريدي لمنطقة هارلم وكاد أحد الصرافين أن يفلس . وإذا كتب لهذا الكتاب ، الذي بيديك أيها القارئ ، أن ينتشر في الجيتوات السوداء في عرض القطر وبالرغم من انني لا أقامر مطلقاً حالياً . فأنا على استعداد لأن أدفع مبلغاً صغيراً لأي جمعية خيرية تسميها إذا لم يقم إخوتي السود الفقراء البلهاء بوضع ملايين الدولارات مراهنين على رقم هذه الصفحة أو عدد صفحات هذا الكتاب .

كان كل يوم من أيامي في مشرب جنة سمول يوماً مثيراً لي ومن جهة نظر

هارلمية لم أك لأجد وضعاً أحسن لاكتساب الخبرة . بدأ بعض كبار الدهاة في نيويورك السوداء يعطفون عليَّ ولعلمهم أنني ما زلت بريئاً بمقاييسهم ، بدأوا يرعونني كابنهم لكي أشب عن الطوق . كانت لهم أساليب مباشرة مثل الهندي الغربي ذي البشرة الداكنة الذي كان يشبه رجال الأعمال ويجلس على إحدى الطاولات تحت خدمتي والذي قال لي مرة وأنا أحضر له زجاجة جعة : « قف دقيقة يا رد .» وقف وأخذ يقيسني بشريط أصفر ودون ذلك في مفكرته. وعندما حضرت للعمل في اليوم التالي قدم لي أحد السقاة صرة وعندما فتحتها وجدت بها سترة ثمينة لونها أزرق غامق ومن النوع المحافظ. كانت هدية معتبرة والغرض منها واضح.

أخبرني الساقي أن ذلك الزبون من كبار مديري عصابة الأربعين حرامي الخرافية . كانت تلك عصابة منظمة من المتسلقين الذين كانوا على استعداد ليسلموك عند الدفع وفي مدى يوم أي كساء تطلب مقابل ثلث الثمن. كانت خطتهم تبدأ بأن يدخل عضو من العصابة لا يرقى إليه الشك من سلوكه إلى محل معين قبل وقت الإقفال ويختبئ ليكون بالداخل عند إغلاق المحل وكانوا يوقتون عملياتهم آخذين في الاعتبار توقيت دورية الشرطة. في الليل يقوم ذلك المختبئ بوضع البذلات في أكياس ثم يشغل جرس الإنذار ويستعمل التلفون لينادي على شاحنة تنتظر بطاقمها في الخارج. وعندما تحضر الشاحنة يتم شحنها وتتحرك قبل مجيء الشرطة بدقائق. في مستقبل الأيام تعرفت على عدد من أفراد عصابة الأربعين حرامي.

كانوا ينبهونني بهدوء لأعرف المخبرين بإشارة أو غمزة عين لأن معرفة رجال الشرطة في المنطقة كانت من أبجديات العمل لأولئك المجرمين وبسرعة أصبحت مثلهم في الإحساس بوجود المخبرين وأمثالهم . في أواخر عام ١٩٤٢ كانت لكل وحدة من القوات المسلحة عيونها وآذانها يتسقطون الأخبار التي تهمهم مثل الخدع التي تمارس للتهرب من التجنيد أو من التسجيل في الخدمة العسكرية أو أية مؤامرة على الجنود الزائرين . كان البحارة أو من ينوب عنهم يحضرون إلى حانات هارلم يبيعون الأشياء المسروقة من السفن مثل السلاح والساعات والعطور والكاميرات . بذلك يتحصل هؤلاء الزنوج على الفتات الذي يتركه اللصوص البيض . كذلك كان جنود البحرية يأتون بأشياء أجنبية وبضائع ثمينة بسعر زهيد وأجود أنواع القنب من نوع الجنجة أو الكسكة التي يهربونها من أفريقيا .

في أثناء النهار يعامل الزنوج البيض بتحفظ في هارلم أما البيض الذين يأتون ليلاً فيلقون معاملة أحسن حيث كان كثير من نوادي هارلم الليلية التي يؤمها البيض ترفه عنهم وتسليهم طوال الليل طمعاً في نقودهم . ومع قوات الأمن المنتشرة للحفاظ على «أخلاق » الجنود كانت تلك المحال تعطي من يرتادها من الجنود ما يطلبون ويردون

عليهم فقط إذا تكلموا وذلك كل ما في الأمر إلا إذا كان الجندي من سكان هارلم .

ما كنت أتعلمه في تلك الأيام هو أبجديات عالم الإجرام وهي أنك لا تثق في أحد إلا إذا كان من خاصتك وأن عليك أن تدقق في اختيار من تثق فيهم . كان الساقي يريني مَن مِن الزبائن كان مجرد واجهة ومن منهم كان من عالم الإجرام السري وله صلات مع الشرطة أو مع السياسيين ، ومَن مِن الزبائن كان ميسور الحال ومن كان يعيش من يوم ليوم ، من هم المقامرون الحقيقيون ومن هم الهامشيون ومن منهم عليَّ أن أتقي شرهم . النوع الأخير كان معروفاً جدًّا في هارلم ومهابًا والكل يعلم أنهم سيحطمون رأس أي شخص يغضبهم وبدون تردد . القدامى كانوا يتميزون عن صغار المسعورين الذين كانوا بصدد تكوين سمعة لهم كمجانين يبطشون بمدية أو مسدس . هؤلاء القدامى كانوا مثل «سامي الأسود » وبوب هولان والملك بادمور وآرشي الهندي الغربي . أغلب هؤلاء كانوا الذراع الأيمن لدتش شولتز الذي شق طريقه بالعنف في عالم مراهنات هارلم عندما تنبه رجال العصابات البيض للثراء الذي يمكن أن يتحقق مما كانوا يسمون « ملاليم النيجرز» حيث كان رجال العصابات البيض يسمون المراهنات « مستودع النيجرز».

تلك كانت أيام سطوة السود قبل قيام تحريات السيبري المشهورة في عام ١٩٣١ والتي أنهت دتش شولتز إلى أن مات اغتيالاً في عام ١٩٣٤ . سمعت قصصاً كثيرة عن كيف كانوا « يقنعون » الآخرين بمواسير الرصاص ، والأسمنت الطري ، وعصا البيسبول وقفازات النحاس والركل والهروات المكسوة بالجلد . كان كل منهم تقريباً قد دخل السجن ثم ظهر على المسرح مرة أخرى ليعمل لصالح كبار الصرافين الذين يتخصصون في المراهنات عالية القيمة .

كان هنالك نوع من التفاهم بين أولئك الزنوج وبين رجال الشرطة السود الأشداء ألا يحتك الفريقان لعلمهم أن بعضهم سيفقد حياته . نعم ، كان في هارلم شرطة من السود أيضاً . هنالك الفرسان الأربعة الذين كانوا يجوبون منطقة شوجر هيل والذين كانوا يمثلون رباعياً قوياً وأذكر أن أحدهم كان له نمش على وجهه ويدعى بريسبن . كان أضخم وأقسى شرطي من جزر الهند الغربية وأكثرهم سواداً. كان الناس يتحاشونه عندما يظهر فيما بين الجادة ١٢٥ والشارع السابع بالمشي في الجانب الآخر من الشارع عندما يرونه في جانب . وأنا في السجن سمعت أنه قُتل برصاصة من صبي عصبي مرعوب وصل لتوه من الجنوب ويجهل خطورة بريسبن .

أما القواد الذي لم يكن يشبه « القوادين » فقد كان « كاديلاك » دريك ، وهو أصلع برأس مثل كرة القدم وكرش كبيرة أسماها « ملعب السنونو ». كان لكاديلاك حوالي دزينة من العاهرات المهزولات العجفاوات ، بيضاً وسوداً . في وقت

الظهيرة وعند البار كان معارفه القدامى يمزحون معه سائلين كيف يمكن لهؤلاء النسوة إطعام أنفسهن حتى يطعموه هو ويرد عليهم ضاحكاً بصوت عال : « إن القبيحات يعملن بجد أكثر » .

وعلى النقيض من كاديلاك كان القواد الناعم المستقل « سامي القواد » الذي يستطيع كما ذكرت أن يتنبأ إن كانت أية امرأة ستصبح بغياً من مراقبة تعابير وجهها أثناء الرقص . في مستقبل الأيام سنصبح أنا وسامي أصدقاء أعزاء لبعضنا البعض . سامي المهاجر من ولاية كنتكي كان خبيراً ملماً بصنعته ، وصنعته هي النساء ، ومثل كاديلاك ، كان له عدة نساء ، بيضاً وسوداً ، يعملن تحت إمرته إلا أن نساء سامي – اللاتي كنت تراهن أحياناً في سمول حينما يحضرن يبحثن عنه لتسليمه بعض النقود وليشتري لهن مشروباً – كن من أجمل العاملات في ذلك المجال في أي مكان .

إحدى نساء سامي وتدعى « خوخ الباما » كانت تتشدق في كلامها بطريقة تجعل كل شخص يضحك وحتى النساء الزنجيات اللائي كن يشتغلن كمراقبي مراهنات قرب مكان سمول أحبوها . كان أكثر ما يضحك البعض هو الطريقة التي تقول بها نيجر في ثلاث مقاطع بينما هي كانت تقول : « أ – نا – ف – قط أ حـ - ب الـ - نيجـ - رز ». مقابل كأسين كانت على استعداد لتحكي لك قصة حياتها وكيف أن أول شيء تعلمته وهي صغيرة في الباما هو أن عليها أن تكره الزنوج . ثم بدأت تسمع من التلميذات الأكبر منها سناً في المدرسة همساً عن كيف أن الزنوج فحول وأجسامهم قوية ونشأت تحلم بذلك إلى أن أتتها الفرصة في شكل زنجي يعمل عند أبيها حضر إلى منزلهم فهددته إنه إذا لم يأتها فستصرخ متهمة إياه بمحاولة ذلك . لم يكن أمامه خيار لكنه ترك العمل بعد ذلك . منذ ذلك الوقت إلى أن أكملت المدرسة الثانوية وجدت واستغلت عدة فرص مع رجال زنوج إلى أن حضرت إلى نيويورك بطريقة ما ورأساً إلى هارلم . في وقت آخر بعد ذلك أخبرني سامي كيف وجدها ذات مرة في السافوي ولم تكن ترقص مع أحد ، فقط واقفة تتفرج من الجانب وساعتها عرف من فراسته ما كانت تريد . منذ ذلك اليوم وبعد أن تعاملت مع الزنوج رفضت معاشرة البيض . لا أدري ماذا صار من أمرها الآن .

هنالك قواد آخر ممتلئ الجسم أسميناه « ورقة الدولار » لأنه كان يعرض متباهياً «حزمة مدينة كانساس» المكونة من واحدة وخمسين ورقة بنكنوت ملفوفة بداخلها ورقة من ذات العشرين دولار وتغطيها ورقة أخرى من فئة المائة خارجها . كنا نتساءل ماذا كان سيفعل إذا خطف أحدهم الغطاء . أما من كان باستطاعته وهو مغمض العينين النشل فقد كان شخصاً هزيلاً وهازلاً كنيته « قليل الملابس ». قليل الملابس هذا كان واحداً من أبرع نشالي هارلم في العشرينات حينما كان

البيض يملأون هارلم كل ليلة إلا أنه أصيب بالتهاب المفاصل في يديه . انعقدت مفاصل أصابعه بطريقة لا تسر الناظرين . لم يكن القطقط أو الجليد أو حتى المطر ليمنعه من الحضور إلى سمول كل مساء في السادسة ليحكي قصصاً خرافية عن الأيام الخوالي وأصبح عرفاً في المحل أن يبره زبون بمشروب وأبره أنا بوجبة .

إن قلبي على كل هؤلاء الذين كانوا يملأون عالمنا في الأمسيات عند سمول مثل قليل الملابس . ليتك رأيتهم وهم في نشوة سرورهم يأخذون مقاعدهم باحترام وكأنهم ليسوا متسولين ثم يفردون الفوطة ويتفحصون قائمة الطعام ويأمرون بإحضار ما اختاروا والطاهي يعد أحسن ما عنده عندما يعلم أنه لقليل الملابس لأقدمه له أنا وكأني أخدم مليونيراً .

مرات كثيرة بعد ذلك التاريخ فكرت في تلك الأمور ومعناها لنا . من جانب كنا رابضين هناك نبحث عن الأمان والدفء والطمأنينه في الارتباط مع بعض ولم نكن ندرك ذلك المعنى . منا من كان يمكن أن يقتحم الفضاء أو يكتشف علاجاً للسرطان أو ينشئ المصانع وبدلاً من ذلك كنا ضحايا النظام الاجتماعي الأمريكي الأبيض . من الجانب الآخر كانت مأساة النشال البارع سابقاً في نظر أخوانه كبار المحتالين رمزاً لرحمة الخالق علي عباده الضعفاء . وفي نظر الذئاب التي ما زالت تقتنص في الغابة كان قليل الملابس مثالاً لذئب فقد مخالبه لكنه ما زال يجد الطعام .

ثم كان هنالك أيضاً اللص زائر الليل الذي يدعى « اقفز بثبات ». فرض علينا الرجل الأبيض في الجيتو الذي وضعنا فيه إلا نطمح لأشياء عظيمة بل أن ننظر إلى الحياة وكأنها معركة من أجل البقاء وفي مثل مجتمعنا ذلك يحترم الناس من يتمكن من البقاء حيًّا . لن تجد لصًّا أبيض معروفاً يكشف عن نفسه في حانة في أي وقت من أحياء البيض ويظل محبوباً ولكنا كنا إذا غاب « أقفز بثبات » لعدة أيام نبدأ في القلق عليه .

سمى « أقفز بثبات » كذلك ، لأنه فيما قيل ، كان وهو يعمل في أحياء البيض السكنية يقفز بثبات بين أسطح المنازل متحاشياً أطراف النوافذ ، يميل متوازياً ويمشي على حافة أصابعه ولو سقط لمات . كان يدخل الشقق من خلال النوافذ بهدوء وقيل أنه كان يسرق من غرفة بينما يكون أصحاب المنزل في الغرفة المجاورة. عرفت بعد ذلك بمدة أنه كان يعمل وهو مخدر بالقنب كما علمني أشياء سأستفيد منها مستقبلاً حينما يضطرني الزمن لكي أنشئ عصابة للسطو المنزلي .

يجب أن أؤكد هنا أن جنة سمول لم تكن عشاً للنصابين ولكني ركزت عليهم فقط لأنني فتنت بعالمهم . في حقيقة الأمر وبالنسبة لرواد اللهو البرئ كانت جنة سمول واحدة من المحلات القليلة المحترمة جداً في هارلم لدرجة أن شرطة مدينة نيويورك كانت

تزكيها للبيض الذين يسألون عن مكان آمن في هارلم . أول غرفة أجرتها بعد أن تركت السكة الحديد (نصف سكان هارلم يسكون في غرف مؤجرة) كانت في ثامن مربع في شارع سانت نيكولاس . كان بإمكان أي شخص أن يدخل غرفة أو أخرى في ذلك البيت ليشتري فراءً ساخناً (مسروقاً) ، كاميرا ممتازة ، عطراً رائعاً ، سلاحاً أو أي شيء آخر ، من النساء الساخنات إلى العربات الساخنة ، وحتى الثلج الساخن . كنت واحداً من عدد قليل من الذكور في ذلك البيت في أثناء الحرب عندما كنت لا تفتح المذياع إلا وتسمع عن جوادال كنال أو شمال أفريقيا . في أغلب الغرف كانت الساكنات بغايا والنزلاء الآخرون كانوا محتالين من نوع آخر – بائعي الحبوب المقوية ، عمال مراهنات وبائعي مخدرات وأعتقد أن كل نزيل كان يستعمل مخدراً من نوع أو آخر . هذا لا يقلل من قدر ذلك المبنى لأن كل شخص في هارلم تقريباً كان يحتاج إلى نوع من الاحتيال على الحياة وأن يبقى مخدراً حتى ينسى ما كان يفعله بدافع البقاء .

في ذلك المنزل تعلمت أشياء عن النساء لم أتعلم مثلها في مكان واحد وعلمتني البغايا هنالك أشياء أعتقد أن كل زوج وزوجته يجب أن يعرفها . في المستقبل تعلمت من النساء الأخريات ألا أثق في أغلب النساء . كان لأولئك العاهرات فيما يبدو أخلاقيات وشعور بالإخاء لم أجده في كثير من النساء اللائي يتعبدن في الكنائس بانتظام بينما يحتفظن في السر بأصدقاء من الرجال أكثر مما يعرفه أولئك العاهرات وأنا هنا لا أستثني السود أو البيض من ذلك . كانت هنالك متزوجات من الجنسين أزواجهن بعيدون في الحرب وهن هنا يصادقن الرجال وينفقن عليهم حتى من مال أزواجهن بينما كانت هنالك أخريات ، أمهات وزوجات ، يتصيدن المتعة في الساحة بينما أزواجهن وأطفالهن في نيويورك .

تلقيت أول دروسي عن أخلاقيات أوعية الصديد عند الرجل الأبيض من أحسن مصدر لها ، من نسائهم . وعندما غرقت أكثر في وحل الشر رأيت أخلاق الرجل الأبيض بعيني رأسي . أنني حتى تكسَّبت وأنا أقوده إلى العفن الذي كان مبتغاه .

كنت يافعاً أعمل في المشرب لحالي ولا ألقي بالاً لأولئك النسوة لكن منظري ربما حرك في أنفسهن غرائز الأخوة أو ما شابه فقد كن يزرنني في غرفتي عندما لا يكن مشغولات فندخن ونتحدث . كان ذلك يحدث في الصباح بعد زحمة العمل ولكن دعني أحدثك عن زحمة العمل تلك . رؤية الممرات والسلالم في ساعات الليل ورجال بيض وسود يمشون ويجيئون هو المتوقع حينما يسكن الإنسان في مبنى تعمل فيه بنات الهوى . لكن ما أذهلني هو أن الازدحام كان يحدث في ساعات معينة مثل ما بين السادسة والسابعة والنصف صباحاً ثم بعد ذلك يخلو المنزل في التاسعة وأكون أنا الشخص الوحيد في المبنى . سبب الازدحام هو الأزواج الذين يتركون بيوتهم مبكرين ليغشوا ذلك البيت

في شارع سانت نيكولاس وهم في طريقهم للعمل . طبعاً لم يكن نفس الأشخاص يأتون كل يوم ولكن يأتي عدد كاف ليسبب ذلك الازدحام بمن فيهم أزواج بيض يأتون في عربات أجرة قاطعة كل تلك المسافة من وسط البلد.

وراء ذلك الازدحام الزوجات المتسلطات ، كثيرات الشكوى والطلبات ، اللائي كدن أن يخصين أزواجهن نفسانيًّا . كن يشاكسن أزواجهن، مما أرهق أعصاب هؤلاء الأزواج وحرمهم من الشعور برجولتهم ، ولذا كانوا يهربون منهن ومن سخريتهن ويحضرون في الصباح الباكر لزيارة بنات الهوى . أما بنات الهوى فقد درسن الرجال لأن طبيعة المهنة علمتهن . كن يقلن إن الرجال بعد أن يتعدوا قمة فحولتهم في العشرينيات من العمر يعاشرون النساء أساساً لإرضاء غرورهم فقط ولأن كثيراً من النساء لا يفهمن ذلك ، تجدهن يتسببن في تحطيم نفسياتهم . أما بنات الهوى فمهما قلّت فحولة الرجل يجعلنه يشعر وكأنه أعظم رجل ولذلك كان الازدحام شديداً عليهن في الصباح . بإمكان كثير من الزوجات أن يحتفظن بأزواجهن إذا عرفن أن أكثر ما يحتاجه الرجل هو إشعاره بأنه رجل .

حكى لي هؤلاء النسوة قصصاً كثيرة ، نوادر مضحكة عن الفرق بين البيض والسود في غرفة النوم وعن الأطوار الغريبة لبعض الرجال . ظننت أنني سمعت كل الغرائب لكنني سأسمع ما هو أغرب في المستقبل عندما كنت أقود الرجال البيض إلى ما يريدون . أما القصة التي كان يضحك لها كل من في المنزل فهي قصة الإيطالي الهزيل الذي أسموه « رجل الدقيقة بعشرة دولارات ». كان يترك مطعمه في السرداب قرب ملاعب البولو ويحضر كل يوم بانتظام عند الظهر ويقضي دقيقتين تماماً ودائما يترك عشرين دولار . في رأي بنات الهوى أن أغلب الرجال ضعفاء لا يتحملون الضغط ودائماً يشكون لهاتيك النسوة كيف أن كل ما يسمعونه من زوجاتهم هو الشكوى بالرغم من كل ما يفعلونه من أجلهن . من الجانب الآخر يجب أن يعرف الرجال ما يعرفه القوادون من أن المرأة تحتاج إلى الملاطفة حتى تعلم شعور زوجها نحوها على ألا يعني ذلك التساهل بل على الرجل أن يكون حازماً . كل النساء ضعيفات وهشات بطبيعتهن يجذبهن الرجل الذي يرين فيه القوة .

من آن لآخر كانت صوفيا تأتي من بوسطن لتزورني وحتى في هارلم أعطاني جمالها وضعاً مميزاً بين الزنوج . كانوا مثل الزنوج في كل مكان وذلكم هو السبب الذي يجعل بنات الهوى البيضاوات يكسبن مبالغ كبيرة . لا فرق بين لانسنج وبوسطن أو نيويورك وما كان يقوله العنصري الأبيض كان صحيحاً في تلك الأيام : كل ما عليك هو أن تضع فتاة بيضاء قرب رجل أسود وسيستجيب . كذلك كانت المرأة السوداء تزغلل عيون الرجل الأبيض ولكنه أدهى من أن يظهر هذا .

كانت صوفيا تحضر في قطار ما بعد الظهر الأخير وتأتي إليَّ في جنة سمول وأقدمها للناس وتبقى حتى ينتهي دوامي . أقلقها سكني بين هؤلاء العاهرات ولكن عندما عرفتها بهن وتحادثن غيرت نظرتها لهن . كن يقلن لها إنهن يتركنني وشأني من أجلها . كنت آخذها ونذهب إلى مشرب فندق برادوك حيث نقابل بعض الموسيقيين الذين أصبحوا يحبونني كصديق قديم : « هاي ، رد – من معنا الليلة ؟» كانوا يخلقون هالة حولها ولم أكن أحتاج لأدفع ثمن مشروب . كان الموسيقيون أكثر الزنوج جنوناً بالمرأة البيضاء وهم بطبيعة عملهم في عالم الفن كانوا أقل قيوداً .

ما لم يكن العنصري الأبيض يعترف به هو الجانب الآخر من الموضوع . عندما يتأخر الليل كنا أنا وصوفيا نذهب إلى بعض الأماكن التي تفتح حتى الصباح وإلى بعض الحانات غير المشروعة . وعندما تقفل نوادي وسط البلد كان كثير من روادها البيض يزحفون إلى تلك الأماكن في هارلم . كان أولئك البيض يعشقون « جو » الزنوج بجنون خاصة تلك الأماكن التي فيها ما يسمى « صول » أو روح الزنوج . أحيانا كان الزنوج يتحدثون عن كيف أن بعض البيض لا يشبعون من صحبة السود والبقاء حولهم في مجموعات . يبدو أن البيض نساءً ورجالاً مفتونون بالسود . أذكر حالة معينة لفتاة بيضاء لم تغب ليلة واحدة عن قاعة السافوي وسحر بها صديقي سامي الذي كان رآها عدة مرات . كانت ترقص فقط مع الزنوج وكأنما هي في غيبوبة وترفض مراقصة الرجال البيض . وعندما يحين وقت الإغلاق في ساعات الصباح الأولى كانت تطلب إلى أحد الزنوج أن يوصلها إلى محطة مترو الأنفاق . وذلك كل ما في الأمر . لم تكشف لأحد حتى عن اسمها دعك من مكان سكنها .

سأحكي لك قصة أخرى غريبة من الجانب الآخر تعلمت منها شيئاً سأتعلمه آلاف المرات في المستقبل . كان ذلك درساً في كيف أن قلوب الرجال البيض وأكبادهم تغلي من الداخل ، مهما حاولوا أن يخفوا ذلك ، عندما يرون رجلاً أسود في صحبة امرأة بيضاء . كان سلوك بعض الرجال البيض خاصة الشباب الهيبي ، متزنجاً أكثر من الزنوج . أحدهم كان يحاكي الزنوج في طريقة حديثه ويغضب إذا اتهمه أي شخص بالعنصرية تلميحاً وهو دوماً أمام العازفين وفي أي مرة يراني كان يبادرني قائلاً : « دادي ، تعال ودعنا نضبط رؤوسنا جيداً .» لم يكن سامي يطيقه لأنه كان في كل مكان نذهب إليه . إنه حتى كان يرتدي بذلة زوت صارخة ويدهن شعره بغزارة وكأنما شعره مكوي كونك ويلبس حذاء بعقدة أمامية مع الجنزير المتدلي من عنقه . كان لا يرى إلا بصحبة امرأة سوداء لدرجة أنه كان يسكن مع اثنتين منهن في نفس الشقة الصغيرة . ولا أدري كيف توافقوا على ذلك ولكن كانت لدي أفكاري الخاصة حول الموضوع .

في حوالي الثالثة أو الرابعة صباح أحد الأيام قابلنا ذلك الشاب الأبيض في حانة كريول بيل . كان مسطولاً بالقنب وقدمت إليه صوفيا ثم تركتهم لتحية شخص آخر أعرفه . عندما عدت بدت صوفيا منزعجة ولكنها لم تخبرني بالسبب إلا عندما تركنا المكان . قال لها ذلك الشاب : « لماذا ترمي فتاة بيضاء مثلك بنفسها مع أسود؟» .

« كريول » بيل – والذي أصله من نيوأورلينز – أصبح صديقي . كنت عندما يغلق محل سمول آخذ بعض البيض مبعثري النقود الذين كانوا يودون مواصلة السهر إلى مكان كريول بيل غير المشروع . ومكان كريول بيل هذا كان عبارة عن شقته أزال منها حاجزاً كي تبدو غرفة الجلوس أوسع لكن جوها وأكلها جعلا من المكان أحد أماكن هارلم الروحية . كان صوت الفونوغراف يأتي ناعماً من بعيد وجميع أنواع المشروبات موجودة وكان بيل يبيع أطباقاً من طعامه الكريولي المتبل – الجمبو والجمبلايا – كما كانت صديقته الجميلة السوداء تقوم بخدمة الطعام والشراب . كان بيل يناديها بالسكر الأسمر وبدأ الجميع ينادونها كذلك . كان بيل يأتي بالطناجر وتأتي السكر الأسمر بالأطباق ويملأ بيل الأطباق بالأكل ويعد لنفسه طبقاً كبيراً ويأكل معنا . كان التفرج عليه وهو يأكل متعة لأنه كان يحب طعامه الشهي وكان يطبخ الأرز بالطريقة الصينية حيث تقف كل حبة أرز لوحدها إلا أنه كان يتفوق على الطريقة الصينية في طريقة إعداده لحيوانات البحر والبقول .

كسب بيل من شقته تلك مالاً كافياً ليفتح مطعماً للأكل الكريولي في هارلم وزين حيطان ذلك المطعم بصور لعبة البيسبول التي كان يعشقها . كانت على الحائط صور كبيرة ممهورة بتوقيع لاعبي البيسبول الكبار بالإضافة إلى صور مشاهير النجوم الذين كانوا يتناولون الطعام عنده أحياناً مع بعض أصدقائهم . لا أدري ما حدث لكريول بيل بعد ذلك ولكنه باع المكان ولم أعد أسمع عنه . سأتذكر أن أسأل عنه بعض القدامى الذين يعرفون .

في إحدى المرات اتصلت بصوفيا في بوسطن ولكنها أخبرتني أنها لن تتمكن من الانفلات لمقابلتي حتى نهاية الأسبوع التالي . كانت قد تزوجت لتوها من بوسطوني أبيض ميسور الحال يعمل في الجيش وقد حضر في إجازة وسيرجع . أخبرتني أنها لا تعني بذلك أن ما بيننا سيختلف فقلت لها ألا تهتم بذلك . كنت قد عرفتها بصديقي سامي وقد خرجنا سوياً في بعض الأمسيات كما أنني ناقشت معه موضوع الاختلاط مع الفتيات البيضاوات وأنا ممنون لسامي لأنه هيأني نفسياً لاحتمال زواج صوفيا . قال سامي أن النساء البيض عمليات جداً وقد سمع الكثير منهن يعبرن عن شعورهن . كن يدركن أن الرجل الأبيض يضطهد الأسود ويضعه تحت حذائه بحيث يمنعه من تحقيق أي شيء لنفسه والمرأة البيضاء من جانبها كانت تنشد الراحة وأن تكون محترمة بين بني جنسها

لكنها أيضاً تنشد المتعة . لذلك كان بعضهن يتزوجن من رجال بيض بحثاً عن الأمان المادي والقبول الاجتماعي ومع ذلك يقابلن الزنوج خلسة . لم يكن ذلك لأنهن وقعن في حب الرجل الأسود ولكنهن أحببن المتعة خاصة الفاكهة المحرمة .

لم يكن غريباً على رجل أبيض أن يكون دخله عشرين ألفاً أو ثلاثين أو أربعين أو حتى خمسين ألف دولار لكن أن يكون لزنجي دخل من عمله يصل خمسة آلاف دولار ، ذلكم كان الغريب . لذلك كان للمرأة البيضاء التي تصادق أسود واحد من سببين : إما أن تكون تحبه أو إرضاءً لشبقها .

بعد أن قضيت في هارلم مدة طويلة تكفي لأن أتوطن كان لابد أن يصبح لي لقب يميزني عن أثنين آخرين كان لهما شعر أحمر مكوي مثلي ومعروفين وقد عملت مع كل منهما بعد ذلك . أحدهما كان يدعى « أصهب سانت لويس » ويحترف النهب المسلح . دخل أصهب سانت لويس السجن أثناء نزولي به لأنه حاول أن ينهب قهرمان عربة المطعم في قطار بين نيويورك وفيلادلفيا وحتى بعد أن أطلق سراحه عاد إلى السجن مرة أخرى لمحاولته نهب محل للمجوهرات في نيويورك . الأحمر الثاني كان يدعى « أصهب شيكاجو » وقد أصبحنا أصدقاء عندما كنت أعمل نادلاً في أحد الحانات غير القانونية. أصهب شيكاجو هذا كان أكثر غاسل أطباق هزل على وجه البسيطة . حاليا يكسب رزقه ككوميديان قومي من الفكاهة على المسرح والنوادي الليلية ولا أرى سبباً يجعله يستاء لو ذكرت أنه رد فوكس المشهور اليوم .

على أية حال لم يمض وقت طويل حتى صار لي لقب . لا أذكر التاريخ بالضبط ولكن لأن الناس كانت تسألني عن بلدتي لعلمهم أنني من ولاية ميشجان وبما أن أغلب أهالي نيويورك لم تكن قد سمعت بمدينة لانسينج كنت أقول لهم إنني من ديترويت . تدريجيًا بدأوا ينادونني بـ « أصهب ديترويت » ولصق ذلك الاسم بي .

بعد ظهر أحد الأيام في أوائل عام ١٩٤٣ وقبل أن يبدأ جمهور الساعة السادسة في الوصول كان أحد الجنود السود جالساً يشرب وحيداً في أحد الموائد في جانبي . جلس كذلك لمدة ساعة تبدو عليه البلاهة وحاله يرثى لها وكأنما حضر لتوه من أعماق الجنوب . بعد أربعة أو خمسة مشروبات قدمتها له ، ملت ناحيته قليلاً وأنا أمسح الطاولة وسألته إن كان يريد امرأة. كان المفروض في أن أفهم أن نظام جنة سمول بل وكل حانة تود البقاء في الخدمة يقتضي ألا تقترب من الجنود أو تخدعهم . لقد سبب ذلك مشاكل لعشرات المحلات حتى أن بعضها وضع في قائمة المحلات المحظور ارتيادها على الجنود أو سحبت السلطات ترخيصها .

وقعت في شرك جاسوس عسكري رحب بالفكرة وعبر عن امتنانه وأتقن الدور

بلهجة جنوبية قوية – أعطيته نمرة هاتف واحدة من معارفي اللائي يسكن في نفس المبنى الذي أسكن فيه . لكنني شممت رائحة خدعة فاتصلت هاتفيا بالمنزل بعد نصف ساعة وصدق ما توقعته إذ لم يزر أي جندي المبنى . ساعتها لم أعد حتى إلى المشرب وذهبت رأساً إلى مكتب شارلي سمول.

نظر إلي شارلي قائلاً : « ليتك لم تفعل ذلك » وفهم كلانا ما يعني.

عندما حضر المخبر الهندي الغربي ، جون بيكر ، كنت في الانتظار . لم أسأله حتى أي سؤال . وعندما وصلنا إلى المخفر في الجادة ١٣٥ وجدناه مزدحماً برجال الشرطة في زيهم الرسمي ورجال الشرطة العسكرية يقودون بعض الجنود . تعرف علي بعض المخبرين الذين كانوا يزورون مكان سمول من آن لآخر مثلما كان يفعل جو بيكر . نقطتان كانتا في صالحي أولاهما أنني لم تكن لي صحيفة سوابق والثانية لأني رفضت البقشيش الذي قدمه لي المخبر إذ قلت له إنني إنما أؤدي له خدمة بدون مقابل ويبدو أنهم بسبب ذلك قرروا أن يرعبوني فقط .

لم تكن لدي دراية كافية لأعرف أنهم لم يأخذوني إلى التحقيق الرسمي ويفتحوا بلاغاً ضدي . أخذني جو بيكر إلى غرفة صغيرة داخل مبنى المخفر وهناك سمعنا أصوات شخص يتعرض إلى الضرب . كان يصرخ : « رجاء لا تضربوني على وجهي . إنه مصدر رزقي» ومن كلامه عرفت أنه قواد . « وب ! وب ! لا ! لا ».

(بعد ذلك بزمن قصير سمعت أنهم أعدوا مصيدة لجو بيكر نفسه حيث وجد وهو يحاول ابتزاز قواد مع عاهراته البيضاوات وفصل من شرطة مدينة نيويورك ثم أدانته محكمة ولاية نيوجرسي ودخل السجن .)

ما ساءني أكثر لم يكن فصلي من العمل لكن منعي من دخول جنة سمول ولكنني تفهمت منطق أصحاب المكان لأنني وإن لم أكن مجرماً يلاحقه البوليس ، إلا أن الشرطة كانت ستضعني تحت المراقبة ومن الطبيعي أن يحاول الأخوة سمول حماية محل عملهم .

برهن سامي على أنه الصديق عند الضيق لأنه بعث إشارة لي كي أحضر إلى مكانه . لم أكن قد رأيت مكانه قبلاً فوجدته كقصر صغير ونساؤه جعلن المكان يبدو راقياً وبينما نحن نتحادث عن نوع النصب الذي يلائمني أعطاني سامي لفافة من أجود أنواع القنب الذي استنشقته في حياتي . كذلك عرض عليَّ بعض مراقبي المراهنات أن أعمل معهم ولكن ذلك كان سيعني أن أنتظر طويلاً حتى يكون لدي زبائن دائمون قبل أن أكسب مبلغاً محترماً كما أن العمل كقواد مثل سامي لم يكن يلائمني إذ لم تكن لدي القدرات المطلوبة وسأموت جوعاً لأنني لن أتمكن من إيجاد الزبائن .

اتفقنا أنا وسامي على أن بيع المخدرات كان أكثر شيء يناسبني لأن تلك عملية يمكن أن يقوم بها شخص واحد ويحقق دخلاً سريعاً . لم تكن تتطلب خبرة ما ويمكن تعلمها بسرعة خاصة إذا كان الشخص اجتماعياً بطبعه . كان كلانا – أنا وسامي – نعرف بعض البحارة الذين يمكن أن يمدوننا ببعض القنب . وكان الموسيقيون الذين أصبحت لي بهم صلات زبائن دائمين . كذلك كان الموسيقيون يستعملون مخدرات من النوع الأقوى ويمكنني إذا شئت أن أترق لذلك المستوى . سيكون ذلك أكثر خطراً ولكنه أيضاً أكثر ربحاً فمن بيع الكوكايين والهيروين يمكن أن يكسب الإنسان مائة دولار في اليوم إلا أن ذلك يتطلب خبرة طويلة في التعامل مع شرطة مكافحة المخدرات إذا كان للشخص أن يعمر ويكتسب من ذلك العمل .

عشت في تلك الأماكن مدة كافية مكنتني من التعرف على الشرطة والمخبرين من أشكالهم ما عدا شرطة المخدرات . ومن زبائن جنة سمول الدائمين والنصابين الذين يأتون إلى هنالك تحققت لي صلات مفيدة . كان ذلك مهمًا جدًّا لأنه مثلما يستطيع سامي أن يمدني بالقنب، يعتمد نجاح النصاب على معرفة أين يمكنه أن يلجأ لطلب المساعدة في حالة الضيق . مثل تلك المساعدة قد تعني معرفة أشخاص في الشرطة ومخبرين وربما أعلى من ذلك لكنني لم أصل تلك الدرجة بعد . وهكذا أعطاني سامي مبلغاً كرأسمال وأظنه كان عشرين دولار .

في أمسية نفس ذلك اليوم عدت إلى مكان سامي وطرقت الباب لأعيد له نقوده وأعرض عليه إقراضه بعض المال إذا أراد . من عند سامي كنت قد ذهبت رأساً إلى ممون ذكره لي واشتريت بعض القنب وبعض ورق اللف وعملت منها لفافات في حجم عود الثقاب . عملت عدداً كافياً من اللفافات حتى أتمكن من بيعها لموسيقيين أعرفهم في مكان سمول ، ومكنني ذلك من أن أسدد نقود سامي وأحتفظ بربح يكفيني أن أواصل . عندما رأى أولئك الموسيقيون صديقهم ومعجبهم في عمله الجديد حيوني : « يا صديقي » ، « يا أصهب ، يا مجنون ! »

في كل فرقة موسيقية يدخن نصف العازفين على الأقل نبات القنب . لن أعطي قائمة بالأسماء ولكنها تشمل بعض المشهورين جداً في عالم الموسيقى المحبوبة في ذلك الوقت وحتى بعض مشاهير اليوم . في حالة فرقة معينة ما زالت مشهورة ، كل أعضاء الفرقة كانوا يتعاطونه . كما أنك لو سألت الموسيقيين عن المغني المشهور الذي كان يتعاطاها من خلال عظمة فخذ الفراخ لتعرف أكثرهم عليه . تعاطى ذلك المغني القنب من خلال تلك العظمة بكثرة لدرجة أنه كان يشعل عود الثقاب أمام طرف العظمة ويستنشقها ليحصل على ما كان يسميه سلطنة التلامس .

واستمررت أنا في جمع الأرباح وزيادة إمداداتي وكنت أبيع اللفائف بتحفز وجنون . لم أكن أنام إلا لماماً وكنت تجدني في كل مكان يجتمع فيه الموسيقيون وفي جيبي حزمة من الدولارات . كنت كل يوم أربح خمسين أو ستين دولاراً وتلك ثروة بمقاييس تلك الأيام (وهذه الأيام أيضاً) لصبي زنجي عمرة سبعة عشرة عاماً . لأول مرة في حياتي أعرف معنى الشعور بالحرية . وفجأة أصبحت أنا مصدر إعجاب الجدعان الذين كنت أعجب بهم في السابق.

في تلك الفترة اكتشفت السينما وكنت أحياناً أشاهد خمسة أفلام في يوم واحد في دور عرض هارلم ودور وسط البلد . كنت أحب أفلام العنف والإثارة مثل همفرى بوجارت في « كازابلانكا » وعشقت كل ذلك الرقص والتطويل في أفلام مثل « الطقس العاصف » و«كوخ في السماء ». كنت بعد أن أخرج من السينما أذهب لجمع مواد اليوم ثم ألف قصباتي وعندما يحل الظلام أبدأ دوامي . كنت أعطي لفافتين مجانا لمن يشتري عشر لفافات وثمنها خمسة دولارات ولم أكن نوع البائع الذي يختفي بعد إتمام الصفقة لأن زبائني كانوا أصدقائي . وكثيرا ما شاركتهم التدخين ولم يكن أحدهم يفوقني طربا .

وأنا الآن حر طليق لأفعل ما أشاء قررت فجأة أن أذهب إلى بوسطن . طبعاً قابلت إللا وأعطيتها بعض النقود رمزاً لتقديري لمساعدتها لي عندما حضرت من لانسنج كما قلت لها ، لكنها لم تعد إللا التي أعرفها لأنها لم تكن قد غفرت لي هجري لورا مع أنها لم تذكرها ولا أنا ذكرتها أبداً . ومع ذلك كان شعورها طيباً وأنا أستعد للعودة لنيويورك حين تحادثنا عن التغيرات في أمور أسرتنا . أما ولفرد فقد كان أداؤه ممتازاً في المعهد الذي كان فيه حتى أنهم طلبوا منه أن ينضم لهيئة التدريس كذلك وصلت إللا بطاقة بريد من ريجنالد الذي انضم لسلاح البحرية .

من شقة شورتي اتصلت بصوفيا التي وصلت إلى الشقة في نفس اللحظة التي خرج فيها شورتي للعمل . كنت أود أن آخذها لنذهب إلى أحد نوادي روكسبري ولكن شورتي حذرني أن رجال الشرطة في بوسطن أصبحوا مثل رفقائهم في نيويورك يستغلون حالة الحرب ليتحرشوا بالأزواج المختلطة ، يوقفونهم ويسألونهم عن موقفهم التجنيدي – كذلك جعلنا زواج صوفيا نكون أكثر حذراً .

ركبت صوفيا عربة أجرة إلى منزلها وذهبت أنا لأستمع لفرقة شورتي . نعم أصبحت لشورتي فرقة « موسيقية » ونجح في الحصول على تصنيف من الدرجة الرابعة – ف (إعفاء من التجنيد الإجباري) وقد سررت له وسعدت بزيارتي لفرقته . كانت فرقته لا بأس بها ولكن حظ شورتي كان جيداً حيث كان يعزف في نوادي بوسطن الصغيرة . عدنا إلى شقته نتجاذب أطراف الحديث حتى الصباح .

كان لا يفتأ يقول لي : « يا بن البلد ، إنك لشيء جد مختلف ! » حدثته عن بعض الأشياء المثيرة التي قمت بها في هارلم وعن أصدقائي وعن قصة سامي القواد .

غرر سامي بفتاة في مدينة بادوكا بولاية كنتكي مسقط رأسه وجعلها حبلى مما أثار غضب أهلها عليه لدرجة أنه ترك البلد وحضر إلى هارلم حيث وجد عملاً كنادل في مطعم . كان عندما تأتي امرأة لوحدها لتتناول وجبة في المطعم وبعد أن يتأكد سامي من أنها ليست متزوجة وأنها تسكن لوحدها ، لم يكن من الصعب عليه بعد ذلك بحديثه الحلو أن يجعلها تدعوه إلى زيارتها . كان يذهب عندها ثم يصر فجأة أنه ذاهب لإحضار بعض الطعام فيخرج وأثناء غيابه يعمل نسخة أخرى من مفتاح شقتها – ثم يعود بعد أن يتأكد من غيابها ويسرق كل ماله قيمة في الشقة . يظهر سامي بعد ذلك ويقدم لها المساعدة حتى تقف على قدميها ويكون ذلك بداية اعتمادها عليه ماديًا وعاطفيًا وينمي سامي ذلك الاعتماد حتى يكاد يسترقها .

لم يستغرق مخبرو المخدرات في هارلم وقتاً طويلاً قبل أن يخمنوا أنني أبيع المخدرات وأحياناً كان أحدهم يتابعني . كثير من البائعين المتجولين أمثالي دخلوا السجن لأنهم أُوْقفوا والمادة بحوزتهم أما أنا فقد اكتشفت طريقة لتفادي ذلك . القانون واضح في أنه إذا لم تكن المعروضات بحوزتك فلا يمكن اعتقالك علما بأن وضعها في تجويف كعب الحذاء أو شريط القبعة المنتفخ لم تعد حيلاً تنطلي على المخبرين . كنت أنا عادة أحمل خمسين لفافة صغيرة في لفة صغيرة داخل معطفي وتحت إبطي ، ذراعي ملتصقة بجانبي وجيوبي مفتوحة . كنت إذا اشتبهت في شخص ما أعبر إلى الجانب الآخر من الشارع أو أدخل مكاناً ما أو أغير اتجاهي وأرخي ذراعي لكي تسقط اللفة وبما أنني كنت أعمل في أثناء الليل فلم يكن أحد يلاحظ ذلك حتى لو شك في . وإذا اتضح أنني كنت مخطئاً أعود إلى حيث رميت اللفة وألتقط لفائفي. فقدت عدداً من اللفائف بتلك الطريقة وقد أكون أصبت مخبراً بالإحباط لكنني تفاديت المحاكم بذلك .

ومع ذلك وفي صباح أحد الأيام عدت إلى غرفتي لألاحظ أن شخصاً ما دخلها وكنت متأكداً أن مخبرين فعلوا ذلك . كنت قد سمعت كثيراً عن كيف أنهم إذا لم يجدوا دليلاً ضدك كانوا يأتون « بدليل » ويضعونه في مكان لا يخطر ببالك ثم يأتون بعد ذلك « ليجدوه ». لم أكن بحاجة إلى التفكير فيما أفعل وحزمت أشيائي الصغيرة ولم أنظر خلفي مطلقاً . عندما حانت ساعة نومي كنت نائماً في غرفة أخرى .

في حوالي ذلك الوقت بدأت أحمل معي مسدساً أتوماتيكياً من عيار ٠,٢٥ كنت بادلته ببعض اللفافات مع مدمن سرقه من مكان ما . صرت أضعه تحت الحزام من الخلف لأن أحدهم أخبرني أن الشرطة لا تلمس ذلك المكان عند التفتيش كما

صرت أتجنب الأماكن المزدحمة بالناس . كانت شرطة المخدرات معروفة بأنها تدس « الدليل » في ملابس المشتبه فيه أثناء التفتيش وظننت أنني طالما ابتعدت عن الازدحام وكنت متحركاً فلن يستطيعوا ذلك . لا أدري لم كنت أحمل مسدساً ولكني كنت أعتقد أنهم لن يتمكنوا مني إذا حاولوا نصب فخ لي طالما كان بيدي شيء أدافع به . قل حجم مبيعاتي لأني أصبحت حذراً كما أنني كنت أغير مكان سكني بين الحين والآخر لمجرد الاشتباه من غير أن أخبر أحداً .

أخيراً أصبح معروفاً في هارلم أن شرطة مكافحة المخدرات قد وضعتني في قائمتها الخاصة . أصبحوا يعترضونني وكنت حينها أقول لهم في الحال وبصوت عال يسمعه كل من كان قريباً أنني لا أحمل أي شيء ولا أريدهم أن يدسوا فيّ أي شيء . كان ذلك كاف لمنعهم من ذلك لأن كل هارلم لم تكن تثق بالشرطة مما يجعل الشرطة حريصة حتى لا يتدخل بعض الناس لصالحي بعنف . كان القلق والتوتر قد بدآ يسودان سكان هارلم وبدأت ريح القلاقل وكأنما هي جاهزة للانفجار – وقد انفجرت فعلاً بعد ذلك بمدة قصيرة .

بدأت الأمور تتعقد وصرت أضطر لإخفاء لفائفي في أماكن مختلفة بالقرب من حيث كنت أبيع . كنت مثلاً أضع خمس لفائف في علبة دخان فارغة وأرميها قرب عامود النور أو خلف برميل القمامة أو خلف صندوق وأجعل الزبائن يدفعون لي أولاً ثم أخبرهم أين سيجدون البضاعة . لكن ذلك لم يعجب زبائني المنتظمين إذ كيف تجعل عازفاً موسيقيًا معروفاً يبحث في برميل قمامة . لذلك بدأت التقط زبائن لا أعرفهم من الذين تراهم في الشارع العام وتعابير وجههم توحي بأنهم من متعاطي المخدرات . كنت أستعمل صناديق أشرطة الصليب الأحمر بدلاً من علب السكائر الفارغة ونجحت تلك الطريقة .

ومع ذلك وجدت شرطة مكافحة المخدرات في وسط هارلم أكثر من طريقة لمضايقتي مما اضطرني لتغيير المنطقة فانتقلت إلى منطقة هارلم السفلى عند الجادة رقم ١١٠ . كان يوجد في تلك المنطقة عدد كبير من مدخني القنب إلا أنهم كانوا من الفقراء . كانوا من أفقر من في الجيتو ومن النوع الذي يظل مخدراً حتى لا يواجه وجوده البائس . هنا أيضاً لم أعمر طويلاً وفقدت كثيراً من بضاعتي . كانت لهم غرائز الحيوان لأنهم كانوا بعد أن أبيع لأحدهم يتبعونني وبسرعة اكتشفوا طريقتي . كنت إذا رميت اللفائف يمرقون كالسهم وينقضون عليها مثلما ينقض ديك على حبة قمح . حينما يتحول الإنسان إلى حيوان ، صقر في الجيتو مثلما أصبحت أنا ، يعيش في عالم حيوانات وصقور وتصبح الحياة صراعاً من أجل بقاء الأصلح .

لم يمض وقت طويل قبل أن أصبحت أقترض من سامي ومن الموسيقيين حتى

أشتري إمداداتي وأنسطل أنا وحتى لإطعام نفسي . ثم أعطاني سامي فكرة حين قال لي : « رد ، هل ما زلت تحتفظ ببطاقة السكة الحديد ؟ » كانت ما زالت معي لأنهم لم يستردوها مني . « حسناً ، لماذا لا تستعملها وتقوم بجولات أخرى حتى يهدأ الحال .» وقد كان محقا في ذلك .

وجدت أنني إذا تقدمت وأريتهم بطاقة السكة الحديد وأنا أتحرك بثقة فإن التذكرجي سيدعوك إلى القطار حتى وإن كان عنصرياً أبيض . وحينما يمر ليفحص تذاكر الركاب سيضع على ظهر مقعدك تذكرة توصلك وجهة ذلك القطار . خطر لي أنني يمكنني بذلك أن أسافر إلى أي مكان في الساحل الشرقي وأنا أبيع لفائفي لمعارفي من الموسيقيين المسافرين مع فرقهم . كنت أحمل بطاقة خط نيوهافن كما أنني عملت لمدة أسبوعين في خطوط أخرى لأتحصل على بطاقتها وبذلك كنت مستعدًّا للتوزيع . في مدينة نيويورك أعددت عدداً كبيراً من اللفافات ووضعتها داخل قوارير وسهلت بطاقة الهوية عملي . كان التذكرجي إذا اقتنع بأنك من زملائه العاملين وأنك مضطر للذهاب إلى موطنك لأسباب عائلية يرحب بك بدون تردد كما أن كثيراً من البيض لا يتخيلون أن الزنجي له القدرة العقلية أو الجرأة لخداعهم .

كنت أنزل في بعض المدن التي لي فيها أصدقاء من العازفين يكونون في زيارة لتلك المدينة . « رد ! » وأقدم نفسي كصديق قديم من البلد أو من المعارف في برادوك هوتيل وحينها يحيونني : « يا صديقي ! دادي أو ! » وأنا أحمل سيكار القنب من «التفاحة الكبيرة » . هل سمع أحدكم عن بائع لفائف متجول !

لم أكن أقتفي أثر فرقة معينة وكل أعضاء فرقة كانوا يخبرونني بمواعيد الفرق الأخرى وعندما ينتهي مخزوني من القنب أعود إلى نيويورك لأخذ كمية جديدة ثم أعود إلى التجول مرة أخرى . أضواء الاستادات ودور العرض تلمع والحافلات تقف خارجها وأهل البلدة في أحسن ثيابهم لدخول القاعة . وعند الباب أقدم نفسي أحياناً كأخ لأحد العازفين وأحياناً يظنونني عازفاً في الفرقة . في أثناء الحفل أقوم باستعراض بعض رقصات اللندي لأهل البلدة وبعد الحفل أقضي الليلة في البلدة أحياناً أو أركب مع العازفين في الحافلة إلى أية بلدة يقصدون . وفي بعض المرات كنت أذهب إلى نيويورك وأبقى بها بعض الأيام . انتشر خبر تركي للمدينة ولم يعد رجال شرطة مكافحة المخدرات يضايقونني وهدأت الأمور نوعاً ما . وفي بعض المدن الصغيرة كان الناس يظنونني من أعضاء الفرقة ويحيطون بي حتى أنني وقعت باسمي على بعض الأوتوجرافات . وفي إحدى المرات في مدينة بفالو كاد المعجبون أن يمزقوا سترتي .

وجدت أخي ريجنالد في أحد الأيام وهو ينتظرني في نيويورك . كانت سفينته قد حطت في نيوجرسي وذهب يبحث عني في جنة سمول معتقداً أنني ما زلت أعمل هنالك فدله النادلون على محل سامي الذي جمعه بي . سررت كثيراً برؤيته ولم أصدق أنه نفس الطفل الذي كان يتشبث بي فطوله صار ستة أقدام إلا أنه ما زال أقصر مني ببعض البوصات . كان لون بشرته داكناً أكثر مني إلا أن عيونه خضراء وبعض خطوط الشيب بدأت تغزو مفرقه وبقية شعره يميل إلى الاحمرار مثل شعري . أخذت ريجنالد إلى كل مكان وقدمته لمعارفي .

تفحصت أخي وأعجبني ما رأيت فقد كان يبدو أكثر ثقة مني عندما كنت في مثل عمره . لم يكن لدى مسكن في تلك الليلة ولكن كانت معي بعض النقود وكذلك كانت مع ريجنالد نقود فحجزنا مكاناً في سانت نيكولاس هوتيل التي ستهدم في مستقبل الأيام . تحدثنا أنا وريجنالد طول الليل عن أسرتنا وأخبرته أشياء عن أبي وأمي لم يستطع تذكرها ، ثم أعطاني آخر أخبار أخواتي وإخواني . ولفرد ما زال يدرس في جامعة ولبرفورص . هلدا مازالت في لانسنج وهي تفكر في الزواج حالياً وكذلك كان فلبرت . (أنا وريجنالد نأتي بعدها في العمر) . يفون ، وزلي وروبرت ما زالوا في المدرسة في لانسنج . ضحكنا كثيراً ونحن نذكر فلبرت – الذي أصبح متديناً جدًّا في آخر مرة رأيته فيها – وكيف أنه كان يرتدي واحدة من تلك القبعات المدورة المصنوعة من القش .

بقيت سفينة ريجنالد [illegible] أسبوع بإجراء بعض الإصلاحات على محركها [illegible] أن ريجنالد أعجب بطريقة حياتي في الاعتماد على شطارتي ولو أنه لم يذكر ذلك . أخبرت ريجنالد شيئاً مما تعلمت بأنك إذا أردت أن تحصل على شيء ما فعليك أن تتظاهر بأنك تملك شيئا ما وعن أهمية مظهر الإنسان . ولأنه كان يرتدي ملابس صارخة فقد طلبت من أحد زبائني أن يحضر له بدلة ومعطفاً محافظين . وقبل أن ينزل ريجنالد حثثته أن يترك البحرية وأنني سأساعده ليجد عملاً في هارلم . يبدو أنني ظننت أن وجود أخي الأصغر معي سيكون فكرة طيبة . حينها سيكون هنالك شخصان أثق بهما – سامي هو الشخص الآخر .

لكن ريجنالد كان شخصاً متزناً . لو كنت في مثل عمره لكنت على استعداد لأن أجري خلف القطار حتى أصل نيويورك وهارلم . كل ما قاله ريجنالد وهو يغادر : « سأفكر في ذلك » .

بعد مدة قصيرة من مغادرة ريجنالد اشتريت بذلة زوت لا توجد واحدة صارخة أكثر منها وكان ذلك في عام ١٩٤٣ . في بوسطن كتبت لجنة التجنيد إليَّ في عنواني عند إللا تستدعيني ولما لم تأتهم نتيجة كتبوا للجنة نيويورك وبواسطة

سامي وصلتني تحيات العم سام . في تلك الأيام كان أكثر ما يخيفني في العالم ثلاثة أشياء : السجن ، الوظيفة والجيش . كانت أمامي عشرة أيام قبل الظهور أمام لجنة التجنيد وشرعت رأساً في التحضير لها .

كان الجنود السود من عيون الجيش يتسكعون في هارلم متخفين في ملابس مدنية يتلقطون الأخبار لتوصيلها للرجل الأبيض في وسط البلد . وعرفت تماماً أين عليَّ أن أبدأ في إسقاط الخبر . بدأت أتحدث بصوت عال أمامهم عن كيف أنني مهووس بالانضمام إلى .... الجيش الياباني . وعندما أشعر بأن أولئك الجواسيس يتصنتون أبداً في تمثيل دور المسطول المجنون . كثير من فتوات هارلم وصلوا تلك المرحلة فعلاً – كما سأصلها أنا بعد ذلك . ذلك هو المصير المحتوم لكل من ينغمس أكثر وأكثر في المخدرات القوية وفي حياة الرذيلة . كنت أخرج بطاقة الاستدعاء وأقرأها بصوت عال حتى يعرفوا من أنا وتاريخ استدعائي لمقابلة لجنة التجنيد . (ربما كانت تلك المرة الوحيدة في هارلم التي سمع أحد ما فيها اسمي الحقيقي في تلك الأيام) .

في يوم مقابلتي للجنة ارتديت زي الممثل ومع سترة الزوت لبست حذائي الأصفر ذا العقدة الأمامية وجعدت شعري ليقف كغابة من الشعر الأحمر . دخلت وأنا أثب مرحاً ماشياً على رأس أصابعي ورميت بطاقة الاستدعاء المهترئة على الدرج أمام موظف الاستقبال : « أنا [illegible] دادي أو ، [illegible] ، متى سأرتدي البذلة العسكرية ؟ » لا أعتقد أن ذلك [illegible] قد فاق من الدهشة بعد .

طبعاً وصلتهم أخباري ولكنهم مع ذلك أدخلوني في الطابور حيث كان في تلك الغرفة ثلاثون أو أربعون من المستجدين . عم الهدوء الغرفة وكأنما سقفها سيقع وأنا أجري لساني كيلومتراً في الدقيقة الواحدة وأتكلم بلغة الشارع فقط . سأحارب على جميع الجبهات ، سأصبح جنرالاً يا صديقي قبل أن أنتهي منهم ، وحديث من ذلك النوع . كالعادة كانت الغالبية من الموجودين بيضاً ورقيقو الحاشية منهم كانوا على استعداد للهرب خوفاً مني . بعضهم وضع على وجهه نظرة استهجان واحتقار « لهذا النوع من السود» والبعض الآخر تسلى بمنظر «أراجوز هارلم الأصلي ».

تسلى بمنظري أيضاً بعض من الزنوج العشرة أو الاثنى عشر الموجودين ولكن وجوه بقيتهم المتحجرة بدت وكأنما هم على استعداد للتسجيل في الجيش وقتل شخص ما وربما لا مانع لدى بعضهم من أن أكون ذلك الشخص .

تحرك الطابور وها أنا ذا في ملابسي الداخلية في غرفة الفحص الطبي أهمهم برغبتي في الانضمام بينما عيون كل من في الطابور تقول أن كلا منهم يتمنى أن يصنف في الدرجة الرابعة – ف (إعفاء) . وقفت في الطابور مدة أطول مما توقعت

قبل أن ينادوا على اسمي وحينها حضر أحدهم في معطفه الأبيض ليصطحبني إلى ممر دائري . عرفت حينها أننا ذاهبون لمقابلة أخصائي الأعصاب – الطبيب النفساني . واستقبلتني هنالك امرأة زنجية في بداية العشرينيات من عمرها فيما أذكر ولا تخلو من ملاحة . كانت من هؤلاء الزنوج « «الأوائل» .

سيعرف الزنوج ما أتحدث عنه ففي تلك الأيام قلت الأيدي العاملة واضطر البيض لأن يسمحوا لبعض الزنوج بترك مقشاتهم ومنافضهم ومن ثم يحملون قلماً أو يجلسون على مكتب ما بوظيفة ذات اسم رنان ولكنها لا تساوي خردلة . كانت صور هؤلاء « الأوائل» تملأ الصحف الزنجية حتى أنك لا تكاد تقرأ الصحيفة من كثرتها .

كان هنالك شخص ما مع الطبيب النفساني أما الممرضة فلم احتج لأن أمثل أمامها لأنها كانت قد اشمأزت مني سلفاً . وأخيراً رن الجرس في مكتبها إلا أنها لم ترسلني بل دخلت هي إلى الطبيب . خمنت ما كانت تفعل فهي حتماً كانت تحذر الطبيب برأيها عني . هذه ما زالت إحدى مشاكلنا الكبرى في رأيي وهي أن بعض من يسمون « بالطبقة العليا » من الزنوج مشغولون بإفهام الرجل الأبيض أنهم ليسوا من شاكلتنا لدرجة أنهم لا يدركون أنهم بذلك إنما يؤكدون للرجل الأبيض نظرته لنا جميعاً .

بعد أن أوصلت رسالتها وحفظت سمعتها عادت وأومأت لي بالدخول . يجب أن أعترف بأن ذلك الطبيب كان موضوعيًا في عمله لأنه جلس يعبث بقلمه الأزرق على الرزنامة أمامه ويستمع إليّ وأنا ألغو لثلاث أو أربع دقائق قبل أن يقول شيئاً . كان يحاول بأسئلة هادئة أن يصل إلى سبب استعجالي الحرب . لم أستعجله وصرت ألف وأدور وأنا أراقبه حتى يعتقد إنه واصل لما يريد مني . كنت ألتفت يميناً ويساراً وكأنما هنالك شخص ثالث يستمع . تأكدت أنه سيرجع إلى كتبه يبحث عن تفسير لهذه الحالة الغريبة !

قفزت فجأة ونظرت من خلف البابين ، الباب الذي دخلت منه وباب آخر ربما كان باب خزانة ثم عدت وانحنيت هامساً في أذنه : « دادي ، أو ، أنا وأنت الآن ، كلانا من الشمال هنا فلا تخبر أحداً . أريد أن تبعثوني إلى الجنوب . لننظم هؤلاء الجنود النيجرز . ما رأيك ؟ لنسرق بعض السلاح ونقتل كل البيض ».

وقع القلم من يد الطبيب و تشتت هيبته المهنية في كل الاتجاهات . حملق فيَّ وكأنني ثعبان يخرج من بيضة ويده تبحث عن القلم الأحمر . تأكدت أنني تمكنت منه عندما سمعته وأنا أمر من قرب الممرضة « الأولى » وهو يقول : « يكفي ذلك».

وصلتني بطاقة تصنيف من الدرجة الرابعة – ف باليد بعد مدة ولم أسمع عن الجيش بعد ذلك ولم أهتم بمعرفة سبب رفضهم تجنيدي .

■ الباب السابع

الأزعـــــر

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



لا أستطيع أن أتذكر كل أساليب التحايل على الحياة التي مارستها في سنتي التاليتين في هارلم بعد أن انتهى فجأة ركوبي القطارات وبيع لفافات القنب للفرق الموسيقية المتجولة . في سرداب محطة جراند سنترال في نيويورك هنالك غرفة انتظار كبيرة يستعملها الزنوج من رجال السكة الحديد وكانت لعبة البوكر والبلاك جاك تدور فيها على مدار الساعة وأحياناً تصل المبالغ التي على المائدة خمسمائة دولار . أذكر مرة في لعبة البلاك جاك أن حاول طاه عجوز كان يوزع الورق أن يخدعني فشهرت مسدسي في وجهه .

في المرة التالية التي ذهبت فيها للعب حدثتني نفسي أن أضع مسدسي تحت حزامي في مؤخرة الظهر . وصدق ما توقعت فسرعان ما سمعت صيحة طويلة وظهر رجلا شرطة ضخام الأبدان حمر الوجوه . جس الشرطيان جيوبي وجسدي ولكن فات عليهم مسدسي . أنذرني رجلا الشرطة ألا أدعهما يقبضان علي ثانية إلا إذا كانت معي تذكرة للسفر وقدرت أن كل رجال السكة الحديد سيكونون حذرين مني بعد يوم الحادث ولذلك لم أحاول الحصول على عمل في السكة الحديد بعد ذلك .

وجدت نفسي في شوارع هارلم مرة أخرى بين كل أولئك المجرمين ولم يعد بإمكاني أن أرجع إلى بيع اللفافات لأني صرت معروفاً لدى شرطة مكافحة

المخدرات . كنت صعلوكاً حقًا ، بدون تعليم أو أية خبرة في عمل شريف ومع ذلك كنت أرى نفسي كشخص جريء وبارع يمكنه أن يعيش اعتماداً على دهائه ويستغل أية ضحية تمر في طريقه . كنت على استعداد للمخاطرة بأي شيء .

في هذه اللحظة وفي جيتو أي مدينة كبيرة يوجد عشرات الألوف من الشباب ممن هجروا الدراسة يتحايلون مثلي على الحياة بأية وسيلة – وحتما سيتدرجون وينغمسون أكثر وأكثر فيما هو أسوأ وأسوأ من الأعمال غير القانونية وغير الأخلاقية . المحتالون المحترفون لا يستطيعون الاسترخاء للتفكير فيما هم فيه وإلى أين سيقودهم ذلك فالعالم بالنسبة لهم غابة يعيشون كل ساعة فيها مدركين أنه عند أي استرخاء من جانبهم ، أي توقف فلن يتردد أي من الذئاب الجائعة والثعالب والنسور الأخرى في القضاء عليهم .

في الستة أو الثمانية أشهر التالية قمت بأول عملية نهب لي وبعض عمليات السطو . كانت عمليات صغيرة ودائماً في المدن المجاورة نجوت فيها من القبض عليَّ وأصبحت أحاكي كبار المجرمين وأستعد لهذه العمليات ببعض المخدرات القوية . بدأت بشم الكوكايين عملاً بنصيحة سامي . كذلك أصبحت أحمل معي مسدساً من عيار ٢٥ مليمتراً مصنوعاً من الحديد الأزرق كجزء من هندامي العادي أما في زي العمل فأحمل معي مسدساً من عيار ٣٢ أو ٣٨ مليمتراً . رأيت كيف ترتخي الوجوه وكيف تنفغر الأفواه حينما تواجه عيونهم فوهة البندقية . وعندما أحدثهم يسمعون صوتي وكأنه آت من بعيد ويفعلون أي شيء أطلبه .

بين العمليات كنت أظل مخدراً منعاً لتوتر الأعصاب . أحياناً وبدون مقدمات أرتحل فجأة طلباً للأمان ، في غرفة إيجارها الأسبوعي خمسة عشر أو عشرون دولاراً ودائماً في منطقتي المفضلة ، ما بين الجادة رقم ١٤٧ والجادة رقم ١٥٠ بالقرب من شوجرهيل .

في إحدى المرات كدنا أنا وسامي أن نقع في قبضة الشرطة أثناء إحدى العمليات . سمعنا ونحن ننسل بعد نهاية العملية ، أصوات نفير عربة الشرطة . بسرعة أبطأنا الخطو وعندما اقتربت العربة منا قفزنا إلى منتصف الشارع في طريقها ولوحنا لهم بأيدينا لنسألهم عن الاتجاه . وقفوا ظانين أننا سندلهم على الاتجاه الذي هرب نحوه المجرم ولكنهم عندما عرفوا غرضنا سبونا وساروا في طريقهم . لم يخطر ببال الرجال البيض أن بعض الزنوج يمكن أن يفكروا بخداعهم بتلك الطريقة .

كنت أرتدي أرقى أنواع السترات والتي أشتريها مسروقة بثلاثين أو خمسين دولار . كذلك وضعت قانوناً لشخصي ألا أجهد نفسي وراء أشياء فوق حاجتي وإذا سألت أي مجرم مجرب سيخبرك أن الطمع هو أقصر طريق للسجن . كنت أحفظ في

ذهني الأماكن والأوضاع الجاهزة للنهب ولا أقوم بأية عملية إلا حينما تضمحل حزمة النقود في جيبي . أحيانا أقامر بمبالغ كبيرة مع نفس عميل المراهنات الذي بدأت معه في جنة سمول . بعض المرات كنت أتهور وأضع ما يقرب من أربعين دولار في اليوم في رقمين فقط وأحلم بالخبطة الخرافية . لا أدري ماذا كنت سأفعل إذا ربحت عشرة أو اثنى عشر ألف دولار في مرة واحدة . طبعاً كنت أربح مبالغ بسيطة بين الفينة والأخرى . في مرات أخرى أتصل فجأة بصوفيا هاتفياً لتحضر لمدة يوم أو يومين .

بدأت أذهب إلى السينما بكثرة كذلك لم يفتني أي عرض موسيقى لأي واحد من أصدقائي العازفين سواء أكان ذلك في هارلم أو المسارح الكبيرة في وسط البلد أو في الجادة رقم ٥٢ .

ازداد ارتباطي مع ريجنالد في المرة التالية لرسو سفينته في نيويورك . كنا نتحدث عن أمور العائلة وتأسفنا لكون أخينا الأكبر ولفرد سوسة الكتب لم يجد الفرصة ليدرس في إحدى الجامعات الكبيرة حيث كان بإمكانه أن يحقق طموحه . أيضاً تبادلنا أفكاراً لم نتبادلها مع شخص ثالث . ريجنالد بهدوئه المعتاد كان مجنوناً بالموسيقى والموسيقيين وقد أدى كشفي له عن عالم الموسيقى المثير إلى أن تغادر سفينته يوماً بدونه قضينا أوقاتاً ممتعة مع العازفين خلف المسرح عندما يأتون إلى مسرح روكسي أو باراماونت لأن أغلبهم كانوا يعرفونني من أيام بيع اللفافات للفرق الموسيقية .

ذهبت مع ريجنالد إلى قاعة السافوي ، مسرح أبولو ، مشرب فندق برادوك ، النوادي الليلية والحانات غير المشروعة وأي مكان يعزف فيه الزنوج . في إحداها احتضنت « سيدة اليوم » بيلي هوليداي ريجنالد ونادته « أخي الصغير». أمن ريجنالد على شعور عشرات الألوف من الزنوج بأن نهاية المطاف وقمة الفرق الموسيقية هي فرقة ليونل هامبتون . قدمت ريجنالد لعدد كبير من أعضاء الفرقة ولهامبتون نفسه ولزوجته ومديرة أعماله جلاديس ، إذ أنني كنت على معرفة وثيقة بهم . « هامب » من أطيب الناس على وجه البسيطة ومن يعرفه سيخبرك أنه قد يجود بشدة على أناس لا يعرف حتى أسمائهم . وبالرغم من نجاحه المادي الكبير حالياً وسابقاً سيفلس لو لم تكن جلاديس مديرة أعماله وهي من أذكى الناس الذين عرفتهم في حياتي . سيؤكد لك ذلك صاحب مسرح أبولو ، فرانك شيفان ، لو سألته . كان شيفان يتعاقد مع الفرق على مبلغ أسبوعي محدد إلا أن جلاديس في مرة اتفقت معه أن تعزف الفرقة مقابل نسبة معينة من الدخل وحينها ضوعف عدد العروض من أربعة إلى ثمانية في اليوم ، إن صحت روايتي ، فزاد ذلك من نفوذ هامبتون ودخله . جلاديس كانت تتحادث معي كثيراً وأعطتني مرة نصيحة جميلة إذ قالت : « اهدأ قليلاً يا أصهب .» كانت ذات فراسة ولعلها حدست خطورة طريقي .

من الأشياء التي أحببتها في ريجنالد أنه لم يكن يسألني أي سؤال حينما أقول له إنني ذاهب للعمل. وصرت بعد مجيء ريجنالد أقوم بعدد أكبر من العمليات كما أنني من أجل أن تكون له دار يعود إليها، قمت بتأجير شقة لأول مرة في هارلم. كانت شقة من ثلاث غرف إيجارها الشهري مائة دولار تقع في السرداب الأمامي لبيت في الجادة رقم ١٤٧ بين شارعي كونفنت وسانت نيكولاس. في السرداب الخلفي الملاصق لنا كان يسكن واحد من أكبر تجار المخدرات في هارلم.

أصبحت الشقة مقر رئاستنا وبدأت تدريجياً أعرف ريجنالد بمكان كريول بيل والأماكن الأخرى التي تسهر حتى الصباح. وفي حوّالي الثانية صباحاً عندما تكون نوادي البيض في وسط المدينة قد أغلقت أبوابها، كنا أنا وريجنالد نقف أمام هذا النادي أو ذاك في هارلم وأنا أشرح لريجنالد ما يحدث. كانت عربات الليموزين السوداء تتهادى نحو هارلم بداخلها أولئك البيض الذين لا يشبعون من « الروح » الزنجية في النوادي ذات الشعبية عندهم والتي تختلف من مثل كوخ جيمي للفراخ ومكان ديكي ولز المشهورين إلى أماكن أخرى مثل ما يسمى بالنوادي الخاصة التي تظهر وتختفي بين يوم وليلة وحيث يؤخذ دولار « كرسوم عضوية » عند المدخل.

في داخل هذه الأماكن تتأذى العيون من الدخان ومقابل كل زنجي تجد أربعة بيضاً يحتسون الوسكي من فناجين القهوة ويأكلون الفراخ المشوية. كان الرجال البيض بوجوههم التي تسيل حمرة ونسائهم بالمكياج والعيون البراقة تتصادم أجسادهم من ضيق المحل ويضحكون بصوت عال ويصفقون للموسيقى. كثير من البيض كان يمشي مترنحاً نحو الزنوج – نحو النادل أو المالك أو الجالسين من الزبائن يشد على أيديهم ويحاول أن يحتضنهم قائلا: « إنك إنسان مثلي وأنا أريدك أن تعرف ذلك.» كانت الأماكن المشهورة تجتذب مشاهير البيض والسود على السواء والذين كانوا يتلاطفون مع بعضهم البعض. وكنت تجد حشداً كبيراً في كوخ جيمي أو في مكان ديكي ولز في الرابعة والنصف صباحاً حيث يقوم هيزل سكوت بالعزف على البيانو لتغني بيلي هوليداي بعض البلوز.

على ذكر كوخ جيمي فهو المكان الذي عملت فيه نادلاً بعد ذلك بمدة ولفترة بسيطة وفيه تعرفت على رد فوكس (كوميديان مشهور) الذي كان يغسل الأطباق هنالك ويجعل طاقم المطبخ يموت من الضحك.

كان لا بد أن نجد لريجنالد عملية ما يتكسب منها وفكرت كثيراً فيما هو مناسب له على أن تكون شيئاً آمناً وله بعد أن يتمرس أن يخاطر إذا أراد أن يجمع مالاً بسرعة. أدخلت ريجنالد في عملية بسيطة وغير معقدة استغللت فيها معرفتي بنفسية سكان الجيتو. ذهبنا إلى وسط البلد حيث دفع دولارين وحصل على رخصة

بـائع متجـول ثـم أخذتـه إلى مركـز توزيـع أحـد المصـانع حيـث اشـترينا كميـة مـن الملابس والأشياء التي تباع رخيصـة لوجود خلل بسيط بها مثل القمصـان ، الملابس الداخلية ، خواتم ساعات وأشياء عدة من النوع الذي يمكن أن يباع بسرعة .

من مراقبته لي وأنا أقوم بذلك في هارلم تعلم ريجنالد بسرعة كيف يدخل محـال الحلاقة والكوافير والحانات ممثلاً دور الحذر وهو يدع الزبائن يختلسـون النظـر إلى « غنائمه». وبمـا أنـه كـان في هـارلم دائمـاً لصـوص يودون التخلص بسـرعة مـن سلـع جيدة النوع ومسروقة فقد كان كثير من الهارلميين على استعداد ليدفعوا ثمنـا عاليـا لبضاعة رديئة مشتراة شرعاً . لم يكن من الصعب التخلص بسرعة من حقيبة مـلأى بالسلع وبيعها بضعف ثمنها بتلك الطريقة وإذا ما تعرض شرطي لريجنالد ففـي جيبـه رخصة تجارية وفاتورة شرعية . فقط على ريجنالد التأكد من أن لا أحد من الزبـائن سيكتشف أن البضاعة غير مسروقة .

توقعت أن ريجنالد مثل كثير مـن الزنـوج الـذين أعـرف ، سيجري خلف امـرأة بيضـاء . كنـت أشـير لـه إلى بعض النسـاء البيضـاوات المتحـررات وأقـول لـه : إن أي زنجي له عقل يمكنه أن يجعل أياً منهن تقع في حبه . ألا أنني يجب أن أقول هذا عن ريجنالد : لم يكن يحب النساء البيضاوات . أذكـر في المرة التي قابل فيها صوفيا أنه كان بارداً لدرجة أزعجتها وسرني ذلك نوعاً مـا . صادق ريجنالد فتاة سوداء في أواخر عقدها الثالث ، « امرأة مستقرة » كمـا كنـا نسميهن في تلك الأيام . كانت نادلة في مطعم راق في وسط البلد أعطت ريجنالد كل ما تملك فقد كانت سعيدة جداً أن تصادق شاباً صغيراً . أعني أنها كانت تشتري لـه الملابس وتعد لـه الأكـل وتغسل ملابسه وكل ما يحتاج وكأنه طفل .

ذلك كان أحد أسباب ازدياد احترامي لأخي الأصغر إذ أظهر ريجنالد أكثـر مـن مرة أن له وعياً أكبر من كثير من فتوات في ضعف عمره . كان عمره حينها ستة عشر عاماً لكن طوله كان ستة أقدام ومظهره وسلوكه يخفيان عمره الحقيقي .

في كل سنوات الحـرب لم تكـن العلاقـات العنصـرية في هـارلم جيـدة . كـان التـوتر يتفاقم كذلك علمت من القدامى أن هارلم تغيرت بعد الشغب الذي حدث في عام ١٩٣٥ حينما تسبب الزنوج في خسائر بمئات الملايين من الدولارات ساخطين على تجار هـارلم البيض الذين لا يوظفون الزنوج في أعمالهم بينما يجمعون منهم الملايين .

في خلال الحرب أغلق مستر لاجارديا ، عمـدة نيويـورك ، قاعـة السـافوي رسميًّا وكان رأي الناس في هارلم أنه فعل ذلك ليمنـع اختلاط الأجنـاس البيضـاء والسـوداء وكـانوا يقولـون : لا أحـد أجبر هـؤلاء الفتيـات للحضـور إلى أمـاكن الزنـوج وتصـدى

آدم كليتون باول (نائب هارلم في الكونجرس) لذلك القرار بشدة . كان آدم باول قبل ذلك قد جاهد ونجح في أن يفرض على أديسون (شركة كهرباء نيويورك) وشركة التلفونات أن يوظفوا سوداً ثم بعد ذلك ساعد في كسب معركة دمج الثكنات في الجيش والبحرية بدلاً من أن تكون مفصولة عنصرياً . لكن باول لم ينجح في كسب معركة السافوي الذي ظل مغلقاً لمدة طويلة . ذلك كان مثالاً آخر من « أفعال الشمال المتحرر » التي لم تعجب هارلم في روادها البيض .

أخيراً انتشرت إشاعة قوية أن الشرطة البيض أطلقوا الرصاص على جندي زنجي في فندق برادوك . كنت أسير في شارع سانت نيكولاس حينما رأيت أعدادا من الزنوج يصيحون ويجرون ناحية الجادة رقم ٢٥ وأذرع بعضهم ملأى بأشياء عديدة . أخبرني شورتي هندرسون ، ابن عم المايسترو المعروف ، بما حدث . كان الزنوج يحطمون واجهات المحال التجارية ويأخذون كل ما يستطيعون – أثاث ، طعام ، ملابس ، مجوهرات وكحول . في ظرف ساعة كان وكأن كل شرطة نيويورك في هارلم . كذلك كان العمدة لاجارديا وسكرتير حركة تقدم الملونين حينها ، مستر والتر وايت ، يركبان عربة مطافئ ويتجولان داعين الناس للهدوء وراجين منهم الذهاب إلى بيوتهم .

قبل فترة قصيرة قابلت شورتي هاندرسون في الشارع السابع وضحكنا ونحن نتذكر شخصاً ورث اسم « القدم اليسار » من ذلك الشغب لأنه في عجلته وهو يزاحم في متجر أحذية نسائية خطف خمسة أحذية فردية اتضح أن كلها كانت للقدم اليسار . ضحكنا أيضاً ونحن نتذكر الصيني صغير البدن الذي لم يمس أحد متجره لأن المشاغبين كانوا يموتون من الضحك وهم يرون العلامة التي وضعها في واجهة المتجر على عجل : لون أيضاً أنا .

بدأت الأمور تتأزم بعد ذلك الشغب وأصبحت الحياة صعبة لرواد حياة الليل وللذين يتكسبون من روادها البيض . وبعد أن كان المال يتدفق على هارلم في العشرينات أصبح مجرد قطرة بعد حوادث ١٩٣٥ والآن أوقف الشغب الأخير حتى تلك القطرة .

اليوم لا يتعدى عدد زوار هارلم من البيض العشرات وغالباً يأتون في عطلة نهاية الأسبوع فقط ، ليؤدوا رقصات التويست والفرَغ والواتوسي والرقصات المحبوبة السائدة في جنة سمول التي يملكها حاليًا لاعب كرة السلة العظيم ولْت (الطواله) تشامبرلين الذي يجذب الرواد بسمعته كرياضي أمريكي نظيف . أما الأغلبية العظمى من البيض فتخاف من الحضور لهارلم ولذلك ما يبرره . وحتى بالنسبة للزنوج تعتبر حياة الليل في هارلم قد انتهت ويذهب ميسورو الحال منهم لينفقوا أموالهم في مكان ما في وسط البلد في عالم « الاندماج » والنفاق وفي محلات كان محرماً عليهم دخولها في السابق وأي زنجي « مخبول » يدخلها كانت الشرطة تطرده . هذه الأيام لا يكاد أبيض غني ينتهي

من بناء ناطحة سحاب ويفتتحها إلا وقد سارع الزنوج المفتونون بالاندماج إلى حجز قاعة فيها « لمؤتمر» ما أو لحفلة راقصة بينما لايملك أي منهم عدة جملون أدوات . البيض الذين كانوا يأتون إلى هارلم يتحملون بعثرة المال ولكن ليس من مصلحة الزنوج أن يأخذوا أموالهم لينفقوها في محلات الرجل الأبيض .

تملكنا الرعب أنا وسامي مرة أثناء عملية سرقة . فقد كدنا أن يُقبض علينا . وتأزمت الأمور في هارلم إلى درجة اضطر معها المحتالون والنصابون إلى العمل الشريف وحتى بعض البغايا صرن يعملن خادمات في البيوت أو عاملات نظافة في المكاتب ليلاً . حتى تجارة الرقيق الأبيض كسدت . ذهبنا أنا وسامي إلى مكان يعتبر نهبه مستحيلاً ولكننا كنا ندرك أن أي مكان يشتهر بدقة حراسته سرعان ما يتراخى الحراس فيه مطمئنين ويصبح من أسهل الأماكن . ولكن ونحن في منتصف المهمة انقلب الحظ علينا ولامست سامي رصاصة وبالكاد تمكنا من الهرب . من حسن الحظ أن إصابة سامي كانت طفيفة . انفلتنا كل في اتجاه مختلف ففي ذلك السلامة .

قبل الفجر ذهبت إلى شقة سامي فوجدت معه آخر نسائه – واحدة من الجميلات العنيدات – زنجية أسبانية تبكي وتولول فوق سامي . مالت ناحيتي وهي تصرخ وتولول لعلمها أنني كنت معه ولكني أزحتها بعيداً مني ولأني لم أفهم لماذا لا يسكتها سامي ، أسكتها أنا وبطرف عيني رأيت سامي يتحرك لالتقاط مسدسه . ردة فعل سامي لضربي امرأته بتلك الطريقة بالرغم من صداقتنا الحميمة كان نقطة الضعف الوحيدة التي لاحظتها فيه . بدأت تلك المرأة تصرخ وقفزت نحوه لأنها كانت تعلم أنه عندما يشهر صديقك السلاح في وجهك فذلك يعني أنه فقد السيطرة على نفسه وأنه سيصوب . شغلت تلك المرأة سامي مدة كافية تمكنت فيها من الهرب وقد جرى سامي خلفي لمسافة مربع واحد .

تصالحنا بعد ذلك – على الأقل ظاهريًا – لأن الأمور لا يمكُن أن تعود كما كانت بين اثنين حاول أحدهما قتل الآخر . حدثتنا أنفسنا بعد ذلك أنه من الأفضل أن نهدئ الأمور لفترة وكان أسوأ ما في الأمر أن شخصاً رآنا وحتماً وزعت الشرطة منشوراً في تلك البلدة يحمل أوصافنا العامة.

لم أستطع تناسي تلك الحادثة حول امرأة سامي وبدأت أعتمد أكثر وأكثر على أخي ريجنالد على أساس أنه الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنني أن أثق فيه ثقة تامة . ريجنالد كان كسولاً كما اكتشفت ، فقد ترك عمليته تلك كلية لكنني لم أهتم لذلك ، فله أن يكون كسولاً بقدر ما يريد إذا كان يستخدم عقله بطريقة صحيحة كما كان يفعل . كان قد ترك شقتي قبل ذلك ليسكن مع « امرأته المستقرة » تلك عالة عليها حينما يكون بالمدينة . علمته أيضاً أن يعمل لمدة في السكك الحديدية

حتى يتحصل على بطاقة هوية منها ويستعملها ليسافر مجاناً فريجنالد يحب التسفار . سافر ريجنالد عدة مرات وإلى كل مكان لزيارة أخواتنا وإخواننا الذين بدأوا يتبعثرون في مدن مختلفة . في بوسطن كان أقرب إلى ماري منه إلى إللا التي كانت أختي المفضلة فكل من ريجنالد وماري كانا من النوع الهادئ أما أنا وإللا فكنا من النوع المتحرك . كذلك قضى ريجنالد أوقاتاً جميلة مع شورتي في بوسطن .

بسبب سمعتي كان من السهل عليَّ أن أجد عملاً في مراهنات الأرقام والتي كانت المجال الوحيد في هارلم الذي لم تكسد تجارته . كان مخدمي وزوجته قد حصلا لتوهما على امتياز مصرفي لإجراء المراهنات في منطقة سكة حديد برونكس لمدة ستة أشهر من رجل عصابات أبيض وذلك كرد لجميل قام به مخدمي وزوجته نحو ذلك الأبيض وتسمى منطقة الامتياز تلك منطقة موتهافن فقد قسم رجال العصابات منطقة المراهنات إلى عدة أقسام ويُعطي امتياز كل قسم لشخص معين ولمدة محدودة . في السابق كانت زوجة مخدمي تعمل كسكرتيرة لدتش شولتز في الثلاثينيات عندما شق الأخير طريقه بالقوة للسيطرة على مجال المراهنات في هارلم . كانت مهمتي تنحصر في عبور جسر جورج واشنطن بالحافلة حيث يقابلني شخص آخر ويتسلم مني كيساً مدونة به الأرقام التي اختارها المراهنون . لم نكن نتبادل كلمة واحدة وبعد ذلك مباشرة كنت أعبر الشارع وأركب أول حافلة عائدة إلى هارلم . لم أتعرف على ذلك الشخص مطلقاً ولا أدري من كان يعود بالأرباح لمن يفوز من المراهنين فهذه أشياء لا يسأل عنها في دنيا العصابات .

زوجة مخدمي وجلاديس هامبتون هما أكثر امرأتين ممن عرفت في هارلم واحترمت حنكتهما التجارية . كانت زوجة مخدمي تحدثني عن أشياء مثيرة عندما تجد الوقت ويكون لديها ميل للحديث . كانت تحكي لي عن أيام دتش شولتز ، عن الصفقات التي كانت تعرف عنها وعن الرشاوي للمسئولين ابتداء من رجال الشرطة المستجدين ومحاميي الأساليب المشبوهة حتى المستويات العليا من الشرطة والسياسيين . كانت تدرك من تجربتها الشخصية أن الجريمة تزدهر بقدر ما يتعاون معها رجال الأمن والقانون . وأوضحت لي كيف أنه من تركيبة البلد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كان المجرم والقانون والسياسيون شركاء لا ينفصلون .

في ذلك الوقت غيرت عميل مراهناتي القديم الذي كنت أتعامل معه حينما كنت أعمل في جنة سمول والذي كره أن يفقد زبوناً مدمناً مثلي ولكنه تفهم رغبتي في التعامل مع عميل من المنطقة التي أعمل فيها . بدأت أضع مراهناتي مع آرشي الهندي الغربي الذي كما ذكرت قبلاً كان من أعنف زنوج هارلم وواحداً من رجال دتش شولتز الأشداء في هارلم سابقاً . قبل مجيئي إلى هارلم كان آرشي

الهندي الغربي قد قضى وقتاً مسجوناً في سجن سنج سنج . غير أن زوجة مخدمي لم تختره للعمل معها وفاء لذكرى رئيسها السابق دتش ، بل لأن آرشي كان يستمتع بذاكرة فوتوغرافية مما وضعه في النخبة بين عملاء المراهنات . لم يكن يدون رقماً وحتى في حالة الأرقام التوافقية كان يهز رأسه فقط . كان يحفظها كلها عن ظهر قلب ويكتبها للصراف عند تسليم النقود مما جعل منه عميلاً مثالياً لأن الشرطة لن تعثر عنده على دليل مكتوب بتلك الطريقة .

كثيراً ما فكرت في حالة عمال المراهنات مثل آرشي الهندي الغربي . لو كانوا في مجتمع آخر لاستفاد من مقدرتهم الحسابية الخارقة بطريقة أفضل . لكنهم كانوا سوداً .

على أية حال كان مجرد التعامل مع آرشي يعطي الزبون مركزاً اجتماعياً مميزاً لأنه كان يتعامل فقط مع كبار المراهنين كما كان التعامل معه يتطلب النزاهة والموقف المالي السليم أيضاً إذ أنه كان لا يمانع في التحصيل أسبوعيًا بدلاً من يوميًا . كان دائماً يحمل معه ألفي دولار من ماله الخاص وإذا أتاه زبون قائلاً إنه ربح مبلغاً معتدلاً من خمسين سنتاً أو دولار راهن به ، يخرج آرشي مبلغ الثلاثمائة أو ستمائة دولار المطلوبة من جيبه ليسلمه للزبون على أن يستردها هو من الصراف . كنت كل نهاية أسبوع أسدد حسابي له والذي يتراوح ما بين خمسين إلى مائة دولار إذا كنت فعلاً توسعت في ذلك الأسبوع . أما إذا فزت وقد حدث ذلك أكثر من مرة من مجموعة توافقية مثل ما أوضحت أعلاه — كان آرشي يدفع لي من عنده .

أخيراً انتهت فترة ستة أشهر امتياز مخدمي وزوجته والتي حقق منها ربحاً طيباً . كذلك استفاد عملاؤه الذين وجدوا عملاً بسرعة مع صرافين آخرين — أما أنا فاستمررت في العمل مع مخدمي وزوجته اللذين افتتحا مكاناً للقمار .

إحدى سيدات هارلم التي عرفتها لأنني كنت قد أسديت جميلاً لإحدى صديقاتها ، أدخلتني إلى جانب خاص من حياة الليل في هارلم ، جانب لم تؤثر عليه أحداث الشغب كثيراً ، فقط أوقفته مؤقتاً . ذلكم هو عالم الليل الذي فيه يقدم الزنوج في الغرف المغلقة تسلية للبيض الأغنياء تشبع انحرافاتهم الجنسية الغريبة .

البيض الذين عرفت كانوا يحبون التبسط مع الزنوج أمام الناس في النوادي والحانات غير المشروعة والتي تعمل حتى الصباح . في نفس الوقت لم يكن هؤلاء يحبون أن يعرف أحد أنهم يقربون من هارلم وقد أخافتهم حوادث الشغب بعض الشيء . في السابق لم يكن أحد يلحظ تسللهم داخلين خارجين من هارلم عندما كان يحضر إليها كثير من البيض الآخرين أيضاً ، أما الآن فسيكون وجودهم

واضحاً للعيان . كانوا كذلك يخافون غضب الزنوج الذين أثارتهم الحوادث الأخيرة . لذلك صارت تلك « المدام » حذرة لحماية عملها وعرضت عليَّ العمل كدليل .

لم يكن من السهل الحصول على هاتف أثناء الحرب فطلبت مني المدام أن أبقى بشقتي أثناء اليوم التالي ويبدو أنها تحدثت إلى شخص ما لأنه صار لدى هاتف قبل منتصف ظهر ذلك اليوم وخاطبتها هاتفياً من هاتفي الجديد ذي الرقم السري . كانت امرأة متخصصة في مجالها وإذا لم تستطع أو رفضت فتياتها أداء خدمة معينة لزبون ما ، كانت ترسلني إلى مكان آخر يكون عادة شقة في مكان ما في هارلم تُلبي تلك الطلبات الخاصة . كانت النقطة التي أقابل فيها الزبائن تقع أمام استور هوتيل في الركن الشمالي الغربي المزدحم دائماً بين شارع برودواي والجادة رقم ٤٥ . وأنا واقف أراقب سير الحركة تعلمت بسرعة أن أتعرف على العربة الخاصة أو عربة الأجرة أو الليموزين الذي يحمل الزبون حتى قبل أن تهدئ العربة من سرعتها وهي تقترب نحوي وفيها الوجوه البيضاء القلقة تحدق من وراء الزجاج باحثة عن الزنجي الطويل صاحب اللون البرونزي الذي يلبس بذلة داكنة اللون أو معطفاً وعلى ياقته زهرة بيضاء . وإذا كانوا في عربة خاصة ليس بها سائق كنت أركب خلف عجلة القيادة وأقودهم إلى المكان المحدد . أما إذا كانوا في عربة أجرة فكنت أركب معهم وأطلب من السائق أن يذهب إلى مسرح أبولو في هارلم ، لأن كثيراً من عربات الأجرة في نيويورك يقودها رجال المباحث ، ومن هناك نركب عربة أجرة أخرى سائقها زنجي وأعطيه العنوان الصحيح . وحالما تستقر المجموعة كنت أتصل بالمدام هاتفيًا وكانت عادة تطلب مني أن أركب عربة أجرة وأرجع إلى نقطة التلاقي بين شارع برودواي والجادة ٤٥ لأكون هنالك في وقت محدد . كانت المواعيد دقيقة ونادراً ما انتظرت في ذلك الركن لأكثر من خمس دقائق كما أنني تعلمت أن أكون متحركاً لا ساكناً حتى لا أثير انتباه أي من رجال شرطة الآداب أو الشرطة الرسمية .

كنت أكسب مع البقشيش الجزيل مائة دولار في الليلة أحياناً وأنا أدل عشرة زبائن إلى المكان الذي يريدون ، ليشاهدوا أو يفعلوا أو يفعل لهم ما يشاءون . لم أكن أعرف هوية أغلب الزبائن ولكن أسماء من تعرفت عليهم منهم أو سمعت بأسمائهم قبلا تذكرني بفضيحة بروفيومو الشهيرة في انجلترا . عند ذكر البحث عن الغرائب والشذوذ نجد الإنجليز لا يفوقون أغنياء أمريكا ذوي النفوذ . رجال أثرياء ، من متوسطي العمر وأرذله، رجال فاتوا مرحلة الشباب ، لم يكونوا طلاب جامعات بل آباؤهم من خريجي جامعات الآيفي المرموقة . كان بعضهم جدوداً فيما أظن . قادة مجتمع . سياسيين كباراً . عمالقة المال والصناعة . أصدقاء مهمين من بلدان أخرى . كبار رجال حكومة المدينة . كل أنواع المهنيين . نجوماً فنية لامعة – مشاهير

هوليود والمسرح – وبالطبع رجال العصابات .

كانت هارلم في نظرهم مخبأ الرذيلة وكنز الجسد . تسللوا إلى السود المحرَّمين عليهم ونزعوا أقنعة الطهارة والأهمية والاحترام التي يرتدون في العالم الأبيض . أولئك أناس بمقدرتهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال من أجل قضاء ساعتين ، ثلاث أو أربع لإشباع شهواتهم الغريبة . ولكن في هذا العالم السفلي الذي يختلط فيه الأبيض والأسود لا يهتم أحد بإدانة الزبائن . لهم ما يسمون ويتخيلون ويصفون ، ما يفعلون وما يطلبون أن يفعل لهم طالما كانوا يدفعون .

في فضيحة بروفيومو في إنجلترا روت صديقة كريستين كيلر كيف أن بعض زوارها كانوا يطلبون أن يجلدوا بالسياط . وإحدى أكثر رحلات العمل التي كنت أقوم بها كانت إلى عنوان خاص بعيد عن بيت المدام ، شقة تسكنها فتاة زنجية ضخمة ، في سواد الفحم وقوة الثور ولها عضلات عمال الموانئ . الطريف في الموضوع أن زوارها كانوا عادة أكبر الرجال البيض سنًّا ، في الستينات من عمرهم وربما بعضهم في السبعينات ، وكانوا لا يكادون يستجمعون قواهم من الضرب بالسياط إلا وتراهم بعد فترة قصيرة ينتظرونني في برودواي وشارع ٤٥ كي آخذهم مرة أخرى ليجثوا على ركبهم يصرخون طالبين الرحمة تحت سوط تلك الفتاة السوداء. بعضهم كان يدفع لي كي أحضر وأتفرج عليهم يُضربون . وكانت تلك الفتاة تدهن جسدها الأمازوني لتبدو أكثر سواداً ولمعاناً – كذلك كانت تستعمل سياطاً مجدلة تدمي الجسد ومن كل نوع كانت تكسب مبلغاً محترماً من هؤلاء البيض.

لن أحكي كل ما شاهدت ولكني أقول : إنني كنت وأنا في السجن أتساءل عن تفسير علم النفس لكل ذلك . كل أولئك الرجال كانوا يحتلون مناصب هامة ، يوجهون ويؤثرون ويمارسون النفوذ فوق الآخرين .

وأنا في السجن بعد ذلك بزمن فكرت في شيء آخر . فكرت في كيف أن كل أولئك البيض أوضحوا تفضيلهم للسواد بجلاء وكانوا يصرون على السود : « أكثر سواداً أفضل مذاقاً » . لعلمها بذلك لم تكن المدام تحتفظ إلا بأكثر النساء الراغبات سواداً .

في كل سنواتي في هارلم لم أر رجلاً أبيض يقرب بغيا بيضاء مع أنهن كن موجودات في بعض الأماكن المتخصصة . كن يشتركن في تلبية أكثر الطلبات وروداً : أسود وسيم مع امرأة بيضاء . هل كان الرجل الأبيض يود بذلك أن يعيش أعمق مخاوفه ؟ في بعض المرات كانوا يحضرون معهم نساءهم البيض لمجرد التفرج على ذلك ولم أقتد امرأة بيضاء إلا وأحضرت خصيصاً لذلك الغرض أو تكون قد وصلتها بي سحاقية

بيضاء أعرفها كان لها تخصص آخر.

كانت هذه المدام السحاقية امرأة بيضاء جميلة ذات لغة مبتذلة عندها فريق من الرجال السود كانت ترسلهم عند الطلب لنساء بيض ثريات . شاهدت هذه المدام عدة مرات من قبل في هارلم ومعها صديقتها الشقراء وهن يحتسين الخمر ويتحدثن ودائماً يصحبهن شباب زنوج ومن يجهل أمرها لن يخمن أنها كانت تجندهم . في احدى المرات أعطيتها هي وصديقتها بعض اللفافات وأخبرتني أنها أحسن نوع جربته . كن يسكن في فندق في وسط البلد فصرن بعد ذلك يدعونني فأذهب حاملاً لهن بعض اللفافات وأبقى معهن بعض الوقت نتجاذب أطراف الحديث.

أخبرتني تلك المدام كيف أنها دخلت ذلك المجال بالصدفة . بصفتها من مرتادي هارلم تعرفت على بعض الزنوج الذين يفضلون النساء البيض وتطور دورها من نوع الحديث الذي كانت تسمعه من النساء البيض ميسورات الحال الضجرات اللائي تقابلهن في مكان عملها في محل تجميل في شرق مدينة نيويورك . كانت عندما تسمع شكوى النساء من عجز أزواجهن تحدثهن عما سمعته عن الزنوج وعندما رأت كيف استثار ذلك الحديث بعضهن ، نظمت لهن مقابلات في شقتها مع بعض الزنوج الذين تعرفت إليهم في هارلم .

في نهاية الأمر استأجرت ثلاث شقق في منتصف مانهاتن في نيويورك حيث تتم المقابلات بمواعيد مسبقة . وبدأت بعض زبوناتها يزكين خدماتها لصديقاتهن مما اضطرت معه لترك العمل في صالون التجميل وأنشأت مكتباً لخدمات السعاة كواجهة بينما كل عملها يتم بالهاتف .

اكتشفت أيضاً التفضيل اللوني فأنا مثلاً لا يمكن أن تقبلني للعمل معها . كانت تقول لي ضاحكة أن لوني فاتح أكثر من اللازم وتخبرني أن زبوناتها يصررن على الأسود وأحياناً يقلن « أسود حقيقي » لا زنجيًّا أسمر أو أصهب . خطرت للمدام فكرة خدمات السعاة لأن بعض الزبونات كن يوددن أن يحضر الزنوج لهن في المنزل حيث يتم تنظيم ذلك بدقة بواسطة الهاتف . كن يسكن في أحياء بيوتها من الطوب أو بها شقق في عمارات خاصة يقف أمام كل منها حارس بزيه الرسمي وكأنه أدميرال في البحرية . المجتمع الأبيض لا يتعرض لأي زنجي في دور خادم وحينما يحضر مندوب المدام يتصل الحارس هاتفيًّا بالسيدة التي تقول له : « أوه ، نعم ، أرسله فوق حالاً يا جيمس.» عندها يقوم عامل المصعد بتوصيل الساعي الزنجي بسرعة حتى يصل ويسلم الرسالة التي طلبتها السيدة الثرية في مانهاتن .

السخرية في الموضوع هي أن أولئك السيدات البيض لم يكن يحملن أي احترام لأولئك الزنوج ولم يكن لدى الرجال البيض أي احترام للنساء السود اللائي

يعاشروهن – أعرف ذلك من شعوري نحو صوفيا التي كانت مازالت تزورني في نيويورك حينما أطلب منها ذلك .

لابد أن الفتى الهندي الغربي صديق كريستين كيلر ، لكي جوردون ، وأصدقاءه كان لديهم نفس الشعور . بعد أن يأخذ قادة إنجلترا دورهم مع أولئك الفتيات البيض ، كانت الفتيات يذهبن إلى أصدقائهن الزنوج إرضاءاً لرغبتهن وليدخنوا بعض اللفافات وليسخروا من أعظم رجال إنجلترا كبلهاء مجانين . ليس لدي أدنى شك أن لكي جوردون يعرف هوية « الرجل المقنع » في تلك الحادثة وأكثر وإذا تكلم بكل ما أخبرته به تلك الفتيات لحدثت فضيحة أخرى في إنجلترا .

لا يختلف ذلك كثيراً عما يحدث في بعض دوائر أمريكا الراقية . لقد رأيتهم بعيني وسمعتهم بأذني كل ليلة قبل عشرين عاماً .

يتحدث الرجل الأبيض المنافق عن أخلاقيات الزنوج « الوضيعة » ولكن من هو صاحب أحط أخلاق في العالم إن لم يكن الرجل الأبيض ؟ ليس ذلك فحسب بل رجال الطبقة العليا من البيض . قرأنا حديثاً في الصحف عن مجموعة من ربات البيوت في إحدى ضواحي مدينة نيويورك كن يدرن تنظيماً لاحتراف البغاء . في بعض الحالات كان أولئك الزوجات يتعهرن بمعرفة وربما بمساعدة أزواجهن الذين يبقون في البيت يعتنون بالأطفال . أما عن زبائنهن ، فعلى حسب رواية إحدى صحف نيويورك كانوا : « قبض على بضع ستة عشر دفتراً بأسماء مائتي زبون من أهم الشخصيات الاجتماعية والسياسية والمالية في هجوم يوم الجمعة على المكان .»

قرأت كذلك حديثاً عن مجموعة من الأزواج الشباب الذين كانوا يجتمعون ويرمي الأزواج بمفاتيح منازلهم في قبعة ثم يسحب كل منهم مفتاحاً وهو مغمض العينين ويقضي الليلة مع صاحبة المفتاح . لم أسمع مطلقاً بشيء مثل ذلك يمارسه الزنوج ولا حتى الزنوج الذين يعيشون في فقر مدقع في الجيتو والحارات والأزقة .

في فجر أحد الأيام في هارلم هجم زنجي طويل فاتح اللون مقنع الوجه على مدير حانة زنجي وهو يحصي حصيلة اليوم من النقود مع السائق الزنجي . ومثل ما نجد في كثير من الحانات في هارلم كان المدير الزنجي مجرد واجهة والمالك الحقيقي يهودي . الحصول على رخصة حانة في ذلك الوقت كان يتطلب معرفة مسئول في هيئة التحكم في الكحول في الولاية ، ويهودي يعمل مع يهودي لهما فيما يبدو أحسن الصلات أما الزنوج فلا . استأجر مدير الحانة الزنجي بعض الزنوج الصعاليك ليتعقبوا أثر اللص الذي كانت أوصافه تجعلني من المشتبه فيهم وكان أن خبطوا على شقتي صباح نفس اليوم .

أخبرتهم أن ليس لي أية معرفة بالموضوع وأنه ليست لي أية صلة بما كانوا يتكلمون عنه وأنني في فجر ذلك اليوم كنت مشغولاً بعملي والذي ما أن انتهيت منه إلا وذهبت للنوم في شقتي . كان الأوغاد غير متأكدين ويحاولون إرهابي لأعترف إن كنت المجرم الحقيقي . ما أنقذني هو أنه كانت لديهم أسماء أخرى مشتبه فيها .

ارتديت ملابسي وركبت عربة أجرة وأيقظت شخصين من النوم ، المدام ثم سامي . كانت لدي نقود كافية لكن المدام أعطتني نقوداً إضافية وقلت لسامي أنني ذاهب لزيارة أخي فلبرت في ميشجان. أعطيت عنواني لسامي ليتصل بي عندما تنجلي الأمور . تلك كانت رحلتي إلى ميشجان في الشتاء التي وضعت فيها مادة الكونجولين على رأسي قبل أن أكتشف أن الماء في الصنبور كان متجمداً ولأمنع المحلول من أن يحرق رأسي اضطررت أن أدخل رأسي في مقعد المرحاض وأجرى الماء لأشطف شعري .

مر عليّ أسبوع في صقيع ميشجان قبل أن يهاتفني سامي تلفونيًّا ويخبرني أن زنجيًا آخر ذا بشرة حمراء اعترف بارتكابه تلك الجريمة . مكنني ذلك من العودة لهارلم إلا أنني لم أعد لعمل الدليل . لا أذكر السبب الذي منعني من ذلك ولابد أنني شعرت أن عليّ الابتعاد عن الإجرام لمدة . كنت أتعاطى المخدرات مع الأصدقاء وأذهب إلى النوادي الليلية والمهم أنني لم أعد للعمل مع تلك المدام مطلقاً . في حوالي تلك الأيام بدأت أمرض كثيراً وكنت أصاب بنزلات برد بكثرة . أصبح ذلك شيئاً مزعجاً وأصبحت أعطس وأمسح أنفي الراشحة طول الوقت كما أنني كنت مخدراً طوال الوقت وأعيش في عالم الأحلام . أحياناً كنت أدخن الأفيون مع بعض الأصدقاء البيض، ممثلين من وسط البلد . كذلك دخنت كمية من لفافات القنب أكثر من أي وقت مضى . لم أكن أدخن لفافات عادية في حجم عود الكبريت بل وصلت مرحلة متقدمة أدخن فيها لفافات وزن الواحدة منها أوقية .

بعد ذلك بمدة بدأت أعمل عند يهودي في وسط البلد يدعى هايمي وقد أحبني ذلك الرجل بسبب ما فعلته من أجله . كان يشتري المطاعم الخربة والحانات المهجورة ويعيد ترميمها ثم يعمل حفل افتتاح كبير بالإعلام والأضواء . كان الازدحام واللافتة الكبيرة « تحت إدارة جديدة » يجذبان الناس والمضاربين الذين عادة ما يكونون يهوداً آخرين يبحثون عن مجال لاستثمار أموالهم . أحيانا كان هايمي يعيد بيع المحل في ظرف أسبوع بسعر مجز .

أحبني هايمي جدًّا وأحببته . كان يحب الكلام وأحب الاستماع وكان أغلب حديثه عن اليهود والزنوج . كذلك كان اليهود الذين يبدلون أسماءهم بأسماء أنجلوساكسونية موضوع بغضه المفضل . كان يبصق ويلوي فمه احتقاراً وهو يسب من

قال أنهم فعلوا ذلك ومن بينهم أسماء مشهورة لا يخطر ببال أحد أنهم يهود .

« ردْ ، أنا يهودي وأنت أسود وهؤلاء المسيحيون البيض لا يحبون أيًّا منا وإذا لم يكن اليهودي أشطر من المسيحي لعومل أسوأ من المعاملة التي يلقاها أهلوك. »

دفع لي هايمي مرتباً جيداً وأنا أعمل معه كان يصل أحياناً مائتي وثلاثمائة في الأسبوع ومن أجله كنت على استعداد لفعل أي شيء وقد أديت له فعلاً خدمات مختلفة . لكن عملي الرئيسي كان ترحيل الخمور الممنوعة التي يمد بها هايمي الحانات المرممة التي باعها للآخرين . كنت أركب شاحنة مع شخص آخر ونذهب إلى لونج آيلاند حيث كان يوجد مصنع للويسكي . كنا نأخذ صناديق زجاج الويسكي الفارغ التي يحتفظ له بها أصحاب الحانات التي نمدها ونشتري صفائح كبيرة ملأى بالوسكي ثم نعبئه في الزجاج الفارغ الذي يحمل علامات تجارية معروفة وبعد ذلك نسلمها طبقاً لأوامره لنفس تلك الحانات .

كثير من الناس يزعمون أنهم لا يتعاطون إلا أسماء معينة في حين أن أغلبهم لا يحرز الفرق ما بين الخمر المعتقة وتلك التي عمرها أسبوع واحد من نوع لونج آيلاند . وأغلب شاربي الوسكي العاديين لا يستطيعون التمييز بين الأنواع المختلفة . كنت أنا أيضاً وبمعرفة هايمي وكعمل جانبي أقوم بمد بعض حانات هارلم المشهورة وغيرالمشهورة وغير المشروعة بأنواع أقل جودة من الخمور المهربة .

ولكن في نهاية أحد الأسابيع في هارلم وقعت حادثة ذات صلة بهيئة التحكم في الخمور في الولاية . من أكبر الفضائح في ولاية نيويورك كان فضح الرشوة والفساد في هيئة التحكم في الخمور. ويبدو أن أحداً من عصابتنا حاول خداع أحد كبار المسئولين وانتشرت إشاعة مفادها أن شخصاً من المجموعة التي تضم هايمي قد وشى بالمجموعة . في أحد الأيام لم يظهر هايمي في المكان الذي اتفقت معه على مقابلته فيه ولم أسمع عنه مرة أخرى لكنني سمعت أنهم رموه في البحر علماً بأنه لا يجيد السباحة .

في البرونكس ، أحد أحياء نيويورك ، شهر زنجي مسدسه في وجه اثنين من رجال العصابات الإيطاليين أثناء لعب القمار وانتشر ذلك الخبر بسرعة . من فعل ذلك بالإضافة إلى كونه أبله ، كان زنجياً طويلاً ذا لون فاتح وضع على وجهه جوارب نسائية شفافة . كنت دائماً أسأل نفسي هل عُرف من الفاعل أم اعترف رجل برئ تحت التهديد والضرب إلا أن المهم هو أن التهم التي حامت حولي سابقاً بُعثت من جديد . في احدى المرات وأنا خارج من مشرب فات مان قرب ملاعب البولو دخلت في كشك التلفون – الجميع حينها في المشرب وفي كل هارلم كانوا يشربون نخب

جاكي روبنسون الذي استوعبه برانش ريكي ، مالك فريق بروكلين دودجرز ، ليلعب البيسبول في الدرجة الأولى ويتدرب في مزرعة الدودجرز في مونتريال – مما يعني أن الوقت كان خريف ١٩٤٥ .

في أول ظهر ذلك اليوم حصلت من آرشي الهندي الغربي على مستحقاتي من خمسين سنتاً راهنت بها ودفع لي ثلاثمائة دولار من جيبه رأساً . وذهبت لأتصل من الهاتف بجين باركز ، إحدى أجمل نساء هارلم في ذلك الوقت ، والتي كانت قد غنت مرة مع المطربة سارة فون في فرقة الشرائط الزرقاء وهي فرقة رباعية كانت تغني مع إيرل هاينز . كنت قد عقدت اتفاقاً مع جين منذ مدة طويلة فحواه أنه عند فوز أي منا في المراهنات ، نخرج كلانا ونحتفل وقد دعتني مرتين منذ آخر مرة دعوتها فيها . ضحكنا في التلفون ونحن سعداء بفوزي وبأنني سأكرمها بأمسية في مكان راق واتفقنا أن نتقابل في أحد النوادي الليلية في الجادة رقم ٥٤ لتستمع إلى بيلي هوليداي وهي تغني إذ كانت عادت لتوها من جولة إلى نيويورك .

وضعت السماعة عندما رأيت شخصين نحيلين تبدو القسوة في وجهيهما يحدقان فيَّ من خلال الزجاج وأنا داخل الكشك . لم أحتاج إلى وحي لا أعرف ماذا يريدان بي . ولم أكن أحمل مسدساً وكل ما في جيبي علبة سكائر حديدية . حاولت خداعهم بإدخال يدي في جيبي بتلصص وهدوء فما كان من أحدهما إلا أن فتح الباب بسرعة . كانا أصحاب بشرة داكنة ومن أصل إيطالي . ويدي مازالت في جيبي .

« تعال خارجاً وسنعقد محكمة.» هذا ما قاله أحدهما .

في تلك اللحظة مر شرطي خارجاً من باب المشرب الأمامي وهرب الصعلوكان وفي حياتي لم أبتهج لرؤية شرطي مثلما ابتهجت تلك المرة . كنت ما زلت أرتجف حينما وصلت إلى شقة صديقي سامي القواد الذي أخبرني أن آرشي الهندي الغربي كان يبحث عني قبل مدة قليلة .

أحياناً وأنا أذكر تلك الأشياء لا أدري كيف نجوت من كل ذلك ومازلت حياً وذلك شعوري الحقيقي . وكما يقولون عناية الله تحفظ البلهاء والأطفال . كثيراً ما قلت لنفسي بعد ذلك أن الله كان يراقبني من فوق . خلال كل تلك السنوات كنت ميتاً حقيقة ، موتاً معنويًا ، فقط لم أكن أدرك ذلك .

المهم ، شممنا أنا وسامي بعض الكوكايين قتلاً للوقت إلى أن حان ميعادي مع جين باركز لنذهب ولنستمع إلى سيدة اليوم ، بيلي هوليداي . لم أهتم كثيراً بما قاله سامي عن آرشي الهندي الغربي وبحثه عني .... على الأقل لم أهتم بعد .



■ الباب الثامن

ضاق الخناق

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



صوت خبط على الباب وسامي يرد وهو راقد في سريره مرتدياً بجاما من فوقها روب : « من الطارق ؟ ».

عندما اتضح أن آرشي الهندي الغربي هو الطارق دفع سامي بالمرآة المدورة ذات الوجهين تحت السرير وعليها ما تبقى من مسحوق أو بلورات الكوكايين على الأصح ، وفتحت أنا الباب .

« رد : إني أريد نقودي ! » .

البندقية عيار ٢٠ -٢٢ مليمتراً هي بندقية من طراز غريب فهي أكبر من عيار ٣٢ مليمتراً ولكنها أقل حجماً من عيار ٣٨ مليمتراً . لقد واجهت زنوجاً خطرين من قبل ولكن من يواجه آرشي الهندي الغربي يجب أن يكون على استعداد للموت . لم أصدق ما رأيت وغمرني رعب حقيقي لدرجة أنني كدت أن أفقد النطق من هول المفاجأة .

« قل لي : يا رجل ما القصة ؟ » .

رد آرشي : إنني إنما كنت أحاول خداعه عندما قلت له :أنني راهنت على رقم معين ولكنه أعطاني الثلاثمائة دولار لحين التأكد من الأرقام المدونة عنده وعندما رجع تأكد إنني لم أختر مجموعة الأرقام التي ادعيت أنني اخترتها .

« إنك مجنون ، يا آرشي !» بدأت أتحدث بسرعة وبطرف عيني رأيت سامي يمد يده ليسحب مسدسه عيار ٤٥ من تحت الوسادة حيث كان يحتفظ به . « كيف يعقل أن رجلاً في مثل ذكائك يا آرشي ، يدفع لشخص لم يفز؟ » حرك آرشي مسدسه صوب سامي الذي تجمد في

سريره وقال له : « ينبغي عليَّ أن أصوب نحو أذنيك » ثم التفت إليَّ مرة أخرى « هل معك النقود ؟ » ولابد إنني هززت رأسي بالنفي لأن آرشي رد : « سأمنحك حتى الثانية عشرة من صباح الغد. »

مد يده خلف ظهره وفتح الباب ثم سار وظهره إلى الباب ودفعه وخرج.

أصبحنا فجأة في صدام على حسب عرف الشارع . لم تكن النقود هي المشكلة فقد كانت معي مائتا دولار وإذا أردت فسيكملها سامي وحتى إذا لم تكن معه نقود فستحضرها نساؤه بسرعة . آرشي نفسه كان سيقرضني ثلاثمائة دولار لو سألته علماً بأنه جمع المئات من آلاف الدولارات التي كنت أدفعها له . إنه مرة عندما سمع بأني مفلس بحث عني وأعطاني بعض المال قائلاً : « أحشر هذا في جيبك .» المشكلة كانت الوضع الحرج الذي قادنا إليه تصرفه ذلك . « ماء الوجه » «والشرف » كانت أشياء في غاية الأهمية للزعران أمثالنا في تلك الغابة وليس هنالك فتوة يقال عنه أن فتوة آخر خدعه ويسكت عن ذلك . وإذا أشيع عن فتوة ما أنه يمكن خداعه أو تخويفه بالتهديد وأنه يفتقد الجرأة ، فهو في حكم المنتهي . كان آرشي الهندي الغربي يدرك أن صغار الفتوات أقاموا سمعتهم وأصبحوا مهابين بخداعهم أو تشطرهم على واحد من الكبار وإذاعة ذلك حتى يعرفه الجميع وظن آرشي أنني إنما أحاول ذلك . من جانبي كنت أدرك أنه سيكون قد نشر على الملأ تهديده لي ليحمي مركزه .

لقد عرفت وسمعت وأنا في هارلم عن كثير من الفتوات الذين هربوا من البلد خوفاً من تهديد ما لأنهم يدركون ذلك العرف . وبمجرد أن ينتشر الخبر يصبح التراجع من جانب أي منا غير وارد . كنت أيضاً أعرف عن أكثر من عشر مواجهات حيث يموت أحد الجانبين عند الوصول إلى المستشفى ويذهب الآخر إلى السجن بتهمة التسبب في القتل أو إلى الكرسي الكهربائي بتهمة القتل العمد .

سمح لي سامي بأن آخذ مسدسه عيار ٣٢ مليمتراً لأن أسلحتي كانت بشقتي فوضعته في جيبي ويدي عليه ثم خرجت من عند سامي . لم يكن من الحكمة أن أبتعد عن الأنظار وكان عليَّ ألا أغير من تحركاتي بل أذهب كالمعتاد إلى أماكني المألوفة . كذلك سرني أن ريجنالد كان خارج البلدة وإلا لكان حاول حمايتي وربما أصابه آرشي في الرأس الشيء الذي لم أكن أريده . وقفت على الرصيف في ركن الشارع وعقلي مشوش وتفكيري موزع مثلما يحدث مع المدمنين . هل كان آرشي الهندي الغربي يحاول تخويفي ؟ هل كان يحاول أن يسخر مني ؟ بعض كبار الزعران كانوا يحبون تخويف الصغار منهم ولكنني كنت أدرك أن آرشي لم يكن ليفعلها من أجل ثلاثمائة دولار بغير وجه حق . لكن من يدري ؟ في غابة هارلم هذه يخدع الناس أشقاءهم وكثيراً ما أنكر عملاء المراهنات حق مقامر مدمن فاز ، لأن المدمن لا يقدر على التأكد من رقمه حين تجادله .

بدأت أفكر وأسأل نفسي فلربما كان آرشي الهندي الغربي على حق ، ربما تكون اختلطت عليَّ الأرقام . أنا متأكد من الرقمين الذين لعبتهما وأعلم أنني طلبت منه أن يعمل توليفة (مجموعة توافقية) من واحد منهما . هل خلطت بينهما

وأيهما طلبت عمل توليفة منه ؟

هل حدث لك أيها القارئ أن تقوم بشيء ما ثم تنساه إلى أن يذكره أحدهم وتحاول في ذهنك أن تستعيده ثم تجد نفسك نصف متأكد ؟

حان الوقت الذي عليَّ فيه أن أذهب لأصطحب جين باركز لنذهب إلى وسط البلد للاستماع إلى بيلي في الأوينكس كلب . كانت تموج في رأسي أفكار كثيرة . فكرت في إلغاء الموعد والاتصال هاتفيا بجين للاعتذار عن الموعد بأي سبب كان إلا أنني كنت أدرك أن الهروب الآن سيكون أسوأ شيء أفعله . لذلك لم أغير برامجي وذهبت إلى مكان جين وأخذتها ثم ركبنا عربة أخرى إلى الجادة ٥٢ . قابلتنا لافتة كبيرة عليها الاسم « بيلي هوليداي » والأضواء تلمع فوق صورها المكبرة . في الداخل رصت الموائد بجانب الحوائط وكانت موائد صغيرة لا تتسع الواحدة منها إلا لكأسين وأربع أذرع فالاوينكس من الأماكن الصغيرة .

كانت بيلي قد أكملت أغنية حين رأتنا أنا وجين وكان فستانها الأبيض يلمع تحت الأضواء المركزة التي تنعكس على وجهها شبه النحاسي مثل الهنود الحمر وشعرها في شكل ذيل حصان كعهدها دائما .

الأغنية التالية التي أدتها كانت واحدة تعرف بيلي أنها أغنيتي المفضلة : « أنت لا تعرف ما هو الحب حتى تواجه الفجر بأعين ساهدة وحتى تفقد حبا تكره أن تفقده » .عندما أكملت بيلي ذلك الفاصل نزلت إلى مائدتنا وأخذت هي وجين بعضهما بالأحضان إذ لم يتقابلن منذ فترة طويلة . أحست بيلي أن شيئا ما لم يكن على ما يرام . كانت تشعر أنني لم أكن على ما يرام فسألتني بلغتها التجديفية العادية ما الأمر . أجبتها بلغتي المبتذلة محدودة الكلمات أنني على ما يرام فلم تسأل بعد ذلك .

أخذ لنا مصور المحل صورا تذكارية في تلك الليلة وثلاثتنا جلوس على المائدة قريبين من بعضنا البعض. تلك كانت آخر مرة رأيت فيها « سيدة اليوم» ماتت ، قتلتها المخدرات وجراح الحب ، أوقفت قلبا كبيرا وصوتا وأسلوبا لا يقلدان . أنه لمحزن حقا أن تلك السيدة السوداء الرائعة ذات الكبرياء لم تعش في مكان يقدر عظمة الجنس الأسود

في غرفة الرجال شممت كمية الكوكايين القليلة التي أعطانيها سامي . بعد ذلك ركبنا عربة أجرة متجهين نحو هارلم وقررنا أن نذهب إلى تناول كأس آخر . اقترحت أن نذهب إلى مكان يدعى لامار تشيري يقع في ملتقى شارع سانت نيكولاس والجادة ١٤٧ ولم تكن جين تدري أن ذلك من الأماكن التي ارتادها كثيرا . كنت أحمل مسدسي وشجاعة المخدر تملأني فوافقت . أخذت كأسا ثانيا وأصبحت مخدرا جدا فطلبت من جين أن تأخذ عربة أجرة وتذهب إلى منزلها ففعلت ذلك . تلك كانت آخر مرة رأيتها فيها .

جعلتني بلاهتي أبقى في الحانة فبقيت هنالك وبلاهتي الأكبر جعلتني أجلس وظهري إلى الباب وأنا أفكر في آرشي الهندي الغربي . منذ تلك الليلة لم أجلس وظهري إلى الباب في أي مكان ولن أفعل ذلك أبدا في المستقبل . لكن جلوسي كذلك في تلك المرة كان

من حسن الصدف لأنني لو كنت رأيت آرشي الهندي الغربي وهو يدخل لصوبت رصاصي نحوه بهدف القتل . فجأة وجدت آرشي الهندي الغربي يقف أمامي ليسبني بأعلى صوته ومسدسه فوق رأسي . لقد كان بذلك يعلن موقفه على الملأ ، يستعرض أمام الناس . ناداني بأقبح الأسماء وهددني . جميع الموجودين في المشرب وقفوا مشدوهين ، تحجروا ، وصندوق الموسيقى في الخلف يغني . لم أكن قد رأيت آرشي الهندي الغربي وهو منتش كذلك من قبل . كان واضحاً لي أنه تناول شيئاً أقوى من الوسكي مثلما يفعل كثير من المجرمين استعدادا لعملية كبرى .

كنت أفكر لنفسي : « أنني سأقتل آرشي . سأنتظر حتى يستدير ليخرج وأطلق عليه الرصاص .» كذلك بدأت أشعر بمسدسي عيار ٣٢ مليمترا تحت حزامي وداخل المعطف . ترك آرشي الهندي الغربي السباب وقال وكأنما قد قرأ أفكاري :

« أنك تفكر بقتلي أولاً ، رد . ولكنني سأعطيك شيئاً للتفكير فيه . إن عمري ستون عاما وأنا رجل عجوز ، دخلت السجن قبلا وحياتي منتهية . أما أنت فشاب صغير . أقتلني فإنك ضائع على أية حال وكل النتيجة ستكون دخولك السجن ».

خطر لي بعد ذلك أن آرشي الهندي الغربي ربما كان يحاول أن يجعلني أهرب وبذلك ينقذ ماء وجهه وحياته . ربما كان ذلك السبب في تعاطيه كمية من المخدرات . أما أنا فلم يعرف عني أنني قتلت شخصاً في السابق ولكن كل من يعرفني ، بمن فيهم أنا نفسي ، لا يشك في مقدرتي على القتل . لا أحد يدري ماذا كان سيحدث إذ كان العرف يقتضي إنه إذا خرج آرشي للشارع فإن عليَّ أن أتبعه وندخل في مبارزة بالرصاص في الشارع . لكن بعض أصدقاء آرشي الهندي الغربي تحركوا نحوه وهم ينادونه : « آرشي ... آرشي. » وتركهم يضعون أيديهم عليه وجروه جانبا . رأيتهم يحركونه بعيداً عني وهم يحدقون فيَّ بنظرات نادرة ثم جذبوه إلى الخلف .

أما أنا فقد تمهلت في الخروج . تركت مقعدي بعد مدة ورميت للساقي بورقة نقدية على الطاولة ومن غير أن أنظر إلى الوراء خرجت إلى الشارع . وقفت في الخارج من حيث أتمكن من رؤية الحانة ويدي في جيبي وانتظرت في تلك الحالة لمدة خمس دقائق تقريباً وعندما لم يظهر آرشي الهندي الغربي ، غادرت المكان .

لا بد أن الساعة كانت الخامسة صباحاً عندما أيقظت ممثلاً أبيض أعرفه يسكن في هوارد هوتيل في الشارع السادس عند الجادة ٤٥ في وسط البلد . كنت أشعر أن عليَ أن أبقى مخدراً وقد تناولت في الساعات التالية كمية لا تصدق من المخدرات من بينها قطعة أفيون أخذتها من ذلك الممثل . ركبت عربة أجرة وذهبت إلى شقتي ودخنت تلك القطعة . في الشقة كان مسدسي جاهزاً عند سماع أي صوت حتى ولو كان صوت ناموسة تطير .

رنَّ جرس الهاتف وتناولت السماعة ووجدت أنها كانت السحاقية البيضاء وصديقتها من وسط البلد يطلبن مني أن أحضر لهن ما قيمته خمسين دولار من اللفافات . شعرت أنني طالما مونتهن في الماضي ، فعليَّ أن أمدهن الآن . وبما أن

الأفيون جعلني مشوش الفكر تناولت بعض حبوب البنزدرين التي كانت عندي لتنعشني وكانت النتيجة أن ذهني بدأ يسير في اتجاهين مختلفين في نفس الوقت. بعد ذلك خبطت على باب الشقة التي خلف شقتي وحصلت على بعض القنب من صاحبها تحت الحساب. كان واضحاً له أنني مخدر لدرجة أنه ساعدني في لفها إلى مائة عود وأثناء ذلك تناولنا بعض اللفافات. أفيون، بنزدرين، قنب.

في الطريق إلى وسط البلد توقفت عند شقة سامي وفتحت امرأته الزنجية الأسبانية ذات العيون البراقة الباب وكانت قد ملكت لبه في ذلك الحين. لم يكن يحتفظ بأية واحدة لمدة طويلة والآن ترد هي على الباب. في ذلك الوقت وصل سامي مرحلة الإدمان لدرجة أنه تعرف عليَّ بصعوبة. مد يده تحت السرير وهو راقد عليه وأخرج مرآة الحلاقة المدورة التي يحتفظ ببلورات الكوكايين عليها دائما وأشار إليَّ أن استنشق منها شمة أو اثنتين فلم أرفض العرض.

وأنا في الطريق لتسليم اللفافات مرت بي أحاسيس ومشاعر لا أستطيع وصفها. كل تلك الأخدوديات في نفس الوقت. أحسن وصف لذلك الشعور هو حالة « انعدام الإحساس بالزمن » فيبدو اليوم وكأنه خمس دقائق أو تبدو نصف الساعة وكأنها أسبوع. ولا أدري كيف كان مظهري يبدو عندما وصلت الفندق ولكن بمجرد أن رأتني المرأة السحاقية وصديقتها ساعدتاني للوصول إلى السرير ولم أكد أقع عليه إلا وغبت عن الوعي.

في الليل وعندما أيقظوني من النوم كان قد مضى نصف يوم على آخر موعد لإنذار آرشي الهندي الغربي. بعد ذلك بساعات ذهبت إلى هارلم ويبدو أن الخبر قد انتشر لأنني رأيت زبائني السابقين يبحثون عن مصدر آخر.

كان واضحاً ألا أحد يود أن يجد نفسه وسط الرصاص لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولا حتى في اليوم التالي. أما أنا فقد كنت مخدراً طوال الوقت. حاول أحد الزعران اليافعين أن يتحرش بي ولكني صفعته على وجهه فذهب وعاد يحمل مدية وكنت سأطلق عليه الرصاص لولا أن أحدهم جره وأخذوه إلى الخارج وهو يسب ويصيح بأنه كان سيقتلني.

ألهمني الإيحاء بأنني يجب أن أتخلص من مسدسي ونظرت إلى أزعر آخر يجلس مقابلا لي في المشرب ومررت إليه سلاحي تحت الطاولة وبعد ذلك بثوان دخل شرطي المشرب ويده على مؤخرة سلاحه. كان ذلك الشرطي يعرف الأخبار المنتشرة وكان متأكداً أنني أحمل سلاحاً. تقدم نحوي ببطء وكنت أدرك أنه سيطلق عليَّ الرصاص عند أقل حركة أو عطسة حتى. أمرني الشرطي قائلاً: « أخرج يدك من جيبك، يا رد، بكل حذر ».

فعلت ما أُمرت به وعندما رأى الشرطي أن يدي خالية من السلاح هدأت أعصاب كلينا. أومأ لي بأن أخرج أمامه فأطعته. وفي الشارع كان زميله ينتظر على الرصيف بينما عربتهم في الجانب الآخر تقف موازية لعربة أخرى وجهاز العربة اللاسلكي يعمل. كان بعض المارة يقف، يتفرج ثم يربت على ظهري ثم يستمر في سيره.

« عم تبحثون ؟ » سألتهم عندما لم يعثروا معي على شيء .

« رد : يقولون إنك تحمل سلاحاً ناريًا .»

« كنت أحمل واحداً ولكني رميت به في النهر ».

« لو كنت مكانك يا رد ، لتركت المدينة. » ذلك ما قاله لي الشرطي الذي دخل إليَّ في الحانة .

رجعت عائداً إلى الحانة ويبدو أن قولي لهم بأني رميت بندقيتي في النهر منعهم من أخذي إلى شقتي وذلك من حسن حظي فلو كانوا ذهبوا معي إلى شقتي لوجدوا أشياء تدخلني السجن لمدة أضعاف ما تسببه عشر بنادق ولتحصل كل من الشرطيين على رتبة أعلى .

كانت المشاكل تتفاقم والخناق يضيق عليَّ ووجدت نفسي داخل مصيدة في أي اتجاه سرت . آرشي الهندي الغربي يتهددني . وإيطاليان يعتقدان أنني هددتهم والأزعر اليافع الذي لكمته والآن الشرطة . حتى تلك اللحظة ولمدة أربع سنوات قبلها كنت محظوظاً أو واعياً بما فيه الكفاية وتجنبت السجن بل حتى مجرد الاعتقال أو الوقوع في مصيبة كبيرة . لكني أدركت منذ تلك اللحظة أن شيئاً ما لابد واقع .

فعل سامي من أجلي شيئاً كثيراً ما تمنيت لو أني كنت شكرته عليه . كنت أسير في شارع سانت نيكولاس عندما سمعت نفير عربة ظننته صوت رصاص . لم أكن أتخيل أنني معني بذلك النفير .

« يا ابن بلدي !

قفزت ونظرت خلفي وكدت أن أصوب مسدسي .

شورتي — من بوسطن ! .

أدخلت في قلبه الرعب .

« دادي — أو!»

كانت سعادتي لا تفوقها سعادة .

في داخل العربة أخبرني شورتي أن سامي اتصل به هاتفياً وأخبره أنني في حالة سيئة وحياتي مهددة وأن على شورتي أن يحضر ويأخذني . ما كان من شورتي بعد ذلك إلا أن استلف عربة رجل البيانو في فرقته ورأسا بعد أداء حفلة ما ، انطلق بالعربة إلى نيويورك قاطعاً الأميال نهباً . لم أعترض على الذهاب معه ووقف هو ينتظرني ويراقب بالخارج وأنا أجمع حاجياتي أو ما شئت أن أحمل معي وأضعه في مؤخرة العربة ثم قصدنا طريق المرور السريع . لم يكن شورتي قد نام في الست والثلاثين ساعة الماضية وقد أخبرني بعد ذلك أنني كنت ألغو طوال الطريق .



■ الباب التاسع

مقبــــوض

لم تصـدق إلـلا كيـف أصـبحت ملحـدًا وفظًـا بتلـك الدرجة . كنت أرى أن للرجل أن يفعل أي شيء يمكنه منه دهـاؤه أو خبثـه أو جرأتـه وأن المـرأة ليسـت إلا متاعـاً يبـاع ويشـترى . كـل كلمـة أنطـق بهـا كانـت إمـا خنفوسـية أو بذيئة وأنا أراهن أن قاموسي العملي لم يكـن يحتوي على أكثـر مـن مـائتي كلمـة . وحتـى شـورتي الـذي أصـبحت أشـاركه السـكن صـدمته طريقـة حيـاتي وتفكيري الـتي تشبه حياة الحيوان المتوحش . كنت أحياناً أكتشفه وهـو ينظر إليّ بتعجب ؟

في البداية كنت أنام كثيراً حتى في الليل علماً بأنني في السنتين الماضيتين كنت أنام في النهار فقط وفي أثناء ساعات الصحو كنت أدخن اللفافات ومع أن شورتي كان قـد علمـني تـدخين القنـب أصـلاً إلا أنـه ذهـل مـن كثـرة استعمالي له . أيضـاً لم أكـن أتحـدث كثيراً في البداية ، فقـط أسـتمع إلى الاسـطوانات طـول سـاعات اليقظـة . أعطتني اللفافات شعوراً بالرضا وكنت أقضـي السـاعات أسـبح مـع الخيـال وأحـلام اليقظـة وأتحـدث في الخيـال مـع أصدقائي العازفين .



على مدى أسبوعين نمت عدداً من الساعات أكثر ممـا نمته في شهرين في هارلم ، وعندما خرجت أخيراً إلى شـارع روكسبري تمكنت بسرعة من التعرف على بائع «الجليد» أي الكوكـايين . بعـد تنـاول ذلـك المسـحوق الأبـيض فقـط بـدأت أجـد رغبـة في الحـديث . مـا يفعلـه الكوكـايين لمـن يشمون مسحوقه البلوري الأبيض ، هـو أنـه يعطـيهم شـعوراً

بالعظمة والثقة بالنفس في المقدرة الجسدية والعقلية ، فهو يجعل الشخص يعتقد أن بإمكانه أن يهزم بطل العالم في الملاكمة وألا أحد يفوقه ذكاءًا . هنالك أيضاً شعور بانعدام الزمن، كما تمر على من يشمه فترات يتذكر فيها أشياء مرت عليها سنوات عديدة .

تعزف فرقة شورتي في أماكن متفرقة في بوسطن ثلاث أو أربع أمسيات في الأسبوع وبعد أن يذهب للعمل تحضر صوفيا وأبدأ أنا في الحديث عن خططي . وعندما يعود شورتي من العمل تكون صوفيا قد عادت لزوجها وأبدأ أنا في الحديث حتى الصباح بينما شورتي ينصت . كان زوج صوفيا قد ترك العمل العسكري وأصبح يعمل كبائع متجول والمفترض أنه بعد مدة سيقوم بجولة طويلة إلى الساحل الغربي في مهمة تجارية ، وبدون أن أسأل أوحت لي صوفيا أكثر من مرة أن علاقتهما كزوجين ليست على ما يرام . كنت أدرك أنني لست السبب في ذلك لأن زوجها ببساطة لم يكن يعرف عن وجودي . تستطيع المرأة البيضاء أن تنفجر غاضبة في وجه زوجها وتصرخ فيه وتناديه بأقبح الأسماء وتقول عنه أشياء لإغاظته وتسب أمه وجدته أيضاً . لكن هنالك شيء واحد لن تذكره له أبداً وهي أنها ترافق رجلاً أسود. تلك دعوة للقتل عند الرجل الأبيض وامرأته تدرك ذلك .

صوفيا دوماً كانت تعطيني النقود حتى وأنا أحمل مئات الدولارات في جيبي وعندما تحضر لهارلم كنت لا أترك لها إلا ثمن تذكرة العودة إلى بوسطن. ويبدو أن بعض النساء يحببن أن يستغلهن الرجال وإذا لم يستغلهن الرجال يقمن هن باستغلال الرجل . ظني أن زوجها كان مصدر تلك النقود لأنها لم تكن تعمل . بدأت مطالبي تزيد وبدأت هي تأتي بالمزيد ولا أدري من أين. كنت بين الحين والآخر أطلب منها مطالب صعبة حتى تظل مطيعة ويبدو أن كل امرأة تحتاج لذلك بل تريده. وكانت أحياناً تتملكني روح شريرة وأضربها ضرباً مبرحاً في غياب شورتي وكانت تبكي وتسبني وتقسم أنها لن تعود إليَّ ولكني كنت أدرك أنها لم تكن تفكر في ذلك.

أكثر ما سرَّ شورتي في عودتي كان وجود صوفيا وكما ذكرت قبلاً فإنني في حياتي لم أر رجلاً أسود جُن بحب النساء البيضاوات مثل شورتي . ومنذ أن عرفت شورتي كان قد تعرف إلى عدد منهن ولكنه لم يكن ليستطيع الاحتفاظ بهن لمدة طويلة . ويبدو أن ذلك كان بسبب طيبته الزائدة لأن النساء ، بيضاً وسوداً ، يضجرن من ذلك بعد مدة . كان شورتي قد هجر أو هجرته إحداهن عندما أحضرت صوفيا معها شقيقتها ذات السبعة عشر ربيعاً لزيارتنا . وفي حياتي لم أر فرحة مشتركة باللقاء مثل فرحتهما فقد كادت هي وشورتي أن يطيرا من الفرح .

بالنسبة له لم تكن بيضاء فحسب بل بيضاء وصبية وبالنسبة لها لم يكن زنجياً فحسب بل موسيقاراً زنجيًا . كانت صورة مصغرة من صوفيا التي مازالت تدير الرؤوس . كنت أحياناً آخذهن معي إلى الأماكن التي يعزف فيها شورتي وكان الزنوج يظهرون كل أسنانهم الاثنين والثلاثين عندما يرونهن . كان بعضهم يأتي إلى طاولتنا أو مكاننا ويقف وقد سال لعابه . شورتي لم يكن بأحسن منهم فقد كان يقف على المسرح ويعزف وعينه على الصبية التي في انتظاره تلوح وتغمز له بعينيها وبمجرد أن ينتهي الفاصل الذي يعزفه ، كان يكاد يقفز من فوق الرواد ناس ليصل إلى مقاعدنا.

لم أعد أرقص اللندي في ذلك الوقت بل إنني لم أعد أفكر بها أصلاً كما أنني لم أعد أرتدي السترات الزوت . كل ستراتي محافظة وأحذيتي كانت من النوع الذي يرتديه مدراء البنوك .

قابلت لورا مرة أخرى وسر كلانا بمقابلة الآخر وهي قد أصبحت تشبهني في أشياء كثيرة إذ كلانا يعيش للحظته فقط . تحدثنا وضحكنا . كانت تبدو أكبر كثيراً من عمرها الحقيقي ولم يكن لها زوج أو رفيق كما أنها كانت قد تركت الإقامة مع جدتها منذ مدة طويلة . أخبرتني لورا أنها أكملت الدراسة الثانوية ولكنها صرفت النظر عن الدراسة الجامعية . وفي أي وقت رأيتها فيه بعد ذلك كانت مخدرة كما أنني دخنت معها بعض اللفافات بعض المرات .

بعد شهر من « رقاد الموت » كما كنا نسمي عدم النشاط ، أدركت أن عليَّ أن أبدأ عملية ما فالأزعر المفلس يحتاج إلى بعض رأس المال . في بعض الليالي حينما يكون شورتي في العمل كنت آخذ أي مبلغ تدبره صوفيا لي وأحاول أن أستغله في شيء ما كلعب البوكر في محل جون هيوز للقمار . في السابق عندما كنت أسكن في روكسبرى ، كان جون هيوز مقامراً كبيراً وأرفع من أن يلحظني أو يتحدث إليَّ إلا أنهم وفي أثناء الحرب وصلتهم أخباري في هارلم والآن أعود حاملاً اسم نيويورك السحري . ذلك كان شعور الزعران في كل مكان : إذا كنت قد شققت طريقك في نيويورك فهم تواقون للتعرف إليك لأن ذلك يرفع من قدرتهم . المهم أن جون هيوز أثرى من سنوات الحرب وجمع ما يكفي ليفتح مكاناً لا بأس به كناد للقمار .

كنت ذات ليلة أشارك في لعبة قمار يشترك فيها جون أيضاً وبعد أن وزعت ورقتان لكل لاعب رأى الجميع أن ورقة من أوراقي كان « آصا » نظرت إلى الورقة الأخرى ووجدت أنها أيضاً آص . وبما أن الجميع رأى آصاً بيدي ، فقد كان عليَّ أن أبدأ الرهان .

لكنني لم أستعجل الأمر وجلست أفكر .

أخيراً نقرت بأصبعي على المائدة متنازلاً عن حقي في بدء الرهان للجالس بقربي . أوحى لهم ذلك أن ورقتي الثانية لم تكن شيئاً يستحق المغامرة . تلقف اللاعب التالي الطعم ورفع قيمة الرهان عالياً . كذلك تحمس اللاعب الذي تلاه ورفع قيمة الرهان أكثر. وربما كانت أوراقهم ضعيفة وقصدوا فقط تخويفي حتى لا أطلب ورقة أخرى . أخيراً أتى دور جون الذي كانت صورة « الملكة » بادية من أحد أوراقه ، فرفع قيمة الرهان أكثر من أي شخص قبله.

من الصعب معرفة أي شيء عن نوعية الأوراق التي بيد جون لأنه كان مقامراً ذكيًا لا يقل ذكاءً عن أي محترف رأيته في نيويورك .

أتى دوري لتسمية مبلغ الرهان مرة أخرى . رفع القيمة فوق رهان الجميع سيكلف مالاً كثيراً خاصة أنه ربما كانت بأيدي بعضهم أوراق ممتازة ، إلا أنني كنت أعلم أن الأوراق التي بيدي أحسن من أوراق أي منهم . لم أرد بسرعة بل استمررت في التفكير وصرت أفكر وأتصنع الحيرة وأخيراً رفعت مبلغ الرهان فوق أي مبلغ سابق . استمر ذلك النسق مع كل ورقة إضافية توزع إلى أن تحصلت على آص ثالث في آخر توزيع والكل يرى . أصبحت عندي ثلاثة آصات بينما حصل جون على ملكة أخرى .

راهن جون بمبلغ كبير جداً في المرة الأخيرة وأصبح كل لاعب يفكر مدة طويلة ثم ينسحب إلا أنا . كل ما فعلته هو أن وضعت أوراقي على المائدة . لو كان لدي نقود كافية لزدت مبلغ الرهان بخمسمائة دولار أخرى أو أكثر وسيضطر جون لمجاراتي لأن لاعباً مثل جون لا يمكن أن ينسحب ثم يقضي بقية عمره يفكر هل كنت جاداً أم كنت « أبلفه » فقط مع ذلك المبلغ الكبير أمامنا .

أريتهم كل أوراقي بكل آصاتها وكانت بيد جون ثلاث ملكات وبينما أنا ألملم من على المائدة الغنيمة التي فاقت الخمسمائة دولار ، أول مكسب حقيقي لي في بوسطن ، نهض جون تاركاً المائدة واللعبة . أخبر جون العامل المسئول في المحل : «أي وقت يحضر فيه رد إلى هنا ويطلب شيئاً ، أعطه له ، لم أرَ شابًا يلعب أوراقه بمثل هذه الحنكة.» يبدو أن عمر جون كان حوالي الخمسين لأنه أشار إليَّ بكلمة « شاب » ، مع أنه من الصعب معرفة عمر أي زنجي . ربما اعتقد مثل الكثيرين أن عمري كان ثلاثين عاماً إذ لم يكن أحد في روكسبري يشك أن عمري أقل من ذلك كثيراً ولا يعرف عمري الحقيقي سوى أختي ، إللا وماري.

انتشرت قصة لعبة البوكر تلك وخلقت لي شهرة وسط المقامرين والمحتالين في منطقة روكسبري . بالإضافة إلى ذلك وقعت لي حادثة في بيت جون للقمار ساهمت

في ازدياد شهرتي وهي حادثة أظهرت للجميع أنني لا أحمل مسدساً واحداً بل عدة مسدسات . كان قانون المحل يقتضي من أي زبون يدخل المحل للعب القمار أن يترك سلاحه عند المدخل ويعاد له عند الخروج وكنت دائماً أترك مسدسين عند الباب وفي أحد المرات حاول أحد المقامرين خداعي فأخرجت مسدساً ثالثاً من قراب الكتف . زادت تلك الحادثة شهرتي وأسموني مجنون الزناد و « مجنون » .

عندما أسترجع هذه الأشياء الآن ، أعتقد أنه لا بد كان بي مس من جنون . كنت أنظر إلى المخدرات كما ينظر أغلب الناس إلى الطعام وأحمل مسدساتي بنفس البساطة التي أضع بها ربطة العنق اليوم . في أعماقي كنت أومن أن من يعيش حياة عريضة بقدر ما تسمح مقدرته البشرية ، ينبغي أن يموت بعنف . كنت وما زلت أتوقع أن أموت في أي لحظة ولكنني أعتقد أنني سعيت إلى الموت بأكثر من طريقة وأحياناً بجنون تلك الأيام .

على سبيل المثال ونحن في حانة ذات مرة أشار إليَّ أحد جنود البحرية وهو يحمل حزمة ما ، أن أتبعه إلى غرفة الرجال في السرداب فتبعته . هناك أراني بندقية مسروقة كان يود بيعها . سألته : كيف أتأكد أنها صالحة للاستعمال ؟ فأخذها ووضع فيها بعض الطلقات ثم أخبرني أن كل ما عليَّ أن أفعله هو أضغط على الزناد . أخذت البندقية في يدي وتفحصتها ثم ضغطت فوهة البندقية على بطنه وقلت له أنني سأفتح بطنه . خرج من غرفة الراحة وظهره إلى الباب وطلع السلالم بطريقة بيل « بوجانجلز » روبنسون الذي كان يرقص متجهاً إلى الوراء . كان يدرك أنني مجنون لدرجة القتل وكنت فعلاً غير عاقل إذ كيف لم أفكر أنه ربما أنتظر حتى تواتيه الفرصة ليقتلني . احتفظت بتلك البندقية لمدة شهر في شقة شورتي قبل أن أفلس وأبيعها .

حضر ريجنالد لزيارتي في روكسبرى وقد صدم عند عودته لهارلم . قضيت معه بعض الوقت فهو ما زال أخي الصغير الذي لديَّ نحوه شعور أخوي أكثر حتى من شعوري نحو إللا . إللا نفسها كانت ما زالت تحبني وكنت أذهب لأزورها من وقت لآخر إلا أنها لم تقبل أبداً التغيير الذي حدث لي . أخبرتني لاحقاً أنها كانت تشعر أنني في طريقي إلى مصيبة كبيرة لكنني كنت دائما أشعر أنها كانت تُعجب بتمردي على العالم لأنها كانت تشعر بالقيود كونها أنثى بالرغم من أن لها عزيمة وإرادة أقوى بكثير مما نجد عند أغلب الرجال .

لو كنت أفكر في نفسي فقط لاخترت لعب القمار المنتظم لكسب العيش فقد كان يأتي إلى محل هيوز عدد من المقامرين يكفي لأن يوفر لأمثالي مكسباً كافياً وكلهم من الذين لهم وظائف أخرى في العادة ، فقط ينبغي ألا تفوتك أيام

صرف المرتبات . كذلك عرض عليَّ جون هيوز العمل معه كموزع للورق أثناء اللعب فرفضت . لم أفكر فقط في نفسي بل بدأت أفكر في شيء يستفيد منه أيضاً شورتي الذي تحادثت معه وشعرت بالرثاء لحاله . نفس قصة الموسيقار اياها . تحمل اسماً كبيراً والأضواء حولك ولا يبقى لك شيء مما تكسبه بعد أن تدفع إيجار الشقة وثمن الطعام والمكيفات وبعض الأشياء الصغيرة والديون . كيف لشورتي أن يجمع أي مال أو يشتري أي شيء ؟ لقد عشت في هارلم سنوات وتجولت ورأيت أعظم الموسيقيين وحتى أصحاب الأسماء الكبيرة الذين يكسبون مبالغ كبيرة . ماذا يملكون ؟ لا شيء .

وماذا عني أنا شخصيًّا وآلاف الدولارات التي كانت تجري في يدي ومع ذلك لم أكن أملك شيئاً . لقد كنت أنفق عشرين دولار في اليوم على الكوكايين وحده وخمسة أخرى للفافات القنب والسكائر العادية وهنالك المخدرات الأخرى . كنت أدخن أربع علب سكائر في اليوم وإذا سألتني اليوم فسأقول لك أن التبغ بجميع أنواعه ما هو إلا إدمان آخر مثل أي مخدر . عندما أثرت موضوع البحث عن عملية ما مع شورتي بدأت أولاً بإقناعه أن المغفلين فقط هم الذين يعتقدون أن بإمكانهم تحقيق ما يريدون بالعمل الشريف وأنه شخصياً خير مثال لذلك .

وعندما ذكرت له ما في ذهني وهو السطو على المنازل ، وافق شورتي بسرعة أذهلتني لأنه كان دائماً محافظاً (نسبياً) بطبعه ، علماً بأنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة عن هذا المجال . بدأت أشرح له طريقة القيام بهذه العملية وحينها اقترح شورتي أن نضم إلينا صديقاً له يدعى رودي كنت قد قابلته واستلطفته من قبل . رودي هذا من أم إيطالية وأب زنجي وقد ولد في بوسطن . كان قصير القامة ، فاتح اللون ومن نوع الولد « الحليوة ». كان يعمل بانتظام عند وكالة تخديم كانت ترسله للخدمة في الحفلات الخاصة . بالإضافة إلى ذلك كان عنده اتفاق جانبي ذكرني بأيامي كدليل في هارلم . بمقتضى هذا الاتفاق كان رودي يذهب مرة في الأسبوع لمنزل ثري عجوز ، بوسطوني من ذوي الدم الأزرق وأرستقراطي من علية القوم . كان رودي ينزع ملابس كليهما ويحمل الرجل العجوز كما يحمل الرضيع ويضعه على السرير ثم يرشه بمسحوق التالكوم . ذلك كل ما في الأمر ويفترض أن العجوز يجد متعة عظيمة في ذلك وينفحه بعض المال .

حكيت لشورتي ورودي عن بعض الأشياء التي شاهدتها في نيويورك وعلمت من رودي أنه فيما يعلم ، ليست في بوسطن بيوت متخصصة في الجنس ، فقط أفراد بيض أثرياء يستأجرون الزنوج الذين يأتون إلى بيوت البيض ، متخفين كسعاة أو سائقي عربات أو خدم منازل ، لإشباع رغبات البيض الغريبة . وكما في نيويورك

كـانوا مـن الأثريـاء والمجتمـع الراقـي وأغلبهم مـن المتقـدمين في العمـر الـذين هبطـت مقـدرتهم الجنسـية وهـم الآن يبحثـون عـن وسـائل جديـدة للإثـارة . تحـدث رودي عـن آخرين كـانوا يدفعون لأجواز سود ليسمحوا لهم بالتفرج على معاشرتهم.وعـن آخـرين يطلبون فقط الإنصات وهم خارج الغرفة .

يحتاج أي فريق سطو منزلي إلى ما نسميه « الكشاف » وهو الشخص الـذي يعثـر على و يحدد الأماكن التي بها ما يستحق أن يسرق . ثانياً يحتـاج الفريـق إلى شـخص « يمسح » المكان ويحـدد جغرافيته وخير وسيلة للـدخول والهروب الخ . رودي كـان ملائمـاً مـن الـوجهين فلأنـه يُرسـل إلى هـذه الأمـاكـن ، بإمكـانـه تحديـد مقتنيـات البيـوت ومسـحها وهـو يتجـول فيهـا بمعطفـه الأبـيض بـدون إثـارة الشـكوك . عنـدما أخبرنا رودي بما ننوي كان رد فعله هو « قل لي متى نبدأ يا صاح ؟ »

لكنني لم أكـن في عجلـة مـن أمـري . لقـد تعلمـت مـن المحترفـين ومـن تجـاربي الشخصية أهمية الحـذر والتخطيط . سـرقة المنـازل ، مـع أنهـا لا تخلـو مـن خطـورة ، مـن الأشـياء الـتي فـرص نجاحهـا عاليـة ومخاطرهـا قليلـة إذا نفـذت بدقـة . وإذا تمـت العملية بدون أن تقابل أيًّا من ضحاياك ، فإن ذلك يقلل أولاً مـن احتمـال الهجـوم علـى شـخص أو قتلـه وإذا قـبض عليـك البـوليس بعـد ذلـك لخطـأ مـا ، فلـن يكـون هنالـك شاهد إثبات يقسم أنه رآك . من المهم أيضاً أن تختـار مجالاً بعينه وتركـز فيه . بعـض اللصـوص مـثلاً ، يتخصـص في سـرقة الشـقق وآخـرون يتخصصـون في البيـوت أو في البقـالات أو المتـاجر وهنالـك الـبعض الآخـر الـذي لا يسـرق إلا الخزانـات الحديديـة وصناديق حفظ المقتنيات النفيسة .

وفي مجـال السـطو علـى المنـازل توجـد تخصصـات إضـافية . هنالـك زوار النهـار ، زوار وقـت – العشـاء – في الخـارج أو وقـت السـينما وزوار الليـل . سـيخبرك رجـال الشرطة في أي بلد أنهم نادراً ما وجدوا لصاً يعمل في أوقات مختلفة . صديقنا « اقفـز بثبات » مثلاً ، كـان من زوار الليل ومن الصعب إقناعه بالعمل نهـاراً حتـى لو أخبرتـه أن هنالك مليـونيراً تـرك مكـانـه مفتوحـاً وخـرج للغـداء . مـن نـاحيتي كـان لـي سـبب عملي يمنعني من العمل بالنهار بالإضافة إلى ميلي للعمل ليلاً . مـن السـهل مـلاحظتي مع حجمي وطولي وأكـاد أسمعهم يقولـون: « أنـه زنجـي لونـه بني يميـل إلى الاحمـرار وطوله حوالي ٦ أقدام » وكل ذلك من نظرة واحدة .

وأنا أنظم ما أملت أن تكون عملية مثالية ، فكـرت في جـر الفتيـات البيضـاوات إليها وذلك لسببين . أول السـببين هـو أن اعتمادنـا علـى الأمـاكـن الـتي يعرفهـا رودي فقـط لـن يكـون كـافيـاً وبعـد مـدة قصـيرة سنكـون قـد هـاجمنـا كـل البيـوت الـتي تستحق السـرقة . ثانيـاً عنـدما نبـدأ في البحـث ومسـح بيـوت جديـدة في أحيـاء البيض

الراقية ، سيلفت لوننا الأنظار ولكن الفتيات البيضاوات بإمكانهم زيارة هذه البيوت بدون إثارة الشكوك . لم أكن أميل إلى إدخال عدد من الناس أكثر مما ينبغي ولكن بما أن شورتي وشقيقة صوفيا صارا حميمين وأنا وصوفيا وكأنما نعرف بعضنا منذ خمسين عاما ، ورودي بحماسه للعملية وهدوئه ، مع كل ذلك لم يكن هنالك ما يدعو للتخوف أن يوشي بنا أحد لأن الواشي منا سيكون في خطر أيضاً إذا ما وشى . لم أشك للحظة أن صوفيا ستوافق لأنها كانت تفعل كل شيء أقوله لها وأختها ستفعل أي شيء وكان أن قبلت كل منهن الفكرة . كان زوج صوفيا مسافراً في أحد زياراته للساحل الغربي عندما كلمتها هي وأختها بذلك .

من تجربتي تعلمت أن أغلب اللصوص يتم القبض عليهم ليس في أثناء السرقة ولكن وهم يحاولون التخلص من المسروقات ولذا كنا محظوظين تماماً في عثورنا على مشترٍ منتظم . اتفقنا على خطة عمل كنت بمقتضاها أتعامل مع وكيل ذلك المشتري والذي كان سجينا سابقاً . بالإضافة إلى عمله المنتظم كان لذلك الوكيل عدة كراجات ومخازن صغيرة في منطقة بوسطن وكان الاتفاق يقتضي أن أتصل به أنا قبل كل عملية لأخطره بما ننوي ولأعطيه فكرة عامة عما نتوقع أن نحصل عليه ويقوم هو بدوره بتحديد الكراج أو المخزن الذي علينا أن نترك المسروقات فيه . بعد ذلك المفترض أن يقوم ذلك الوكيل بفحص المسروقات ويزيل منها كل العلامات المميزة ثم يتصل بالمشتري الذي يحضر شخصيًّا بعد ذلك لمعاينة البضاعة . في اليوم التالي يقابلني الوكيل في مكان معين ويدفع لي مقابل المسروقات ، نقداً .

أذكر أن النقود المرسلة كانت دائماً أوراقاً نقدية جديدة لها صوت غض . كان ذلك ذكاء منه لأن حمل عملة جديدة في جيوبنا كان له أثر نفساني علينا وربما كانت للوكيل أسباب أخرى لذلك .

كنا بحاجة إلى مكان كقاعدة لعملياتنا ، مكان خارج روكسبرى . لذلك استأجرت الفتيات شقة في ميدان هارفارد في الطابق الأرضي بحيث يمكننا جميعاً القدوم والرواح بدون لفت الأنظار . كذلك كان بإمكان الفتيات أن يقمن بزيارة وتحديد الأماكن التي نطلب منهن البحث فيها .

من الطبيعي أن يكون لكل منظمة أو مجموعة قائد أو رئيس وحتى إذا كانت من شخص واحد فعلى ذلك الشخص أن يرأس نفسه.

ناقشنا طريقة العمل في أول اجتماع لنا في الشقة . كان على الفتيات دخول المنازل ومسحها بضرب جرس الباب وتقديم أنفسهن كبائعات أو مشتغلات في مسح اجتماعي أو طالبات يشتركن في بحث علمي أو أي عمل آخر يرينه مناسباً . بعد دخول البيت عليهن التجول فيه بقدر الإمكان بدون إثارة الشكوك وبعد ذلك

يقدمن تقريراً شفوياً عن الأشياء النفيسة في ذلك البيت وموقعها وأن يقمن برسم خريطة البيت لشورتي ورودي وأنا. كذلك اتفقنا أن الفتاتين لن تشتركا في السرقة ذاتها إلا في حالات خاصة يكون لاشتراكهن فيها ميزة. عامة كنا نقوم بالعملية نحن الرجال الثلاثة ، يدخل اثنان منا المنزل ويبقى الثالث يراقب في الخارج بينما موتور العربة يدور طوال ذلك .

في أثناء الحديث معهم ووضع الخطط جلست عمداً على سرير بعيداً عنهم . فجأة وبدون مقدمات أخرجت مسدسي وأفرغت منه الرصاصات الخمس ووضعت فيه رصاصة واحدة بطريقة يراها الجميع ثم أدرت الماسورة بسرعة ووضعت فوهة المسدس على صدغي وقلت :

« الآن سأعرف من الشجاع فيكم ».

كشرت في وجوههم وهم فاغرون أفواههم ثم ضغطت على الزناد وسمعنا كلنا صوته – كليك . « سأفعل ذلك مرة ثانية الآن ».

توسلوا إليَّ أن أتوقف عن ذلك وكانت عيون شورتي ورودي تقول : إنهما سيخطفانه مني .. مرة ثانية سمعنا صوت الزناد ، كليك ، على ماسورة فارغة .

كانت المرأتان في حالة هستيريا ورودي وشورتي يتوسلان إليَّ : « يا رجل ... رد ... أقصر هذا الموضوع ... توقف! » وضغطت على الزناد مرة ثالثة .

« لقد فعلت ذلك لتعلموا أنني لست خائفاً من الموت ، ولأحذركم بألا تعترضوا شخصاً لا يهاب الموت . الآن دعونا نبدأ العمل ».

لم يحدث بعد ذلك أن تسبب أي منهم في أية مشاكل . صوفيا دخلتها الرهبة وأختها صارت تناديني « مستر رد». أما شورتي ورودي فلم يعودا كسابق عهدهما بي وبالرغم من أن أيا منهما لم يذكر لي ذلك فقد كانا يعتقدان أنني مجنون وصارا يهابانني .

في نفس تلك الليلة قمنا بأول عملية لنا – مسكن الرجل العجوز الذي كان يستأجر رودي ليرشه بمسحوق التالكوم . تمت العملية كأحسن ما يكون ونفذ كل شيء بدقة الساعة . كذلك سر المشتري كثيراً بالغنيمة وعبر عن ذلك بالأوراق النقدية الجديدة الغضة . بعد ذلك بمدة روى العجوز لرودي كيف أن جيشاً صغيراً من المحققين والمخبرين زار المنزل وتفحص آثار العملية وخلص إلى أن العملية تحمل آثار عصابة معينة ظلت تعمل في منطقة بوسطن منذ سنة .

بسرعة بدأنا نعطي عملنا صبغة علمية. كانت الفتيات تستكشف وتمسح في الأحياء الراقية وتُنفذ العملية في مواعيدها التي لا تستغرق أكثر من عشرة دقائق

أحياناً . أنا وشورتي كنا نقوم بالسرقة نفسها في أغلب الأوقات بينما رودي يراقب ويجلس مستعداً في عربة الهروب . كنا نستعمل مفتاحاً خاصاً إذا لم يكن أهل البيت موجودين وإذا كان القفل متيناً كنا نستعمل عتلة أو مكسر أقفال . أحياناً كنا ندخل من نوافذ مخرج الحريق أو نوافذ السطوح. في أثناء النهار كانت ربات البيوت السذج يأخذن صوفيا وأختها في جولة حول المنزل ليسمعن منهن عبارات الثناء على الأثاث والمقتنيات الرائعة. ومن وصف تلك الفتيات وبمساعدة المصباح الكشاف الدقيق كنا نذهب مباشرة إلى مبتغانا .

أحياناً كنا نجد أصحاب الدار نياماً ومع أن ذلك يبدو خطراً إلا أنه كان سهلاً. أول ما نفعله عند ذلك هو الانتظار والسكون لالتقاط الأصوات وأحب تلك الأصوات إلينا هو الشخير لأن ذلك يسهل المهمة . كنا والجوارب في أقدامنا ندخل مباشرة غرفة النوم ونتحرك بسرعة كالأشباح ونأخذ الملابس والساعات والمطابق وحقائب اليد وصناديق الجواهر .

موسم أعياد الميلاد كان « سانتا كلوظ » بالنسبة لنا. كنا نجد الهدايا الثمينة ملقاة في كل مكان في البيت والنقود إذ كثيراً ما يسحب الناس مبالغ كبيرة من المصرف في ذلك الموسم لشراء الهدايا . أحيانا كنا عندما نبدأ مبكراً أكثر من العادة ، ندخل بيوتا لم نمسحها مسبقاً. وكنا إذا رأينا الأنوار مطفأة وستائر النوافذ مدلاة ولم يجب أحدهم على جرس الباب عندما تضغطه إحدى الفتاتين ، نغامر وندخل المنزل .

نصيحتي لأصحاب المنازل أن خير طريقة لإبعاد اللصوص هي ترك حجرة مضاءة بحيث يراها اللص كما أن ترك غرفة الحمام مضاءة طول الليل يعد من أحسن ما ينفر اللصوص . غرفة الراحة هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يدخله شخص من أهل المنزل في أي ساعة من الليل ويبقى فيه لمدة قد تقصر وقد تطول وبإمكانه أن يسمع أقل حركة غريبة في المنزل وهو داخل الغرفة . اللصوص تعرف ذلك ولذا لا تدخل بيتاً حمامه مضاء . بذلك تحصل على حماية بثمن بخس لأن تكلفة الكهرباء أرخص كليًّا من أشيائك الثمينة .

أجدنا عملنا إجادة تامة لدرجة أن المشتري الخفي كان يبعث الينا أحيانا معلومات عن الأماكن التي بها أشياء ذات قيمة وكان ذلك هو السبب الذي جعلنا في فترة من أحسن فتراتنا ، نتخصص في السجاد العجمي . كنت دائماً أشك أنه كان يأخذها ليبيعها لنفس الأشخاص الذين سرقت منهم . قد تستغرب إذا حدثتك عن قيمة هذه الأشياء وأذكر أن سجادة صغيرة سرقناها أعطانا ألف دولار عنها ويمكنك أن تتخيل ما يحصل عليه الوكيل . كل اللصوص تعرف أن متلقي السلع

المسروقة يسرق اللصوص بدرجة أسوأ من سرقة اللصوص لضحاياهم .

المرة الوحيدة التي كدنا أن يقبض علينا فيها كانت ونحن في طريق العودة بعد أن انتهينا من إحدى العمليات . كنا نركب ثلاثتنا في المقاعد الأمامية بينما المقاعد الخلفية محملة بالمسروقات . فجأة وفي المرآة الخلفية للعربة رأينا عربة الشرطة تستدير في اتجاهنا وقدرنا أنهم سيضيئون أنوارهم الكشافة ويطلبون منا الوقوف . يبدو أنهم لاحظوا أننا زنوج وهم يعلمون ألا شيء يأتي بالزنوج إلى حي للبيض في تلك الساعة .

أصبح الموقف صعباً خاصة أنه قد حدثت عدة سرقات في تلك الأيام فلم نكن نحتكر ذلك المجال وحدنا فهنالك عصابات أخرى تعمل . كنت أدرك أنه لن يخطر ببال أي رجل أبيض أن هنالك زنجياً يجرؤ على خداعه وفكرت بسرعة وقبل أن يضيئوا أنوارهم الكاشفة طلبت من رودي الوقوف وفعلت ما فعلت قبل ذلك مرة . خرجت من العربة ولوحت بيدي سائراً نحوهم . عندما توقفوا كنت بعيداً عن عربتنا وبالقرب من عربتهم . سألتهم عن مكان معين في روكسبرى وأنا أتلعثم في كلماتي مثل زنجي اختلط عليه الأمر وكيف أصل إلى هنالك . دلوني على كيفية الوصول إلى ذلك العنوان ثم ذهب كل منا لحاله .

كانت أمورنا على أحسن ما يرام. نخبط خبطة كبيرة ثم نهجر العمل لمدة ونبدأ في الاستمتاع بالأموال التي بحوزتنا .

كان شورتي ما زال يعزف ولم يتغيب رودي عن زيارة الرجل العجوز أو عن عمله كنادل في الحفلات الراقية كما كانت البنات يحافظن على روتين حياتهن اليومية . أحيانا كن يصحبنني إلى النادي الذي يعزف فيه شورتي أو إلى أماكن أخرى أنفق فيها المال إنفاق من لا يخشى البأس والفتاتان ترتديان الفراء والمجوهرات التي انتقيتا من غنائمنا . لم يكن أحد يعلم عن أعمالنا إلا أنه كان واضحاً للجميع أن حالنا طيب . في مرات أخرى كانت الفتاتان تحضران لمقابلتنا في مكان شورتي في روكسبرى أو في شقة ميدان هارفارد ونقضي الوقت في تدخين اللفائف وسماع الموسيقى . لا أود أن أكون نماماً وأتحدث عن شورتي لكن الفتاة البيضاء سلبت لبه لدرجة أنه كان يرفع ستائر النوافذ إذا كان النور مطفأ ليرى ذلك الجسم البض من أنوار الشارع .

في الأمسيات التي نعمل فيها كنت أرتاد ناد ليلي في شارع ماساتشوستس يسمى السافوى وهنالك كانت صوفيا تتصل بي هاتفياً بانتظام . وحتى عندما ننوي تنفيذ عملية ما ، كنت أغادر من ذلك النادي وأعود إليه بعد العملية . كان الغرض من

ذلك إثبات إنني كنت في النادي إذا اقتضى الأمر ويستطيع من رآني هنالك أن يشهد بذلك علماً بأن كثيراً من الزنوج يعجزون عن تحديد الوقت بالدقيقة والثانية إذا طلب منهم ذلك .

كان من بين شرطة بوسطن في ذلك الوقت اثنان من المخبرين الزنوج ومنذ أن عدت إلى روكسبري كان أحدهما ويدعى تيرنر لا يطيق رؤيتي وكنت أبادله نفس الشعور . تحدث ذات مرة عما سيفعله بي مما جعلني أبلغه بطريقة غير مباشرة كيف أنني أحمل مسدسين والكل يعلم أنني لن أتردد في استعمالهما إذا استدعى الحال حتى ضد الشرطة . وقد كان واضحاً من التغيير في سلوكه أن الرسالة بلغته .

في بداية إحدى هذه الأمسيات كنت أجلس في السافوى حين رن جرس الهاتف العمومي في المحل وتصادف ذلك مع دخول تيرنر من الباب الرئيسي وعندما رآني أنهض عرف أن المحادثة تخصني فما كان منه إلا أن رفع سماعة الهاتف وأجاب . سمعته يقول: « هالو ، هالو ، هالو » فأدركت أن صوفيا أقفلت الخط عندما شعرت أنه صوت غريب . سألت تيرنر :

ألم تكن هذه المحادثة تخصني ؟

أجاب بالإيجاب .

حسناً ، ولماذا لم تقل ذلك ؟

رد بإجابة وقحة وكان واضحاً أنه إنما يسعى لاستفزازي بذلك حتى أبدأ أنا بالهجوم. كلانا كان حذراً وكلانا كان يعلم أنه يود أن يقضي على الآخر ولا يود أي منا أن يخطئ . تيرنر لا يريد أن يقول شيئاً يضر به لو تكرر ومن جانبي لم أود أن أقول شيئاً قد يفسر على أنه تهديد له . لكنني أتذكر بالتفصيل ما قلته له بصوت عالٍ كي يسمعه الجميع : « أراك تيرنر تحاول أن تدخل التاريخ وإذا تحرشت بي حتماً ستدخل التاريخ لأنك ستضطر لقتلي. »

نظر تيرنر إليَّ ثم انسحب وخرج ماراً بي . يبدو أنه لم يكن مستعدًّا لدخول التاريخ .

لقد وصلت درجة من الطيش كنت فيها أمشي فوق كفني .

تقتضي طبيعة الأشياء في دنيا الإجرام أن كل مجرم لا بد أن يجد نفسه مقبوضاً يوما ما وما يحاوله المجرم هو أن يدرأ المحتوم لأطول مدة يستطيع . ساعدتني المخدرات لطرد تلك الأفكار من رأسي فقد أصبحت المخدرات محور حياتي . غدوت أتعاطى المخدرات كل يوم – قنباً أو كوكاييناً أو الاثنين معاً حتى أرتقى فوق مخاوفي وفوق الضغوط . وإذا ما استطاعت المخاوف أن تجد طريقها من عقلي الباطن إلى السطح ، كنت أعيدها إلى الباطن ، إلى غد ثم بعد غد . ولكن بمرور

الزمن أصبح أثر المخدرات يظهر عليَّ في حين أنني في الماضي كنت أتحكم فيه .

في أحد الأسابيع التي لم نكن نعمل فيها وبعد أن نفذنا عملية كبيرة ، كنت أقضي الوقت في تعاطي المخدرات والأمسيات في النوادي الليلية . دخلت إحدى النوادي الليلية تلك ذات مساء ومن نظرة الساقي الذي حياني وأنا أدخل « هالو ، رد » شعرت بأن هنالك شيئاً غير عادي. لكنني لم أشأ أن أسأل لأنني دائماً أتبع القاعدة التي تقول لا تسأل الناس في مثل تلك الأحوال لأنهم فقط سيخبرونك ما يودون هم أن تسمع . إلا أن الساقي لم يجد الفرصة ليخبرني ، إذا كان فعلاً ينوي ذلك وعندما جلست على المقعد وطلبت مشروباً ، رأيتهم.

صوفيا وأختها تجلسان عند طاولة في الداخل بالقرب من أرضية الرقص ويصحبتهن رجل أبيض .

لا أدري كيف ارتكبت غلطة مثل التي ارتكبت بعد ذلك . كان بإمكاني التحدث إليها بعد ذلك ، إلا أنني في حالتي تلك لم أعلم ولم أهتم بمن يكون ذلك الرجل الأبيض . سيطر عليَّ المخدر وأمرني بالذهاب نحوهم .

لم يكن ذلك الرجل زوج صوفيا بل صديقه الحميم الذي قاتل إلى جانبه في الحرب . وبما أن زوج صوفيا كان مسافراً فقد دعا ذلك الصديق صوفيا وأختها للخروج وتناول العشاء في الخارج . بعد العشاء وهم يتجولون بالعربة في أنحاء المدينة اقترح ذلك الصديق أن يذهب جميعهم لزيارة حي الزنوج . كل زنجي يعيش في مدينة رأى نوع مثل ذلك الرجل ألف مرة . العنصري الشمالي يزور « مدينة النيجرز » ليرفه عن نفسه بالتفرج على « الكونز ».

حاولت الفتيات ثنيه عن ذلك لأنهن معروفات في أماكن الزنوج مثل روكسبري لكنه أصر على رأيه لذلك حضرن متوجسات للمكان الذي زرنه مائة مرة من قبل . كن جالسات والمشروب أمامهن يتمنين ألا يتقدم إلى طاولتهن أي زنجي من معارفهن .

وهنا أحضر أنا وأمشي نحوهن وأنادي « بيبي ». أبيضت وجوههن كالطباشير وأحمر وجهه مثل الشمندر .

في نفس تلك الليلة شعرت بالمرض والغثيان وأنا في شقتنا في ميدان هارفارد . لم يكن مرضاً عضوياً وإنما سنواتي الخمس الأخيرة كلها وهي قد لحقت بي . رقدت على السرير بالبجاما وأنا نصف نائم ونصف صاح حينما سمعت خبطاً على الباب . شعرت بأنها مصيبة فلم يكن أحد يخبط على الباب لأن لكل واحد منا مفتاحاً . قمت من فوق السرير واختبأت تحته . كنت مشوش الفكر من المخدرات لدرجة أنني نسيت أن أخطف مسدسي من الدولاب .

وأنا تحت السرير سمعت مفتاح الباب ورأيت الأحذية وثنيات ساق البنطلون تتحرك . رأيتها تتجول ثم تقف وعند كل وقفة كنت أدرك عن ماذا تبحث عيون ذلك الرجل . وحتى قبل أن يفكر هو في ذلك كنت أدرك أنه سينظر تحت السرير . وذلك ما فعل . وجه صديق زوج صوفيا ينظر نحوي من على بعد قدمين بوجه بدا متحجراً .

« ها ! ها ! ها ! لقد خدعتك » ، قلت ذلك وضحكت في حين أن الموقف لم يكن مضحكاً . خرجت من تحت السرير وأنا مازلت أتصنع الضحك . سأقول في حقه أنه لم يجر مني بل وقف يحدق فيّ وكأنما أنا أفعى .

لم أحاول أن أخفي عنه ما يعرفه عني مسبقاً . كانت حاجيات الفتيات في الدولاب وحول المكان ورأى هو كل ذلك . أننا حتى تبادلنا بعض الكلمات . أخبرته بأن الفتيات لسن بالشقة فخرج . لكن أكثر ما هزني هو اكتشاف توريطي لنفسي تحت السرير بدون مسدس . لقد تدهورت وصرت أنسى أبسط الأشياء .

كنت قد تركت ساعة مسروقة عند مجوهراتي ليستبدل زجاجها الكريستال . وبعد يومين ذهبت لاستلامها من المحل وعند ذلك بدأ كل شيء ينهار . وكما قلت مسبقاً كان المسدس جزءًا من هندامي كما ربطة العنق اليوم . كنت أحمل مسدسي في قرابي وتحت المعطف . وكما علمت بعد ذلك كان صاحب الساعة الذي سرقناها منه ، قد وصف الساعة وما تحتاجه من إصلاح للشرطة إذ أنها كانت ساعة ثمينة ولذلك كنت قد احتفظت بها لنفسي . ويبدو أن كل جواهرجي في بوسطن قد وصلته أوصافها من الشرطة .

انتظر اليهودي حتى دفعت له قيمة إصلاحها قبل أن يضع الساعة على الدرج ثم أعطى إشارة ما وفجأة ظهر شخص من مؤخرة المتجر يمشي نحونا . احدى يديه كانت في جيبه فعرفت أنه شرطي .

قال بهدوء : « تحرك إلى الخلف ».

بدأت أتحرك حينما دخل زنجي المتجر والتفت المخبر نحوه ظانًّا أنه معي . وأذكر أنني سمعت بعد ذلك أن ذلك الزنجي كان قد ترك الخدمة العسكرية لتوه . وقفت هنالك ومسدسي تحت المعطف والمخبر يتحدث إلى الزنجي وظهره يواجهني . إنني الآن أؤمن أن الله كان معي حتى في ذلك الموقف . لم أحاول أن أطلق عليه الرصاص وذلك ما أنقذ حياتي .

أذكر أيضاً أن اسم المخبر كان المخبر سلاك .

رفعت ذراعي وأومأت له قائلاً : « هنا ، خذ سلاحي » .

رأيت تعابير وجهه وهو يأخذ السلاح . كانت صدمة بالنسبة له إذ أنه وبسبب ظهور الزنجي الآخر ، لم يفكر في أنني ربما أكون مسلحاً وقد هز شعوره حقيقة

أنني لم أحاول قتله. بعد ذلك أعطى الإشارة وهو يحمل مسدسـي في يده وخـرج إثنان من المخبرين من مخبأهم . بذلك أصبحت تحت مراقبتهم وحركة واحدة مني كانت ستتسبب في قتلي .

سأقضي وقتاً طويلاً في السجن وأنا أفكر في ذلك .

لو لم أعتقل في الوقت الذي اعتقلت فيه لمت بطريقة أخرى فقد أخبر صديق زوج صوفيا زوجها عني عند وصوله ذلك الصباح . ذهب الزوج بعد وصوله إلى الشقة يبحث عني ومعه سلاح ناري ودخل الشقة في نفس اللحظة التي دخلت فيها أنا مخفر الشرطة .

استجوبني المخبرون بقسوة ومع ذلك لم يقوموا بضربي بل لم يمسوني بأصابعهم وكنت أدرك أن ذلك كان بسبب عدم محاولتي قتل المخبر عندما كان بإمكاني ذلك . ومن الأوراق التي كانت معي عرفوا مكان إقامتي . أعتقلت الفتاتان بعد ذلك بفترة وجيزة أما شورتي فقد انتزعوه وهو يعزف على المنصة في نفس الليلة . ورطت الفتيات رودي وحتى هذا اليوم مازلت أتعجب كيف أن رودي عرف بما حدث بطريقة ما وركب أول قطار خارجاً من بوسطن وهرب ولم يتم القبض عليه أبداً .

فكرت كثيراً جداً في كيف أنني نجوت من الموت بأعجوبة مرتين في نفس اليوم . ذلكم هو السبب في أنني أؤمن اليوم بأن كل شيء مكتوب .

وجدت الشرطة شقتي وهي ملأى بالأدلة – فراءات جلدية ، مجوهرات وبعض الأشياء الأخرى – بالإضافة إلى أدوات الصنعة . عتلة قصيرة ، مكسر أقفال ، قطاعات زجاج ، مفكات براغي ، مشعل دقيق كشاف ، مفاتيح مزورة ... وترسانة أسلحتي الصغيرة .

أطلق سراح الفتيات بضمان مبلغ مالي صغير فهن ما زلن بيضاً لصوصاً كن أم لا وجريمتهن الكبرى كانت تعاونهم مع الزنوج . أما شورتي وأنا فقد كان الضمان المالي المطلوب هو عشرة آلاف دولار لكل منا الشيء الذي كانوا يعلمون سلفا ألا طاقة لنا به . كذلك حضر عمال الرعاية الاجتماعية وبدأوا يركزون علينا فاشتراك نساء بيضاوات مع الزنوج كان موضوعاً يستأثر باهتمامهم . لم ينادوا الفتيات بألفاظ مثل « تافهة » أو صعلوكة ، فهن بيض ميسورات الحال من الطبقة الوسطى العليا . تلك الحقيقة كانت أكثر ما أزعج رجال القانون والرعاية الاجتماعية .

كيف ومتى وأين قابلتهن ؟ هل اضطجعتم على سرير واحد ؟ لم يسأل أي منهم عن السرقة وكل ما رأوه في حالتنا هو أننا تجرأنا واستحوذنا على نساء الرجل الأبيض .

كنت فقط أنظر إلى ضابط الرعاية الاجتماعية وأقول : « الآن ، ماذا ترى ؟ » .

وحتى حاجب المحكمة وكتبتها كانوا يرددون :« فتيات بيضاوات طاهرات .. وزنوج ملاعين.» ونفس الشعور وجدناه عند المحامين الذين أتوا بهم ليدافعوا عنا عندما جلسنا أثناء المحاكمة ونحن تحت الحراسة . قلت لأحد المحامين قبل دخول القاضي : « يبدو أننا نحاكم وندان لأننا كنا مع هؤلاء الفتيات». أحمرً وجهه وأزاح أوراقه جانباً قائلاً: « ليس لديكم من عذر يجمعكم مع هؤلاء الفتيات».

في مستقبل الأيام عندما عرفت حقيقة الرجل الأبيض الكاملة فكرت كثيراً في أن عقوبة السرقة لمن ليست له سوابق مثلنا ، هي في المتوسط سنتان . أما نحن فلن نعاقب عقوبة متوسطة ، لا ليس مع جريمتنا !

أود أن أقول قبل أن أواصل رواية قصتي : إنني لم أقص بالتفصيل حكاياتي القذرة هذه أبداً لأي شخص قبل هذا الكتاب . وأنا الآن لا أرويها لكي أبدو وكأنني فخور بما فعلت وبالشرير الذي كنت . ولكن لأن الناس دائماً تتساءل لماذا أنا مثل ما أنا الآن ؟ وللإجابة على مثل هذا السؤال ، أقول : إن حياة الفرد كلها منذ مولده يجب أن تدرس – كل شيء يحدث لنا هو جزء من تلك الحياة .

في الوقت الحالي ومع مشاغلي الكثيرة ما كنت لأقضي ساعة في تحضير كتاب لمجرد دغدغة شعور بعض القراء ولكني أقضي هذه الساعات الطوال لأن معرفة القصة الكاملة هي الطريقة الوحيدة لمعرفتها على الإطلاق وحتى يفهم الناس أنني كنت قد غرقت في أعماق وحل المجتمع الأمريكي الأبيض قبل أن أجد الله وأنا في السجن وقبل أن أجد الإسلام الذي بدل حياتي كلية .



■ الباب العاشر

الشــيطان

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



لم يعرف شورتي معنى كلمة « بالتطابق».

بطريقة ما جمعت والدة شورتي العجوز ثمن تذكرة الحافلة من لانسنج إلى بوسطن . « أقرأ كتاب سفر الرؤيا وصل لله ، يا بني! » ذلك ما كانت تقوله دائما لشورتي وهي تزوره كما نصحتني أنا بذلك مرة أثناء انتظارنا إصدار الحكم علينا . قرأ شورتي كتاب سفر الرؤيا صفحة صفحة وجثى على ركبتيه مصليًّا مثلما يفعل شماس كنيسة معمداني زنجي .

وقفنا نتطلع إلى القاضي في محكمة مقاطعة ميدلسكس (يفترض أن الأربع عشرة جريمة المتهمين بها ارتكبت في تلك المقاطعة) وجلست والدة شورتي تبكي ورأسها ينحني ويرتفع وهي تصلي للمسيح بالقرب من إللا وريجنالد . نودي على شورتي أولاً ليقف .

« التهمة الأولى ، ثماني إلى عشر سنوات .

« التهمة الثانية ، ثماني إلى عشر سنوات .

« التهمة الثالثة ، .... »

وأخيراً : « كل العقوبات تنفذ بالتطابق ».

كان العرق يتصبب من وجهه الأسود بغزارة وكأنما مُسح بالزيت وبما أنه لم يكن يعرف معنى كلمة «بالتطابق » فقد أحصى في رأسه أن عقوبته تفوق المائة عام سجناً . بكى بصوت عال وبدأ يترنح وكاد أن يسقط على الأرض مما اضطر الحاجب لأن يمسكه ويسنده .

على مدى ثماني إلى عشرة ثواني تحول شورتي إلى ملحد مثلي

حكم عليَّ أنا بعشرة سنوات سجناً .

أما الفتاتان فقد حكم عليهما بست إلى خمس سنوات في إصلاحية النساء في فرامنجهام بولاية ماساتشوستس .

كان ذلك في فبراير ١٩٤٦ ولم يكن عمري قد بلغ الواحد وعشرين عاماً بعد . إنني حتى لم أصل مرحلة حلق اللحية حينها . أخذوني أنا وشورتي وأيدينا مقيدة إلى سجن المقاطعة في مدينة شارلستاون .

لا أستطيع تذكر رقمي في السجن وذلك يبدو غريباً حتى بعد اثنى عشر عاماً من خروجي من السجن . رقمك في السجن يصبح جزءاً منك فأنت لا تسمع اسمك أبداً فقط رقماً وتجد ذلك الرقم مطبوعاً على كل قطعة من ملابسك وكل ما يخصك لدرجة أنه أصبح مطبوعاً في ذهنك .

أي شخص يدعي أن له عطفاً عميقاً على البشر الآخرين عليه أن يفكر طويلاً قبل أن يوافق على وضع الآخرين خلف القضبان – في قفص . لا أعني أنه يجب ألا تكون هنالك سجون ، فقط يجب ألا تكون هنالك قضبان ، فخلف القضبان لا يمكن أن ينصلح إنسان. لن ينسى السجين ذلك أبداً ولن تتمحى القضبان من ذاكرته وعندما يخرج يحاول ذهنيًا نسيان تلك التجربة ولكنه لا يستطيع . لقد تحدثت مع عدد كبير من السجناء السابقين ووجدت أنهم نسوا كثيراً من تفاصيل سنواتهم في السجن ولكنهم في جميع الحالات لم ينسوا القضبان .

كسمكة (الاسم الذي يطلق على النزلاء الجدد في السجن) في سجن شارلستاون ، كنت يائساً جسدياً وعدوانياً مثل الأفعى وذلك لحرماني الفجائي من المخدرات . كذلك لم تكن في الزنازين مياه جارية إذ أن السجن بني في عام ١٨٠٥ في أيام نابليون حتى إنه صمم على نسق سجن الباستيل . في تلك الزنزانة الضيقة القذرة كنت إذا رقدت على حصيرتي أستطيع لمس الحائطين .

أما المرحاض فقد كان سطلاً مغطى ومهما كنت قوي الإرادة فلن يمكنك تحمل رائحة صف من الزنازين المتغوطة .

استجوبني طبيب السجن فناديته بكل اسم قبيح جرى على لساني ، أما قسيس السجن فناديته بأقذع من ذلك . وأول خطاب وصلني فيما أذكر ، كان من أخي فلبرت أخبرني فيه أن كنيسة « قداسته » ستصلي من أجلي . رددت له بخطاب أخجل من ذكره اليوم . كذلك كانت إللا أول من زارني وما زلت أذكر كيف انقبض وجهها فجأة ثم تمالكت نفسها وابتسمت وهي تراني أرتدي لباس السجن الباهت الخشن وعليه رقمي مطبوعاً . لم يجد أي منا ما يقوله للأخر حتى تمنيت لو أنها لم تحضر إطلاقاً . أما الحراس فكانوا يراقبوننا نحن الخمسين ما بين نزيل

وزائر وقد سمعت كثيراً من المساجين الجدد يقسمون وهم في زنازينهم أن أول ما سيفعلون عند إطلاق سراحهم هو تأديب هؤلاء الحراس الذين يدخلون الغرف . كانت الكراهية دائماً منصبة عليهم .

انسطلت أول مرة من جوزة الطيب . كان زميلي في الزنزانة واحداً من بين مائة مدمن على الأقل لجوزة الطيب الذين كانوا يشترون من عمال المطبخ ملء علبة ثقاب من جوزة الطيب مسروقة مقابل نقد أو سكائر . أمسكت بعلبة من جوزة الطيب وكأنما هي رطل من المخدرات الثقيلة . مزج ما مقداره ملء علبة ثقاب في كوب ماء بارد له نفس مفعول ثلاث أو أربع لفائف . عندما وصلتني بعض النقود من إللا بعد ذلك تمكنت من شراء أنواع أجود من عند حراس السجن . تحصلت منهم على لفائف قنب ونمبوتال وبنزدرين . تهريب الأشياء المختلفة وبيعها للسجناء كان النشاط الجانبي للحراس وكل سجين يعلم أن حراس السجن يكسبون جزءاً كبيراً من عيشهم بتلك الطريقة .

قضيت بالسجن ما مجموعه سبع سنوات والآن حينما أحاول أن أفرق بين السنتين وبضع السنة الأوائل أجد أنها ليست إلا ذكريات جوزة الطيب وشبه المخدرات الأخرى . سب للحراس وقذف لحاجياتي خارج الزنزانة ، تحد أو شغب في الطابور ، رمي لصينيتي في غرفة الطعام ، رفض الإجابة عند مناداة رقمي مدعيًا أنني نسيت وأشياء من ذلك النوع .

كنت أفضل الوحدة التي جلبها عليّ ذلك السلوك وفيها كنت أذرع المكان «جيئة وذهاباً» كنمر محبوس أسب وألعن بصوت عال وبفظاظة ، وهدفي المفضل هو الإنجيل والرب . إلا أنه كان هنالك حد قانوني لأقصى وقت يمكن أن يقضيه النزيل في الحبس الانفرادي . في النهاية بدأ زملائي المساجين ينادونني « بالشيطان » نسبة لعدائي للدين .

أول شخص رأيته في السجن وترك نوعاً من الانطباع الإيجابي في نفسي هو نزيل يدعى « بمبي.» قابلته في عام ١٩٤٧ في سجن شارلستاون وكان زنجياً ذا لون فاتح ويميل إلى الاحمرار مثلي وقامته في طول قامتي كما أنه به نمشاً في الوجه . كان بمبي لصًا قديماً ومرتاد سجون . في سجن شارلستاون كان يدير الماكينة التي تطبع الأرقام في ورشة صنع لوحات السيارات حيث تعمل مجموعتنا وكنت أنا أعمل في السير الناقل حيث تدهن اللوحات.

بمبي كان أول سجين أعرفه لا يستجيب للغة الخنافس مثل « ماذا تعرف يا دادي ؟ » كثيراً ما كنا نجلس بعد انتهاء حصتنا من عمل اللوحات ونحن حوالي خمسة عشر

شخصاً ونستمع إلى بمبي . عادة لا يفكر السجناء البيض في الإنصات إلى سجين زنجي يدلي بآرائه في المواضيع المختلفة ، أما في حالة بمبي فكان السجناء البيض وحتى الحراس يقتربون ويسترقون السمع لما كان يقوله بمبي الذي كان يأسرنا بحديثه فنستمع كأننا مثبتين على مقاعدنا بينما يتحدث هو عن مواضيع غريبة لا يفكر فيها الإنسان عادة . كان يقنعنا وهو يغرف من علم السلوك الإنساني ، أن الفرق الوحيد بيننا وبين من هم خارج السجن هو أننا قبض علينا . كذلك كان يحب التحدث عن الحوادث التاريخية والأرقام .

وعندما يتحدث عن تاريخ سجن كونكورد ، الذي سأنقل إليه مستقبلاً ، لظننت أن غرفة كونكورد التجارية استأجرته لذلك الغرض كما أنني لم أكن أول نزيل يسمع بثوريو قبل أن يسترسل بمبي في الحديث عنه . كان بمبي معروفاً بأنه أحسن زبون للمكتبة . أما أكثر ما بهرني في بمبي فهو أنه كان أول رجل رأيته في حياتي يستحوذ على احترام الناس التام .... بكلماته .

نادراً ما تحدث بمبي معي ومع أنه كان فظاً مع الآخرين لكنه شعرت أنه يستلطفني . أما ما جعلني أسعى إلى صداقته فهو حديثه عن الدين . كنت أعتبر نفسي أكثر من مجرد ملحد ، كنت الشيطان نفسه ، إلا أن بمبي وضع فلسفة الإلحاد في إطارها الصحيح مما جعلني أتوقف عن هجومي الفظ على الدين . بدت طريقتي ضحلة مقارنة بطريقته كما أنه لم يكن يستعمل ألفاظاً بذيئة .

بدون مناسبة تُذكر أخبرني بمبي ذات يوم بصراحته المعهودة أن لي شيئاً من العقل لو شئت استعماله . كنت أسعى إلى صداقته وليس إلى نصيحة من ذلك النوع وكنت سأسبه لولا ألا أحد يسب بمبي . نصحني بالاستفادة من دروس المراسلة التي تنظمها إدارة السجن ومن مكتبة السجن .

منذ أن أكملت الصف الثامن في مدينة ميسون في ولاية ميشجان لم أفكر بدراسة أي شيء ليست له علاقة بالنصب والاحتيال كما أن حياة الشوارع محت من ذهني كل ما تعلمته في المدرسة . لم أكن أدري ما الفرق بين الاسم والفعل . وعندما لم تستطع هلدا قراءة البطاقات البريدية المصورة التي أرسلتها إليها حينما كنت أبيع اللفافات ، كتبت تقترح عليَّ دراسة اللغة الإنجليزية والكتابة الأدبية . ولذا عندما وجدت لدي الوقت بدأت كورساً بالمراسلة في اللغة الإنجليزية كما أنني بدأت أؤشر بالقلم على عناوين الكتب التي تجذبني ولم يطلبها أحد من قائمة الكتب التي كانت تمرر علينا .

من خلال دروس وتمارين كورس المراسلة بدأت أسترجع بعض أبجديات قواعد اللغة تدريجيًّا وصار بإمكاني كتابة خطاب مفهوم بعد سنة من ذلك . كما تأثرت

بحديث بمبي عن أصل الكلمات وبدأت كورساً آخر بالمراسلة عن اللغة اللاتينية هذه المرة .

وتحت رعاية بمبي أيضاً بدأت لنفسي عدة عمليات مراهنة في مربع الزنازين الصغير. كنت أفوز على الجميع في لعبة الدومينو وأكسب علبة سكائر مقابل كل فوز وأصبحت لدي عدة خراطيش منها في زنزانتي والسكائر من الأشياء القيمة في السجن وتستعمل للتبادل كالنقود – كنت أراهن بالسكائر عمن يفوز في الملاكمة أو في مباراة رياضية ما . ولن أنسى أبداً الضجة التي أحدثها دخول جاكي روبنسون الميدان للعب مع بروكلين دودجرز في ذلك اليوم من إبريل ١٩٤٧ . ألتصقت أذني بالمذياع يومها وصرت كذلك في كل مرة يشترك فيها باللعب وعند نهاية المباراة أكون قد حسبت المتوسط الجديد لضرباته في كل المباريات .

في أحد أيام ١٩٤٨ وبعد أن نقلوني إلى سجن كونكورد ، كتب إليّ أخي فلبرت الذي كان دوماً بصدد الانضمام لهذه المنظمة أو تلك ، كتب يقول لي أنه اكتشف الديانة الطبيعية للرجل الأسود وأنه الآن أصبح عضواً فيما يسمى « أمة الإسلام » ونصحني بأن أدعو الله طالبا الخلاص . رددت على فلبرت بخطاب مع أن لغته كانت سليمة هذه المرة ، إلا أنه كان أسوأ من الذي كتبته له عندما أخبرني أن كنيسة « قداسته » تصلي من أجلي . بعد ذلك بمدة وصلني خطاب من ريجنالد ولم يخطر ببالي أبداً أن أربط بين الخطابين مع علمي بأن ريجنالد كان يقضي أوقاتاً طويلة مع ولفرد وهلدا وفلبرت في ديترويت . كان مكتوب ريجنالد مليئاً بالأخبار وفي نهايته هذه النصيحة : « مالكوم ، لا تأكل لحم الخنزير ولا تدخن سكائر بعد اليوم وسأريك كيف تخرج من السجن ».

كان رد فعلي الأول لذلك هو أن ريجنالد لا بد قد اكتشف طريقة يمكن أن أحتال بها على سلطات السجن . نمت وصحوت وأنا أفكر يا ترى أي نوع من الحيل يفكر فيه ريجنالد . ربما طريقة نفسانية مثل تمثيلي دور المجنون للجنة التجنيد العسكري في نيويورك . هل يمكنني مثلاً بعد الامتناع عن أكل لحم الخنزير وتدخين السكائر أن أدعي أن بي علة جسدية ما تحقق إطلاق سراحي . كانت جملته « تخرج من السجن » قد علقت بذهني وصارت ترن في مخيلتي . كم كنت أتحرق إلى الخروج من السجن ! وكنت أريد بشدة استشارة بمبي عن ذلك الموضوع إلا أن حاستي الغريزية منعتني من ذلك .

ترك التدخين لم يكن شيئاً صعباً بالنسبة لي فقد تعودت على البقاء بدون سكائر لأيام عديدة وأنا في الحبس الانفرادي ولن أدع هذه الفرصة تفوتني . بعد قراءة ذلك الخطاب أكملت علبة السكائر التي كنت بدأتها ولم أدخن سكارة

منذ ذلك اليوم في عام ١٩٤٨ وحتى اليوم .

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من ذلك التاريخ قدم لنا لحم الخنزير في وجبة الغذاء . لم أكن أفكر فيه حينما أخذت مقعدي من الطاولة الطويلة ، أجلس – أمسك – أبلع – قف – انتظم – أخرج . ذلك كان روتين الأكل في السجن . وعندما مر عليَّ طبق اللحم لم أكن أدري ما هو نوع اللحم المقدم وفي العادة لم نكن نميز بين الأنواع المختلفة – فجأة خطرت لي جملة « لا تأكل الخنزير بعد الآن » وكأنما هي مكتوبة على شاشة أمامي . ترددت والطبق ممدود إليَّ ثم مررته إلى الجالس منتظراً بجانبي بدون أن أتناول منه . بدأ يغرف لنفسه ثم توقف فجأة وهو ينظر إليَّ باستغراب .

قلت له : « إنني لا آكل لحم الخنزير » .

استمر الطبق في المرور على الآخرين .

ردة فعلهم والطريقة التي انتشر بها الخبر كانا من أطرف الأشياء ، فرتابة الأمور في السجن تجعل أي حادث ، مهما كان صغيراً ، يسبب جلبة كبيرة . عند المساء عرف كل النزلاء في الصف أن « الشيطان » لم يأكل لحم الخنزير .

جعلني ذلك فخوراً بطريقة غير عادية لأن الصورة العامة للزنجي كانت أنه لا يستطيع العيش بدون أكل لحم الخنزير . شعرت بالرضا عن نفسي لأن عدم أكل لحم الخنزير أذهل السجناء البيض . في مستقبل الأيام عندما ازدادت معرفتي واطلاعي على الإسلام أيقنت أنني برفضي أكل لحم الخنزير قمت بتنفيذ أول آيات الخضوع . شعرت بصدق المقولة التي يرددها المسلمون : « اقترب خطوة من الله وسيقترب منك خطوتين ».

تحول كل أخوتي وأخواتي في ديترويت إلى ما قيل لهم أنه « دين الرجل الأسود الطبيعي» الذي كتب لي فلبرت عنه وكلهم صلوا من أجلي ودعوا الله أن أتحول إلى الدين الجديد وأنا في السجن . ولكنهم بعد أن حدثهم فلبرت عن ردي الأول ناقشوا الأمر وقرروا أن أحسن حل هو أن يتصل بي ريجنالد الذي كان آخر من دخل الدين الجديد منهم وأقربهم إليَّ لأنه خبرني عندما كنا نحيا حياة الشوارع .

من الجانب الآخر كانت إللا أختي مجتهدة في موضوع نقلي إلى سجن مستعمرة نوفوك بولاية ماساتشوستس الذي كان يعتبر مركزاً تجريبياً للإصلاح . وكنت قد سمعت من أكثر من سجين في سجون مختلفة كيف أن من يملك النقود أو الواسطة بإمكانه أن ينقل إلى سجن نوفوك الذي وصفوه وكأنه جنة . بطريقة ما نجحت جهود إللا وتم نقلي إلى نوفوك وكان ذلك في أواخر عام ١٩٤٨ . وجدت أن السجن هنالك جنة فعلاً مقارناً بالذي كنت فيه – كانت به مراحيض بمياه جارية وليست به قضبان ، فقط حيطان وفيما بين الحيطان كنا نستمتع بقدر كبير من

الحرية . المستعمرة نفسها كانت في الريف حيث الهواء الطلق .

كان بالمستعمرة ٢٤ وحدة منزلية ويسكن في كل وحدة منها خمسون رجلاً على ما أذكر أي أن نزلاء المستعمرة كانوا ١٢٠٠ شخص . كان بكل منزل ثلاثة طوابق وأعظم ما في المستعمرة كان وجود غرفة منفصلة لكل نزيل . حوالي ١٥٪ من النزلاء كانوا زنوجاً وزعوا بحيث يوجد من ٥ إلى ٩ زنوج في كل منزل .

سجن مستعمرة نوفوك كان من أكثر أنواع السجون تقدماً فيما أعرف إذ أنه كان سجناً نموذجيًا . بدلاً من جو النميمة القاسية والانحراف والرشوة والحراس المكروهين ، كانت هنالك « ثقافة » من النوع الذي يعرفه السجناء وكان عدد كبير من السجناء يميل إلى المواضيع الثقافية مثل النقاش الجماعي والمناظرة الأدبية . كما كان أساتذة ذلك البرنامج التعليمي يأتون من جامعة هارفارد وجامعة بوسطن والمؤسسات التعليمية المجاورة . كذلك كانت قوانين الزيارة متساهلة مقارنة بالسجون الأخرى وتكاد الزيارة أن تكون يومية ويسمح للزائر بقضاء ساعتين مع النزيل وللأخير حق اختيار أن يجلس مواجهاً ضيفه أو بجانبه أثناء الزيارة .

مكتبة السجن كانت واحدة من أجمل الأشياء فيه وقد أوصى بها للسجن مليونير يدعى باركهيرست إذ يبدو أنه كان لديه اهتمام بأمر إصلاح المجرمين . على الرفوف وضعت آلاف من كتبه وخلف الرفوف صناديق وحقائب ملأى بالكتب التي لم يعد لها مكان على الرفوف . كان بإمكاننا بعد الحصول على إذن أن ندخل المكتبة ونمشي بين الرفوف ونختار الكتب التي نريد . وجدت بالمكتبة مئات المجلدات القديمة وربما كان بعضها نادراً ومن بين كتبها كنت في البداية أقرأ بدون هدف أو توجه إلا أنني بعد ذلك تعلمت أن انتقي الكتب التي تلائمني .

لم أسمع من ريجنالد لمدة من الزمن بعد أن تحولت إلى نوفوك إلا أنني دخلت سجن تلك المستعمرة وأنا قد هجرت السكائر وتركت أكل لحم الخنزير وقد أثار ذلك دهشة البعض . بعد ذلك وصلني خطاب من ريجنالد يفيدني فيه بموعد زيارته لي وقد كنت متشوقاً جداً لتلك الزيارة لأسمع الخدعة التي ستخرجني من السجن . ريجنالد كان يدرك الطريقة التي أفكر بها ولذا كان لطريقته تأثير عليّ .

في السابق كان ريجنالد يتأنق في هندامه إلا أنه عندما حضر للزيارة كان قد تهندم بعناية خاصة . زارني وأنا غير قادر على الانتظار حتى أعرف سر اللغز « لا سكائر ولا خنزير» . بدلاً من ذلك بدأ ريجنالد يتحدث عن الأهل وعما يحدث في ديترويت وهارلم عندما كان هنالك آخر مرة . لم يكن من طبعي أن أستعجل الناس ليفضوا لي بما في ذهنهم قبل أن يكونوا مستعدين لذلك ولذا لم أسأله . إلا

أن الطريقة العفوية التي كان يتكلم بها جعلتني أتوقع أن شيئاً مهماً قد حدث .

أخيراً وكأنما هي خاطرة عنت له في تلك اللحظة ، قال ريجنالد : « مالكوم ، إذا كان هنالك رجل يعلم كل شيء ، من سيكون ذلك الرجل »؟

تلك كانت طريقته منذ أيام هارلم وهي أن يصل إلى ما يريد بطريقة غير مباشرة . كنت في الأغلب أتضايق من تلك الطريقة لأنني عادة أصل إلى ما أريد بطريقة مباشرة . نظرت إليه وأجبت : « حسناً ، يجب أن يكون إلهاً ».

هنالك رجل يعلم كل شيء .

ومن ذلك الرجل ؟

الإله رجل واسمه الحقيقي هو الله .

« الله ». تذكرت تلك الكلمة من خطاب فلبرت وتلك كانت أول إشارة لي للربط بين الاثنين . لكن ريجنالد استمر في الحديث وقال إن لله ثلاثمائة وستين درجة وأن تلك الدرجات تحتوي على كل المعرفة .

لو قلت : إنني ارتبكت فلن يصف ذلك التشويش الذي حدث لأفكاري ولست بحاجة لأن أذكركم بخلفيتي وطريقة تفكيري عندما كان ريجنالد يتفوه بمثل هذه الكلمات . لم أجادل واستمررت في الإنصات لعلمي أنه سيأخذ وقتاً قبل أن يصل إلى مرماه وتلك طبيعتي ، أن أترك الشخص يتكلم إلى أن يصل إلى مبتغاه .

« للشيطان ثلاثة وثلاثون درجة وتسمى الماسونية » ، هكذا استرسل ريجنالد في الحديث وما زلت أذكر كلماته بالحرف لأنني سأقوم بتدريسها للآخرين كثيراً في مستقبل الأيام . «والشيطان يستغل ماسونيته ليحكم العالم » أخبرني ريجنالد أن هذا الإله حضر إلى أمريكا وكشف نفسه لرجل يدعى الإيجا « رجل أسود مثلي ومثلك » وأوحى لألايجا أن عهد الشيطان في طريقه إلى الزوال . لم أدر بماذا أجيب فالتزمت بالصمت وواصلت الإنصات ؟!

الشيطان رجل أيضاً .

ماذا تعني بذلك ؟

بإيماءة خفيفة من رأسه أشار ريجنالد إلى بعض النزلاء البيض وزوارهم وهم يتحدثون مثلنا في الطرف الآخر من الغرفة .

هم . الرجل الأبيض هو الشيطان .

أخبرني أن كل البيض يعرفون أنهم أبالسة « خاصة الماسونيون» لن أنسى أبداً أنني فجأة تذكرت كل البيض الذين عرفتهم ولسبب ما وقفت عند صورة هايمي اليهودي الذي أحسن إلي وكان ريجنالد قد صحبني مرتين حينما كنا نذهب إلى

لونج آيلاند لشراء وتعبئة الخمور المهربة .

بدون أي استثناء ؟

بدون أي استثناء.

حتى هايمي ؟

ماذا لو تركتك تكسب خمسمائة دولار لتساعدني كي أكسب عشرة آلاف ؟

بعد ذهاب ريجنالد فكرت وفكرت وفكرت .

لم أدر الحقيقة من الوهم .

بدأت صور البيض الذين عرفتهم منذ بداية حياتي تمر في مخيلتي . ضباط الولاية البيض الذين كانوا يأتون إلى منزلنا بعد أن قتل بيض آخرون أبي .... الرجال البيض الذين كانوا يقولون عن أمي أنها مجنونة في حضورها وأمام إخواني وأخواتي إلى أن أخذها رجال بيض إلى مستشفى الأمراض العقلية ... ... القاضي الأبيض والآخرون معه الذين شتتوا أسرتنا ... ... آل سويرلن ... البيض الآخرون الذين عرفتهم في مدينة ميسون .... الصبيان البيض الذين تعرفت عليهم في المدرسة والمدرسون – من قال لي منهم وأنا لي في الصف الثامن أن أصبح نجاراً لأن التفكير في المحاماة سخف بالنسبة للزنجي .

غرقت في الوجوه البيضاء وهي تمر في مخيلتي . الوجوه التي في بوسطن في حفلات الرقص المخصصة للبيض فقط في قاعة روزلاند حيث كنت أمسح الأحذية ... وفي مطعم باركر حيث كنت أحمل أطباقهم القذرة إلى المطبخ .... طاقم عمال السكك الحديدية وركابها .... صوفيا ....

البيض في مدينة نيويورك – رجال الشرطة ، المجرمون البيض الذين تعاملت معهم .... البيض الذين يصطفون في الحانات غير المشروعة لتذوق الروح الزنجية ... ... النساء البيضاوات اللائي يجرين خلف الرجال الزنوج ... ... الرجال البيض الباحثون عن غرائب المتعة .

متلقي السلع المسروقة في بوسطن ووكيله متردد السجون .... رجال الشرطة في بوسطن .... صديق زوج صوفيا وزوج صوفيا الذي لم أره أبداً مع أنه عرف الكثير عني .... أخت صوفيا .... الجواهرجي اليهودي الذي شارك في نصب الشرك لي .... ضباط الرعاية الاجتماعية .... أناس محكمة مقاطعة ميدلكس ..... القاضي الذي حكم عليَّ بعشر سنوات سجناً .... السجناء الذين عرفتهم .... حراس السجن وضباطه ....

بين السجناء كان هنالك سجين مشهور في سجن نوفوك يدعى جون وكان جون هذا عجوزاً غنيًّا مشلولاً قتل إبنه الرضيع ، قتله «رحمة به » كما يقولون . كان دائماً فخوراً مدعياً ودائماً يقول إنه ماسوني من أصحاب الدرجة الثالثة والثلاثين

وأن للماسونيين نفوذاً وسطوة وأن أي رئيس أمريكي كان منهم وأن أي ماسوني في مأزق يستطيع الخروج منه بإعطاء الإشارة السرية لأي قاض أو ماسوني آخر في مركز نفوذ .

تذكرت كلام ريجنالد وقررت أن أجريه في جون هذا الذي كان يقوم بعمل خفيف في مدرسة السجن . ذهبت إليه وقلت :

كم عدد الدرجات في الدائرة يا جون ؟

ستون وثلاثمائة .

وكم عدد الدرجات في هذا ؟

قلت ذلك ورسمت مربعاً فقال : ستون وثلاثمائة . سألته إن كان ذلك أكبر عدد ممكن من الدرجات في أي شيء فرد بالإيجاب .

إذا كان الأمر كذلك فلماذا تقف معرفة الماسونيين في ثلاث وثلاثين درجة فقط ؟

لم يستطع جون أن يعطي إجابة شافية وبالنسبة إليَّ كانت الإجابة هي أن الماسونية ليست إلا ثلاثاً وثلاثين درجة من الإسلام الذي هو المعرفة الكاملة التي حُرم منها الماسونيون إلى الأبد وهم عالمون بوجوده .

عندما عاد ريجنالد لزيارتي مرة ثانية بعد أيام كان واضحاً له أثر حديثه عليَّ وسر بذلك أيما سرور . بعد ذلك تكلم لمدة ساعتين كاملتين حديثاً جاداً عن الرجل الأبيض الشرير وعن الرجل الأسود مغسول الدماغ .

غادرني ريجنالد وتركني أسبح لأول مرة في حياتي في أفكار جادة فحواها أن الرجل الأبيض بدأ يفقد سطوته ومقدرته على استغلال الشعوب الملونة ، وأن الشعوب الملونة بدأت تنهض بسرعة لتحكم مرة ثانية ، وأن عالم الرجل الأبيض في طريقه للانهيار .

« إنك لا تعرف حتى من أنت . إنك لا تعرف ، لأن الشرير الأبيض أخفى عنك ، أنت تأتي من سلالة جنس له حضارات قديمة وثروات وذهب وملوك . أنك حتى لا تعرف اسمك الحقيقي ولن تتعرف على لغتك الأصلية حتى إذا نطق بها شخص أمامك . لقد حجب عنك الشرير الأبيض كل معلومة عن أصلك . فأنت كنت وما زلت ضحية الشيطان الشرير الأبيض منذ أن قتل واغتصب واختطفك من وطنك وأنت بعد علقة في ظهر جدودك » .

بدأت أتلقى خطابين يوميًا من إخوتي وأخواتي في ديترويت. كتب إليَّ ولفرد ، أخي الأكبر ، وزوجته وأم طفليه ، بيرثا (بعد وفاتها تعرف ولفرد على وتزوج روث ، زوجته الحالية) . كتب إلي كذلك فلبرت وأختي هلدا . أما ريجنالد فكان يزورني

إذ أنه بقى فترة في بوسطن قبل أن يعود إلى ديترويت إذ أنه كان آخرهم في دخول الديانة الجديدة . كانوا كلهم مسلمين وأتباع رجل وصفوه لي بأنه « صاحب الشرف الإيْجا محمد » الذي كان شخصاً دقيق الجسم مهذباً ويشيرون إليه أحياناً بأنه « مبعوث الله » . أخبروني أنه رجل أسود مثلنا ولد في مزرعة بولاية جورجيا في أمريكا ثم رحل مع عائلته إلى ديترويت حيث قابل شخصاً يدعى مستر والاس د. فارد الذي ادعى أنه الإله في شخص رجل . أعطى مستر والاس د. فارد إلى الايجا محمد رسالته إلى السود الذين كانوا : « أمة الإسلام المفقودة التي وجدت نفسها في بيداء ومجاهل أمريكا الشمالية » .

دعوني كلهم لتقبل تعاليم « صاحب الشرف الإيْجا محمد » . وأوضح ريجنالد أن من يقبلون الإسلام دينا لا يأكلون لحم الخنزير وأن إتباع الإيْجا محمد لا يدخنون السكائر لأنهم لا يدعون مواداً ضارة مثل المخدرات والتبغ والكحول تدخل أجسادهم . مراراً وتكراراً ، قرأت وسمعت ، « أن مفتاح الإسلام هو الخضوع والتوجه إلى الله » وما أسموه« المعرفة الحقة عن الرجل الأسود» التي لدى اتباع صاحب الشرف الإيْجا محمد. كانت تصلني في خطاباتهم الطويلة التي تحوي مطبوعات أحياناً .

« المعرفة الحقة » باختصار هي أنه تم « تبييض» التاريخ في كتب التاريخ التي ينشرها الرجل الأبيض وأن مخ الرجل الأسود قد تم غسله لمئات السنين وأن الإنسان الأول كان أسود يعيش في أفريقيا التي خرجت منها البشرية على هذه البسيطة . لقد بنى الرجل الأسود ، الذي هو الإنسان الأول ، إمبراطوريات عظيمة وحضارات قديمة وثقافات في حين أن الرجل الأبيض كان ما زال يمشي على أربع ويسكن الكهوف . و« الشيطان الأبيض كان عبر التاريخ وبسبب روحه الشريرة ينهب ويقتل ويغتصب ويستغل كل جنس ليس أبيض » .

أما أكبر جريمة في التاريخ البشري فهي تجارة الرقيق عندما ذهب الشيطان الأبيض إلى أفريقيا وقتل واختطف ملايين السود رجالاً ونساءً وأطفالاً وأحضرهم إلى الغرب في سفن العبيد حيث ضربوا وعذبوا وعوملوا كالعبيد . . حجب عنهم الرجل الأبيض الشيطان أي معرفة عن أصلهم كما حجب عنهم معرفة لغتهم ودينهم وثقافتهم حتى أصبح الرجل الأسود في أمريكا الجنس الوحيد على ظهر الكرة الأرضية الذي ليست لديه معرفة عن حقيقته على الإطلاق .

في خلال جيل واحد أغتصب النخاس الأبيض المرأة الزنجية المسترقة وبدأ يخرج منها جنساً مشوهاً ممسوخاً مغسول المخ فقد لونه الحقيقي بل فقد أسماء آبائه الحقيقية . أعطى السيد الأبيض اسم أجداده لهذا الهجين الجديد الذي بدأ الرجل

الأبيض يسميه « نيجروز. »

علموا هذا الزنجي أن أفريقيا ، موطنه ، انما هي أرض يسكنها وثنيون ، سود متوحشون يقفزون بين الأشجار كالقرود . وتقبل الزنوج ذلك كما تقبلوا كل تعاليم النخاس الأبيض التي قصد منها إخضاعهم لسطوة الرجل الأبيض . وبينما لكل أمة دين ورسول منها وإله تعرفه إلا أن الرجل الأبيض فرض دينه المسيحي على الزنوج . أدخلوا في روع هذا الزنجي أن يعبد إلهاً غريباً عنه ذا شعر أشقر شاحب وعيون زرق مثل شعر ولون وعيون السيد الأبيض .

علم ذلك الدين الزنوج أن اللون الأسود لعنة كما علمهم أن يكرهوا كل ما هو أسود بما في ذلك لون بشرتهم . كذلك علمهم أن كل أبيض طيب وعليهم احترامه وحبه . غسلت تلك الديانة مخ الزنوج حتى صار الواحد منهم يعتقد أنه أفضل من أخيه لمجرد أن هنالك دماً أبيض يجري في عروقه ويلوث دمه . كذلك خدعت ديانة الرجل الأبيض المسيحية الزنوج وغسلت أمخاخهم أكثر حتى يديروا الخد الأيسر وأن يبتسموا وينحنوا بالتحية ويركعوا ويتواضعوا ويغنوا ويصلوا وأن يقبلوا بالفتات الذي يتكرم به عليهم الرجل الأبيض الشرير وينتظروا جنتهم في العالم الآخر بينما يستمتع السيد الأبيض بجنته هنا في هذا العالم .

مرات كثيرة أرجع إلى الماضي لأحدد لنفسي كيف كان رد فعلي لمثل تلك الأحاديث. مع كل غرائز شوارع الجيتو التي عرفتها ، مع كل دهاء الثعلب وغرائز الذئاب التي كانت لدي ، كان المفروض أن أسخر من هذا الكلام ولكنه ألجمني . كان وكأنما كل تلك السنوات وكل تلك الحياة قابعة في ذهني ولكن بدون أثر باق . أتذكر أنني بعد ذلك بمدة ، عندما كنت أقرأ الإنجيل الذي وقعت عليه عيناي في مكتبة سجن نوفوك ، قرأت مراراً وتكراراً كيف أن الصدمة أصابت بولص حينما سمع صوت الرب حتى وقع من على حصانه في غيبوبة وأنا لا ولم ولن أشبه نفسي ببولص ولكني فقط أفهم معنى تجربته .

تعلمت منذ ذلك الوقت وساعدني تعلمي في فهم ما كان بدأ يموج بداخلي . أن نور الحق يتلقاه بسرعة المذنب الذي أسرف على نفسه ثم تاب واستغفر . بمعنى آخر أن الاعتراف بالذنب هو الطريق إلى الحق . وكما يقول الإنجيل : « لم ينج المسيح الفريسيين لأنهم تكابروا عن النجاة ». والكبائر التي ارتكبتها مهدت لي طريق التوبة وقبول الحق .

لمدة أسابيع بعد ذلك لم أكن قد بدأت في التفكير في هذه الأمور من وجهة نظري الشخصية كرجل أسود . كانت مثل الضوء الذي يعمي الأبصار .

غادر ريجنالد بوسطن عائداً إلى ديترويت . بعد ذلك كنت أجلس في غرفتي

بالساعات وأحدق في الحائط . لم أكن آكل أو حتى أشرب إلا القليل حتى كدت أن أموت جوعاً . بدأ زملاء السجن يخافون عليَّ والحراس يتوجسون ويسألون ما بي كما نصحوني بمقابلة الطبيب ولكني لم أشأ ذلك . زارني الطبيب عندما طلبوا منه ذلك ولا أدري ماذا قال لهم وربما ظن أنني أمثل عليهم .

كنت أمر بأقسى وأعظم تجربة يمر بها أي إنسان وهي قبول ما بداخلك وما حولك .

علمت بعد ذلك أن أخوتي الرجال والنساء قد جمعوا مالاً لكي تتمكن به أختي هلدا من السفر لزيارتي . حضرت هلدا وأخبرتني أن صاحب الشرف الإلايْجا محمد كان عندما يحضر إلى ديترويت ينزل ضيفاً في بيت أخي ولفرد في شارع ماكاي كذلك حثتني هلدا كثيراً أن أكتب خطاباً لمستر محمد فهو يفهم معنى البقاء في سجون الرجل الأبيض لأنه شخصيًّا عاش تلك التجربة في السجن الاتحادي بمدينة ميلان في ولاية ميشجان عندما سجنوه لأنه رفض التجنيد الإجباري .

أخبرتني هلدا أيضاً أن صاحب الشرف الإلايْجا محمد آت إلى ديترويت ليعيد تنظيم المعبد رقم واحد الذي أُهمل عندما كان هو في السجن وأنه يقيم بشيكاجو حيث يعمل على بناء وتنظيم المعبد رقم اثنين .

بادرتني هلدا بالسؤال «هل تحب أن تسمع قصة مجيء الرجل الأبيض إلى هذا العالم ؟ » القصة التي حكتها لي بعد ذلك هي الدرس الأساسي في تعاليم مستر محمد وهي كما علمت بعد ذلك ليست إلا نسيجاً مشوهاً مأخوذاً من القصص التي نجدها في كل الديانات الموحدة وتسمى « قصة يعقوب» يعلم الإلايْجا محمد أتباعه أن القمر انشق عن الأرض أولاً وأن البشر الأوائل كانوا سود البشرة وأنهم أنشأوا مدينة مكة المكرمة وأن من بين هؤلاء السود كان هنالك أربعة وعشرون عالماً حكيماً ، وأن أحد أولئك العلماء الذي كان على خلاف مع البقية ، خلق قبيلة قوية المراس اسمها شباز ومن سلالتها أتى من يسمون اليوم بالزنوج الأمريكيين .

قبل ستة آلاف وستمائة عام ، عندما كان سبعون بالمائة من البشر سعداء وثلاثون بالمائة غير راضين بالوضع ، ولد بين الأخيرين شخص يدعى يعقوب . خُلق هذا اليعقوب لإثارة الفتن وتعكير صفو الحياة وقتل الآخرين . كان حجم رأسه كبيراً فوق العادة ، دخل المدرسة في سن الرابعة وأكمل كل معاهد وجامعات بلاده عندما صار عمرة ثمانية عشر عاماً وأصبح يعرف « بالعالم صاحب العقل الكبير» تعلم يعقوب من بين ما تعلم كيف يهجن الأجناس .

بدأ هذا العالم كبير العقل يعظ الناس في شوارع مكة ويكسب أنصاراً بدرجة

أقلقت السلطات حتى أنهم نفوه مع ٥٩٩٩٩ من أنصاره إلى جزيرة باتموس – وهي الجزيرة التي يذكر الإنجيل أن يوحنا تلقى فيها الرسالة التي نجدها في أسفار العهد الجديد . وبالرغم من أنه رجل أسود إلا أنه لم يتقبل حكم الله وقرر إرضاءً لكبريائه المجروح ، أن يخلق جنساً شيطانياً ، جنساً أبيض مبيضاً .

من دراساته كان ذلك العالم يعرف أن الجنس الأسود يحتوي على جرثومتين ، واحدة سوداء والأخرى سمراء وأن الجرثومة السمراء كانت ساكنة وبما أنها أخف وزناً فهي الأضعف بين الاثنين . لمعاكسة قوانين الكون خطر له أن يطبق ما نعرفه اليوم ببناء الجينات المنحسرة ليفصل ما بين الجرثومة السوداء والجرثومة السمراء ثم يأخذ الجرثومات السمراء ليطعمها تدريجياً فتصبح أخف وزناً وأكثر ضعفاً وبذلك تكون المحصلة النهائية هي إيجاد أناس ضعفاء يكونون بذلك أكثر عرضة لعمل الشر والإيذاء .

تلك هي الطريقة التي أتى بها الجنس الأبيض الشيطاني إلى هذا العالم .

ولأنه كان يعلم أن فصل الألوان والتحول من أسود إلى أبيض سيتطلب المرور بعدة مراحل فقد سن قانوناً لتحسين النسل في جزيرة باتموس . من بين أتباعه السود البالغ عددهم ٥٩٩٩٩ كان واحد من بين كل ثلاثة يولد وبه شيء من السمار وعندما يكبر هؤلاء لا يسمح لهم بالزواج إلا ما بين أسمر وأسمر آخر أو أسود مع أسمر . وطبقاً لقانونه إذا ولد لهؤلاء طفل أسود كان على القابلة أن تحقن إبرة في دماغه وتقدمه ليحرق جسده ثم يقال لأمه أن الجنين ولد ملاكاً ولذلك أخذته السماء ليهيئ لأمه مكاناً في الجنة . أما المرأة التي تلد طفلاً أسمر فيطلب منها أن تعتني بطفلها عناية تامة .

درَّب مستر يعقوب عدداً من المساعدين ليواصلوا رسالته وعندما توفي عن عمر وصل اثنين وخمسين ومائة عام ، ترك وراءه قوانين نفذها أتباعه . وعلى حسب رواية الإليجا محمد لم يعش مستر يعقوب طويلاً ليرى الشيطان الذي أتى به ولكنه رآه في مخيلته فقط .

على حسب هذه الرواية تطلب التخلص من كل أسود بهذه الطريقة مرور مائتي عام ولم يعد هنالك سوى السمر . مرت مائتا عام أخرى ليخلق جنس آخر أحمر من الجنس الأسمر الذي إختفى كلية وبعد مائتي عام أخرى ظهر الجنس الأصفر في مكان الأحمر . أخيراً وبعد قرنين آخرين ظهر الجنس الأبيض . لم يبق على جزيرة باتموس إلا أناس شقر ، بشرتهم شاحبة اللون ، شياطين عيونها زرقاء باردة . كانوا عراة متوحشين عديمي الحياء ...، أجسادهم مكسوة بالشعر مثل الحيوانات ، يمشون على أربع ويسكنون الأشجار .

مرت ستمائة عام أخرى قبل أن يعود هذا الجنس الجديد إلى البر ويعيش بين

الجنس الأسود . يلقن مستر الإيْجا محمد أتباعه هذا الكلام ويخبرهم أنه بعد ستة أشهر من وجود الجنس الأبيض بين الجنس الأسود ، سار ذلك الجنس بالمكر والخديعة ليفرق بين السود وجعلهم يحاربون بعضهم البعض مما قلب الجنة التي كانت على الأرض إلى جحيم تمزقها الحروب والفتن . ولكن في النهاية اكتشف القوم السود أن مصدر مشاكلهم إنما هو الجنس الأبيض الشيطاني الذي أتى به مستر يعقوب . جمع السود كل البيض وقيدوهم بالسلاسل ووضعوا على كل منهم خرقة بيضاء صغيرة لستر عوراتهم ثم قادوا الجنس الأبيض الشرير عابرين صحراء الجزيرة إلى مجاهل وكهوف أوروبا . وجلد الغنم وحبل القياد الذي يستعمله الماسونيون اليوم ما هما إلا رموز تشير إلى كيف سترت عورة الرجل الأبيض وهو يقاد عبر تلك الصحراء ذات الرمل الحارقة .

يدعي مستر الإيْجا محمد أيضاً أن الجنس الأبيض كان متوحشاً في كهوف أوروبا وأن الحيوانات الأخرى هاجمته فكان يقفز على الأشجار خارج جحره كما أنه صنع الهروات لحماية أطفاله من الحيوانات الوحشية التي كانت تحاول غزو كهوفه . وبعد ألفي عام بُعث إليهم موسى رسولاً لإنقاذهم وتهذيبهم ولإخراجهم من الكهوف وكُتب على البشر أن يحكمهم الجنس الأبيض الشرير لستة آلاف عام . فقدان كتاب موسى هو السبب أننا لا نعرف اليوم أنهم كانوا في كهوف .

طبقا لرواية إلايْجا محمد أن أول من قبل تعاليم موسى من هؤلاء الأشرار وأول من أخرجهم موسى من الكهوف كانوا من نسميهم اليوم باليهود . ويفسر قول الإنجيل «موسى رفع الأفعى من البرية » بأن الأفعى ترمز إلى الجنس الأبيض الشرير الذي رفعه موسى من كهوف أوروبا وعلمه وثقفه . تقول الرواية أيضاً أنه بعد أن يحكم الجنس الأبيض العالم لمدة ستة آلاف عام تنتهي بزماننا هذا ، سيخرج من بين الجنس الأسود الأصلي شخص ذو حكمة ومعرفة وقوة بدون حدود . كذلك قدر لبعض سلالة الجنس الأسود أن تقاد مسترقة إلى أمريكا الشمالية لتعرف حقيقة الرجل الأبيض عن قرب في هذا الزمان .

يدعي إلايْجا محمد أن أقوى وأعظم إله ظهر على وجه البسيطة هو ماسترو.ر. فارد الذي حضر من الشرق للغرب وظهر في أمريكا الشمالية في نفس الوقت الذي تقول فيه النبوءة إنه سيظهر وفي نفس الوقت الذي بدأت فيه الأجناس غير البيضاء تنهض وبدأت فيه حضارة الرجل الأبيض الشرير التي حُكم عليها بالفناء ، تأكل نفسها . هذا الشخص ، ماسترو.د. فارد ، كان نصف أبيض ونصف أسود حتى يتقبله السود في أمريكا ويمشون خلفه ولكي يمشي بين البيض بدون أن يكتشفوه ويستطيع بذلك أن يتفهم ويزيد معرفته بأعداء الجنس الأسود .

في عام ١٩٣١ تقمص ماسترو. د فارد شخصية بائع حرير وقابل الإلْيجا محمد في مدينة ديترويت وأعطاه رسالة الله وأوامره المقدسة بأن ينقذ أمة الإسلام المفقودة أو ما يسمى بالزنوج التي وجدت هنا في « قفر أمريكا الشمالية».

عندما أكملت أختي هلدا قصة « تاريخ يعقوب » هذه ، لا أدري هل استطعت أن أفتح فاهي لأودعها أم لا .

عرفت بعد ذلك بزمن أن مثل هذه الروايات التي كان يلفقها الإلْيجا محمد أثارت عليه غضب مسلمي الشرق وعندما ذهبت إلى مكة قلت لهم أن اللوم يقع عليهم لأنهم لم يقوموا بما فيه الكفاية حتى يعرف الناس ما هو الإسلام الحق . ترك صمتهم فراغاً لكل دجال ليدخل ويقود الناس إلى الظلمات .



■ الباب الحادي عشر

الخـــلاص

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



أخيراً كتبت خطاباً لإلايْجا محمد الذي كان يقيم في ٦١١٦ جنوب شارع ميشجان بشيكاجو في ذلك الوقت. كتبت ذلك الخطاب ذا الصفحة الواحدة خمساً وعشرين مرة على الأقل في محاولة لجعله مقروءاً ومفهوماً. كان خطي قبيحاً لدرجة أنني شخصيًّا كنت أجد صعوبة في قراءته الشيء الذي يخجلني تذكره اليوم. أما معرفتي بقواعد اللغة وتهجية الكلمات فقد كانت أسوأ من خطي. المهم أنني وعلى قدر ما سمحت به مقدرتي في التعبير ذكرت له في ذلك الخطاب أن إخواني وأخواتي حدثوني عنه كما اعتذرت عن رداءة الخط واللغة في الخطاب.

وصلني رد مطبوع بالآلة الكاتبة من مستر محمد وكان لذلك أثر سحري عليَّ خاصة عندما رأيت التوقيع «مبعوث الله.» رحب بي في عالم الحق والمعرفة وأضاف شيئاً جعلني أفكر في معناه. قال ما معناه أن السجين الأسود رمز لجريمة المجتمع الأبيض التي ترمي إلى قهر الرجل الأسود وحرمانه بحيث يبقى جاهلاً وعاطلاً ثم يتحول إلى مجرم. أوصاني بالصبر والشجاعة ووضع ضمن خطابه مبلغ خمس دولارات وذلك شيء يفعله مستر محمد مع نزلاء السجون الذين يكتبون إليه في جميع أنحاء البلاد وربما حتى اليوم.

كان أفراد أسرتي يكتبون إليَّ بانتظام ويحثونني أن: «أتجه إلى الله .... صل واجعل الشرق قبلتك».

كانت الصلاة أصعب اختيار بالنسبة إليَّ . قبول أفكار الإيْجا وتعاليمه لم يكن شيئاً صعباً وكل ما عليَّ كان أن أقول : « ذلك حق » أو « لم يخطر لي ذلك من قبل » ... أما الركوع وثني الركبتين في الصلاة فقد كانا تمريناً شاقاً اقتضى مني إتقانه أسبوعاً كاملاً أنا الذي كنت في السابق لا أنحني إلا لألتقط عتلة أو أفتح قفلاً للسطو على بيت ما . كنت أُجبر نفسي على الركوع ثم يزدحم رأسي بالخجل والحياء فأعود واقفاً . أن يركع الشيطان ويقر بذنبه ويطلب الرحمة من الله ، ذلك من أصعب الأشياء . الآن أتحدث عن هذا الموضوع بسهولة ولكنه كان صعباً عليَّ أنا الذي كنت الشر مجسداً . حاولت مرة وأخرى أن أجبر نفسي على القيام بوضع المصلي لله وعندما نجحت أخيراً في ذلك لم أجد ما أقوله لله .

في السنوات التالية أصبحت مثل الناسك في سجن نوفوك . وفي حياتي لم أجد نفسي ووقتي مشغولين بمثل تلك الدرجة وما زلت أتعجب للسرعة التي بدأت حياتي وطريقة تفكيري السابقتان تفقدان سلطانهما على مثل فص من الملح قد ذاب وكأنما ذلك المجرم والمحتال شخص آخر سواي . كنت أندهش حينما أجد نفسي أحياناً أفكر في ذلك المحتال كشخص ليست له صلة بي .

أصبحت أجد صعوبة في التعبير عن شعوري في الخطاب اليومي الذي أرسله لإلايْجا محمد بالإضافة إلى خطاب آخر كنت أكتبه يوميًا لأحد إخواني أو أخواتي . وفي كل خطاب يصلني منهم كنت أحيط بشيء من تعاليم الإيْجا محمد كما كنت أقضي الساعات أدرس صورته الفوتوغرافية . أنا بطبعي شخص عملي وإذا اقتنعت بشيء أشعر بأن عليَّ أن أفعل شيئًا لتحقيقه ولأنه لم يكن بإمكاني أن أفعل الكثير وأنا في السجن ، فقد بدأت حملة خطابات بعثتها إلى كل الزعران الذين عرفتهم في عالم الإجرام مثل سامي القواد ، جون هيوز صاحب محل القمار في بوسطن ، « أقفز بثبات » وعدد من باعة المخدرات . كتبت إليهم عن الله والإسلام وعن مستر محمد وبما أنني لم أكن أعلم بمكان سكنهم فقد كتبت عناوين الحانات التي عرفتهم فيها في هارلم وروكسبري .

لم يصلني رد على أي من خطاباتي فالمحتالون والزعران عادة أجهل من أن يكتبوا خطاباً . عندما ترى بعضهم – دهاة وأنيقي الهندام – ستظن أنهم من رجال المال في وول ستريت ومع ذلك تجدهم يبحثون عمن يقرأ لهم إذا وصلهم أي خطاب . بالإضافة إلى ذلك أنا بنفسي ما كنت سأرد على خطاب يتحدث عن أشياء مثل « الرجل الأبيض الشيطان» إذا كنت في موقفهم . وأنا متأكد أن رد فعلهم لخطاباتي كان هو أنهم ظنوا أن بي مسا من الجنون أو أنني أقوم بتمثيلية ما حتى يعتقوني من السجن .

في سنواتي في سجن نوفوك لم يسألني ولم يعلق أي من المسئولين على خطاباتي رغم أنها طبعاً كانت تمر على الرقابة . ومع ذلك أنا متأكد أنهم كانوا يراقبونها

ويكتبون ذلك في الملفات التي يحتفظون بها عن الزنوج الذين يغيرون دينهم بسبب تعاليم مستر الإيْجا محمد. لكنني في قرارة نفسي كنت أعتقد أن السبب الحقيقي هو أن الرجل الأبيض كان يعلم أنه الشيطان . بعد ذلك بمدة كتبت خطابات إلى عمدة بوسطن وحاكم ولاية ماساتشوستس وحتى الى هاري س. ترومان . طبعاً لم يردوا عليَّ وأشك في أنهم رأوا خطاباتي . خربشت لهم شيئاً عن مسئولية المجتمع الأبيض عن وضع الرجل الأسود في تيه أمريكا الشمالية .

قادتني كتابة هذه الخطابات إلى التفكير في اكتساب تعليم « من منازلهم». صرت أشعر بإحباط متزايد لعدم مقدرتي على التعبير في خطاباتي عما ما أشعر به خاصة تلك التي أكتبها لمستر الإيْجا محمد . في الشارع كنت أفصح أزعر أجذب الانتباه حتى إذا لم أقل شيئاً ، أما الآن وأنا أحاول كتابة لغة بسيطة ، لم أفقد فصاحتي وحسب بل أنني فشلت حتى في توصيل المعنى . كيف أبدو وأنا أكتب باللغة العامية وكأنني أقول شيئاً مثل « شوف يا زول ، خليني أحكيلك عن قط يدعى الإيْجا محمد » .

عندما يسمعني الناس اليوم وأنا أتحدث أمامهم أو في التلفاز أو عندما يقرأون حديثاً قلته ، سيظنون أنني درست في الجامعة بينما كل ذلك كان حصيلة دراستي في السجن . بدأت تلك الدراسة في سجن شارلستاون عندما جعلني حديث بمبي أغير من حصيلته من المعرفة . كان بمبي يسيطر على الحديث وكنت أحاول تقليده ولكن أي كتاب التقطه أجده يحتوي على عدة جمل تكتظ بالكلمات غير المفهومة وكأنها باللغة الصينية . كنت أتجاوز هذه الكلمات ولكني أجد في النهاية أنني لم أفهم إلا القليل مما يقوله الكاتب . عندما حضرت إلى سجن نوفوك كنت ما زلت وكأني أتصنع القراءة وحتى هذه المحاولة كنت حتماً سأتركها بعد مدة وجيزة لولا الإصرار والدوافع التي لدي .

قررت أخيراً أن خير ما أفعله هو أن أتحصل على قاموس وأدرسه لأتعلم بعض الكلمات الجديدة . كذلك رأيت أن عليَّ أن أحاول وأحسن من مقدرتي الكتابية . إنه لأمر محزن أنني لم أكن أستطيع حتى الكتابة في سطر معتدل . هاتان الفكرتان دفعتاني لأطلب قاموساً وبعض الدفاتر والأقلام من مدرسة السجن . عند استلامي القاموس قضيت يومين وأنا أقلب صفحاته في حيرة . لم أكن أظن أن هنالك كلمات بهذه الكثرة ولم أدر أي من هذه الكلمات ينبغي عليَّ معرفتها . أخيراً قررت أن أفعل شيئاً ما وبدأت في نقل الكلمات ومعانيها.

بدأت ببطء وبخط معوج ، بصبر وأناة نقلت على الدفتر كل كلمة في الصفحة الأولى من القاموس بما فيها علامات الترقيم . قضيت يوماً كاملاً في ذلك . بعد ذلك وبصوت عال قرأت كل كلمة كتبتها ثم أعدت قراءة كتابتي لنفسي أكثر من مرة .

وفي صباح اليوم التالي صحوت وأنا أفكر في هذه الكلمات وكلي فخر بنفسي

ليس لأنني كتبت كل هذه الكلمات فحسب بل لأنني كتبت كلمات لم أكن أعلم حتى بوجودها من قبل . بالإضافة إلى ذلك وبمجهود بسيط استطعت تذكر معنى كثير من تلك الكلمات كما أنني راجعت معنى الكلمات التي لم أتذكر معناها . من الغريب أن كلمة (خنزير الأرض أبو ذقن) في أول صفحة من القاموس ، تقفز إلى ذهني الآن ومعها صورته . حيوان ذو ذنب طويل ، له أذنان طويلتان يحفر حفرة في الأرض ، يعيش على النمل الأبيض الذي يصطاده بإخراج لسانه مثله مثل الحيوانات آكلة النمل الأخرى .

سحرني ما فعلت فواصلت ونقلت الصفحة الثانية وعاودني نفس الشعور السابق وأنا أدرسها . مع كل صفحة أنقلها كنت أتعلم أشياء عن الناس والأماكن والحوادث التاريخية. في حقيقة الأمر القاموس ليس إلا موسوعة مصغرة . وأخيراً أكملت الفصل الخاص بحرف الألف وبدأت حرف الباء . استمررت في ذلك العمل حتى نقلت القاموس بأكمله وقد ازدادت سرعتي في الكتابة بفضل تلك الممارسة . وما بين ما كتبته في الدفاتر والخطابات التي كتبتها فيما تبقى لي من مدة حبسي ، لابد أنني قد كتبت مليوناً من الكلمات .

كان من المحتم بعد ذلك أن تزداد قاعدتي الكلمية وأصبحت أجد أن بإمكاني أن التقط كتاباً وأفهم ما يود الكاتب أن يقول . والذين يقرأون كثيراً بإمكانهم تخيل العوالم التي انفتحت أمامي ، ودعني أقول لك شيئاً هو أنني منذ ذلك الوقت لم أدع لحظة فراغ تفوتني بدون أن أقرأ شيئاً كنت أقرأ في المكتبة وأقرأ في سريري ولا يستطيع أحد أن يجعلني أرفع رأسي من كتاب حتى لو كان يحمل أسفيناً . مرت الشهور وأنا لا أشعر بالوقت في السجن فقد ملأت على خطاباتي وتعاليم مستر محمد وقراءاتي وزيارات إخوتي الوقت . في حقيقة الأمر لم أشعر في حياتي بالحرية مثلما كنت أشعر تلك الأيام .

كانت مكتبة السجن في مبنى مدرسة السجن التي يقوم فيها أساتذة من جامعات هارفارد وبوسطن بتدريس مواد مختلفة . في نفس المبنى أيضاً كانت تقام مناظرة أدبية بين النزلاء مرة في الأسبوع وستدهش حينما تعلم كيف كان النقاش يحتدم بين النزلاء المتناظرين والمستمعين فوق موضوعات مثل : « هل يجب إطعام اللبن للرضع؟ » .

في المكتبة كانت توجد على الرفوف كتب عن أي موضوع مع أن مجموعة باركهيرست التي أوصى بها للمكتبة كان معظمها مازال في صناديق في مؤخرة المكتبة ، آلاف من الكتب القديمة والبعض من الكتب العتيقة وقد تغير لونها ، مجلدة بما يشبه ورق البرشمان النفيس ويبدو أنه كان لباركهيرست اهتمام بالتاريخ والدين كما يظهر في كتبه . كانت عنده الأموال والرغبة فجمع مكتبة بها كتب نادرة تفخر أية جامعة بامتلاكها . وكما قد تتوقع من تركيز إدارة

سجن نوفوك على الإصلاح ، كان أي سجين يظهر اهتماماً بالقراءة يلقى معاملة حسنة وتشجيعاً من سلطات السجن . لذلك كنت تجد في ذلك السجن عدداً كبيراً من النزلاء المطلعين خاصة الذين يشتركون في المناظرات إلى درجة أنه قيل عن بعضهم أنه موسوعة تمشي على رجلين وكان يُحتفى بهم في السجن . عندما تفتح هذا العالم أمامي ، عالم القراءة والاستيعاب ، قرأت في الأدب عدداً لا يحصى من الكتب أكثر مما يقرأه طالب في دراسته الجامعية . وعندما انتقلت إلى القراءات الجادة كان أكثر ما يضايقني هو إطفاء النور في العاشرة من مساء كل يوم والذي دائماً يجدني وأنا في منتصف موضوع مثير . من حسن الحظ أن هنالك ضوءاً في الممر خارج غرفتي ينعكس في الغرفة وكان كافياً لأن أستطيع القراءة به بعد أن تعودت عيناي عليه . لذلك كنت أجلس على الأرض بالقرب من الباب عندما تطفأ الأنوار .

كان حرس السجن يمرون من أمام الغرف كل ساعة وكنت عندما أسمع صوت أقدامهم أقفز إلى سريري وأتصنع النوم وبمجرد أن يفوت الحرس أترك السرير وأنزل لأجلس على الأرض وأواصل القراءة تحت الضوء المنعكس من الخارج لمدة ثمان وخمسين دقيقة أخرى قبل أن يظهر الحارس مرة ثانية . كنت استمر كذلك حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً ثم أنام ثلاث أو أربع ساعات هي كل ما أحتاج من النوم . لقد نمت ساعات أقل وأنا في شوارع هارلم وروكسبري فلماذا لا أسهر مع الكتب الآن .

تؤكد تعاليم مستر محمد على حقيقة أنه تم تبييض التاريخ ، وأن الرجل الأبيض عندما كتب التاريخ أزال اسم الرجل الأسود عمداً . كان ذلك من أكثر كتابات مستر محمد التي هزتني . لم أنس عندما كنت أنا والطلبة البيض ندرس تاريخ الولايات المتحدة ونحن في الصف السابع في مدرسة ميسون ، لم أنس كيف أن تاريخ الزنوج غطى في فقرة واحدة وكيف أن المدرس أضحك الطلاب بحديثه عن أقدام الزنوج الكبيرة التي لا تترك أثراً على الأرض حينما يمشون بل حفراً . ذلكم هو سبب انتشار تعاليم مستر محمد في الولايات المتحدة بين كل الزنوج سواء أصاروا من أتباعه أم لا ، لأنها صدى حقيقيًا عند كل زنجي . لن تجد زنجياً بالغاً في أمريكا أو حتى أبيض يعرف حقيقة دور الرجل الأسود في التاريخ . من جانبي ، ما إن سمعت جملة « تاريخ الرجل الأسود المجيد » إلا وصرت أنقب في المكتبة عن كل كتاب إشباعاً لنهمي لمعرفة تاريخ الرجل الأسود .

ما زلت أذكر أول مجموعة من الكتب بهرتني وقد اشتريت تلك المجموعة فيما بعد ومازلت احتفظ بها في البيت حتى اليوم ليقرأها أطفالي وهم يكبرون . إنها سلسلة كتب تسمى « **عجائب الدنيا** » ملأى بالصور عن الآثار التاريخية والتماثيل التي تصور عادة أناساً غير أوروبيين . وجدت كتباً مثل **قصة الحضارة** من تأليف ويل دورنت وقرأت كتاب هـ.ج. ولز **موجز التاريخ** وأعطاني كتاب و. ب. دو بوا **روح الشعب الأسود**

لمحة عن تاريخ السود قبل مجيئهم إلى أمريكا . كذلك فتح كتاب كارتر ودسون تاريخ الزنوج عيني على وجود إمبراطوريات سوداء قبل إحضار زنوج كأرقاء إلى الولايات المتحدة وعن نضال الزنوج من أجل الحرية في السابق .

قرأت أيضاً كتاب ج. أ. روجرز **الجنس والعنصر** ذا الثلاث مجلدات الذي يتحدث عن التناسل بين الأجناس منذ عهد المسيح وعن كون أيوب رجلاً أسود كان يروي القصص الخرافية وعن فراعنة مصر ، عن الإمبراطوريات القبطية المسيحية ، عن أثيوبيا أقدم حضارة سوداء حية وعن الصين أقدم حضارة حية على الإطلاق .

قادتني تعاليم مستر محمد عن كيفية خلق الرجل الأبيض إلى قراءة كتاب جريجور مندل **اكتشافات في الجينات** (تعلمت عن الجينات تحت حرف الجيم في القاموس) . درست كتاب هذا القس النمساوي بعناية أكثر من مرة خاصة بعض أجزائه التي ساعدتني على فهم قوانين الوراثة وكيف أنك إذا بدأت بشخص أسود يمكنك أن تصل إلى شخص أبيض إلا أنه من المستحيل إيجاد رجل أسود من أبيض – لأن الكروموسونات البيضاء انحسارية – وبما أن الجميع متفقون أن الإنسان الأول كان فرداً واحداً فمعنى ذلك واضح .

في العام الماضي كتب أرنولد توينبي ، المؤرخ البريطاني الشهير في صحيفة **نيويورك تايمز** واستعمل كلمة تبييض في وصفه للرجل الأبيض وكانت كلماته بالضبط كالآتي : « الإنسان الأبيض (أي المبيض) ذو الأصل الأوروبي الشمالي .....» أشار توينبي أيضاً إلى قارة أوروبا كشبه جزيرة آسيوية قائلاً أنه ليس هنالك شيء اسمه أوروبا من وجهة النظر الجغرافية وأنك إذا نظرت إلى خريطة العالم سترى أن أمريكا ما هي إلا امتداد لآسيا . (في نفس الوقت نقول أن توينبي من الذين ساعدوا على تبييض التاريخ إذ قال إن أفريقيا هي القارة الوحيدة التي لم تصنع تاريخاً . لن يستطيع توينبي كتابة ذلك بعد الآن لأن الحقائق قد اتضحت .

لن أنسى ما حييت الصدمة التي حدثت لي عندما بدأت أقرأ عن فظائع الرق الكاملة . تركت قصص تلك الفظائع انطباعاً شديداً في نفسي لدرجة أنها كانت من مواضيعي المفضلة حينما أصبحت من دعاة مستر محمد . أبشع جريمة في تاريخ العالم ، صورة الجرم والدم يملآن أيد الرجل الأبيض ، شيء لا يصدق! فتحت عيني كتب مثل كتاب فردريك أولمستد على الفظائع التي قاسى منها العبيد عندما وطأت أقدامهم الولايات المتحدة . كذلك وصفت المرأة البيضاء ، فاني كمبال ، التي تزوجت من مالك للعبيد ، كيف ينحط الإنسان . وبالطبع قرأت **كوخ العم توم** وهي الرواية الوحيدة التي قرأتها منذ أن بدأت القراءة الجادة .

شملت مجموعة باركهيرست أيضاً منشورات مجلدة من كتابات جمعية محاربة الرق في نيو إنجلاند . قرأت وصف الشنائع ورأيت صور النساء السود المسترقات مقيدات

والسياط تهوي على ظهورهن ، أمهات سوداوات ينظرن إلى أطفالهن وهم ينزعون منهن حيث لن يرونهم بعد ذلك ، صور كلاب تتعقب العبيد ، وصور متعقبي العبيد الهاربين — بيض أشرار يحملون السياط والهراوات والسلاسل والبنادق . قرأت عن الواعظ المسترَق نات تيرنر ، الذي أدخل الخوف من الله في قلوب البيض ملاك الرقيق . تيرنر لم يكن واعظاً من النوع الذي يعد الزنوج بالجنة أو يدعوهم إلى إدارة الخد الأيسر واللاعنف لتحرير أنفسهم ولكن إلى حمل السلاح — هنالك في ولاية فرجينيا في أحد ليال عام ١٨٣١ بدأ نات تيرنر مع سبعة عبيد آخرين بدخول منزل سيده أولا ثم انتقلوا بعد ذلك من بيت إلى بيت في تلك القصور وعندما انتهى الليل كانوا قد قتلوا ٥٧ من البيض وبلغ عدد أتباع تيرنر من الزنوج سبعين شخصاً . فر البيض من بيوتهم خوفاً على حياتهم ، أغلقوا الأماكن العامة عليهم أو هربوا إلى الغابات بل إن بعضهم ترك ولاية فرجينيا كلية ومضى شهران قبل أن يتمكن جيش صغير من الجنود من القبض على نات تيرنر وإعدامه . في مكان آخر قرأت عن كيف أوحت أعمال نات تيرنر لجون براون بعد ثلاثين عاماً من ذلك أن يغزو ولاية فرجينيا ويهاجم الباخرة فيري ومعه ثلاثة عشر رجلاً أبيض وخمسة زنوج .

قرأت كتابات هيرودوتس « أبي التاريخ » أو قرأت عنه على الأصح كما قرأت تاريخ الأمم الأخرى ففتح ذلك عيني تدريجياً في البداية ثم أكثر وأكثر على حقيقة أن الرجل الأبيض في كل مكان يذهب إليه كان يسلك سلوك الشيطان ، ينهب ويغتصب ، يدمي ويمتص دماء كل من لم يكن أبيض . قرأت كتباً مثل كتاب ويل دورانت عن تاريخ الحضارة الشرقية الذي روى فيه كفاح المهاتما غاندي لطرد البريطانيين من الهند .

الكتب التي قرأتها ، كتاب من وراء كتاب ، أوضحت لي كيف أن الرجل الأبيض جلب على سود وسمر وحمر وصفر هذا العالم كل أنواع العذاب والاستغلال. رأيت كيف أنه ومنذ القرن السادس عشر، كان التاجر المسيحي يجوب البحار طمعاً في ممتلكات الإمبراطوريات الآسيوية والأفريقية لنهبها والسيطرة عليها . قرأت كيف أن الرجل الأبيض وهو يدعو إلى المسيح بين غير البيض ، لم يدع إليه كما ينبغي وكما تقول المسيحية ، بالتواضع والموعظة الحسنة .

صرت أنظر إلى الرجل الأبيض جماعيًّا وأراهم كمجموعة ليسوا إلا قراصنة وانتهازيين استعملوا طرقاً شيطانية أصبحت المسيحية بموجبها مجرد ستار لغزواته الإجرامية. كان الرجل الأبيض يبدأ بأن يقول عن أصحاب تلك الحضارات القديمة غير البيضاء أنهم وثنيون أو ملاحدة وبذلك يجد لنفسه مبرراً ليهاجمهم بالسلاح . وكما درست من تلك الكتب كان يعيش في الهند نصف بليون شخص لهم دينهم وحضارتهم فدخل عليهم البريطاني الأبيض واستعمل الوعود والخديعة والسيطرة حتى أنه بقدوم عام ١٧٥٩ كان معظم الهند يحكم بواسطة شركة شرق الهند

البريطانية . بدأت بعد ذلك الإدارة البريطانية الطفيلية تنتشر كالإخطبوط حتى غطت نصف شبه القارة الهندية . وفي عام ١٨٥٧ تمرد بعض الهنود على البريطانيين – وباستثناء تجارة الرقيق في أفريقيا – لم يسجل التاريخ مجزرة بشرية لا داعي لها مثل تلك التي أنزلها البريطانيون على الهنود إثر ذلك .

أما تجارة الرقيق من أفريقيا إلى أمريكا فقد قُدر أن مائة وثلاث عشرة مليون نفس ، أي ما يعادل سكان الولايات المتحدة في عام ١٩٣٠ ، قد هلكوا أو استرقوا في تلك التجارة . وعندما ابتدأ سوق الرقيق يزدحم اجتمعت القوى الأوروبية – آكلة لحوم البشر – واختط كل منهم لنفسه قطعة من القارة الأفريقية بل من أغنى مناطقها كمستعمرة له ولمدة قرن بعد ذلك كانت القوى الأوروبية تتقاسم وتتبادل أراضي أفريقيا من القاهرة حتى رأس الرجاء .

غرقت في الكتب لدرجة أن كل حراس السجن لم يكونوا ليستطيعوا أن ينتزعوني منها. وحتى كتابات الإيْجا محمد لم تكن لتعبر عما يريد وتقدم البراهين مثلما عبرت وبرهنت هذه الكتب كيف أن الرجل الأبيض كان شيطانياً في علاقاته مع غير البيض . وعندما أسمع في المذياع هذه الأيام أو أقرأ في الصحف عن خوف الرجل الأبيض الجماعي وقلقه من الصين وعن استغراب الرجل الأبيض لكراهية الصينيين له ، يقفز ذهني إلى ما قرأت في السجن عن كيف أن أجداده البيض اغتصبوا الصين عندما وثقت بهم الصين الضعيفة وكيف أن التجار المسيحيين بعثوا بملايين الأرطال من الأفيون إلى الصين إلى درجة أن تحول ملايين الصينيين إلى مدمنين بنهاية عام ١٨٣٩ مما دعا حكومة الصين إلى القيام بإعدام ٢٠ ألف صندوق من الأفيون . أدى ذلك إلى إعلان أول حرب أفيون في التاريخ . تخيل إعلان حرب على أمة رفضت قبولها للمخدرات – انهزم الصينيون هزيمة نكراء مع أنهم أول من اخترع البارود .

فرضت اتفاقية نانكنج على الصين أن تدفع للرجل الأبيض تعويضاً عن الأفيون الذي أعدمته وأن تفتح موانئها الرئيسية أمام التجارة البريطانية واستقطعت منها هونج كونج كما أزيلت أو خفضت الضرائب الجمركية الصينية لتغمر البضائع البريطانية أسواق الصين وبذلك وئدت الصناعة الصينية في مهدها .

بعد حرب الأفيون الثانية أصبحت تجارة الأفيون تجارة شرعية بمقتضى اتفاقيات تينتسن التي أيضاً أعطت شرعية للتحكم البريطاني – الفرنسي – الأمريكي في جمارك الصين وحينما حاولت الصين تأخير التصديق على تلك الاتفاقيات هوجمت بكين واستبيحت . كان شعار حرب الصين هو « أقتلوا الشيطان الأجنبي الأبيض » في انتفاضة البوكسرز عام ١٩٠١ وعندما انهزم الصينيون تم طردهم من أجمل مناطق بكين . أخذها الأبيض القاسي المتعجرف ثم وضع تلك اللافتة المشهورة : «ممنوع دخول الصينيين والكلاب ».

بعد الحرب العالمية الثانية أغلقت الصين حدودها في وجه العالم الغربي الأبيض وقامت بحملات ومجهودات كبيرة في مجال العلم والصناعة والزراعة كما وصفت ذلك مجلة لايف الأمريكية في عدد حديث. وقد أفاد بعض المعلقين الذين زاروا الصين حديثاً، أن العالم لم ير حملة كراهية ضد البيض مثل تلك التي تعم أرجاء البلد غير الأبيض الذي سيبلغ عدد سكانه في خمسين سنة نصف سكان العالم إذا استمر معدل تزايد السكان الحالي. كذلك يبدو أن الصين ستنتقم لنفسها مع نجاح تجاربها الذرية.

دعنا نواجه الحقيقة. أننا نرى اليوم في الأمم المتحدة نظاماً عالميًّا جديداً يولد ونرى العالم وقد بدأ ينقسم لونياً والدول غير البيضاء تدخل في تحالف مع بعضها. رأينا مندوب أمريكا في الأمم المتحدة قبل زمن قليل يشتكي من أن هنالك « لعبة جلد » بدأت تلعب في الأمم المتحدة وهو على حق فقد بدأ يواجه الحقيقة. نعم هنالك « لعبة جلد » ولكن ستفنسون في دعوته تلك إنما يذكرني بالكاوبوي المشهور جيسي جيمس وهو يتهم عمدة البلدة بحمل السلاح. لأنه ليس في العالم من لعب لعبة الجلد هذه كما لعبها الرجل الأبيض.

لم يكن مستر محمد، الذي كنت أكتب له يوميًّا، يعلم شيئاً عن العالم الذي تفتح أمامي وأنا أحاول إثبات صحة تعاليمه من خلال ما في الكتب.

عندما اكتشفت الفلسفة حاولت أن ألم بأهم التطورات الفلسفية. بدأت بقدامى الفلاسفة الغربيين والشرقيين، ووجدت نفسي أميل إلى الفلاسفة الشرقيين. ثم اكتشفت أن الفلسفة الغربية مستقاة من فلسفة الشرق. سقراط تجول في مصر وتقول بعض المصادر أنه قد كُشفت له هنالك أسرار العلوم الفرعونية وليس هنالك شك في أنه اكتسب بعض الحكمة من حكماء مصر القديمة.

كثيراً ما أفكر في الآفاق التي فتحتها أمامي دنيا المطالعة في السجن وكان واضحاً لي أنها غيرت مجرى حياتي للأبد. المقدرة على القراءة أهاجت فيني ولعاً دفيناً لأن أحيا ذهنيًّا. لم أكن أجري خلف شهادة مثل التي تمنحها الجامعات لطلابها الباحثين عن المركز الاجتماعي، ولكنها دراسة « من منازلهم » ومع كل كتاب جديد قرأته كنت أشعر أكثر بمدى الجهل وعمى البصيرة والبكم الذي يعيش فيه الرجل الأسود في أمريكا. وقبل مدة اتصل بي هاتفياً كاتب إنجليزي ليسألني « من أي جامعة تخرجت ؟ » أجبته بأنها جامعة « الكتب» واليوم لن تجدني في لحظة فراغ حتى ولو كانت خمس عشرة دقيقة إلا وأنا أطالع شيئاً ما عله يفيدني في معركة تحرير الرجل الأسود.

بالأمس تكلمت أمام مجموعة في لندن وفي الطريق ذهاباً وإياباً عابراً الأطلنطي، كنت أدرس وثيقة عن مشروع للأمم المتحدة لضمان الحقوق الإنسانية للأقليات المضطهدة في العالم. والرجل الأسود في أمريكا مثال مخجل لاضطهاد الأقليات لكن

الشيء الذي يجعل السود في أمريكا يعتقدون أن مشكلتهم هي مسألة داخلية بحتة تخص الولايات المتحدة فقط ، هو كلمتان اثنتان هما « الحقوق المدنية.» كيف للرجل الأسود أن يتحصل على حقوقه المدنية قبل أن يتحصل على حقوقه الإنسانية ؟ إذا بدأ الرجل الأسود يفكر في كيفية تحقيق حقوقه الإنسانية أولاً وأنه جزء من أعظم البشر في التاريخ ، فسيرى أن وضعه يجب أن يعرض على الأمم المتحدة .

ليست هنالك حالة أكثر استحقاقاً للعرض على الأمم المتحدة من حالة الرجل الأسود. أربعمائة عام من الدم والعرق بذلت في إعمار أمريكا ومع ذلك يتسول الرجل الأسود طالباً ما يلقاه كل مهاجر أبيض جديد بمجرد دخوله أمريكا .

دعنا نعود إلى سؤال الكاتب الإنجليزي الذي أخبرته أنني تخرجت من الكتب ومن مجموعة طيبة منها . كل مرة عندما أركب طائرة أحمل كتاباً وددت قراءته سلفاً ولم يسعفني الزمن قبل ذلك وفي هذه الأيام هنالك كتب كثيرة أود قراءتها . ولولا ما تأخذه ظروف النضال من وقتي ، لقضيت كل ما بقى لي من العمر في القراءة إذ لا يوجد شيء في العالم لا أود أن أعرف عنه شيئاً ولا أظن أن هنالك شخصاً استفاد من السجن مثلي . والحق يقال لقد مكنني السجن من أن أتعمق في دراستي أكثر مما كان سيتاح لي حتى لو كنت درست دراسة عادية في الجامعة وعلى العكس من السجن ، توجد في الجامعة كثير من الأشياء التي تلهي الشاب عن الدراسة مثل الجمعيات والحفلات والرحلات عدا النشاطات غير الجادة . هل هناك مكان آخر كنت سأستطيع فيه أن أدرس لمدة خمس عشر ساعة كل يوم وأمحو بذلك جهلي ؟ لا أظن .

من الطبيعي أنني قرأت شوبنهاور ونيتشه وأنا لا أذكر هذه الأسماء إعجاباً ولكني فقط أحاول هنا أن أتذكر أسماء بعض أصحاب النظريات التي هضمت . ينسب إلى هؤلاء وضع الأساس الفلسفي للفاشية والنازية . لم أعجب بهم ، لأنني وجدت أنهم قضوا جل وقتهم يتجادلون حول أشياء غير ذات أهمية ويذكرني هؤلاء بكثير من مثقفي الزنوج اليوم الذين قابلتهم فهم أبداً يتجادلون حول أشياء لا طائل من وارئها .

أعجبت بالفيلسوف سباينوزا لمدة عندما عرفت أنه أسود . يهودي أسباني أسود . تبرأ منه اليهود لأنه نادى بوحدة الوجود كالقول بأن « الله هو الكل » « والكل هو الله » صلى اليهود عليه صلاة الجنازة قبل مماته باعتبار أنه ميت بالنسبة لهم وأخرجت أسرته من أسبانيا ومنها أقاموا في هولندا فيما أظن .

سأقول لك أن الفلسفة الغربية في مأزق وأن الرجل الأبيض أدخل نفسه كما أدخل الرجل الأسود في كذبة كبيرة واليوم يجد نفسه في طريق مسدود . أملت ذلك على الرجل الأبيض بالضرورة خطته التي وضعها لتعتيم التاريخ ودور الرجل الأسود فيه . واليوم يواجه الرجل الأبيض ما يحدث في القارة الأفريقية السوداء وجهاً لوجه . أنظر إلى الآثار التاريخية التي تكتشف هنالك يوماً بعد يوم والتي تبرهن المرة بعد الأخرى كيف كانت

للرجل الأسود حضارات رائعة وعظيمة وإنسانية قبل أن يخرج الرجل الأبيض من الكهوف . في جنوب الصحراء ، في الأماكن والبلاد التي اختطف منها معظم زنوج أمريكا الحاليين ، يزال التراب كل يوم عن مهارات يدوية وتماثيل وأشياء من أبدع ما رأى الإنسان وبعض هذه الآثار تشاهد اليوم في متحف مدينة نيويورك للفن الحديث . مصنوعات ذهبية شديدة الاحتمال والجمال لا ينافسها في ذلك شيء . أدوات قديمة صنعتها أيد سوداء .... شذبتها تلك الأيدي السوداء حتى غدت بدون منافس اليوم .

لقد تم تبييض التاريخ لدرجة أن أساتذة الجامعات السود لا يعرفون عن عبقرية وثقافة وحضارات الجنس الأسود في الزمن الغابر أكثر مما يعرفه أي أسود . لقد حاضرت في بعض جامعات الزنوج وكنت أفاجأ بأن أجد بعض حملة الدكتوراه ودرجاتهم العلمية تجرجرها حمالات سراويلهم ، يجرون إلى صحف الرجل الأبيض ليصفونني « بالمتطرف الأسود» إنهم يعيشون خلف الأحداث خمسين عاماً . لو كنت مدير إحدى هذه الجامعات لرهنت مباني الجامعة حتى أتمكن من إرسال بعض هؤلاء الطلاب للقيام بحفريات أثرية في أفريقيا لإخراج المزيد والمزيد من البراهين على عظمة تاريخ الرجل الأسود . ذلك ما يفعله الرجل الأبيض الآن واليوم إذا ما تعثر فيل في مجاهل أفريقيا سيصطدم بعالم آثار أبيض وهو يحفر بمجرفه . ولا يمر أسبوع إلا ونسمع عن اكتشاف جديد عن حضارات أفريقيا المنسية . كل ما تغير هو موقف الرجل الأبيض لأن تلك الحضارات كانت مدفونة في القارة السوداء منذ زمن غابر .

على سبيل المثال هنالك عالم أنثروبولوجيا بريطاني يدعى د. لويس س. ب. ليكي يعرض حالياً بعض العظام المتحجرة – قدم ، جزء من يد ، حنك وقطع من الجمجمة. وعلى أساسها يدعو د. ليكي إلى إعادة كتابة تاريخ أصل الإنسان كلية – تلك العظام لإنسان عاش ١٫٨١٨٫٠٣٦ عاماً قبل ميلاد المسيح وقد وجدت في تنجانيقا في القارة السوداء .

إنها لجريمة أن تنطلي هذه الكذبة على أجيال من البيض والسود وأن يترعرع الأطفال السود الأبرياء وآباؤهم يعتقدون أن عنصرهم ليس له مكان في التاريخ . أطفال سود صغار يرون آباء يظنون أن جنسهم منحط وذلك قبل أن يتعلم أولئك الأطفال المشي . أطفال سود أبرياء يعيشون حياتهم من المهد إلى اللحد وخلال كل ذلك يخجلون من كونهم سوداً – ولكن الحق قد بدأ ينجلي أخيراً .

هنالك تجربتان أثرتا على تفكيري وحياتي كثيراً بعد أن فتحت عيناي في السجن . أولاهما هي أول تجربة لي في تبصير إخوتي السود مغسولي الدماغ بحقيقة جنسهم والأخرى هي دخولي في المناظرات الأدبية الأسبوعية التي كانت بمثابة تدشين لي في دنيا المحاضرات العامة .

أود أن أعترف هنا بحقيقة أخجل منها . كنت في السابق أميل إلى الرجل الأبيض

لدرجة أني كنت أكره التفاف الزنوج حول بعضهم في السجن . ولكن بعد أن غيرت تعاليم مستر محمد نظرتي نحو إخوتي السود صرت لا أدع فرصة تفوتني لأجندهم للانضمام لمستر محمد . غير أن كشف الحقيقة لرجل لم يسمع أبداً عن حقيقة نفسه وأصله وحقيقة الرجل الأبيض كان شيئاً يتطلب الحذر واللباقة وقد أخبرني أخي ريجنالد أن كل المسلمين يتعرضون إلى مثل تلك الصدمة قبل تجنيدهم – لقد غسلت أدمغتهم لدرجة أن إجلاء الحقيقة قد ينفرهم في البداية ولذا نصحني ريجنالد أن أتدرج في ذلك وأن أنتظر فترة حتى يستوعب الواحد منهم ما قدم له قبل أن تنتقل إلى خطوة أخرى .

بدأت الحديث مع إخوتي من الزملاء السود عن تاريخ الرجل الأسود وعن أشياء لم يسمعوا بها أبداً من قبل . أخبرتهم عن حقيقة وبشاعة تجارة الرقيق أشياء لم يسمعوا بها من قبل . كنت أراقب وجوههم وأنا أخبرهم كيف أن الرجل الأبيض قد مسح من عقولهم أية معرفة لهم بتاريخهم لدرجة أن الواحد منهم لا يعرف لقبه الحقيقي أو اسم القبيلة التي أتى منها : الماندنيجا ، الولوف ، السرر ، الفولاني ، الفانتي ، الأشانتي ، والأخريات . كنت أقول لهم أن بعض الرقيق الذين أحضروا إلى أمريكا كانوا مسلمين ويتحدثون العربية . كثير من المساجين لن يصدقوا مثل ذلك القول إلا إذا جاءهم من رجل أبيض ولذا كنت كثيراً ما أقرأ لهم مقتطفات عن ذلك من كتابات رجل أبيض . كنت أقول لهم أن بعض الرجال البيض ، خاصة العلماء منهم ، يعرفون الحقيقة ولكن لأن هنالك مؤامرة تاريخية ، لا تكشف تلك الحقيقة للعامة .

كنت أراقب ردة فعلهم وكان عليّ أن أكون حذراً لأن أحد هؤلاء الزنوج مغسولي الدماغ المنافقين قد يذهب ويوشي بي عند الرجل الأبيض . وعندما يبدو لي أن أحدهم كان جاهزاً أقوده بعيداً عن الآخرين وألقي عليه برسالة الإيْجا محمد : الرجل الأبيض هو الشيطان.

كان ذلك يصدمهم إلى أن يبدأوا في التفكير في معناها .

قد يكون هذا أحد الأشياء التي تقلق سلطات السجون الأمريكية اليوم – الطريقة التي أصبحت بها تعاليم المسلمين السود تنتشر في البلاد ويتحول بها كثير من السجناء السود إلى تعاليم مستر محمد خاصة إذا علمنا أن نسبة السود بين السجناء أكبر كثيراً من نسبتهم بين السكان . ويعود انتشار هذه الدعوة بينهم إلى كون السجناء السود أكثر تهيئاً لقبول مقولة أن الرجل الأبيض هو الشيطان .

قل ذلك اليوم لأي زنجي ما عدا من يسمُون بالمثقفين المهووسين « بالاندماج » أو لأي من الرجال السود الذين هم بخلاف ذلك سمان ,راضون، صم ، بكم ، عمي يلتقطون الفتات التي يرمي بها لهم الرجل الأبيض من مائدته ، وستجد أنك أصبت وتراً حساساً في الرجل الأسود . قد يستغرق يوماً قبل أن يستجيب لك أو شهراً أو سنة حتى وقد لا يستجيب ظاهريًا ولكني أؤكد لك أنه عندما يفكر في حياته

شخصياً سيرى كيف ومتى وأين مثل معه الرجل الأبيض دور الشيطان .

كما قلت ، السجين الزنجي أول من يستجيب – رجل أسود وضعه الرجل الأبيض خلف القضبان لسنين عديدة والسجين الأسود عادة يأتي من طبقات الزنوج الدنيا الذين عوملوا طوال حياتهم وكأنهم أطفال ، زنوج لم يقابلوا أبيض إلا وأخذ منهم أو فعل لهم شيئاً . دع هذا السجين يفكر كما حدث لي أول ما سمعت تعاليم الإلايْجا محمد ، دعه يفكر الآن في طموحه حينما كان صغيراً وأحلام دراسة الطب والمحاماة والعلوم . دعه يفكر فسيعرف كما حدث لي كيف أن ملايين الزنوج كانوا وما زالوا منذ وصول أول سفينة رقيق إلى اليوم كالشياه في وكر الذئاب . ذلكم هو السبب أن المساجين السود انضموا أفواجاً حينما بلغتهم تعاليم الإلايْجا محمد وهم خلف القضبان بواسطة زملائهم السجناء الآخرين . « الرجل الأبيض هو الشيطان » ، ذلكم صدى تجربة عمر عند السجناء السود .

رويت لكم أن المناظرة الأدبية كانت حدثاً أسبوعياً في السجن وبينما عقلي يكاد ينفجر من ضغط المعلومات من قراءاتي ، كان عليَّ أن أجد طريقة أقول بها للرجل الأبيض حقيقة شعوري نحوه في وجهه ورأيت أن بإمكاني أن أفعل ذلك بتسجيل اسمي كمناظر .

لم يخطر ببالي أبداً في سابق حياتي أن أتكلم أمام الجمهور . عندما كنت في الشوارع ألهث وأسرق وأبيع المخدرات وحتى عندما كان يسيطر عليَّ الحشيش كنت أحلم بأشياء مختلفة ولكنني لم أحلم أبداً بأنني سأتكلم في الاستادات والقاعات ، في أعظم الجامعات الأمريكية ، في المذياع والتلفاز ، هذا عدا التحدث في مصر وأفريقيا وإنجلترا . ولكني أقول لكم أن تجربة المناظرة والتحدث أمام جمهور في السجن كانت تجربة مبهجة ومنعشة لي مثل اكتشافي المعرفة من خلال القراءة . الوجوه متراصة أمامي والأفكار تتزاحم في رأسي والكلمات تخرج من فمي بينما عقلي يعمل ويبحث عن جملتي التالية وهل سأكسبهم إلى جانبي بالطريقة المطلوبة والعرق يتصبب من رجلي وأنا أواصل النقاش . كنت أدرس الموضوع من جانبيه وأقرأ كل ما تقع عليه عيناي عن ذلك الموضوع ثم أضع نفسي في وضع مناظري من الجانب الآخر وأقرر ما هي الإستراتيجية التي سأتبعها لو كنت في مكانه ثم أحضر ردودي لدحر نقاطه . وإذا ما وجدت أي صلة مهما كانت بعيدة ، سأشير إلى شيطانية الرجل الأبيض.

« التجنيد الإجباري – نعم أم لا ؟ » ذلك كان عنوان النقاش الذي أتيح لي أن أشترك فيه مرة فيما أذكر وكانت فرصة مفاجئة لي . أثار مناظري ضجة بقوله : إن رمي الأثيوبيين الطائرات الإيطالية بالصخور والحراب دليل على ضرورة التجنيد الإجباري الطبيعية . رددت عليه بأن القنابل التي باركها البابا في روما رشت الدم

الأثيوبي على الأشجار وأن الأثيوبيين لو استطاعوا لرموا بأجسادهم العارية على هذه الطائرات لأنهم رأوا أنهم إنما يحاربون الشيطان مجسداً .

هتفوا « مخالفة !» واتهموني بأني أحول الموضوع إلى نزاع عنصري. قلت : إنني لا أتحدث عن العنصرية وإنما عن الحقائق التاريخية وأن عليهم أن يقرأوا كتاب بيير فإن باسن **أيام من أعمارنا** . لم أندهش عندما اكتشفت أن ذلك الكتاب اختفى من المكتبة بعد تلك المناظرة .

عاهدت نفسي وأنا في السجن أن أقضي بقية عمري أقول للرجل الأبيض حقيقته أمام عينيه ، أو أموت دون ذلك . وفي مناظرة عن هومر : أعاش حقيقة أم أنه مجرد وهم ؟ رميت أمام الوجوه البيضاء النظرية التي تقول إن هومر مجرد رمز لسرقة أوروبا للأفريقيين السود ثم حجبها لأبصارهم حتى لا يستطيعوا العودة لأهلهم . (هومر وعمر ومور أسماء ذات صلة ببعضها مثل بيتر وبدرو وبيترا وثلاثتها تعني الصخر.) علم الأوروبيون هؤلاء الموريين (الاسم الأول لسكان أفريقيا) العمي أن يتغنوا بإنجازات الأوروبيين المجيدة . أوضحت لهم أن تلك هي فكرة الرجل الأبيض عن التسلية . وخرافات إيسوب المشهورة ليست إلا مثالاً آخراً لأن إيسوب هو الاسم الإغريقي للأثيوبي .

أذكر نقاشاً حاداً آخر اشتركت فيه وكان عن شكسبير ولم يكن ذا صلة بالعنصرية .. ولكنني فقط أثارتني المعضلة الشكسبيرية . تعتبر ترجمة الملك جيمس للإنجيل أعظم عمل في الأدب الإنجليزي ويفترض أن لغتها أسمى لغة في الإنجليزية «الملكية.» حسناً ، لغة شكسبير ولغة الإنجيل إذن وجهان لعملة واحدة ويقال أن الملك جيمس فيما بين عام ١٦٠٤ و١٦١١ جعل الشعراء يترجمون الإنجيل ويكتبونه . إذن إذا كان شكسبير موجوداً حقاً فسيكون حتماً على رأس قائمة أولئك الشعراء ولكن لا تذكر لشكسبير صلة بالإنجيل . السؤال هو إذا كان شكسبير موجوداً فعلاً فلماذا لم يستخدمه الملك في الترجمة ؟ وإذا كان قد استخدمه كيف يعقل أن يبقى ذلك سراً حتى اليوم؟

أعلم أن كثيرين يقولون أن فرنسيس بيكون هو شكسبير وإذا كان ذلك حقاً فلماذا يخفيه بيكون ؟ لم يكن بيكون من الأسرة المالكة حتى يستعمل اسماً مستعاراً حينما كانت الأسر المالكة تترفع من الكتابة الفنية والمسرحية . ولم يكن بيكون ليخسر شيئاً من إعلان اسمه وعلى العكس كان سيجني فائدة كبيرة .

كنت أجادل بأن الملك جيمس هو نفسه الشاعر الحقيقي الذي استعمل الاسم المستعار: شكسبير . الملك جيمس كان متقد الذكاء وأعظم من جلس على عرش بريطانيا ولم يكن بين أفراد الأسرة المالكة في زمنه من له العبقرية التي تجعله يكتب روايات شكسبير . إنه هو نفس الشاعر الذي كتب الإنجيل وهي نفسها النسخة التي حكمت العالم .

عندما كان ريجنالد يزورني في السجن ، كنت أتحدث إليه عن البراهين الجديدة التي جمعتها لإثبات تعاليم المسلمين . كنت قد قرأت في المجلد رقم ٤٣ أو رقم ٤٤ من مجلدات هارفارد الأدبية رواية **الجنة المفقودة** التي كتبها ملتون والتي يحكي فيها عن الشيطان الذي يحاول العودة إلى الجنة بعد طرده منها . كان الشيطان يغرر بالقوى الأوروبية في شخص البابا وشارلمان ورتشارد قلب الأسد وفرسان آخرين . فسرت لهم ذلك بأن أوروبا يحركها ويقودها الشيطان في شخص إنسان وأن ما يقوله ملتون هو نفس ما يقوله الإليجا محمد .

فاجأني ريجنالد عندما بدأ يتحدث بسوء عن الإليجا محمد . لا أذكر كلماته بالضبط ولكنها كانت اتهامات إيحائية ضد الإليجا محمد ظهرت في نبرة ونظرات ريجنالد أكثر من كلماته .

لم أكن مستعداً لذلك ووجدت نفسي مشوش الفكر. أخي ، شقيقي وموضع ثقتي، أخي الذي أحترمه وأجله والذي أدخلني في أمة الإسلام يقول ذلك ؟ لم أصدق ما سمعت ! لقد أصبح الإسلام يعني كل شيء بالنسبة لي . الإسلام والإليجا محمد بدلا حياتي .

علق الإليجا محمد ، كما علمت ، عضوية ريجنالد في أمة الإسلام لأنه لم يتحكم في شهواته . بعد أن انجلى له الحق وقبل الحكم والأحكام الإسلامية ، كانت ما زالت له علاقة غير شريفة مع سكرتيرة معبد نيويورك . أوشى به بعض المسلمين الذين نمى ذلك إلى علمهم عند الإليجا محمد في شيكاجو فكان أن علق عضوية ريجنالد . تركني ريجنالد أتعذب وأبكي له وفي نفس تلك الليلة كتبت خطاباً لإليجا محمد أدافع فيه عن أخي واستحلفه أن يعيده إلى الشمل. أخبرته عن ما يعنيه ريجنالد بالنسبة لي وقرابته لي . وضعت الخطاب في الصندوق ليقرأه المراقب وظللت أصلي وأدعو الله طوال الليل ولا أظن أن أحداً أخلص في دعائه لله مثلي في تلك الليلة لكي يخلصني من التشويش الذي ألم بي .

في الليلة التالية وأنا جالس على سريري رأيت أمامي فجأة شخصاً يجلس قبالتي على المقعد وهو يرتدي حلة سوداء فيما أذكر . رأيته بوضوح كما أرى أي شخص . لم يكن أسود ولم يكن أبيض . كان لون بشرته أسمر فاتحاً ذا سحنة أسيوية وشعره أسود داهناً .

نظرت في وجهه مباشرة .

لم يتملكني خوف وكنت أعي أن الأمر لم يكن حلماً . بقيت ساكناً ولم أتكلم وكذلك لم يتفوه ذلك الشخص بكلمة . لم أميز جنسيته ولكنه لم يكن أوروبياً ولم أدر من هو . جلس هنالك بعض الوقت ثم اختفى فجأة مثلما جاء .

وصلني خطاب من مستر محمد عن موضوع ريجنالد يرد فيه على خطابي قال فيه :

«إذا كنت آمنت بالحق ثم تأتي وترتاب فيه كما تفعل الآن فإنك لم تؤمن حقًا في المقام الأول . ما الذي يجعلك ترتاب في الحق غير نفسك الضعيفة ؟ »

صدمني ذلك فريجنالد لم يكن يحيا حياة المسلم المنضبط . كان الإليْجا محمد على حق وكان شقيقي على خطأ لأن الصواب صواب والباطل باطل . لم أكن أعرف وقتها أن سيأتي يوم يتهم فيه أبناء الإليْجا محمد أباهم باقتراف نفس الآثام التي أدان بها ريجنالد وكثيرين آخرين – لكن في ذلك الوقت أزال خطاب محمد كل شكوكي وأنهى كل نفوذ وتأثير لأخي عليّ وصرت منذ ذلك اليوم أرى كل ما يفعله ريجنالد خطأ غير أن ريجنالد استمر يزورني وقد تغير حاله . عندما كان مسلماً كان أنيقاً ونظيف الملبس ولكنه أصبح الآن يأتي بالقمصان الداخلية والبنطال القذر وأحذية القماش . كنت أرى أنه في طريقه للنهاية وعندما يتحدث أستمع إليه ببرود لكنني أنصت إليه فهو ما زال شقيقي .

بدأت لعنة الله تحل على ريجنالد تدريجيًا وقد قال الإليْجا محمد : إن اللعنة ستحل بكل من يرفض أن يطيع أوامره . علمنا مستر محمد أن الإنسان يعيش في الظلام إلى أن يكتشف الإسلام وينجلي الحق أمامه وحينها سيعيش في النور عندما يؤمن ومن يرجع عن إيمانه بعد ذلك سيعاقبه الله . علمنا مستر محمد أن النجم الخماسي هو رمز العدل ورمز الحواس الإنسانية الخمس وأن الله يحقق العدل من خلال التأثير على هذه الحواس ضد من يثور على رسوله أو على الحق . بتلك الطريقة يعلم المسلمون مقدرة الله للدفاع عن رسوله ضد كل الأعداء طالما أن ذلك الرسول لم يحد عن الحق . كما علّمنا أن الله يشوش عقول المرتدين وظننت أن ذلك ما يتعرض له أخي .

وصلني خطاب من أخي فليرت يخبرني فيه أن ريجنالد في ديترويت . لم أسمع عن ريجنالد بعد ذلك إلى أن زارتني إللا ذات يوم وبعد أسابيع من ذلك وأخبرتني أن ريجنالد نائم في منزلها بروكسبري – قالت إنها سمعت خبطاً على الباب ذات مرة وعندما قامت وفتحته وجدت أن الطارق هو ريجنالد ومظهره يدعو للرثاء فسألته من أين أتى فقال أنه أتى من ديترويت وعندما سألته كيف وصل إلى ديترويت أخبرها أنه أتى ماشياً على رجليه

صدقت إنه أتى ماشياً لأني آمنت بالإليْجا محمد وأن غضب الله قد حل بريجنالد وذهب بعقله ومقدرته على تقدير الزمن والمسافة . إن هنالك بعداً للزمن لا نفهمه نحن في الغرب وقد قال الإليْجا أن غضب الله إذا وقع يمكن أن يذهب بالحواس الخمس ويمكن أن يقلب الشعر أبيض في دقائق كما يمكن للإنسان أن يمشي لتسعمائة ميل ويظن أنها مائة خطوة . وكانت قد أصبحت لي لحية في السجن إلا أن ريجنالد حينما زارني كان يتحرك بعصبية ثم قال لي أن كل شعرة من لحيتي كانت أفعى . كان يرى الأفاعي في كل مكان . بعد ذلك أصبح ريجنالد يعتقد أنه إله ، يمشي في الشوارع ويقول للناس أن به روحاً قدسية كما عرفت من إللا ،

وتدرج في جنونه حتى أصبح يظن أنه الله .

قبضت السلطات على ريجنالد وأودعوه مصحة عقلية . لم يتبينوا ما به لأنهم لا يفهمون غضب الله . بعد مدة أطلقوه ثم أخذوه مرة أخرى ووضعوه في مصحة أخرى . واليوم يكاد ريجنالد أن يكون مؤسسة بحالها إلا أني لن أكشف لكم ذلك حتى لا أسبب له متاعب أكثر مما تحمل . وأنا اليوم أؤمن أن ذلك كان قدراً مكتوبا وأن ريجنالد كان مطية وطعماً للوصول إلى الأعماق حيث كنت ولإنقاذي منها .

لم يكن هنالك من تفسير للأمر سوى ذلك في ذلك الوقت .

بعد ذلك بسنوات وحينما أصبح إلايْجا محمد نفسه موضع اتهام بجرائم أخلاقية ظهر لي أن ذلك لم يكن غضب الله قد حل بريجنالد ولكنه الألم النفسي الذي حل به عندما نبذه أهله مفضلين عليه إلايْجا محمد مما جعله ينقلب على إلايْجا ومعتقداته بجنون .

من المستحيل أن ترى شخصاً ما وتحلم به وأن تراه في الرؤيا بينما أنت لم تشاهده أصلاً ولكنك تراه كما هو . أن ترى شخصاً في رؤيا بمثل ما هو حقيقة ، تلك رؤيا مسبقة . في المستقبل صرت أؤمن بأن الشخص الذي رأيته في الرؤيا إنما كان ماسترو و. د. فارد ، النبي الخضر ، من قال إلايْجا أنه بعثه كآخر رسول للشعب الأسود في أمريكا الشمالية .

تم نقلي في آخر سنواتي في السجن مرة أخرى إلى سجن مدينة شارلستاون ويبدو أن بعض السجناء السود مغسولي الدماغ قد وشى بي وأنا متأكد أن رقابة السجن رفعت تقريراً عن مكاتباتي الشيء الذي أزعج مسئولي سجن مقاطعة نوفوك والسبب الذي قدموه لنقلي هو أني رفضت أخذ بعض الحقن لنوع من التطعيم الصحي . الشيء الوحيد الذي أقلقني كان اقتراب موعد النظر في إطلاق سراحي المشروط . غير أنني قدرت أنهم سينظرون إلى الأمر من وجهة نظر أخرى أي أنهم وبسبب نشري للإسلام سيفضلون إبعادي من السجن .

دخلت السجن في شارلستاون ونظري مائة على مائة ولكني الآن أعود إليه وقد أصبت بعلة اللابؤرية في النظر وأرتدي أول نظارات طبية لي وذلك بسبب قراءاتي الكثيرة في الضوء الخافت . لم أجد في شارلستاون نفس حرية الحركة والدعوة التي كنت أجدها في نوفوك ولكنني انضممت إلى مجموعة لدراسة الإنجيل عندما وجدت أن كثيراً من الزنوج ينخرطون فيها . كان يدير مجموعة الدراسة أحد طلبة علم اللاهوت من جامعة هارفارد وكان شاباً أشقر طويلاً ذا عيون زرقاء (أي مثال للشيطان) ولا أدري من منا تعمق في قراءة الإنجيل أكثر من الآخر ، أنا أم هو ؟ ولكن والحق يقال ، فقد كان يفيض حماساً لدينه . فكرت كثيراً في طريقة أهاجم بها حديثه علمياً حتى أجعل أولئك الزنوج يصدمون في تفكيرهم وربما

يهتدون . أخيراً وعندما كان يتكلم عن بولص الرسول أثناء أحد الدروس رفعت يدي طالباً الحديث فأعطاني الفرصة .

وقفت على قدمي وسألت : « أي لون كانت بشرة بولص ؟ » استمررت في الكلام مع وقفات قصيرة : « لابد أنه كان أسود .... لأنه كان يهودياً .... واليهود الأوائل كانوا ملونين .... أليس ذلك صحيحاً ؟ »

بدأ وجهه يحمر مثلما يحدث لكثير من البيض ثم قال : « نعم ».

لم أقف عند ذلك بل واصلت . « أي لون كان يسوع المسيح ؟ لقد كان يهودياً أيضاً .... أليس كذلك ؟ » .

تجمد السجناء في مقاعدهم ، السود منهم والبيض . ومهما كان السجين شديداً في مراسه فهو ليس على استعداد لأن يسمع أن المسيح لم يكن أبيض البشرة ولا يختلف في ذلك الشعور الزنجي مغسول الدماغ عن « الشيطان » المسيحي الأبيض . بدأ المحاضر يتمشى في أنحاء الغرفة . لم يكن هنالك ما يدعو للاستياء . بعد ذلك التاريخ وطوال سنوات حياتي الباقية لم أقابل شخصاً أبيض له شيء من الذكاء يصر على أن المسيح كان أبيض البشرة . أجاب المحاضر : « المسيح كان أسمر ».

قبلت ذلك الحل الوسط .

وكما توقعت لم تمض أربع وعشرون ساعة إلا وكانت القصة مضغة في أفواه النزلاء، بيضاً وسوداً . كنت أشعر بهم يشيرون إليّ عندما يرونني . وعند أول فرصة أجدها لتبادل بعض الكلمات مع سجين أسود كنت أقول له : « يا صاح ، هل سمعت عن شخص يدعى الإليْجا محمد ؟ » .



■ الباب الثاني عشر

المنقــذ

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



في ربيع عام ١٩٥٢ كتبت مبتهجاً لإلايْجا محمد ولأهلي لأن لجنة إطلاق السراح بالضمان قررت إطلاق سراحي . استغرق تنفيذ ذلك عدة شهور بسبب الإجراءات الروتينية والبيروقراطية قبل أن يطلقوا سراحي ويضعوني تحت وصاية أخي الأكبر في ديترويت ، ولفرد ، الذي كان يدير متجراً للأثاث هنالك . استطاع ولفرد أن يجد صاحب متجر يهودي يوقع تعهداً بتخديمي بمجرد إطلاق سراحي .

بالنسبة لشورتي علمت عن طريق الإشاعات أنه أيضاً مرشح لإطلاق سراحه بالضمان إلا أنه كان يجد صعوبة في العثور على شخص ذي سمعة حسنة يتعهد بتخديمه . (بعد ذلك بزمن عرفت أن شورتي درس التأليف الموسيقي في السجن وبرع في ذلك المجال حتى أنه ألف بعض القطع الموسيقية وأذكر أنه أسمى واحدة منها « كونشيرتو الباستيل ») .

اختياري لمدينة ديترويت بدلاً من بوسطن أو هارلم كان بسبب وجاهة بعض الأسباب التي كتب لي أهلي بها . هلدا خاصة كتبت لي أنني ما زلت بحاجة لدراسة تعاليم الايْجا محمد أكثر حتى وإن كنت أظن أنني استوعبتها بما فيها الكفاية . لذلك يستحسن أن أحضر إلى ديترويت لأنضم إلى المعبد التي تدرس فيه تلك التعاليم .

كان ذلك في أغسطس حينما أعطوني محاضرة وبذلة رخيصة وقليلاً من النقود ثم خرجت من البوابة الكبيرة . لم أنظر خلفي مطلقاً إلا أن ذلك لا يميزني عن كثير من

ملايين الزنوج الذين تركوا السجون . أول محطة وقفت فيها بعد ذلك كانت حماماً تركياً حيث تخلصت جسدياً من قذارات السجن . بقيت ليلة واحدة في منزل إللا وقد أيدت اختياري لديترويت قائلة أن رجال الشرطة هنالك لا يعلمون الكثير عني ولذا فلن يضايقونني . تلك كانت اعتبارات إللا وليست اعتبارات المسلمين السود الذين لم تعد إللا تهتم بهم . حاول كل من هيلدا وريجنالد إقناع إللا أن تعود للإسلام ولكنها بإرادتها القوية لم تستمع إليهم . أخبرتني أنه من حق أي إنسان أن يكون من السبتيين أو الزاحفين المقدسين أو ما شاء إلا أنها لن تظل مسلمة .

في صباح اليوم التالي أعطتني هلدا بعض النقود فذهبت إلى السوق واشتريت ثلاثة أشياء أذكرها جيداً الآن . اشتريت نظارة طبية أحسن منظراً من التي أعطوني إياها في السجن وحقيبة ملابس وساعة يد . وكثيراً ما فكرت بعد ذلك أنني بشرائي هذه الأشياء كنت ، بدون أن أدري ، أهيئ نفسي لنوع الحياة التي سأعيشها مستقبلاً فهذه الأشياء الثلاثة هي أكثر اشياء ستلازمني في حياتي بعد ذلك . النظارات كانت لعلاج اللابؤرية التي اكتسبتها من كثرة المطالعة في السجن . وأنا الآن أسافر بكثرة لدرجة أن زوجتي دائماً تعد لي حقيبتين جاهزتين لأخطف أحديهما وأسافر عند الضرورة إلى أي مكان كما أنك لن تجد شخصاً يهتم بالوقت حالياً أكثر مني فأنا أعيش بالساعة حتى لا يفوتني ميعاد . حتى وأنا أقود سيارتي تجدني أنظر إلى الساعة أكثر من عداد السرعة . أصبح الزمان أكثر أهمية عندي من المسافة.

ركبت الحافلة إلى ديترويت ومن هناك ذهبت إلى المتجر الذي يديره أخي في قلب الجيتو الأسود في ديترويت . لن أخبركم بعنوانه لأني سأحدثكم عن الطريقة التي بها يتم خداع الزنوج . قدمني ولفرد إلى اليهودي الذي يملك المحل وتم توظيفي كبائع في المتجر على حسب الاتفاق .

كان المحل يضع إعلاناً يقول فيه أن المحل يبيع بالأقساط وبدون مقدم الشيء الذي جذب الزنوج إلى المحل بالعشرات . إنها لطريقة مخجلة بمقتضاها يدفع الزنوج الثمن ثلاثة وأربعة أضعاف حتى يستطيعوا الشراء بالأقساط من ذلك اليهودي ، بينما الأثاث المعروض هو نفس الأثاث في الجيتو الأسود . كان القماش مدبساً على الأرائك مع مفارش مصنوعة من جلد النمر المقلد وسجاد جلد الفهد الصناعي . كنت أرى تلك الأيدي الصلبة الخشنة المرتبكة وهي تخربش موقعة موافقة على عقود مكتوبة بخط دقيق تصعب قراءته وبفوائد ربوية ليست إلا نهباً مقنناً .

كنت أشاهد على الطبيعة نفس السالفة التي ذكرتها مجلة جت في طرفة عن حملة السناتور باري جولدوتر أثناء حملته الانتخابية للرئاسة الأمريكية عام ١٩٦٤.

تقول القصة أنه طُلب إلى رجل أبيض وزنجي ويهودي أن يختار كل منهم أمنية لتتحقق. طلب الأبيض سندات مالية وطلب الزنجي كثيراً من المال بينما طلب اليهودي مجوهرات مزيفة وعناوين بعض الزنوج.

مع كل حياتي وسنواتي في الشوارع كانت تلك أول مرة أشاهد فيها كيف يكون الاستغلال وأتفهمه . رأيت إخوتي السود يرمون بأنفسهم تحت قبضة الرجل الأبيض الاقتصادية الذي يذهب إلى بيته كل مساء وهو يحمل حقيبة ملأى بالنقود التي امتصها من الجيتو . رأيت أموال الرجل الأسود التي يفترض فيها أن تعينه ، يخرج بها الرجل الأبيض من الجيتو ويزداد بها ثراءً بينما يسكن في منطقة محرم على الزنوج دخولها إلا إذا كانوا يعملون في أحد المنازل هنالك .

دعاني ولفرد لأسكن معه في بيته فقبلت مسروراً وكانت العاطفة الدافئة في المنزل بمثابة تعويض لي عن وحدة قضبان السجن وذلك شيء يهز وجدان أي مسجون أطلق حديثاً . جعلني جو هذا المنزل المسلم أركع ساجداً وشاكراً لله . ومع أن خطابات أهلي كانت قد وصفت لي جو البيت المسلم إلا أن على الإنسان أن يعيشه ليقدره حق قدره . شرح لي ولفرد بهدوء وصبر كل فعل وأهميته في روتين البيت . في الصباح لا تجد فيه الجلبة التي تجدها في معظم البيوت . كان ولفرد الأب ، حامي الأسرة وعائلها ، أول من يستيقظ من النوم « فالأب يهيئ الطريق لأسرته » كما قال ثم ينهض ويتوضأ . بعد ذلك تأتي زوجته روث ثم أطفالها حتى يعم النظام في استعمال الحمام .

« باسم الله أتوضأ » ذلك ما يقوله المسلم قبل أن يغسل يده اليمنى ثم اليسرى. ثم تنظف الأسنان بإتقان تتبع ذلك مضمضة ثلاث مرات . كذلك يغسل الأنف ثلاث مرات . بعد ذلك يغسل باقي الجسم استعداداً للصلاة . وعندما يرى أفراد الأسرة بعضهم في الصباح حتى الأطفال منهم ، يحيي أحدهم الآخر بلطف « السلام عليكم » فيرد عليه الآخر « وعليكم السلام ». كما أن المسلم يردد لنفسه كثيراً «الله أكبر الله أكبر ».

يقوم ولفرد بعد ذلك بفرش السجادة للصلاة بينما البقية يغتسلون ويتوضؤون . شرحوا لي أن العائلة المسلمة تصلي والشمس تقترب من الأفق فإذا فاتهم ذلك عليهم الانتظار حتى تنزل الشمس من الأفق . «إن المسلمين ليسوا عبدة شمس كما أننا نتجه شرقاً في صلاتنا حتى نكون في وحدة مع بقية المسلمين البالغ عددهم ٧٢٥ مليون أخ وأخت في جميع أنحاء العالم».

تقف كل العائلة في أثواب محتشمة متجهة إلى الشرق في صلاتها . في انسجام

خلعنا نعالنا ووقفنا للصلاة .

اليوم أقف مع أفراد أسرتي وأقول باللغة العربية ما كنت أصلاً تعلمته باللغة الإنجليزية : نويت أن أؤدي صلاة الصبح لله تعالى ، الله أكبر . المجد والحمد لك يا رب والنعمة منك جل جلالك . أشهد أن لا معبود سواك ولا طاعة لعداك .

بعد ذلك نتناول طعام الإفطار الذي يتكون من عصير وقهوة بدون طعام صلب ثم نخرج أنا وولفرد إلى العمل وهنالك في منتصف النهار ثم في حوالي الثالثة ظهراً نتوضأ ونتعبد في هدوء بحيث لا يلحظنا أحد. يفعل أطفال المسلمين نفس الشيء في المدرسة كما تترك ربات البيوت المسلمات أعمالهن المنزلية لينضممن إلى مسلمي العالم الـ ٧٢٥ مليون في الاتصال بالله.

دعني أستمر في وصف حياة المسلمين والمجموعة المسلمة في بداية الخمسينات . أيام الأربعاء والجمعة والآحاد هي الأيام التي تلتقي فيها مجموعة المسلمين الصغيرة في المعبد رقم واحد . المعبد أساساً مقدمة متجر توجد بالقرب من سلخانة للخنازير كان صراخها وهي تقاد للذبح يصل مسامعنا في أيام الأربعاء والآحاد . عنوان المعبد رقم واحد كان ١٤٧٠ شارع فردريك فيما أظن ، وهو أول معبد أسسه ماسترو. د. فارد في عام ١٩٣١ في ديترويت ، ميشجان . وفي حياتي لم أر زنوجاً مسيحيين لهم مثل ذلك السلوك الذي رأيته عند الزنوج المسلمين . الرجال يرتدون ملابس محافظة تدلك على ذوق سليم والنساء يلبسن زياً بطول القدم وشالاً على الرأس والوجه بدون مكياج والأطفال الأنيقون مهذبون مع الكبار والصغار على السواء .

لم أحلم أبداً بوجود مثل ذلك الجو بين الزنوج . كانوا سوداً ولكنهم فخورون بسوادهم كما أنهم تعلموا محبة إخوانهم بدلاً من الشك والغيرة منهم وقد أبهجني أن المسلم يستخدم يديه الاثنين ليمسك بيد أخيه عند التحية ويشعره ويسمعه أنه سعيد بلقائه . أما النساء المسلمات ، عازبات ومتزوجات ، فكن يلقين من الاحترام والتبجيل ما لم أر أي رجل أسود يفعله تجاه نسائه من قبل . زاد ذلك من إعجابي بطريقتهم . والتحايا التي كنا نتبادلها كانت دافئة وتنم عن الاحترام والتجلة : « أخ» ... « أخت » ... « سيدة » ... « سيد». حتى الأطفال وهم يتحدثون إلى بعضهم البعض كانوا يستعملون هذه الكلمات . ياللروعة !

كان اسم الإمام في المعبد رقم واحد هو ليمول حسن وكان يحيينا قائلاً : «السلام عليكم » فنرد تحيته « وعليكم السلام ». بعد ذلك يقف منستر ليمول أمامنا وبجانبه سبورة سوداء مصبوغ عليها صور من الجانبين . في أحد الجانبين علم الولايات المتحدة وتحته الكلمات « العبودية ، العذاب ، الموت » ثم كلمة المسيحية وعلامة الصليب وبداخلها زنجي معلق من جذع شجرة . في الجانب الآخر كان

مطبوعاً علم قالوا لنا : إنه راية الإسلام وفيه الهلال مع نجمة على أرضية حمراء ثم الكلمات « الإسلام : حرية ، عدالة ، مساواة » وتحت ذلك جملة « أي هذان سيبقى بعد المعركة الفاصلة بين الخير والشر ؟ ».

حاضر منستر ليمول لأكثر من ساعة عن تعاليم الإليْجا محمد بينما أنا جالس سابح ، ألتهم كل كلمة وكل حرف وكل إشارة من يديه . بين الحين والآخر كان يكتب بالطباشير على السبورة لتوضيح فكرة أو للتركيز على كلمة رئيسية . من جانبي كنت أرى أنه من المخزي ألا تكون كل المقاعد في المعبد مشغولة . قلت لأخي ولفرد أنه ينبغي ألا تكون هنالك مقاعد خالية بينما الشوارع المجاورة تعج بإخواننا وأخواتنا السود مغسولي الدماغ: يشربون الخمر ويسبون ، يتشاجرون ويرقصون ، يسكرون ويتعاطون الأفيون – وهي الأشياء التي علمنا مستر محمد أنها سبب انحطاط الرجل الأسود وبقائه تحت أقدام الرجل الأبيض في أمريكا .

بدا لي أن نظرتهم نحو تجنيد مسلمين جدد كانت انهزامية فهم يفترضون أن ما عليهم إلا الانتظار وأن الله سيأتيهم بمسلمين جدد . من ناحيتي شعرت أن الله يساعدك إذا ساعدت نفسك وأنا أدرى بأولئك الزنوج في الشوارع فقد عشت بينهم ولا فرق بين هارلم وديترويت في ذلك ويمكنني الحديث إليهم . أخبرت أخي بأنني لا أتفق معهم في وجهة نظرهم تلك وأننا يجب أن نخرج إلى الشارع وندعو الناس لينضموا إلينا . الحركة والنشاط كان من طبعي طوال عمري وبدأت أفقد الصبر إلا أن أخي ولفرد طلب مني ألا أستعجل الأمور . لم يصعب الصبر علي لأنني كنت أتوقع بعد قريب سأرى وربما سأتكلم مع الرجل الذي يسمى « الرسول ، الإليْجا محمد » شخصياً .

في هذه الأيام أقابل أحياناً شخصيات ذات شهرة عالمية بما في ذلك رؤساء دول ولكني مطلقاً لم أشعر بتشوق وانتظار لمقابلة شخص ما مثلما شعرت في ذلك الأحد السابق لأجازة عيد العمل من عام ١٩٥٢ . لقد قرر مسلمو معبد ديترويت رقم واحد تسيير قافلة من عشر سيارات للذهاب إلى شيكاجو والاستماع إلى الإليْجا محمد في المعبد رقم اثنين في ذلك اليوم .

لم أشعر بالبهجة والترقب في حياتي مثلما شعرت بهما في ذلك اليوم وأنا داخل عربة أخي ولفرد ونحن في طريقنا لشيكاجو . لقد رأيت وسمعت وشعرت بآلاف الزنوج يلوحون ويصفقون محيين ولكنهم في عصر ذلك الأحد استقبلونا بعاصفة من التصفيق والحرارة أنزلت علي فيضاً من السعادة والابتهاج اقشعر له بدني .

لم أكن مستعداً لما أحدثته رؤية الإيْجا محمد الرسول من أثر على عواطفي. خرج من مؤخرة المعبد نحو المنصة شخص ضئيل هادئ ووديع ذو وجه أسمر، نفس الوجه الذي درست وتفحصت صورته حتى رأيتها في المنام، يتقدم إلى الأمام ويحيط به حرسه من شباب ثمار الإسلام. مقارنة بهم كان المبعوث يبدو نحيفا وهشا كما أنهم كانوا يلبسون نفس اللبس الذي يلبسه، بذلة غامقة اللون، قميصاً أبيض، وبوبيانة. بالإضافة إلى ذلك كان المبعوث يرتدي طربوشاً موشى بالذهب.

حملقت في ذلك الرجل العظيم الذي اقتطع من وقته ليكتب لي خطاباً بينما أنا مجرد سجين لا يعرف عنه شيئاً. إنه الرجل الذي قضى سنوات من عمره في تضحية وعذاب حتى يتمكن من أن يقودنا نحن السود وذلك من شدة محبته لنا. عندما سمعت صوته انحنيت إلى الأمام وشدتني كلماته. أحاول الآن أن أتذكر ما قاله في ذلك اليوم وليس ذلك صعباً لأني سمعته مئات المرات بعد ذلك؟

« إنني لم أتوقف حتى لمدة يوم واحد في الواحد والعشرين سنة الأخيرة. كنت دائماً أقف لأعظكم خلال تلك المدة عندما كنت حراً وحتى وأنا في الأسر. لقد قضيت ثلاث سنوات ونصف في السجن الفدرالي بالإضافة إلى سنة أخرى في سجن البلدة لأني أدعو إلى الحق. لقد حُرمت من أطفالي وزوجي لسبع سنوات طوال كنت أهرب فيها من الأعداء والمنافقين. ألا فاعلموا أن في دعوة الله لكم حياة وأنها سترفع من قدركم لتصبحوا مثل الأمم الأخرى، المتحضرة والمستقلة على ظهر هذه البسيطة ».

تحدث الإيْجا محمد عن كيف أن « الشيطان الأبيض صاحب العيون الزرقاء» قد غسل أمخاخ من يسمون بالزنوج هنا في تيه أمريكا الشمالية ولمدة قرون. أخبرنا أنه بسبب ذلك يعتبر الرجل الأسود في أمريكا ميتاً عقلياً وأخلاقياً وروحياً. تحدث الإيْجا محمد عن كيف أن الرجل الأسود هو الإنسان الأول الذي اختطف من موطنه وحجبت عنه لغته وحضارته وتركيبة أسرته بل حتى اسمه إلى أن أصبح الرجل الأسود لا يعرف من هو. كذلك أرانا كيف أن تعاليمه سترتقي بالرجل الأسود من قاع المجتمع الأبيض وتضعه في مكانه الأصلي، على قمة الحضارة.

في الختام التقط أنفاسه ثم نادى باسمي.

كانت صدمة كهربائية بالنسبة لي وبدون أن ينظر ناحيتي طلب مني الوقوف.

حدثهم بأني خرجت لتوي من السجن كما أخبرهم عن قوة تحملي في السجن وأنني كنت كل يوم «ولسنوات كان الأخ مالكوم يكتب لي من السجن. وقد كنت أرد إليه بقدر ما أستطيع» وقفت وعيون مئتي مسلم تحدق فيَّ وسمعته يشبهني قائلاً: « عندما أثنى الله على أيوب وصبره قال الشيطان أنه لولا حماية الله لما استطاع أيوب صبراً ولما بقي مؤمناً. انزع عنه تلك الحماية وسأجعله يسيء إليك في حضرتك.

« سيقول عنه الشيطان أنه وهو داخل أسوار السجن استغل الإسلام أما الآن فهو قد خرج من السجن وسأعيده للخمر والتبغ والمخدرات وكل أنواع الرذيلة .

«الآن أزيلت عن أخينا مالكوم الحماية من الرذيلة وسنرى ما سيفعل . وإني أرى أنه سيظل مؤمناً » ذلك ما قاله إلايْجا محمد .

وغمرتني رحمة الله في أني ظللت مؤمناً وصامداً وقوياً في الإسلام بالرغم من أن الزمن امتحنني في ذلك أكثر من مرة . وحتى حينما اختلفت مع إلايْجا محمد في تلك المرة ، أخبرته في البداية وبكل إخلاص أنني ما زلت أؤمن به أكثر من إيمانه بنفسه . لقد افترقت عن إلايْجا بسبب الغيرة والحسد لأنني كنت أؤمن به كما لم أؤمن بشخص في هذا العالم قبل ذلك.

ستذكر أيها القارئ أنني ذكرت أن مستر محمد كان يحل ضيفاً على أخي ولفرد في أي وقت يزور فيه المعبد رقم واحد في ديترويت . كان كل مسلم يقول إنه ليس باستطاعة أي منا نحن أتباعه أن نرد جميله ونجازيه . في نفس تلك الليلة دعانا مستر محمد أنا وكل أفراد أسرتي مع مِنِسْتَر ليمول حسن لتناول العشاء معه في منزله بعد الاجتماع . ذكر لنا مستر محمد أن أبناءه وأتباعه أصروا عليه أن ينتقل إلى هذا البيت الأكبر حجماً ذي الثماني عشرة غرفة والذي عنوانه ٤٨٤٧ شارع وود لون في شيكاجو وكانوا قد رحلوا إليه لتوهم في ذلك الأسبوع . عندما وصلنا أرانا مستر محمد أنه كان يدهن الحوائط . ضغطت على نفسي من أن أجري وأحضر له مقعداً وبدلاً من ذلك كان هو يعمل على راحتنا .

كنا نأمل أن نسمع شيئاً من كلامه الحكيم أثناء العشاء ولكنه بدلاً من ذلك ، كان يشجعنا نحن على الكلام . جلست أفكر في كيف أن معبدنا في ديترويت كان سلبياً يرجو من الله أن يأتي بمؤمنين جدد بدون مجهود منا . فوق ذلك ، فكرت في ملايين السود في كل أرجاء أمريكا الذين لم يسمعوا بالتعاليم التي بإمكانها أن تهز وتوقظ وتنقذ الرجل الأسود ... وهنالك على مائدة مستر محمد وجدت الكلمات طريقها إلى لساني . ذلك طبيعي لأنني كنت دائماً صريحاً .

توقف الحديث برهة فاغتنمت الفرصة وسألت مستر محمد عن عدد المسلمين الذين ينبغي أن ينضموا إلى المعبد رقم واحد في ديترويت .

ينبغي أن يكون هناك ألوف .

نعم سيدي . وما هو رأيك في أحسن طريقة لاجتذاب الألوف إلى هناك .

جند الصغار أولاً وسيتبعهم الكبار خجلاً .

في تلك اللحظة حزمت أمري أننا سنتبع تلك النصيحة . وعندما عدنا إلى ديترويت

تحدثت مع أخي ولفرد في ذلك الشأن ثم تقدمت متبرعاً بجهودي لمنستر ليمول حسن ، مسئول المعبد . اتفق معي في إصراري على أن نطبق نصيحة مستر محمد في حملة للتجنيد . بدأت في نفس ذلك اليوم وكنت في كل مساء بعد ذلك أذهب مباشرة عند انتهاء عملي في متجر الأثاث إلى القيام بما كنا نسميه نحن المسلمين السود «بالصيد» كنت ملماً بتفكير ولغة الجيتو فاستغللت معرفتي تلك في الاقتراب من الناس قائلاً مثلاً : « يا صاح ، دعني أنزع الغطاء لأحدثك عن ... ».

كنت طبعاً قدمت للانضمام إلى جماعة الإيْجا محمد وفي غضون ذلك وصلت من شيكاجو الموافقة مع لقبي الجديد ، إكس . كان الحرف اكس يرمز بالنسبة للمسلمين إلى اسم العائلة الحقيقي الذي يجهله الزنوج سلالة القبائل الأفريقية التي اختطفت إلى أمريكا . في حالتي أصبح إكس يقوم مقام اسم لتل الذي كان أصلاً اسم من كان يسترق جدودي . وضع اكس بعد اسمي الأول كان يعني أنني سأعرف بذلك الحرف إلى الأبد إلى أن يعيد الله لي اسماً مقدساً .

بدأت أجند في جيتو ديترويت ، في الحانات وقاعات البلياردو وأطراف الشوارع ووجدت أخوتي الزنوج الفقراء الجهلاء مغسولي الدماغ ، واستجابتهم استجابة صم ، عمي ، بكم عقلياً وروحانياً وخلقياً . ساءني أنهم كانوا نادراً ما يبدون أي نوع من الاهتمام أو الفضول نحو التعاليم التي ستنتشلهم من كل ذلك . كنت أسترجي القلة التي تبدي نوعاً من الاهتمام أن تحضر إلى المعبد رقم واحد فيقبل الدعوة أقل من نصفهم ويحضر فعلاً أقل من نصف من قبلوا الدعوة .

تدريجياً بدأ البعض يستجيب ومع كل شهر كان عدد العربات يزداد في قافلتنا الذاهبة من ديترويت إلى شيكاجو لزيارة الإيْجا محمد . وحتى بعد أن يروا الإيْجا شخصياً ويستمعوا إليه ، كان القليل منهم يتقدم بطلب رسمي لمستر محمد لقبوله في الدعوة .

بعد عدة شهور على أية حال تضاعف عددنا في ديترويت إلى ثلاثة أمثاله قبل ذلك وسر مستر محمد بذلك كثيراً لدرجة أنه قام بزيارة لنا . أثنى مستر محمد عليَّ كثيراً حينما أخبره منستر ليمول حسن عن الجهود التي أبذلها أنا في سبيل الإسلام . كذلك بدأت قافلتنا في النمو حتى أصبح عدد العربات الذاهبة إلى شيكاجو كل شهر خمساً وعشرين عربة وفي كل مرة كان مستر محمد يكرمنا بتناول العشاء عنده . كان واضحاً لي أنه بدأ يهتم بي . أما أنا فكنت أعبده .

في أوائل عام ١٩٥٣ تركت العمل في متجر الأثاث وصرت أعمل في مصنع خشب القار حيث كانوا يعطونني مرتباً أكبر بعض الشيء . كانوا يصنعون صناديق عربات الزبالة وكنت أقوم بتنظيف الهياكل بعد أن ينتهي منها عمال اللحام .

كان مستر محمد يقول لنا أثناء العشاء : إن أشد ما يحتاج إليه هو انضمام عدد أكبر من الشباب لدعوته حتى يتحملوا المسئولية من على ظهر أئمته . كان يقول أن تعاليمه يجب أن تنتشر أكثر وأكثر وينبغي تأسيس معبد في كل مدينة . أنا شخصياً لم يخطر ببالي أبداً أنني قد أصبح مِنِسْتَر ولم أشعر بأنني مؤهل حتى ولو من بعيد لأن أمثل مستر محمد وإذا قال لي شخص ذلك كنت سأندهش حينها وأقول له : إنني سعيد بخدمة مستر محمد حتى في أحط وظيفة .

وعندما سألني مِنِسْتَر ليمول حسن أن أخاطب مجموعة الأخوة والأخوات لم أدر هل كان ذلك بوحي من مستر محمد أو أن مِنِسْتَر حسن قرر ذلك من تلقاء نفسه . أذكر أنني قمت وحدثتهم عن أثر تعاليم مستر محمد عليَّ وما فعلته بحياتي قائلاً : « لو حكيت لكم قصة حياتي لما صدقتموني . وعندما أقول الآن شيئاً عن الرجل الأبيض فلأنني أعرفه حق المعرفة ».

بعد ذلك بمدة طلب مني مِنِسْتَر ليمول حسن أن أرتجل محاضرة . ترددت في البداية ولكني تذكرت اشتراكي في المناظرات في السجن فتشجعت وألقيت عليهم محاضرة . (من الطبيعي أنني لا أذكر ما قلته بالضبط ولكنني أذكر أن موضوعي المفضل في ذلك الوقت كان الحديث عن المسيحية ، وعن فظائع الرق إذ أنني كنت أشعر بأني أعرف عنه الكفاية من مطالعاتي في السجن) .

« أيها الأخوة والأخوات : علمتنا ديانة المستعبد المسيحي نحن الزنوج الموجودين في تيه أمريكا الشمالية أننا عندما نموت ستصبح لنا أجنحة نطير بها في السماء حيث يحتفظ الإله لنا بمكان يسمى الجنة . ديانة الرجل الأبيض المسيحية هذه غسلت أمخاخنا نحن الزنوج . قبلناها ! احتضناها وآمنا بها ! بل مارسناها ! ونحن نقوم بذلك قام هذا الشيطان الأبيض ذو العيون الزرقاء بتحويرها لمصلحته ولوضع أقدامه فوق ظهورنا .... كي نستمر نحن نرجو السماء والحياة الآخرة بينما هو يستمتع بجنته هنا ... على هذه البسيطة ... وفي هذه الحياة ».

مع أني أتحدث اليوم أمام آلاف المسلمين وقد استمع إلى الملايين من المذياع والتلفاز ، ولكن الشعور بالبهجة والرهبة الذي أثارته في مخاطبة ذلك العدد البسيط في معبد ديترويت كان شعوراً لا يبارى . كانوا خمسة وسبعين أو مائة مسلم مع عدد قليل من الضيوف الفضوليين، وجوههم تنظر إليَّ في دهشة وأصوات الخنازير وهي تقاد إلى المسلخ تصلنا من بعيد .

في صيف عام ١٩٥٣ – وكل الشكر لله – نصبت مساعداً أول لإمام معبد ديترويت رقم واحد.

كنت أخرج كل يوم بعد العمل لأصطاد المجندين في جيتو ديترويت الأسود . رأيت القسمات الأفريقية لوجوه أخوتي الذين ضللهم الرجل الأبيض الشرير . رأيت شعورهم المكوية بمحلول القلي حتى صارت معتدلة كشعر الرجل الأبيض مثلما كان شعري في السابق . المرة بعد المرة كانوا يرفضون الاستماع الي وأحياناً يسخرون مني : ابعد عني أيها الرجل . أنكم زنوج مخبولون . « أحياناً كنت أفور غضباً ورثاءً لهم . ومع ذلك كنت أتشوق وأنتظر الفرصة التي يطلب مني فيها منستر ليمول حسن أن أتكلم :

« إننا لم نرس على جبل بليموث .. بل هو الذي رسى فوقنا» «أعط كل ما تستطيع لمساعدة دعوة الإليجا محمد لتحقيق استقلال الرجل الأسود .... لقد تحكم هذا الأبيض فينا نحن السود كثيراً وتركنا نلهث وراءه ونتسول قائلين: من فضلك سيدي .. تكرم علينا وأنت سيدنا ، ارم لنا ببعض الفتات من مائدتك التي تغث بالطيبات ...

« ...يا أخوتي السود السمحين ، إننا عندما نقول : سود فإننا نقصد كل من لم يكن أبيضَ. انظر إلى لون بشترك . إننا كلنا سود في نظره بالرغم من أن لنا ألف لون . انظر وراءك، انظر حولك، انظروا إلى بعضكم البعض . أي ظل من السواد الأفريقي الذي لوثه هذا الشيطان هو لون بشرتك؟ انظر إليَّ ... حسناً ، كانوا يسمونني في الشوارع أصهب ديترويت . نعم ! نعم ! المغتصب صاحب الشعر الأحمر كان جدي ! نعم ، تلك الدرجة من القربى ... كان أباً لأمي . لم تكن تحب أن تتكلم عن ذلك ولا يحق لنا لومها – أنها لم تكن تره أبداً وكانت مسرورة بعدم رؤيته وأنا مسرور بسرورها . لو استطعت لأخرجت ذلك الدم من جسمي . الدم الذي يلوث لوني . سأفعلها لو استطعت لأنني أمقت كل نقطة من دمه تجري في جسمي .

« ولست أنا وحدي في ذلك ، فكلنا كذلك ، فكر في ذلك ، لقد كان من النادر جداً في زمن العبودية أن تنجو لنا جدة سوداء أو أمها أو جدة الجدة من اغتصاب السيد الأبيض . السيد الأبيض المغتصب الذي جعل من جدودنا خصياناً بالخوف والتهديد والوعيد إلى درجة أن الرجل الأسود حتى اليوم ما زال يعيش في خوف من الرجل الأبيض ، وما زال حتى اليوم يعيش تحت أقدام الرجل الأبيض .

« فكر في ذلك – فكر في ذلك الرجل الأسود وقلبه يمتلئ خوفاً ورعباً وهو يسمع صراخ زوجته أو أمه أو بنته وهي تؤخذ عنوة ، سواء أكان ذلك في المطبخ ، في الإسطبل أو في الغابة. فكروا في ذلك إخواني وأخواتي الأعزاء . فكروا في سماع الزوجات والأمهات والإبنات وهن يغتصبن وأنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً لخوفك من ذلك المغتصب . فكر في حصيلة هجومه القاسي المتوحش ، أبناء وبنات يسميهم بأسماء مثل « مولاتو» و« ومولد»و « وخلاسي » وكل تلك الأسماء التي ينادينا بها

حينما لا ينادينا بلفظ « نيجر».

« در حول نفسك وانظر إلى إخوانك وأخواتك وفكر في ذلك . أنا وأنت وكل هذه الألوان الملوثة وبعد كل ذلك يجد هذا الشيطان المتبجح الوقاحة التي بها يطلب منا أن نحبه ».

كانت العبرة تكاد تخنقني أحياناً فأتمشى في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل . وأحياناً كنت أحادث نفسي بالساعات وأفكر فيما فعله الرجل الأبيض لأهلي الفقراء الطيبين في أمريكا .

في مصنع أخشاب القار حيث أعمل حضر إليَّ في أحد الأيام رئيسي في العمل والقلق يبدو على وجهه وأخبرني أن هنالك شخصاً ينتظرني في المكتب . وجدت هنالك شخصاً أبيض قدم لي نفسه على أنه من الـ أف . بي. أي (المباحث الفدرالية) . فتح بطاقة وأراني إياها ليرهبني بعض الشيء ثم طلب مني أن أحضر معه بدون أن يقول السبب . خرجت معه وهنالك في مكتبهم سألوني لماذا لم أسجل اسمي للتجنيد الإلزامي للحرب الكورية .

أجبتهم بأني « خرجت لتوي من السجن ولم أكن أعلم أنهم يقبلون من لهم صحيفة سوابق.» صدقوا روايتي وسألوني عديداً من الأسئلة وقد سرني أنهم لم يسألوني إن كنت أنوي أن أحارب لأنني لم أكن أنوي ذلك بينما هم لا يتخيلون أني سأمانع . أخبروني أنهم لن يفتحوا بلاغاً ضدي ويتسببون في إرسالي للسجن ولكنهم سيمنحونني فرصة أخرى وأن عليَّ أن أسجل اسمي رأساً .

ذهبت رأساً إلى مكتب لجنة التجنيد الإلزامي فأعطوني استمارة ملأتها وكتبت في المكان الملائم بأنني مسلم وأنني من « معترضي الضمير» . قدمت لهم الاستمارة فاستلمها رجل متوسط العمر ، شيطان أبيض ضجران ، فقرأها بسرعة ونظر إليَّ من فوق نظارته . نهض واقفاً ثم دخل مكتباً آخر لاستشارة أحد رؤسائه فيما يبدو ثم عاد بعد مدة وأشار لي أن أدخل مكتب رئيسه . هنالك وجدت ثلاثة شياطين أكبر عمراً يجلسون خلف أدراج وعلى وجوههم نظرة تقول « ماذا يريد هذا الزنجي المشاكس» فوضعت على وجهي نظرة « هذا الشيطان الأبيض» سألوني على أي أساس أقول أني مسلم فأجبتهم بأن الإيْجا محمد هو المبعوث وأن أتباعه في أمريكا مسلمون . كنت أعلم أنهم سمعوا ذلك قبلاً من بعض الأخوة الشباب في معبدنا الذين قابلوا اللجنة قبلاً .

سألوني إن كنت أعرف معنى « معترض الضمير» أجبتهم بأنه عندما يطلب مني الرجل الأبيض أن أذهب وأحارب لكي يحافظ هو على طريقة حياته ومعاملته لنا فأن

ضميري يمنعني من ذلك . أخبروني بعد ذلك أن حالتي ستخضع لإعادة نظر ولكنهم جعلوني أقوم بالفحص الطبي على أية حال ثم أرسلوا إليَّ بالبريد بطاقة عليها تصنيف ما . كان ذلك في عام ١٩٥٣ ، ثم لم اسمع منهم لمدة سبع سنوات أخرى بعد ذلك عندما أرسلوا لي بطاقة تحمل تصنيفاً مختلفاً عن الأول . إنني حتى مازلت أحملها معي الآن وها هي : رقم البطاقة ٢٠٢١٩٢٥١٣٧٧ وتاريخها ٢١ نوفمبر ١٩٦٠ والتصنيف هو ٥ – أ ولا أدري معنى ذلك بالضبط وعلى ظهر البطاقة خاتم اللجنة وعنوانها لجنة ميشجان المحلية رقم ١٩ ، مقاطعة وين ، ٣٦٠٤ جنوب شارع وين ، ميشجان .

صرت عندما أتحدث في المعبد رقم واحد أجد أن صوتي ما زال أجشاً من المحاضرة السابقة . احتجت إلى وقت طويل قبل أن تتعود حنجرتي على تلك الحالة .

« أتدرون لماذا يكرهكم الرجل الأبيض ؟ لأنه كلما رأى وجوهكم رأى فيها جريمته – الشيء الذي لا يحتمله ضميره» .

« إن على كل أبيض أن ينحني حينما ينظر في عيني أي رجل أسود ويقول له : إنني أعتذر – أعتذر لك عن أفظع جريمة في التاريخ ارتكبها قومي ضد قومك ، هلا منحتني الفرصة لأكفر عن ذلك ؟! ولكن هل منكم أيها الأخوة من ينتظر ذلك منه ؟ لا ، فأنتم أدرى . أتدرون لماذا لن يفعل ذلك ؟ لأنه لا يستطيع ، فالرجل الأبيض خلق شيطاناً ليعيث في الأرض فساداً ».

في حوالي ذلك الزمن تركت العمل في مصنع القار للأخشاب وبدأت أعمل في شركة فورد للعربات وذلك في أحد أقسام التجميع في مصنع عربات لنكون وميركوري.

بصفتي منستر صغير كنت أستغل أية فرصة تسنح لي للذهاب إلى شيكاجو وزيارة الإلْيجا محمد الذي كان يشجعني كي أزوره أي وقت . كان يعاملني وكأني أحد أبنائه من زوجته السمراء الأخت سارة محمد . لم أكن أقابل أبناءه إلا نادراً إذ أن أغلبهم كان يعمل خارج شيكاجو في أعمال مختلفة كعمال أو سائقي عربات أجرة وأشياء من ذلك القبيل . كنت أقضي مع الأم ماري وقتاً مماثلاً للذي أقضيه مع مستر محمد وكنت أستلذ بسماع ذكرياتها عن طفولة وشباب ابنها عندما كانوا يقيمون في ساندرفيل بولاية جورجيا حيث ولد عام ١٨٩٧ .

كان مستر محمد يتحدث معي بالساعات وكنا نبقى بعد تناول طعام المسلمين الصحي الطاهر ونتجاذب أطراف الحديث . أحياناً كنت أركب معه العربة في جولته اليومية في متاجر البقالة القليلة العدد التي يملكها المسلمون السود في شيكاجو . كانت تلك المتاجر نموذجاً لما يمكن أن يفعله السود لمساعدة أنفسهم بأن يستأجروا عمالاً من بينهم وأن يبيعوا ويشتروا من بعضهم البعض بدلاً من أن يستغلهم الرجل الأبيض .

كنا نقف عند المتجر في شارع وينتورث والذي هو عبارة عن بقالة وصيدلية ، حيث ينزل مستر محمد ويكنس الأرض بنفسه . كان يفعل ذلك ليرى أتباعه أن العطالة والكسل أسوأ ما يمكن أن يفعله الأسود ليضر بنفسه . كنت أهم بنزع المكنسة من يده لاعتقادي أنه أعظم من أن يمسح الأرض ولكنه لا يدعني أن أفعل ذلك ويريد لي أن أبقى معه وأستمع إلى نصحه عن أحسن وسيلة لنشر دعوته . كنا مع بعض مثل سقراط وهو ينشر حكمته بين تلامذته في مدرجات سوق أثينا أو كصورة أرسطو وتلاميذه من خلفه في الليسيوم .

أذكر ذات يوم أن كان هنالك كوب متسخ على الطاولة فوضع مستر محمد كوباً نظيفاً بجانبه وقال : « أتريد أن تعرف السبيل إلى نشر تعاليمي ؟ » وأشار إلى الكوبين . « لا تدين شخصاً إذا رأيت عنده كوباً متسخاً ولكن دعه يرى كوباً نظيفاً وعندها لن تحتاج لأن تقنعه أن كوبك أنظف ».

وعندما يكون مستر محمد مشغولاً كانت الأم ماري تكلمني عن طفولة إبنها وعنه وهو يكبر في جورجيا إلى أن وصل سن البلوغ . أخبرتني الأم ماري أنها عندما كانت في السابعة من عمرها رأت في المنام أنها ستصبح ذات يوم أمًّا لشخص سيكون له شأن عظيم . تزوجت من قس معمداني ، الأب بول الذي كان يعمل في المزارع وطواحين قطع الأخشاب حول مدينة ساندرفيل . كلمتني أن الإيْجا محمد كان مختلفاً جداً عن بقية أطفالها الثلاثة عشر حتى وهو طفل يحبو . كان الولد الصغير دقيق الجسم يقضي في المنازعات بين إخوته وبالرغم من صغر سنه أصبح لهم قائداً . عندما دخل المدرسة أصبح يبدي اهتماماً بالوضع العنصري وبعد إكمال الصف الرابع ترك الإيْجا الدراسة من أجل العمل بسبب الفقر . وقد قامت إحدى أخواته الكبار بتعليمه في البيت على قدر ما يستطاع .

أخبرتني الأم ماري أن الإيْجا كان يقضي الساعات وهو يدرس الإنجيل والدموع تترقرق في عينيه .

(علمت من مستر محمد نفسه لاحقاً أنه في صباه كان يشعر أن كلمات الإنجيل مثل باب موصد يمكن فتحه إذا عرف السر وأنه كان يبكي لشعوره بالإحباط في محاولته للفهم) كبر الإيْجا ووصل سن المراهقة وهو بعد دقيق الجسم وكان يظهر حبًّا فائقاً لبني جنسه وكما أخبرتنا الأم ماري كان دائماً يدافع عن أخطاء السود ويجد لها المبررات .

توفيت الأم ماري بعد ذلك بفترة وجيزة وأقيمت لها جنازة من أعظم ما شهدت شيكاجو حضرها المسلمون السود وكل من يعرفها ويعرف عمق الرابطة بينها وبين

ابنها الإيْجا محمد .

« لست أخجل من قلة تعليمي» هذا ما كان يقوله الإيجا ، « ولأنني توقفت في الصف الرابع فإن ذلك يبرهن أنني لا أتعلم إلا الحقيقة التي علمني الله . لقد علمني الله الرياضيات ووجدني ألثغاً فقوم نطقي ».

قال لي مستر محمد أنه عجز عن فهم السبب الذي يجعل مزارعي ساندرفيل البيض ، رؤساء العمال في مراكز قطع الأخشاب والمخدمين البيض ، دائماً يسبون العمال الزنوج وأنه عندما يبدأ في العمل مع أحدهم يسأله بأدب ألا يسبه وأن يفصله عن العمل إذا لم يعجبه أداؤه بدلاً من سبه .

(كانت خطب مستر محمد لا تختلف كثيراً عن حديثه العادي فهو لم يكن خطيباً مصقعاً أو فصيحاً ولكن كان لما يقوله أثر عميق ليس للخطباء المفوهين) . كذلك قال أنه كان يعمل بجد في وظيفته حتى أنه أصبح رئيساً للعمال الزنوج .

بعد أن تقابل مستر محمد والأخت كلارا وتزوجا ورزقا بأول طفلين ، حدث ذات مرة أن سب مخدم أبيض مستر محمد في عام ١٩٢٣ وكان اسمه حينها الإيْجا بول . ولأنه يفضل البعد عن المشاكل ، أخذ الإيْجا بول عائلته إلى ديترويت وكان عمره خمسة وعشرين عاماً حينذاك . في ديترويت رزق بخمسة أطفال آخرين كما ولد آخر أطفاله في شيكاجو .

في عام ١٩٣١ قابل مستر محمد ماسترو. د. فارد في ديترويت.

كانت آثار الكساد الاقتصادي في كل مكان وفي الجيتو بخاصة كانت عميقة كما علمت من مستر محمد . وكان هنالك رجل أسمر دقيق الجسم يمر على مساكن فقراء الزنوج منزلاً منزلاً يبيع الحرير والأقمشة الأخرى ويعرف نفسه قائلاً : « أخ لكم من الشرق ».

بدأ ذلك الرجل يحكي للزنوج من أين جاءوا ، وعن أراض بعيدة كانت موطناً لأجدادهم – كان يحذرهم من أكل «الخنزير القذر » والأطعمة الدنسة التي يأكلها الزنوج بكثرة وكان عندما يجد آذاناً صاغية يعقد اجتماعات في منازل بعضهم ثم يعلمهم القرآن والإنجيل وكان الإيْجا بول من بين تلاميذه .

كان اسم ذلك الرجل و. د. فارد وقد زعم أنه ولد في قريش قبيلة محمد بن عبدالله ، النبي العربي نفسه (ﷺ). كان تاجر الحرائر هذا ، ماسترو. د. فارد ، يعرف الإنجيل أكثر من أي زنجي مسيحي.

علمهم ماسترو د. فارد أن زنوج أمريكا من سلالة المسلمين وأنهم الشياه الضائعة التي فقدتها أمة الإسلام لمدة أربعمائة عام وأنه ، ماستر فارد ، قد أتى لينقذ ويعيد الزنجي إلى دينه الحقيقي .

كـان ماسـتر فـارد يقـول لهـم : لا جنـة في السـماء ولا جحـيم في الأرض وأن الجنـة والجحيم أوضـاع يمكـن أن يعيشـها النـاس هنـا علـى الأرض . أخـبرهم أن الزنـوج في أمريكا عاشوا في الجحيم لمدة أربعمائة سنة وأنه أي ماستر فارد ، قد أتى ليأخذهم إلى ما هو الجنة – بالنسبة لهم ، إلى موطنهم وبين أهليهم .

علم ماستر فـارد أنـه وكمـا بـالأرض جحيم فـإن بهـا الشـيطان ، الجنس الأبيض الذي هُجِّن من الإنسان الأول الأسود قبل ستة آلاف عام خصيصاً حتي يحـول الأرض إلى جحيم لمدة ستة آلاف عام . أخبرهم أن السـود هـم أطفـال الإلـه وأنهـم آلهـة في ذات نفسـهم وأنهـم كـان بيـنهم كيانـًا كـان إلـه الآلهـة : الأعظـم والأكـبر والأحكـم والأقوى – وأن اسمه الحقيقي هو الله . كان ماستر فارد يدرس تلاميذه في ديترويت أن كل الديانات تتفق أن هنالك يوماً آخر وأنه عند اقتراب نهاية الزمان سيأتي الله لإنقاذ الشياه التائهة ويبعدها عن أعدائها ويعيدها لوطنها . علمهم ماستر فارد أن تلك النبوءة تشير إلى الواجد ومنقذ تلك الشياه الضائعة باسم ابن البشر ، أو الله نفسه أو واهب الحياة ، أو المنقذ أو المسيح الذي سيأتي كالبرق من الشرق ليظهر في الغرب .

إنه الذي يسميه اليهود بالمسيح ويسميه المسيحيون يسوع ويسميه المسلمون بالمهدي .

كنت أجلس متسمرًا وأنا أسمع من فم الإليْجا محمد ما كنت أؤمن حينها أنه التاريخ الحقيقي لديانتنا ، دين الرجل الأسود الحقيقي . أخبرني مستر محمد أنه رأى رؤيا ذات مساء مفادها أن ماسترو. د. فارد إنما هو تجسيد للنبوءة .

« سألته من أنت وما اسمك الحقيقي ؟ » ، واصل مستر محمد حديثه . « أجاب : أنا الذي ظل العالم ينتظرني في الألفي سنة الأخيرة ».

« سألته مرة ثانية (ما اسمك الحقيقي ؟) وعندها أجاب « المهدي وقد أتيت لأقودكم على طريق الهدى ».

يقول مستر محمد أنه جلس ليستمع بقلب مفتوح وعقل مفتوح مثلما أجلس أنا الآن استمع إلى مستر محمد وأضاف مستر محمد أنه لا يراوده أي شك فيما قال له « المنقذ » .

بدأ ماستر فارد في تنظيم جماعته ونظم صفاً لتدريب الأئمة ليواصلوا نشر التعاليم لأهل أمريكا السود وأعطى أسماءً لأول مجموعة فسمى الإليْجا بول الإليْجا كريم . بعد ذلك أنشأ ماستر فارد في ديترويت عام ١٩٣١ جامعة الإسلام التي كانت بها فصول تدرس عدة علوم من بينها الرياضيات لمساعدة الزنوج حتى لا تخدعهم وتخدرهم ألاعيب الشيطان الأبيض ذي العيون الزرق . إنشاء مدرسة من لا شيء عمل صعب خاصة أنها تفتقر إلى المدرسين الأكفاء ولكن كان لا بد من البدء في ذلك وقد أخرج الإليْجا كريم أطفاله من المدارس الحكومية في ديترويت

ليصبحوا نواة لجامعة الإسلام . وقد كلمني مستر محمد أن أطفاله الكبار ضحوا بتعليمهم حتى يصبحوا نواة جامعات الإسلام التي تراها اليوم في ديترويت وشيكاجو بعد أن ارتفع مستوى أساتذتها .

اختار ماستر و. د. فارد الايْجا كريم ليصبح الإمام الأكبر فوق كل أئمته الآخرين مما أثار حسدهم وبغضهم له كما أنهم كانوا أفصح لساناً منه ؟

لكن الايْجا بول أعيدت تسميته بطريقة ما ليصبح الايْجا محمد الذي استمر بوصفه الإمام الأكبر في تلقي تعاليم خاصة من ماستر و. د. فارد وفي غضون ذلك « تعلم أشياء لم تكشف للآخرين ».

وفي خلال تلك الفترة ذهب مستر الايْجا محمد وماستر و. د. فارد إلى شيكاجو وأنشآ المعبد رقم اثنين كما مهدا لإنشاء معبد ثالث في مدينة ميلواكي .

في عام ١٩٣٤ اختفى ماستر و. د. فارد دون أثر .

أعلمني الايْجا محمد أن الأئمة الآخرين في غلواء حقدهم وحسدهم له حاولوا قتله أكثر من مرة وأنه اضطر بسبب نفاقهم أن يهاجر إلى شيكاجو . هناك جعل من المعبد رقم اثنين مقراً لرئاسته فتقصى أولئك أثره حتى اضطر إلى الفرار مرة أخرى . ذهب إلى مدينة واشنطن هذه المرة وأنشأ المعبد رقم أربعة وفي أثناء وجوده هنالك كان يذهب إلى مكتبة الكونجرس ويطلع على الكتب التي أخبره ماستر و. د. فارد عنها وأنها تحتوي على أجزاء من الحقيقة سجلها الرجل الأبيض ولكنها عادة غير متاحة للجمهور .

زعم مستر محمد أن المنافقين كانوا يتعقبونه ولذا كان لا يكاد يستقر في مدينة إلا ويتركها وهكذا من مدينة لأخرى . كان بين الفينة والأخرى وعلى قدر ما يستطيع ينسحب عائداً إلى مقره ليطمئن على زوجته وأطفاله الثمانية الذين أواهم مسلمون فقراء قاسموهم ما عندهم . لم يكن حتى أتباعه الأولون في شيكاجو يعرفون أنه بالمدينة وذلك لاتقاء شر المنافقين الذين كانوا ينوون قتله . في عام ١٩٤٢ اعتقل مستر محمد لأن بعض الزنوج من نوع العم توم (المنافقين) أوشوا به وبتعاليمه عند الرجل الأبيض الشرير كما يقول وحوكم بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية مع أن عمره فات سن التجنيد . حكم عليه بخمس سنوات سجناً قضى منها ثلاث سنوات ونصف في السجن الفيدرالي في مدينة ميلان ، ميشجان قبل أن يفرج عنه بتعهد . بعد ذلك رجع إلى رسالته ليزيل الغشاوة عن أعين الرجل الأسود في تيه أمريكا .

أكاد أسمع صوتي الآن وأنا أقف أمام المقرأ في معبدنا الإسلامي الصغير أخاطب إخواني وأخواتي بعاطفة جياشة وأقول :

« هذا الرجل الضئيل الجسم ، الوديع ، حلو المعشر ! صاحب الشرف الرفيع الذي يعلم

إخواننا وأخواتنا هذه الساعة في شيكاجو ! مبعوث العناية الإلهية – التي جعلت منه أعظم رجل أسود في أمريكا ! من أجلي ومن أجلك قضى سبع سنوات مختفيا من متعقبيه المنافقين الدنسين ثم ثلاث سنوات ونصف أخرى محبوساً بين القضبان حيث وضعه الرجل الشيطان الأبيض . الشيطان الأبيض لا يريد لصاحب الشرف الرفيع أن يزيل غفوة العملاق الأسود الكامن فيَّ وفيك وفي كل واحد من أهلنا الجهلاء مغسولي الدماغ هنا في جنة الرجل الأبيض وجحيم الرجل الأسود في تيه أمريكا ».

« لقد جلست عند قدميه وسمعت كلمة الحق من لسانه وعاهدته وأنا أركع لله أنني سأبلغ الرجل الأبيض بجرائمه وأبلغ الرجل الأسود بتعاليم سيدنا صاحب الشرف الرفيع إلايْجا محمد حتى وإن كلفني ذلك حياتي ».

ذلك كان موقفي وذلك هو عهد قطعته على نفسي أردده في أي مكان بلا خوف أو تردد . كنت أخلص خدامه وأنا اليوم أدرك أنني آمنت به أكثر منْ إيمانه بنفسه .

في مستقبل الأيام سأواجه أزمة روحية بسبب ذلك .





أليجا محمد



مالكوم إكس واليجا محمد يمسكان بايدى بعض في اجتماع في مدينة فيلادلفيا

■ الباب الثالث عشر

(منستر)

مالكوم إكس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



تركت العمل في مصنع فورد للعربات حينما أصبح واضحاً لي أن مستر محمد في حاجة إلى وعاظ ينشئون معابد أخرى بين الاثنين والعشرين مليوناً من الأخوة السود مغسولي الدماغ الغافلين في مدن أمريكا الشمالية المختلفة .

وصلت إلى قراري ذلك بسرعة إذ أنني بطبعي رجل عملي وقد ساعدتني طبيعة تكويني أن أتخذ هذا القرار بسرعة مقارنة بالآخرين في أمة الإسلام عندما يصلون تلك المرحلة في تطور إيمانهم . كل (منستر) في أمة الإسلام يصل إلى تلك المرحلة بطريقته عندما يخلو إلى نفسه وفي الوقت الذي يلائمه والكل يؤمن في قرارة نفسه أن كل حياته السابقة إنما كانت تحضيراً للمرحلة التي يصبح فيها من حواري مستر محمد .

كل ما يحدث لنا إنما هو قدر مكتوب . هكذا علمنا الإسلام .

دعاني مستر محمد لكي أزوره في بيته في شيكاجو كلما سنحت لي الفرصة وهناك كان يعلمني لمدة شهور . الآن وتحت إرشاد مستر محمد درست واستوعبت تعاليمه كما لم أستوعبها من قبل حتى وأنا في السجن . غرقت في دراسة العادات والطقوس ، وفيما علمنا أنه الطبيعة الحقة للرجل والمرأة ، في الإجراءات التنظيمية والإدارية وفي المعنى الحقيقي والخفي في القرآن والإنجيل .

وعندما يحل وقت الاضطجاع كل يوم كنت أذهب إلى سريري وأنا أكثر رهبة. من سوى الله يمكن أن يضع

سره في أضعف خلقه ويهب كل تلك الحكمة لشخص ضئيل كالحمل، متواضع، تخرج من الصف الرابع ومن طواحين الأخشاب وحقول القطن في جورجيا . ذلك التشبيه « ضئيل كالحمل » ، أخذته من النبوءة التي في كتاب سفر الرؤيا عن حمل رمزي يحمل سيفاً ذا حدين في فمه . والسيف ذو الحدين كان تعاليم محمد التي تقطع طالعة ونازلة لتحرر عقل الرجل الأسود من الرجل الأبيض . كان توقيري لمستر محمد يزداد كل يوم بل كان أكثر من مجرد توقير . كان يكاد يكون عبادة وخوفاً ، ليس مثلما يخاف الإنسان من رجل يحمل سلاحاً ولكنه خوف كالخوف من رجل وكأنما ذلك الرجل يملك الشمس بيديه .

سمح لي مستر محمد بعد أن تأكد من مقدرتي أن أذهب إلى بوسطن . هنالك وجدت الأخ لويد اكس الذي يقيم هنالك وقد دعا أناساً يرغبون في معرفة الإسلام كي يستمعوا إليَّ في بهو منزله . أسجل هنا ما بدأت أقوله لهم في بوسطن وفي أماكن أخرى بعد ذلك على قدر ما تسعفني الذاكرة . كنت أتبع نسقاً متدرجاً طورته في تلك الأيام لمخاطبة الجمهور وكنت دائماً أحب أن أبدأ باستعارة مفضلة في وصف مستر محمد .

« أعطى الله لمستر محمد الحقيقة القاطعة وهي كسيف ذي حدين تؤلم كثيراً ولكن ذلك الألم سيشفيك إذا تحملته وينقذك من موت محقق ».

لم أكن أضيع وقتاً قبل أن أحدثهم عن الرجل الأبيض الشرير . « أعلم أنك تجهلون بشاعة وضخامة جريمة من يسمى بالمسيحي الأبيض ... ليست هناك جريمة مثل تلك الجريمة . لقد أنزل الله النيران غضباً على من اقترفوا جرائم أقل من تلك . مائة مليون من قومنا السود . أجدادك وأجدادي . قتلهم هذا الرجل الأبيض . كي يصل منا خمسة عشرة مليون عبد إلى أمريكا تم هلاك مائة مليون في الطريق . ليتني أستطيع أن أريكم قاع البحر في تلك الأيام وهو يموج بأجساد ودماء وعظام السود التي ركلتها الأحذية وحطمتها الهروات . والنساء السود الحمَّل يقذف بهن في عرض البحر إذا مرضن . يرمى بهن إلى الأقراش التي تعلمت أن متابعة سفن العبيد فيها غذاء مضمون .

« على ظهر تلك السفن بدأ الرجل الأبيض اغتصاب نساء العنصر الزنجي . لم يكن لديه الصبر حتى يصل إلى الشاطئ . ولم يشهد الجنس البشري عربدة وشبقاً وإجراماً أكثر من ذلك ..... ».

الحديث عن الرق بتلك الطريقة كان دائماً يثير الزنوج وهم يسمعون فظائعه لأول مرة . قد تستغرب ، أيها القارئ ، عندما تعلم الدرجة التي خدع بها الرجل الأبيض الزنوج حتى أن بعضهم يحمل أفكاراً رومانسية عن أيام الرق . وبعد أن أثير فيهم

النخوة بتلك الطريقة أحول الموضوع للحديث عن وضعهم الحالي .

« أود منكم بعد أن تتركوا هذه الغرفة أن تنظروا حولكم إلى الرجل الأبيض الشيطان وسترون معنى كلامي . نعم هو الشيطان ، فقط عليكم أن تراقبوه لتتأكدوا ، راقبوه في الأماكن التي يمنعكم منها . راقبوه وهو يتيه فخراً بنفسه ، في رفضه لكم ، في صلفه وهو يستمرئ استعبادي واستعبادك ».

« في كل مرة ترى فيها رجلاً أبيض فكر في الشيطان الذي أمامك . تذكر أنه بنى إمبراطوريته على دم وعرق وظهور أجدادك حتى أصبحت امريكا أغنى دولة في العالم وقد قادها الطمع والشر لأن تصبح مكروهة في كل العالم. »

مع كل اجتماع كان عدد الحضور يزيد ويعود نفس الأشخاص مصطحبين معهم أصدقاءهم. لم يكن أي منهم قد سمع أو رأى القناع يزال من وجه الرجل الأبيض قبل ذلك . وكنت بعد كل محاضرة في منزل الأخ لويد إكس أسأل الحاضرين : « ليقف منكم من يصدق ما سمعه الآن. » ولا أذكر أن أياً من المستمعين لم يقف على رجليه . كذلك في كل مساء أحد كنت أسألهم بعد المحاضرة : « من منكم يود اتباع صاحب الشرف الإلْيجا محمد ؟ » فكان البعض يقف والبعض يتردد .

بعد ثلاثة أشهر من المحاضرات استطعنا تجنيد عدد كاف لنفتح به معبداً . ومازلت أذكر سرورنا حينما استأجرنا بعض المقاعد ولم أتمالك نفسي من الفرحة عندما رفعت تقريراً لمستر محمد به عنوان معبد جديد . عندما صار لنا معبد صغير بدأت أختي اللا تحضر لتسمعني أتكلم . كانت تجلس وتراقبني في دهشة غير مصدقة من المتكلم . لم تتحرك إللا من مكانها حتى عندما سألت الحضور عمن منهم يصدق ما قلته في حديثي لهم إلا أنها كانت ترمي شيئاً في صندوق التبرعات . لكنني لم أهتم بذلك فأنا لم أفكر حتى في إدخالها الدعوة لعلمي بعنادها ورأيها في كل منظمة جديدة . لم أكن أتوقع أن يستطيع أحد ، سوى الله ، أن يقنعها .

كنت أنهي كل اجتماع بالدعاء الذي علمني مستر محمد :﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين « أشهد ألا إله إلا أنت وأن الإلْيجا محمد هو خادمك» نعم صرت أؤمن بأن الله أرسله لينقذ قومي.

كنت أرفع يدي مؤذناً لهم بالانصراف وأقول : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك . أطلب السلام ولا تكن البادئ بالعدوان وإذا حدث واعتدى عليك أحد فنحن لا نسألك أن تدير له خدك الآخر . فليبارك الله فيكم وينصركم في كل ما تفعلون ».

لم أكن قد قابلت شورتي منذ ليلة خروجي من السجن عندما قابلته في منزل إللا وأنا في الطريق إلى ديترويت كما أنني لم أتمش في شوارع روكسبري في سبع السنوات السابقة وبما أنني كنت في بوسطن ، قررت أن أذهب وأزور شورتي . قابلت شورتي ووجدته يبدو متردداً من ناحيتي فهو قد سمع أنني في البلدة أقوم ببعض « الحركات الدينية » ولم يدر إن كنت جادًّا في ذلك أم أنني مجرد واحد من الوعاظ الدجالين الذين يحتالون على النساء العجائز حتى يغمرن الفتى الواعظ الوسيم بالهدايا والمال مما يمكنه من أن يتأنق في الملبس ويقود عربة رائعة . بسرعة أقنعت شورتي بجديتي ولكنني تبسطت معه في الحديث وفاءً لذكرى الأيام الخوالي . ضحكنا حتى أدمعت أعيننا ونحن نتذكر ردة فعله عندما سمع القاضي يعلن :

« التهمة الأولى ، عشر سنوات ... التهمة الثانية ، عشر سنوات » تحدثنا عن كيف أن وجود الفتيات البيضاوات معنا رفع عقوبتنا إلى عشر سنوات بينما وجدنا في السجن من هم أكثر منا جُرماً لكن عقوبتهم أقل .

كانت ما زالت لشورتي فرقة موسيقية صغيرة وحاله على ما يرام وكان فخوراً بدراسته الموسيقى في السجن . شعرت من كلامه إنه لم يكن يريدني أن أتحدث كثيراً عن الإسلام ويبدو أنه سمع وهو في السجن إشاعات ضارة عن ديننا . غيّر موضوع الحديث بنكته إذ قال : إنه لم يأخذ كفايته من شرائح الخنزير والنساء البيض . لا أدري إن فعل ذلك أم لا ولكني أعرف أنه متزوج حالياً من امرأة بيضاء وأنه أصبح سميناً كالحلوف من أكل لحم الخنزير .

قابلت أيضاً جون هيوز صاحب كازينو القمار وبعض الآخرين الذين كنت أعرفهم ومازالوا يقيمون في روكسبري . جميعهم أزعجتهم الأخبار التي سمعوها عني ولكني كنت أهدئ من روعهم وأخاطبهم بطريقتي القديمة « ماذا تعرف ، يادادي ؟» وتمكنا بذلك من تجاذب بعض الحديث . لم أذكر الإسلام لأغلبهم لعلمي بأن أدمغتهم مغسولة جدًّا إذ أنني كنت مثلهم في السابق .

خدمت فترة قصيرة كمنستر للمعبد رقم أحد عشر لأنني بعد أن نظمته سلمته لمنستر يولسيس اكس ونقلني الإيْجا محمد إلى فلادلفيا . في تلك المدينة ، مدينة الحب الأخوي كما يسمونها ، أستجاب الأخوة السود لدعوة الايجا محمد وقبلوا حقيقة الرجل الأبيض بسرعة أكبر من أهل مدينة بوسطن وتم إنشاء المعبد رقم اثني عشر في نهاية شهر مايو أي في أقل من ثلاثة أشهر .

قادني نجاحي في بوسطن وفلادلفيا إلى أن أصبح بعد شهر من إنشاء معبد فلادلفيا منستر للمعبد رقم سبعة في مدينة نيويورك ذات الأهمية الحيوية .

لن أستطيع أن أصف لكم مقدار شعوري وأنا أدخل نيويورك هذه المرة . إذا

كان لتعاليم مستر محمد أن تنقذ السود في أمريكا فإن الإسلام ينبغي أن ينتشر وينتشر بسرعة وليست هنالك مدينة في أمريكا بها مجال للانتشار مثل نيويورك التي كان بها أكثر من مليون أسود في خمس مناطق كبيرة .

لم أر آرشي الهندي الغربي لأكثر من تسع سنوات مع أني كنت يوماً أذرع الشوارع متوقعاً أن يحاول أحد منا قتل الآخر في أية لحظة .

« رد ! يا صديقي ... رد ، لا يمكن أنك أمامي. »

من الطبيعي أن شكلي اختلف خاصة أنني لم أعد أكوي شعري بمحلول القلي مثلهم بل أصبحت أجعله مجعداً على طبيعته وأقصه قصيراً. « اقترب يا صاح — ائتني بكأس يا ساقي. ماذا تقول !؟ تركت الخمر . لا أصدق ، دعنا من الهزل ».

سررت بلقاء وجوه أعرفها وكنت أراها كثيراً وبإمكانك أيها القارئ ، أن تتخيل . لكنني كنت أساساً أبحث عن شخصين : آرشي الهندي الغربي وسامي القواد . وصلتني أول صدمة مزعجة عن سامي بعد فترة وجيزة . أخبروني أنه ترك القوادة وصار من كبار رجال المراهنات وكانت أموره تسير على ما يرام . أنه تزوج حتى ، ولكنه وجد مقتولاً في سريره بعد حفل زواجه بزمن قصير ويقال أنهم عثروا على مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار في جيبه . (لا يستطيع الكثيرون تصور المبالغ التي يتعامل فيها حتى صغار المجرمين . أذكر مثلاً في مارس ١٩٦٤ أن وجد مبلغ ٧٦٠ر٠٠٠٠ دولار في شقة أحد أصحاب محلات المراهنات الصغيرة عند موته في شيكاجو موضوعة في أكياس وحقائب ... كلها أخذت من الزنوج ... ورغم ذلك يوجد من يتساءل عن سبب فقرنا !) .

بعد قصة سامي التي تدعو للاشمئزاز ، صرت أنتقل من حانة إلى أخرى وأسأل معارفي القدماء عن آرشي الهندي الغربي . لم يعرف أحد إن كان حياً أو ميتاً . سمعت روايات كثيرة عن نهاية كثير من الزعران . رصاص ، مدى ، سجن ، مخدرات ، مرض ، جنون ، عرق . وكلها في نفس هذا التسلسل . كل من بقي حياً من أولئك الضباع والسباع كان في حالة يرثى لها . عرفوا كل جوانب الحياة ومع كل ذلك ظلوا يعمهون في الجهل والفقر . قست عليهم الحياة وخدعهم زيفها . رأيت خمسة وعشرين من هؤلاء كنت أعرفهم حق المعرفة وها هم الآن في مدى تسع سنوات تحولوا إلى حطام يلهثون وراء الفتات ويلتقطون الفضلات في سعيهم لسداد قيمة إيجار الشقة وما يكفي الأود . بعضهم كان يعمل في وسط البلد كسعاة وعمال نظافة وما شابه ذلك . شكرت الله كثيراً على أنني أصبحت مسلماً ونجوت من ذلك المصير .

هنالك مثلاً كاديلاك دريك . كان قواداً بديناً مرحاً متأنقاً يدخن السيغار وكان من الزوار المنتظمين في الأمسيات في جنة سمول حيث كنت أعمل نادلاً . علمت أنه أصبح مدمناً للهيروين وحينما رأيته في الشارع كان يجر قدميه في اتجاهي وملابسه متسخة . كان أقذر من رأيت في حياتي . تفاديت مقابلته لأن كلينا كان سيحرج إذا تعرف عليَّ أنا الصبي الذي كان يمنحه دولاراً كبقشيش .

انتشر في هارلم خبر بحثي عن آرشي وفي هارلم تنتشر مثل تلك الأخبار بسرعة أكثر من البرق . في أحد الأيام بعد أن انتهيت من الوعظ في المعبد رقم سبعة تقدم إلى أحد قدامى الزعران الذي صار قماماً وكنت قد منحته بضع دولارات ، وأخبرني أن آرشي الهندي مريض ويسكن في غرفة مؤجرة بمنطقة البرونكس .

أخذت عربة أجرة إلى ذلك العنوان وعندما وصلت قرعت جرس الباب ففتح آرشي الهندي الغربي الباب . وقف آرشي عند الباب يحملق فيَّ وهو يرتدي بجامته المكرفسة وقدماه حافيتان .

هل رأيت إنساناً تحول إلى مجرد شبح من شخصه القديم ؟ تلك كانت حاله . احتاج آرشي إلى بضع ثواني قبل أن يتذكرني ثم هتف بصوت أجش « رد ، كم أنا سعيد برؤيتك! » .

حييته بحرارة حتى كدت أحتضنه وقد كان مريضاً وضعيفاً فساعدته على الجلوس في طرف سريره . جلست على المقعد الوحيد في الغرفة وأخبرته أنه أنقذ حياتي باضطراري لترك هارلم لأني وجدت الإسلام بعد ذلك . أجاب بأنه كان دائماً يستلطفني وأنه لم يكن حقيقة يريد قتلي . أخبرته أن جسدي كثيرا ما يقشعر حينما أتذكر أننا كدنا أن نقتل بعضنا البعض ثم ذكرت له أنني وبكل إخلاص كنت أعتقد أن الرقم الذي اخترته فاز وأنني أستحق ما دفعه لي. أجاب بأنه شخصياً يسأل نفسه أحياناً فلربما كان مخطئاً خاصة وأنني كنت على استعداد للموت من أجل موقفي . بعد ذلك اتفقنا أن الموضوع لا يستحق مجرد الذكر وظل آرشي يؤكد بين الحين والآخر سروره لرؤيتي .

ذكرت له بعضاً من تعاليم مستر محمد وكيف اكتشفت أنا أننا كلنا ضحايا هذا المجتمع الأبيض كما أخبرته أنني تذكرته في السجن وفكرت في مقدرته العقلية وذاكرته التي تحتفظ بمئات الأرقام كل يوم وقلت أن مثل تلك العقلية كانت ستجعل من صاحبها عالما للرياضيات والعلوم في أي بلد آخر . «رد : يجب علينا أن نفكر في مثل هذه الأشياء» ذلك كان رده .

لم يكن بمقدور أي منا أن يقول أنه ما زال هنالك متسع . كان لدي شعور أن نهايته قربت وقد هزني كثيراً أن أراه على تلك الحالة وأتذكر ما كانت عليه حاله في

السابق . هزني ذلك لدرجة أنني لم أطق البقاء معه أطول من ذلك . لم تكن معي نقود كافية ولم يكن يريد القليل الذي قدمته له ولكني أصررت عليه فقبلها مني .

كثيراً ما أذكر نفسي أن المعبد رقم سبعة في مدينة نيويورك كان أساساً واجهة متجر صغير وأن كل عدد المسلمين السود في نيويورك لم يكن ليملأ حافلة واحدة . حتى بين أهلنا السود في هارلم كان عدد من سمع بمجرد كلمة « مسلم » لا يزيد عن واحد في الألف أما بالنسبة للبيض وإذا استثنينا القلة في بعض مراكز الشرطة ، لا أعتقد أنه كان هنالك أكثر من خمسمائة شخص في أمريكا كلها قد سمعوا عنا .

بدأت في تدريس تعاليم مستر محمد لأعضاء المعبد في نيويورك وأصدقائهم الذين يحضرون معهم . ومع نهاية كل اجتماع كنت أصاب بالإحباط إذ كيف أننا هنا في هارلم التي تعج بالفقراء ، سود جهلاء يعانون من كل الأمراض التي باستطاعة الإسلام أن يعالجها ومع ذلك لا يقف اثنان أو ثلاثة حينما أطلب من المستمعين الذين يودون الانضمام لدعوة الايجا محمد أن يقفوا على أرجلهم . وأحياناً لم نكن نجد حتى ذلك الرقم .

ما أزعجني هو أنني يفترض في معرفتي بالشوارع ، لذلك كان عليَّ أن أفكر في حل . أحد أسباب المشكلة كان وجود جماعات كثيرة تعبر عن صوت الرجل الأسود في كل ركن من هارلم . كانت هناك جماعات وطنية مثل من يدعون إلى «الشراء من السود فقط » وخطباؤهم في كل ركن وخطباء من جماعات أخرى . وبالرغم من أنني لست ضد من يشجع الرجل الأسود على الاستقلال إلا أنهم بتلك الطريقة كانوا يجعلون من الصعب على مستر محمد أن يصل الجماهير .

للتغلب على هذه المشكلة بدأنا بطبع بعض المنشورات التي نقف ونوزعها في كل أركان هارلم المزدحمة أنا ومعي خمسة أو ستة من الأخوان . كنا نقفز أمام كل أسود يتمشى ونمد له المنشور وإذا رفض أخذه أو تردد في ذلك كنا ننادي عليه بجملة مثل : « اسمع وأقرأ كيف اختطف الرجل الأبيض عنصرنا الأسود. »

بعد ذلك كنا نذهب « للصيد » في تلك الأركان المزدحمة وبالقرب من اجتماعات الجماعات الوطنية . في الوقت الحالي أصبحت تلك الطريقة أكثر اتقاناً ولكنها أساساً تعني أن نركز على من يقفون في الأطراف بين من جذبتهم الجماعات الوطنية إذ أنهم عادة مترددون بين البقاء والذهاب وعلى استعداد لقبول فكرة جديدة . ذلك بالإضافة إلى أنهم يهتمون ويتابعون موضوع ثورة الرجل الأسود . بدأنا نحقق نتائج إيجابية بسرعة بعد أن أصبحنا نوزع المنشورات وتدعو الناس

للحضور قائلين لهم أن صاحب الشرف الرفيع الإيْجا محمد لديه العلاج لكل علل الرجل الأسود السياسية والروحية والعقلية والأخلاقية والاقتصادية .

بدأنا نرى وجوهاً جديدة في كل اجتماع ثم اكتشفنا أن أحسن جمهور « للصيد » على الإطلاق وأكثرهم تهيئاً لقبول تعاليم مستر محمد هو جمهور الكنائس المسيحية . كنا نبدأ الوعظ والصلاة يوم الأحد الساعة الثانية ظهراً وفي كل هارلم كانت الصلوات في الكنائس تنتهي قبل ساعة من ذلك ويبدأ الناس في الانصراف . لم نكن لنذهب إلى الكنائس الكبرى التي غالباً ما يؤمها من يسمون بالطبقة الوسطى الذين يهتمون بالمظاهر والمركز الاجتماعي لأنهم لم يكونوا ليأتوا إلى معابد هي مجرد واجهات متاجر قديمة مثل معابدنا .

صرنا نذهب أمام الكنائس المتواضعة وننتظر روادها من المصلين عندما يخرجون ونبدأ الصيد بهمة ونشاط وسط الثلاثين إلى الخمسين شخصاً من بينهم . « تعال واسمع أيها الأخ وأيتها الأخت » « إنك لم تسمع شيئاً حتى تسمع تعاليم صاحب الشرف الرفيع الإيْجا محمد. » كان المصلون عادة يتكونون من مهاجرين جنوبيين كبار السن وممن النوع الذي لديه استعداد لأن يذهب إلى أي مكان ليستمع إلى ما يسمونه « أداء وعظياً جيداً ». وكانت تلك الكنائس المتواضعة من النوع الذي يضع إعلانات الفراخ المشوي والنقانق في الخارج بغرض جمع التبرعات من بيعها . كذلك كان كهنتها يتدربون على الخطابة أربع أو ثلاث ليال في الأسبوع استعداداً ليوم الأحد حيث يصرخون وينشدون ويتغنون على صوت القيثار والرق .

لا أدري إن كنت تعرف أم لا ولكن هنالك مجموعة كبيرة من الفنانين الذين يحترفون ترتيل المختارات الإنجيلية (الجوسبيل) تخرجوا من مثل هذه الكنائس في المدن الصغيرة أو في ريف الجنوب . فنانات مثل الأخت روزيتا ظارب ومجموعة كلارا وارد وربما المئات الأخرى من غير المعروفين . ماهاليا جاكسون ، أعظمهم على الإطلاق ، كانت ابنة واعظ في لويزيانا . حضرت من هناك إلى شيكاجو وبدأت تعمل كخادمة في منازل البيض ثم في مصنع وفي غضون ذلك تغني مختارات من الإنجيل في كنائس الزنوج حتى ذاعت شهرتها وبذلك أصبحت أول زنجية يشهرها الزنوج . كانت اسطواناتها تباع بمئات الألوف بين الزنوج قبل أن يعرف البيض من هي ماهاليا جاكسون . أذكر أنني قرأت مرة أن الأخت ماهاليا قالت أنها كانت كلما وجدت الفرصة تختلسها وتذهب متخفية لتغني مع بني جنسها في كنائس الجيتو الأسود . وكانت تسمي ذلك محطة زادها .

الزنوج المسيحيون الذين كنا « نصطادهم » كانوا مهيئين للصدمة التي كنت أفاجئهم بها عندما أحدثهم عما يجري لهم بينما هم يعبدون إلهاً أشقر ذا عيون زرقاء . آه

لو استطعت الوصول إليهم لكنت أذن ملأت بهم معابدنا . كنت أفصل خطبتي على مقاسهم وأبدأ الحديث والعاطفة تجيش بي أحياناً لدرجة أنني كنت أضطر لتوضيح السبب لهم :

« أترون دموعي أيها الأخوة والأخوات . لم تدمع عيناي منذ أن كنت طفلاً . أنني لا أتمالك نفسي من ثقل المسئولية الملقاة على عاتقي لأوضح لكم للمرة الأولى ما فعلته بنا ديانة الرجل الأبيض التي نسميها المسيحية .

« أيها الأخوة والأخوات أرجو ألا يصدمكم هذا . أعلم أنكم لم تتوقعوا مثل هذا الحديث. لم يفكر أحد منا من قبل في ذلك ، أيها الأخوة والأخوات ، أنه ربما تكون هنالك ديانة خاصة بنا ، ديانة خاصة بالرجل الأسود . إننا نخطىء إذ لم نسأل أنفسنا هذا السؤال .

« نعم هناك دين خاص بنا اسمه الإسلام . دعوني أتهجاها لكم إ – س – ل – ا – م ! الإسلام ! سأحدثكم عنه بعد قليل ولكن علينا قبل ذلك أن نفهم بعض الأمور عن هذه المسيحية قبل أن ندرك أن حل مشكلتنا يقبع في قبولنا للإسلام .

« أيها الأخوة والأخوات : لقد علمنا الرجل الأبيض أن نتطلع إلى يسوع أشقر الشعر ، أزرق العينين . إننا نعبد يسوعاً لا يشبهنا في شيء . نعم ! نعم أخوتي . صبراً ! استمعوا إلى تعاليم مبعوث الله . استمعوا إلى الإيْجا محمد صاحب الشرف الرفيع . فكروا في ذلك . لقد علمنا الرجل الأبيض أن نعبد إلها أبيض . أن نصرخ ونغني ونصلي حتى الموت لتتحقق أحلامنا في جنة آخرة عندما نكون موتى بينما هذا الرجل الأبيض يلعق العسل واللبن في جنة شوارعها مرصوفة بالدولارات الذهبية هنا في هذا العالم !

« لا أخالكم إخوتي وأخواتي تودون تصديق ما أقول ولكني أقول لكم أخرجوا وتمعنوا فيما حولكم . تمعنوا في طريقة حياتكم وحياة من تعرفون وبذلك تدركون أنكم لستم وحدكم في ذلك . وبعد أن تتمعنوا في أحيائكم وأماكن سكنكم أنظروا في الجانب الآخر . أنظروا خلف حديقة سنترال بارك لتروا ما جلبه الإله الأبيض للرجل الأبيض . لا تقفوا عند ذلك ولا أعتقد أنكم ستتمكنون من الوقوف طويلاً فالحرس سينهركم « ابعدوا! » اركب مترو الأنفاق واذهب إلى وسط البلد وانزل في أي محطة تشاء وانظر إلى الشقق السكنية والعمارات . تقدم حتى تصل طرف جزيرة مانهاتن (نيويورك) التي سرقها الرجل الأبيض من الهنود الحمر الطيبين مقابل أربعة وعشرين دولاراً . انظر مبنى البلدية وشارع وول ستريت . ثم انظر إلى نفسك وإلى إلهه ! ».

تعلمت منذ عهد مبكر أهمية الخطابة بلغة يفهمها الناس وعندما وجدت أن غالبية المصلين في الكنائس المتواضعة التي كنا نصطاد منها كانوا نساءً ، أي على العكس من المستمعين في ندوات الوطنيين ، رأيت أن أقدم لهن شيئاً خاصًّا بهن . « أيتها النساء السود المليحات ! يعلمنا صاحب الشرف الرفيع أن الرجل الأسود لن يجد الاحترام الذي يسعى إليه إلا إذا احترم نساءه أولاً . أن على الرجل الأسود أن ينهض وينفض عن نفسه رداء الضعف الذي فرضه عليه المستعبد الأبيض . عليه أن يبدأ من اليوم في إيواء وحماية واحترام نسائه السود».

وعندما أصل إلى « كم منكم يصدق ما قلناه ؟ » ، كان الكل يقف إلا أن العدد الذي يقف عندما أنادي : « من كان يريد إتباع الإيْجا محمد صاحب الشرف الرفيع فليقف على قدميه » كان ما زال قليلاً .

كنت أعلم أن متطلباتنا السلوكية الصارمة هي أكثر ما ينفرهم ولذلك أصبحت أثير موضوعها في خطبي .

« الرجل الأبيض يريد لأخلاقنا الانحطاط ويريد لنا الجهل والقذارة . وطالما نحن على هذه الحال سنستمر نتسول عنده وسيستمر يتحكم فينا . أننا لن نحقق الحرية والعدل والمساواة حتى نبدأ في القيام بأمر أنفسنا.» كنا عادة نقوم بتوضيح المحرمات والمحللات عندنا لكل من يبدي أقل ميل للانضمام لنا . بدأ اسمنا في الانتشار في تلك الكنائس المتواضعة وبدأ الناس يحضرون للاستماع إلى خطبي لكنهم لا ينضمون وذلك في رأيي أساساً بسبب قواعد السلوك الصارمة عندنا . كان الزنا عند أمة الإسلام حراماً مطلقاً كذلك كان أكل لحم الخنزير الدنس وأي مواد ضارة بالجسم مثل الخمر والتبغ والمخدرات . كان محرماً على أتباع الايجا محمد الرقص ، والقمار ، والخروج مع الفتيات وزيارة السينمات أو المباريات الرياضية والتغيب عن العمل . كذلك ممنوع الشجار أو الإساءة إلى أحد خاصة إلى النساء . حرم علينا أيضاً الكذب والسرقة وعدم إطاعة السلطات إلا فيما يخالف الدين .

كان يقوم بمراقبة وتنفيذ قواعد السلوك جماعة ثمار الإسلام وهم شبان مسلمون قادرون متدربون ومخلصون . كان مستر محمد يعلق عضوية من يخالف هذه القواعد أو يأمر الناس بهجره لمدة أو الطرد «من الجماعة الوحيدة التي يعنيها أمرك » إذا كانت المخالفة كبيرة.

مع كل اجتماع كان أعضاء المعبد رقم ٧ يزيدون إلا أن سرعة نموه كانت أبطأ مما أود . كنت أسافر كثيراً في أثناء الأسبوع بالحافلة وبالقطار . وكنت أدرِّس في المعبد رقم ١٢ في فيلادلفيا أيام الأربعاء من كل أسبوع . كذلك ذهبت إلى مدينة

سبرنغفيلد في ولاية ماساتشوستس لكي أنشئ معبداً هنالك ، معبداً أعطاه الإليْجا محمد الرقم ١٣ وقد ساعد في تأسيسه الأخ اوزبورن الذي سمع عن الإسلام لأول مرة مني في السجن . كذلك طلبت مني سيدة استمعت إليَّ في سبرنغفيلد أن أحضر إلى هارتفورد حيث تقيم وحددت لي يوم الخميس التالي كما وعدت بأنها ستدعو الأصدقاء فما كان مني إلا أن أذهب إلى هارتفورد في ذلك الميعاد .

أيام الخميس هي عادة عطلة لخدم المنازل وكانت الداعية تسكن في أحدى عمارات المباني الشعبية الحكومية حيث يسكن معها في نفس العمارات حوالي خمسين من خدم المنازل والطباخين والسائقين وآخرون يعملون في بيوت البيض في منطقة هارتفورد . وكما يقولون « الملازم الخصوصي يعرف نقطة ضعف سيده » فالسود الذين يعملون في بيت الرجل الأبيض كانوا يستجيبون لنا بسرعة أكثر من الآخرين . كما أنهم اصطادوا لنا عدداً آخر من بينهم ولم يمض وقت طويل قبل أن ننشئ معبداً أعطاه مستر محمد الرقم ١٤ . كنت أذهب إلى هنالك كل خميس لإعطاء بعض الدروس .

كنت كلما زرت شيكاجو يقوم مستر محمد بتوبيخي حول نقطة ما في كل زيارة . وكنت دائماً أؤكد له أنه طالما تسلح تلاميذه بتعاليمه فستنمو الدعوة وتزدهر بدرجة أسرع . كان صبره وحكمته في توبيخي يجعلاني أشعر بالتواضع من رأسي إلى أخمص قدمي . قال لي ذات مرة أن القائد الحق لا يكلف قومه أكثر من طاقتهم وأنه لا يسأل الناس إلا وسعهم .

« كثير من الناس يعتقدون وهم يرون شخصاً يقود سيارته ببطء ، أن ذلك الشخص لا يرغب في السرعة » ، هكذا بدأ مستر محمد كلامه معي ، «ولكن ذلك الشخص يعلم أن القيادة بسرعة ستضر بسيارته لقدم تلك السيارة . لكنه حينما يتحصل على سيارة جديدة سيبدأ في الإسراع.» أذكر أنه قال لي مرة أخرى حينما تذمرت من عدم كفاءة أحد أئمته « خير لي أن يكون لدي بغل أستطيع الاعتماد عليه من أن يكون لي فرس جموح ».

كنت أدرك أن مستر محمد يبغي تلك السيارة السريعة ولا أعتقد أنك ستجد في أمة الإسلام في أمريكا مجموعة من الإخوة والأخوات كانت تقوم « بالصيد » مثل تلك المجموعة وفي مثل إخلاصها ونشاطها وهي تعمل في بوسطن وفيلادلفيا وسبرنغفليد وهارتفورد ونيويورك . ذكرت هذه المجموعة لأنني عرفتها عن قرب . كان ذلك في عام ١٩٥٥ العام الذي قمت فيه بأول رحلة طويلة . ذهبت لافتتاح المعبد رقم ١٥ في أطلانطا بولاية جورجيا . على كل مسلم ينتقل إلى بلدة غير بلدته أن يبذر بذور دعوة مستر محمد وكان أن انتقل الأخ جيمس إكس من المعبد رقم ١٢ إلى هنالك

ونجح في تجنيد عدد من الأخوة وعندما علم مستر محمد بذلك طلب مني أن أسافر وأعقد أول اجتماع للمجموعة . لقد كانت لي يد في انتشار معظم معابد مستر محمد إلا أنني لن أنسى افتتاح معبد مدينة أطلانطا .

المكان الوحيد الذي تمكن الأخ جيمس اكس من تأجيره كان قاعة حانوتي إذ أن جماعتنا كانت في تلك الأيام تعيش على الكفاف . عندما وصلنا وجدنا جموع جنازة زنجي مسيحي وهي تتصرف فانتظرنا ووقفنا نراقب المعزين ينصرفون .

بدأت موعظتي مشيراً إلى ذلك . « لقد رأيتموهم يبكون على من مات منهم جسدياً . ولكننا في أمة الإسلام نفرح بكم أيها الميتون عقلياً . سيصدمكم ذلك ولكنكم لا تعلمون أن كل الجنس الأسود في أمريكا ميت عقلياً . أننا نجتمع اليوم لنسمع تعاليم مستر محمد التي ستنتشل الرجل الأسود من الموت العقلي ».

بهذه المناسبة أقول إننا كنا دائماً ننجح في تجنيد مسلمين جدد من بين أقارب المسلم المتوفى الذين يحضرون طقوس جنازته القصيرة التي علمنا لها مستر محمد . «إن المسيحيين يقيمون جنائز للأحياء ولكننا نقيمها لمن يغادرون هذا العالم. » وبصفتي منستر مسئولاً عن عدة معابد كان عليَّ أن أقود طقوس الجنازة لمن يموت منا وكما علمني مستر محمد كنت أبدأ بالدعاء له فوق الكفن ثم أقرأ موجزاً لسيرة الميت الشخصية ثم أقرأ من سيرة أيوب قطعتين من الفصل السابع والرابع عشر اللذين يتحدث فيهما أيوب عن الحياة الآخرة ثم أقرأ من الفصل الذي يقول فيه داود عندما مات ابنه ألا حياة بعد الموت .

كنت أيضاً أشرح لهم لماذا لا ينبغي أن نبكي عليه أو نحمل الزهور إلى الميت أو نغني ونعزف الموسيقى . « لقد بكينا من أجله في حياته ، فليست هنالك حاجة لذلك الآن إذ أنه لن يحس بنا». بعد ذلك تقوم أخوات محددات بتمرير أطباق عليها قطع من حلوى النعناع يأخذ منها كل واحد من الحضور واحدة وبإشارة مني يضعونها في أفواههم . « نصطف الآن لنلقي النظرة الأخيرة على أخينا . لن نبكي مثلما لا نبكي على قطعة النعناع وكما تذوب حلاوتها في أفواهنا كذلك تذوب حلاوة أخينا التي استمتعنا بها في حياته لتبقى حلوة في قلوبنا ».

علمت من أكثر من مائتي مسلم أن أول شيء وجههم نحو الله كان حضور مراسيم جنازة أحد المسلمين إلا أنني علمت بعد ذلك أن تعاليم مستر محمد عن الموت وشعائر الجنازة التي يتبعها تتناقضان تماماً مع تعاليم وشعائر الإسلام الحقة .

وجدتنا سنة ١٩٥٦ وقد نمونا وزاد عددنا وأصبح معتبراً . لقد اصطادت مجموعة كل معبد عدداً كافياً لدرجة أن عدد المسلمين خاصة في المدن مثل نيويورك ، وشيكاجو وديترويت ، أصبح أكبر مما يتخيل أي شخص وكما تعلم فبالإمكان

أن يكون لديك منظمة كبيرة ولكن لأنها لا تقوم بجلبة أو استعراض ، لا يشعر بها الناس . ولم تكن زيادة عددية فقط بل بدأت النوعية تتغير . بدأ ينضم إلينا بعض المتعلمين والمهنيين والفنيين مما جعلنا نقترب من هدفنا بالحصول على السيارة السريعة لمستر محمد . انضم إلينا على سبيل المثال موظفو دولة ، ممرضات ، كتبة ، باعة في المحلات الكبرى وكان أجمل شيء هو تحول بعض هؤلاء الأخوة إلى وظيفة منستر متحمس ومتحفز ومقتدر من أجل مستر محمد .

لم أكن أنام إلا قليلاً حتى أستحق ثقته المتزايدة في واعتماده المتزايد عليَّ في بناء أمة الإسلام . وفي عام ١٩٥٦ أمر مستر محمد أسرة المعبد رقم ٧ بأن تشتري وتخصص لي عربة شفروليه جديدة . (كانت العربة ملك للأمة وليست ملكي فكل ما أملكه أنا لا يتعدى ملابسي ، ساعة يد وحقيبة وكانت المنظمة تدفع لي تكاليف معيشتي مع بعض مصاريف الجيب مثلي في ذلك مثل كل منستر في الجماعة . لم أعد أهتم بالمال علماً بأنني في السابق كنت على استعداد للقيام بأي شيء من أجل المال.) قال لي مستر محمد وهو يحدثني عن العربة أنه يعلم بحبي للترحال وبذر البذور الإسلامية في كل مكان ولذا فهو لا يريد لي أن أكون مقيد الحركة بدون عربة .

في مدى خمسة أشهر قطعت ثلاثين ألف ميل وأنا أصطاد بتلك العربة قبل أن يحدث لي حادث . كنا ، أنا وأحد الأخوان ، نمر بمدينة وذرفيلد بولاية كانتيكات في ساعة متأخرة من الليل ووقفنا عند الإشارة الحمراء حينما صدمتنا عربة من الخلف . لم يصب أي منا بأذى ولكن سائق العربية الأخرى كانت معه امرأة أخفت وجهها فتأكدت أنها ليست زوجته . كنا نتبادل بطاقات الهوية (عرفت منها أنه من سكان ميردين ، كانتيكات) حينما حضرت الشرطة وشعرت من اهتمامهم أنه شخص ذو أهمية وعرفت بعد ذلك أنه كان واحداً من أهم السياسيين في ولاية كانتيكات لكني لن أبوح باسمه . المهم في الأمر أن أسرة المعبد رقم ٧ قبلت التعويض الذي نصح محام بقبوله فاشترينا به عربة أولدزموبيل من نفس النوع الذي مازالت أقوده إلى اليوم .

كنت دائماً حريصاً على ألا تكون لي علاقة أو ما يفسر كذلك بأي من المسلمات الأخوات . كان ولائي والتزامي بالإسلام يمنعني من أي التزام آخر خاصة المرأة . وفي أكثر من مرة في أكثر من معبد كانت أخت أو أخرى تلمح لي بأني في حاجة إلى زوجة ولذلك كنت دائماً أوضح لهن ألا رغبة لي في الزواج على الإطلاق فمشغولياتي لا تسمح بذلك .

كنت في كل شهر أذهب إلى شيكاجو أجد أن أحدى الأخوات كتبت إلى

مستر محمد تشتكي أنني لا أنصف النساء عندما أتكلم عن طبيعة الجنسين في دروسي . كانت تعاليمنا تقول أن طبيعة الرجل هي القوة وطبيعة المرأة هي الضعف وأنه كما على الرجل احترامها عليه أن يمسك بقيادها إذا أراد لها أن تحترمه .

ولكن كانت لي أسبابي الخاصة في تلك الأيام . لم أكن أعتقد أن بإمكاني أن أحب امرأة بعد كل الذي رأيت وشاهدت بنات حواء يفعلنه من الخداع والكذب والنفاق . لقد رأيت رجالاً كثيرين حطمت المرأة حياتهم أو قيدتهم في طموحهم أو عقدت حياتهم . النساء يكثرن من الكلام ومنعهن من الكلام الكثير مثل منع جيسي جيمي (الكاوبوي) من أن يحمل السلاح أو منع دجاجة من الصياح . هل هنالك دجاجة يمكن منعها من القوقأة ؟ وهل يمكنك تخيل جيسي جيمس بدون بندقية ؟ وبالنسبة لشخص يحتل منصباً قيادياً مثلي ، الزواج بامرأة غير مناسبة أكبر خطأ . حتى شمسون أقوى رجل في العالم ، حطمته المرأة التي كانت تنام على حضنه وأكثر ما ساءه كان كلماتها .

ما أود أن أقوله أنني خبرت النساء بما فيه الكفاية وحادثت الكثير من العاهرات والعشيقات وكن يعرفن عن الأزواج أكثر مما تعرفه عنهم زوجاتهم . كانت الزوجات دوماً يشكين من أزواجهن إلى درجة أن الأزواج وجدوا ألا أحد على استعداد ليسمع شكواهم ألا العاهرات . كن يعتنين بهم ويقمن على راحتهم وينصتن لهم وهم يفضفضون ما بداخلهم .

المهم أنه مضت عليَّ عشر سنوات ولم أفكر بامرأة ووضعي الجديد كمنستر جعلني أفكر أقل مما سبق في الزوجة كما أن مستر محمد كان يشجعني على أن أبقى عازباً . كانت الأخوات في المعبد رقم سبعة يغظن الأخوة قائلات لهم « أنكم باقون عازبون لأن الأخ منستر مالكوم لا يهتم بالنساء». أنا شخصيًّا لم أخف عدم اهتمامي بالنساء كما أنني كنت أنصح الأخوان بالحذر منهن .

هنالك أخت كانت انضمت لتوها لمعبدنا في عام ١٩٥٦ وكنت قد بدأت ألاحظها بدون أية أفكار أو اهتمام خاص واستمر ذلك لمدة عام . لم تكن لتعلم أنني أفكر بها وقد تظن أنني لا أعرف اسمها حتى . كان اسمها الأخت بتي إكس . كانت طويلة ، سمراء ، لونها أغمق من لوني وعيونها عسلية . وكنت أعرف أنها من ديترويت وأنها درست التربية في كلية طسكيجي في ولاية الاباما . كانت تدرس التمريض في أحد كليات التمريض الكبرى في مدينة نيويورك كما أنها تحاضر الأخوات المسلمات عن الصحة والنظافة .

قبل أن أستمر دعني أوضح لكم أنه كان هنالك نشاط مسائي كل يوم بالمعبد . في مساء الاثنين يتدرب شباب ثمار الإسلام تدريباً ليس عسكريا فحسب بل يشمل

محاضرات ونقاشاً عن الرجولة الحقة وأشياء أخرى مثل مسئولية الزوج والأب ، ماذا تتوقع من المرأة ، حقوق النساء التي على الرجال احترامها ، أهمية دور الأب في البيت ، الأحداث الراهنة ، أهمية الأمانة والطهارة وأهمية البيت والمجتمع والأمة والحضارة ، لماذا علينا أن نستحم مرة كل أربع وعشرين ساعة على الأقل ، مبادئ إدارة الأعمال إلخ .....

مساء الثلاثاء كان ليلة الوحدة في كل معبد حيث يجتمع الأخوة والأخوات للتعارف والحديث مع بعضهم البعض وتناول المرطبات والحلويات . في أمسيات الأربعاء في الثامنة ينعقد ما يسمى انخراط الطلاب حيث تناقش المواضيع المهمة في الإسلام أي ما يعادل التعلم بالسؤال في الكاثوليكية . في مساء الخميس من كل أسبوع يعقد ما يسمى بتدريب الفتيات المسلمات (ت. ف. م.) وصف الحضارة العامة (ص. ح. ع .) حيث تتدرب الفتيات والنساء على التدبير المنزلي مثل رعاية الأطفال والاهتمام بالأزواج ، الطباخة والحياكة والسلوك الحميد داخل وخارج البيت وكل الأشياء التي ينبغي على الأخت المسلمة والأم المسلمة والزوجة المسلمة معرفتها .

مساء الجمعة كان مخصصاً لما يسمى ليلة المدنية حيث تعقد فصول لكل الأخوة والأخوات في مجال العلاقات الأسرية تؤكد على أهمية معرفة واحترام الزوج والزوجة لطبيعة كل منهم الحقة . أمسيات السبت كانت أمسيات حرة متروكة لفعل ما يشاءون وغالباً يتزاورون مع بعضهم فيها . وأيام الأحد طبعاً كانت أيام الصلاة في المعبد .

كنت أحياناً أذهب في أيام الخميس ، أيام تدريب الفتيات المسلمات وفصل الحضارة العامة ، وأمر على بعض الفصول وربما مررت على فصل الأخت بتي اكس مثلما كنت أمر على بعض الفصول الأخرى في باقي ليالي الأسبوع . في البداية كنت أسألها عن أشياء مثل سير تعليم الفتيات وكانت ترد قائلة : « حسن أيها الأخ المنستر » فأرد : « شكراً ، أيتها الأخت » ، وذلك كل ما في الأمر . بعد مدة أصبحت أتبادل معها بعض الحديث القصير تهذباً . في أحد المرات رأيت أنه قد يكون من المفيد لفصولها لو أخذتها إلى متحف التاريخ الطبيعي . أردت أن أريها بعض الصور عن شجرة التطور لتساعدها في محاضراتها . كنت سأريها الدليل على صحة تعاليم مستر محمد وعن كيف أن الحلوف القذر مجرد حيوان قارض كبير وأنه هجين بين الجرذ والقط والكلب كما علمنا مستر محمد . ذكرت ذلك للأخت بتي اكس ووضحت لها أن ذلك سيكون لمساعدتها في التحضير لمادتها فقط . حتى أنا أقنعت نفسي بذلك .

عندما حل موعد الزيارة اتصلت بها هاتفياً وأخبرتها بأنني مضطر لإلغاء الميعاد لأمر هام . ردت قائلة : « لقد انتظرت طويلاً قبل أن تخبرني بذلك . لقد كنت في

طريقي إلى الخارج ، أيها الأخ المنستر». أجبتها معتذراً وقلت لها أننا سنذهب على أية حال ولكننا لن نقضي وقتاً طويلاً . ونحن هناك سألتها بعفوية عن عدة أشياء لأنني كنت أود أن أعرف طريقة تفكيرها . كنت نصف منبهر بذكائها وثقافتها إذ أنها كانت من قلائل المتعلمين الذين انضموا إلى الدعوة .

بعد ذلك اليوم مباشرة اتصلت بي أحد الأخوات وأسرت إليَّ عن مشكلة خاصة تعترض الأخت بتي اكس . اندهشت لأن الأخت بتي لم تخبرني عندما سنحت لها الفرصة . كان كل شاب مسلم يحكي للمنستر عن رفض أبويه له لاختياره الإسلام . وعندما أخبرت الأخت بتي اكس أبويها بالتربية أنها صارت مسلمة تركوها بين خيارين : إما أن تترك المسلمين أو يوقفوا تمويل تعليمها في مدرسة التمريض .

كانت قد قاربت إكمال فترتها الدراسية ولكنها تمسكت بالإسلام ولذا بدأت تعمل في دار حضانة لأطفال الأطباء الذين يسكنون في المستشفى الذي تتدرب فيه . من جانبي ما كنت لأقوم بأي تحرك إلا إذا تأكدت من أثره على تنظيم أمة الإسلام ككل . بدأت أقلب الأمر في ذهني . ماذا سيحدث إذا فكرت في الزواج من شخص ما ؟ كالأخت بتي إكس مثلاً أو أية أخت أخرى ، في أي معبد ، إلا أن الأخت بتي إكس مثلاً ستكون ملائمة من حيث الطول والعمر خاصة مع طولي . لقد علمنا مستر الايْجا محمد أن زواج الرجل الطويل بامرأة جد قصيرة أو العكس سيكون أمراً شاذًا وغير متناسق كما علمنا أن العمر المثالي للزواج هو أن يكون عمر الزوجة نصف عمر الرجل زائداً سبعة أعوام . علمنا مستر محمد أيضاً أن الفتيات يسبقن الصبيان في النضج الجسدي وأن الزواج لن ينجح إذا لم تنظر المرأة لزوجها باحترام وأن الرجل يجب أن يفوق المرأة في كل شيء إذا كان لها أن تجد الأمان النفسي عنده .

تعجبت من نفسي حينما وجدت نفسي أفكر بتلك الطريقة وصرت أمنع نفسي من الذهاب ناحيتها أو أي مكان أعلم أنها ستكون فيه . كنت أخرج من مطعم المسلمين إذا أتته وأنا داخله وكنت مسرورا أنها لم تكن لديها أدنى فكرة عما يجول بخاطري . كما أن عدم حديثي معها لن يعطيها فكرة عما في ذهني لأننا لم يحدث أن تحدثنا حديثا شخصيا حتى لو فكرت هي في ذلك .

فكرت فيما سيحدث لو قلت لها شيئا وماذا سيكون موقفها ؟ قررت أنني لن أعطيها الفرصة لترفضني فلقد سمعت ما فيه الكفاية عن فتيات يتفاخرن: « لقد قلت للمغفل أغرب عن وجهي ».

علمتني تجاربي أن أكون حذراً .

سررت حينما علمت أن عدد أقاربها قليل لأنني كنت أري الأنسباء عقارب وقد

شاهدت كثيراً من الزيجات بين مسلمي المعبد رقم سبعة تتحطم بسبب الأنسباء الذين يكرهون المسلمين عادة أكثر من أي سبب أخر .

لم أكن أنوي أن أغمرها بذلك الحديث الرومانسي مثل ما يحدث في أفلام هوليود والتلفاز الذي ملأوا به أذهان النساء . وإذا كنت سأقول شيئاً فسيكون ذلك بطريقة مباشرة وكل شيء فعلته في حياتي قمت به بطريقتي الخاصة ولأنني شئت ذلك وليس لأنني رأيت شخصاً يفعل ذلك أو لأنني قرأت عنه أو رأيته في السينما في مكان ما .

أخبرت مستر محمد عندما زرته في شيكاجو في ذات الشهر أنني أفكر باتخاذ خطوة كبيرة فأبتسم عندما أخبرته بما أنوي . أخبرته أنني أفكر في ذلك فقط مجرد تفكير وطلب أن يقابل الأخت المقصودة . ومن حسن الحظ أن الجماعة كانت في ذلك الوقت قادرة ماليًّا على تنظيم دروس خاصة في المعبد الرئيسي في شيكاجو للأخوات المعلمات حيث يدرسن ويتمكن من مقابلة صاحب الشرف الرفيع شخصيا . لذلك لم يراود الأخت بتي إكس أدني شك عن السبب في دعوتها لتنضم إلي المجموعة الذاهبة إلى الدراسة في شيكاجو ومثلها مثل بقية الأخوات المشتركات في البرنامج نزلت ضيفة في منزل مستر محمد وزوجته الأخت كلارا محمد .

أفادني مستر محمد بعد ذلك أنه يري في الأخت بتي إكس فتاة ممتازة .

إذا كنت تفكر في عمل شيء ما فخير لك أن تحسم الأمر إذا كنت ستقوم به أم لا . لذلك وفي مساء أحد أيام الآحاد بعد نهاية الاجتماع في المعبد ركبت عربتي في طريق الولاية الخضراء (نيوجيرسي) متجهاً إلى ديترويت لزيارة أخي ولفرد . كان ولفرد قد أصبح منستر لمعبد ديترويت في العام السابق أي في عام ١٩٥٧ ولم أكن قد رأيته أو أي فرد من أسرتي منذ مدة طويلة . دخلت ديترويت في حوالي العاشرة صباحاً ووقفت عند محطة بترول ثم اتصلت هاتفياً بالأخت بتي إكس . اضطررت أن أتصل باستعلامات دليل الهاتف أولاً لأحصل علي رقم هاتف بيت الممرضات في المستشفي الذي تعمل فيه لأنني كنت عمداً رفضت تذكر رقمها . وأخيراً حصلت علي رقمها وأجابت : « نعم هالو . الأخ منستر . » دخلت مباشرة في الموضوع : « انظري . هل تودين الزواج ؟ ».

من الطبيعي أن بدا في صوتها الاندهاش والصدمة . وكلما أفكر في هذا الموضوع حتى اليوم أؤمن بأنها كانت تتصنع الدهشة لأن للنساء حاسة وحدساً . قالت ما توقعت « نعم » فقلت حسناً ليس لدي الوقت الكثير وعليها أن تركب أول طائرة

إلى ديترويت . وصلت فعلاً في أول طائرة وذهبت وقابلت أبويها بالتربية اللذين كانا قد تصالحا معها . كانا ودودين وقد فاجأتهم الأخبار السارة أو علي الأقل ذلك ما بدا لي . بعد ذلك أخذت الأخت بتي إكس إلى منزل أخي الأكبر ولفرد وقدمتها له وقد كنت سألته من قبل عن أسرع مكان يمكن أن يتزوج فيه الإنسان بدون انتظار أو تعقيدات إجرائية فقال في ولاية انديانا .

في صباح اليوم التالي ذهبت مبكراً إلى منزل والديها وأخذت بتي ثم ركبنا السيارة إلى ولاية أنديانا أولا . وجدنا القانون قد تغير منذ أيام قليلة وأصبحت مدة الانتظار طويلة . كان ذلك في يوم الثلاثاء الرابع عشر من يناير عام ١٩٥٨ . لم نكن بعيدين عن مدينة لانسنج حيث يسكن أخي فلبرت فقدت العربة إلي هنالك . كان فلبرت في العمل حينما وقفنا عند منزله فقدمت بتي إكس إلى زوجة فلبرت وتركتهما تتبادلان الحديث واتصلت هاتفياً بالسلطات المختصة فوجدت أنه يمكننا الزواج في يوم واحد إذا تحركنا رأساً . قمنا بإجراء الفحوصات الطبية اللازمة ثم ملأنا الاستمارة وكتبت في مكان الديانة « مسلم » ثم ذهبنا إلى مكتب القاضي المختص . وجدناه رجل ابيض احدب الظهر فقام بأداء مراسيم الزواج . كل شهود الزواج كانوا من البيض وفي الوقفات التي سئلنا فيها أثناء المراسم أجبنا بنعم في الأماكن المفروضة . كانوا كلهم وقوفاً يبتسمون ويتفرجون علينا إلى أن قال الشيطان العجوز : «بهذا أشهركم كزوج وزوجته . والآن يمكنك أن تقبل العروس ».

خرجنا من ذلك المكان وفي ذهني خزعبلات هوليود حيث تنتظر العروس من العريس أن يحملها علي ذراعية ويقفز من فوق عتبة الدار بينما بعضهن أثقل وزناً من العريس . كم من زواج تحطم بسبب الأفلام والتلفاز اللذين تدمنهن النساء حيث يتوقعن من أزواجهن باقات الزهور والقبلات والأحضان والمطاعم الفاخرة والمراقص الزاهية وكل أحلام سندريللا ثم بعد ذلك يستأن حينما يعود الزوج المسكين الهزيل مرهقاً من العمل متوقعاً طعاماً يكفي أوده بعد أن كد كالكلاب طول اليوم .

تناولنا طعام العشاء في منزل فلبرت في لانسنج وقلت له عندما دخل « عندي لك مفاجأة.» رد علي بقوله : «لا لم تفاجئني». وأخبرني أنه عندما عاد وعلم أنني قدمت لهم أختاً مسلمة تأكد أنني تزوجت أو بسبيل الزواج .

كان علي بتي أن تعود إلى نيويورك رأساً لمتابعة دراستها علي أن تعود في خلال أربعة أيام. زعمت لي أنها لم تخبر أحداً من المعبد رقم سبعة أننا تزوجنا . وفي يوم الأحد في ذات الأسبوع كان مستر محمد سيحاضر في معبد ديترويت رقم واحد فاتصلت بمساعدي في نيويورك إذ أصبح لي منستر مساعد , وطلبت منه أن يأخذ مكاني في الصلاة . في يوم السبت عادت بتي وأشهر مستر محمد زواجنا بعد

محاضرته يوم الأحد . حتى في ميشجان لم تصدق الأخوات ذلك نسبة لابتعادي عن كل الأخوات .

عدنا معاً بالسيارة إلى نيويورك حيث أحدث الخبر هزة شديدة بين أعضاء المعبد رقم ٧ . نظر إليَّ بعض الإخوان الشباب وكأني خنتهم والكل فاغر فاه . كادت الأخوات أن يأكلن بتي ولن أنسى ما سمعت إحداهن تقوله لها « لقد رميته في الشرك». تلك طبيعة النساء كما أوردت قبلا فالرجل في نظرهن صيد ثمين وذلك هو السبب في أنني كنت دائما أعتقد أنها كانت تعلم ما يدور في ذهني طوال ذلك الوقت . ربما اصطادتني فعلاً .

في العامين ونصف التاليين كنا نقيم في منطقة كوينز بمدينة نيويورك نشارك الأخ جون علي وزوجته بيتاً يتكون من شقتين . حالياً يعمل الأخ علي كأمين عام للجماعة في شيكاجو . ولدت ابنتي الكبرى – أتيلا ، في نوفمبر ١٩٥٨ وقد أسميتها على أتيلا المغولي الذي دمر روما . بعد ميلادها بفترة وجيزة انتقلنا إلى البيت الذي نقيم فيه الآن والذي يتكون من سبع غرف في أحد أحياء كوينز السوداء في لونج آيلاند . كذلك ولدت قبيلة (أسميناها على قبيلة خان) في يوم عيد الميلاد عام ١٩٦٠ . ثم ولدت اليسع (الاسم العربي المقابل لالإليْجا) في يولية ١٩٦٢ وفي عام ١٩٦٤ ولدت بنتنا الرابعة أميلا .

يمكنني الآن أن أقول : إنني أحب بتي وهي المرأة الوحيدة التي فكرت في حبها كما أنها واحدة من قلائل النساء (أربعة) اللائي أثق بهن إطلاقا. بتي امرأة مسلمة وزوجة صالحة والإسلام هو الدين الوحيد الذي يجعل الرجل والمرأة يعرفان معنى الحب الحقيقي. إذا فكرت في معنى الحب عند الغربيين ستجد أنه ليس إلا شبقاً لكن الحب الحقيقي فوق ذلك. إنه ميول وسلوك ومواقف وتفكير وأشياء تحبونها سوياً وأشياء تكرهونها سوياً. تلك هي المرأة الجميلة والزوجة الجميلة وذلك هو الجمال الذي لا يفنى. في الحضارة الغربية تفقد المرأة جاذبيتها عندما يزول جمالها الجسدي إلا أن الإسلام يعلمنا أن نبحث عن ما هو أعمق من ذلك في نظرتنا للمرأة وكذلك يُعَلِّم المرأة أن تبحث عن جمال الروح.

ذلك ما تفعله بتي ولذا فهي تفهمني. أنا شخصياً لا أظن أن هنالك سيدات كثيرات على استعداد لتحمل طريقتي في الحياة. أن العمل من أجل صحوة الرجل الأسود لينهض من غفوته وفضح الرجل الأبيض الشيطان يتطلب تفرغاً تامًا وبتي تعي ذلك. عندما أكون بالمنزل ولدي عمل ينبغي عليَّ أن أؤديه ، توفر لي بتي الهدوء المطلوب رغم قلة وجودي بالمنزل إذ أنني لا أبقى بالبيت أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام من كل أسبوع وقد غبت مرة عن البيت لمدة خمسة أشهر. ولا أجد عادة الوقت الذي أتمكن فيه من

اصطحابها للترفيه عنها في أي مكان مع علمي أنها تحب أن تبقى بجانب زوجها. لقد اعتادت على اتصالي بها هاتفياً من المطارات ، من بوسطن إلى سانفرسيسكو ، ميامي إلى سياتل – وكما بدأ يحدث مؤخراً – من القاهرة وأكرا ومن مكة المكرمة. قالت لي مرة بالتلفون وأنا بعيد وفي لغة جميلة لا أنساها :

« إنك حاضر حتى في غيابك ».

في ما تبقى من ذلك العام وبعد زواجي من بتي كنت أرهق نفسي محاولاً أن أكون في كل مكان في نفس اللحظة لمساعدة الجماعة كي تنمو. كنت أحاضر مرة كمتحدث زائر في معبد بوسطن عندما أنهيت حديثي بالسؤال : « من منكم يود أن يتبع الإليْجا محمد صاحب الشرف الرفيع ؟ ». وفجأة والدهشة تغمرني رأيت أختي إللا من بين من وقفوا. عندنا مثل يقول أن الذين يؤمنون بعد لأي وعناد يصبحون من خير المسلمين وقد قضت إللا خمس سنوات قبل أن تقتنع.

ذكرت لك ، أيها القارئ ، أنه وفي المدن الكبيرة قد توجد منظمة كبيرة لكنها تبقى مجهولة للكثيرين إلا إذا حدث شيء يضعها تحت الأضواء ويجذب أنظار الجمهور. لم يكن أي منا في أمة الإسلام يتوقع ما حدث في هارلم ذات مساء.

بدأت القصة عندما كان اثنان من رجال الشرطة البيض يفضان شجاراً بين بعض الزنوج ويأمران المارة بالتحرك والابتعاد . كان من بين أولئك المارة أخ مسلم يدعى جونسون هينتون وأخ مسلم آخر من المعبد رقم سبعة. لم يجريا أو يهرولا كما هرول بقية الزنوج طاعة لرجال الشرطة البيض فما كان من رجل الشرطة إلا أن هاجمهما بالهراوات وجرح الأخ هنتون في رأسه ثم حضرت سيارة شرطة وأخذته. اتصل الأخ الثاني بالمطعم هاتفياً وبعد عدة محادثات هاتفية بين الأخوة تجمع قرابة الخمسين فرداً من شباب ثمار الإسلام واصطفوا في طابور أمام مركز الشرطة.

بدأ الزنوج الآخرون يتجمعون في فضول لمعرفة ما يحدث ووقفوا خلف المسلمين وعندما نظر أحد رجال الشرطة من النافذة لم يصدق عينيه. كنت داخل نقطة الشرطة بصفتي منستر للمعبد رقم سبعة وطلبت رؤية أخينا المسلم. في البداية أنكر رجال الشرطة وجوده ثم اعترفوا بذلك لكنهم لن يسمحوا لي بمقابلته فقلت لهم : إننا لن نترك المكان حتى نراه ونتأكد أنه سيجد العناية الطبية الكافية.

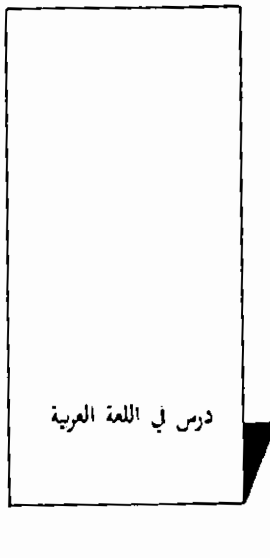
أصابهم الهلع من الجمع خارج النقطة وعندما دخلت ورأيت أخانا هينتون لم أتمالك نفسي من الغضب. كان الدم يغطي رأسه ووجهه وكتفيه وهو في شبه حالة إغماء. أتمنى ألا أرى مثل ذلك المنظر الذي يوضح قسوة الشرطة مرة ثانية في حياتي . أخبرت الملازم المسئول أن مكان ذلك الرجل هو المستشفى . أحضروا عربة إسعاف أخذت الأخ هينتون إلى مستشفى هارلم فتبعناه نحن المسلمين في جماعات متفرقة

لمسافة ١٥ مربعاً على طول شارع لينوكس أكثر شوارع هارلم ازدحاماً . لم ير الزنوج منظراً مثل ذلك من قبل فخرجوا من المحال والمطاعم والحانات مما زاد التجمهر كثافة.

كان الجمهور كبيراً وغاضباً خلف جماعة المسلمين أمام مستشفى هارلم . لقد فاض الكيل بسكان هارلم السود وزاد حنقهم من قسوة رجال الشرطة لكنهم لم يروا جماعة سوداء تقف مثل ذلك الموقف من قبل. تقدم نحوي أحد كبار رجال الشرطة وطلب مني تفريقهم. أخبرته أن الأخوان كانوا يقفون في هدوء وانضباط ولا يمسون أحداً بأذى . فرد عليَّ أن الذين خلفهم ليسوا منضبطين. رددت عليه بأدب أنهم ليسوا من شأني.

عندما أكد لنا الأطباء أن الأخ هنتون يلقى العناية التامة أعطيت أوامر بتفرق المسلمين. كان الزنوج الآخرون يغلون من الغضب ولكنهم تفرقوا أيضاً عندما تركنا نحن المكان. علمنا بعد ذلك أن علاج الأخ هنتون تطلب وضع قطعة من الحديد الصلب في جمجمته. (بعد العملية عاونته جماعة الإسلام أن يرفع دعوى قضائية مطالباً بالتعويض فحكم له المحلفون بمبلغ ٧٠ ألف دولار كانت أكبر تعويض يمنح في قضية عن وحشية الشرطة في تاريخ مدينة نيويورك.)

بالنسبة لملايين القراء لصحف نيويورك كانت القصة في ذلك الوقت مجرد واحدة من قصص القلاقل العنصرية التي تحدث بين حين وآخر لأن الصحف لم تشأ إبرازها. لكنني متأكد أن سلطات الشرطة رجعت ودرست ملفاتها عن جماعة الإسلام وأصبحت تنظر إلينا من منظار جديد . إلا أن أهم شيء هو أن صحيفة أمستردام نيوز ، صحيفة أكبر تجمع للزنوج في هارلم ، أعطت الحادث تغطية شاملة وجعلته على رأس الأخبار ولأول مرة أصبح كل رجل وامرأة وطفل أسود يتحدث عن « أولئك المسلمين ».



درس في اللغة العربية





تظاهرة في شوارع نيويورك واللافتات تقول « الله أكبر » بالانجليزية

■ الباب الرابع عشر

المسلمون السود

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



في ربيع عام تسع وخمسين وتسعمائة وألف – قبل عدة أشهر من حادثة الأخ جونسون هينتون التي نبهت جيتو هارلم الأسود إلى وجودنا – اتصل بي ذات صباح صحفي زنجي يدعى لِوي لوماكس كان يسكن في نيويورك وسألني إن كانت جماعتنا على استعداد للتعاون في تصوير فيلم وثائقي عنا ليظهر في برنامج مايك والاس التلفازي الذي يركز على المواضيع العامة المثيرة للجدل. أخبرت لوي لوماكس أن شيئاً مثل ذلك من الطبيعي أن يراجع فيه صاحب الشرف الإلْيجا محمد فطار لوماكس إلى شيكاجو لاستشارة مستر محمد الذي سأله بعض الأسئلة وحذره من الأشياء التي يجب تحاشيها قبل أن يوافق على فكرة الفيلم.

بدأ المصورون يلتقطون مشاهد لجماعة الإسلام بالقرب من مساجدنا في نيويورك ، شيكاجو وواشنطن د. س. كما صورت مشاهد لمستر محمد وبعض أئمته بمن فيهم أنا ونحن نلقي بعض الدروس لمستمعين سود ونعرفهم بالحقائق عن الرجل الأسود مغسول المخ وعن الرجل الأبيض الشرير.

في حوالي نفس الفترة اختار طالب دكتوراه في جامعة بوسطن يدعى س. إريك لنكون أن يكتب رسالته عن جماعة الإسلام . ما أثار اهتمام لنكون ، كان موضوع كتبه أحد طلبته في العلوم اللاهوتية عندما كان لنكون يُدرِّس في كلية كلارك بمدينة أطلانطا بولاية جورجيا في العام السابق وقد وضع لنكون مقدمة تلك الورقة في

كتابه وسأسجلها هنا نقلاً عنه. كانت تلك المقدمة ببساطة هي قناعة واحد من عديد من طلاب أطلانطا السود كان كثيراً ما زار معبدنا المحلي رقم ١٥ هنالك .

كتب ذلك الطالب ما يلي : « الديانة المسيحية لا تتناسب مع طموح الرجل الزنجي للكرامة والمساواة في أمريكا . لقد أعاقته حين كان يجب أن تساعده ، كانت تتهرب من المواجهة بينما يحتم الواجب الخلقي أن تكون صريحة . لقد فرقت المسيحية بين أتباعها على أساس اللون بينما هدفها المعلن هو الأخاء العالمي تحت راية يسوع المسيح . الحب المسيحي هو حب الرجل الأبيض لنفسه ولعنصره . أما بالنسبة لغير البيض فالإسلام هو أملهم في العدالة والمساواة في العالم الذي علينا بناؤه من أجل الغد».

قام لنكون بعد ذلك ببحث مبدئي فسحره الموضوع وتمكن من الحصول على بعض المنح المالية ووجد الناشر المشجع فوسع رسالته العلمية لتصبح كتاباً .

في داخل جماعتنا الصغيرة كان لهذين الحدثين – برنامج تلفازي وكتاب عنا – صدى كبير . أصبح كل مسلم يتطلع بسعادة إلى انتشار تعاليم مستر محمد وسط الأخوة والأخوات السود في جميع أرجاء أمريكا وبين الشياطين البيض أيضاً وذلك بواسطة جهاز الرجل الأبيض الإعلامي الواسع النفوذ والانتشار .

من جانبنا قمنا بمجهودات محدودة لاستخدام قوة الكلمة المطبوعة . كنت قبل ذلك بمدة قد قمت بزيارة لمستر جيمس هيكس محرر صحيفة أمستردام نيوز التي تنشر في هارلم فأكد لي أن أي صوت في مجتمعنا يستحق أن يسمع . بعد ذلك بفترة وجيزة خصص العدد الأسبوعي من **أمستردام نيوز** عموداً أكتبه أنا ثم وافق مستر محمد على أن يشغل ذلك العمود فانتقلت بعمودي للكتابة في صحيفة لوس أنجلوس هيرالد ديسباتش وهي جريدة زنجية أخرى. لكنني كنت أتشوق إلى إصدار جريدة خاصة بنا نملأها بأخبار جماعتنا الإسلامية .

بعثني مستر محمد في عام ١٩٥٧ إلى لوس أنجلوس لتنظيم معبد هناك وما إن انتهيت من ذلك إلا وقمت بزيارة جريدة **الهيرالد ديسباتش** التي تصدر من هنالك وبدأت أقوم ببعض الأعمال هنالك . تركوني أراقب عملية إصدار جريدة عن كثب . لقد حباني الله بميزة وهي أنني إذا راقبت شيئاً مرة واحدة أستطيع عادة تعلم طريقة عمله من تلك المرة الواحدة . « الالتقاط » السريع من أهم قوانين البقاء في الشوارع التي كنت أحد زعرانها .

اشتريت آلة تصوير مستعملة بعد أن عدت إلى نيويورك ولا أدري كم فيلماً استهلكت قبل أن أتمكن من أخذ لقطات مقبولة وكنت أكتب بعض الأخبار عن جماعتنا الإسلامية في كل فرصة أجدها . كنت أقضي يوماً كل شهر مقفولاً في

غرفة وأنا أجمع المواد والصور التي عندي لأقدمها لأي طابع أتفق معه لإخراج جريدة أسميتها **محمد يتكلم** يبيعها الأخوة المسلمون في شوارع الجيتو . لم أكن أدري يومها أنه سيأتي يوم يمنع اسمي من الظهور في الجريدة التي أنشأتها بيدي وذلك بسبب الغيرة التي بدأت تأكل في منظمتنا .

على أية حال كانت الشهرة في طريقها إلينا عندما أرسلني مستر محمد في رحلة إلى أفريقيا لمدة ثلاثة أسابيع . وبالرغم من صغر جماعتنا في ذلك الوقت بعثت بعض الشخصيات الأفريقية والآسيوية كلمة إلى مستر محمد يثنون فيها على جهوده لإيقاظ الشعب الأمريكي الأسود والنهوض بوضعه . أحياناً كانت الرسالة تتم بواسطتي إذ أنني قمت بزيارة مصر والسعودية ثم السودان ونيجيريا وغانا كمبعوث لمستر محمد .

غالبًا ما تسمع كثيراً من الزنوج اليوم يشتكون من أن تلفاز ومذياع وإعلام الرجل الأبيض عامة هو الذي دفع بالمسلمين إلى المسرح العالمي . لن أغالط في ذلك فهم محقون تماماً . أننا حتى في أمة الإسلام لم يتوقع أي منا أن يحدث ما بدأ يحدث .

في أواخر عام ١٩٥٩ أذيع البرنامج التلفازي الشهير : «البغض الذي أولده البغض»... اختير ذلك العنوان بعناية ووضع بين مناظر مثيرة ... مستر محمد وأنا وآخرون نخطب ... وجوه صارمة لرجال سود ... شباب ثمار الإسلام ... نساء مسلمات محجبات من كل الأعمار في رداء أبيض ... مسلمون في مطعمنا وأعمالنا التجارية الأخرى ... مسلمون وسود آخرون يدخلون ويخرجون من معابدنا .

كل جملة وضعت بطريقة لتزيد الصدمة . وكما قصد المخرجون ، تجمد الناس في مقاعدهم عندما انتهى البرنامج . كانت ردة فعل الجمهور مماثلة لما حدث في عام ١٩٣٠ عندما أثار أورسون ويلز الفزع في أمريكا بإعلانه خبراً من المذياع عن غزو رجال من كوكب المريخ لكوكب الأرض وقدمه بطريقة مثيرة وكأنما هو [illegible]تيقة .

لم يقفز الناس من النوافذ بعد برنامج « البغض » مثلما قفزوا عند سماع الغزو المريخي للأرض لكن كان هنالك سيل من ردود الفعل واعتقد أن عنوان البرنامج «البغض ... البغض» هو السبب الأساسي لذلك . مئات الألوف من سكان نيويورك ، بيضاً وسوداً ، كانوا ينادون لبعضهم : « هل سمعت بذلك ؟ هل رأيت ذلك ؟ الدعوة لكراهية الرجل الأبيض ! ».

تلك واحدة من صفات الرجل الأبيض السلوكية فيما يختص بالرجل الأسود . الرجل الأبيض يحب نفسه لدرجة أنه يستغرب عندما يكتشف أن ضحاياه لا تشاركه رأيه المغتر عن نفسه . لقرون عديدة كان المتوقع من الضحايا السود ،

الضحايا المستغلين والمعذبين أن يبتسموا ويتسولوا ثم ينافقوا ويرددوا « نعم سيدي » وكان كل شيء على ما يرام في نظر البيض . أما الآن فقد تغيرت الأمور . كانت الصحف البيضاء في المقدمة وكتابات محرريها ومعلقيها تقول أشياء مثل : « مخيف » ... « رسل الحقد » ... « تهديد العلاقات الطيبة بين الأجناس » ...

« الانفصاليون السود » ... « العنصريون السود » وما شابه ذلك .

وقبل أن يجف المداد في الصحف اليومية بدأت كبرى المجلات الأسبوعية القومية تردد : « رسل البغضاء » ... « الباحثون عن العنف » ... « العنصريون السود » ... « الفاشيون السود » ... « أعداء المسيحية » ... « المؤامرة الشيوعية ».

خرجت هذه من مطابع أكبر شيطان في التاريخ البشري وبعد ذلك قام الرجل الأبيض المستفز بخطواته التالية :

منذ أيام الرق احتفظ الرجل الأبيض دائما ببعض الزنوج اختارهم بعناية وجعلهم أحسن حالاً بكثير من جماهير السود المسحوقة التي تكد تحت الشمس في الحقول . اختار الرجل الأبيض زنوج « الدار » و « الساحة » هؤلاء للعمل كخدمه الخصوصيين وكان يرمي إليهم بكثير من الفتات من مائدته بل تركهم يأكلون في مطبخه . كان دائما يعتمد عليهم ليشعروه بالرضا عن نفسه وليحتفظ بصورته عن نفسه كشخص خيِّر وصالح مستقيم . كان السيد الجيد لا يسمع إلا ما يريد من أفواه «زنوج الدار » و « الساحة » هؤلاء . « إنك لسيد طيب وممتاز » أو « أواه ! يا سيدي . أولئك الزنوج في الحقول جد سعداء بوضعهم ، ولم لا ؟! إنهم لا يملكون الذكاء الذي يستحقون معه أن تفعل لهم أكثر من ذلك ، يا سيدي. »

نعم انتهى عهد الرق ولكن زنوج الدار والساحة ما زالوا موجودين ، فقط بطريقة مختلفة ، وذلك كل ما في الأمر . عندما يرفع الرجل الأبيض سماعة هاتفه ويتصل بزنوج « داره » و « ساحته » يجد أنه لا يحتاج حتى لتلقين هؤلاء الالعوبات ما يقولون . لقد شاهدوا البرنامج التلفازي وقرأوا الأخبار في الصحف ثم بدأوا في تحضير تصريحاتهم . كانوا يعرفون ما عليهم القيام به . لن أسميهم بأسمائهم ولكنك إذا أعددت قائمة بأسماء من يسمون بقادة الزنوج في عام ١٩٦٠ تكون قد سميت من بدأوا يهاجموننا نحن زنوج الحقل ووصفونا بالجنون لأننا ذكرنا السيد الأبيض بسوء .

« هؤلاء المسلمون لا يمثلون جماهير الزنوج». تلك كانت أول كلمة قالوها ليؤكدوا للرجل الأبيض أنه ليس ثمة ما يدعوه للاهتمام بزنوج الحقل في الجتوات . «دعوة حقد غير مسئولة » ... « صورة سيئة للزنوج في الوقت الذي بدأت فيه العلاقات العنصرية تتحسن » كانوا يتزاحمون لكي تنشر الصحف حديثهم وهم يقولون

أشياء مثل : « عنصرية عكسية مخجلة » ... « تشبه سخيف بالعقيدة الإسلامية القديمة » ... « زندقة ضد المسيحية» اشتبكت الخطوط في هاتف مطعم معبدنا الصغير حتى كدنا نظن أنه سينفجر في حائطه وكادت سماعة الهاتف أن تلتصق بأذني من الحديث لمدة خمس ساعات متوصلة . كنت أنصت إلى عشرات الصحفيين والمذيعين ورجال التلفاز وهم يتصلون ليعرفوا تعليقنا على هجوم «الزعماء» السود الذي يردده الصحفيون لنا وأدون أنا كل ذلك في مذكرتي . أو كنت أتحدث مع مستر محمد وهو في شيكاجو ، أقرأ له من مذكرتي واستفسر عن تعليماته . لم أكن أفهم كيف يحتفظ مستر محمد بتماسكه وصبره أمام كل ذلك . أما أنا فصعب عليَّ تمالك نفسي .

بطريقة ما اكتشفوا الرقم السري لهاتفي وصارت زوجتي بتي لا تكاد تضع السماعة إلا ليرن جرس الهاتف من جديد وحيثما ذهبت كان جرس الهاتف يرن . من الطبيعي أن المحادثات كانت موجهة لشخصي بصفتي منستر معبد نيويورك ونيويورك مركز الإعلام الرئيسي . بدأت المحادثات تأتي من أماكن بعيدة ، من سانفرانسيسكو إلى ولاية مين ... من لندن وباريس وستوكهولم حتى كنت أرى بتي أو أخ من المسلمين يحاولون تملك أعصابهم وهم يمدون أيديهم لي بالهاتف وأنا نفسي لم أعد أصدق . من الأشياء الطريفة في كل هذه الجلبة والشيء الذي لفت انتباهي بسرعة هو أن الأوروبيين لم يرددوا مسألة البغضاء هذه كثيراً . الرجل الأمريكي الأبيض وحده هو المصاب بهاجس الحقد هذا . لقد كان واضحا لي أنه مذنب بكرهه للزنوج .

« مستر مالكوم إكس ، لماذا تعلم الناس الحقد والعنجهية السوداء ؟» كنت كلما أسمع ذلك أرى النار أمامي ويشتعل شيء في داخلي . عندما كنا نحن الزنوج نتكلم عن « الشيطان الأبيض » لم نكن نقصد أشخاصاً بعينهم وانما كنا نقصد شيئاً مجرداً والآن ها هو ذا الشيطان الأبيض يتحدث من الهاتف مع كل حساباته وبروده وحيله وجرأته وخدعه عن استقامته . صارت تلك الأصوات بالنسبة لي أصوات شياطين حية تتنفس .

من جانبي كنت أزيد النار اشتعالاً . « الرجل الأبيض مذنب بالعنجهية البيضاء ولن يستطيع إخفاء ذنبه باتهام الإيْجا محمد صاحب الشرف الرفيع بأنه يُعلّم الحقد والمنهجية . كل ما يقوم به مستر محمد هو أنه يحاول أن ينهض بعقلية الرجل الأسود وبأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية في هذا البلد ».

« إن الرجل الأبيض المذنب لا يدري ما يريد . تعرض أجدادنا الأرقاء للقتل عندما كانوا يدعون » للاندماج « في المجتمع الأبيض والآن عندما يتحدث مستر محمد عن

« الانفصال » يسمينا الرجل الأبيض « بدعاة حقد » و « بالفاشيين ».

« الرجل الأبيض لا يريد السود . أنه لا يريد السود الذين يتطفلون عليه . أنه لا يريد هذا الرجل الأسود الذي يعري وجوده ويضعه أمام العالم ليراه على حقيقته ! فلماذا إذن تهاجمون مستر محمد ؟ » كانت المرارة في صوتي لأني كنت أحس بالمرارة .

« كيف للرجل الأبيض أن يسأل الرجلِ الأسود إن كان يكرهه ؟ ذلك مثل حال مغتصب يسأل مغتصباً أو ذئب يسأل حملاً « هل تكرهني ؟» ليس هنالك من مبرر أخلاقي يجعل الرجل الأبيض يتهم أي شخص بالكراهية ».

« عندما تلدغ الأفعى أسلافي ثم تلدغني أنا أيضاً فأحذر أطفالي منها ، كيف تبدو تلك الأفعى وهي تتهمني بأني أنشر الكراهية ؟ ».

كان أولئك الشياطين يأتون ويسألونني : « مستر مالكوم اكس ، لماذا يتدرب أتباعكم من شباب ثمار الإسلام على الجودو والكاراتيه ؟» يبدو أن صورة الرجل الأسود وهو يتعلم أي شيء يوحي بالدفاع عن النفس كانت كافية لتخيف الرجل الأبيض . كنت أقلب السؤال على رأسه وأقول لهم : «ما الذي يجعل الجودو والكاراتيه تصبحان نذير شؤم فجأة لمجرد أن الرجل الأسود أصبح يتدرب عليهما ؟ في كل أرجاء أمريكا ، في جمعيات الكشافة كما في جمعية الشباب المسيحي ، في جمعيات أصدقاء الشرطة وحتى جمعيات الشابات المسيحيات ، في كل هذه الأماكن يتدرب الشباب على مصارعة الجودو . ومع كل ذلك لم يثر أحد الأمر أما الآن والسود يتدربون عليها أجدكم تسألون . أنه حتى الطفلات في المدارس يتعلمن الجودو لحماية أنفسهن ».

« كم عدد أعضاء منظمتكم يا مستر مالكومِ ؟ القسيس شِكِنوينج يقول أن عددكم لا يتعدى أصابع اليدين ؟» كانوا أيضاً ينقلون إلينا حديث القسيس شَكِنوينج عن عدائنا للمسيحية وحينها كنت أرد الصاع صاعين قائلاً : « المسيحية هي ديانة الرجل الأبيض . الكتاب المقدس وتفسير الرجل الأبيض له كان أكبر أداة عقائدية في يد الرجل الأبيض لاسترقاق ملايين البشر من غير البيض . في كل بلد غزاها الرجل الأبيض بمدافعه ، كان يمهد الطريق لذلك ويريح ضميره بحمل الإنجيل وتفسيره بطريقته التي تدعي أن الآخرين ملحدون ووثنيون أولاً ثم يرسل مدافعه ومن خلفها المبشرون يمشطون المكان ».

كان الصحفيون البيض ينعتوننا والغضب يفور في أصواتهم بالدهماويين (الديماجوجيون) وكنت أستعد لهم بعد أن يتكرر السؤال مرتين أو ثلاث .

« دعونا نرجع إلى زمن الإغريق ومن ذلك تدركون أن أول شيء ينبغي عليكم

معرفته عن كلمة ديماجوجي (دهماوي) هو أنها تعني معلم الناس ولننظر إلى بعض الدهماويين . أعظم معلم أغريقي ، سقراط ، قُتل لاتهامه بالدهماوية . يسوع المسيح وضع على الصليب لأن فارسيي زمنه كانوا ينفذون قانونهم ولا يتبعون الروح المقدس . أما فارسيوا هذا الزمان فيكيلون التهم محاولين تحطيم مستر محمد وينعتونه بأنه دهماوي متعصب ومعتوه. ماذا عن غاندي ؟ الرجل الذي وصفه شيرشل بأنه « درويش صغير عريان » ، رفض الطعام في السجن البريطاني . ومع ذلك وقف من خلفه ربع بليون شخص ، شبه قارة بأكملها ، ولووا ذنب الأسد البريطاني ! ماذا عن جاليلو الذي وقف أمام معذبيه وقال أن الأرض فعلاً تتحرك ! ثم ماذا عن مارتن لوثر وهو يعلق نظريته بمسمار على باب الكنيسة الكاثوليكية شديدة البأس ، التي نعتته بالزندقة ؟ أننا أتباع صاحب الشرف إلايْجا محمد نعيش في الجيتو مثلما كان أتباع المسيح يعيشون كالنمل الأبيض في سراديب الموتى والكهوف وهم يحفرون مقبرة الإمبراطورية الرومانية العظمى شديدة المراس ».

مازلت أذكر المحادثات الهاتفية الساخنة مع هؤلاء المخبرين وكأنما حدثت بالأمس . كان الصحفيون غاضبين وكنت أنا في غضب . عندما كنت أغوص في التاريخ كانوا يحاولون جري إلى الحاضر . كانوا ينسون المقابلة الصحفية وينسون مهمتهم ويبدأون في الدفاع عن نفسيتهم البيضاء الشريرة . كانوا يذكرون ابرهام لنكون وتحريره للزنوج فكنت أردد أمام مسامعهم ما قاله لنكون في خطبه ضد السود . كانوا يلجأون إلى قرار المحكمة الأمريكية العليا عام ١٩٥٤ عن دمج المواطنين في المدارس من غير اعتبار للونهم .

رددت عليهم قائلاً : « ذلك واحد من أعظم الأعمال البطولية التي تمت في أمريكا ! هل تقصد أن تقنعني أن تسعة قضاة من أساطنة الصياغة اللغوية عجزوا عن أن يجدوا طريقة تجعل من قرارهم قانوناً نافذاً ؟ لا ثم لا ؟ أنه المكر وأنها الخديعة التي جعلت الزنوج يصدقون أنهم تم قبولهم في المجتمع . مرحى ! مرحى ! وفي نفس الوقت أعطت البيض ذريعة يتحايلون بها على القانون ».

كان الصحفيون البيض يجهدون أنفسهم وراء نقطة في صالح الرجل الأبيض لا أستطيع إنكارها ولا أنسى أبداً أن أحدهم كاد أن يفقد صوته وهو يحاول ذلك . سألني أحدهم : أليس هنالك رجل أبيض واحد فعل حسنة واحدة من أجل الرجل الأسود في أمريكا ؟ قلت له : « نعم هناك اثنان ، هتلر وستالين . لم يكن بمقدور الرجل الأسود أن يحصل على وظيفة محترمة في مصنع إلا عندما اضطر البيض لذلك بسبب الحرب التي أشعلها هتلر ثم أتى ستالين وواصل الضغط على أمريكا. »

لكني لم أكن أهتم كثيراً بعدد النقاط التي كنت أوضحها في المقابلات

الصحفية لأنها كانت عادة تظهر في الصحف بطريقة مختلفة . تعلمت من التجربة أن الصحافة عندما تشاء تحور وتغير من محتوى الحديث فإذا قلت مثلاً « عند ماري حمل صغير » سيظهر العنوان في الصحف بعد يوم وهو يقول « مالكوم اكس يسخر من ماري ».

ومع ذلك كنت أشعر بالمرارة من هجوم « الزعماء » أكثر من تحوير الصحافة البيضاء . نصحنا مستر محمد أن نتحاشى الرد العلني على هجوم أولئك « الزعماء » علينا لأن ذلك ما يتمناه الرجل الأبيض ، أن يبقينا منقسمين على أنفسنا . أفهمنا مستر محمد أن ذلك الانقسام كان السبب التقليدي الذي منع السود من إحراز أي تقدم وأن الوحدة هي أكثر ما يحتاجه الرجل الأسود في أمريكا . لكن ذلك لم يمنع الببغاوات السود بل أنهم استمروا الهجوم على مستر محمد وأمة الإسلام بدون أن نرد عليهم حتى أصبح الناس يظنون أننا نخاف من هؤلاء الزعماء السود « المهمين ». عند ذلك نفذ صبر مستر محمد وأعطاني الإشارة وبدأت أرشقهم بالنيران .

« العم توم في هذا الزمان لا يضع منديلاً على رأسه فعم توم القرن العشرين رجل حديث يرتدي قبعة . إنه عادة حسن الهندام ومتعلم وغالباً ما يكون مثالاً للثقافة والتهذيب . عم توماس القرن العشرين يتحدث أحياناً بلكنة جامعة هارفارد وييل وأحياناً ينادي بالبروفسير أو الدكتور أو القاضي أو الأب وأحياناً أخرى قداسة الأب الدكتور ... العم توماس في القرن العشرين زنجي محترف ... بذلك أعني أنه احترف وظيفة زنجي عند الرجل الأبيض ».

لم يحدث في السابق أن هوجم هؤلاء « القادة » المختارون بعناية بمثل تلك الطريقة في أمريكا وكانت ردة فعلهم لكشفهم أكثر شيطانية من الرجل الأبيض . بدأ رد فعلهم المنظم وبدلاً من أن يتكلموا عن أنفسهم كأفراد ، وضعوا ثقل منظماتهم خلفهم في الهجوم على مستر محمد.

كنت أسميهم بأوصافهم « رؤوس سوداء فوق أجساد بيضاء.» كانوا في المقدمة كي يظهروا في أعين الزنوج كمدافعين عن الزنوج ضد الرجل الأبيض ولكن من وراء الستار كان يقف الرجل الأبيض – كرئيس أو مدير أو أي لقب آخر – ويحرك الخيوط .

كان ذلك سبقاً صحفياً ساخنا في الصحافة البيضاء والسوداء على السواء سجلته مجلات **تايم ونيوزويك ولوك** . بدأت بعض الصحف تخرج سلسلة من القصص بدلاً من واحدة أو اثنين يفترض أن « تُعرى » فيها أمة الإسلام . حملت مجلة **ريدرز دايجست** التي توزع أربعة وعشرين مليون نسخة عالمياً ، مقالاً عنوانه « مستر محمد يتكلم » كتبه نفس المؤلف الذي أملي عليه هذا الكتاب الآن وتبع ذلك عدد من

كبرى المجلات المشهورة التي كتبت عنا بعد ذلك .

لم يمض وقت طويل حتى أصبح رجال المذياع والتلفاز يطلبون مني أن أشترك في نقاش عام أدافع فيه عن أمتنا الإسلامية . كان يواجهني فيها علماء مختارون، بيضاً وسوداً ، وبعض حملة الدكتوراه من زنوج « الدار » و « الساحة » الذين كانوا يهاجموننا. كان أكثر ما يغيظني هو تحريف وتبديل تعاليم مستر محمد ولم يك يخطر ببالي أنني لم أدخل استديو مذياع أو تلفاز حتى ولو لمرة واحدة دعك من أن أتحدث إلى ملايين المستمعين من وراء مكبر الصوت . تجربتي الوحيدة في الحديث أمام غير المسلمين كانت في مناظرات السجن الأدبية . ومن أيام الزعرنة أدركت أن لكل شيء خدعة وقد تعلمت من مناظرات السجن كيف أحبط هجوم المعارضين وهي أن أفاجئهم فمن مأمنه يؤتي الحذر . كنت أدرك أن هنالك حيلاً عن النقاش في المذياع والتلفاز لا أعلم عنها وأنني إذا تمعنت جيداً ودرست طريقتهم سأتعلم منها بسرعة أشياء ستفيدني في الدفاع عن مستر محمد وتعاليمه .

كنت أدخل هذه الاستديوهات لأجد الشياطين البيض والألعوبات حملة الدكتوراه يتبادلون الحديث بود و « مندمجين » مع بعضهم – يضحكون وينادون بعضهم بالأسماء الأولى وما شابه ، كانت كذبة كبيرة يعيشونها شعرت معها بالغثيان . إنهم حتى حاولوا التودد إليَّ والكل يعلم أنهم إنما أتوا بي ليجهزوا على عقلي . كانوا يقدمون لي القهوة فأرفض بأدب وأطلب منهم أن يتفضلوا ويروني في أي المقاعد أجلس . أحياناً كان مكبر الصوت يوضع في طاولة أمامنا وأحيانا يعلقون مكبراً أسطوانياً صغيراً بحبل من على رقبة كل منا ومن البداية أحببت مكبرات الصوت الصغيرة هذه لأنك لا تحتاج لأن تفكر في حفظ مسافة معينة بينك وبين المكبر مثل ما تفعل مع المكبرات الكبيرة التي توضع على طاولة أمامنا .

كان مقدم البرنامج عادة يبدأ بمقدمة غير دينية مثيرة عني كأن يقول : « معنا اليوم الزعيم الناري الغاضب مالكوم إكس من مسلمي نيويورك.» بدلاً من ذلك كنت أقدم نفسي وكنت أتمرن على ذلك وأنا في المنزل أو في السيارة حتى تعلمت أن أقاطع مقدم البرنامج وأقدم نفسي بنفسي .

« إنني أمثل مستر محمد الزعيم الروحي لأسرع الطوائف المسلمة انتشاراً في نصف الكرة الغربي . أننا نحن أتباعه نعلم أن الله علمه وأرسله لنا . إننا نؤمن بأن مأساة عشرين المليون أمريكي أسود إنما هي تحقيق لنبوءة مقدسة . نؤمن أيضاً أن وجود صاحب الشرف الإليجا محمد في أمريكا اليوم وتعاليمه بين من يسمون بالزنوج وتحذيراته الواضحة لأمريكا فيما يختص بمعاملتهم ، كل ذلك تحقيق لتلك النبوءة المقدسة . إنني محظوظ كوني منستر للمعبد رقم سبعة هنا في مدينة

نيويورك والذي هو جزء من أمة الإسلام تحت قيادة صاحب الشرف الإليْجا محمد المقدسة ».

كنت أنظر حولي نحو أولئك الشياطين وألعوباتهم السوداء المدربة وهم يحدقون في وأنا التقط أنفاسي بعد أن أرسيت وتيرة الحديث . كانوا يتبارون فيما بينهم في الهجوم على شخصي والضرب على مستر محمد وعليَّ وعلى أمة الإسلام . أولئك الزنوج الذين فتنوا « بالاندماج » ومن الطبيعي أن تركيزهم على ذلك . لماذا لا يرى المسلمون أن الاندماج هو الحل لمشاكل زنوج أمريكا ؟ كنت أمزق تلك المقولة إرباً إرباً .

« ما من أسود عاقل يود الاندماج حقيقة . ما من أبيض عاقل يود الاندماج حقيقة . ما من أسود عاقل يؤمن حقيقة أن الرجل الأبيض سيسمح بأكثر من اندماج رمزي . كلا ! ثم كلا ! ما يعلمنا إياه صاحب الشرف الإليْجا محمد هو أن حل مشكلة السود في أمريكا في الانفصال عن الرجل الأبيض».

كل من جادلني في المذياع أو التلفاز يعلم أن أسلوبي هو عدم التوقف حتى أقول ما أريد أن أقول وقد كنت بدأت تنمية ذلك الأسلوب حينها.

« يعلمنا صاحب الشرف الإليْجا محمد أنه وبما أن المجتمع الغربي ينهار فقد بدأ ينخر فيه الفساد وسيدينه الله ويحطمه . والطريقة الوحيدة التي بها يتم إنقاذ السود الذين وجدوا أنفسهم في هذا المجتمع هي ألا يندمجوا في هذا المجتمع الفاسد بل ينفصلوا عنه حتى يكون لهم وطنهم الخاص كي يصلحوا ما بأنفسهم ويرتقوا بأخلاقهم ويصبحوا طاهرين. لقد فشل جهابذة الدبلوماسية الغربية في حل مشكلة اللون المستعصية . فشل علماء القانون وفشل كذلك علماء الاجتماع وقادة حركة الحقوق المدنية . فشل قادتها السياسيون الناصحون . وبما أن كل أولئك قد فشلوا فقد آن الوقت لنجلس ونفكر وأنا متأكد أننا حينها سنتفق أن الله وحده هو القادر على حل المعضلة العنصرية المستعصية ».

كلما ذكرت الانفصال يصيح أحدهم بأننا نحن المسلمين ننادي بنفس ما ينادي به العنصريون البيض والديماجوجيون وكنت حينها أوضح الفرق بيننا وبينهم . «كلا ! ثم كلا ! أننا أكثر تشدداً منكم في رفضنا للتمييز . إننا نطالب بالانفصال وهنا مربط الفرس . يعلمنا صاحب الشرف الإليْجا محمد أنه تمييز عندما تكون حياتك وحريتك مسيطراً عليهما وينظم ذلك شخص آخر . التمييز يعني التحكم . التمييز هو ما يفرضه الأقوياء على الضعفاء أما الانفصال فهو ما يقوم به طوعاً اثنان متساويان ولمصلحة كليهما . يعلمنا صاحب الشرف الإليْجا محمد أنه طالما اعتمد قومنا في أمريكا على الرجل الأبيض فسنظل نتسول من أجل العمل والملبس والمأكل والمأوى وسيظل الرجل الأبيض يتحكم في حياتنا وينظمها وستظل

عنده القوة ليميز بيننا . لقد عومل الزنوج في أمريكا كالأطفال . لكن الطفل يبقى في بطن أمه حتى يولد وعندما يحين وقت الوضع يجب أن ينفصل الطفل من أمه وإلا هلكت لأنها لا تستطيع حمله في بطنها بعد ذلك . الطفل يبكي ويحتاج لعالمه الخاص».

كل من استمع إليَّ لم يكن ليشك في أنني أؤمن بمستر محمد وأمثله مائة بالمائة ولم أحاول قط أن أرجع الفضل لشخصي .

ما كنت في إحدى هذه المناقشات إلا وكان هنالك شخص يتحين الفرصة ليتهمني بتشجيع الزنوج على العنف ولم أكن بحاجة للتحضير خصيصاً للرد على ذلك .

« إن أكبر معجزة حققتها المسيحية في أمريكا هي أن الزنوج لم يلجأوا للعنف وهم في أيد مسيحية بيضاء . إنها لمعجزة أن اثنين وعشرين مليوناً من السود لم ينهضوا ضد مستعبديهم الشيء الذي كانت ستبرره كل المقاييس الأخلاقية وحتى التقاليد الديمقراطية . إنها لمعجزة أن أمة من السود ظلت تؤمن بشدة في فلسفة أدر – له – الخد – الآخر والجنة – لك – بعد – الموت . إنها لمعجزة أن السود في أمريكا ظلوا مسالمين وهم يقاسون جحيم قرون من العبودية في جنة الرجل الأبيض . المعجزة هي تمكن الزعماء السود ، ألاعيب الرجل الأبيض ، الوعاظ والمتعلمين المثقلين بالدرجات العلمية من مسح الدهن من على ظهور أخوانهم السود والسيطرة عليهم وجعلهم مسالمين حتى الآن ».

أؤكد لك شيئاً واحداً وهو أنني في كل مرة أجد نفسي في الاستوديوهات مع الألعوبات[3] السود مغسولي الدماغ المفتونين بالاندماج ومعهم أولئك الشياطين البيض يحاولون تمزيقي وجري إلى الأرض وطالما كان الضوء الأحمر يشير إلى أننا ما زلنا نتكلم على الهواء ، كنت في كل مرة أبذل أقصى جهدي لأمثل الإيْجا محمد وأمة الإسلام .

نشر كتاب دكتور س. إريك لنكون في غمرة هذا الجدل عنا نحن المسلمين . وفي حوالي نفس الوقت الذي بدأنا نعقد فيه أول اجتماعات شعبية كبيرة . ومثلما خلق برنامج البغض الذي أولده البغض صورة لنا كدعاة حقد فقد خرج كتاب د. لنكون بعنوان المسلمون السود في أمريكا وأصبح ذلك الكتاب « المسلمون السود » في كل مراجعات الكتب في الصفحات الأدبية التي نقلت من الكتاب كل ما هو هام عنا وأثنت على أسلوب د. لنكون .

تركزت أعين الجمهور على الاسم « المسلمون السود » إلا أن تلك التسمية

أغاظت كل من في أمة الإسلام بدءاً من مستر محمد إلى من هم أدنى. حاولت لمدة عامين أن أبعد عنا تلك التسمية « المسلمون السود » دون جدوى. كلما اقتربت من كاتب صحفي ومن مكبر صوت كنت أؤكد « كلا إننا قوم سود هنا في أمريكا وديننا هو الإسلام واسمنا الصحيح هو المسلمون » ولكن الاسم لم يتزحزح عنا.

حققت اجتماعاتنا الشعبية نجاحاً منقطع النظير منذ البداية. وبعد أن كان المعبد رقم واحد في ديترويت يجاهد ليرسل بفخر قافلة من عشرة عربات للاستماع لمستر محمد في شيكاجو، أصبحت معابدنا في عرض الساحل الشرقي، قديمها وجديدها الذي ساعدت في إيجاده كل تلك الحملة الإعلامية، أصبحت الآن ترسل مائة وخمسين أو مئتين أو ثلاثمائة من الحافلات الكبيرة المؤجرة تعج بها الطرق وهي في طريقها للاستماع لمستر محمد حيثما كان سيخطب. وفي كل حافلة اثنان من شباب ثمار الإسلام مسئولان عنها وعلى كل حافلة علقت لافتة كبيرة (٣ x 9 قدم) من القماش تقرأها شرطة طرق المرور السريع وآلاف الناس من المنازل وشوارع المدن التي تمر بها.

مئات أخرى من المسلمين والزنوج والفضوليين كانت تقود عرباتها بأنفسها. كذلك كان مستر محمد يركب طائرته النفاثة الخاصة من شيكاجو لتهبط في مطار أي مدينة ثم من هنالك يصحب موكبه رتل من السيارات من بينها عربات الشرطة ذات النفير. في الماضي كان رجال القانون يسخرون منا كقلة من المعتوهين ولكنهم الآن يبذلون أقصى جهدهم ليمنعوا المعتوهين البيض من الاقتراب منا والتسبب في أي « واقعة » أو « حادثة» لم تشهد أمريكا أبداً مثل تلك الاجتماعات الرائعة والسوداء تماماً. كان ما يقارب العشرة آلاف أسود وأكثر يتقاطرون بالمواصلات العامة والخاصة ليملأوا القاعات الكبيرة المؤجرة حتى تفيض مثل إستاد سانت نيكولاس في مدينة نيويورك والكوليزيوم في شيكاجو وإستاد يولين في واشنطن د. س.

كنا نمنع البيض من الحضور وتلك أول مرة يحلم الرجل الأسود في أمريكا بمثل ذلك. أتى لنا ذلك بهجوم الرجل الأبيض والعوباته من السود. « انفصاليون سود ... عنصريون! » اتهمونا بالعنصرية بينما العرف في كل أرجاء أمريكا هو استبعاد السود بواسطة البيض.

كان المئات يصلون بعد أن يمتلئ المكان فكنا نضع لهم مكبرات صوت خارج القاعة. كان الجو المكهرب يثير الجماهير السوداء المتململة والصفوف الطويلة المتراصة التي تقود إلى القاعة بينما يحفظ شباب الإسلام النظام المنضبط وهم يتصلون مع بعضهم البعض بواسطة الراديو المنقول. في مقدمة القاعة بالداخل كان

بعض آخر من شباب ثمار الإسلام وأخوات مسلمات محجبات برداء أبيض ، يفتشون بدقة كل امرأة ورجل وطفل يود الدخول . لا سكاير ولا خمر وكل آلة أو شيء يمكن أن يؤذي مستر محمد يترك بالخارج . كان مستر محمد دائماً يخاف من أن شخصاً سيحاول إيذاءه ولذا يصر على تفتيش كل من يدخل لتفادي ذلك . حالياً أتفهم أنا ذلك أكثر من ذي قبل .

المئات من شباب ثمار الإسلام كانوا يمثلون المجموعات التي وصلت مبكراً ذات الصباح من معابدها في المدن المجاورة . وكان بعضهم يقوم بمهمة المنظمين الذين يوجهون الناس إلى مقاعدهم في أقسام القاعة المختلفة . كانت الشرفات والنصف الخلفي من القاعة متروكة للجمهور وأمامهم جزء منفصل للمسلمين حيث تجلس الأخوات المليحات بزيهن الأبيض ثم الأخوة بستراتهم الداكنة اللون وقمصانهم البيضاء . في المقدمة جناح خاص « لعلية القوم » من السود وكان أغلبهم مدعواً بمن فيهم الألاعيب الذين كانوا يهاجموننا والمهنيون من بين الزنوج الذين تحسر عليهم مستر محمد لأنهم يمثلون المتعلمين الذين كان يعول عليهم قيادة أخوتهم السود الفقراء بعيداً عن متاهة العوز والشقاء . كنا لا نريد لهم أن تفوتهم كلمة الحقيقة وهي تخرج من فم محمد شخصياً .

الصفان أو ثلاثة الصفوف الأولى كانت تمتلئ بالصحفيين السود ورجال التصوير الذين يمثلون الصحافة الزنجية أو الذين تستأجرهم صحف الرجل الأبيض ومجلاته ومذياعه وتلفازه . على كتَّاب أمريكا السود إقامة حفل تكريم لمستر محمد لأن الكتابة عن أمة الإسلام أصبحت أكثر طريق للشهرة لمعظم الكتاب السود المعروفين اليوم .

على المسرح ومن وراء المنصة كنا نجلس نحن أئمة ومسئولي الأمة حيث ندخل من خلف المسرح ونجد أماكننا في خمسة أو ستة الصفوف وراء المقعد الكبير الذي يجلس عليه مستر محمد . بعض هؤلاء الأئمة قطعوا مئات الأميال لكي يتمكنوا من الحضور . كنا نلتفت نحو بعضنا من مقاعدنا والابتسامة تعلو وجوهنا ، ونشد أيدي بعضنا البعض ونتبادل « السلام عليكم » « وعليكم السلام» في ابتهاج خالص بلقاء بعض مرة أخرى .

كنا نحن القدامى في خدمة مستر محمد نقابل وجوهاً جديدة في كل اجتماع ، أئمة جدد في معابد صغيرة جديدة . أحد أخوتي في ذلك الوقت (وِلفرد) كان منستر معبد ديترويت بينما فلبرت منستر معبد لانسنج . منستر جيرميا إكس كان مسئولاً عن معبد أطلانطا ومنستر جون اكس عن لوس أنجلوس . كان ابن مستر محمد ، والاس محمد ، مسئولاً عن معبد فلادلفيا وودرو إكس عن أطلانطيك

سيتي . لبعض هؤلاء الأئمة خلفية طريفة. منستر لوشص إكس من معبد واشنطن د.س. مثلاً ، كان من أتباع اليوم السابع وما سوني من الدرجة ٣٢ ومنستر جورج إكس من كامدن بولاية نيوجيرسي كان طبيباً أخصائيا . منستر ديفيد إكس كان في السابق قسيساً في ريتشموند بولاية فرجينيا فكان أن تحول هو وعدد من المصلين المنتظمين إلى الإسلام وصوتت أغلبيتهم مع قلب الكنسية إلى معبد . أما منستر معبد بوسطن فكان شاباً ممتازاً يدعى لويس إكس وقد كان قبل ذلك نجماً صاعداً في عالم الغناء يدعى « الشارمر » وقد ألف ولحن أول نشيد لأمتنا المسلمة يدعى « جنة الرجل الأبيض هي جحيم الرجل الأسود . » كذلك كتب منستر لويس إكس أول مسرحية لنا أسماها « أوريجنا » وهي كلمة زنجي مكتوبة عكسياً ، كانت تدور حول محاكمة الرجل الأبيض أمام محكمة كلها من السود على جرائمه العالمية ضد الأجناس الأخرى حيث تتم إدانته ويحكم عليه بالإعدام ثم يجر إلى الخارج وهو يصرخ عن كل ما قد فعله لهؤلاء القوم الزنجا .

كان هنالك من هو أصغر عمراً من لوشص إكس بين الأئمة الجدد مثل منستر طوماس ج. إكس من معبد هارتفورد ومنستر روبرت ج. إكس من معبد مدينة بفالو بولاية نيويورك .

لقد كنت أنشأت أو نظمت لمستر محمد معظم هذه المعابد المثلة وكنت عندما أحي أي من الأخوة المنسترز تقفز إلى ذهني صورنا ونحن « نصطاد » المجندين في الشوارع أو من باب لباب في أي مكان يتجمع فيه السود . مازلت أذكر الاجتماعات الكثيرة جداً في غرف الجلوس حيث كنا نعتبر وجود سبعة أشخاص جمهرة ثم النمو المتدرج حتى صرنا نستأجر المقاعد المطبقة من المتاجر الصغيرة القذرة وكنا نحن المسلمين نحكها حتى تلمع .

ونحن كذلك على مسرح تلك القاعة الضخمة وأمامنا جمهور عريض قلت لنفسي: إن هذا إعجاز يوضح قدرة الله ولأول مرة فهمت ما قاله لي مستر محمد ذات مرة . زعم لي أنه حينما كان يضحي ويجري من بلد إلى بلد هرباً من أولئك السود المنافقين ، كان يرى رؤيا إلهية حيث يجد أنه يتكلم أمام جماهير غفيرة أتت لتسمع تعاليمه كما قال أن نفس تلك الرؤى عاودته وهو في سجن الرجل الأبيض وكانت له سنداً .

فجأة تبدأ همهمة الجماهير الغفيرة المتململة في الانخفاض ....

أمام المنصة يقف الأمين العام للأمة جون علي أو لويس إكس السكرتير القومي للأمة. كانوا يحيون الجمهور ويتحدثون عن العالم الجديد الذي انفتح أمام الرجل الأسود بواسطة أمة الإسلام . ثم تتحدث الأخت تاينيتا داينر بطلاوه عن إسهام المرأة

المسلمة الحيوي ودورها في الارتقاء بوضع السود في أمريكا جسدياً وعقلياً وأخلاقياً واجتماعياً وسياسياً .

بعد ذلك أتقدم أنا خصيصاً إلى مكبر الصوت لأهيئ المستمعين للاستماع إلى مستر محمد القادم بالطائرة من شيكاجو ليعلمنا هو شخصياً .

كنت أرفع يدي قائلاً « السلام عليكم ».

ويهدر صوت المستمعين من جانب جلوس المسلمين « وعليكم السلام ». كنت أتبع نسقاً عاماً في مثل هذه المناسبات .

« إخواني وأخواتي السود – من كل المعتقدات الدينية أو اللا دينية – إن أكثر رابطة تربطنا ... هي أننا كلنا أناس سود .

« لن أقضي كل اليوم لأحكي لكم عن بعض عظمة صاحب الشرف الإليْجا محمد ولكني فقط سأحدثكم عن أعظم عظماته . إنه الزعيم الأسود الأول والوحيد الذي تمكن من تحديد من هو عدوي وعدوك . صاحب الشرف الإليْجا محمد هو أول زعيم أسود من بيننا لديه الشجاعة الكافية ليقول بصراحة وأمام الجميع شيئاً لو فكرتم فيه عندما تعودون إلى منازلكم لعرفتم ما نعايشه هنا وما نشاهده وما نعاني منه طول حياتنا .

عدونا هو الرجل الأبيض !

ولماذا اعتبر ما يعلمنا له مستر محمد شيئاً عظيماً ؟ لأنك عندما تعرف من هو عدوك فلن يستطيع بعد ذلك أن يجعلنا منقسمين يحارب بعضنا بعضاً . لأنك عندما تدرك من عدوك فلن يستطيع ذلك العدو استخدام الوعود والخداع والكذب والنفاق وأفعاله الشيطانية حتى تظل أصماً أعمى أبكم . عندما تعرف عدوك فلن يستطيع غسل مخك بعد ذلك ، لن يستطيع أن يضع غشاوة فوق عينيك تمنعك من أن تقف وترى أنك تعيش في جحيم خالص على وجه هذه البسيطة بينما يعيش هو في نعيم خالص في نفس هذه البسيطة – هذا العدو الذي يقول لك أننا وهو يفترض أن نعبد نفس الإله المسيحي الأبيض – الذي أخبرونا أنه يقف من أجل المساواة للجميع .

نعم ، ثم نعم ، ذلك الشيطان هو عدوك وسأبرهن ذلك لكم . التقط أي صحيفة يومية . أقرأ عن التهم الباطلة التي يكيلونها لزعيمنا الروحي المحبوب . إنها تشير فقط إلى حقيقة أن الجنس القوقازي (الأبيض) لا يريد أبداً لأي رجل أسود ليس ببغاء أو ألعوبة في أيديه أن يتحدث باسم الرجل الأسود . أن الشيطان القوقازي المستبد لا يريد لنا ولا يعتقد أننا سنهجره ، ولكننا عندما نبقى هنا في وسطه ، يستمر في وضعنا في أحط درجات المجتمع .

« لقد كان الرجل الأبيض دائماً يعشق دسنا بعيداً في مكان ما ، دائماً بعيداً عن أنظاره ، منزوين في ركن قصي . الرجل الأبيض يحب ذلك النوع من الزعماء السود الذين يستطيع أن يسألهم : كيف حال الأمور مع قومكم في ذلك المكان ؟ ولكن لأن مستر محمد لا يهادن في موقفه من الرجل الأبيض ، فإن الرجل الأبيض يبغضه . عندما تسمعون أن الرجل الأبيض يبغضه ، فأنتم أيضاً ولأنكم لا تفهمون معنى نبوءة الكتاب المقدس ، تصفون مستر محمد بالعنصرية وبذر البغضاء أو عدو البيض وداعية العنصرية السوداء ».

فجأة تسمع حفيف الجمهور وهو يتلفت ....

يكون حينها مستر محمد يدخل بسرعة من الخلف شاقاً ممراً في الوسط مثل دخوله معابدنا الصغيرة المتواضعة قبل ذلك – الرجل الذي وقرناه كحمل الإسلام الوديع الخنوع ذي البشرة السمراء ، يحيط به شباب ثمار الإسلام المختارون وهم يمشون بخطى واسعة راسخة مع شعورهم القصيرة . كان يحمل كتابي الإنجيل والقرآن والقبعة الصغيرة التي يرتديها على رأسه موشاة بالذهب بعلم الإسلام وعليه الشمس والهلال والنجوم . يبدأ المسلمون في الهتاف محيين له ومعبرين عن توقيرهم له وترحيبهم به . « أيها الحمل الصغير » ، « السلام عليكم ! » « لله الحمد ! ».

تترقرق الدموع من أكثر من عين غير عيناي . لقد تم خلاصي على يديه وأنا سجين ، لقد تعهدني وعلمني في بيته وكأني ابنه . أعتقد أن قمة شعوري العاطفي ، إلى عهد قريب على الأقل ، كانت حينما يقف شباب الإسلام فجأة في انتباه منضبط ويطلع مستر محمد الدرج إلى المنصة وحده ونقفز نحن أئمته بمن فيهم أنا حوله ، نحتضنه ونشد على يديه الاثنتين . بعد ذلك التفت مباشرة إلى مكبر الصوت حتى لا يطول الانتظار على أكبر جمهور أسود في العالم أتى ليسمع مستر محمد .

« إخواني وأخواتي السود – لن يعرف أحد من نحن حتى نعرف نحن من نحن . لن نصل إلى أي غاية حتى نعرف من نحن . إن صاحب الشرف الإيْجا محمد يعيد لنا حقيقتنا ومكاننا تحت الشمس وسيعرف الرجل الأمريكي الأسود ذلك لأول مرة على الإطلاق . بإمكانك أن تكون في حضرة هذا الرجل بدون أن تدرك ما لأفعاله من قوة وسلطان (صدقوني إذا قلت لكم أنني كنت أشعر بسلطان مستر محمد من خلفي) .

« إنه لا يعرض أو يستعرض قوته مع أنه ليس هنالك زعيم أسود آخر في أمريكا غيره له أتباع على استعداد للتضحية بحياتهم إذا طلب منهم ذلك . وأنا لا أعني ذلك النوع من تضحية دعاة اللاعنف الذين يستجدون الرجل الأبيض ، يتظاهرون وهم جلوس أو هم يتزلجون ، يأكلون أو يسبحون إلى آخر تلك القائمة من التظاهرات السلمية .

« إخواني وأخواتي السود ، لقد حضرتم من منازلكم لتستمعوا ، الآن ستستمعون إلى أكثر الأمريكيين السود حكمة ، أشجع أمريكي أسود وأكثرهم إقداماً . أقوى أمريكي أسود في تيه أمريكا الشمالية ».

ثم يتقدم مستر محمد بسرعة إلى المنصة بوجهه الوديع والهدوء يخيم على الجمهور ، « السلام عليكم » .

« وعليكم السلام ».

تهدر بذلك أصوات المسلمين وهم يجلسون بعد وقوف لينصتوا له . علمتهم التجربة أن مستر محمد سيقضي الساعتين التاليتين وهو يشهر سيف الحق القاطع ذا الحدين . كان كل مسلم يشفق عليه من إرهاق حديثه الطويل علماً بأنه يعاني من الأزمة الصدرية .

« إني لا أحمل درجة علمية مثل الكثيرين منكم أمامي ، لكن التاريخ لا يأبه للدرجات.

« الرجل الأبيض ملأكم بالخوف منه منذ أن كنتم أطفالاً سوداً صغار . بداخلكم أكبر عدو لكم وهو الخوف . لقد تربيتم على الخوف والكذب لكنني سأجلي لكم الحقيقة حتى تتحرروا من الخوف .

« لقد أتى بكم متسيدكم إلى هنا وحطم كل تاريخكم . أنتم اليوم لا تعرفون لغتكم الحقيقية . من أي قبيلة أنت ؟ ليس منكم من يميز اسم قبيلته حتى ولو ذكر أمامه . أنكم تجهلون كل شيء عن حضارتكم الحقيقية وليس منكم من يعرف اسم عائلته الحقيقي . كل منكم يحمل اسم رجل أبيض . اسم السيد الأبيض الذي يبغضكم .

« إنكم أناس يظنون أنهم يعرفون كل شيء عن الإنجيل وكل شيء عن المسيحية ووصلت بكم البلاهة أن تظنوا ألا حق سوى المسيحية .

« أنتم الجماعة الوحيدة على ظهر الأرض التي تجهل نفسها ، تجهل أصلها وتاريخها وعدوها . أنتم لا تدركون إلا ما أراد لكم السيد الأبيض أن تدركوا وقد علمكم فقط ما ينفعه هو وما ينفع قومه . علمكم لمنفعته أنكم قوم عديمو الحيلة والتدبير ، ضعفاء وما يسمون بالزنوج (النيجروز) .

« أقول ما يسمون بالزنوج (بالنيجروز) لأنكم لستم « زنوج » فليس هنالك جنس يسمى الزنوج . أنتم سلالة أمة آسيوية من قبيلة شاباز . النيجروز اسم وهمي فرضه عليكم سيدكم الأبيض . لقد كان ومازال يفرض عليك وعليَّ وعلى بني جنسنا أشياء عدة منذ أن رست أول سفينة عبيد منا نحن السود في هذه الأرض .»

كان عندما يقف أثناء الحديث يهتف المسلمون الذين أمامه « الحمل الصغير » ! « كل الحمد لله » « علمهم أيها المبعوث ! » فيستمر .

« إن جهلنا نحن السود بأنفسنا وبغضنا لأنفسنا لهما خير أمثلة لما أراد الرجل الأبيض أن يلقننا . هل نُظهر العقلانية البسيطة التي تجعل كل أمة على وجه الأرض تتحد فيما بينها ؟ ! لا ! إننا نسيء إلى أنفسنا بتظاهرات الجلوس والاستجداء محاولين الوحدة مع من يسترقنا وليس هنالك أسخف من ذلك في رأيي . بألف طريقة كل يوم يشعرنا الرجل الأبيض بنبذه لنا : ممنوع السكن هنا ، ممنوع الدخول هناك ، ممنوع السير في هذا المكان ، ممنوع الأكل في ذلك المكان ، ممنوع العمل ، ممنوع الركوب ، ممنوع اللعب ، ممنوع الدراسة . ألم تروا ما يكفي لإقناعكم أنه لا يود الاتحاد معكم ؟

« لقد حرثتم حقوله وطهوتم طعامه . غسلتم ملابسه واعتنيتم بزوجه وأطفاله عندما يغيب ، وفي حالات كثيرة أرضعتموه طفلاً من ثدي أمهاتكم . لقد كنتم مخلصين في مسيحيتكم أكثر من سيدكم الذي علمكم المسيحية .

« لقد نزفتم دماً وأنتم تساعدونه يبني دولة غنية تستطيع أن تمنح الملايين حتى لأعدائها . وعندما يشبع هؤلاء الأعداء منه بما يكفي لمحاربته كنتم جنوده البواسل ، تموتون من أجله . وفي زمن السلم كنتم أخلص خدامة .

« وبعد كل ذلك لا يجد هذا الرجل المسيحي الأبيض الحشمة الإنسانية والمنطق العادل ليعترف بنا ويقبلنا كبشر ، نحن السود الذين فعلنا الكثير من أجله كأخوة له في الإنسانية. »

« نعم يا رجل ! » آه ! آه! « علمهم أيها المبعوث ! حدثهم ! » « إنك لمحق ! » على مهلك أيها الرسول الصغير « نعم حقاً ! ».

كان الآخرون يبدأون الهتاف بجانب المسلمين في تلك اللحظة فنحن المسلمون أقل إظهاراً لعواطفنا من الزنوج المسيحيين عادة إلا أن الشعور تلاقى بين المجموعتين .

« لذلك دعونا نحن السود نفصل أنفسنا من هذا المسترق الأبيض الذي يبغضنا بشدة، بينما أنتم هنا تستجدون شيئاً مما يسمى الاندماج ! ولكن ماذا يقول هذا المسترق الأبيض المغتصب . أنه يرفض الاندماج لأن الدم الأسود سيهجن عنصره . أنه يقول ذلك – وانظروا إلينا ! أديروا رؤوسكم وانظروا إلى بعضكم البعض ! لقد دمجنا هذا المسترق حتى إنك لا تكاد تجد من بيننا إلا قلة لها اللون الأسود ، لون أجدادنا» .

« الله حق والرجل محق ! » ... « علمهم يا معلم ! » ، « أصغوا إليه ! اسمعوه ! ».

ويواصل مستر محمد . « لقد ترك فينا سواداً قليلاً حتى أنه صار يبغضنا ،

يبغض نفسه لما فعله بنا – أنه يقول لنا أن الواحد منا أسود قانوناً إذا كانت به نقطة من الدم الأسود . حسناً إذا كان ذلك كل ما بقى لنا من دمنا الأسود فإننا نود أن نطالب بتلك النقطة ».

كان تداعي صحته يظهر في تلك اللحظات ولكنه يواصل التلقين .

من أجل ذلك دعونا ننفصل من الرجل الأبيض ولنفس السبب الذي يقوله – لننقذ أنفسنا من أي اندماج إضافي قبل أن يفوت الأوان .

« لماذا لا يقوم الرجل الأبيض الذي يدعي الطيبة والكرم والذي يمول أعداءه ، لماذا لا يقوم بتمويل دولة منفصلة ، إقطاعية منفصلة لنا نحن السود الذين كنا خدمه وعبيده المخلصين . دولة منفصلة نرتقي فيها بأنفسنا ونخرج من هذه الأحياء القذرة التي وضعنا فيها ومن إطعامه لنا ومن أولئك الذين يشتكون من أننا نكلفهم كثيراً . إن بإمكاننا أن نفعل شيئاً من أجل أنفسنا . لم نقم بما نستطيع أبداً لأن السيد الأبيض قد غسل أمخاخنا تماماً فصرنا نلجأ إليه نستجديه كل ما نريد وما نحتاج ».

بعد تسعين دقيقة من ذلك يضغط كل منستر من خلف الإيْجا على نفسه ليمنعها من القفز ناحيته واسترجائه أن يقف عند ذلك الحد ، بينما يضغط الإيْجا يديه بقوة على أطراف المنصة ليستند عليها .

إننا معشر السود نجهل مقدراتنا . إنك لا تدري ما باستطاعة أي حيوان أن يفعل حتى تطلقه حراً ليفعل إرادياً ما يشاء . إذا كانت لك قطة في المنزل فدللتها ولاطفتها فعليك أن تطلقها حرة ، دعها وحالها ، أطلقها في الغابات قبل أن ترى أن تلك القطة قادرة على إطعام وإيواء نفسها .

إننا معشر السود في أمريكا ، لا حرية لنا مطلقاً لننطلق ونكتشف مقدراتنا مع أن لنا العلم والخبرة التي يمكن أن نجمعهما ونفعل شيئاً لأنفسنا . لقد قمنا بالزراعة طول حياتنا فدعونا نزرع طعامنا بأنفسنا . بإمكاننا أن نبني المصانع لتصنيع حاجاتنا الضرورية وبإمكاننا أن ننشئ أعمالاً تجارية مختلفة وشركات مختلفة ونصبح مستقلي الإرادة مثل باقي الأمم المتحضرة .

. « بإمكاننا التخلص من غسيل المخ الذي حدث لنا ومن احتقارنا لأنفسنا ونعيش أخوة مع بعضنا .

« ... أرض لنا ... شيء ما لأجلنا ... دعو المتسيد الأبيض لنفسه ...» كان مستر محمد دائماً يقف فجأة حينما يعجز عن مواصلة الكلام . الحضور يصفقون وقوفاً وحائط من الأصوات لا ينتهي .

وأنا أقف هنالك رافعاً ذراعي استطعت أخيراً تهدئة المستمعين بينما يبدأ شباب ثمار الإسلام في المرور بين الصفوف لجمع التبرعات من الناس في أكياس الورق المشمع . عند ذلك أبدأ أنا الكلام .

« الآن تدركون مما سمعتم أن أموال الرجل الأبيض لا تمول برنامج صاحب الشرف الإيْجا محمد حتى يصبحوا مستشاريه ويحتووه . إن برنامج مستر محمد وأتباعه ليسوا مندمجين مع الجنس الأبيض . مستر محمد وبرنامجه أسودان خالصان .

« إننا المنظمة السوداء الوحيدة التي يدعمها السود فقط – إن ما يسمى بمنظمات تقدم الزنوج تسيء إلى ذكائك ، يدعون أنهم يحاربون من أجلك لتحصل على الحقوق المتساوية التي تطالب بها وأنهم يحاربون الرجل الأبيض الذي أنكر حقوقك . إن الرجل الأبيض يدعم هذه المنظمات . قد تدفع دولارين أو ثلاثة أو خمسة لإحدى هذه المنظمات إن كنت عضواً فيها ولكن من يدفع لها ألفي وثلاثة أو خمسة آلاف دولار؟ الرجل الأبيض . إنه يغذي هذه المنظمات وبالتالي يتحكم فيها . يقدم لها النصح ليحتويها . فكروا لأنفسكم أو لست تحب أن تنصح وتتحكم في أي شيء تدعمه بالمال مثل ابنك ؟

« الرجل الأبيض لن يمانع بل أنه يود لو يدعم مستر محمد بالمال ولكن إذا اعتمد مستر محمد على دعم الرجل الأبيض سيضطر ليسمع نصحه . إخواني وأخواتي السود ، إنه لولا أموالكم ، أموال السود ، لما استطاع مستر محمد إقامة مثل هذه الندوات والاجتماعات السوداء الخالصة من مدينة لأخرى لإجلاء الحقيقة للناس . من أجل ذلك نرجو أن تمنحنا مؤازرتك .»

كانت الأوراق النقدية وأغلبها ليست من فئة الدولار الواحد ، تملأ الأكياس التي تمتلئ بسرعة ثم تفرغ من محتوياتها وتعاد تملأ من جديد . كان جو الاجتماع وكأنما أصيب الناس بالإرهاق . أما حصيلة التبرعات فكانت تغطي تكاليف الندوة الجماهيرية ويتبقى منها مبلغ ليستغل في بناء الأمة .

بعد عدة اجتماعات من هذا النوع أمرنا مستر محمد بالسماح للصحفيين البيض بالحضور فكان شباب ثمار الإسلام يفتشهم بدقة مثلما يفتش أي شخص آخر – تفتش مذكراتهم وآلات تصويرهم ومحافظهم وكل ما يحملون . بعد ذلك قال مستر محمد: إن أي أبيض يود الاستماع للحقيقة بإمكانه الحضور لهذه الاجتماعات العامة فأصبحنا نعد لهم جزءً منفصلاً متى ينشغل عن آخره .

أغلب الحضور من البيض كانوا طلاباً وعلماء وكنت أراقب وجوههم وهي تحمر محدقة في مستر محمد . « الرجل الأبيض يعلم أن أفعاله هي أفعال الشيطان .»

كنت أيضاً أراقب وجوه المهنيين السود ، من يسمون بالمثقفين الذين يهاجموننا – أنهم يمتلكون المعرفة الأكاديمية وعندهم القدرات العلمية الفنية التي بإمكانها أن تنقذ أخوتهم السود البؤساء من بؤسهم . ولكن كل ما يفكر به هؤلاء السود المثقفون والمهنيون هو تحقير أنفسهم والاستجداء ومحاولة الاندماج مع ما يسمى بالليبرالي الأبيض الذي ما فتئ يقول لهم ، « عندما يحين الوقت ... كل شيء سيصبح على ما يرام ... فقط عليكم الصبر .» هؤلاء المثقفون والمهنيون الزنوج لا يستغلون معرفتهم لخدمة جنسهم الأسود لأنهم غير متحدين حتى فيما بينهم . وإذا ما اتحدوا فيما بينهم واتحدوا مع جنسهم بإمكانهم إفادة كل السود في العالم !

كنت أراقب وجوه هؤلاء المثقفين والمهنيين وهي تنفعل وتتصرم بينما الحقيقة تجد طريقها إلى عقولهم .

كنا نحن تحت المراقبة وحتى اليوم إذا ما رفعت سماعة هاتفي وقلت إنني سأفجر قنبلة في مبنى الإمباير ستيت ، فإني أؤكد لك أن الشرطة ستحيط بها في دقائق – وعندما أتكلم أمام جمهور ما ، بإمكاني أن أخمن مَن مِن بينَ الوجوه التي أمامي هي وجوه أف . بي . آي (المباحث الفدرالية) أو أي نوع آخر من المخبرين، كما كان رجال الشرطة وممثلو الـ أف. بي . آي يزوروننا بانتظام وإصرار ويستجوبوننا. « إنني لا أخاف منهم ،» قال مستر محمد « إن لدي كل ما أحتاج – الحق ».

في ليال كثيرة قبل النوم كنت أتعجب وأنا أفكر في كيف أن هذا السيف القاطع ذا الحدين ، هذه التعاليم أقلقت وجرحت ، شوشت وأزعجت حكومة تعج بالخبراء المتدربين على كل العلوم الحديثة . شعرت أن كل ذلك لم يكن ليحدث لولا أن الله ، أعلم العالمين ، أعطى هبة ما لخريج الصف الرابع ليوصلها لنا .

أرسلت السلطات جواسيس سوداً ليتسللوا إلى منظمتنا . ولكن أولئك الجواسيس كثيراً ما برهنوا أنهم وقبل كل شيء سود . لا أستطيع أن أقول كلهم ، فهناك حتماً آخرون ، إلا أن بعضهم ، بعد أن انضم إلينا وسمع ورأى وأحس بالحقيقة ، كشفوا لنا عن أنفسهم . بعض هؤلاء استقال من وكالات الرجل الأبيض الرسمية وأصبح يعمل مع أمة الإسلام. بعضهم الأخر استمر في العمل مع الرجل الأبيض بمعرفتنا ليصبح جاسوساً مضاداً يوصل إلينا أقوال وخطط الرجل الأبيض عن أمتنا . تلك هي الطريقة التي بها عرفنا أن ثاني أكثر موضوع يشغل السلطات بعد محاولتها معرفة ما يدور في معابدنا ، كان موضوع السرعة المتزايدة التي يحتضن بها السجناء السود الإسلام وأعتقد أن هذا الموضوع مازال يشغلهم حتى اليوم .

السجناء الذين ينضمون إلينا كانوا عادة يهيئون أنفسهم لذلك وهم في السجن حتى يستوفوا مقاييس أمتنا الأخلاقية . وكما حدث معي ، يدخلون المعبد رأساً بعد خروجهم من السجن وقد تأهلوا للتسجيل كمسلمين . في حقيقة الأمر ، كان أولئك السجناء المهتدون أكثر تأهيلاً من كثير من المسلمين المستقبليين الذين لم يدخلوا السجن أبداً .

لم يكن الدخول في جماعتنا في سهولة الانضمام إلى كنيسة مسيحية إذ لا يكفي أن يعلن الواحد أنه مسلم ثم يستمر في نفس حياة الرذيلة وعدم الأخلاقية القديمة ، على المسلم أولاً أن يغير ما بنفسه جسدياً وخلقياً حتى يستوفي قوانيننا الأخلاقية الصارمة وأن يحافظ على ذلك إذا أراد أن يبقى مسلماً . لم يكن يعقد اجتماع في معبد إلا ويجد المنستر أمامه بعض الرؤوس المحلوقة بالموس حديثاً لبعض المسلمين الجدد بين الحضور . لقد هجروا إلى الأبد ذلك الشعر المصطنع المكوي بمحلول القلي الذي يبدو كالمعدن ، أو « العملية » كما يسميها البعض في هذه الأيام . يؤلمني أن تجد في أي مكان تذهب إليه علامة الجهل واحتقار النفس تلك على رأس كثير من الزنوج . قد يجرح هذا شعور بعض أصدقائي من غير المسلمين الذي يكوون شعورهم ولكنك إذا تمعنت في أي زنجي شعره مكوي بالمحلول ستكتشف أنه جاهل ومهما كان المظهر الذي يتخذه أو ما يقوله عن نفسه فإن من يقلي شعره كذلك تشبها بالبيض ، إنما يعلنها صارخة أنه يخجل من زنجيته . سيكتشف صاحب ذلك الشعر ، مثلما اكتشفت أنا ، أنه عندما يجد بعض العزة في سواده فسيزيل ذلك العبث من رأسه ويترك الشعر الطبيعي الذي وهبه الله للسود كما هو .

التدخين محرم على المسلمين وتلك قاعدة أخرى من قواعد السلوك عندنا وقد كان هجر التدخين أصعب على بعض مسلمي المستقبل مما كان هجر المخدرات على بعض المدمنين . كثير من الرجال والنساء السود كان يسهل عليهم ترك التدخين حينما نشير إليهم أن الدولة تهتم بالبلايين التي تجمعها من الضرائب أكثر من اهتمامها بالصحة العامة . كما نسأل المسلم المستقبلي « ماذا يدفع الجندي لخارطوشة سكائر ؟ » كان ذلك يوضح له أنه مقابل كل خارطوشة سكائر يشتريها بالثمن العادي كانت الدولة تأخذ منها دولارين من حر مال الرجل الأسود (هي الفرق بين الثمن العادي وما يدفعه الجندي الذي يشتريها بدون ضريبة) .

قد تكون ، أيها القارئ ، قد قرأت عن برنامج أمة الإسلام لمعالجة مدمني المخدرات المزمنين فقد كتب عن ذلك البرنامج كثيراً . في حقيقة الأمر كتبت صحيفة **نيويورك تايمز** في إحدى المرات قصة عن كيف أن بعض منظمات الرعاية

الاجتماعية طلبت مساعدة ممثلي المسلمين لتعينها في معالجة المدمنين . كان برنامجنا لمعالجة الإدمان يبدأ بالتأكيد على وجود رابطة بين لون البشرة والإدمان إذ أن تركز أكبر عدد من المدمنين في نصف الكرة الغربي في هارلم ليس مصادفة . أول عناصر برنامجنا كان العمل الشاق الدؤوب الذي يقوم به المدمنون السابقون من المسلمين . كان المسلمون من هؤلاء يتصيدون المدمنين في الجيتو الأسود من بين معارفهم القدامى ثم يبدأون معهم برنامجاً يتطلب صبراً مراً يتكون من ست نقاط ويستغرق فترة قد تمتد من عدة أشهر إلى سنة .

أول هذه النقاط كانت بأن تجعل المدمن يعترف لنفسه أنه مدمن . ثانياً كان المدمن يلقّن السبب الذي يجعله يتعاطى المخدرات . ثالثا كان يوضح له أن هناك طريقة لهجر الإدمان . في المرحلة الرابعة تبدأ عملية إعادة بناء احترام المدمن لذاته وإعادة الثقة بالنفس له حتى يؤمن بأنه يمتلك بداخله قوة الإرادة التي تجعله يهجر الإدمان . في المرحلة الخامسة يقوم المدمن من تلقاء نفسه بالتوقف كلية عن تعاطي المخدرات . النقطة السادسة والأخيرة كانت تتم عندما يشفى المدمن تماماً وعندها على المدمن الذي شفي لتوه أن يواصل الحلقة ويذهب للبحث عن مدمن آخر من معارفه ويشرف على إنقاذه .

هذه النقطة السادسة مهمة لأن فشل منظمات الرعاية الاجتماعية سببه أن المدمن لا يثق بها ويعاديها بينما بإمكانه الثقة بالمدمنين السابقين . في تلك الحالة يعرف المدمن أن الذي يحاول مساعدته مدمن سابق مثله وربما كان صديقاً شخصياً سابقاً له شاركه السراء والضراء ولربما كانا لصين يسرقان سوياً . قد يرى المسلم صديقه المدمن متكئاً على حائط وهو يغالب النوم فيتقدم إليه ويخاطبه بلغة المدمنين .

مثله مثل مدمن الخمر لا يستطيع مدمن المخدرات أن يبدأ في علاج نفسه إلا عندما يعترف بحالته الحقيقية . يقوم المسلم بدور الطبيب ويضرب على وتر معين «إنك مدمن يا صديقي» وقد تنقضي عدة شهور قبل أن يواجه مدمن المخدرات مشكلته ولا يبدأ برنامج العلاج إلا عندما يحدث ذلك . الخطوة التالية تكون تفهم المدمن لسبب تعاطيه المخدرات . يستمر المسلم يجري خلف هدفه وقد يقوده ذلك إلى مجاهل غريبة في الجيتو لا يعلم أحد بوجودها وقد يجمع عشرة أو أكثر منهم ويحكي لهم عن وضعهم وما يجعلهم يستمعون إلى ذلك المسلم المهذب ذي الهندام المشذب النظيف هو أنه ليس إلا واحد منهم هجر ذلك الطريق.

كل من يتعاطى المخدر يتهرب من شيء ما . يشرح لهم المسلم ذلك كما يقول لهم: إن معظم المدمنين من بين السود يتعاطون المخدرات لينسوا وضعهم كسود في

أمريكا الرجل الأبيض حيث الرجل الأسود لا يساوي شيئاً .

يخاطب المسلم المدمنين كصديق ويأسرهم بصراحته : « دادي ، إنني أدرك ما تشعر به . ألم أكن معكم في نفس الوضع أهرش جلدي مثل القرد ورائحتي منفرة ، أعيش كالمجنون جوعان أسرق وأختبئ من الرجل الأبيض ؟ قل لي يا صديقي ، لماذا يشتري رجل أسود المخدر من الرجل الأبيض ليثرى الأخير ونهلك نحن ؟ » وعندما يكون المدمن جاهزاً يخبره المسلم بأن خير طريق لخلاصه هو الانضمام لأمة الإسلام وقد يُدعى إلى المطعم الإسلامي أحياناً ويصادف وربما يتعرف على مسلمين طاهري البدن ، تبدو النظافة منهم والافتخار ، يتعاطفون مع بعضهم البعض ويظهرون الاحترام والود لبعضهم بدلاً مما يراه كل يوم من العداء والأنانية في الجيتو والشوارع . وقد يسمع المدمن اسمه مقروناً « بالسيد » و « المستر » و « الأخ » لأول مرة من سنوات . لا أحد يسأله عن ماضيه وحينما يذكر إدمانه ، يكون ذلك بعفوية وكتحد خاص عليه مواجهته وكل من يقابله يشعره أنه سيتغلب على مشكلته .

مع زيادة احترام المدمن من المحتم أن يبدأ يؤمن أن بإمكانه التخلص من تلك العادة ولأول مرة يبدأ الإحساس بالاعتزاز كونه أسود . تلك توليفة قوية لشخص كان يعيش في الوحل ومن يجد في نفسه مثل ذلك الحافز لا يفوقه أحد في مقدرته على تغيير ما بنفسه لأنه كان في القاع . أخيراً ، وذلك أهم شيء ، يقرر المدمن بنفسه أنه يود أن يهجر المخدرات كلية . ذلك يعني أنه على استعداد لتحمل العذاب الجسدي الذي يحدثه التوقف الفجائي عنها . عندما تصل الأمور إلى تلك المرحلة يرتب الطلقاء وقتهم حتى يكون أحدهم معه في دوريات على مدار الساعة للاعتناء بالمدمن الذي قرر تطهير نفسه في الطريق لأن يصبح مسلماً .

عندما ينقطع المدمن عن المخدرات يبدأ في الصراخ والسب والاستجداء : « حقنة واحدة فقط ، أرحموني! » حينها يكون المسلمون بجواره يتحدثون إليه باللغة التي يفهمها : « ارم ذلك القرد من على ظهرك ! اركل تلك العادة القبيحة ! اقذف الرجل الأبيض من على ظهرك ! » يكون المدمن حينها يتلوى من الألم ، عيونه ترشح وأنفه ترشح وهو يتصبب عرقاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، كما يحاول أن يضرب الحائط برأسه ويرفع يديه محاولاً مقاومة القائم بمراقبته ثم يبدأ في الغثيان والمعاناة من الإسهال . « لا تبق على شيء ! دع الأبيض يذهب ! ستقف بعدها شامخاً يا رجل وكأني أراك الآن مع شباب ثمار الإسلام ! ».

عندما ينتهي ذلك الامتحان الصعب وعندما تتحطم قبضة المخدر يقوم المسلمون بتطبيب خاطر المدمن وإطعامه المرق والخبز حتى يقف على رجليه مرة أخرى وفي المستقبل لن ينسى أولئك الأخوة الذين وقفوا بجانبه في وقت الشدة . لن ينسى أبداً

أن خلاصه تم بواسطة برنامج أمة الإسلام الذي أنقذه من جحيم المخدر ولن يعود ذلك الأخ الأسود (أو الأخت التي تشرف على رعايتها أخوات مسلمات) إلى تعاطي المخدرات مرة أخرى إلا في النادر . بدلاً من ذلك وعندما يجد المدمن السابق إنه شفي وتجدد داخلياً وأصبح نظيفاً فخوراً تجده لا يستطيع الانتظار قبل أن يتصيد صديقاً سابقاً من غابة الإدمان وينقذه .

إذا قام بمثل برنامج محاربة المخدرات الناجح هذا ، رجل أبيض أو جماعة سوداء مقبولة لديه ، لوجدوا الدعم الحكومي والثناء والأضواء ولكن بدلاً من ذلك كانوا يهاجموننا . لماذا لا تدعم الدولة المسلمين حتى يوفروا لها ملايين الدولارات كل عام . لا أدري كم تخسر أمريكا من جرائم المدمنين ولكن يقال أن مدينة نيويورك وحدها تخسر البلايين سنوياً بسبب ذلك وأن حي هارلم يخسر ١٢ مليون دولار كل عام بسبب السرقات وحدها .

المدمن لا يعمل لكي ينفق على إدمانه الذي قد يكلفه من عشرة إلى خمسين دولار في اليوم وهو لا يستطيع كسب ذلك فماذا يفعل ؟ إنه يسرق ويحتال بطرق أخرى ويهجم على الآخرين مثل النسر والصقر – مثلما فعلت أنا في السابق . وعادة ما يكون المدمن قد ترك الدراسة مثلي ورفضه الجيش وغير مستعد نفسانياً لأي وظيفة حتى ولو عرضت عليه – مثلي تماماً .

أما المدمنات من النساء فإنهن يسرقن من المتاجر أو قد يبعن أجسادهن وكانت أخواتنا المسلمات يتحدثن إليهن بشدة ليطهرن أنفسهن ويتأهلن للانضمام للمسلمين : « إنك بذلك تؤكدين للرجل الأبيض أن جسدك وعاء للصديد ! ».

كثير من الكتابات التي « تكشف » المسلمين توحي بأن أتباع مستر محمد أساساً مدمنون وسجناء سابقون وفي البداية كان ذلك صحيحاً فقد أتى عدد كبير من أتباعه من قاع المجتمع . وكان مستر محمد دائماً يوجهنا بأن نجري خلف من هم في الوحل وكثيراً ما قال لنا أن من يهتدون منهم يصبحون من خير المسلمين .

لكننا بدأنا تدريجياً في تجنيد السود الآخرين – « المسيحيين الطيبين » الذين كنا نصطادهم من أمام كنائسهم ، ثم بدأ عدد أعضائنا المتعلمين والمؤهلين ونسبتهم تزيد بيننا . ومع كل تظاهرة أو اجتماع نعقده في أي مدينة ، كان ينجذب نحو معبدنا عدد من يسمون « بزنوج الطبقة الوسطى » في تلك المدينة ، نفس النوع الذي كان في الماضي يسخر منا وينعتنا « بالمسلمين السود » أو « الدهماويين » ورسل البغضاء وكل تلك الأوصاف . كانوا عندما يسمعون كلمة الحق الإسلامية ويفكرون فيها ينضمون إلينا وبأعداد متزايدة شباباً ورجالاً ونساءً ، وكان لدى

أمة الإسلام مكان لمن عنده تدريب أو موهبة .

كان بيننا مسلمون يخفون حقيقة إسلامهم حفاظاً على وظائفهم في عالم الرجل الأبيض ، وعدد منهم لم يكن يدري بحقيقة إسلامهم سوى الإلْيجا محمد وأئمته .

في عام ١٩٦١ ازدهرت حركة أمتنا وحملت صحيفة **محمد يتكلم** في صفحتها الأخيرة رسماً هندسياً بملء الصفحة للمركز الإسلامي المقترح إقامته في شيكاجو بتكلفة قدرها عشرون مليون دولار وكان كل مسلم يقدم مساهمة مالية شخصية لبنائه . كان يحتوي على مسجد جميل ، مدرسة ، مكتبة ، ومستشفى ومتحف يعرض بالوثائق التاريخ المجيد للرجل الأسود .

زار مستر محمد الدول الإسلامية وعند عودته أمرنا أن نسمي معابدنا بالمساجد بدلاً من معابد .

كذلك بدأ عدد محال المسلمين التجارية يتزايد بسرعة شديدة . كان الهدف منها هو أن نبرهن للسود ما يمكن أن يؤديه السود لأنفسهم إذا اتحدوا وباعوا واشتروا من بعضهم فقط وبقدر ما تسمح الظروف ولا يستأجرون إلا من بني جنسهم وبذلك تبقى أموال السود في المجتمع الأسود مثلما تفعل الأقليات الأخرى . كذلك بدأت تسجيلات أحاديث مستر محمد تذاع من عدة محطات إذاعية صغيرة في أرجاء أمريكا المختلفة . وفي كل من شيكاجو وديترويت كان أبناء المسلمين الذين في عمر الدراسة يلتحقون بجامعة الإسلام – حتى الثانوي العالي في شيكاجو والثانوي العام في ديترويت . وابتداءً من الروضة كان الأطفال يدرسون عن تاريخ الرجل الأسود المجيد ثم يبدأون وهم في الصف الثالث في تعلم لغة الرجل الأسود الأصلية : العربية .

في ذلك الوقت كان جميع أبناء مستر محمد الثمانية منخرطين بشدة في وظائف مهمة في أمر الجماعة وكنت أشعر بالفخر لأنه كانت لي يد في ذلك ، على الأقل في بعض الحالات وقبل ذلك بسنوات – عندما جعلني مستر محمد منستر في خدمته كنت أشعر أنه من المخجل أن يستمر أبناؤه في خدمة الرجل الأبيض كما كان بعضهم يفعل في المصانع والمباني وقيادة عربات الأجرة . شعرت أن علي أن أخلص لأسرته كإخلاصي له وألححت عليه أن يدعني أقوم بحملة صغيرة في مساجدنا الصغيرة لجمع الأموال حتى يستطيع بعض أبنائه الذين يعملون عند الرجل الأبيض أن يتوظفوا داخل أمة الإسلام . وافق مستر محمد ونجحت حملة جمع الأموال وبدأ أبناؤه العمل لدى أمة الإسلام بالتدريج . اليوم يعمل إيمانويل ، أكبرهم ، كمدير لمصنع التنظيف بالبخار والأخت إيثل (محمد) شريف تعمل كرئيسة للمعلمات المسلمات (زوجها رايموند شريف ، هو القائد الأعلى لشباب ثمار الإسلام.) أما الأخت لوتي محمد فتشرف على جامعتي الإسلام . ويعمل ناثانيل محمد مساعداً

لايمانويل في معمل التنظيف بالبخار . أما هريرت محمد فهو حاليًّا الناشر لصحيفة محمد يتكلم التي كنت أنشأتها في السابق وأخوه الإيْجا محمد الصغير هو مساعد قائد شباب الإسلام . أما ولاس محمد فهو إمام جامع فيلادلفيا إلى أن علقت عضويته معي لأسباب سأخوض فيها لاحقاً ، ويدرس أصغر أبناء مستر محمد ، أكبر محمد ، في جامعة الأزهر بالقاهرة وهو أيضاً سينفصل عن أبيه مستقبلاً .

أدى ماراثون الخطب والأحاديث الطويلة المتتالية في تظاهراتنا الكبيرة إلى أن تسوء حالة مستر محمد الصحية فجأة وترهقه الأزمة الصدرية . كان يبدأ في السعال فجأة أثناء الحديث العادي وتشتد حدة السعال حتى يهتز جسده كلية . بدأ يرسل من ينوب عنه أحياناً ويلازم هو السرير كما وأصبح يضطر إلى إلغاء مواعيد محددة مسبقاً للحديث في اجتماعات كبرى بالرغم من إصراره على الحضور وحزنه لعدم تمكنه من ذلك . كان الآلاف من الحضور يصابون بخيبة أمل عندما يجدون أنهم سيستمعون إليَّ أنا أو أي بديل آخر لمستر محمد .

بدأ أفراد أمتنا في القلق كما أن الأطباء نصحوه بالبقاء في طقس جاف فاشترت الأمة منزلاً لمستر محمد في مدينة فينكس بولاية أريزونا . وفي إحدى زياراتي له هنالك ما نزلت من الطائرة إلا وفاجأتني أضواء آلات التصوير فاستغربت فيمن خلفي وعندما نظرت رأيت سلاح المصورين . كانوا من شرطة مباحث أريزونا . بعد مدة شاع الخبر السار أن طقس أريزونا أراح مستر محمد كثيراً وخفف من عذابه وصار بعد ذلك يقضي أغلب السنة في فينكس .

وبالرغم من أن مستر محمد وهو في طور النقاهة لم يكن ليستطيع أن يستمر يعمل الساعات الطوال مثلما كان يفعل وهو في شيكاجو ، زادت عليه أعباء اتخاذ القرارات والمهام الإدارية . كانت الأمة قد كبرت وتوسعت ، داخليا وخارجياً ، ولم يعد مستر محمد بقادر على إعطائها الوقت الذي تتطلبه ليقرر أي محاضرات عامة أحضر أنا وأي مقابلات إذاعية أو تلفازية أقبل ، بالإضافة إلى بعض الأمور التنظيمية التي كنت دائماً أراجعه فيها لينصح أو يوجه .

أراني مستر محمد أنه يثق فيَّ فطلب إليَّ أن أتخذ القرارات بنفسي في الأمور التي ذكرتها وأن علي أن أحكم عقلي وأختار ما أرى أنه في صالح أمة الإسلام .

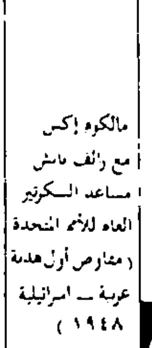
قال لي مستر محمد ذات مرة : الأخ مالكوم ، أريد لك أن تصبح مشهوراً ، لأنك إن أصبحت مشهوراً ، سأصبح أنا أكثر شهرة . ولكن هنالك شيء يجب أن تعرفه . عندما تشتهر سيحقد عليك كثيرون لأن الناس عادة تغار من الشخصيات العامة ».

ليست هنالك من بين ما أسر لي به مستر محمد نبوءة تحققت مثل تلك المقولة .



مالكوم إكس
مع مارتن لوثر
كنج زعيم
اللاعنف الزنجي





مالكوم إكس
مع رالف بانش
مساعد السكرتير
العام للأمم المتحدة
(مفاوض أول هدنة
عربية ـ إسرائيلية
١٩٤٨)

■ الباب الخامس عشر

إيكاروس

THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X



كلما ازداد عدد المجالات التي مثلت فيها مستر محمد في التلفاز والمذياع وفي الجامعات والأماكن الأخرى ، كلما ازداد عدد الخطابات التي تصلني من أناس استمعوا إليَّ وخمس وتسعون بالمائة من هذه الخطابات كان من أناس بيض فيما أقدر . القليل من هذه الخطابات كان من نوع « عزيزي النيجر إكس» أو تهديداً بالقتل . وقد كشفت لي أغلب هذه الخطابات مخاوف الرجل الأبيض وأهمها اثنان رئيسيان . أول هذه المخاوف كان اعتقاده الخاص أن غضب الله سيحل بهذه الحضارة ويحطمها . وثاني أهم مخاوف الرجل الأبيض كانت صورة الرجل الأسود وهو يعاشر المرأة البيضاء .

كانت نسبة غريبة من خطابات البيض لي تتفق كلية مع تحليل مستر محمد للمشكلة لكنها تخالفه في الحل . كان هنالك تضارب غريب في بعض هذه الخطابات فهي تؤيد مستر محمد ولكنها تتراجع من تعبير « الشيطان الأبيض» فكنت أحاول أن أوضح لهم ذلك في خطبي التالية .

« طالما أننا لا نسمي رجلاً أبيض بعينه بلفظ (شيطان) فإننا لا نعني فرداً أبيض معيناً . إننا نتكلم عن تاريخ الرجل الأبيض الجماعي ونتحدث عن قسوة الرجل الأبيض الجماعية وطمعه وشروره التي جعلته يسلك سلوك الشيطان نحو الرجل غير الأبيض . كل شخص ذكي ، نزيه وموضوعي لن يفشل في الخلاص إلى أن تجارة الرجل الأبيض في الرقيق وأعماله الشيطانية اللاحقة هما السبب

المباشر ليس في وجود الرجل الأسود على أرض أمريكا فحسب ، بل في الحالة المزرية التي يجد الرجل الأسود نفسه فيها هنا . ولن تجد رجلاً أسود واحداً مهما كان ، لم يتضرر شخصيًّا وبطريقة ما من أفعال الرجل الأبيض الشيطانية الجماعية ».

وفي كل يوم تقريباً كان يظهر في إحدى الصحف هجوم ما على « المسلمين السود » وبدرجة متزايدة كان الهجوم ينصب على شيء قلته ، «مالكوم إكس الديماجوج (الدهماوي).» كنت أغضب وأنفعل عند قراءة أي هجوم على مستر محمد ولم يكن يهمني ما يقولونه عني . علماء الاجتماع وموظفو الرعاية الاجتماعية حاولوا ذبحي ذبحاً ، خاصة السود منهم لسبب ما ، أما أنا فكنت أعرف السبب وهو أن الرجل الأبيض يتحكم في مرتباتهم الشهرية . فإذا لم أكن قد « شققت المجتمع» في رأيهم فأنا قد أسأت « تقييم الوضع العنصري.» أو كما يقولون بعبارات أخرى « عممت أكثر مما ينبغي» وإذا كنت محقاً في نقطة ما ، فأنا « أحورها وأفسرها بما يناسبني ».

في إحدى المرات أراني أحد الأخوة المسلمين من أعضاء مسجدنا ، وكان يعمل مع المراهقين في أحد مراكز هارلم الاجتماعية ، أراني تقريراً سرياً علمت منه أن أحد كبار موظفي الرعاية الاجتماعية السود الذي أرسل لتقصي الحقائق عن المسلمين السود فكتب كلاماً هرعت معه إلى القاموس ولذلك لم أنسَ منه سطراً واحداً . فلتسمع هذا الكلام :« لقد بسط مالكوم اكس وحور من مكونات ديناميكية شبه ثقافة هارلم الجزئية لتتلاءم مع متطلباته.» من منا بربك يعرف شبه ثقافة هارلم الجزئية أكثر من الآخر ؟ أنا الذي عاش في شوارعها سنيناً أم موظف الرعاية الاجتماعية الأسود النفاج اللاهث وراء المركز العلمي .

لم يكن يهمني ذلك وكان المهم في رأيي هو أن من بين الاثنين والعشرين مليون أسود حظيت نسبة قليلة بالتعليم الجامعي وهذا أحد أولئك المحظوظين ، أحد أولئك « المتعلمين » الزنوج لم يفهم القصد الحقيقي والغرض من التعليم وفائدته . هنا مثال للتعليم الجامد الذي لا يستغل إلا لاستعراض الكلمات الرنانة .

هل تعلم أن هذا واحد من أهم الأسباب التي مكنت الرجل الأمريكي الأبيض من احتواء واضطهاد الرجل الأمريكي الأسود بسهولة ؟ لأن أولئك المتعلمين السود لم يكونوا ، حتى عهد قريب ، يحاولون تطبيق معرفتهم إلا فيما ندر – وأنا مضطر لأن أقول – في البحث والتفكير الخلاق مثلما يفعل البيض ، للارتقاء بأنفسهم وبجنسهم في عالم الرجل الأبيض المادي التنافسي الذي تأكل فيه الكلاب بعضها . لعدة أجيال قادت الطبقة الزنجية « المتعلمة » جماهيرها الزنجية مرددة تفكير

الرجل الأبيض والذي كان طبيعياً لمصلحة الرجل الأبيض .

الرجل الأبيض – دعنا نستوفيه حقه – يستمتع بذكاء وحسن تدبير غير عاديين وعالمه يبرهن ذلك . ليس هنالك من شيء يعجز الرجل الأبيض عن صنعه وأي معضلة علميه تذكرها ، يستطيع الرجل الأبيض حلها . في الوقت الحالي يقوم بحل معضلة إرسال شخص ليستكشف الفضاء الخارجي ويعود سالماً إلى الأرض . لكن ذكاءه يقف عند التعامل مع البشر الآخرين ويتعطل ذلك الذكاء كلية عندما يكون أولئك الآخرون ليسوا بيضاً وعندها تتحكم عواطفه على ذكائه – أنه سيقترف حينها أفعالاً عاطفية من وحي اللحظة يصعب تصديقها لأن عقدة «العظمة البيضاء» متمكنة من نفسيته .

على مَنْ رميت القنبلة الذرية - .. « لإنقاذ حياة أمريكيين ؟ » هل الرجل الأبيض من البلاهة حتى يعتقد أن أهمية ذلك ستفوت على ثلثي سكان العالم من غير البيض ؟ وحتى قبل رمي القنبلة الذرية وهنا في الولايات المتحدة ، ماذا عن المائة ألف مواطن أمريكي من أصل ياباني الذين سيقوا كالبهائم إلى المعسكرات ووضعوا خلف الأسلاك الشائكة خلال الحرب الكونية الثانية ؟ وكم أمريكي من أصل ألماني اقتيدوا خلف الأسلاك الشائكة خلال نفس الحرب ؟ إنهم بيض .

تاريخياً كانت البشرة غير البيضاء تثير وتفضح « الشيطان » الذي هو من طبيعة الرجل الأبيض. ماذا سوى عاطفة شيطانية غشيت ذكاء الرجل الأبيض فمنعته من أن يتوقع أن ملايين من العبيد السود الذين « حُرروا» ثم تلقوا تعليماً محدوداً سيثورون يوماً كمارد مخيف في وسط أمريكا البيضاء ؟ كان ينبغي على عقل الرجل الأبيض الذي حمله لاكتشاف الفضاء أن يقول له أن العبد إذا تعلم فلن يخاف سيده . يعلمنا التاريخ أن العبد المتعلم سيبدأ يسأل نفسه ثم يطالب بالمساواة مع سيده .

في الوقت الحالي وبأكثر من طريقة يعرف الرجل الأسود حقيقة الرجل الأبيض أحسن منه . وكل يوم تزيد معرفة الاثنين والعشرين مليوناً من السود أن ثورتهم ستضر كثيراً بأمريكا الرجل الأبيض سياسياً واقتصاديًّا وطبيعيًّا ، وإلى درجة ما ، اجتماعيًّا ، دعك من صورتها عالمياً .

لم أقصد الابتعاد عن الموضوع بهذا الحديث . كنت أحدثكم عن محاولتي التعامل مع الصحفيين ومذيعي التلفاز الذين ما فتئوا يحاولون طمس تعاليم مستر محمد . صرت أشبه الصحفيين بابن مقرض (حيوان) بشري فهم دائماً يتنسمون ويفتشون ويرشقونني بالسهام محاولين الإيقاع بي ووضعي في موقف حرج في أي

مقابلة . فإذا ما أدلى أحد « قادة » الحقوق المدنية بتصريح لم يعجب جهاز السلطة الأبيض ، كان الصحفيون يأتون إلي في محاولة لإرجاعه إلى الخط المستقيم . على سبيل المثال كان يأتي إليَّ أحدهم ويسألني: « مستر مالكوم إكس ، لقد صرحت أكثر من مرة أنك لا تؤمن بالتظاهرات الجالسة وأساليب الكفاح المماثلة ، فما رأيك في المقاطعة التي يقودها دكتور مارتن لوثر كنج في مونتوجمري ؟ » موقفي من ذلك كان أنه بالرغم من أن « قادة » حركة الحقوق المدنية كانوا يهاجموننا نحن المسلمين ، فهم مازالوا قوماً سوداً ، كانوا بني جنسنا وسيكون من الحماقة لو تركت البيض يخدعونني لأقول شيئاً ضد حركة الحقوق المدنية .

وعندما يسألونني عن المقاطعة في مونتوجمري كنت أعيد عليهم ما قاد إلى ذلك. كانت منستر روزا باركز تركب الحافلة في طريقها إلى منزلها عندما وقفت الحافلة في محطة ما وأمرها السائق الأبيض أن تترك مقعدها ليجلس عليه راكب أبيض ركب (البص) لتوه في تلك المحطة . كنت أقول لهم : « لكم أن تتخيلوا ذلك ! هذه المرأة السوداء الطيبة المثابرة المؤمنة بالمسيحية ، دفعت ثمن تذكرتها من حر مالها وجلست على مقعدها . وفقط لأنها سوداء طلب إليها أن تتنازل عن مقعدها ! أنني أقول لكم أنه يصعب عليَّ أنا أحياناً أن أصدق هذه العنجهية من الرجل الأبيض ».

في مرات أخرى كنت أقول : « لا أحد يدري بالضبط كيف قادت هذه الحادثة الصغيرة إلى إشعال غضب زنوج مونتوجمري . هنالك قرون ملأى بأبشع الفظائع ارتكبت ضد الشعب الأسود – اغتصاب ، ضرب ، إطلاق النار عليهم وتعليقهم من الأشجار . لكن كما تعلمون إن ما يحرك التاريخ إنما هو مجرد حوادث تبدو بسيطة وتافهة . هنالك محام هندي مغمور طرد من القطار مرة فامتلأ غيظاً من الظلم حتى لوى ذنب الأسد البريطاني . كان اسمه المهاتما غاندي ».

في مرات أخرى كنت أستخدم حيلاً رأيت المحامين يستغلونها في المحاكم وفي التلفاز إذ كانوا أحياناً يحشرون معلومة لا تقبلها المحاكم أمام المحلفين . (أحياناً أتخيل أنني كنت سأصبح محامياً ناجحاً كما أخبرت مدرسي في الصف الثامن في ميسون بولاية ميشجان ، لقد وددت ذلك ولكنه نصحني بأن أصبح نجاراً .) كنت ألتقط سؤال الصحفي وأرمي في حجره قنبلة كامتداد طبيعي لسؤاله .

« نعم ، سيدي ، أنني أرى أن منطق المقاطعة ينطبق على الجيش والبحرية وسلاح الطيران . لماذا نذهب لنموت في مكان ما للحفاظ على ما يسمى بالديمقراطية التي تُعطي للأبيض المهاجر بعد يوم من وصوله ولا يجدها الرجل الأسود بعد أربعمائة عام من الاستعباد والشقاء في خدمة هذه البلاد ؟ » .

بالنسبة للبيض خمسون مقاطعة محلية خير من أن يفكر اثنان وعشرون مليوناً من الزنوج بالطريقة التي ذكرت . لست بحاجة إلى أن أقول :إن حديثي لم يظهر في الصحف بالطريقة التي قلتها وإذا ظهر إطلاقاً ، كان يحرف ويحور . بعد عدد من المقابلات الصحفية صرت أحس بالصحفيين عندما يقنعون فهم عندها يتوقفون عن إثارة أسئلة معينة .

عندما أطور نقطة قوية في صالحي كنت أرمي طعماً للصحفيين حتى تذكر تلك النقطة في المذياع والتلفاز . كنت أنسى عمداً وكأنها زلة لسان واحشر هنا أو هناك كلمة ما عن « كسب » حديث لحركة الحقوق مثل أن تقوم الصناعات الكبرى بتوظيف عشرة زنوج أو أن تبدأ سلسلة مطاعم في الربح من الزنوج بالقيام بخدمتهم أو أن طالباً أسود انخرط في جامعة جنوبية بدون قوة السلاح الخ . عندما تحدث « زلة اللسان» هذه ، يتلقف مقدم البرنامج الطعم قائلاً « أها ! حقاً ، مستر مالكوم إكس ، لن تستطيع أن تنكر أن هذا كسب لجنسك» .

كنت حينها أرد بسرعة قائلاً « لا يمكن لي أن ألتفت حولي من غير أن أسمع عن كسب أو تقدم ما لحركة الحقوق المدنية . يبدو أن البيض يعتقدون أن على السود أن ينشدوا « هالا لويا » مبتهجين . لقد وضع الرجل الأبيض مديته الطويلة خلف ظهر الرجل الأسود لمدة أربعمائة عام والآن وهو يلوح بها بعد أن سحبها بضع بوصات ، المفروض في الرجل الأسود أن يكون ممتناً لذلك ! لِمَ ؟ إن أقل تحريك للمدية سيترك جرحاً على أقل تقدير . »

وعلى نفس المنوال ، ما أن يصرح مختار بلدة أو رئيس مجلس محلي بافتخار قائلاً أن بلدته « خالية من المشاكل العنصرية » إلا وينقلها البرق وتنشرها وكالات الأخبار ثم يرميها صحفي في وجهي . كنت أرد عليهم بأنهم ليسوا في حاجة لإخباري عن المكان الذي تم فيه ذلك لأن كل ما يعنيه ذلك هو أنها بلدة تكاد تكون خالية من الزنوج وذلك ينطبق على كل بلد في العالم . فلنأخذ انجلترا الديمقراطية ، مثلا ، عندما وصلها مائة ألف من الهنود الغربيين السود ، أوقفت إنجلترا قبول المهاجرين السود . وفنلندا استقبلت سفير الولايات المتحدة الأسود بترحاب ، ولكن دعنا نرى ماذا سيحدث إذا تبعه زنوج كثر إلى فنلندا . أو حتى روسيا ، عندما كان خروتشيف في السلطة هدد بإلغاء تأشيرات عدد من الطلبة الأفارقة الذين قالت تظاهراتهم ضد العنصرية للعالم : وروسيا أيضاً .....

صحافة جنوب الولايات المتحدة كانت تتجاهلني إلا عندما أقول شيئا عن البيض الشماليين والسود من ركاب قطار الحرية الذين يتجهون جنوباً للتظاهر ، حينها تظهر أقوالي في الصفحة الأولى . كنت سميت ذلك « عبثاً» فجيتوات الشمال هنا في

عقر دارهم ملأى بالفئران والصراصير بما يكفي لشغل جيش من ركاب قطار الحرية أولئك . كنت أقول لهم إن لدى نيويورك المتحررة مشاكل عنصرية أكبر من مشاكل ولاية مسيسبي وأنه لو أراد ركاب قطار الحرية الشماليون أن يفعلوا شيئاً فعليهم أن يبدأوا بمنطقتهم وينظروا إلى مشاكل الأحياء القذرة مثل مشكلة الأطفال الصغار الذين يجوبون الشوارع حتى منتصف الليل ومفاتيح الشقق معلقة بخيوط من رقابهم حتى يتمكنوا من الدخول لأن الآباء والأمهات مخمورون أو مدمنو مخدرات ، لصوص أو عاهرات . وبإمكان ركاب قطار الحرية الشماليين أن يشعلوا ناراً أمام مباني المجالس المحلية والبلديات والصناعات وكبرى النقابات للمطالبة بتوظيف الزنوج وإزالة أسماء أكبر عدد منهم من قائمة المساعدات الحكومية التي تعلّم الخمول والتي جعلت الجيتوات تتدهور حتى صارت أسوأ مكان يمكن أن يعيش فيه إنسان . تلك كانت الحقيقة المطلقة ، ولمَ كنت أقولها ؟ لأن أولئك الليبراليين كانوا أكثر ما يستفزني .

نعم كنت أزيل القناع الذي قضى الليبرالي زمناً ينميه ويطوره . الليبراليون الشماليون قضوا دهراً يشيرون بأصابع الاتهام نحو الجنوب من غير أن يعارضهم أحد لدرجة أنهم اليوم يصدمون حينما نعري نفاقهم أمام العالم ليرى أسوأ النفاق . أن حياتي خير مثال لتوضيح ذلك النفاق فأنا لا أعلم شيئاً عن الجنوب ولكنني نتاج هذا الشمالي الأبيض وموقفه المنافق نحو السود .

كان مستر محمد يوفي الجنوبي الأبيض حقه لأنه على الأقل صريح . إنه يظهر أسنانه للرجل الأسود ويقولها له في وجهه أن البيض الجنوبيين لن يقبلوا « الاندماج» أبداً . يمضي الجنوبي الأبيض فيقول أنه سيحارب أقل درجة من الاندماج حتى لو كان اندماجاً رمزيًّا . بذلك لا يكون الرجل الأسود تحت تأثير أي وهم عن العدو الذي يتعامل معه .

يمكنك القول عن كثير من البيض الجنوبيين أن معاملتهم كأفراد لكثير من الزنوج الأفراد كانت لا تخلو من طريقة المساعدة الأبوية . إلا أن الشمالي الأبيض كان يبتسم بينما جعبته ملأى بالحيل والكذب عن « المساواة» و « الاندماج » وإذا ما لمست يوماً يد سوداء كتف الرجل الأبيض في كل أمريكا واستدار ذلك الأبيض ليجد ذلك الزنجي واقفاً يقول « وأنا أيضاً ».. فإن ذلك الليبرالي الشمالي سينقبض من ذلك الرجل الأسود وكله خوف وشعور بالذنب مثل أي جنوبي أبيض .

في حقيقة الأمر أن الرجل الأسود الذي حبسه الشماليون البيض في الجيتوات السوداء لهو أخطر وأكثر تهديداً . إن طريقة تركيبة قوى الشمال البيضاء هي أن تتحدث عن الديمقراطية بينما تبعد الزنجي عن الأنظار في مكان ما قريب .

كلمة « الاندماج » نفسها اختراعها ليبراليو الشمال وهي ليست ذات معنى حقيقي . إنني أسألكم الآن عن المعنى الذي تحمله هذه الكلمة عنصريا وهل يمكن تحديده بالضبط؟ حقيقة إن « الاندماج » ليس إلا صورة . إنه غطاء ثعالبي قصد به التشويش على متطلبات الرجل الأسود . هنا في الولايات العنصرية – أو ذات العنصرية الجديدة – الخمسين في أمريكا الشمال ، جعلت كلمة الاندماج ملايين البيض مشوشي الفكر ومستائين يعتقدون أن الرجل الأسود يريد الاختلاط مع الرجل الأبيض بينما تلك حالة قلة من الزنوج فقط تعد على الأصابع فتنت « بالاندماج ».

أعني هنا الزنوج القليلين الذين يهربون من اخوتهم السود الفقراء والمسحوقين ، يهربون من احتقارهم لأنفسهم لأن ذلك ما يفعله الهاربون . أعني أولئك الذين لا يشبعون من تمريغ أنوفهم في التراب أمام الرجل الأبيض . تلك القلة المختارة عقولها بيضاء وتكره السود أكثر مما يكرههم الرجل الأبيض .

الحقوق الإنسانية . الاحترام لنا كبشر . ذلك ما تطالب به جماهير السود الأمريكية وتلك هي مشكلتهم الحقيقية . أنهم لا يريدون أن ينكمش البيض منهم وكأنهم مصابون بالطاعون . أنهم لا يريدون أن يحشروا في الجيتو مثل الحيوانات بل ينشدون الحياة في مجتمع حر مفتوح يمشون فيه ورؤوسهم مرفوعة مثل البشر الآخرين رجالاً ونساءً .

ما لا يفهمه كثير من البيض اليوم هو أن السود لا يحبون ويتفادون البقاء مع البيض مما هو ضروري . أن صورة « الاندماج » العامة في أذهان كثير من البيض المغترين جعلتهم يعتقدون أن السود إنما يبغون مشاركتهم أسِرَّتهم – وتلك أكذوبة . وهنالك أكذوبة أخرى يصدقها الرجل الأبيض وهي إن أعظم حلم عند الرجل الزنجي هي أن يتمكن من امرأة بيضاء . وكما قال لي أحد الإخوة السود قبل مدة : « هل شممت رائحة أحدهم وهو يعرق ؟ » .

إن جماهير السود تفضل رفقة بني جنسها . وحتى زنوج الطبقة الوسطى الموهومين ماذا يفعلون عندما يعودون إلى بيوتهم بعد حضورهم حفلات الكوكتيل المختلطة ؟ أنهم يرمون أحذيتهم ويبدأون في الكلام عن الليبراليين البيض وكأن هؤلاء الليبراليين كلاب . لا أستطيع أن أقسم لك عما يقوله أولئك البيض حينها فأنا لم أختلِ بهم ، ولكن البرجوازيين الزنوج يعلمون أنني لا أكذب في وصفي لحالهم .

إنني إنما أقول الحقيقة العارية ولن تجدني أمسك لساني عندما تكون الحقيقة في ذهني . إن تبادل الحقيقة العارية كما هي بين الرجل الأسود والأبيض هو ما يحتاجه هذا البلد بشدة لتنقية الجو العنصري من الأفكار الخاطئة والاكليشهات

الفارغة التي امتلأ بها جو هذا البلد لمدة أربعمائة عام .

في كثير من الجماعات السكانية خاصة الصغيرة منها ، خلق الرجل الأبيض لنفسه صورة صاحب النوايا الحسنة نحو الزنوج وفي أي مرة يبدأ زنجي محلي يصرخ بالحقيقة وبأن الرجل الأسود سئم كونه مواطناً من الدرجة الثانية ، مهضوم الحقوق . عند ذلك ستبدأ تسمع من يقول : « من المؤسف أنه بسبب ذلك سينقلب البيض أصحاب النوايا الحسنة على الزنوج ... إن ذلك محزن ... كان الوضع سائراً في تحسن ... ولكننا الآن نجد أن الاتصالات بين الأجناس قد انقطعت ! » .

عم يتحدثون ؟ لم تكن هنالك اتصالات حتى تنقطع وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية لم تكن هنالك جماعة سكنية واحدة في طول أمريكا وعرضها سمع فيها الرجل الأبيض الحقيقة من قادة الزنوج المحليين تعبر عن شعورهم فيما تفرضه الجماعة البيضاء على زنوج تلك المنطقة .

هل تحتاج إلى دليل ؟ حسن إذن ، لماذا فوجئت أمريكا البيضاء وصدمت حينما بدأ الزنوج يثورون على أوضاعهم . لا أحب أن أكون في وضع قائد لجيش من البيض يجهل وضع الزنوج في هذا البلد مثل هذا الجهل .

ذلكم هو الوضع الذي أدى إلى أن يفور الزنوج تدريجياً حتى يصلوا مرحلة الثورة بدون أن ينتبه الرجل الأبيض إلى ذلك . في كل أنحاء أمريكا ظل قادة « الزنوج » المحليون يؤكدون للرجل الأبيض أن كل شيء على ما يرام وتحت السيطرة وبذلك يضمنون بقاءهم « كقادة » وعندما يبغى هذا « الزعيم » حاجة صغيرة لقومه يقول « بعض الناس ، ياريس ، يتحدثون عن حاجتنا إلى مدرسة أحسن» وإذا لم يكن أولئك الزنوج المحليون قد أثاروا مشاكل ، يوافق رجل « البر» الأبيض وتمنح لهم مدرسة وربما بعض الوظائف .

كل البيض في أرجاء أمريكا المختلفة والذين هم جزء من تركيب السلطة البيضاء يعلمون صحة كلامي . أنهم يدركون أن ما وصفته هنا هو النسق الذي تقوم عليه العلاقات « والاتصالات » بين « البيض المحليين الطيبين» وبين الزنوج المحليين في أية مجموعة سكانية صغيرة . ذلك هو النسق الذي خلقه الأناني الأبيض المتسلط وقد صمم بطريقة تجعل الرجل الأبيض يحس « بالنبل» وهو يرمي بالفتات للرجل الأسود بدلاً من أن يشعر بالذنب من طريقة المجموعة المحلية في استغلال الزنوج .

ولكن دعوني أقول شيئاً عن هذا النسق ، هذا النظام الذي خلقه الرجل الأبيض والذي يتعلم فيه الزنوج إخفاء الحقيقة خلف جدار من الابتسامات « ونعم سيدي» وجر الأقدام وحك الرأس . هذا النظام أضر بالرجل الأبيض أكثر مما لو كان

جيش غاز . لماذا أقول ذلك ؟ لأن محصلة كل ذلك كانت أن أصبحت لدى الرجل الأبيض قناعة مطلقة هي أنه « الأفضل». كم مجموعة سكانية صغيرة تجد فيها رجالاً بيضاً لم يكملوا المدرسة الثانوية ينظرون بتعال إلى زنوج خريجي جامعات من بين « زعماء » الزنوج المحليين ، مدراء مدارس ، مدرسين ، أطباء ومهنيين آخرين ؟!

لقد فرض الرجل الأبيض نظامه على غير البيض في جميع أنحاء العالم وذلكم هو السبب الحقيقي في أنه أينما كان المواطنون غير البيض يقيمون ، تجد حكومات الرجل الأبيض نفسها تواجه متاعب ومصاعب .. تزداد عمقاً وكل يوم . دعونا نواجه الحقيقة ! هل سيعي الرجل الأبيض الحقيقة والحقائق عن الأسباب وراء متاعبه أم لا ؟ هذا ما سيحدد بقاءه من نهايته .

إننا نشاهد اليوم ثورة الشعوب غير البيضاء ، الشعوب التي كانت إلى عهد قريب تتجمد خوفاً من بطش الدول البيضاء . ما حدث ببساطة هو أن الشعوب السوداء ، السمراء ، الحمراء ، والصفراء بعد مئات السنين من الاستغلال والمهانة وعقدة النقص المفروضة عليها ، كل هذه الشعوب سئمت من تحمل قدم الرجل الأبيض على رقابها .

كيف تنوي حكومة أمريكا البيضاء أن تقنع الشعوب غير البيضاء «بالديمقراطية » والإخاء – بينما هم يسمعون ويقرأون كل يوم عما يحدث هنا في أمريكا ويرون الصور – التي هي خير من ألف كلمة – للرجل الأبيض وهو يأبى الديمقراطية والإخاء لمواطني أمريكا من غير البيض . إن الشعوب غير البيضاء تعلم جيداً ما قدمه الرجل الزنجي للرجل الأبيض – أحبه وأخلص له ، خدمه واعتنى به ، لقد حارب الزنوج وماتوا دفاعاً عن أمريكا ضد أعدائها من البيض ومن غير البيض . ياله من مخلص هذا الأسود ومع ذلك تفجر فيه القنابل وترسل من خلفه الكلاب ، تفتح فيه خراطيم مياه الإطفاء وتسجن منه الألوف ، يضرب حتى يدمي وترتكب ضده كل أنواع الجرائم .

لا شك أن لهذه المعلومات التي تنتشر وتتجدد كل يوم أمام شعوب العالم غير البيضاء ، دخلاً كبيراً بإحراق عربات السفارات والرمي بالحجارة ومهاجمة مباني السفارات والقنصليات والهتاف « أيها الأبيض ، عد إلى بلدك يا غريب بلدك» ، وبهذا الهجوم على البعثات التبشيرية المسيحية البيضاء وحرق وتمزيق الأعلام .

واضح إذن سبب قولي أن عقدة العظمة المتأصلة في الرجل الأبيض هي التي جلبت له ضرراً أكثر مما قد يجلبه جيش غاز .

على الرجل الأمريكي الأسود أن يركز جهوده لبناء تجارته وصناعته ولبناء

بيوت محترمة لنفسه . ومثلما فعلت الجماعات العرقية الأخرى ، فليقم السود حيثما كانوا وكيفما كان بالشراء والبيع من بني جنسهم ، واستئجار بني جنسهم وبذلك يزيدون من مقدرتهم في الاعتماد على أنفسهم . تلك هي الطريقة الوحيدة التي بها سيلقى الرجل الأسود الاحترام واحترام الذات هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الرجل الأبيض أن يمنحه للرجل الأسود أبداً . لن يصبح الرجل الأسود مستقلاً أبداً ولن يجد الاحترام كإنسان مساو حقاً لبقية البشر إلا إذا كان عنده ما عندهم وحتى يقدم لنفسه ما يقدمه الآخرون لأنفسهم .

على الرجل الأسود في الجيتوات مثلاً أن يبدأ في تقويم مساوئه المادية والخلقية والروحية . الرجل الأسود في حاجة لأن يبدأ برنامجاً للتخلص من البغاء وإدمان الخمر والمخدرات وأن يرتقي بقيمه .

إن أعداد الزنوج التي تشارك في « الاندماج» بأي درجة أعداد بسيطة لا تتعدى بضعة آلاف وهم أساساً عدد قليل من البرجوازية الزنجية التي ترمي بمالها القليل في فنادق الرجل الأبيض المترفة ونواديه الليلية الأنيقة ومطاعمه الكبيرة الفخمة . إن الرجل الأبيض الذي يرتاد هذه الأماكن لديه المقدرة المالية أما الزنوج الذين ترونهم في هذه الأماكن فليست لديهم المقدرة المالية التي تمكنهم من ارتياد معظمها . كيف يبدو زنجي على حافة الإفلاس وهو يتناول طعام العشاء في أحد هذه المطاعم ويبتسم لرئيس النادلين الذي يملك مالاً أكثر من ذلك الزنجي . هؤلاء الزنوج البرجوازيون يضعون الفوط على حجرهم ويطلبون وجبة من طائر السماني والقواقع بالصلصة – لم ذلك ؟ إن الزنوج لا يحبون القواقع حتى ! إنهم يفعلون ذلك ليبرهنوا أنهم مقبولون من الرجل الأبيض .

النهاية الحقيقية لما يسمى « بالاندماج » إذا فكرت فيها ، هي الزواج المختلط . وأنا أتفق مع البيض الجنوبيين الذين يؤمنون إنّ الاندماج سيؤدي ، بعد مدة على الأقل ، إلى ازدياد الزواج المختلط . وما فائدة ذلك لأي شخص؟ دعونا نواجه الحقيقة ففي هذا العالم الذي يعادي الملونين لماذا يريد شخص أسود أو أبيض ، رجلاً كان أم امرأة ، أن يعاشر شخصاً من العنصر الآخر .

لقد أعلن البيض الآخرون أكثر من مرة عداءهم لأي أسود في عائلتهم أو في حيهم وما يحس به معظم الزنوج حالياً هو أن العائلات السوداء أكثر عداءً من البيض نحو الزواج المختلط . ولذا ما الذي سيواجه الزواج المختلط سوى عدم الترحاب وعدم القبول ؟ سيكون أصحاب الزيجات المختلطة شاذين في أي مكان يحاولون العيش فيه ومن هذا نخلص إلى أن الاندماج من الناحية الاجتماعية ليس بذي فائدة لأي من الجنسين . الاندماج سيؤدي في النهاية إلى تحطيم الجنس الأبيض ...

وتحطيم الجنس الأسود .

لقد غير « اندماج» الرجل الأبيض مع المرأة السوداء من لون بشرة وخصائص الجنس الأسود في أمريكا وعلى ماذا يبرهن السود أصحاب البشرة الأكثر بياضاً حتى من كثير من البيض ؟ يقولون أن هنالك بأمريكا اليوم من اثنين إلى خمسة ملايين « زنجي أبيض» مقبولين كبيض في المجتمع الأبيض يعيشون في خوف من أن أحد معارفهم السود سيقابلهم يوماً ويكشفهم . تخيل أن يعيش الإنسان أكذوبة كل يوم وتصور شعورهم وهم يسمعون أزواجهم البيض أو زوجاتهم البيض أو حتى أطفالهم البيض وهم يتحدثون عن « أولئك الزنوج ».

أشك أن هناك في أمريكا شخصاً سمع زنوجاً يتحدثون عن البيض بمرارة كالذين سمعتهم أنا . ولكن دعني أقول لك أن أمر الأحاديث عن الرجل الأبيض وأقذعها هي تلك التي سمعتها من الزنوج المقبولين كبيض في المجتمع الأبيض وهم يتعرضون كل يوم للاستماع إلى ما يقوله البيض بين أنفسهم عن الزنوج ، أشياء لا يمكن أن يسمعها الزنجي العادي — ولم لا ؟ قد يصبح هؤلاء الزنوج جواسيس ذوي قيمة في جانب الرجل الأسود إذا ما حدثت مواجهة عنصرية .

وماذا عن « أطفال أوروبا السمر » الذين أصبحوا الآن صبياناً وفتيات وبدأوا في التزاوج وتكوين أسرهم وهم موصومون بالشواذ عنصريًّا ، هل في تجربتهم شيء في صالح «الاندماج ؟ »

« الاندماج » يسمى الاستيعاب إذا كانت المجموعتان من البيض ويحاربه بشدة من يريدون الاحتفاظ بتراثهم ، أنظر كيف طرد الايرلنديون الانجليز من ايرلندة لأنهم كانوا يعلمون أن الإنجليز سيغمرونهم . أنظر إلى فرنسيي كندا وهم يحاربون بشدة للاحتفاظ بشخصيتهم المستقلة . في حقيقة الأمر أن أكبر محصلة مأساوية للاختلاط العرقي وبالتالي إضعاف الشخصية العرقية لمجموعة بيضاء حدثت لليهود في ألمانيا .

قدم اليهود لألمانيا مساهمات أعظم مما قدمها الألمان أنفسهم فهم قد فازوا بأكثر من نصف جوائز نوبل التي فازت بها ألمانيا وكل جانب ثقافي في ألمانيا تجد على رأسه يهودي . نشروا أحسن الصحف وكانوا أعظم الفنانين والشعراء ومؤلفي الموسيقى ومخرجي المسرحيات . ولكن أكبر خطأ ارتكبوه كان أنهم تشربوا قيم المجتمع وأمتصهم ذلك المجتمع . ما بين الحرب العالمية الأولى وصعود هتلر كثر الزواج المختلط وسط اليهود وغير كثير منهم أسماءهم وغير البعض منهم دينه . هجروا دينهم وتراثهم الغني وجذورهم العرقية ، تخدروا وقطعوا الأوصال ... حتى بدأوا يفكرون في

أنفسهم « كألمان ».

وفجأة ظهر هتلر وهو يصعد من قاعات الجعة إلى السلطة مع خطبه النارية وحديثه العاطفي ونظريته عن « الجنس ألاري الأعظم» ووجد ضالته في اليهود المستضعفين خادعي النفس ، الذين أصبحوا كبش الفداء لما كانت تعاني منه ألمانيا والشيء الذي يصعب فهمه مع عقولهم اللماحة ، مع كل ما لهم من نفوذ في كل شئون ألمانيا ، وقفوا مشدوهين يتفرجون على شيء لم يكن وليد البارحة ولكنه كان يعتمل بالتدريج – خطة بشعة لاغتيالهم جميعاً .

كان خداعهم لأنفسهم كاملاً لدرجة أنهم بعد ذلك وهم في غرف الغاز كان بعضهم ما زال مشدوهاً ويقول « مستحيل أن هذا يحدث » ماذا لو انتصر هتلر على العالم كما كان ينوي – تلك فكرة يقشعر لها جسد كل يهودي حي اليوم .

لن ينسى اليهود ذلك الدرس أبداً واليوم نجد الاستخبارات اليهودية تراقب أي منظمة للنازية الجديدة . بعد الحرب مباشرة كثفت جماعة الهجانة من مفاوضاتها مع البريطانيين ولكن في هذه المرة كانت عصابة أشتيرن تطلق النار على البريطانيين . جعل ذلك البريطانيين يهادنونهم بل يساعدونهم على انتزاع فلسطين من العرب ، أصحابها الحقيقيين ، وبعد ذلك أنشأ اليهود إسرائيل كوطن لهم وذلك هو الشيء الذي يحترمه كل جنس في العالم ويفهمه .

قبل مدة ليست بطويلة تعاطى الرجل الأسود في أمريكا جرعة أخرى من ذلك المهدئ المخدر الخداع الذي يسمى بالاندماج وأسمي أنا تلك الجرعة المهزلة الكبرى في واشنطن . فكرة المسيرة الكبرى في واشنطن نبعت أصلاً من ذهن أ. فيليب راندولف من نقابة حمالي عربات النوم في السكك الحديدية . وكانت هذه الفكرة ، فكرة المسيرة ، تحوم حول الأذهان بين الزنوج لمدة عشرين عاماً قبل ذلك . فجأة ومن وحي اللحظة انتشرت الفكرة . بدأ العمال الزنوج في الريف الجنوبي ، والزنوج في المدن الصغيرة وفي جيتوات الشمال، وحتى الآلاف من نوع العم توم ، بدأوا يتحدثون عن « المسيرة ».

لم يجمع الزنوج على شيء منذ انتصار جو لويس في الملاكمة ، مثل إجماعهم على فعل شيء ما هذه المرة ، كان بعضهم يتحدث عن الذهاب إلى واشنطن بأية وسيلة يستطيعون – في عربات مهلهلة قديمة ، بالحافلات ، بسؤال أصحاب السيارات ، وحتى مشياً إذا اضطروا لذلك . كانت الفكرة أن يلتقي آلاف الأخوة السود في واشنطن ويستلقوا على الأرض – في الشوارع ، في ممرات الطائرات في المطار وأمام المباني الحكومية – مطالبين الكونجرس والبيت الأبيض بعمل شيء ملموس في مجال الحقوق المدنية .

كان ذلك شعوراً عامًا بالمرارة ، مندفعاً ، غير منتظم وبدون قيادة ومعظم أولئك كان من الشباب ، يتحدى مهما كانت العواقب ، لأنه سئم ومل من قدم الرجل الأبيض فوق رقابه . ومن حق الرجل الأبيض أن يقلق ويخاف فقد كان من السهل أن تشتعل هذه الجماهير من شرارة عاطفية تنطلق من مكان ما . كانت الحكومة تعرف أن آلاف الزنوج المتململين الغاضبين بإمكانهم ليس إيقاف العمل في واشنطن فحسب ، بل حرقها أيضاً .

بسرعة استدعى البيت الأبيض كل « زعماء » الحقوق المدنية المهمين من الزنوج وطلب إليهم أن يوقفوا خطة المسيرة . أجابوا بصراحة أنهم لم يبدأوها وأن ليس لهم عليها من سلطان — الفكرة من أساسها حركة عامة من وحي اللحظة وبلا تنظيم أو قيادة بكلمات أخرى كانت فتيل بارود أسود .

وللذين يدرسون الكيفية التي بها يسلب « الاندماج » حركة الرجل الأسود حيويتها ، أمامهم درس مهم في ذلك .

أعلن البيت الأبيض في حملة دعائية عالمية كبيرة أنه « صدق على» ، « أيد» و «رحب» بالمسيرة في واشنطن . أما ما كانت جمعيات الحقوق المدنية تفعله في ذلك الوقت فهو الشجار العلني حول التبرعات وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز القصة — اتهمت « المنظمة القومية للنهوض بالملونين » المنظمات الأخرى المشتركة بأن تلك المنظمات قد جذبت جل التبرعات وتركت لها الفتات بينما تقوم منظمة النهوض بالملونين بالبحث عن المحامين ودفع أجورهم وكذلك دفع الغرامات عن المتظاهرين الذين يتعرضون للسجن .

كانت قصة المسيرة مثل فيلم سينمائي وفي المشهد التالي التقى « الستة الكبار» من بين «زعماء» حركة الحقوق المدنية الزنوج في مدينة نيويورك ومعهم مدير مؤسسة خيرية كبرى . تم إبلاغ أولئك الزعماء أن الشجار العلني حول المال أضر بقضيتهم وأن هنالك ثمانمائة ألف دولار خصصت « لقيادة » الحقوق المدنية الموحدة التي كونّها « الستة الكبار» بسرعة .

ما الذي حقق وحدة السود في لحظة واحدة ؟ أموال الرجل الأبيض . وما هي الشروط الملحقة بتلك الأموال ؟ تقبُل النصيحة . لم يكن ذلك كل ما في الأمر بل كانت هنالك وعود بمبالغ أخرى في المستقبل بعد المسيرة ... إذا سارت الأمور على ما يرام .

المسيرة الأصلية « الغاضبة » بدأت تتغير كلية .

وأظهرت الحملة الدعائية العالمية الكبرى « الستة الكبار» وكأنهم قادة المسيرة على واشنطن . كان ذلك نبأ غريباً لجماهير السود الغاضبة الذين كانوا يفورون

ويزدادون غضباً كل يوم وهم يخططون للمسيرة وربما افترض بعضهم أن هؤلاء «الزعماء» المشهورين يؤيدون وسينضمون للمسيرة لا أن يقودوها .

تلا ذلك مباشرة دعوة أربع شخصيات بيضاء عامة للانضمام إلى المسيرة : كاثوليكي ، يهودي ، بروتستاني وأحد قادة العمال . وبذلك أصبحوا « العشرة الكبار» بدلاً من ستة وبدأ الإعلام يوحي بأن « العشرة الكبار» سيشرفون على ويتحكمون في المسيرة . بدأت الشخصيات البيضاء الأربعة تهز رأسها موافقة وبدأ الخبر ينتشر بين الليبراليين من الكاثوليك واليهود والبروتستانت والعمال أن في الانضمام إلى المسيرة ديمقراطية . فجأة بدأ البيض الذين كانوا يخافون من المسيرة يعلنون أنهم سينضمون إليها .

فجأة وكأنما لمسهم مس كهربائي بدأت البرجوازية الزنجية ، من يسمون «بالطبقة الوسطى» و « الطبقة العليا» الذين كانوا يعارضون المسيرة وينتقدون تفكير العامة فيها .

لكن البيض سيسيرون الآن .

بدأ أولئك الزنوج المفتونون بالاندماج عمليًا في تزاحمهم بحثاً عن مكان يسجلون فيه أسماءهم كمشتركين . كان من الممكن أن يطأوا في تزاحمهم بعض الزنوج المسحوقين العاطلين الجائعين . مسيرة « الجماهير السوداء الغاضبة » تحولت فجأة إلى موضة وكأنها سباق خيول في كنتكي وأصبحت عند الباحثين عن المركز الاجتماعي رمزاً لذلك المركز . « هل كنت هنالك ؟ » هذا سؤال نسمعه حتى اليوم .

أصبحت نزهة ، رحلة خلوية .

أي عربة مكدسة بزنوج غاضبين مغبرين يتصببون عرقاً كانت ستضل طريقها في صبيحة المسيرة وسط الطائرات المؤجرة خصيصاً والحافلات مكيفة الهواء وعربات القطارات . وما قصد له أن يكون موجة غضب تحول إلى سيل هادئ كما وصفته إحدى الصحف الإنجليزية بدقة .

تحدث عن « الاندماج» ماشئت ، فقد أصبحت المسيرة مثل الملح والفلفل الأسود ولم يُترك جانب منها خارج السيطرة . صدرت التعليمات للمتظاهرين الا يحضروا لافتات فقد تم إمداد ذلك . طلب إلى الجميع أن ينشدوا أغنية واحدة معينة : « أننا سننتصر » أخبروهم كيف يصلون واشنطن وأين ومتى وأين يتجمعون ومكان بداية المسيرة وطريقها الذي عليهم أن يسلكوه . كما وضعت نقاط للإسعاف في أماكن إستراتيجية بل أنهم أخبروهم أين يمكن أن يغمى عليهم .

نعم كنت هنالك وشاهدت تلك المهزلة . من منكم سمع بثوريين ينشدون في تناسق « إننا سننتصر يوماً ما » وهم يتعثرون في السير ويتمايلون ذراعاً في ذراع مع

نفس الناس المفترض أن يثوروا عليهم ؟ من منكم سمع بثوريين غضبى يهزون أرجلهم في مياه الينابيع في الحدائق العامة مع أعدائهم ينشدون الأناشيد ويعزفون الجيتار مع خطب مثل « إن لدي حلماً ؟ » .

كل ذلك بينما الجماهير السوداء في أمريكا عاشت ومازالت تحيا كابوساً .

نفذ أولئك الثوريون الغضبى التعاليم إلى النهاية : عودوا مبكرين . ومع كل تلك الألوف المؤلفة من الثوريين الغضبى لم يقض الليل في واشنطن بعد المسيرة إلا عدد يسير لدرجة أن اتحاد فنادق واشنطن سجل نقصاً مكلفاً في شاغلي الغرف الخالية .

هوليود نفسها لم تكن لتتفوق على مثل ذلك الإخراج .

في استفتاء صحفي تم بعد ذلك لم يغير أي سناتور أو عضو كونجرس كان يعارض الحقوق المدنية ، موقفه . ماذا كان متوقعاً على أية حال ؟ كيف لنزهة مختلطة عمرها يوم أن تسكت ممثلي العنصرية التي تغلغلت في نفس الرجل الأبيض لأربعمائة عام . ومجرد أن ملايين ، بيضاً وسوداً ، صدقت هذه الكذبة الكبرى دليل على اهتمام هذا البلد بالمظاهر والبحث عن المخرج وبسطحية تفكير الكثيرين ، بدلاً من التعامل بواقعية مع مشاكل البلد الحقيقية ذات الجذور الضاربة في الأرض .

كل ما فعلته المسيرة على واشنطن هو أنها خدرت الزنوج لفترة . وكما هو محتم وضح للزنوج بعد مدة أنهم خدعوا بسهولة مرة ثانية من الرجل الأبيض . وكان لابد أن يعود غضب الرجل الأسود إلى الاشتعال وبدرجة أشد هذه المرة وهنا بدأت المدن الأمريكية تنفجر واحدة إثر أخرى في ذلك « الصيف اللاهب الطويل » عام ١٩٦٤ ، بقلاقل عنصرية لم يشهد لها مثيل من قبل .

قبل شهر من مهزلة واشنطن تلك ، كتبت صحيفة **نيويورك تايمز** تقول عني أنني ثاني متحدث مطلوب في الكليات والجامعات الأمريكية . المحاضر الوحيد الذي يأتي قبلي كان السناتور باري جولدوتر .

أعتقد أن ما قاد إلى شعبيتي في الجامعات هو كتاب د. لنكون « **المسلمون السود في أمريكا** » فقد أصبحت قراءته مفروضة في كثير من المناهج في الجامعات . تلى ذلك مقابلة صحفية طويلة وصريحة معي نشرتها مجلة **بلاي بوي** الواسعة الانتشار في الجامعات . بعد قراءة الكتاب ثم المقابلة الصحفية تطلع كثير من الطلاب لرؤية هذا « المسلم الأسود الناري ».

عند نشر استفتاء صحيفة **نيويورك تايمز** عن المتحدثين في الجامعات كنت قد تحدثت مسبقاً في محاضرات عامة في أكثر من خمسين جامعة مثل براون ،

هارفارد ، ييل ، كولومبيا ورتجرز من جامعات الآيفي المشهورة وأخريات في عرض أمريكا . وفي هذه اللحظة لدى دعوات للتحدث في جامعات كورنيل وبرنستون ودزينة أخريات وسأذهب حينما يسمح وقتي ويناسبهم الميعاد . ومن بين جامعات السود تحدثت في جامعة أطلانطا وجامعة كلارك في أطلانطا وجامعة هوارد في واشنطن د. س. وعدد آخر من الجامعات الصغيرة .

أكثر من أحب من المستمعين بعد السود هم طلاب الجامعات وكثيراً ما كانت فترة الحديث في الجامعات تمتد من ساعتين إلى أربع ساعات وغالباً فوق الوقت المحدد . تحد ، استفسار ، سؤال ، هجوم ، ونقد يوجه لي من العقول الموضوعية الحية الباحثة عن الحقيقة بين طلاب الدراسات الجامعية والعليا وأساتذتهم . كانت المحاضرات في الجامعات دائماً تبهجني وتساعدني في زيادة تعليمي . لم أقدم محاضرة في جامعة إلا وتعلمت منها شيئاً يساعدني في تحسين عرضي ودفاعي عن تعاليم مستر محمد . أحياناً كنت أدخل القاعة لأشارك في ندوة أو نقاش لأجدها تزدحم بالخلق الذين أتوا ليستمعوا إلي وأنا أواجه وحدي ستة أو ثمانية ما بين أستاذ وطالب – رؤساء أقسام علمية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ واللاهوت وكل منهم يصوب أسهمه نحوي .

في بداية الجلسة كنت أواجههم بمثل هذه الجملة الافتتاحية : « أيها السادة ، لقد أكملت الصف الثامن في مدينة ميسون بولاية ميشجان ومدرستي الثانوية كانت جيتوات روكسبري السوداء في ولاية ماساتشوستس . تعليمي الجامعي تم في شوارع هارلم والماجستير من السجن . علمني مستر محمد ألا أخاف من منطق أي رجل يحاول أن يدافع عن أو يبرر جرائم الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود – خاصة الرجل الأبيض والرجل الأسود هنا في أمريكا الشمالية ».

كانت وكأنها معارك سلاحها المنطق والفلسفة وعراك الأفكار شيء جد مثير . وصلت درجة أستطيع معها جس نبض المستمعين . وقد تحدثت مع من يتكلمون في المحاضرات العامة وأخبروني أن هذه الموهبة طبيعية عند من لهم ملكة « جذب الجمهور» الذين بإمكانهم الوصول إلى قلوب الناس وهزهم وهي ملكة كالرادار النفسي . وكما يحس الطبيب بقوة القلب بجس أصبعه على النبض ، كنت أثناء الحديث أشعر بردة فعل المستمعين لحديثي .

بإمكاني أن أتكلم معصوب العينين وبعد خمس دقائق أخبرك إذا كان الجمهور المستمع أمامي أبيض صرفاً أم أسود صرفاً إذ أن لكل منهما أثر مختلف على المتحدث . الجمهور المستمع الأسود يشعرك بدفء عاطفته وبالنسبة لي يكاد أن يكون له تناغم موسيقي حتى وهو صامت . كذلك أستطيع في فترة النقاش بعد

المحاضرة أن أتعرف وأنا معصوب العينين على الأصل العرقي لصاحب السؤال وأسهل أولئك بالنسبة لي هما اليهودي بين أي مجموعة مستمعين والبرجوازي الزنجي وسط جمهور مختلط .

أتعرف على اليهودي من سؤاله أو تعليقه ونقده لحديثي لأنه دائماً ومن بين كل الأجناس ينصب تفكيره واهتمامه حول مصلحته ومصالح قومه أكثر من أي جنس آخر . اليهودي عادة شديد الحساسية بمعنى أنك لا تستطيع أن تذكر كلمة يهودي بدون أن تتهم معاداة السامية وعندي إن اليهودي قد يكون طبيباً ، تاجراً ، ربة بيت أو طالباً أو ما شاء ولكنه دائماً يفكر كيهودي .

حساسية اليهود الزائدة شيء مفهوم لي بالطبع فهم عانوا لمدى ألفي عام الاضطهاد الديني والشخصي الذي كان في حدة اضطهاد البيض لغير البيض . لكني أعرف أن يهود أمريكا الخمسة مليون ونصف مليون (مليونان منهم متركزون في نيويورك) ينظرون للموضوع من الناحية العملية وحتى بدون أن يدروا : تركيز الحقد العنصري على الزنوج يبعد عن اليهود كثيراً من نار الحقد التي كانت ستصيبهم لولا وجود الزنوج .

لنأخذ مثالاً لما أتحدث عنه – في كل جيتو أسود يمتلك اليهود أكبر المتاجر والأعمال وعند نهاية كل يوم يغادر أصحاب هذه الأعمال هذه الجيتوات محملين بحصيلة اليوم من أموال الزنوج الشيء الذي يفقر هذه الأحياء . ولكني ما قلت هذه الحقيقة المطلقة إلا وقام من بين جمهور المستمعين من يتحدى حديثي أو يتهمني يهودي بمعاداة السامية . لِمَ ؟ أراهن بأنني أخبرت خمسمائة متحد من ذلك النوع أن اليهود كمجموعة لن يقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون على أقلية أخرى تمتص موارد أحيائهم بطريقة منظمة . كنت أقول لهم: إن قولي الحقيقة لا يعني أنني أعادي السامية ، فقط أعادي الاستغلال .

قد يستغرب الليبرالي الأبيض عندما يعرف أنه لم يحدث مطلقاً أن تحدى أحد من المستمعين كلامي أو دافع عن الرجل الأبيض عندما يكون جمهور المستمعين أسود صرفاً وحتى إذا كان من بينهم برجوازيون سود أو سود من المفتونين « بالاندماج ». كل الزنوج يتفقون فيما بينهم على جرائم الرجل الأبيض . قد تنقصهم التفاصيل كالتي عندي ولكنهم عالمون بالصورة العامة .

ولكن دعوني أقول شيئاً له أهمية خاصة : نفس البرجوازيين الزنوج الذين لن يهبلون بأنفسهم أبداً بالدفاع عن الرجل الأبيض وسط الزنوج ، راقب هؤلاء الزنه عندما يكون جمهور المستمعين مختلطاً ومحبوبهم مستر شارلي (الرجل الأبيض

يسمع ما يقولون . ليتك سمعتهم يهاجمونني ، ويحاولون تبرير جرائم الرجل الأبيض والعفو عنها – مثل هؤلاء كادوا أن يجعلوني أخالف أهم قاعدة عندي أكثر من مرة ، ألا أنفعل وأترك العاطفة تسيطر علي – كنت أحياناً أشعر بأن علي أن أترك المنصة لأنزل واستعمل العنف مع بعض مغسولي الدماغ هؤلاء ، أدوات الرجل الأبيض ، ببغاوات وألاعيب . في محاضرات الجامعات انتهجت وطورت أسلوباً لإحراجهم كأن أقول : « لابد أنك طالب قانون ، أليس كذلك ؟» وحينها سيجيبون بلا أو نعم فأرد أنا قائلاً : لقد ظننتك ذلك لأنك تدافع عن الرجل الأبيض أكثر من دفاعه عن نفسه ».

في إحدى الجامعات ذات مرة كدت أن أفقد أعصابي مع أحد أساتذتها من حملة الدكتوراه السود « رموز الاندماج» ، لن أنسى أبداً أنه أثارني لدرجة لم أعد معها أستطيع الرؤية بوضوح . على الرغم من أن أهلي الاثنين والعشرين مليون أسود المحرومين من التعليم بحاجة إلى أية عقول مدربة ، كان هو واقفاً كذبابة وسط الزبدة بين « زملائه » البيض محاولاً أن يجهز علي . كان يجادل ويردد أنني لست إلا ديماجوجي انقسامي وعنصري عكسي . كنت أحك رأسي لأطعنه في الصميم وأخيراً رفعت يدي فتوقف عن الحديث وسألته « هل تعلم بماذا ينادي العنصري الأبيض حملة الدكتوراه السود ؟» أجاب بشيء مثل « أعتقد أنني لست على علم بذلك » ، بتلك الطريقة المهذبة المتحذلقة في الكلام . رميت عليه بالكلمة إياها عاليا : « نيجر!» .

التحدث في الكليات والجامعات بتلك الطريقة كان ذا فائدة لأمة الإسلام ، لأن أعظم عقول الرجل الأبيض الشيطان يتم إعدادها وصياغتها في الكليات والجامعات . كنت أرفع تقاريري لمستر محمد عن ذلك بانتظام ولكن لسبب ما لم أدرك كنهه إلا مؤخراً جداً ، لم يكن مستر محمد يريد لي أن أتحدث في الجامعات والمعاهد .

علمت بعد ذلك بمدة ومن أبناء مستر محمد أنفسهم ، أنه كان يغار مني لأنه أحس بعدم مقدرته على الحديث في الجامعات . لكنني على أية حال وباسم مستر محمد كنت أجد أولئك المستمعين أصحاب الذكاء العالي ، متفتحي العقل موضوعيين في استجابتهم للحقيقة العارية الخام التي كنت أطرحها أمامهم .

« المرة بعد المرة شاهد السمر والحمر والصفر من أجناس هذا العالم وعانوا من عجز الرجل الأبيض عن فهم نداء الروح البسيط . الرجل الأبيض أخرس فيما يختص بالمعاناة الكاملة للإنسانية وكل صباح تطلع علينا صحفه وهي تحمل في صفحاتها الأولى صور العالم الذي خلقه .

حكم الله وغضبه قريب من الرجل الأبيض الذي يتعثر ويعيش في الظلام

الروحي والشر . أنظروا ، لقد بقي في العالم اليوم أمتان عملاقتان بيضاوتان ، أمريكا وروسيا وخلف كل منهما أمم تابعة قلقة لا تثق في أي منهما . وتحاول أمريكا أحياء الأمم البيضاء الأخرى مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال الذين يضعفون بانتظام بينما الدول الأفريقية والآسيوية تستعيد أراضيها .

أمريكا تدعم ما تقدم من سمعة وقوة لبريطانيا التي كانت عظمى يوماً ما . لقد غربت الشمس إلى الأبد على المستعمر المقيم ذي الشوارب الكثة وقبعة اللب الجالس يحتسي الشاي مع سيدته الرقيقة في المستعمرات غير البيضاء التي نهبها المستعمرون بانتظام من كل غال . اليوم تعيش الأسرة البريطانية المالكة ونبلاؤها مما يدفعه السواح الذين يزورون القلاع البارونية ومن بيع الهدايا التذكارية والروائح والأوتوجرافات والألقاب وحتى من بيع أنفسهم .

« العالم كله يدرك أن الرجل الأبيض لن يبقى إذا ما قامت حرب كونية ثالثة وإذا ما ضغط أي من العملاقين البيضاوين الزر ، ستنتهي الحضارة البيضاء . ما نراه اليوم هو أن ما يربط الأمم حالياً هو اللون وليس المذاهب والأيدولوجيات . هل هي صدفة أن تتقارب روسيا وأمريكا من بعضهما البعض في نفس الوقت الذي يزور فيه الصينيون أقطاراً أفريقية وآسيوية ؟

« لم يترك تاريخ الرجل الأبيض الجماعي بديلاً أمام الأمم غير البيضاء سوى أن تتعاون وتقترب من بعضها البعض . وكالعادة ليس لدى الرجل الأبيض الشرير الشجاعة والخلق القويم اللذان يجعلانه يتخلص من عنجهيته . أنه يحاول حالياً شراء صداقة الشعوب غير البيضاء ويسعى كعادته ليخفي سجله التاريخي . ليس لديه التواضع الذي يجعله يعترف بجرمه أو أن يكفر عن خطاياه . لقد حرف الرجل الأبيض رسالة الحب البسيطة التي عاشها وعلمها عيسى الرسول وهو يمشي في هذه الأرض » كان المستمعون يندهشون وهم يسمعونني أتكلم عن المسيح فكنت أشرح لهم أننا نحن المسلمين نؤمن بعيسى كرسول وأنه واحد من أهم ثلاثة رسل في الإسلام – مع محمد وموسى وأن بمدينة القدس مقامات بناها المسلمون ليسوع المسيح . كنت أشرح لهم أننا نؤمن أن المسيحية اليوم لا تباشر ما نادى به المسيح وأشير لهم دائماً إلى أن بيلي جراهام (داعية مسيحي) فرق ما بين الاثنين عندما تحدوه في أفريقيا إذ قال : « إنني أؤمن بالمسيح وليس بالمسيحية .»

لن أنسى أبداً تلك الطالبة الجامعية الشقراء في إحدى جامعات نيو إنجلاند . يبدو أنها ركبت الطائرة مباشرة بعد طائرتي المغادرة إلى نيويورك وعرفت مكان مطعم المسلمين وكنت موجوداً عندما حضرت . كان مظهرها ولكنتها وملابسها يدلون على أن أصلها من أعماق الجنوب وأنها من أسرة بيضاء ثرية . في تلك الجامعة

ذكرت لهم أن الرجل الأبيض الشرير في الجنوب كان يستعمل ويستغل حتى نساءه . لقد أقنع امرأته أنها أطهر من غرائزه الحيوانية . بتلك الطريقة « النبيلة » خدع امرأته حتى تغمض عينها عن تفضيله الواضح للمرأة السوداء الحيوانية وبذلك جلست « السيدة الرقيقة » تتفرج على الأطفال الهجن الصغار في مستعمرتها بألوانهم المختلفة والذين خرجوا من ظهر أبيها وزوجها وأخيها وابنها . قلت لهم في تلك الجامعة أن جريمة الرجل الأبيض تشمل معرفته بأنه بكراهيته للزنوج يكره ويرفض وينكر دمه ولحمه .

المهم أنني لم أر أبداً من بين الذين سمعوني في أي مكان من تأثر بالحديث مثل تلك الطالبة البيضاء دقيقة الجسم . سألتني في وجهي : « ألا تؤمن إطلاقاً بأن هنالك بيضاً طيبين ؟» لم أرد جرح مشاعرها فقلت لها « أن ما يهمني هو أفعال الناس يا فتاة وليس كلماتهم . »

هتفت قائلة : « هل هنالك شيء أستطيع أن أفعله؟» أجبتها بالنفي فانفجرت باكية وجرت خارجة في شارع لينوكس ثم ركبت عربة أجرة .

في كل مرة أذهب إليه في شيكاجو أو فينكس كان مستر محمد يغمرني بتأييده لي وثقته فيَّ وعندما ذهب للعمرة في مدينة مكة المقدسة جعلني مسئولاً عن شئون أمة الإسلام . كنت أؤمن به بعمق وبشدة جعلاني على استعداد لأن أرمي بنفسي أمامه لحمايته من أي اعتداء .

لكن سنحت لي فرصة في أحدى المرات جعلتني أن هنالك شيئاً ما ، شيئًا واحداً أعظم من توقيري لمستر محمد .

تلك كانت شدة توقيري له .

دعيت مرة لأتحدث في منتدى كلية القانون بجامعة هارفارد . نظرت من الشباك عندما اكتشفت فجأة أنني أنظر في اتجاه الشقة التي كانت بمثابة مخبأ لنا أيام السرقة واللصوصية . هزني ذلك كالموج ومرت بذهني صور أيام الرذيلة عندما كنت أعيش كالحيوان وأفكر كالحيوان .

غمرني الوعي بالدرجة التي انتشلني فيها الإسلام من الوحل وأنقذني من مصير محتوم : مجرم مدفون في قبر أو ، إذا كنت حياً ، سجين قديم تملأ نفسه المرارة في السابعة والثلاثين من عمره يرزح في السجن الفدرالي أو في مستشفى المجاذيب . أو على أحسن الفروض كنت سأكون أصهب ديترويت العجوز يلهث ويسرق ما يكفي أوده ليخدر عقله بينما صغار الزعران القساة ينظرون إليَّ كصيد سهل مثلما كنت أفعل وأنا في سنهم .

إلا أن رحمة الله قادتني إلى نور الإسلام الذي رفعني من الطين والعفن في عالم

متعفن مهترئ .

وها أنا أقف بوصفي المتحدث الرئيسي في ندوة في هارفارد .

فجأة لمعت في ذهني قصة من الميثولوجيا الإغريقية كنت قرأتها في السجن .

كان صبي يدعى إيكاروس . هل تذكرون القصة ؟

صنع والد إيكاروس بعض الأجنحة وألصقها بالشمع وقال لابنه : « أنصحك بألا تطير عالياً بهذه الأجنحة » وهو يطير هنا وهناك أعجب الطيران إيكاروس وأعجب بنفسه حتى ظن أنه يطير بفضل من ذاته ثم بدأ يطير عالياً فأعلى إلى أن أذابت حرارة الشمس الشمع الذي يلصق الجناحين . وكما طار وقع إيكاروس على الأرض بشدة .

وأنا أقف عند النافذة في هارفارد عاهدت نفسي في صمت بأنني لن أنسى أبداً أن أي جناحين أملكها ، إنما وضعتهم في بدني ديانة الإسلام . تلك حقيقة لم أنساها قط ولو للحظة واحدة .





مالكوم إكس يتحدث في منتدى كلية القانون لجامعة هارفارد



مالكوم يتحدث إلى الطلاب البيض في جامعة لونغ آيلاند

■ الباب السادس عشر

الانشقاق

في عام واحد وستين وتسعمائة وألف ساءت حالة مستر محمد الصحية .

صار حينما أتحدث إليه وأنا أزوره أو حينما يتحدث مع أي شخص آخر يبدأ فجأة في السعال بشدة وتزداد حدة ذلك إلى أن يبدأ جسده كله يهتز ويخفق وهو يتعذب وصار منظره مؤلماً مما يضطر معه إلى اللجوء إلى سريره .

احتفظنا نحن كبار مسئوليه وعائلته بالأمر سراً بقدر استطاعتنا ثم بدأ عدد من المسلمين الآخرين يلم بالسر ثم بدأ مستر محمد يلغي عدة لقاءات جماهيرية ومحاضرات عامة كان قد أعلن عنها مسبقاً وانتظرها المسلمون طويلاً وعند ذلك شك المسلمون في أن ما يمنع مستر محمد من الحضور للقائهم لابد أن يكون شيئاً خطيراً . كان علينا أن نجيب على تساؤلاتهم ومن ثم انتشر خبر حالته الصحية بين المسلمين بسرعة .

لا يستطيع أحد من غير المسلمين تخيل معنى فقدان مستر محمد بالنسبة لأتباعه . مستر محمد هو أمة الإسلام بالنسبة لنا . توقيرنا وإخلاصنا نحن المسلمين لمستر محمد كمصلح روحي وخلقي وعقلي للسود في أمريكا كان العروة التي توثقنا مع بعض في أفضل منظمة أمريكية سوداء . بمعنى آخر أننا كنا بأتباعنا دعوة محمد ، ننظر إلى أنفسنا كمثل يحتذى روحياً وخلقياً وعقلياً . كانت المجتمعات السوداء تتحدث عن منظمتنا بإعجاب وكيف أن من يكذب منا أو يقامر أو يغش أو يدخن تعلق عضويته . أما بالنسبة للجرائم الأخلاقية مثل الزنا فقد كان مستر

THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X



محمد شخصياً يحدد عقوبة من يرتكبها « بالعزل» من الجماعة لفترة تمتد من سنة إلى خمس سنوات إن لم تكن العقوبة هي الفصل التام كما أن مستر محمد كان يتشدد في معاقبة مسئوليه الكبار أكثر من تشدده في معاقبة المهتدين الجدد . كان يقول لنا أن من يرتد من كبار المسئولين إنما يخون نفسه ووضعه كقائد ومثل يحتذى للآخرين . وكل مسلم في رفضه للموبقات المغريات كان ينظر إلى مستر محمد كمنارة ومرشد وبدون هدايته سنعيش كلنا في ظلمات .

كما ذكرت قبلاً ، نصح الأطباء مستر محمد بالانتقال إلى طقس جاف كي تتحسن حالته وبسرعة وجدنا منزلاً معروضاً للبيع في مدينة فينكس كان يملكه عازف الساكسفون الزنجي ، لويس جوردان فاشترته الأمة من خزانتها وانتقل مستر محمد إلى هناك بعد فترة وجيزة .

كنت أعمل بجد في خدمة الأمة وكأنني أكثر من شخص وكنت راضٍ كل الرضا ووجدت ذاتي في خدمتها . لقد ساهمت في دفع عجلة المنظمة وجعلها ذات أثر قومي بدرجة لا يستطيع معها أحد أن يتهمنا بالكذب عندما نصف مستر محمد بأنه صاحب أكبر نفوذ بين السود في أمريكا . لقد ساعدت مستر محمد وأئمته الآخرين بتنوير تفكير الرجل الأسود في أمريكا وفتح عيونه حتى أصبح لا يخاف من الرجل الأبيض أو يعبده مثلما كان . لقد شاركت في نشر الوعي والحق اللذين ساعدا الرجل الأسود ليتخلص من الوهم الذي كان يحكمه عن عظمة الجنس الأبيض . كنت جزءاً من عملية اكتشاف السود لأنفسهم .

وإذا كنت أتأسف على شيء فهو أنني كنت داخليًّا مقتنعاً تماماً أنه بإمكان أمتنا أن تكون لها قوة ونفوذ أكبر في نضال الرجل الأسود في أمريكا – فقط لو زدنا من نشاطنا أكثر . بذلك أعني أنني كنت داخلياً أؤمن بأننا ينبغي أن نعدل أو نخفف قليلاً من سياسة الابتعاد عن الأمور العامة . كنت أرى أن على شبابنا المسلم المنضبط أن يشترك في أي حركة نضالية للسود في لتل روك أو في بيرمنجهام حتى يراهم كل العالم ويحترمهم ويتحدث عنهم .

بدأ الزنوج يتحدثون في مجتمعاتهم وبدرجة متزايدة ويقولون : « المسلمون يتحدثون ولكنهم لا يفعلون شيئاً إلا إذا مس شخص ما مسلماً بأذى » كنت أسمع ذلك لأنني كنت أتحرك وسط الآخرين أكثر من أي مسلم قيادي آخر . كنت أرى أن مثل تلك الصورة عنا والقول بأننا كثيرو الكلام فقط يحتمل أن تؤدي يوماً إلى إبعادنا من مقدمة نضال الرجل الأسود مهما كانت قوتنا خاصة إذا تذكرنا مزاج الجماهير المتقلب .

ما عدا ذلك التحفظ كنت راضٍ تماماً وحامداً لله مباركة جهودي . كان الإسلام ينتشر في مدينة نيويورك بسرعة لا مثيل لها في أي مكان آخر في أمريكا .

كبر المسجد الصغير الذي أرسلني إليه مستر محمد وأصبح لدينا بدلاً من ذلك ثلاثة من أكبر مساجد المسلمين وأكثرها نفوذاً وهي مسجد هارلم رقم سبعة – أ في مانهاتن ثم مسجد كورونا رقم سبعة – ب في كوينز والمسجد رقم سبعة – ج في بروكلين . وعلى مستوى القطر أنشأت مباشرة أو ساعدت في إنشاء مساجدنا التي تفوق المائة في ولايات أمريكا الخمسين . كنت أقطع أمريكا من جنوبها إلى شمالها أو من شرقها إلى غربها بمعدل أربع مرات كل أسبوع وكل حظي من النوم أحياناً كانت الساعات التي أقضيها في الطائرة . كنت أتبع جدولاً ماراثونياً من المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية والمحاضرات العامة وكأنني في سباق ولولا الجناحان اللذان وهبهما لي مستر محمد ما كنت سأستطيع أن أقوم بالواجب نحوه وفي خدمته .

عودة إلى الوراء ، سمعت بالصدفة ولأول مرة في عام ١٩٦١ عندما ساءت حالة مستر محمد الصحية ، تعليقات سلبية عني . سمعت تلميحات مقنّعة أولاً ثم بدأت ألاحظ شواهد صغيرة أخرى عن الغيرة والحسد اللذين تنبأ لي بهما مستر محمد . كانوا على سبيل المثال يقولون : « منستر مالكوم يسعى للسيطرة على الأمة .» أو أنني « أرجع الفضل لنفسي» فيما يختص بتعاليم محمد أو أني أسعى « لبناء إمبراطورية » لنفسي وأنني استمتع بلعب دور « الشخصية الكبرى من مدينة لأخرى » .

لم أغضب عند سماعي هذه الأشياء بل زاد ذلك من عزمي أنني لن أدع مثل هذه الأكاذيب تنطبق علي أبداً وكنت دائماً أذكر نفسي أن مستر محمد تنبأ لي بغيرة وحسد الآخرين . ساعدني ذلك على تجاهل مثل ذلك الكلام لأني كنت أدرك أن مستر محمد سيفهم مصدره إذا سمعه على الإطلاق .

الإشاعة التي كانت تتردد بين غير المسلمين هي أن « مالكوم جمع ثروة من المال .» أما المسلمون فقد كانوا يعرفون الحقيقة . أنا أجمع المال ؟ يا للغرابة ! الـ اف . ب . آي . (مكتب التحقيقات الفيدرالية) والسي.آي .ايه لا يستطيعون مجتمعين أن يبرهنوا أنني أحوز على شيء سوى العربة التي أقودها والمنزل المكون من سبع غرف الذي أسكنه (وحتى ذلك المنزل كانت عناصر في أمة الإسلام تطمع في أخذه مني) نعم كان المال متاحاً أمامي لو أردت وسيوافق الإيجا محمد على أي مبلغ أطلبه ولكنه كان يدرك ككل مسلم قيادي آخر ، أن أي بريزة أو نكلة عندي إنما هي لأمة الإسلام تستخدمها في تحقيق أغراضها .

نظرتي إلى المال كانت السبب في الشجار العائلي الوحيد بيني وبين زوجتي المحبوبة بتي . مع زيادة عدد أطفالنا كانت بتي تلمح لي بأن أدخر شيئاً من أجلهم ولكني رفضت ومن هنا تشاجرنا . أصررت على موقفي علماً بأنني كنت متأكداً أنها على استعداد للتضحية بحياتها من أجلي إذا ما اقتضى الأمر ذلك ولكني مع هذا

أخبرتها أن كثيراً من المنظمات تحطمت بسبب طمع قادتها في ممتلكاتها بعد أن دفعتهم زوجاتهم إلى ذلك . لقد كدنا أن ننفصل بسبب ذلك ولكني أقنعتها بأن أمة الإسلام ستعتني بها بقية عمرها إذا ما حدث لي شيء ، وبأطفالنا إلى أن يكبروا . لم أكن لأكون اكثرغفلة من ذلك !

في كل حديث تلفازي أو إذاعي وفي كل مقابلة صحفية كنت أوضحها جلية أنني **ممثل** مستر محمد وكل من سمعني في محاضرة عامة يتذكر أنني كنت دائماً أردد ، على الأقل مرة كل دقيقة ، « يقول الإيْجا محمد صاحب الشرف ... » كنت أرفض الحديث مع أي شخص يسخر من رجوعي الدائم في الحديث إلى ما يقوله مستر محمد وإذا كتب أحدهم في صحيفة أو قال : « مالكوم إكس ، المسلم الأسود رقم اثنين ... » كنت أنتفض لذلك وقد حدث أنني اتصلت هاتفيًّا من خارج المدينة مع مراسلين صحفيين ومذيعي راديو وتلفاز طالباً منهم عدم استعمال تلك الكلمة مرة أخرى قائلاً لهم : « كل المسلمين يأتون رقم اثنين في الترتيب – بعد مستر محمد ».

حقيبة يدي كانت تمتلئ بصور مستر محمد التي كنت أعطيها للصحفيين الذين كانوا يأخذون صوراً لي وكنت أتصل هاتفياً بالمحررين راجياً : « هلا استخدمتم صور مستر محمد بدلاً عن صوري .» وعندما وافق مستر محمد على الحديث مع الصحفيين البيض سررت بذلك أيما سرور وكنت ألح على كل صحفي أو كاتب أقابله ، أبيض كان أم أسود ، أن يذهب لمقابلة مستر محمد شخصيًّا في شيكاجو : « أذهب وتلقى الحقيقة من المبعوث شخصياً » وفعلاً ذهب عدد منهم وتحدثوا إليه وكتبوا عن ذلك .

كثير من الناس البيض والسود بما فيهم المسلمين ، كانوا يزعجونني بإصرارهم على إرجاع الفضل لي وراء الانتشار والتقدم المتواصل الذي كانت تحققه أمة الإسلام . كنت أقول لهم « كل الحمد والشكر لله والفضل في كل ما يحمد لي هو لمستر الإيْجا محمد ».

أعتقد أنه لم يكن بمقدور أي رجل في أمة الإسلام أن يحقق السمعة العالمية التي تحققت لي بفضل الجناحين اللذين وضعهما مستر محمد على ظهري بالإضافة إلى الحرية التي منحني إياها لأفعل ما بدا لي ، ثم يبقى بعد كل ذلك خادماً مخلصاً وناكراً لذاته مثلي .

سأقول إنها كانت سنة ١٩٦٢ عندما بدأت ألاحظ أن اسمي بدأ يختفي تدريجيًّا من صحيفة أمتنا ، **محمد يتكلم** . علمت بعد ذلك إن ابن مستر محمد ، هربرت ، الذي أصبح الناشر أعطى الأوامر بأن يكتب عني أقل ما يمكن وفي الحقيقة أصبحوا يكتبون عن « زعماء » الزنوج الاندماجيين أكثر مما يكتبون عني وصرت أجد كلاماً مكتوباً عني في الصحف الأوروبية والآسيوية والأفريقية أكثر

مما أجد في صحيفتنا .

لا أشكو هنا من قلة الدعاية لنفسي فلقد لقيت من ذلك أكثر مما تلقاه شخصيات عالمية كثيرة . لكنني حزنت لأن جريدة المسلمين كانت تخفي عنهم أخباراً عن أشياء مهمة عملت لصالحهم وباسمهم لمجرد أنني كنت من وراء تلك الأعمال . كنت أنظم التجمعات لنشر تعاليم مستر محمد ومع ذلك وبسبب الغيرة وضيق الأفق ، حُرمت من التغطية الصحفية لأن أمراً صدر بذلك . على سبيل المثال ، تحدثت مرة أمام ثمانية آلاف طالب في جامعة كاليفورنيا وأعطت الصحف تغطية تامة لما قلت عن قوة برنامج مستر محمد ولكني عندما عدت إلى شيكاجو متوقعاً استجابة طيبة وبعض التغطية الصحفية من صحيفتنا ، قوبلت ببرود بدلاً عن ذلك . نفس الشيء حدث بعدما نظمت اجتماعاً حاشداً في هارلم حضره سبعة آلاف شخص وعلى العكس من ذلك بدأت الرئاسة في شيكاجو تثنيني عن إقامة مثل تلك الاجتماعات لكنني في الأسبوع التالي نظمت اجتماعاً حاشداً آخر في هارلم كان أكبر وانجح من سابقه ، إلا أن ذلك زاد من الحسد الذي بدأ يأتيني من الرئاسة في شيكاجو .

لكنني كنت أطرد هذه الأفكار من رأسي ، على الأقل بقدر استطاعتي كبشر . لست أحاول هنا أن أظهر بمظهر النبيل الصدوق ولكني فقط أقول الحق . لقد أحببت الأمة وأحببت مستر محمد . عشت للأمة وعشت لمستر محمد .

صوري التي تظهر في الصحف يوميًّا أثارت الغيرة فهم ينسون أن صوري ظهرت بفضل دفاعي الحار عن مستر محمد وينسون أن أمتنا معرضة للكذب والإشاعات الضارة وليست بحاجة إلى أن يظل المتحدثون باسمها دوماً ينفون الإشاعات . المنطق يقول أن مستر محمد ليس في وضع يمكنه من أن يجوب البلاد دوماً ويتحدث باسمه وأن من يصبح متحدثاً رسمياً باسمه سيصبح محط أنظار الصحف ، شاء ذلك أم لم يشأ .

كنت أخجل من نفسي في كل مرة أشعر فيها بعدم الرضا من ذلك وأعتبر ذلك الشعور علامة ضعف في نفسي ، كنت أدرك أن مستر محمد على الأقل يعرف أني وهبت حياتي لتمثيله .

في عام ١٩٦٣ لم أعد أستطيع إخفاء شعوري أمام من ينتقدونني من بين قيادي الأمة . لم أعد أرسل بعض أخوة بعينهم من نيويورك وأعطيهم المال ليذهبوا ويضعوا اللبنات الأولى لمسجد هنا أو هناك حتى لا أسمع التعليقات عن « رجال مالكوم إكس » وفي الوقت الذي كانت أمريكا فيه في حاجة لأن تسمع صوتاً أسود جريئاً أرادت مجلة **لايف** أن تكتب قصة عن حياتي ومع ذلك رفضت . رفضت مرة أخرى حينما أرادت مجلة **نيوزويك** أن تجعلني رجل الغلاف وتكتب قصة عني ثم رفضت

مرة ثالثة فرصة للظهور كضيف لبرنامج « قابل الصحف » التلفازي الشائع الانتشار . كل رفض من هؤلاء كان خسارة للرجل الأسود ولأمة الإسلام ، كل رفض كان خسارة في ذاته وكل ذلك بسبب موقف شيكاجو مني . كانوا يغارون مني لمجرد أنني طُلبت لهذه المقابلات البارزة في الصحف .

عندما اخترقت طلقة نارية من بندقية ظهر مدجار إيفانز السكرتير الميداني لمنظمة تقدم الملونين الوطنية شعرت أن عليَّ أن أفصح بالحقيقة العارية التي ينبغي أن تقال وعندما انفجرت قنبلة في كنيسة زنجية في بيرمنجهام بولاية ألباما وأودت بحياة أربع طفلات سود صغيرات ، علقت على ذلك ولكني لم أقل ما يجب أن يقال عن جو الحقد الذي كان يخلقه الأمريكي الأبيض ويرعاه . كلما سُمح للبغض أن يظهر نفسه ويزداد بينما هنالك أكثر من طريقة لإيقافه ، كلما ازدادت جرأة من اقترفوا تلك الأعمال حتى طال ذلك الحقد في النهاية البيض أنفسهم – بمن فيهم زعماءهم . في مدينة دالاس بولاية تكساس مثلاً ، أسي بذاءة إلى نائب الرئيس حينها وزوجته مسز جونسون . كذلك بصقت مجموعة من النساء المتظاهرات البيض في وجه أدلاي ستيفنسون ، ممثل أمريكا في الأمم المتحدة وضربوه في رأسه .

نصبني مستر محمد في وظيفة الأمام الأول في أمة الإسلام وحتى سنة ١٩٦٣ احتضنني أمام حشد في فيلادلفيا وقال للجمهور : « هذا أخلص أئمتي وأكثرهم عملاً وسيتبعني إلى أن أموت ».

لم يقل ذلك عن أي مسلم وليس هنالك شهادة من أي شخص آخر تساوي عندي ما ساوته تلك الشهادة .

لكن ذلك كان آخر اجتماع عام نحضره أنا ومستر محمد سويًا .

قبل ذلك بمدة وجيزة كنت أتحدث من المذياع في بوسطن في برنامج يقدمه جيري وليامز حينما ناولني أحدهم وريقة خرجت لتوها من تلكس وكالة أسوشيتد برس . قرأت في تلك الوريقة خبراً يقول أن مجلس مواطني ولاية لويزيانا قدم عشرة ألف دولار ثمناً لرأسي .

إنني لا أقول إلا الحقيقة . عندما اكتشفت مَن ، بالإضافة إلى مجلس مواطني لويزيانا ، يريد قتلي ، صدقوني ، كدت أجن من الصدمة . في سنواتي الاثنتي عشر كمنستر مسلم كنت أركز بقوة على المواضيع الأخلاقية لدرجة أن بعضهم اتهمني «بمعاداة المرأة ». كانت عصارة تعاليمي وما أؤمن به حتى العظم هو أن حياة مستر محمد في كل جوانبها إنما هي رمز للعفة والطهارة وقمة الصلاح العقلي والروحي والخلقي في وسط الأمريكان السود . لأثني عشرة عاماً كنت أبشر وأقول وسط المسلمين وغيرهم :إن حياتي وهدايتي لهما خير مثال أعرفه لقوة مستر محمد ومقدرته على تقويم اعوجاج

حياة الرجل الأسود فأنا لم ألمس امرأة منذ دخلت السجن إلى أن تزوجت بعد اثنتي عشر سنة من ذلك وكل ذلك كان من أثر مستر محمد على تكويني .

ولكني بعد عام ١٩٦٣ ، إذا لاحظتم ، لم أعد أتكلم عن الدين كثيراً وصرت أركز أكثر على الأوضاع الاجتماعية الراهنة وعلى الأمور السياسية . ابتعدت كلية عن الحديث عن الأخلاق . والسبب في ذلك هو حدوث شيء هز ثقتي لا أستطيع وصفه تماماً . اكتشفت أن الإليْجا محمد نفسه قد خان المسلمين .

أود هنا أن أختصر هذا الموضوع على قدر ما أستطيع حتى يتفهم الناس موقفي وردة فعلي . أما السؤال عن هل أكشف عن ذلك أم لا ، فقد حل نفسه لأن الجمهور قد عرف . لاختصار الموضوع سأنقل لكم خبراً كما ظهر في الصحف التي نقلته من وكالات الأنباء وظهر في الراديو والتلفاز في كل أمريكا :

« لوس أنجلوس ، ٣ يولية ، يونايتد برس إنترناشنال .

« الإليْجا محمد ، ٦٧ عاماً ، قائد حركة المسلمين السود ، يواجه اليوم قضايا أبوة من اثنتين من سكرتيراته السابقات يتهمنه فيها بأبوة أطفالهن الأربعة ... الامرأتان في العشرينات من العمر ... مسز روزاري ومس ويليامز ، اتهمتا الإليْجا محمد بأنه كانت له مع كل منهن علاقات خاصة جداً منذ عام ١٩٥٧ حتى هذه السنة . قالت مسز روزاري أن له منها طفلين وثالثاً في الطريق ... المشتكية الثانية قالت أنه أب لابنتها » .

لقد كنت سمعت تلميحات في الماضي ترجع إلى عام ١٩٥٥ . ولكن صدقوني حينما أقول أن مجرد التفكير في أن شيئاً جنونياً مثل ذلك يمكن أن يحدث أو أي تلميح أو شك في أخلاقيات مستر محمد ، مجرد الفكرة كانت تكفي لأن تهزني من الخوف – ولذلك رفض عقلي تصديق أي شيء مثل تلك السخافة التي يذكر فيها اسم محمد مقروناً بالخيانة الزوجية في نفس واحد .

خيانة زوجية ! أي مسلم يرتكبها كان يفصل بدون تردد وفي خزى . إحدى الفضائح التي ظلت في طي الكتمان عندنا كانت أن سلسلة من سكرتيرات مستر محمد قد حملن وقدمن للمحاكمة أمام محكمة مسلمة فاعترفن بالزنا ووجدن مذنبات وحكم عليهن « بالعزل» لمدة سنة إلى خمس سنوات حيث لا يكون لأي منهن اتصال مع مسلم أو مسلمة أخرى.

لا شيء يشهد على عمق إيماني بمستر محمد أكثر من أنني كذبت عقلي وذكائي كلية وببساطة رفضت التصديق . لم أكن أرد أن « يحترق عقلي» كما احترق عقل أخي ريجنالد لتظننه في مستر محمد . آخر مرة رأيت فيها ريجنالد كان عندما دخل مطعم المسجد رقم سبعة . رأيته يدخل فذهبت إليه ونظرت في عينيه ثم

أخبرته أنه غير مرغوب فيه بين المسلمين فارتد على أعقابه وخرج . لقد فعلت ذلك لأخي وشقيقي لمجرد أن مستر محمد كان قد حكم عليه قبل سنوات « بالعزل » من كل المسلمين وكنت أعتبر نفسي مسلماً قبل أن أكون أخاً لريجنالد .

لا يستطيع أحد أن يقنعني أن مستر محمد سيخون كل تلك الثقة والتوقير الذي يكنه له كل هؤلاء المسلمين الفقراء الصادقين الذين يتبرعون من الملاليم التي تبقت لهم ويدعمون أمة الإسلام في إخلاص بينما هم بالكاد يستطيعون دفع إيجار أماكن سكنهم .

في نهاية ١٩٦٢ علمت أن عدداً من المسلمين هجر المسجد رقم اثنين في شيكاجو . بدأت الإشاعة القبيحة تنتشر بسرعة حتى بين غير المسلمين من الزنوج وعندما أفكر في أن الصحافة كانت تبحث عن الطرق التي بها تسيء إلى أمة الإسلام ، أرتجف من احتمال وصول مثل هذه الأخبار إلى آذان المخبرين بيضاً كانوا أم سوداً .

بدأت تتابني الكوابيس ... رأيت العناوين البارزة في مخيلتي .

كان الخوف وهذه الأفكار تعاودني وأنا أحاضر في أرجاء أمريكا المختلفة . وكنت في كل مرة يقترب فيها مني صحفي أتخيله وهو يسأل : « هل صحيح ما نسمعه يا مستر مالكوم أن ... » وماذا كنت سأقول . وبطريقة ما لم أعترف لنفسي بالحقيقة في أية لحظة معينة بل وضعت غشاوة فوق عقلي لكي لا يقبل هذه الحقيقة البشعة حتى حينما بدأت أتعامل معها .

بدأ غير المسلمين الذين أعرفهم في كل من شيكاجو ونيويورك يخبروني بطريقة غير مباشرة عن ما سمعوه أو يسألونني إن كنت سمعت . كنت أتجاهل ذلك عمداً وأتظاهر بخلو ذهني من كل ذلك وإذا لم يذكروا لي القدر الذي يعرفونه ، أجد نفسي ممتناً لهم . كنت أستمر فيما أعمل علماً بأني قد أكون بدوت لهم غشيما تماماً وقد كنت فعلاً أشعر بأني غشيم أذ كيف لي أن أخرج كل يوم لأخطب في الناس وأعظ وهم يرون أني أجهل ما يحدث أمام عيني وفي داخل المنظمة التي أنتمي إليها ويتعلق بالشخص الذي كنت أكيل له الثناء . الشعور بالغشامة أيقظ في أحاسيس لم أشعر بمثلها منذ أيام الصعلكة في هارلم وأسوأ ما يمكن أن يحل بالصعلوك الأزعر هو أن يشعر أن شخصاً خدعه .

على سبيل المثال ذكر لي الكوميديان ديك جريجوري في كواليس مسرح أبوللو ذات ليلة . « يا رجل ، محمد ليس سوى ... » لن أذكر الكلمة التي استعملها . بام ! بتلك الطريقة . حاولت بفطرتي المسلمة أن أهاجم ديك جريجوري ولكنني بدلاً من ذلك شعرت بضعف وخواء داخلي ويظهر أن ديك شعر بانزعاجي مما قال فغير موضوع الحديث . كنت أعرف ديك معرفة جيدة فهو من شيكاجو ويفهم لغة

الشوارع ويتحدث بصراحة تامة . أردت أن أستحلفه ألا يعيد ما قاله لي أمام شخص آخر ولكني لم أستطع لأن في ذلك اعترافاً مني بما حدث .

الكلمات أعجز من أن تصف العذاب النفسي الذي كان يمزقني .

كالعادة عند الملمات ، ركبت أول طائرة لزيارة مستر محمد . لقد أحياني من بعد موت محقق والفضل له في كل ما له قيمة في شخصي . شعرت أنه مهما كانت الأمور فلن أقدر على خذلانه .

الشخص الوحيد الذي كان يمكنني اللجوء إليه بهذه المشكلة لم يكن سوى مستر محمد شخصياً وذلك ما حدث في النهاية ولكنني ذهبت أولاً إلى شيكاجو لمقابلة ابن مستر محمد قبل الأصغر ، والاس محمد . كنت أشعر أنه أكثر أبناء مستر محمد روحانية وموضوعية كما كنا أنا ووالاس نتبادل الثقة والقرب من بعض . لما رآني والاس وعرف السبب الذي أتيت من أجله . أخبرني بأنه يدري بذلك وعندما قلت له أن علينا أن نتحد للدفاع عن والده أخبرني أنه لا يعتقد أن أباه سيرحب بأي محاولة لمساعدته وقلت في نفسي أن والاس لابد أن يكون مجنوناً .

بعد ذلك كسرت القاعدة التي تمنع أي مسلم من الاتصال بمسلم آخر في حالة «عزل» وبحثت عن سكرتيرات مستر محمد السابقات واتصلت بهن ومن أفواههن سمعت القصة عن أب أطفالهن الحقيقي . من أفواههن سمعت ما قاله لهن إلايْجا محمد من أنني أفضل وأعظم منستر لديه لكنني سأهجره يوماً وأنقلب عليه ولذلك فإنني « خطر». علمت من أولئك السكرتيرات السابقات أن مستر محمد كان يثني عليّ في حضوري ولكنه يغتابني وينهش لحمي في غيابي .

تألمت لذلك كثيراً .

وفي كل يوم كنت أواجه المكبرات والكاميرات والمخبرين والالتزامات الأخرى بمن فيهم مسلمي المسجد رقم سبعة وأشعر وكأني فقدت عقلي .

أخيراً اتضحت الأمور أمام ناظري . شعرت أنني إذا لم أفعل شيئاً فكأنني خائن للأمانة وأن بقائي ساكناً لم يكن ليساعد مستر محمد بينما هو في أشد الحاجة لمن يقف إلى جانبه . لذلك قمت ذات ليلة بكتابة خطاب لمستر محمد عن السموم التي تثار حوله . اتصل بي في نيويورك وأخبرني أنه سيناقش ذلك الأمر معي حينما يقابلني.

كنت في أشد الحاجة إلى إيجاد وسيلة ما يمكن من خلالها إنقاذ أمة الإسلام من تحطيم نفسها . كانت ثقتي كبيرة في أمة الإسلام فلسنا مجموعة زنوج مسيحيين ترقص وتصرخ وكلها ذنوب . فكرت في وسيلة يمكن استخدامها إذا ما انكشف ذلك الأمر الرهيب . يمكننا تلقين المسلمين المخلصين أن إنجازات الفرد

في حياته تسمو فوق ضعفه الشخصي والبشري . ساعدني والاس محمد في مراجعة القرآن والإنجيل لتأكيد ذلك وأن خيانة ديفيد الزوجية مع بلقيس لا تزن شيئاً أمام التاريخ عند مقارنتها بانتصاره على غوليات وأننا عندما نفكر في لوط لا نتذكر سفاح القربى بل نفكر بإنقاذه لاتباعه من خراب سدوم وعمورية . أما صورة نوح في أذهاننا فهي ليست صورته في حالة سكر بل صورته وهو يبني سفينته ويحذر الناس من الفيضان العارم القادم وصورة موسى في أذهاننا ليست صورة من سيأتي الأثيوبيات بل صورته وهو يقود اليهود من الأسر . في كل تلك الحالات تغلبت الإيجابيات على السلبيات.

بدأت أعظ المصلين في مسجد نيويورك رقم سبعة أن إنجازات الفرد الإيجابية في حياته ترجح كفته فوق نقط ضعفه البشرية والشخصية وأن الأفعال الخيرة تثقل موازينه فوق الأفعال السيئة . لم أعد أذكر المواضيع المألوفة مثل الزنا والخيانة الزوجية والأفعال غير الأخلاقية.

وبمعجزة ما لم يصل من حديث الزنا الذي انتشر في شيكاجو إلا القليل إلى بوسطن أو ديترويت أو نيويورك ويبدو أنه لم يصل إلى بقية مساجدنا في أنحاء القطر المختلفة . في شيكاجو كانت أعداد متزايدة تهجر المسجد رقم اثنين كما سمعت . كذلك بدأ كثير من المتعاطفين معنا من غير المسلمين يهاجموننا بالمفتوح . وفي فبراير ١٩٦٣ عندما أشرفت على حفل التخريج في جامعة الإسلام كنت أشعر ببرودة استقبال المسلمين حينما أقدم للحضور بعض أعضاء أسرة محمد .

طرت إلى فينكس بناءً على طلب مستر محمد في أبريل ١٩٦٣ .

تعانقنا كالعادة ثم أخذني مباشرة للتمشي خارج الغرف وحول حوض السباحة الذي بمنزله .

كنت أمام « المبعوث » ، أنا الذي كنت مجرماً منحطاً قاسياً ، شريراً إلى درجة أن أسماني السجناء « الشيطان». هذا الرجل أنقذني . هذا الرجل تعهدني وعلمني ورعاني وكأنما أنا من لحمه ودمه . أعطاني هذا الرجل جناحين أطير بهما إلى أي مكان وأفعل أشياءً ما كنت لأحلم بها أبداً . تمشينا قليلاً وأنا تعصف بي العواطف .

« نعم ، بني ، ماذا يجول بذهنك ؟» بادرني مستر محمد بذلك . ببساطة وصراحة ووضوح أخبرت مستر محمد عما يقال ومن غير انتظار لرده أضفت إنني وابنه والاس وجدنا في القرآن والإنجيل ما يمكن أن نلقنه للمسلمين — إذا ما دعت الضرورة — كتحقيق للنبوءة .

رد مستر محمد قائلاً : « لا يدهشني ذلك منك يا بني فقد كنت دائماً تفهم معي النبوءة والأمور الروحية . أنك تعي أن كل ذلك لم يكن إلا تحقيقاً للنبوءة . إن لك من الوعي والحكمة ما لا يتيسر إلا لرجل طاعن في السن.»

تذكرت كيف أنه عندما يقترب الوباء من بلدة يتلقى أهلوها تطعيماً بقليل من نفس جرثومة ذلك الوباء الشيء الذي يهيئهم لمقاومة ذلك الفيروس . لذلك قررت اختيار ستة من بين قيادي أمة الإسلام في الساحل الشرقي لتهيئتهم . أعلمتهم بالأمر ثم أخبرتهم بسبب اختياري لهم وأنني رأيت أنهم لا ينبغي أن يفاجئوا ويصدموا إذا ما طلب إليهم تلقين المسلمين في مساجدهم أن كل ذلك ليس إلا « تحقيقاً للنبوءة ». وجدت أن بعضهم قد سمع مسبقاً بالأمر وأن أحدهم ، منستر لويس اكس من بوسطن ، قد سمع بذلك قبل سبعة أشهر ، وكانوا يعانون من تلك المعضلة ويعيشون ذلك التناقض .

لم يخطر ببالي أبداً أن المسئولين في شيكاجو سيجعلون الأمر يظهر وكأنني أزيد النار اشتعالاً بدلاً من أن أطفئها . وبدأ أعداد المسرح بحيث تلتف الأنظار بعيدة عن الوباء وتتركز على شخصي بدلاً من ذلك .

أصبح الحقد عليَّ راية يلتف من حولها ضعيفو الإيمان . كذلك بدأ معارفي من الزنوج المسلمين الذين يعرفونني عن قرب وبعض الصحفيين البيض الذين كنت على اتصال منتظم بهم ، بدأوا يقولون لي في كل مرة يقابلونني فيها : « يبدو عليك الإرهاق ، إنك بحاجة إلى الراحة يا مالكوم إكس » .

لم يكن يدر بخلدهم ذرة مما يدور برأسي ومنذ أن أصبحت مسلماً ، كانت تلك أول مرة يتحدث معي فيها أبيض بطريقة شخصية . كنت أحس أن بعضهم كان مخلصاً وصادقاً . أحد هؤلاء ولن أبوح باسمه خوفاً من أن يفقد مركزه بذلك قال لي : « مالكوم أن البيض بحاجة إلى سماع ما تقول أكثر من الزنوج » أتذكر قولته تلك بوضوح لأنها كانت أول مرة منذ أن أصبحت مسلماً ، أتحدث فيها مع شخص أبيض لفترة من الزمن عن أي شيء سوى أمة الإسلام ونضال الرجل الأسود في أمريكا اليوم .

ولا أذكر لِمَ وكيف أنه ذكر عرضاً لفائف البحر الميت فرددت عليه قائلاً : « تلك الوثائق ستنزع المسيح من على زجاج النوافذ الملون واللوحات الجصية على الجدران وتعيده إلى قلب التاريخ كشخص غير أبيض مثلما كان حقيقة. » ذهل الصحفي فواصلت قائلاً أن لفائف البحر الميت تلك ستؤكد أن المسيح كان عضواً في جماعة عرافين مصرية تسمى الأصانص (الخلاصة) وهي حقيقة يعرفها مسبقاً فيلو المؤرخ المصري المشهور لعصر المسيح . ثم استمررنا أنا وذلك الصحفي في الحديث لمدة ساعتين عن التاريخ والدين وعلم الآثار .

كان حديثاً ممتعاً أنساني قلقي ومخاوفي لبعض الوقت . أذكر أننا اتفقنا في نهاية الحديث أنه في سنة ٢٠٠٠ سيدرس كل طفل اللون الحقيقي لعظماء الزمن الغابر .

ذكرت لكم أنني كنت أتوقع العناوين البارزة في الصحف في أية لحظة ولكني

لم أتوقع النوع الذي ظهر . لست بحاجة لأذكركم باسم من تم اغتياله في مدينة دالاس بولاية تكساس في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٣ .

بعد ساعات من ذلك الاغتيال ، وصدقوني أنني أقول الحقيقة ، تسلم كل منستر مسلم أمراً من الإلايْجا محمد – أمرين على الأصح . طلب من كل منستر ألا يدلي بأي تعليق عن الاغتيال وإذا ضايقهم الصحفيون فكل ما على المنستر أن يقوله هو : « لا تعليق » .

في ثلاثة الأيام التالية لم يكن هنالك من حديث سوى الرئيس المغتال . وكان المفترض أن يتحدث مستر محمد أمام جمع من وسط منهاتن بمدينة نيويورك في دعوة محددة مسبقاً فألغى مستر محمد ذلك الموعد وبما أنه لم يكن ممكناً استرجاع ثمن استئجار القاعة ، طلب مستر محمد مني أن أتحدث نيابة عنه ومن ثم تحدثت في مكانه .

مرات كثيرة بعد ذلك رجعت إلى النقاط التي كتبتها لألقيها ذلك اليوم وكنت قد حضرتها قبل أسبوع من الاغتيال . كان عنوان المحاضرة « حكم الله على أمريكا البيضاء » وهي على النهج الذي صار مألوفاً لدي « ستحصد ما تبذر » وعن كيف يجني الرجل الأبيض المنافق ثمار ما حرث .

بعد ذلك بدأت فترة النقاش وكان من المحتم أن يسألني أحدهم ، « كيف ترى اغتيال الرئيس كندي ؟ ما رأيك في ذلك ؟ » .

من غير تفكير قلت بصراحة ما أشعر به وأنها حالة من نوع « العرجاء رجعت لمراحها » . قلت لهم :إن البغض الذي زرعه الرجل الأبيض لم يقف عند قتل السود العزل بل أن ذلك البغض تُرك بلا ضوابط وأخيراً طال رئيس هذا البلد وأن ذلك تكرار لما حدث لمدجار ايفانز وباتريس لوممبا ولزوج مدام نو .

في اليوم التالي ظهرت العناوين البارزة في الصحف والإعلام وهي تقول : «مالكوم اكس المسلمين السود يقول : « رجعت العرجاء لمراحها ».

أشعر بالإرهاق وأنا أفكر في كل ذلك الآن . في كل أنحاء أمريكا وفي كل أرجاء العالم كان بعض الزعماء العالميين يقولون بطرق مختلفة أن جو الحقد في أمريكا هو المسئول عن موت الرئيس الأمريكي . ولكن عندما يقول مالكوم اكس ذلك يصبح الأمر شيئاً شاذاً .

كان ميعاد زيارتي الشهرية لمستر محمد في اليوم التالي وأنا في الطائرة إليه حدثتني نفسي بأن أتوقع حدوث شيء . لقد كنت دائماً أحدس ما سيحدث .

تعانقنا أنا ومستر محمد محيين بعضنا البعض وشعرت وقتها بأن ترحابه يفتقد عنصراً ما ثم شعرت بتوتر فجائي وذلك مهم بالنسبة إليَّ . لسنوات عديدة كنت أفخر بصلتي الوثيقة بمستر محمد التي كانت تجعلني أحس بما يحس به . إذا كان متوتر

الأعصاب انتقلت العدوى إليَّ وإذا كنت هادئ البال فذلك يعني أنه هادئ البال .

والآن ها أنا ذا أشعر بتوتر .

تحدثنا في البداية ونحن في غرفة جلوسه عن أشياء أخرى ثم سألني « هل رأيت صحف الصباح ؟ »

أجبت : « نعم ، سيدي ، رأيتها ».

رد قائلاً : « لقد كان ذلك تصريحاً سيئاً فالبلد كلها تحب هذا الرجل والكل الآن في حالة حداد . كان التوقيت سيئاً فتصريح مثل هذا يضر بالمسلمين ».

ثم وكأنما صوت آت من بعيد ، سمعت كلماته : « سأضطر إلى إسكاتك لمدة التسعين يوماً التالية حتى لا يقترن هذا التصريح في أذهان الناس بالمسلمين في كل مكان ».

فقدت الحس من تلك الجملة .

لكنني تابع لمستر محمد وقد كنت أقول لمساعدي كثيراً أن الذين هم في وضع يطلبون فيه من الآخرين الانضباط عليهم قبول الانضباط أنفسهم .

أجبت مستر محمد : « إنني أتفق معك يا سيدي وسأخضع لمشيئتك مائة بالمائة ».

عدت على جناح الطائرة لنيويورك وأنا متهيئ نفسيًّا لأن أقول لمساعدي في المسجد رقم سبعة أنني قد عُلقت عضويتي – أو « تم إسكاتي. » ولكني اندهشت إذ علمت عند وصولي أن مساعدي كانوا يعرفون مسبقاً .

ما أدهشني أكثر هو أن برقية بذلك أُرسلت لكل صحيفة ومحطة إذاعة وتلفاز في نيويورك . كانت تلك أسرع مهمة دعائية ، وأكثرهن إتقاناً ، بادر بها مسئولو شيكاجو .

بدأ الهاتف يرن في كل مكان أوجد فيه . من لندن وباريس ، من الأسوشيتد برس ومن اليونايتد برس . كانت كل محطات الراديو وشبكات التلفاز وكل الصحف تحاول الاتصال بي . قلت لهم جميعاً : « لقد خالفت أوامر مستر محمد وأنا الآن خاضع تماماً لحكمته . نعم ، أتوقع أن أتحدث إليهم بعد تسعين يوماً ».

« إسكات مالكوم إكس.» أصبح عنواناً بارزاً في الصحف .

كان أكثر ما يقلقني هو أنه لو حدثت فضيحة لأمة الإسلام في التسعين يوماً ستكون فاهي مكممة بينما أنا أقدر مسلم على التعامل مع الإعلام الذي سيضخم أية فضيحة تحدث داخل الأمة . نما إلى علمي في اليوم التالي أن إسكاتي كان تامًّا بأكثر مما توقعت . لم يكن محرماً عليَّ الكلام مع الصحافة فحسب بل مُنعت حتى من القيام بالوعظ والتدريس في مسجدنا رقم سبعة . بعد ذلك صدر وعمم إعلان في كل أوساط

أمة الإسلام أنني سأعود إلى وضعي خلال تسعين يوماً « إذا خنع» .

تسرب إليَّ الشك في الأمر – لأول مرة . لقد خضعت خضوعاً تاماً ومع ذلك وعن عمد كان بعضهم يوحي بأنني ثرت على محمد . لم أجب الشوارع سنوات بغير فائدة وأدركت أن فخاً قد نصب لي . بعد ثلاثة أيام نما إلى علمي أن أحد مسئولي المسجد رقم سبعة والذي كان يليني مباشرة كان يقول لبعض الأخوة أعضاء المسجد رقم سبعة : « لو علمتم ما أتاه هذا المنستر لذهبتم وقتلتموه بأيديكم».

عند ذلك أدركت كما سيدرك أي مسئول في أمة الإسلام أن المصادقة ، إن لم تكن المبادرة ، على قتلي قد صدرت من شخص واحد فقط .

شعرت بالدوار وكأنني أنزف دماً في الداخل . شعرت أن دماغي سينفجر فذهبت لمقابلة الدكتورة ليونا تيرنر ، التي كانت طبيبة الأسرة لعدة سنوات ، في مكتبها في مدينة لونج آيلاند وطلبت منها أن تفحص دماغي . فحصتني ثم أخبرتني أنني أنوء بحمل شديد وأنني في حاجة إلى الراحة .

علاقتي مع كاسياس كلاي (محمد علي) اليوم ليست لصيقة كسابق عهدها ولكني ممتن له كثيراً لأنه دعانا في ذلك الوقت بالذات ، أنا وبتي والأطفال ، لننزل ضيوفا عنده أثناء مرانه في ميامي استعداداً لملاقاة سوني لستون ، وذلك كهدية منه في عيد زواجنا السادس أنا وبتي .

كنت قد قابلت كاسياس كلاي لأول مرة في ديترويت في عام ١٩٦٢ عندما حضر مع أخيه رودلف ودخلا المطعم الطلابي المجاور لمسجد ديترويت حيث كان سيتحدث فيه الإلْيجا محمد أمام حشد كبير بعد لحظات من دخولهم المطعم . أعجب كل مسلم من الحاضرين بمظهر الأخوين الملاكمين ونقاء وأناقة مظهرهم . تقدم كاسياس نحوي وقبض على يدي بشدة كما فعل أمام العالم قائلاً « أنا كاسياس كلاي» وكأنما مفروض عليَّ أن أعرفه فمثلت وكأني أعرفه . حقيقة لم أكن حتى تلك اللحظة قد سمعت به . لقد كنا من عالمين مختلفين وقد أمرنا الإلْيجا محمد أن نبتعد عن كل أنواع الرياضة .

أثناء حديث الإلْيجا محمد كان كاسياس وأخوه عمليًّا يقودان التصفيق مما زاد إعجاب المسلمين بصدقه حيث أن اجتماعات المسلمين آخر مكان في العالم يبحث فيه ملاكم عن المعجبين .

بعد ذلك كنت أسمع عن كيف كان كاسياس يزور مساجد المسلمين ومطاعمهم في المدن المختلفة وإذا كنت أخاطب جماعة في مدينة يكون هو قريباً منها يحضر على الفور . أحببته . كانت له صفة ما حببته إليَّ وجعلته واحداً من القلائل الذين دعوتهم إلى منزلي على الإطلاق . أحبته بتي أيضاً وتعلق الأطفال به . كان

كاسياس ببساطة شاباً محبوباً ، صدوقاً ، نظيفاً ومتواضعاً . لاحظت وعيه واهتمامه بالتفاصيل . شككت أن هنالك خطة وراء تهريجه أمام الجماهير . شككت ، فأكد لي هو أنه يفعل ما يستطيع ليهزم سوني ليستون نفسياً حتى يحضر ليستون إلى الحلقة وكله غضب واستياء وزيادة في الثقة بالنفس تجعله يهمل التدريب ، متوقعاً أن المباراة ستكون من جولة واحدة ينهيها هو بالضربة الساحقة . لم يكن كاسياس يستجيب للنصح فحسب بل كان يسعى إليه . وما أكدته له أساساً هو أن نجاح أية شخصية عامة يعتمد على معرفتها بطبيعة ودوافع الناس الذين يحومون حولها . حذرته من الفتيات الجميلات الجريئات صغيرات السن اللائي كن يجرين خلفه أو « الثعالب » كما كان يسميهن هو . قلت له أنهن لسن « ثعلبات » بل ذئاب .

تلك كانت أول أجازة لبتي منذ أن تزوجنا – أما بناتي الصغيرات فقد كن يقصفن ويلعبن مع الطامح ببطولة الملاكمة . لا أدري ماذا كنت سأفعل في تلك الفترة الحرجة من حياتي لو كنت قضيتها في نيويورك تحيط بي الهواتف التي لا تفتأ ترن والصحف وكل أولئك الناس ما بين شامت ومتعاطف ومستفسر عن المستقبل .

كانت صدمة نفسية قاسية . كنت كشخص سعيد في زواجه لم يفترق عن زوجه لمدة اثنى عشر عاماً وفجأة في الصباح وعند الإفطار رمى إليه شريك حياته بأوراق الطلاق على المائدة .

شعرت وكأن شيئًا في الطبيعة توقف عن أداء دوره كأن تتعطل الشمس أو النجوم . كأن شيئاً لا يصدق ، شيء أكبر مما يتخيل أي عقل . لا أبرئ نفسي ، فقد كنت في معسكر كاسياس كلاي وفيما بين فندق هامبتون حيث كنا ننزل ، أتحدث مع زوجتي والآخرين وأقول كلمات لا تعني شيئاً بالنسبة لي . كان حديثي يأتي من ركن صغير في عقلي أما بقية عقلي فقد كانت تموج بألف منظر ومنظر من السنوات الاثنتي عشر السابقة ... صور من مساجد المسلمين .. صور مع مستر محمد ... صور مع عائلته ... مناظر مع مسلمين أفراد ، معهم كجمهور مستمع وفي المناسبات الاجتماعية ... وصور البيض وسط المستمعين والصحفيين .

أتكلم ، أتمشى وأواصل الحياة . في معسكر كاسياس كلاي كررت للكتاب الرياضيين ما بدأت أدرك داخليا أنه مجرد كذبة ، كذبة أعادتي لوضعي السابق في غضون تسعين يوماً . لكنني لم أكن تهيأت نفسياً بعد لقبول الحقيقة : حقيقة أنني وأمة الإسلام انفصلنا عضويًّا . وهل تدرك ما أرمي إليه ؟ عندما يوافق القاضي على الطلاق فذلك يمنح الزوجين الانفصال الجسدي ولكن إذا كان أحد الزوجين أو كلاهما لصيقاً بالآخر فإن الأمر قد يقتضي عدة سنوات قبل أن يحدث الانفصال النفسي .

ولكـنـي في انفصـالي العضـوي هـذا لم يكـن بإمكـاني التهـرب مـن خطـط وإستراتيجية أولئك في شيكاجو الذين يدبرون لزحزحتي من أمة الإسـلام وربما مـن هذا العالم . شعرت بأنني أرى خيوط المؤامرة .

كل مسلم بإمكانه أن يدرك أن جملة « عادت العرجاء إلى مراحها» لم تكن إلا سـبباً واهيـاً ومطيـة اسـتغلت لوضـع خطـتهم لزحـزحتي موضـع التنفيـذ . لقـد تمـت الخطوة الأولى في الخطة : أعطـى المسلمون الانطبـاع بـأنني ثـرت علـى مسـتر محمـد . أستطيع الآن أن أتنبأ بالخطوة التالية : أظل « معلقاً » ثم « معـزولاً » بعـد ذلـك إلى مـا شاءوا والخطوة الثالثة ستكون استنفار مسلم جاهل يأخذ على نفسه عهداً بقتلي كواجب ديني — أو عزلي تدريجيًا حتى أختفي من المسرح العام .

الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه حقاً كان زوجي . لم أكن قبلها أحلم أنـني سـألجأ يومـاً إلى قـوة إرادة امـرأة مثلمـا أتكـأت أنـا علـى قـوة عزيمـة بـتي . لم نـكـن نتبادل الحديث كثيراً ، بتي لم تكن تقل شيئاً إذ أنها كانت زوجة من النوع عميق الفهم ولكنني كنت أشعر بشقائها لشقائي . كنت أدرك أنهـا عبـد مخلـص لربـه مثلي وأنها ستكون بجانبي دائماً .

لم أكـن أخـاف المـوت فقـد كنـت في كـل لحظـة مـن سـنواتي الاثـنتي عشـر مـع مستر محمد مستعداً لأن ألقي بحياتي دفاعاً عنه .

ما ساءني أكثر من المـوت هـو الخيانـة . أسـتطيع تخيـل المـوت لكـنني لا أسـتطيع تصور الخيانة — لا ، ليس بعد ذلك الإخلاص في خدمة أمة الإسـلام ومسـتر محمـد . في تلك السنوات الاثنتي عشر لو حدث وحكـم علـى محمـد بالقتـل في جريمـة مدنيـة كنت سأقول للمحـكمة أنا الفاعل الحقيقـي وأحـاول أن أبـرهن ذلـك لأنقـذ حياتـه وكنت سأجلس على الكرسي الكهربائي كخادمه المطيع .

وأنا هناك ، في معسكـر كاسياس كلاي ، حاولت جهدي أن أطـرد مـن رأسـي الـتفكير في متـاعبي وأن أفكـر في متاعـب أمـة الإسـلام . دخلـت في صـراع نفسـي محاولاً إقناع نفسـي أن مستر محمد أنما كان يحقق النبوءة لأنـني كنـت فعـلاً أؤمـن أن مستر محمد إن لم يكن هو الإله فهو يأتي بعد الإله .

لكن ما هزَّ ثقتي وإيماني به هو أنني مهما حاولت ، لم أستطع أن أخفي مـن نفسـي أو أن أتهـرب مـن حقيقـة أن مسـتر محمـد بـدلاً مـن أن يواجـه أتباعـه بمـا فعـل ويعـترف بضـعفه كبشـر أو يقـول :إن تلـك نبـوءة تحققـت الشـيء الـذي كنـت أؤمـن مخلصـاً أن المسلمين سيتفهمونه على الأقل بدلاً من ذلك كان مستر محمد على استعداد لأن يخفي الحقيقة ويحجبها عن الناس .

تلك كانت ضربة ساحقة .

تلك كانت المرة الأولى التي اكتشفت فيها أنني كنت أؤمن بمستر محمد أكثر من إيمانه بنفسه .

تلك كانت الطريقة التي بها ولأول مرة بعد اثنى عشر عاماً ، لم أفكر فيها في نفسي ولو لخمس دقائق ، أصبحت أخيراً قادراً على لملمة قواي وأعصابي لأواجه الحقائق وأفكر باستقلالية.

بعد فترة وجيزة تركت فلوريدا عائداً ببتي والأطفال إلى منزلنا في لونج آيلاند . علمت بعد ذلك أن مسئولي المسلمين في شيكاجو استاءوا أكثر من قراءة أخبار زيارتي لكاسياس في الصحف . كانوا يشعرون أن كاسياس لم تكن أمامه أدنى فرصة للفوز وأن زيارتي له ستربط كاسياس كلاي بأمة الإسلام في أذهان الناس ويحرجها بذلك (لا أدري إن كان البطل يهمه أن يعلم اليوم أن أغلب الصحف الأمريكية كانت ممثلة في معسكر كاسياس التدريبي ما عدا صحيفة محمد يتكلم . بالرغم من أن كاسياس كان من إخوتهم المسلمين لم تر الصحيفة في صراعه على البطولة ما يستحق النشر) .

طرت عائداً إلى ميامي وأنا أحس أن إرادة الله قادتني إلى مساعدة كاسياس لينتصر ويبرهن للعالم على عظمة الإسلام من خلال انتصار العقل على الجسم والقوة العضلية .

لست بحاجة لتذكيركم كيف سخر الناس في البداية من كاسياس كلاي وهجومه على ليستون .

هذه المرة أحضرت معي من نيويورك صوراً فوتوغرافية لفلويد باترسون وسوني ليستون في ملاكماتهم السابقة بجانبهم قساوسة بيض « كناصحيهم الروحيين » لم يكن كاسياس كلاي بوصفه مسلماً بحاجة لتذكيره بما فعلته المسيحية البيضاء بالرجل الأمريكي الأسود . قلت لكاسياس « هذا هو الوضع الحق . الهلال مع الصليب يتصارعان داخل الحلبة لأول مرة . المسلم مع المسيحي يتراجهان والتلفاز يرسلها عبر التلستار ليراها كل العالم في لحظتها. » قلت له : « هل تعتقد أن الله فعل كل ذلك ليتركك تغادر الحلبة بدون أن تكون البطل؟» (قد تذكرون أن كاسياس كان يهتف عند أخذ وزن الملاكمين بأشياء مثل : « لقد تنبئ لي بالنجاح ولن يستطيع أحد هزيمتي»).

جعل رجال لستون ومستشاره ، جعلوه يتدرب ليصارع من أجل « الاندماج » أكثر من أن يتدرب لهزيمة كاسياس كلاي . تمكن لستون أخيراً من أن يؤجر منزلاً كبيراً فخماً في منطقة أغنياء بيض تماماً ولإعطائك فكرة عن ذلك كان جاره

الذي يملك البيت المجاور صاحب فريق نيويورك يانكيز ، دان توينج . كنا عندما نتمشى في أول المساء أنا وكاسياس أحياناً حيث يسكن الزنوج ، يفغرون أفواههم من الدهشة وهم يرونه بينهم بدلاً من أن يكون وسط البيض كما يفضل أغلب الأبطال السود . المرة بعد المرة أدهشهم كاسياس بقوله لهم : « أنتم أهلي وأنا استمد قوتي من بقائي وسط أهلي السود. »

ما كان سيواجه سوني لستون هو صراع من أصعب الصراعات التي يواجهها الإنسان ، صراع ضد من يعبد الله ولا يخاف من بشر إطلاقاً .

ومن بين ثمانية آلاف مقعد في قاعة مؤتمرات ميامي وضعوني في المقعد رقم سبعة . ذلك الرقم كان رقمي المفضل دائماً تبعني في كل حياتي ففسرت ذلك بأنها إشارة من الله لتطمأنتي على فوز كاسياس . ومع قلقي على كاسياس كنت أكثر قلقاً على ما سيحدث لأخيه رودلف الذي كان يلاكم في أول مباراة له كمحترف .

بينما كان رودلف يكسب مباراة من أربع جولات ضد زنجي من فلوريدا يدعى «تشيب » جونسون ، كان كاسياس يقف في مؤخرة الاستاد يتفرج بهدوء وهو يرتدي بذلة توكسيدو . بعد شهور من الصراخ والثرثرة وبعد التمثيلية التي أداها عند الوزن ، كان على كتاب الرياضة الذين تنبأوا بذبحه ، أن يفهموا شيئاً من ذلك الصمت .

ثم اختفى كاسياس ليرتدي زي المباراة لمقابلة لستون . ذهبت وانضمت إليه في صلاة صامتة لله سائلينه أن يبارك في مجهودات كاسياس . أخيراً دخل هو ولستون إلى أماكنهم في الحلبة وجلست أنا على مقعدي مربعاً يدي متصنعاً الهدوء قدر الإمكان حتى لا تفاجئني كاميرات التلفاز وأنا أصرخ كالأبله في مباراة البطولة .

باستثناء المادة الكيماوية الغريبة التي غشت عيني كاسياس مؤقتًا في الجولتين الرابعة والخامسة ، استمرت المباراة وفقا للخطة التي وضعها . تفادى كاسياس ضربات لستون القوية وبدأ لستون يشعر بالإرهاق آلياً بعد الجولة السادسة لأنهم هيأوه ودربوه على أنه لابد فائز في جولتين فقط . يئس لستون وانهزم . كان سر أكبر هزيمة غير متوقعة في التاريخ هو أن كاسياس قد فاق لستون باستعمال عقله في التفكير قبل المباراة .

لا أظن أنه كانت هنالك حفلة انتصار للبطل الجديد أهدأ من التي أقمناها . حضر ملك الحلبة ذو الوجه الطفولي إلى غرفتي في الفندق . أكل البوظة وشرب اللبن ثم تحدث مع نجم كرة القدم (الأمريكية) الأسود جيمي براون وبعض الأصدقاء الآخرين وبعض الصحفيين . غلب النعاس البطل فأخذته إغفاءة على سريري ثم استيقظ من النوم وعاد إلى غرفته .

في صباح اليوم التالي وقبل دقائق من المؤتمر الصحفي الذي أعلن عنه كاسياس ،

تناولنا طعام الإفطار سويًا . في ذلك المؤتمر أعلن كاسياس خبراً ، نشر عنواناً بارزاً في الصحف العالمية أنه « مسلم أسود » .

ولكن دعوني أقول لكم شيئاً عن ذلك . أن كاسياس لم يعلن أبداً أنه عضو في منظمة « مسلمين سود » وإنما خلص المخبرون إلى ذلك بأنفسهم من حديثه الذي قال فيه : «أنني أؤمن بدين الإسلام وذلك يعني أنني أؤمن بألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ذلكم هو نفس الدين الذي يؤمن به سبعمائة مليون ملون في أفريقيا وآسيا».

في كل الضجة التي تلت ذلك الإعلان لم يكن هنالك أسخف من إعلان فلويد باترسون أنه كشخص كاثوليكي يود أن يلاكم كاسياس كلاي لينقذ بطولة الوزن الثقيل من براثن المسلمين . كان مثالاً محزناً لأسود مسيحي مغسول الدماغ على استعداد لأن يحارب باسم الرجل الأبيض الذي لا يعيره التفاتاً . بعد ثلاثة أسابيع من ذلك كتبت الصحف أن باترسون عرض منزله في يونكرز بولاية نيويورك للبيع بمبلغ ١٢٠٠٠٠ دولار وبخسارة ٢٠٠٠٠ دولار . لقد سكن في حي للبيض فجعلوا حياته تعسة . لم يرحب به أحد من السكان بل كان أطفالهم ينادون أطفال باترسون « بالنيجرز» كما أن أحد الجيران درب كلبه ليدنس منزل باترسون وأقام جار آخر حاجزا ليحجب الزنوج عن الأنظار . أخبر باترسون الصحفيين « لقد حاولت جهدي ولكن ذلك لم يجد ».

صدر أول أمر باغتيالي بواسطة واحد من مسئولي المسجد رقم سبعة الذي كان أحد مساعدي كما عُين أحد مساعدي المقربين أيضاً للقيام بتلك المهمة . كان من الأخوان الذين لديهم خبرة بالانفجارات فطلبوا إليه أن يربط سيارتي بأسلاك حتى تنفجر عند إدارة مفتاح التشغيل . لكن ذلك الأخ رأى من إخلاصي للأمة ما منعه من القيام بتلك المهمة وبدلاً من ذلك جاء إليّ وأخبرني بما يضمرون . شكرته لإنقاذ حياتي وحكيت له حقيقة ما يدور في شيكاجو فكانت صدمته لا تصدق .

كان ذلك الأخ قريباً من دائرة بعض الأخوة الآخرين في المسجد رقم سبعة الذين قد يطلب إليهم التخلص مني فقال لي أنه أخذ عهداً على نفسه أن يوعي كل واحد منهم بما فيه الكفاية حتى لا يستغلهم الآخرون لذلك .

عندما بلغني صدور أول أمر مباشر بقتلي تم انفصالي نفسانياً عن أمة الإسلام .

بدأت أرى في كل مكان – في الشوارع وفي المتاجر ، في المصاعد والأرصفة وفي العربات المارة – وجوه مسلمين أعرفهم وأدرك أن أياً منهم ربما يكون يتحين الفرصة ليضع الرصاص في جسدي .

كاد عقلي أن ينفجر . ماذا أنا فاعل ؟ حياتي موثوقة بعروة لا تنفصل بكفاح الرجل الأسود في أمريكا . وكان يُنظر إليّ كأحد « قادة » ذلك النضال . لقد

قضيت سنوات وأنا أهاجم « الزعماء السود » لتقصيرهم والآن صرت أسأل نفسي بصراحة ما عساي أستطيع أن أقدم ، ماذا يؤهلني حتى أساعد السود لينتصروا في كفاحهم من أجل حقوقهم الإنسانية . تعلمت من التجارب أن النجاح في قيادة أي تنظيم يتطلب تحليل الحقائق الباردة بطريقة حسابية بما فيها حقيقة نفسك .

كانت لدي ميزة معينة وهي أنني شخصية معروفة عالمياً وذلك شيء لا يشترى بالمال . كنت أدرك أنني إذا قلت شيئاً يستحق النشر سيقرأ عنه الناس ربما في كل بقاع الأرض اعتماداً على الشيء الذي أصرح به . وهنا في مدينة نيويورك كانت لي قاعدة كبيرة من الأتباع الشخصيين من غير المسلمين . لقد بدأت تلك القاعدة تتكون تدريجياً منذ ذلك اليوم الذي قدت فيه المسلمين في هارلم في تظاهرة درامية معارضة عندما ضرب رجال الشرطة الأخ هينتون . لقد رأى المئات وسمعت الألوف الأخرى من الزنوج في هارلم بعد ذلك كيف أننا برهنا عملياً أن كل شيء يمكن أن يتحقق إذا واجه السود الرجل الأبيض بدون خوف . لقد رأت كل هارلم بعد ذلك كيف كانت الشرطة تحترم المسلمين . (تلك كانت المرة التي قال فيها عني نائب مدير الشرطة داخل مركز الشرطة رقم ٢٨ « يجب ألا يسمح لأي رجل أن يكون له مثل ذلك النفوذ») .

مع مرور السنين تلقيت أكثر من دليل أن نسبة كبيرة من السود في مدينة نيويورك تستجيب لما أقول بمن فيهم عدد كبير ليس على استعداد لأن يقول ذلك علناً . على سبيل المثال كنت عندما أتحدث في تظاهرات الشوارع يقف لسماع حديثي أعداد تصل عشرة أضعاف أو أكثر مما تجدهم يستمعون لأي واحد ممن يسمون « بزعماء الزنوج» وأنا أدرك أن القائد الحقيقي في أي مجتمع هو الذي يحوز على ويستحق ثقة أتباعه وجماهيره فالأتباع الحقيقيون يأتون طوعاً ومن تلقاء أنفسهم وما ينقص كثير من « زعماء الزنوج» أصحاب الأسماء الكبيرة اليوم هو ضعف العلاقة بينهم وبين جماهير الجيتو . أنّى أن تكون لهم علاقة محبة مع الجماهير بينما هم يقضون جل وقتهم محاولين الاندماج مع البيض . كانت تلك الجماهير تعلم أنني لم أترك الجيتو روحياً أبداً ولم أتركه جسدياً أكثر مما هو ضروري . كان عندي حاسة الجيتو وكنت على سبيل المثال أحس بالتوتر متى ما فاق مستواه العادي بين جماهير الجيتو من المستمعين . كنت أتكلم وأفهم لغة الجيتو وهنالك مثال على ذلك يقفز إلى ذهني كلما سمعت واحداً من أصحاب الأسماء الكبيرة بين « زعماء الزنوج» يعلن أنه أنما « يتحدث » باسم السود سكان الجيتو .

بعد إحدى التظاهرات في شوارع هارلم كنا نتحدث أنا وأحد هؤلاء الزعماء عندما تقدم منا واحد من زعران هارلم لا أذكر إني رأيته قبلاً . قال لي : « هاي ، بيبي ، إنني معجب بكل هذه المناظر عند الخطوط ... إنني ذاهب لأضع بعض العنب

تحت خصيات اليهودي مقابل بريزة ... يجب أن أعطيكم دوراً ... القصار هنا يحاولون خطف بعض الخبز ... حسنا يا صديقي سأواصل السير لأني أريد أن أنقد قليلاً وأخطف بعض الزايات » قال ذلك واستمر في سيره في الشارع السابع .

لم أكن سأشغل نفسي بذلك لولا أنني لاحظت أن ذلك « الزعيم » الزنجي كان يقف ويحملق بغباء خلف ذلك الرجل وكأنما تحدث إليه باللغة السانسكريتية . طلب مني أن أشرح له ما قاله ذلك الأزعر ففعلت . ما قاله ذلك الأزعر كان كالآتي :

أنه يعلم أن المسلمين يقيمون سوقاً خيرياً أسود صرفاً في قصر روكلاند الذي هو أساساً قاعة للرقص وأنه ذاهب ليرهن بذلة له بعشرة دولارات ليحضر السوق الخيري وأنه لم يكن لديه مال كاف لكنه يحاول الحصول على بعض منه وأنه ذاهب ليأكل ثم ينام .

ما أريد أن أقول هو أنني « كزعيم » استطيع أن أتحدث في إيه. بي. سي. ، سي. بي. إس. أو. أن بي. سي. (شبكات التلفزيون القومية الثلاث) ، في جامعة هارفارد أو جامعة طسكيجي (للزنوج) ، مع زنوج ما تسمى « بالطبقة الوسطى » وزنوج الجيتو (الذين يتحدث عنهم الزعماء الآخرون بدلاً من التحدث معهم) ولأنني عشت في الشوارع فأنا أدرك أكثر من أي أبيض ومن أي زعيم أسود تقريباً ، أن أكثر السود خطراً في أمريكا هم زعران الجيتوات .

ما الذي يجعلني أقول ذلك ؟ لأن الأزعر في غابة الجيتو أقل الزنوج احتراماً لمراكز القوة البيضاء وليس هنالك ما يكبح جماحه داخلياً إذ أنه لا دين له ولا يعرف معنى الأخلاق أو مسئولية المواطنة كما أنه لا يعرف الخوف أو أي شيء من ذلك . الصراع من أجل البقاء سيجعله دائماً يهاجم ويتصيد ضعف الآخرين كالحيوان . الأزعر في الجيتو دائما محبط ، قلق يتململ بحثاً عن نوع من « الحركة » ويعط لكل ما يقوم به كل ما لديه حتى حياته .

ما يجعل الأزعر أكثر خطورة هو صورته « الزاهية » التي يتطلع إليها تاركو المدارس من أبناء الجيتو . يرى مراهقو الجيتو أولئك آباءهم وهم يكابدون الجحيم لكي يصبحوا شيئاً في هذا المجتمع أو يرونهم وقد يئسوا من تحقيق أي شيء لأنفسهم في مجتمع الرجل الأبيض المتحامل الذي لا يحتملهم . يقرر مراهقو الجيتو حينها أنه من الخير لهم أن يصبحوا مثل ذلك الأزعر بلبسه المتأنق وهو يظهر المال الذي يحمله ولا يظهر أدنى احترام لأي شخص أو أي شيء . بذلك يندفع شباب الجيتو إلى عالم الزعران ، عالم المخدرات واللصوصية والبغاء والجريمة وعدم الأخلاق .

تملكني الخوف عندما رأيت خطورة ما سيأتي به هؤلاء المراهقون إذا ما أشعل

أحد ومضة العنف فيهم . في ظهر أحد أيام الصيف القائظة حضرت تظاهرة في هارلم أمها كثير من هؤلاء المراهقين وكان دعاني إلى الحضور بعض زعماء الزنوج « المسئولين» الذين عادة لا يتكلمون إليَّ ولكنهم استغلوا اسمي حتى يجتذبوا الجمهور . كنت كلما فكرت في ذلك كلما ازددت غيظا وعندما قمت إلى المنصة للحديث أخبرتهم بصراحة أنني غير مرغوب فيَّ في هذا المكان وأنهم استغلوا اسمي ثم غادرت منصة المتحدثين وتركت المكان .

حسناً ، لماذا فعلت ذلك ، لم ؟ لقد تضايق أولئك المراهقون الزنوج وبدأوا يتململون ويصرخون الشيء الذي تضايق منه كبارهم بين الجمهور . فجأة أقفل الجمهور الطرق في الاتجاهات الأربعة وبدأ مزاج الجمهور يتعكر بصورة قبيحة أقلقتني . طلعت على ظهر عربة وبدأت ألوح لهم طالباً الهدوء . هدأوا فطلبت إليهم الانصراف فانفضوا .

كان ذلك حينما بدأوا يقولون عني أنني الزنجي الوحيد في أمريكا الذي «يستطيع أن يوقف شغباً عنصريًا أو يشعل آخر».

لا أدري إن كنت حقًا أستطيع ذلك ولكني تعلمت من ذلك في دقائق قليلة حجم النار الداخلية المكبوتة والجاهزة للاشتعال في قلوب الزعران ومعجبيهم من المراهقين الذين يسكنون في جيتوات الشمال حيث احتجزهم الرجل الأبيض لمائة سنة .

لقد أعطانا صيف عام ١٩٦٤ « الطويل اللاهب » في هارلم وفي روتشستر والمدن الأخرى، فكرة عما يمكن أن يحدث . مجرد فكرة ، ليس إلا . كل ذلك الشغب كان محبوساً في أماكن سكن الزنوج . ماذا لو قامت حادثة ما بإشعال الفتيل في هذه الجيتوات التي يغلي مرجلها من المرارة في كل أنحاء أمريكا فانفجرت بذلك خارج حدودها لتدخل أماكن سكن البيض ؟ دع السود المغضبين في مدينة نيويورك يخرجون من هارلم ويقطعون سنترال بارك وينتشرون من خلال النفق في شوارع ماديسون وليكسنجتون وبارك والشارع السابع . أو خذ الطرف الجنوبي في شيكاجو بأحيائها الأكثر قدماً وأكثر قذارة ، دع سكانها الزنوج يغمرون وسط البلد أو دع السود المتقيحين في واشنطن د. س. يهاجمون شارع بنسلفانيا (مقر البيت الأبيض). أما ديترويت فقد تراكم بها أكثر من مائة ألف أسود . تمعن في ذلك ! أذكر أي مدينة وستجد بها ديناميتاً أسود قابلاً للانفجار اجتماعيًا . كليفلاند ، فيلادليفيا ، سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس ... كلها تمور بغضب الرجل الأسود الذي يختمر في مرجله .

لقد تحولت عن الموضوع واسترسلت في سرد بعض الأحداث والوقائع التي علمتني أن أحترم الخطورة الكامنة في الجيتوات . كنت أحاول أن أوضح بأمانة تقييمي لقدراتي التي تؤهلني لأن أقدم نفسي « كقيادي » مستقل بين السود . في النهاية رأيت أن القرار أمامي واضح فجماهير الجيتوات كانت تنظر إليَّ كأحد قادتها وتثق في وهي لا تمنح

ثقتها إلا لمن تعتقد أنهم لن يبيعوها عند الرجل الأبيض وأنا لم أكن أنوي ذلك أبداً بل أنه ليس من طبيعتي .

شعرت بالتحدي والحاجة إلى التخطيط وإلى بناء منظمة تساعد في خلاص الرجل الأسود في أمريكا من الأمراض التي وضعته تحت قدم الرجل الأبيض . الرجل الأسود في أمريكا عليل عقلياً في تعاونه كالشياه على قبول ثقافة الرجل الأبيض .

الرجل الأسود في أمريكا مريض روحياً لأنه ولعدة قرون تقبل مسيحية الرجل الأبيض التي تطلب من الرجل الأسود المسمي مسيحياً ألا ينتظر إخاءً إنسانيًّا حقيقيًّا بل عليه أن يتحمل المصائب التي جلبها عليه الرجل الأبيض . لقد شوشت المسيحية تفكير الرجل الأسود وحجبت عنه الرؤيا وعلمته أنه إذا افتقد المأكل والملبس في هذه الدنيا فسيجدها في الآخرة .

الرجل الأسود في أمريكا مريض اقتصادياً ويظهر ذلك في حقيقة أنه كمستهلك وكمنتج تلقى القليل وأقل مما يستحق . ما نراه اليوم هو الطفيلية بصورتها الكاملة حيث يعيش الرجل الأسود في وهم يجعله يعتقد أن حالته في تحسن لأنه يعيش من ضرع البقرة الحلوب ذات الثلاث بطون التي تسمى أمريكا البيضاء . على سبيل المثال يصرف السود ثلاثة بلايين دولار على شراء السيارات سنويًّا ومع ذلك ليس هنالك أسود واحد يملك وكالة بيع سيارات . وكمثال آخر ، أربعون بالمائة من الوسكي المستورد غالي الثمن يمر نازلاً في حلوق السود الباحثين عن الاستهلاك الاستعراضي ومع ذلك الخمارات الوحيدة التي يملكها الزنوج تجدها داخل حمام أو غابة . والمثل الآخر المخجل هو هنا في مدينة نيويورك التي يقطنها مليون أسود ومع ذلك ليست هنالك عشرون شركة تجارية تستخدم عشرة أشخاص فما فوق ويملكها سود . السود لا يملكون ولا يتحكمون في تجارة المفرق في أحيائهم ولذا لا يتحكمون في تلك الأحياء .

أما أكبر علة عند الرجل الأسود فهي علته السياسية . لقد ترك الرجل الأبيض ينجح في تقسيمه إلى « ديمقراطي » أسود « وجمهوري » أسود أو إلى أسود محافظ وأسود متحرر بينما يمكن لعشرة المليون صوت أسود لو صوتوا كمجموعة واحدة أن يرجحوا ميزان القوى في أمريكا لأن أصوات البيض دائماً مقسمة بالتساوي . صندوق الاقتراع هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه لكل أسود أن يكافح من أجل قضية الرجل الأسود بكرامة وبنفس أساليب القوة والنفوذ التي يفهمها الرجل الأبيض ويحترمها ، يخافها ويتعاون معها . أصغ إليَّ ودعني أقول لك شيئاً : إذا قامت مجموعة تمثل السود وقالت للعنصريين كارهي « النيجرز » أننا نمثل عشرة ملايين صوت ، سيقفز ذلك العنصري من مكانه ويقول لهم حسناً ، مرحباً بكم وكيف حالكم ؟ تفضلوا ! . وإذا ما صوت أهل ولاية مسسيبي السود كمجموعة واحدة فسينقلب سناتور إيستلاند المحافظ ليصبح

أكثر ليبرالية من سناتور جاكوب جافيتز وإلا لانتهى إيستلاند سياسيًّا .

هل من سبب آخر يجعل السياسيين العنصريين يحاربون منح السود حق الاقتراع ؟

أية مجموعة بإمكانها أن تصوت كوحدة واحدة وتقلب الموازين لصالحها ولا تفعل ذلك فهي مجموعة مريضة سياسياً . في السابق جعل المهاجرون الجدد من تاماني هول أقوى شخصية سياسية في أمريكا وفي عام ١٨٨٠ انتخبت مدينة نيويورك أول إيرلندي كاثوليكي كعمدة لها وعندما أتي عام ١٩٦٠ انتخبت أمريكا أول رئيس من أصل إيرلندي كاثوليكي . وإذا ما صوت الرجل الأسود في أمريكا كمجموعة واحدة فسيكون له نفوذ وقوة أقوى من ذلك .

السياسة الأمريكية تحكمها المصالح الخاصة لجماعات الضغط ، وهل هنالك مجموعة لها مصالح عادلة ، أو تحتاج للوحدة ولأن تصبح ضاغطة أكثر من مجموعة الرجل الأسود ؟ يمتلك اتحاد نقابات العمال أكبر مبنى غير حكومي في واشنطن ويقف في موقع يمكنهم حرفيًّا من مراقبة البيت الأبيض وليس هنالك من قرار سياسي يتخذ إلا أخذ فيه رأيهم . شركات وولايات البترول حصلت على بدل استنفاذ بترولي خفض من مصروفاتها بواسطة لوبي (أداة ضغط) كونته . أما المزارعون اليوم فهم أكبر مجموعة تدعمها الحكومة في أمريكا وكل ذلك بواسطة اللوبي الزراعي لأن المليون مزارع أمريكي لا يصوتون في الانتخابات كجمهوري أو ديمقراطي أو كمحافظ أو ليبرالي بل كمزارعين .

الأطباء يملكون أقوى لوبي في واشنطن ونفوذهم المصلحي يحارب بنجاح ضد برنامج الرعاية الطبية التي يحتاج لها ملايين من الآخرين . ولم لا ؟ هنالك أيضاً لوبي مزراعي البنجر ولوبي القمح ولوبي رعاة الأبقار ولوبي الصين كما أن هنالك بلاداً صغيرة لم يسمع بها أحد لها لوبي في واشنطن يمثل مصالحها الخاصة .

من أجل ذلك كونت الحكومة قسماً للتعامل مع المجموعات ذات المصالح الخاصة التي لها صوت مسموع . وزارة الزراعة مثلاً تهتم بمطالب المزارعين وهنالك أيضاً وزارة التعليم والصحة والرفاهية . ووزارة الداخلية تهتم ضمن ما تهتم ، بمطالب الهنود الحمر . لكن هل المزارع والطبيب والهنود الحمر أهم مشاكل أمريكا اليوم ؟ لا ، أعظم مشاكلها هو الرجل الأسود . ينبغي أن تكون هنالك وزارة في واشنطن أكبر من البنتاجون تهتم بكل صغيرة وكبيرة من مشاكل الرجل الأسود .

اثنان وعشرون مليون من السود وهبوا أمريكا أربعمائة عام من الكد ، نزفوا دماً في كل معركة منذ حرب الاستقلال ، حضروا إلى أمريكا قبل الحجاج الأوائل وقبل الهجرات الجماعية بزمن طويل ومع ذلك نجدهم اليوم في القاع في كل شيء .

على كل واحد من الاثنين والعشرين مليوناً أن يدفع غداً دولاراً لبناء لوبي بطول

ناطحات السحاب في واشنطن . ولم لا ؟! وكل مشرع في الكونجرس ينبغي أن تصله كل صباح رسالة عما يحتاجه الرجل الأسود ويبغاه . صوت الرجل الأسود القوي يجب أن يصل أذن كل مشرع سيصوت في موضوع ما .

القوة السياسية والقوة الاقتصادية هما حجر الزاوية في المعاملات في هذا البلد . والرجل الأسود ليست له قوة اقتصادية وبناؤها يتطلب زمناً لكن له من القوة السياسية في الوقت الحاضر والنفوذ ما يمكنه من أن يغير مصيره في غمضة عين . ما أفكر فيه كان عملاً كبيراً والمنظمة التي خلقتها في خيالي كانت ستكون واحدة تستنفر الرجل الأسود أن يتحصل على حقوقه الإنسانية ويعالج علله الذهنية والروحية ، الاقتصادية والسياسية . لكنك إذا أردت أن تحقق أمراً ذا قيمة ، عليك أن تبدأ بخطة في مستوى ذلك الأمر .

المنظمة التي كنت أؤمل أن أبنيها كانت ستختلف كثيراً عن أمة الإسلام كونها ستحتضن السود من كل الأديان وستمارس عمليًّا ما كانت أمة الإسلام تنادي به فقط .

بدأت الإشاعات تنتشر خاصة في مدن الساحل الشرقي والناس تتساءل عماذا أنا فاعل ؟ حسناً أول ما عليَّ أن أفعله أن أجتذب رؤساً وأياد أكثر من رأسي ويدي . وفي كل يوم كان عدد من الأخوة المتحمسين للعمل والذين كانوا معي في المسجد رقم سبعة يعلنون انفصالهم عن أمة الإسلام لينضموا إليَّ . وفي كل يوم يصل إلى علمي بطريقة أو بأخرى نبأ عن تأييد غير المسلمين من الزنوج لي ومن بينهم لدهشتي كثير من زنوج «الطبقة الوسطى» و « العليا» من البرجوازيين الذين سئموا الجري وراء المركز الإجتماعي. بدأت النداءات ترتفع وتقول : متى ستدعو إلى اجتماع ؟ إلى التنظيم ؟

اتفقت مع فندرق تيريزا ليأجروا لي قاعة كارفر حتى يتسنى لي أن أعقد فيها أول اجتماع وهي تقع عند ملتقى الجادة ١٢٥ والشارع السابع ويمكن تسمية هذا الموقع بفتيل انفجار هارلم .

نشرت صحيفة أمستردام نيوز خبر الاجتماع وفسر بعض القراء ذلك بأننا سنقيم مسجدنا المؤقت في فندق تيريزا . هناك بدأت تصل برقيات وخطابات ومحادثات هاتفية لي من جميع أنحاء القطر وكان طابعها العام هو أن ذلك تحرك انتظره الناس طويلاً . أناس لم أسمع بهم أبداً بعثوا يؤكدون لي ثقتهم فيَّ بأساليب هزت شعوري . كثيرون قالوا أن قواعد أمة الإسلام الأخلاقية قد نفرتهم ولكنهم الآن يودون الانضمام لي.

اتصل من خارج المدينة طبيب يملك مستشفى صغيراً ليعلنني بانضمامه لي وكثيرون آخرون بعثوا تبرعاتهم قبل أن نعلن عن خططنا حتى ، كما كتب

مسلمون من المدن الأخرى معلنين أنهم سينضمون الي وكان الطابع العام لتعليقاتهم هو أن المسلمين غير نشطين وأن أمتهم تتحرك ببطء في المواضيع العامة .

أدهشني أن عدداً غير قليل من البيض اتصلوا أو كتبوا عارضين مساعدتهم أو حتى الانضمام .الإجابة كانت لا ، الانضمام غير متاح لهم وأن عضويتنا سوداء صرفة لكن بإمكانهم وإذا أملت عليهم ضمائرهم ذلك أن يساعدونا مالياً في منهاجنا البناء لحل قضايا أمريكا العنصرية .

انهمرت على الدعوات للحديث ، اثنان وعشرون دعوة في البريد الصباحي لأحد أيام الاثنين (أول الأسبوع) وما أدهشني هو أن عدداً غير عادي منها أتى من قساوسة جماعات مسيحية بيضاء .

دعوات إلى مؤتمر صحفي ووقفت وأمامي مكبرات الصوت وأضواء آلات التصوير تومض بين الفينة والأخرى وعدد كبير من الصحفيين رجالاً ونساءً ، بيضاً وسوداً يمثلون وسائل إعلامية يصل مداها أركان الأرض جلسوا ينظرون إليَّ بأقلامهم ودفاترهم المفتوحة أمامهم .

أعلنت أمام ذلك الملأ : « إنني سأنظم وأقود مسجداً جديداً في مدينة نيويورك وسيعرف (بمؤسسة المسجد الإسلامي) . سيعطينا ذلك القاعدة الدينية والقوة الروحية اللازمة لتخليص أهلينا من الرذائل التي تنخر في النسيج الخلقي لمجتمعنا الأسود .

« ستكون الرئاسة المؤقتة لمؤسسة المسجد الإسلامي في فندق تيريزا بهارلم وستصبح القاعدة لبرنامج نشط صمم لرفع الظلم السياسي والاستغلال الاقتصادي والذل الاجتماعي الذين يعاني منهم كل يوم اثنان وعشرون مليوناً من الأفرو أمريكيين (الأمريكيين الأفارقة) ».

ثم بدأ الصحفيون يصوبون أسئلتهم نحوي .

لم يكن الأمر كله بالسهولة التي أتحدث بها عنه . كنت دائما متيقظاً لحقيقة أن عدداً غير قليل من إخواني السابقين سيحاول أن يجعل من نفسه بطلاً أمام أمة الإسلام بقتلي . أنني أدرى بطريقة تفكير أتباع الإيْجا محمد إذ أنني علمت الكثيرين منهم التفكير . كنت أعلم أنهم أسرع الناس إلى القتل إذا ما شعروا أن ذلك ما يطلبه منهم الله .

هنالك تحضير آخر كنت أعلم أنني بحاجة له كان على بالي منذ مدة طويلة — كعبد الله . لكن ذلك يتطلب مالاً ولم يكن معي مال .

ركبت الطائرة إلى بوسطن لاجئاً مرة أخرى إلى أختي إللا . ومع إني أغضبتها أكثر من مرة لكن إللا لم تخذلني أبداً منذ أن أتيتها وأنا ريفي صغير أخرق من ميشجان .

قلت لها « إللا ، لقد نويت الحج إلى مكة ».

قالت « كم من المال ينقصك ؟ » .

■ الباب السابع عشر

مكـــة

الحج إلى مكة فرض على كل مسلم يقوم به مرة في العمر على الأقل لمن استطاع .

يقول القرآن المعظم :﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

ويقـول سـبحانه وتعـالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

في أكثر من كلية أو جامعة كان يأتي إليَّ بعد المحاضرة التي أقدمها حوالي عشرة شبان أو أكثر بيض السحنة عامة ويقدمون إليَّ أنفسهم على أنهم مسلمون عرب أو شرق أوسطيون أو من شمال أفريقيا يدرسون أو يعملون أو في زيارة للولايات المتحدة . كانوا يقولون لي إنه بالرغم من إدانتي العامة للبيض فهم يشعرون أنني مخلص في نظرتي إلى إسلامي وأنني لو فقط أتيحت لي الفرصة لمعرفة الإسلام الحقيقي فسأفهمه وأحتضنه . كتابع لمستر محمد كنت آلياً أعرض عن مثل ذلك الكلام .

ولكنني بعد عدد من تلك اللقاءات سألت نفسي مرة : إذا كان الإنسان مخلصاً في قبوله لديانة ما ، لماذا يحجم عن توسيع معرفته بتلك الديانة ؟ فاتحت والاس محمد ، ابن مستر محمد ، في ذلك الموضوع ذات مرة عندما كنا نتبادل الحديث فأجابني نعم وبكل تأكيد على المسلم أن يسعى ليتعلم كل شيء عن الإسلام . لقد كنت دائماً أجل رأي والاس محمد .



THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X



أكثر من واحد من المسلمين الأصيلين الذين قابلتهم حثني على مقابلة شخص يدعى محمود يوسف شواربي والحديث معه . وصفوه لي بأنه عالم مسلم مرموق خريج جامعة القاهرة ويحمل الدكتوراه من جامعة لندن ، محاضر إسلامي وخبير بالأمم المتحدة ومؤلف لعدة كتب . كان يحتل كرسي الأستاذية في جامعة القاهرة وقد حضر منتدباً إلى نيويورك ليعمل كمدير لاتحاد الجماعات الإسلامية في كندا والولايات المتحدة . أكثر من مرة حينما أكون قريباً من المنطقة قاومت الرغبة في زيارة مبنى اتحاد الجماعات الإسلامية المبنى من الحجر الأسمر وعنوانه واحد شارع ريفرسايد إلى أن قدمنا صحفي إلى بعض ذات يوم ، أنا ودكتور شواربي عندما صدف وتقابلنا في إحدى المناسبات . كان مهذباً وقال لي أنه يتابع أخباري في الصحف فقلت له أنهم كلموني عنه وتحادثنا معاً لمدة خمس عشر أو عشرين دقيقة. اضطر كلانا لأن يغادر بسبب ارتباطات أخرى حينما ألقى عليَّ جملة لن أنساها أبداً : « لن يؤمن الرجل حقاً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

ثم هنالك أختي إللا نفسها التي لا أنسى ما فعلته . قلت قبلاً إنها امرأة سوداء ضخمة قوية الإرادة من مواليد ولاية جورجيا . أخرجتها طريقتها وشخصيتها الطاغية من مسجد أمة الإسلام رقم أحدى عشرة في بوسطن ثم قبلوها مرة أخرى ثم خرجت من تلقاء نفسها . بدأت إللا تدرس الإسلام الأصيل مع جماعة من مسلمي بوسطن الأصيلين ثم أنشأت مدرسة لتعليم اللغة العربية . لم تكن تتحدثها فاستأجرت مدرسين خصيصاً لذلك . تلك هي إللا ! كانت تتاجر في العقار وتدخر لتأدية فريضة الحج . جلسنا نتجاذب أطراف الحديث في غرفة جلوسها طوال الليل وكلمتني أن ذهابي للحج مهم جدًّا وليس موضوع نقاش . كنت أفكر فيها طوال الطريق وأنا عائد إلى نيويورك . يا لها من امرأة قوية كسرت شوكة ثلاثة أزواج إذ أن لها إرادة ومثابرة تفوق ما لثلاثتهم مجتمعين. لقد لعبت دوراً مهماً جداً في حياتي وليست هنالك امرأة أخرى سواها لها من قوة العزيمة ما مكنها من توجيهي فقد كنت أنا دائماً الموجه للنساء ، أدخلتها الإسلام وها هي الآن تمول حجي إلى مكة .

دائمًا يعطينا الله الإشارة أنه معنا حينما نكون معه .

عندما تقدمت إلى القنصلية السعودية طالباً تأشيرة دخول إلى مكة أخبرني السفير السعودي أن أي مسلم حديث يطلب تأشيرة حج عليه أن يقابل د. محمود شواربي للحصول على موافقته أولاً قبل أن يمنح التأشيرة . إلا أن تلك كانت أول إشارة لي من الله . وعندما اتصلت هاتفيًّا بدكتور شواربي اندهش وقال لي : « لقد كنت على وشك الاتصال بك . تفضل عندي ولا تتردد ».

عندما وصلت إلى مكتبه ناولني خطاب تصديقه على ذهابي للحج في مكة ثم

أعطاني كتاباً بالإنجليزية اسمه رسالة محمد الخالدة لمؤلفه عبد الرحمن عزام. أخبرني دكتور شواربي أن المؤلف أرسل تلك النسخة لتُهدى إليَّ وأوضح لي أن المؤلف مواطن سعودي من أصل مصري، رجل دولة عالمي ومن أقرب المستشارين للملك فيصل حاكم المملكة العربية السعودية. أضاف دكتور شواربي: «لقد تابع المؤلف نشاطك عن قرب في الصحف.» لم أكد أصدق ذلك.

أعطاني دكتور شواربي رقم هاتف ابنه الطالب في القاهرة، محمد شواربي، كما أعطاني رقم هاتف ابن المؤلف، عمر عزام الذي يعيش في جدة ثم أضاف «آخر محطة لك قبل مكة. اتصل بهما ولا تتردد».

تركت نيويورك في هدوء (من غير أن أعلم أنني سأعود في ضجة) لم نخبر إلا القليلين بأنني سأسافر لأنني لم أكن أرد لوزارة الخارجية الأمريكية أو أي أحد آخر أن يعترض طريقي في آخر لحظة. لم يذهب معي إلى مطار كندي الدولي سوى بتي وبناتي الثلاث وبعض المقربين. وبعد أن حلقت طائرة اللوفتهانزا في السماء تعارفنا أنا وجيراني الاثنان في صف مقاعد الطائرة وتلك كانت إشارة أخرى من الله إذ اتضح أن كليهما مسلم، أحدهم في طريقه إلى القاهرة والثاني مسافر إلى جدة حيث سأبقي بضعة أيام. طوال الطريق إلى فرانكفورت بألمانيا ظللنا أنا وجاري نتحادث أو أقرأ أنا في الكتاب الذي أهدي إليَّ وعندما وصلنا فرانكفورت ودعنا بحرارة الأخ الذاهب إلى جدة أنا وزميلي قاصداً القاهرة. كانت أمامنا بضع ساعات في فرانكفورت قبل أن نأخذ طائرة أخرى إلى القاهرة فقررنا أن نتجول ونتفرج على فرانكفورت.

وفي غرفة الرجال في المطار قابلت أول أمريكي يتعرف عليَّ في الخارج، طالب أبيض من ولاية رود آيلاند. كان يحملق فيَّ ثم اقترب قائلاً: «هل أنت مستر إكس؟» ضحكت وأجبت بنعم إذ أني لم أسمع اسمي يقال بتلك الطريقة من قبل. هتف قائلاً: «مستحيل، لا يمكن أن تكون هو ولن يصدقني أحد عندما أخبرهم بذلك» كان طالباً يدرس في فرنسا كما قال.

أدهشتني حفاوة وكرم الناس في فرانكفورت كما أدهشت المسلم الأخ الذي كان معي. دخلنا عدداً من المتاجر والمحلات بغرض التفرج أكثر من الشراء. في كل متجر دخلناه قابلونا بالتحية، أناس لم نرهم إطلاقاً من قبل ويعلمون تماماً أننا غرباء. في أمريكا قد تدخل متجراً وتنفق مئات الدولارات وتغادره غريباً مثلما دخلت وكلاكما، أنت والبائع، تنظران إلى بعض وكأنما أسدى كل منكما جميلاً للآخر. الأوروبيون يتعاملون كبشر وبإنسانية أكثر من الأمريكيين. رفيقي المسلم كان يعرف من اللغة الألمانية ما يكفي لتسيير أموره فكان يقول لهم إننا مسلمون وعندها أمر بنفس التجربة التي مررت بها قبلاً في أمريكا عندما ينظر إليك الناس كمسلم وليس كزنجي في

أمريكا نفسها . عندما ينظر الناس إليك كمسلم يعاملونك كإنسان ، تتغير نظرتهم وطريقة كلامهم معك وكل شيء نحوك . في أحد متاجر فرانكفورت الصغيرة مال صاحب المتجر فوق الطاولة نحونا وأشار بيديه نحو بعض الألمان في الشارع قائلاً : « يوم تحت ، ويوم فوق.» أوضح لي المسلم الأخ بأنه يقصد أن الألمان سينهضون مرة ثانية .

عدنا إلى مطار فرانكفورت وركبنا طائرة الخطوط الجوية العربية المتحدة المسافرة إلى القاهرة . كان هنالك حشد كبير من الناس واضح أنهم مسلمون ومن كل مكان في طريقهم إلى الحج يحتضنون ويعانقون بعضهم البعض . كانوا من كل الألوان وكل المكان يفيض حرارة وودا وعطفاً . انتابني شعور لأول مرة أن هذا المكان يخلو من مشاكل اللون وأثر ذلك عليَّ وكأني خرجت لتوي من السجن .

أخبرت رفيقي الصديق المسلم بأنني أود أن أقضي يومين سائحاً في القاهرة قبل أن أواصل السفر إلى جدة فأعطاني رقم هاتفه وطلب مني الاتصال به إذ أنه ينوي أن يضمني إلى جماعة من أصدقائه الذين يتحدثون الإنجليزية وينوون الحج ويسرهم أن يعاونوني .

قضيت يومين سعيدين أتفرج على القاهرة . أعجبتني في القاهرة المدارس الحديثة والطرق السريعة المعبدة ومشاريع الإسكان الشعبي والتصنيع الذي شاهدته وقد كنت قرأت أن حكومة عبد الناصر بنت بلداً من أكثر بلدان أفريقيا تقدماً وصناعة . أكثر ما أدهشني في القاهرة هو أنهم كانوا يصنعون فيها السيارات والحافلات . كذلك كانت لي زيارة لطيفة مع ابن دكتور شواربي ، محمود شواربي ، شاب في التاسعة عشرة من عمره يدرس الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة . أخبرني أن حلم والده هو أن يبني* جامعة للإسلام في الولايات المتحدة .

أما المجموعة الودودة التي سأحج معها فقد ذهلوا عندما علموا بأني مسلم من أمريكا . كان بينهم عالم مصري وزوجته ، وهما أيضاً في طريقهم للحج ، فأصر على أن أتناول طعام العشاء معهما في مطعم في هليوبولس من ضواحي القاهرة . كانا على درجة عالية من الذكاء والثقافة . التصنيع المتسارع في مصر كان من الأسباب التي أكسبتها عداوة الغرب الذي كان يخشى من أن تصبح مصر مثالاً تحتذي به بقية الدول الأفريقية . سألتني زوجته : « لماذا يموت الناس جوعاً في العالم بينما أمريكا تفيض بالغذاء ؟ ماذا يفعلون به — أيرمونه في البحر ؟ » أجبت : « نعم ، ولكنهم يضعون جزءً من الفائض في سفن أو صوامع غلال وثلاجات مبردة ويتركون تلك الأغذية هنالك يقوم على إدارتها جيش صغير من الموظفين حتى تصبح غير قابلة للأكل ثم يحضر جيش آخر من العاملين ليتخلص منها ويفسح مكانا لشحنة جديدة .» نظرت إليَّ غير مصدقة وكأنني أمزح ، لكن دافع الضرائب الأمريكي يعرف أنها الحقيقة . لم استمر في الموضوع لأقول لها : إن هنالك جياعاً في الولايات المتحدة نفسها .

اتصلت بصديقي المسلم كما طلب فأعلمني أن المجموعة الذاهبة للحج في انتظاري وبذلك أصبحنا ثمانية أشخاص ومن بينهم قاض ومسئول كبير في وزارة التربية . وجدتهم يتحدثون الإنجليزية بطلاقة وقبلوني كواحد منهم ، فاعتبرت تلك إشارة أخرى من الله أنني حيثما اتجهت سأجد من يعتني بي ويدلني على الطريق .

المعنى الحرفي للحج هو الخروج بقصد وجهة محددة معينة وفي الإسلام تعني الخروج قاصداً الكعبة والبيت المقدس لأداء فروض الحج . وفي مطار القاهرة كانت جموع تحرم وتدخل في حالة الإحرام وهي حالة من الطهر النفسي والجسدي . وعملاً بنصيحة البعض تركت كل أغراضي في القاهرة بما فيها أربع آلات تصوير إحداهن كاميرا سينمائية واشتريت حقيبة صغيرة تتسع لبذلة واحدة ، قميص ، وجوز ملابس داخلية وجوز من الأحذية ، وإلى الجزيرة العربية . في الطريق إلى المطار مع رفقاء الحج بدأت أشعر بالتوتر لعلمي أنني منذ تلك اللحظة فصاعداً سأراقب الآخرين الذين يعرفون ما يفعلون وأحاول تقليدهم .

عند وجوب الإحرام خلعنا ملابسنا ووضعنا منشفين أبيضين أحدهما الإزار الذي يلف حول الخاصرة والآخر يسمى الرداء يوضع حول الرقبة والأكتاف بحيث يكون الكتف والذراع الأيمن عاريين . كذلك لبسنا صندلاً بسيطاً ، النعل ، يترك عظام الرسغ عارية . فوق الإزار الذي يلتف حول الخصر وضعنا حزاماً جلدياً به محفظة للنقود مع حقيبة يد كبيرة بحزام طويل لحفظ جواز السفر والأوراق المهمة الأخرى مثل الخطاب الذي أعطانيه دكتور شواربي .

كان كل من يقصد الحج من بين آلاف الأشخاص في المطار يرتدي نفس الزي . قد تكون ملكاً أو فلاحاً ولا يعرفك أحد وبعض الشخصيات المهمة التي أشاروا لي عليها كانت ترتدي نفس الزي الذي كنت أرتديه . وبمجرد أن ارتدينا ذلك بدأنا ننادي بين الفينة والأخرى « لبيك ! لبيك ! » وأصبح المطار يضج بأصوات المحرمين يعلنون نيتهم تأدية فريضة الحج .

كانت الطائرات تغادر كل بضع دقائق وهي ملأى بالحجاج والمطار يعج بالمزيد منهم وبأقرانهم وأصدقائهم الذين حضروا لوداعهم . من لم يكونوا في طريقهم إلى الحج كانوا يسألون الحجاج أن يدعوا لهم بالخير في مكة . ركبنا الطائرة عندما علمت لأول مرة أنه مع الازدحام لم يكن قد بقي لي مكان عندما سعى بعضهم ووجد لي مقعداً في الطائرة وأنهم اضطروا أن يبحثوا عن شخص يتنازل لي عن مقعده لأنهم لم يشاءوا أن يخيبوا ظن مسلم أمريكي . شعرت بمزيج من الأسف وكثير من التواضع والامتنان – الأسف على أنني أخذت مكان شخص آخر ووضعته في حرج والامتنان والتواضع لمنحي هذا الشرف والتقدير .

الطائرة كانت مزدحمة بالبيض والسود والسمر والحمر والصفر . عيون زرقاء وشعور شقراء مع شعري الأحمر المجعد وكلنا سوياً أخوان . كلنا نعبد نفس الإله ، الله ، وكلنا نوقر ونحترم البعض . انتشرت الكلمة من بعض جماعتي وسارت من مقعد لمقعد أنني مسلم من أمريكا . اتجهت ناحيتي وجوه مبتسمة تحييني من على بعد . مرروا علينا طعاما في صندوق فأكلنا ووصل خبر المسلم من أمريكا إلى غرفة قيادة الطائرة . ترك قبطان الطائرة مكانه وحضر ليراني . كان مصريًا لونه أغمق من لوني ويمكنه أن يسير في شوارع هارلم من غير أن يُظن أنه غريب . سره كثيراً لقاء مسلم أمريكي وعندما دعاني للتفرج على غرفة القيادة قبلت فوراً وبدون تردد .

لون بشرة مساعد القبطان كان داكناً أيضاً وأكثر سمرة من القبطان . ولا أستطيع أن أصف لك الشعور الذي غمرني حينها فأنا لم أر قبل ذلك شخصاً ملوناً يقود طائرة نفاثة . تلك الآلة العجيبة والعدادات التي أمام القبطان والتي لا يستطيع شخص معرفة ما يعنيه كل عداد منها . كلا الطيارين كانا يبتسمان لي ويعاملانني بنفس الاحترام والتقدير اللذين صرت أتلقاهما منذ أن غادرت من أمريكا . وقفت أنظر من خلال الزجاج الذي أمامنا . في أمريكا ركبت الطائرة مئات المرات وربما أكثر من أي زنجي آخر ولم يحدث أن دعاني قبطان طائرة لأدخل غرفة القيادة وها أنا الآن مع مسلمين اثنين من نفس صف المقاعد أحدهما من مصر والثاني من الجزيرة العربية وجميعنا في طريقنا إلى مكة ونحن في غرفة القيادة . لقد أدركت أن الله معي .

عدت إلى مقعدي ولمدة ساعة كنا نحن جميع الحجاج ننادي « لبيك ! لبيك !» بين الفينة والأخرى . رست الطائرة في مطار جدة وهي ميناء بحري على البحر الأحمر ونقطة القدوم والمغادرة لكل الحجاج الذين يحضرون إلى السعودية قاصدين مكة التي تبعد أربعين ميلاً إلى الداخل شرقاً .

مطار جدة بدأ أكثر ازدحاماً من مطار القاهرة وأصبحت مجموعتنا مجرد واحدة من الحشود المزاحمة من كل جنس ولون على الأرض وكل مجموعة تشق طريقها في صف طويل إلى مكتب الجمرك وقبل الوصول إلى الجمارك عُين لكل مجموعة مطوف مهمته أن يقود المجموعة من جدة إلى مكة . بعض الحجاج كانوا ينادون « لبيك! » وآخرون في جماعات كبيرة كانوا ينشدون معاً دعاءً يقول : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . » وجوهر هذا الدعاء وحدانية الله .

الكل ما عدا المسؤولين والموظفين كان يتزيّا برداء الإحرام أو غطاء الرأس الأبيض والجلابيب الطويلة وشباشب المطوفين الذين يقودون مجموعات الحجاج مع مساعديهم . وجود حرف الميم قبل الفعل يحول الفعل إلى اسم في اللغة العربية فكلمة مطوف تعني

الذي يقود الحجاج عند الطواف والذي هو الدوران حول الكعبة في مكة .

شعرت بالتوتر وأنا أزاحم وسط مجموعتي في الصف ونحن نشق طريقنا نحو مكتب الجوازات . شعرت بشيء من القلق وأنا أفكر في الذي أحمله لهم . أنني هنا في قلب العالم الإسلامي عند المنبع وكل ما أحمله هو جواز سفر أمريكي والذي هو على نقيض من كل ما يدعو له الإسلام . شعر القاضي في مجموعتنا بالتوتر الذي كنت أعاني منه فربت على ظهري . كان الحب والتواضع والتآخي الحقيقي أشياء تكاد تحسها في الجو حيثما التفت . أخيراً وصلت مجموعتنا مكان ضباط الجوازات فكانوا يفحصون كل جواز وحقيبة ثم يومئون لكل حاج أن يتقدم . شعرت بعصبية حينما رفض مفتاح الحقيبة أن يعمل فكسرت القفل خوفاً من أن يظن أنني أحمل ممنوعات بحقيبتي وعندما مددت جوازي لضابط الجوازات ورأى أنني أحمل جوازاً أمريكياً نظر إليه وقال شيئاً باللغة العربية ثم بدأ رفقائي من حولي يقولون كلاماً بالعربية بسرعة ويومئون ويشيرون محاولين التدخل لصالحي . سألني زميلي القاضي بالإنجليزية عن خطاب دكتور شواربي ثم أخذه ووضعه أمام الضابط الذي قرأه ثم رده لي غير مقتنع فيما يبدو . ثار جدل حولي بينما أنا أشعر بالغباء ولا أفهم كلمة أو أعرف ما كان يدور . وأخيراً التفت القاضي نحوي حزيناً وأفهمني أن عليَّ أن أذهب للمحكمة الشرعية وهي بمثابة المحكمة الإسلامية العليا التي تدرس كل حالات المسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثاً ويحاولون دخول مكة فدخول مكة محرم قطعيًّا على غير المسلمين .

سيضطر رفقائي إلى الذهاب لمكة بدوني وقد صدمهم ذلك من القلق عليَّ فيما يبدو فخرجت الكلمات من فمي « لا تنزعجوا فسأكون بخير والله يسدد خطاي » أخبروني أنهم سيدعون الله لي وبدأ المطوف يحثهم على التحرك بعيداً عن زحمة المطار المزدحم حتى يفي بمواعيده . لوحنا لبعضنا البعض وراقبتهم وهم يبتعدون .

كانت الساعة وقتها حوالي الثالثة من صباح الجمعة . لم أر في حياتي مثل تلك الحشود ومع ذلك لم أشعر بالوحدة والعجز في حياتي مثلما شعرت تلك المرة . كان اليوم جمعة كما قلت مما زاد من سوء موقفي حيث أن الجمعة عند المسلمين تعادل تقريباً يوم الأحد عند المسيحيين . يجتمع المسلمون في يوم الجمعة الذي يعني حرفياً « يوم التجمع » ولا تعقد محاكم في ذلك اليوم . عليَّ أن أنتظر حتى يوم السبت على الأقل .

أشار أحد المسئولين إلى أحد مساعدي المطوف الصغار ثم أوضح بلغة إنجليزية مكسرة أنهم سيأخذوني إلى مكان في المطار وسيحتفظون بجواز سفري عندهم . أردت أن أعترض لأن أهم القواعد في السفر هي ألا يفترق المسافر عن جواز سفره لكنني لم أعترض . مشيت وأنا ملتف بمناشفي ونعلي في قدمي خلف المطوف بغطاء رأسه الأبيض وجلبابه الأبيض الطويل وخفيه ولابد أن منظرنا كان غريباً . الناس

من حولي يتكلمون بجميع اللغات وأنا لا أفهم أي منها .

خارج المطار مباشرة يوجد جامع ومبنى ضخم من أربعة طوابق يشبه داخليات الطلبة. كان الوقت قبل الفجر والجو شبه مظلم والطائرات تهبط وتقوم بانتظام وأنوارها الكاشفة تغمر الممرات وأنوار الأجنحة والذيل تومض . جماعات حجيج من غانا ، من أندونيسيا واليابان ، من روسيا ... إلخ تتحرك داخلة وخارجة من المبنى الضخم الذي أنا في الطريق إليه . وصلنا المبنى ودخلنا وبدأنا في الصعود للطابق الرابع مارين بأناس من كل جنس ولون على الأرض . صينيون ، أندونيسون ، أفغان . بعضهم لم يخلع زيه القومي بعد ليرتدي ملابس الإحرام – كان المنظر مثل صفحات من المجلة الجغرافية الوطنية .

أشار دليلي عندما وصلنا الطابق الرابع نحو غرفة بها نحو الخمسة عشرة شخصاً يرقد كثيرون منهم وأجسادهم مطوية من فوق حصائرهم نائمين . كان واضحاً لي أن بعضهن نساء إذ كن محجبات من الرأس إلى القدم وهناك مسلم روسي وزوجته يقظين حملقا فيّ . كذلك رفع مسلمان مصريان وآخر فارسي رؤوسهم وحملقوا فينا بينما الدليل يقودني إلى ركن . أومأ لي الدليل مشيراً إلى أنه سيريني الوضع الصحيح للصلاة وكيفية تأديتها . تخيل ، مسلم منستر وقيادي في جماعة الإنْجا محمد الإسلامية لا يعرف كيفية تأدية الصلاة !

حاولت تقليده ولكني كنت أحس بعجزي عن تأديتها بطريقة صحيحة وأشعر بعيون الآخرين تتابعني . ليس بإمكان الرسغين الغربيين أن يؤديا ما أدته رسغا المسلمين طوال حياتهم . الآسيويون يجلسون القرفصاء لكن الغربيين يجلسون معتدلي القامة في المقاعد . حاولت أن أنحني ثم أركع ثم أطوي رجلي وأجلس أثناء تأدية الصلاة ، لكن جسمي لم يطاوعني وانتصب واقفاً . بعد ساعة من ذلك غادر دليلي المكان وأومأ لي أنه سيعود بعد ساعة .

لم أفكر حتى في النوم وظللت أتمرن على قيام وقعود الصلاة بينما المسلمون الآخرون يراقبونني ولم أدع منظري الغريب في عيونهم يمنعني من التمرن وبعد مدة تعلمت حيلة يمكنني بها أن أنحني وأركع وأسجد وأقعد وبعد ثلاثة أيام من ذلك تورمت رسغاي .

عند الفجر بدأ المسلمون النائمون في الاستيقاظ وشعروا بوجودي بمجرد قيامهم من النوم وصار كل منا يعاين الآخر بينما يقضي الكل أموره . بدأت أعي الدور الذي تؤديه حصيرة الصلاة في حياة المسلمين . لكل فرد حصيرة صغيرة للصلاة وكل عائلة أو مجموعة عندها سجادة جماعية كبيرة . يصلي المسلمون على الحصيرة ثم ينشرون عليها فوطة أو غطاء فتتحول إلى غرفة طعام ثم بعد ذلك

يرفعـون منهـا الأوانـي والفوطـة أو الغطـاء ويجلسـون عليهـا وبـذلك تتحـول إلى غرفـة جلوس . ثم بعد ذلك يلقون بأجسادهم عليها متكرفسين فتصبح غرفة نـوم . في ذلك المكـان خطـرت لـي فجـأة المبـالغ الكـبيرة الـتي دفعهـا لنـا منـدوب تـاجر البضـائع المسروقة مقابل قطع السجاد الذي سـرقناه لـه في بوسطن . لقـد كانـت غاليـة الـثمن بسبب العناية الفائقة التي تنسج بها خيوطها في بلدان للسجادة فيها معنـى حضـاريًا متنوعاً . بعد ذلك وفي مكـة رأيت معنـى آخـر للسـجادة أو الحصـيرة . إذا حـدث نـزاع كـان يـؤتى بسـجادة ويجلـس عليهـا شـخص حكـيم محـترم لـيس طرفـاً في النـزاع ويجلس الطرفان المتنازعان من حوله وبذلك تتحول السجادة إلى محكمة .

أحد المسلمين المصريين في القاعة كـان يـراقبني بطـرف عينـه . ابتسـمت لـه فقـام من مكانه نحوي وحياني بكلمة « هالو.» كـان وقعهـا أكـبر مـن خطبـة فانشـرحت ورددت التحيـة « هـالو.» سـألته عن اسمه بترديد كلمة اسم (نيم) بالإنجليزيـة ورغـم أنه حـاول فهمـي لكنه لم يستطع ، حـاولنا تجـربة بعض الكلمات مع بعض ويبـدو أن قاموسـه لم يكـن يحتـوي علـى أكثـر مـن عشـرين كلمـة إنجليزيـة ممـا زاد في إحباطي . كنت مثلاً أشير إلى السـماء وأقول كلمة « سـكـاي » بالإنجليزيـة فكـان يبتسم . كنت أردد مرة أخـرى « سـكـاي » وأشـير إليـه أن يـردد خلفـي فيفعـل . « ايـروبلين (طائرة) ... رج (سجادة) ... فوت (قدم) ... صندل ... آيز (عيون) ... » وكلمات مـن ذلك النوع . فجأة حدث شـيء غريب سررت به لأنني تمكنت من التفـاهم مـع شـخص آخـر . كنـت أردد أي كلمـة تقفـز إلى ذهـني وفجـأة قلـت « محمـد علـي كـلاي» وعندها أشرقت وجـوه كـل المستمعين بالابتسـام . أشار صديقي نحـوي متسـائلاً وهـو يقول : « أنت ؟ أأنت محمد علي ؟» هززت رأسـي نافيـاً : « لسـت محمـد علـي كـلاي ولكنـه صـديقي – صـديق ! » فهمـني بعضـهم نصـف فهـم والـبعض الآخـر لم يفهـم إطلاقاً وذلك هو السبب في انتشار القصة في المبنى أنني أنا محمـد علـي كـلاي بطـل الملاكمة . بعد ذلك بفترة علمت أن كل رجل وامرأة وطفل في العـالم الإسـلامي سمع عن هزيمة ليستون (الذي ينظر إليه في البلدان المسلمة وكأنه غول مـن أكلـة لحـوم البشر) على طريقة داود وغوليات من كاسياس كلاي الـذي أعلـن للعـالم بعـد ذلك أن اسمه محمد علي ودينه الإسلام وأن الله حباه بالنصر .

حدوث تفاهم كـان أحسـن شـيء يمكـن أن يحـدث لـي في تلـك القاعـة ومعـرفتهم بأني مسلم من أمريكا جعلتهم لا يكتفون بمراقبتي بـل يحـاولون مسـاعدتي ثـم بـدأ الآخرون في الابتسام لي والاقتراب مني وهم ينظرون إليَّ من فوق لتحت ويتفحصونني وكأنما أنا من المريخ لكن الود كـان ظاهـراً في سلوكهم .

بعـد ذلـك عـاد مسـاعد المطـوف وأومـأ لـي أن أذهـب معـه وأشـار إلى الجـامع مـن

الطابق الذي نحن فيه ففهمت أنه أتى ليأخذني لصلاة الصبح التي تحين قبل شروق الشمس دائماً . تبعته ومررنا في الطريق بآلاف الحجاج يتمتمون بكل لغة ما عدا الإنجليزية . غضبت من نفسي لأنني لم أحاول أن أجد الوقت لأتعلم طقوس الصلاة قبل مغادرة أمريكا . أما ونحن في جماعة الإيْجا محمد فلم نكن نصلي باللغة العربية وقد حدث عندما كنت في السجن قبل اثنتي عشرة سنة أن زارني مسلم أصيل من جماعة بوسطن ثم أرسل لي كتاباً للصلاة باللغة العربية . في ذلك الوقت تعلمت الصلوات من الناحية اللفظية فقط ولكني لم استخدمه منذ ذلك الوقت .

حزمت أمري أنني سأدع الدليل يقوم بكل شيء أولاً ثم أحاكيه ولم يكن ذلك صعباً لأن دليلي أراد أن يفعل ذلك على أية حال . خارج الجامع مباشرة كان يوجد صف من صنابير المياه أمام حوض فالوضوء يجب أن يسبق الصلاة وأنا أدرك ذلك . حتى بعد مراقبة مساعد المطوف لم أتمكن من إتقان طريقة الوضوء لأن هنالك طريقة معينة يتوضأ بها المسلم الأصيل والطريقة وتسلسلها مهمان جداً في هذا الأمر .

تبعته داخل المسجد وأنا على بعد خطوة من خلفه أراقبه ، وقف في خشوع ورأسه متجه نحو الأرض ففعلت مثله . « بسم الله الرحمن الرحيم » تبدأ بذلك كل صلوات المسلمين ، بعدها بدأت أردد من خلفه ولا أدري إن كنت على خطأ أو صواب فيما أردده . لست أرمي إلى أن يبدو الأمر وكأنني أهزل لأن الموضوع كان أبعد ما يكون عن ذلك وإذا ما راقبني أي شخص فلن يستطيع أن يحرز أنني كنت أقول شيئاً مختلفاً عما يقوله الآخرون .

بعد صلاة الصبح أخذني الدليل إلى مكان في الطابق الرابع وبلغة الإشارة أفهمني أنه سيعود بعد ثلاث ساعات ثم ذهب .

من طابقنا يمكن مشاهدة جميع أرجاء المطار فوقفت أتفرج من خلال الحاجز والطائرات تهبط وتحلق بانضباط وألوف مؤلفة من الناس في ملابس زاهية وألوان مختلفة تملأ المكان حركة . رأيت جماعات تتجه إلى مكة في حافلات وشاحنات وفي عربات كما أنني رأيت البعض وقد بدأ مشوار الأربعين ميل مشياً بالأرجل وتمنيت لو بدأت السير مشياً فذلك شيء أستطيع القيام به دون مرشد .

كنت قلقاً من مجرد التفكير فيما ستحمله لي الأيام التالية . هل سيرفض طلبي كحاج إلى مكة وممَ سيتكون الاختبار ومتى سأواجه المحكمة ؟

تقدم مني المسلم الإيراني في حجرتنا إلى حيث أقف عند السور . حياني متردداً ، « أمر ... أمريكي ؟ » وأومأ لي أنه يريدني أن أتناول طعام الإفطار معه وزوجته على سجادتهما وكنت أدرك أن ذلك عرض كبير لأن المسلم لا يدعوك لتناول الطعام في حضرة زوجته بسهولة . لم أشأ أن أفرض نفسي عليهم ولا أدري أذا فهم ما أردت أن أقول

حينما هززت رأسي وابتسمت قاصداً أن أقول « لا ، شكراً» ولكنه على أية حال ذهب وأحضر لي شاياً وبعض الكعك ولم أكن قد فكرت في الأكل قبل ذلك .

الآخرون كانوا يشيرون لي من بعيد ثم يتقدمون نحوي ويومئون ويبتسمون . أما صديقي الذي كان يتحدث قليلاً من الإنجليزية فقد اختفى . وبدون أن أعلم كان ينتشر خبر وجود أمريكي مسلم في الطابق الرابع . بدأت الحركة تزداد والناس تمر بجناحنا . مسلمون في ملابس الإحرام أو في ملابسهم القومية يتمشون بالقرب منا ويبتسمون واستمر ذلك طيلة وجودي في ذلك المكان . وحتى ذلك الوقت لم أدرك أن وجودي هو السر في ذلك .

طوال حياتي كنت شخصاً نشطاً لا يهدأ وعندما لم يعد مساعد المطوف بعد ثلاث ساعات حسب وعده بدأت أشعر بالجوع وقد كنت رفضت ما قدمه لي كل مسلم في جناحنا من طعام . المشكلة كانت ، وأعترف بذلك ، هي أنني لم أكن متأكداً أنني سأستسيغ طعامهم وطريقة أكلهم حيث يوضع كل شيء في طبق كبير في منتصف السجادة ويهجم عليه كل أفراد المجموعة بأياديهم .

ظللت واقفاً عند السور الحديدي أراقب الساحة تحت ثم قررت أن أنزل وأستكشفها بنفسي . نزلت إلى الطابق الأرضي وقررت إلا أذهب بعيداً فقد يأتي شخص يبحث عني ولا يجدني فرجعت عائداً إلى جناحنا وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة نزلت ثانياً وابتعدت قليلاً هذه المرة شاقاً طريقي ثم رأيت مطعماً صغيراً فتوجهت إليه رأساً ووجدته مزدحماً يضج باللغات المختلفة . باستعمال الإشارات تمكنت من شراء فرخة كاملة مشوية وما يشبه شرائح البطاطا المقلية . عدت إلى الساحة وجلست ومزقت تلك الفرخة بيدي وكل ممن حولي يفعل نفس الشيء . رأيت رجالاً عمرهم فوق السبعين يطوون أرجلهم من تحتهم حتى غدوا كتلة بشرية يأكلون بشهية ورضا وكأنهم في مطعم فاخر يحيط بهم النادلون من كل اتجاه . الكل يأكل كواحد وينام كواحد وكل ما في جو الحج يوحي بوحدة الإنسان تحت إله واحد .

قمت بعدة رحلات استكشافية من جناحنا فوق إلى الساحة تحت وفي كل مرة أغامر أكثر بالسير لمسافة أطول . في إحدى المرات هززت رأسي مشيراً إلى رجلين سوداوين يقفان قرب بعض وكدت أصرخ من الفرح حينما رد على أحدهم بالإنجليزية وبلكنة بريطانية . وقبل أن تحضر مجموعتهم متهيأة للسفر إلى مكة تمكنا من الحديث لبعض الوقت وعرفتهم بأني أمريكي فعرفوني بأنهم مسلمون . حزنت لاضطرارهم إلى الذهاب وقد عرفتهم لتوي . كانا من أثيوبيا ودرسا في القاهرة والآن يقيمان بالرياض ، العاصمة السياسية للمملكة العربية السعودية . في المستقبل عرفت أن أثيوبيا بلد يسكنها ثمانية عشر مليون نسمة عشرة مليون منهم

من المسلمين بينما يعتقد بعض الناس أن أثيوبيا بلد مسيحي . الغرب هو الذي دائما يضع المسيحيين في السلطة .

فرغت من صلاة المغرب واستلقيت على حصيرتي وأنا أشعر بالحزن والوحدة حينما شق الظلام فجأة نور خافت في جناحنا .

حقيقة كان النور من فكرة خطرت لي . في أحد جولاتي الاستكشافية في الساحة كنت لاحظت أربعة رجال يجلسون على طاولة بها هاتف فيما يبدو أنهم من المسئولين الرسميين . فكرت في الذهاب إليهم ومع الهاتف طرأت في ذهني فكرة الاتصال بالرقم الذي أعطانيه دكتور شواربي في نيويورك ، رقم هاتف عمر عزام ابن مؤلف الكتاب الذي يسكن هنا في جدة .

في دقائق نزلت إلى الساحة وجريت نحو مكان الرجال الأربعة وأريتهم الخطاب وكلي إثارة ومن حسن الحظ أن أحدهم كان يقرأ الإنجليزية . قرأ الخطاب ثم قرأه بصوت عال لأقرانه. «مسلم من أمريكا » شد ذلك انتباههم وفضولهم ويبدو أنهم ذهلوا . طلبت من الذي يتحدث اللغة الإنجليزية منهم أن يتكرم ويتصل بالدكتور عمر عزام في ذلك الرقم . قام بذلك بسرور وتكلم مع شخص ما باللغة العربية .

حضر دكتور عزام إلى المطار مباشرة وشد على يدي في ترحاب أمام دهشة الآخرين . كان رجلاً شاباً طويلاً ذا بنية قوية وطوله حوالي ستة أقدام . كان مهذباً جداً ولون بشرته يضعه في مصاف البيض في أمريكا وبالرغم من ذلك أذهلني في نفس اللحظة أن سلوكه لم يجعلني أفكر فيه كشخص أبيض . سألني « لِمَ لم تتصل من قبل ؟» ثم عرض بعض الأوراق الثبوتية على المسئولين الأربع واستخدم الهاتف أمامهم ليتحدث بالعربية مع بعض المسئولين في المطار بعد ذلك ناداني : « تعال ».

في أقل من نصف ساعة جعلهم يفرجون عني وأعيد لي جواز سفري وحقيبتي ثم ركبنا سيارة دكتور عزام متجهين إلى مدينة جدة وأنا في ملابس الإحرام . عجزت عن النطق أمام سلوك الرجل وبشعوري ألا فرق بيننا كبشر . ومع أني قد سمعت كثيراً عن كرم المسلمين لكنني لم أتخيل هذه الحرارة في الترحيب . سألته بعض الأسئلة عرفت منها أنه درس في سويسرا وأنه متخصص في تخطيط المدن وأنه مُعار للمملكة من الأمم المتحدة للإشراف على عمليات إعادة بناء الأماكن المقدسة في السعودية وأن أخته متزوجة من ابن الملك فيصل . ها أنا أركب العربة مع صهر ابن حاكم السعودية العربية ولم يكن ذلك كل فضل الله عليَّ « سيسر أبي بلقائك » قال ذلك دكتور عزام ، ابن الرجل الذي أرسل إلي نسخة من كتابه .

سألته عدة أسئلة عن أبيه عبد الرحمن عزام . كان يعرف بعزام باشا أي لورد عزام إلى أن قامت الثورة المصرية وألغى الرئيس ناصر كل ألقاب الباشاوات والنبلاء .

أخبرني دكتور عزام « سيكون أبي بالمنزل عند وصولنا . أنه يقضي كثيراً من الوقت في نيويورك وهو يتابع أخبارك في الصحف بشغف شديد ».

عجزت عن النطق .

كان الوقت فجراً عندما وصلنا منزل دكتور عزام وهناك كان ينتظرنا أبوه وعم له كيميائي وصديق آخر وقد استيقظوا مبكرين من أجل ذلك فيما يبدو . عانقني كل منهم بحرارة وكأنني ابن مفقود منذ زمن وعاد . لم أر هؤلاء الرجال من قبل في حياتي ومع ذلك يعاملونني هذه المعاملة الحسنة ! سأقول لكم أنني لم أحظ بمثل هذا الشرف في حياتي ولم أتلق مثل ذلك التكريم الحقيقي أبداً من قبل .

أحضر الخادم الشاي والقهوة ثم اختفى . حثني الجميع على تلقي بعض الراحة كما أنني لاحظت عدم وجود امرأة بين الحاضرين وفي السعودية قد يظن المرء أن ليست بها نساء .

لم يخطر ببالي ما كان يقوم به ذلك الرجل بل لم أحلم بمثله . كيف لي أن أعرف حينما أخبروني أنهم سيعيدونني للعشاء وأنني يجب أن أعود للسيارة ، كيف لي أن أعرف أنني في الطريق لمشاهدة قمة الكرم الإسلامي ؟

عبد الرحمن عزام يقيم في جناح في فندق جدة بالاس عندما يكون في جدة وبما أنني جئته بخطاب من صديق له فقد قرر أن ينزل في منزل ابنه ويترك جناحه لاستعمالي إلى أن أترك مكة . وعندما علمت بذلك لم تكن هنالك جدوى من الرفض لأنني وجدت نفسي في ذلك الجناح والكل قد ذهب بما فيهم دكتور عزام . كان جناحاً من ثلاث غرف وغرفة حمام بحجم غرفة كبيرة من غرف هيلتون نيويورك . رقم الجناح كان ٢١٤ وله شرفة تشرف على وتعطي منظراً جميلاً لمدينة جدة القديمة .

شعرت بعاطفة جياشة لم أشعر بمثلها من قبل تدفعني نحو الصلاة شكراً لله فصليت لله خاشعاً في سجاد غرفة الجلوس .

حياتي السابقة في الشوارع وحياتي كمسلم خالية من أية نزعة مثالية . وإذا ما أسدى إليّ شخص معروفا ليس مضطراً لفعله ، كنت دائماً أدرس الأسباب والدوافع وراء ذلك وإذا كان الشخص أبيض كنت أرى دوافعه الأنانية من وراء فعله .

ولكنني وأنا في الفندق في ذلك الصباح وبعد أن حملتني محادثة تلفونية فقط من حصيرة في المبنى الضخم إلى مثل تلك الحال ، وجدت نفسي في رهبة فقدت معها المقاومة . هذا الرجل الأبيض – فهو أبيض بمقاييس أمريكا ، على صلة بحاكم السعودية العربية ومن مستشاريه المقربين – شخصية عالمية ومن غير أن يستفيد شيئاً تنازل عن جناحه في الفندق من أجل راحتي العابرة عن طيب خاطر . أنه لن يكسب

أو يستفيد شيئاً من ذلك فهو ليس بحاجة لي ولديه كل ما يبغاه أي إنسان . في حقيقة الأمر أنه سيخسر أكثر مما يكسب . لقد تابع أخباري في الصحف وإذا كان حقاً فعل فهو يعرف ما أوصم به . المفترض أن لي قروناً وأنني « عنصري » و«معاد للبيض » وهو أبيض من كل ما يبدو . يفترض أنني مجرم وليس ذلك فحسب بل أنني متهم أنني استغل ديانة الإسلام كغطاء لممارساتي وفلسفتي الإجرامية . وحتى إذا كان عنده دافع لاستغلالي فهو يعلم أنني انفصلت عن جماعة الايْجا محمد الإسلامية أو « قاعدة نفوذي » كما تقول الصحف في أمريكا . المنظمة الوحيدة التي أنتمي إليها عمرها أسابيع وليست لي وظيفة أرتزق منها . ولا أملك أية نقود . أنني حتى أستدنت من أختي لأتمكن من الحضور إلى هنا .

ذلك الصباح كان أول مرة أعيد فيها تقييمي « للرجل الأبيض » بدأت ألاحظ أن الاستعمال العام لكلمة « الرجل الأبيض» يعني البشرة ثانوياً ولكنها أساساً تعني سلوكاً وموقفاً . في أمريكا كلمة الرجل الأبيض تعني سلوكاً وموقفاً معيناً من الرجل الأسود ومن كل البشر من غير البيض . أما هنا في العالم الإسلامي فلقد رأيت أناساً ذوي بشرة بيضاء وشعور أخوي مخلص لم أر على الإطلاق أكثر منه إخلاصاً من قبل .

ذلك الصباح كان بداية تغيير جذري في نظرتي العامة نحو الرجل « الأبيض » سأقرأ عليكم أيضاً ما كتبته في حجرتي بعد الظهر في الفندق ذلك اليوم : «شعوري ، وأنا أجلس هنا منتظراً الظهور أمام لجنة الحج ، لا يوصف . نافذة غرفتي تطل غرباً نحو البحر . الشوارع تعج بالحجاج القادمين من كل بقاع الأرض . الصلوات لله وآيات من القرآن على كل لسان . لم أر مشهداً أجمل من ذلك بل لم أشاهد مثل ذلك المنظر ولم أشعر بمثل ذلك الجو قبل ذلك على الإطلاق . وبالرغم من قلقي فإنني أشعر بالأمن والطمأنينة وأنا على بعد آلاف الأميال من الحياة المختلفة تماماً التي أعرفها . تخيل ، قبل أربع وعشرين ساعة فقط كنت أستلقي على حصيرة في الطابق الرابع من ذلك المبنى ذي الأربعة طوابق يحيط بي أناس لا أستطيع التفاهم معهم ، وحيداً أشعر بالخوف والقلق نحو المستقبل وفجأة وبعد محادثة هاتفية واحدة طبقاً لتوجيهات دكتور شواربي ، قابلت رجلاً من أقوى الشخصيات نفوذاً في العالم الإسلامي وبعد قليل سأنام على سريره في فندق جدة بالاس . أدرك بأنني محاط بأصدقاء أكاد أحس بإخلاصهم وعمق تدينهم . عليَّ أن أصلي شكراً لله على هذه النعمة وأصلي مرة أخرى طالباً من الله أن يحفظ ويبارك في زوجي وبناتي هناك في أمريكا على تضحياتهم أيضاً ».

صليت مرتين كما قلت في مفكرتي ثم استلقيت نائماً لمدة أربع ساعات عندما رن جرس الهاتف وإذا به دكتور عزام الصغير . بعد ساعة سيأتي ليأخذني ولنعود إلى منزله لتناول طعام العشاء . تلعثمت وأنا أحاول أن أعبر عن بعض الامتنان لما فعله

من أجلي . قاطعني قائلاً : « ما شاء الله » قاصداً أن تلك إرادة الله .

اغتنمت الفرصة لأنزل بسرعة إلى ردهة الفندق حتى أراها مرة أخرى قبل وصول دكتور عزام . عندما فتحت باب غرفتي رأيت شخصاً يخرج من الغرفة المقابلة يرتدي زيًّا رسمياً ويبدو أنه يقيم هنالك ، رأيته وهو يخرج نازلاً يحيط به عدد من المرافقين . تبعتهم نازلاً ثم مررنا بردهة الفندق . في الخارج كانت قافلة صغيرة من العربات في انتظارهم وما أن ظهر في مقدمة الفندق إلا وجرى نحوه خلق كثيرون أحاطوا به يقبلون يده . علمت من يكون الرجل : المفتي الأكبر لبيت المقدس . بعد ذلك بفترة سنحت لي فرصة الحديث معه قرابة نصف الساعة . كان رجلاً مبجلاً وذا خلق عظيم ملماً بالشئون العالمية وآخر الأخبار في أمريكا .

لن أنسى ما حييت أمسية العشاء الذي تناولناه في منزل آل عزام وسأقرأ لكم من مفكرتي : « لا أستطيع ذهنياً أن أصف أولئك الرجال بأنهم (بيض) ولِمَ ؟ فقد كان سلوكهم وكأنهم أخوة لي ودكتور عزام الكبير مع حديثه الأبوي العالم . شعرت وكأنه أبي . كان واضحاً من مظهره وحديثه أنه دبلوماسي غاية في الحنكة وذو أفق واسع . كان ملماً بأحوال العالم وعارفاً بما يجري فيه كما يعرف الرجل ما يجري داخل غرفة جلوسه .

« كلما تحدثنا أكثر كلما بدا لي أن معينه من العلم وغزارة معرفته ليس لهما حدود . حدثني عن سلالة النبي محمد وأراني كيف أن بها سوداً وبيضاً كما أشار إلى أن اللون ، لون البشرة وتعقيداته ومشاكله غير موجودة في العالم الإسلامي وأنها توجد فقط في المناطق التي بها نفوذ غربي وبدرجة ذلك النفوذ وأنه إذا صادف الإنسان في بلد فروقاً مبنية على اللون ، فليس ذلك إلا انعكاساً مباشراً لدرجة النفوذ الغربي ».

علمت أثناء العشاء أن لجنة الحج أبلغت بموضوعي عندما كنت في الفندق وأنني سأظهر أمامها في صباح اليوم التالي وذلك ما حدث .

القاضي كان رجلاً يدعى الشيخ محمد حركون وقاعة المحكمة خالية إلا مني ومن أخت هندية ، بروتستانية سابقة قبلت الإسلام وكانت مثلي تحاول تأدية فريضة الحج . كانت سمراء ذات وجه رقيق أغلبه محجوب . القاضي حركون كان رجلاً عطوفاً ذا هيبة . سألني بعض الأسئلة ليعرف مدى إخلاصي فأجبته بإخلاص على قدر ما استطعت . لم يعترف بي كمسلم فحسب بل أعطاني كتابين أحدهما باللغة الإنجليزية والآخر بالعربية . سجل إسمي في سجل المسلمين الأصيلين ثم ناداني وأنا في طريقي للمغادرة وقال لي : « أتعشم أن تصبح داعية كبيراً للإسلام في أمريكا » أجبته بأنني أشاطره ذلك الرجاء وأنني سأبذل غاية جهدي لأحقق ذلك .

غمر السرور آل عزام عندما علموا بتأهيلي وقبولي للذهاب إلى مكة . تناولت طعام الغداء في فندق جدة بالاس ثم استلقيت على السرير ونمت لعدة ساعات إلى أن أيقظني جرس الهاتف .

كان المتحدث محمد بن عبد العزيز مجيد نائب مدير المراسيم للملك فيصل فأخبرني : « ستنتظرك عربة خاصة لنأخذك إلى مكة بعد العشاء مباشرة » ونصحني أن آكل بشهية لأن طقوس الحج تتطلب جهداً كبيراً .

فاق الأمر حد الدهشة حينها.

رافقني شابان عربيان إلى مكة وقد كانت رحلة سهلة لأن الطريق كانت معبدة ومضاءة وسريعة . في الطريق مررنا ببعض نقاط الحراسة ومن نظرة إلى عربتنا ومع إشارة من السائق لم يوقفنا أي حارس بل لم نضطر إلى الإبطاء في السير حتى . شعرت بالأهمية والنشوة وبالتواضع والامتنان وكل ذلك في لحظة واحدة . عند وصولنا إلى مكة بدت قديمة قدم الدهر نفسه . أبطأت عربتنا في شوارع متعرجة على جوانبها حوانيت والشوارع ملأى بالحافلات والعربات والشاحنات وعشرات الألوف من الحجاج من كل بقاع الأرض .

وقفت العربة لفترة وجيزة في مكان كان ينتظرني فيه مطوف يرتدي رداءً أبيض فضفاضاً طويلاً (جلباب) مع غطاء الرأس مثل ما رأيت في المطار . كان عربيًّا قصيراً داكن البشرة يدعى محمد ولم يكن يعرف كلمة من الإنجليزية . أوقفنا العربة بعد ذلك قريباً من المسجد الكبير ثم توضأنا ودخلنا فوجدنا المكان مزدحماً بالحجاج وكأنهم متراصون فوق بعض وفي كل مكان : قعود ، رقود ، نيام ، يصلون قياماً ، أو يتمشون .

تعجز الكلمات عن وصف المسجد الجديد الذي كان بُني حول الكعبة وقد فرحت لمعرفتي أن ذلك واحد من عدة مشاريع معمارية تتم تحت إشراف دكتور عزام الصغير ، مضيفي . سيفوق مبنى المسجد الكبير في مكة عند انتهائه جمال تاج محل المعماري .

تبعت المطوف حاملاً نعلي ثم رأيت الكعبة ، مبنى أسود حجري ضخم في منتصف الجامع الكبير . كان يطوف بها ألوف من الحجاج من كل جنس ولون وعنصر وحجم وطول . كنت أعرف الدعاء الذي عليَّ أن أقوله عند رؤية الكعبة لأول مرة وهو كما يلي مترجماً : « يا رب أنت السلام ومنك السلام فحيِّنا يا رب السلام » على المسلم عند دخول المسجد أن يحاول تقبيل الكعبة فإذا لم يستطع الاقتراب منها بسبب الازدحام ، يكفي أن يلمسها وإذا لم يتمكن من ذلك عليه أن يرفع يديه ملوحاً ومنادياً « تكبير» (الله أكبر). لم أتمكن من الاقتراب ولذا كان التكبير.

كان شعوري مخدراً وأنا في بيت الله . قادني المطوف وسط جماهير المصلين

والمنـادين وطفنـا حـول البيـت سـبع مـرات . كـان مـن بيـنهم مقوسـو الظهـر الـذين عـركتهم السـنين وحجـاج مقعـدون يحملـهم آخـرون . كـان منظـراً يحفـر نفسـه في الـذهن وكـل الوجـوه مشـرقة بالإيمـان . في المـرة السـابعة صـليت ركعـتين وخشـعت ملامساً الأرض برأسي . في الركعة الأولى قرأت « قل هو الله أحد . الله الصمد ... » وفي الركعة الثانية قرأت « قل يا أيها الكافرون .. لا أعبد ما تعبدون .... ».

في أثناء ركوعي كان المطوف يبعد الناس عني .

بعد ذلك شربنا أنا والمطوف من ماء بئر زمزم ثم هرولنا بين جبلين هما الصفا والمروة اللذين هرولت بينهما هاجر بحثاً عن الماء لابنها إسماعيل .

زرت المجسد الكبير ثلاث مرات وطفت حول الكعبة وفي صباح اليوم التالي تحركنا بعد الشروق قاصدين جبل عرفات . ألوف مؤلفة منا تنادي في صوت واحد : «لبيك! لبيك !» « والله أكبر » يحيط بمكة جبال وصخور خام وكأنما عملت من انفجار وهي خالية من أي نبات . وصلنا عند الظهر ثم صلينا ودعونا وناجينا من الظهر حتى الغروب وهنالك صلينا العصر والمغرب صلاة خاصة .

أخيراً رفعنا أيدينا بالدعاء والشكر لله : « لا إله إلا الله . لا شريك له . له الملك والحمد . الخير منه وهو على كل شيء قدير. »

انتهى الإحرام ورمينا الشيطان بالجمرات . البعض حلق رأسه وذقنه ولكني قررت أن أترك ذقني . تساءلت عما ستقوله بتي وبناتنا الصغيرات حينما يروني بلحية عندما أعود إلى نيويورك التي بدت وكأنها على بعد مليون ميل . لم أر صحيفة منذ غادرت نيويورك ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عما يحدث هنالك . اكتشفوا وجود ناد زنجي للسلاح في هارلم عمره إثنتي عشرة سنة ، اكتشفته الشرطة وبدأوا يشيعون أنني وراء تلك المجموعة كما أن جماعة الإيْجا محمد رفعت قضية ضدي مطالبة بإخلاء المنزل الذي أسكن فيه مع عائلتي في لونج آيلاند .

كذلك أرسلت كبرى وكالات الأخبار وشبكات التلفاز مندوبيها للبحث عني في القاهرة لسؤالي عن الضجة التي أتهمت بإثارتها بينما أنا لا أعلم عنها شيئاً . ما أعرفه لا يتعدى ما تركته في أمريكا وكيف أنه على نقيض مما وجدت في العالم الإسلامي . كنا نحن قرابة العشرين حاجًا نجلس في خيمة ضخمة على جبل عرفات وبصفتي مسلماً من أمريكا فقد كنت محط الانتباه . سألوني ما هو أكثر شيء أثار انتباهي في الحج ؟ كان أحدهم يترجم للآخرين وكانت إجابتي غير متوقعة ولكنها أكدت على ما أشعر به .

قلت : « التآخي . » أن يحضر الناس من كل بقاع العالم ليصبحوا مجموعة

واحدة . ذلك يؤكد لي قوة الإله الواحد . ربما لم يكن الوقت ملائماً ولكنني اغتنمت الفرصة لأعطيهم محاضرة سريعة عن العنصرية في أمريكا وشرورها .

كان واضحاً لي أثر قولي عليهم . كانوا على علم بأن وضع الرجل الأسود سيئ في أمريكا ولكنهم لم يكونوا يعلمون أنه بمثل ذلك السوء وأنه غير إنساني وخصي نفسي . صُدم أولئك المستمعون وبصفتهم مسلمين كان لديهم شعور بالتعاطف مع المظلومين وإيمان شديد بالعدل والمساواة . وفي كل ما قلته لهم طيلة الحديث كانوا يعون المقاييس التي أقيس بها الأشياء وأنه بالنسبة لي أكبر الشرور القابلة للانفجار هي العنصرية ، عدم مقدرة مخلوقات الله أن تعيش كأمة واحدة ، خاصة في العالم الغربي .

فكرت بعد ذلك بزمن في الخطاب الذي كتبته بعد ذلك وكيف أن أفكاره كانت تختمر في ذهني منذ زمن .

العمى عن الألوان في عالم المسلمين الديني والعمى عن الألوان في عالم المسلمين الاجتماعي ، كلا هذين كانا كل يوم يؤثران ويغيران من طريقة تفكيري السابقة.

أول خطاب كتبته كان بالطبع لزوجي بتي والتي لم يراودني أي شك في أنها بعد صدمة أولية ستنضم إليَّ وإلى طريقة تفكيري الجديدة وعندي ألف دليل أن ثقتها بي تامة . كنت متأكداً أنها سترى ما أرى وأنني في أرض محمد وإبراهيم هداني الله نوراً جديداً ورؤيا متفتحة نحو ديانة الإسلام وإلى تفهم أحسن لمشاكل أمريكا العنصرية . بعد ذلك الخطاب لزوجتي كتبت خطاباً مماثلاً لأختي إللا وأنا أعلم موقف إللا فقد كانت هي نفسها تدخر من مالها لتأدية فريضة الحج .

كتبت خطاباً لدكتور شواربي الذي مكنني تصديقه في إخلاصي من الحصول على تأشيرة للحج .

قضيت الليل وأنا أكتب خطابات مماثلة للآخرين القريبين مني وفيما بينهم أبن إلايجا محمد ، والاس محمد الذي عبر لي عن اقتناعه بأن خلاص أمة الإسلام (الأمريكية) لن يكون الا من خلال تفهم أحسن وتقبل أكثر للإسلام الأصيل .

كتبت أيضاً إلى مساعديني المخلصين في جماعتي الجديدة ، مؤسسة المسجد الإسلامي في هارلم مع ملحوظة ترجوهم أن يعيدوا كتابة خطابي ويوزعوه على الصحف . كنت أدرك أن كثيرين في أمريكا سيصابون بالذهول عند نشر خطابي ، أقارب وأصدقاء وأعداء . كذلك ستندهش ملايين أخرى لا أعرفها من الذين رأوا فيَّ طول الاثني عشر عاماً الماضية صورة داعية الحقد .

أنا نفسي ذهلت لهذا التغيير ولكن لي في حياتي أكثر من سابقة . حياتي ليست إلا سلسلة من التغيرات .

ها أنا أكتب ... من القلب :

لم أر في حياتي كرماً بمثل هذا الصدق وروحاً من الإخاء الحقيقي تغمر كل شيء مثل الذي تمارسه جميع الأجناس والألوان هنا في هذه الأرض المقدسة ،، دار إبراهيم ومحمد وكل الرسل وحملة الكتاب .

طوال الأسبوع الماضي كنت عاجزاً عن النطق ومفتوناً بالسماحة التي أراها في الناس من جميع الألوان حولي .

لقد حباني الله بزيارة مدينة مكة المكرمة وطفت دائرياً سبع مرات حول الكعبة يقودني مطوف صغير يدعى محمد . شربت من ماء بئر زمزم وهرولت سبع مرات بين جبلي الصفا والمروة . لقد صليت فوق مدينة منى القديمة وصليت في جبل عرفات .

كان هنالك عشرات الألوف من الحجاج من كل أنحاء العالم ، من كل الأجناس والألوان . من الشقر ذوي العيون الزرقاء إلى الأفريقيين السود . ولكننا كنا جميعاً نمارس نفس العبادات تربطنا روح من الوحدة والإخاء كنت أظن من تجربتي في أمريكا ألا وجود لها بين البيض والسود إطلاقاً .

أمريكا في حاجة لأن تعرف الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي أزال المشكلة العنصرية من المجتمع . في كل رحلاتي في العالم الإسلامي قابلت وحادثت بل تناولت الطعام مع أناس يعتبرون في مصاف البيض في أمريكا – ولكن هنا أزيح حاجز اللون من عقولهم بفضل الإسلام . لم أر في حياتي تآخ صادق وحقيقي مثل الذي رأيت المسلمين يعيشونه معاً من غير اعتبار لألوانهم .

قد تصدمكم هذه الكلمات وهي آتية مني لكن ما شاهدته في الحج وما لمسته وعايشته أجبرني أن أعيد ترتيب أفكاري وأن أتخلص من بعض قناعاتي السابقة . لم يكن ذلك صعباً عليّ فبالرغم من معتقداتي السابقة كنت دائماً شخصاً يواجه ويقبل حقائق الحياة كما تظهرها لي التجارب . لقد كان عقلي دائماً متفتحاً وذلك شيء ضروري للمرونة التي يجب أن تصحب ، يداً بيد ، أي نوع من أشكال البحث عن الحقيقة .

في الأحد عشرة يوماً الماضية وهنا في العالم الإسلامي ، أكلت من طبق واحد وشربت من نفس الكوب واضطجعت على نفس السرير (أي نفس الحصيرة) وكلنا نصلي لله – مع عدد من المسلمين لبعضهم عيون أكثرهن زرقة وشعر أكثر اشقراراً وبشرة أكثر بياضاً مما رأيت . وفي قول وأفعال وسلوك هؤلاء المسلمين البيض شعرت بنفس العاطفة التي وجدتها عند مسلمين أفريقيين سود من نيجيريا وغانا والسودان .

كنا شخصاً واحداً (أخوة) لأن إيماننا أزال البياض من عقولهم ومن سلوكهم ومن نظرتهم .

أخلص من ذلك إلى أنه ربما إذا قبلت أمريكا البيضاء وحدة الخالق فلربما قبلت أيضاً وحدة الإنسان حقيقة . ولأنتهوا عن النظر إلى كل شيء وقياس كل شيء وتعطيل وإيذاء الآخرين بسبب الفارق اللوني .

ومع العنصرية المنتشرة في أمريكا كوباء لا علاج له ، ربما كان على قلب أمريكا المسيحي الأبيض أن يجرب علاجاً أثبتت الأيام نجاعه ضد هذه المشكلة المدمرة ولربما تم إنقاذ أمريكا من الكارثة المحيقة بها .

نفس الكارثة التي جلبتها العنصرية على ألمانيا حتى حطمت الألمان أنفسهم .

كل ساعة هنا في الأراضي المقدسة تتيح لي نظرة أعمق فيما يحدث في أمريكا بين البيض والسود . لا يمكن لوم الزنجي الأمريكي لعدائه للبيض فهو إنما يستجيب لما حوله ، ردة فعل لأربعمائة سنة من العنصرية المتعمدة من جانب البيض ، ولكن وبينما تقود العنصرية أمريكا نحو الانتحار ، فإنني أؤمن من تجربتي معهم ومما شاهدته من الجيل الجديد في الجامعات والمعاهد العليا ، هذا الجيل سيرى الإنذار على الجدران وكثير منهم سيتجه وجهة روحية وذلك هو الطريق الوحيد الباقي أمام أمريكا لإنقاذ نفسها من براثن العنصرية ومن المصير المحتوم الذي تقود إليه .

لم يحدث أبداً أن مُنحت مثل ذلك الشرف والتكريم . لم يحدث إطلاقاً من قبل أن شعرت بضعفي وقلة حيلتي . ومن سيصدق التكريم الذي أهالوه على زنجي أمريكي ؟ قبل بضعة ليال فقط ، رجل يعد أبيض بمقاييس أمريكا وفي أمريكا ، دبلوماسي من الأمم المتحدة ، سفير وجليس للملوك ، ترك لي جناحه وسريره . وبواسطة هذا الرجل ، أُبلغ الملك فيصل ، صاحب الجلالة وحاكم المملكة بوجودي وفي صباح اليوم التالي رأساً أبلغني ابن الملك فيصل شخصياً أنني بمشيئة الله وبأمر من أبيه المفدى ، سأكون ضيفاً على المملكة .

« نائب مدير المراسيم أخذني بنفسه أمام المحكمة وسماحة الشيخ محمد حركون نفسه وافق على زيارتي لمكة وأعطاني كتابين عن الإسلام عليهما خاتمه وتوقيعه وأخبرني أنه يدعو الله أن أكون داعية ناجحاً للإسلام في أمريكا . سيارة مع سائق ودليل وضعا تحت تصرفي مما مكنني من التجوال في الأراضي المقدسة بحرية تكاد تكون تامة . الدولة تهيئ لي جناحاً مكيف الهواء وأناساً يقومون على خدمتي في كل مكان . لم يكن يدر بخلدي أبداً بل لم أحلم إطلاقاً بأنني سأتلقى مثل هذا التكريم والحفاوة – تكريم وحفاوة لا يلقاها إلا الملوك في أمريكا».

المخلص

الحاج مالك الشباز

« مالكوم إكس »

■ الباب الثامن عشر

الحاج

مالك الشباز

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



جعلني الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ضيفاً رسميا على الدولة . ومن الإكراميات والامتيازات التي تأتي مع ذلك أذكر بخجل إنني استمتعت بالسيارة ذات السائق التي تجولت بها في أنحاء مكة كسائح ودليلي سائق العربة . بعض أحياء مدينة مكة قديمة قدم الزمن وبعض أحيائها الأخرى تشبه الضواحي الحديثة في ميامي . لا أستطيع أن أصف لكم شعوري وأنا أعصر بيدي التراب الذي وطأته أقدام الأنبياء العظام منذ أربعة آلاف سنة .

وحيثما ذهبت كانت جملة «مسلم من أمريكا » تثير الفضول والاهتمام والمرة بعد المرة ظنوني كاسياس كلاي ونشرت إحدى الصحف المحلية صورتي مع كاسياس كلاي في الأمم المتحدة وسألوني بواسطة سائقي ومترجمي ودليلي ، عشرات الأسئلة عن كاسياس . حتى الأطفال كانوا يعرفون عنه ويحبونه هناك في العالم الإسلامي كما أن دور السينما في أرجاء آسيا وأفريقيا كانت تعرض مبارياته بناءً على طلب الجماهير . في ذلك الوقت كان كاسياس قد سلب لب الشعوب الملونة في العالم وحاز على إعجابها .

أخذتني العربة للمشاركة في صلوات خاصة في جبل عرفات وفي منى . الطرق كانت مزدحمة والحركة كابوس ، الأبواق تصفر وأصوات الكابح تئن والعربات تتهادى نحو الرصيف (كل الناس هنا تقود سياراتها باسم الله). بدأت في تعلم الصلاة باللغة العربية وكل

مشاكلي الآن هي في الحركات الجسدية كما بدأ أصبع قدمي الكبير يتورم من طريقة القعود. ما عدا ذلك لم تعد عادات المسلمين غريبة أو صعبة عليَّ وبسهولة تعودت على الأكل جماعة وتلقف الأكل بيدي من طبق أقتسمه مع الأخوة المسلمين . صرت أشرب من نفس الكوب مع الآخرين بدون تردد وأغتسل من نفس الإبريق الذي يستعمله الآخرون وأنام على حصيرة في العراء مع سبعة أو ثمانية آخرين . أذكر ليلة قضيناها في مزدلفة مستلقين في العراء نتلحف السماء وقضيت الليل ساهراً بين أخوتي المسلمين النيام وفي تلك الليلة تعلمت أن الحجاج من كل لون وطبقة ووظيفة ، كبارهم وصغارهم – كلهم يشخرون بنفس اللغة .

سأراهن أن مليون قنينة ماء استهلكت في بعض أجزاء الأراضي المقدسة وعشرة مليون لفافة تبغ دخنت . العرب خاصة بين المسلمين كانوا يدخنون بشراهة حتى في الحج . ظني لو كان التدخين معروفاً في زمن النبي محمد لمنعه .

الحج ذلك العام كان أكبر حج في التاريخ كما عرفت بعد ذلك . أخبرني قاسم جوليك ، عضو البرلمان التركي ، بفخر أن أكثر من ستمائة حافلة أو خمسين ألف حاج حضروا من تركيا وحدها . قلت له :إنني أحلم باليوم الذي تأتي فيه سفن محملة وطائرات ملأى بالحجاج القادمين من أمريكا .

كان هنالك نسق لوني ما إن لاحظته حتى بدأت مراقبته بدقة بعد ذلك ولأني من أمريكا لدى حساسية نحو هذا الموضوع . رأيت الناس الذين يشبهون بعضهم البعض يميلون للبقاء مع بعضهم وكل ذلك عن طواعية فليس هنالك من سبب آخر . الأفريقيون كانوا مع الأفريقيين . والباكستانيون مع الباكستانيين وهلم جرا . أودعت تلك المعلومة ذاكرتي لأقولها للأمريكيين عند عودتي : أنه عندما يوجد التآخي الصادق بين كل الألوان ، وتنعدم الحواجز وعقد العظمة أو « الحقارة » – عندما يتم ذلك فإن الناس من الجنس الواحد تشعر بانجذاب نحو بعضها ويشدها شيء مشترك نحو بعضها البعض .

عزمت في نفسي أنه عندما يحين موعد حجتي التالية سأكون قد تعلمت بعض اللغة العربية حتى أتمكن من تسيير أموري . ومع حالتي تلك من الجهل والعجز ، أعد نفسي محظوظاً إذ وجدت أصدقاء صبورين مكنوني من الكلام والترجمة بواسطتهم . وعندما لا يكون هنالك مترجم كنت أشعر بأني أصم أبكم كما لم أشعر من قبل في حياتي ، لم أكن حينها أفهم ما يقول المسلمون الآخرون لي أو عني أو حولي قبل أن يعرفوا أن « المسلم القادم من أمريكا » لا يعرف إلا بعض الكلمات العربية وما عدا ذلك فهو يومئ ويبتسم فقط .

خلف إيماءاتي وابتساماتي كنت أفكر بالطريقة الأمريكية . بدأت أقول

لنفسي أن الإسلام – يمكن أن ينتشر بسرعة وتتضاعف أعداد المسلمين أكثر من مرة لو أتيح للحج بمراسيمه وبهجته الروحية الحقيقية أن يذاع في أنحاء العالم الخارجي . شعرت بأن العرب لا يفهمون نفسيات كثير من الشعوب الأخرى ولا يعيرون اهتماماً للعلاقات العامة والإعلام . العرب يقولون « إن شاء الله» ثم ينتظرون المهتدين الجدد وحتى مع هذا كان الإسلام في اندفاع وتقدم ولكني كنت أرى أنه بتحسن أساليب العلاقات العامة سيصبح المنقلبون إلى طريق الله بالملايين .

دائماً وفي كل مكان ذهبت إليه كانوا يسألونني عن الوضع والتفرقة العنصرية في أمريكا . وحتى مع خلفيتي ذهلت للدرجة التي يربط بها الناس صورة أمريكا مع التفرقة العنصرية .

في مائة محادثة مع المسلمين في الأراضي المقدسة كبارهم وصغارهم ومن جميع أنحاء الأرض وحتى حينما ذهبت إلى أفريقيا بعد ذلك – لست بحاجة إلى أن أخبركم أنني لم تفوتني فرصة لأحدثهم عن الجرائم والشرور والإساءات التي يتعرض لها الرجل الأسود دون أن أنتهزها . تكلمت عن ذلك في جبل عرفات وفي ردهة الفندق في فندق جدة بالاس . كنت أشير إلى واحد إثر آخر وأقول لهم : « أنت .. . أنت نفسك ... وبسبب لونك الداكن سينادونك بالزنجي ... قد يضربونك أو يفجرون قنبلة فيك أو يقودونك كالنعاج أو يفتحون فيك خراطيم المياه لمجرد لون بشرتك ».

وكما سمعني أكثر المسلمين فقراً ، سمعتني بعض أهم شخصيات العالم الإسلامي . تحدثت كثيراً مع صاحب العينين الزرقاوين وأشقر الشعر الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر لبيت المقدس الذي قدمني إليه قاسم جوليك عضو البرلمان التركي وكلاهما علماء أجلاء وقراء مطلعون على أحوال أمريكا . سألني قاسم جوليك لماذا كان انشقاقي عن الإيجا محمد . أجبت بأنني أفضل ألا أسترسل في هذا الموضوع حفاظاً على وحدة الرجل الأسود. كلاهما فهم وتقبل ذلك .

تحدثت مع عمدة مكة ، الشيخ عبد الله عريف الذي كان انتقد بلدية مكة عندما كان صحفياً فعينه الملك فيصل عمدة لمدينة مكة ليرى إن كان بإمكانه أن يحسن من الأمور والجميع متفقون على أن شيخ عريف قام بعمله خير قيام . كذلك قام أحمد حورى الله وشريكه أسيد محمود من تلفزيون تونس بإخراج فيلم أسمياه «مسلم من أمريكا» وقد سبق وأن قام أحمد حورى الله عندما كان في أمريكا بعمل لقاء مع إلايجا محمد في شيكاجو. أتاح لي بقائي في فندق جدة بالاس أن ألتقي في ردهة الفندق وأتحدث مع عدد من الشخصيات المهمة من عدة بلدان كان لديهم فضول لمعرفة شيء ما عن « المسلمين الأمريكيين » قابلت أفارقة

زاروا أمريكا أو سمعوا شهادة أفريقيين زاروها عن معاملة الرجل الأسود . أذكر مرة وكنا مجموعة كبيرة عندما قام وزير من دولة أفريقية (عليم بمجريات الأمور في العالم أكثر من أي شخص قابلته) وحكى عن زياراته المتفرقة في أمريكا جنوبها وشمالها بدون ارتداء زيه القومي وعن عمد . مجرد تذكر الإساءات التي تعرض لها كرجل أسود أثارت من جديد غضباً وحنقاً في هذا المسئول المتعلم الموقر. لمعت عيناه وهو يتحدث بغضب ويداه تلوحان : « لماذا يرضى الرجل الأسود بهذا الظلم ؟ لماذا لا يتحرك الرجل الأسود ويناضل كإنسان ؟ » .

قابلني مسؤول سوداني كبير احتضنني وقال : « أنت نصير الرجل الأمريكي الأسود !» بكى مسئول هندي في تعاطف وقال : من أجل « أخوتي في بلادكم .» فكرت مرات كثيرة وكثيرة في نفسي عن كيف أن الزنجي الأمريكي قد غسل مخه تماماً حتى لا يفكر أو يرى نفسه كجزء من الشعوب غير البيضاء . ليست لدى الزنجي الأمريكي أدنى فكرة عن اهتمام كثير من غير البيض في العالم بمصيره وعن شعور التضامن والإخاء الذي يكنون له .

هنالك في الأراضي المقدسة وبعد ذلك في أفريقيا وصلت إلى قناعة تامة ما زلت احتفظ بها وهى أن أهم مقتضيات الزعامة لأي زنجي أمريكي قيادي هي أن يقوم بجولات طويلة في البلاد غير البيضاء في هذا العالم وأن يشتمل ذلك التجوال حضور كثير من اللقاءات مع قادة هذه الدول . أؤكد لك أن أي زعيم زنجي يقوم بذلك بعقل مفتوح وقلب مخلص سيعود ولديه أفكار وبدائل أكثر فاعلية لحل مشكلة الرجل الأسود في أمريكا . فوق كل شيء سيقابل ذلك الزعيم الزنجي كثيرين من قادة العالم غير البيض خاصة الأفريقيين الذين سيقولون له على انفراد :إنهم على استعداد لأن يلقوا بثقلهم خلف قضية الزنجي الأمريكي إذا رفعت إلى الأمم المتحدة . لكن نفس هؤلاء القادة يشعرون أن الزنجي الأمريكي مشوش الفكر ومنقسم على نفسه بدرجة لا يعرف معها هو نفسه ما هي قضيته . مرة أخرى أكد لي هؤلاء الزعماء أنهم لا يودون أن يُحرجوا باحتضان قضية أخ لم يشعرهم بأنه في حاجة لهم بل يبدو أنه يرفض التعاون معهم لمصلحته .

أكثر مشاكل قادة الزنوج حرجاً هي فقدانهم للخيال الواسع . أفكارهم وإستراتيجياتهم ، إن كانت لهم أفكار وإستراتيجيات، دائماً محدودة من الناحية السياسية على الأقل ، بما يشير به أو يصدق عليه الرجل الأبيض وأول ما يأباه صناع السياسة البيض على الرجل الأسود هو عالمية التفكير وتدويل مشكلته . في رأيي أن أكبر خطأ ارتكبته منظمات السود وقادتها هو رفضهم إنشاء اتصالات مباشرة بين دول أفريقيا المستقلة وشعب أمريكا الأسود . لم لا يتلقى رؤساء الدول الأفريقية تقريراً

صباح كل يوم عن آخر تطورات نضال الرجل الأمريكي الأسود من الزعماء السود بدلاً من أن تصلهم نشرات وزارة الخارجية الأمريكية التي تزعم لهم أن مشكلة الرجل الأسود في طريقها إلى « الحل » !؟

هنالك اثنان من الكتاب الأمريكيين تباع كتبهم بكثرة في الأراضي المقدسة ساعدا على نشر الوعي والاهتمام بقضية الرجل الأسود . ذينك هما جيمس بولدوين الذي تُرجم له كتابان وكان لهما أثر بعيد ثم جون جريفين مؤلف كتاب **أسود مثلي** . إذا لم تكن قد سمعت عن هذا الكتاب فهو كتاب يحكي قصة رجل أبيض دهن جسده باللون الأسود ثم قضى شهرين يتجول في أمريكا كرجل أسود وكتب عن تلك التجربة بعد ذلك . سمعت الكثيرين في الأراضي المقدسة يصفونها بأنها « تجربة مخيفة» بعد قراءتهم للكتاب . لكنني لم أسمعهم يكتفون بذلك التعليق بل أنها فتحت عيونهم وتفكيرهم : « حسناً ، إذا كانت التجربة مخيفة لشخص لم يكن إلا أسود مؤقتاً لمدة ستين يوما فكيف إذن حال الزنوج الحقيقيين في أمريكا الذين قضوا أربعمائة عام كذلك ؟» .

أكبر تكريم تمنيت على الله وتحقق كان : دعوة من صاحب الجلالة الملك فيصل للقائه على انفراد .

وأنا أدخل الغرفة قام الملك فيصل من وراء مكتبه ، رجل وسيم طويل . لن أنسى ما حييت الفكرة التي خطرت لي في تلك اللحظة ، هنا رجل من أقوى وأعظم الرجال في العالم ولكني في اعتزازه رأيت التواضع والإخلاص . أشار لي إلى المقعد المقابل له بينما يترجم لنا نائب رئيس المراسيم محمد عبد العزيز مجيد ، مصري عربي يشبه زنجي من هارلم .

وأنا أتعثر وأتلعثم بالكلمات محاولاً شكره على الشرف العظيم الذي حباني به بأن جعلني ضيفاً على الدولة ، أومأ لي وبصبر وأناة أوضح لي أن ذلك ليس إلا ترحيب مسلم بأخ مسلم ولست بمسلم عادي بل مسلم من أمريكا . طلب إليَّ أن أفهم أنه فعل كلما فعل بسرور وليس من غرض ورائه .

قدم لنا الخدم نوعين من الشاي بينما الملك فيصل يتكلم . « ابنه محمد الفيصل» شاهدني في التلفاز عندما كان يدرس في جامعة شمال كاليفورنيا والملك فيصل نفسه قرأ مقالات كتبها كاتب مصري عن « المسلمين السود» في أمريكا . تفضل الملك بالقول : « إذا كان ما يقوله هذا الكاتب صحيحاً فإن إسلامهم ليس صحيحاً.» أوضحت له أن غرضي من الحج هو أن أفهم الإسلام وأعرفه أكثر . أجاب جلالته : « ذلك حسن» ثم أشار إلى وجود عدة ترجمات بالإنجليزية عن

الإسلام الحقيقي وليس هنالك من عذر للمخلصين أن يبقوا على ضلالة .

في آخر إبريل ١٩٦٤ غادرت بالطائرة إلى بيروت ، الميناء البحري وعاصمة لبنان . تركت جزءًامن نفسي في الأراضي المقدسة وبدوري أخذت منها شيئاً صار جزءًا مني للأبد . كنت في طريقي لزيارة نيجيريا وغانا إلا أن بعض الأصدقاء ألح عليَّ أن أتوقف عند بعض الأماكن في الطريق فوافقت . على سبيل المثال نظموا لي أن تكون وقفتي الأولى في الجامعة الأمريكية ببيروت لأخاطب الطلاب والأساتذة في الجامعة .

في فندق بالم بيتش في بيروت نعمت بأول ضجعة طويلة لي منذ أن غادرت أمريكا . بعد ذلك بدأت التمشي وأنا عائد لتوي من الأراضي المقدسة ، وكان أول شيء لفت انتباهي هو لبس وسلوك المرأة اللبنانية . في الأراضي المقدسة النساء أنثويات ومتواضعات . وفجأة هذا النقيض من المرأة اللبنانية نصف الفرنسية ونصف العربية والتي تعطي انطباعاً بالإقدام والحرية ، رأيت بوضوح الأثر الأوروبي على الحياة اللبنانية . أوضح لي ذلك أن قوة أي بلد أو ضعفها الأخلاقي يمكن قياسه بسرعة من أزياء وأسلوب النساء ، خاصة الشباب منهن . في أي مكان تنطمس قيمة الروحية ، إن لم تتحطم ، ينعكس ذلك في النساء . انظر إلى النساء في أمريكا ، كبارهن وصغارهن حيث لم تبق بالكاد أية قيم روحية . يبدو أن كل بلد يتطرف في هذا المنحى أو ذاك والجنة حقاً هي المكان الذي به توازن بين التقدم المادي والقيم الروحية .

تفوهت بالحقيقة في خطابي أمام طلاب جامعة بيروت الأمريكية عن وضع الرجل الأسود الأمريكي . وكما قلت سابقاً علمتني تجاربي أن أحس بعاطفة جمهور المستمعين حينما أتحدث . كنت أشعر أثناء حديثي بردة الفعل الدفاعية وغير الموضوعية من جانب الطلاب الأمريكيين البيض بين الحاضرين ، لكن روحهم العدائية خفتت تدريجياً وأنا أدفع أمامهم بالحقائق الناصعة . أما الطلاب الأفارقة فحدث ولا حرج ، لم أتمالك نفسي من فرط إظهارهم لعواطفهم .

بعد ذلك بمدة علمت باستغراب أن الصحف الأمريكية كتبت تقول أن خطابي في بيروت أحدث « شغباً » . أي الشغب هذا الذي يتحدثون عنه ؟ لا أدري كيف يبعث مراسل صحفي مخلص بهذا الكلام ؟ لا يذكرتقرير صحيفة ديلي ستار البيروتية الذي ظهر في الصفحة الأولى ، لا يذكر تقريرها أي شغب . لأنه لم يكن هنالك أي شغب . حينما انتهيت من الحديث أحاط بي الطلبة الأفريقيون وحاصروني طالبين أن أوقع باسمي على كتبهم وبعضهم عانقني حتى . لم يحدث أن تقبلني جمهور مستمعين زنوج في أمريكا ، مثلما تقبلني أولئك الأفارقة المتواضعون المرة بعد المرة .

من بيروت طرت إلى القاهرة ومن هناك ركبت القطار إلى الإسكندرية في مصر . كاميراتي كانت مشغولة في كل وقفة وأخيراً ركبت الطائرة إلى نيجيريا .

خلال ستة الساعات التي قضيتها في الرحلة كنت إما في حديث مع القبطان (الذي كان بطلاً أولمبياً عام ١٩٦٠) أو مع سياسي أفريقي ملتهب الحديث . كان يصرخ حماساً : «عندما يكون الناس في حالة جمود ثم يخرجون منها فليس هنالك وقت للتصويت والانتخاب.» كان محور حديثه أنه ليست هنالك دولة أفريقية حديثة الاستقلال تحاول أن تمسح آثار الاستعمار، في حاجة إلى نظام سياسي يسمح بالشتات والتفرقة. « الشعوب لا تعي معنى التصويت ومهمة قادتها المتنورين أن يرتفعوا بوعي الشعب ».

في لاجوس حياني في المطار بروفسير إسين – أودوم من جامعة عبادان . كلانا كان سعيداً بلقاء الآخر إذ كنا تقابلنا قبلا في نيويورك عندما كان يدرس ويعد كتابه عن القومية السوداء . في بيته في ذات المساء أقام عشاء على شرفي حضره نخبة من أساتذة الجامعات والمهنيين . في أثناء العشاء سألني طبيب شاب إن كنت سمعت أن صحف نيويورك مستاءة جدًا من حادث قتل امرأة بيضاء في هارلم وذكرت الصحف أن الكثيرين يلومونني بسبب ذلك ، على الأقل بطريقة غير مباشرة . هاجم عدد من الزنوج الشباب رجلاً أبيض عجوزاً يملك متجراً للملابس في هارلم وطعنوا زوجته إلى أن ماتت من جراء ذلك . بعض أولئك الزنوج عندما اعتقلتهم الشرطة وصفوا أنفسهم بأنهم أعضاء في منظمة تدعى « منظمة أخوان الدم » والزعم هو أن هؤلاء الشباب قالوا أو أوحوا للآخرين بأنهم كانوا من « المسلمين السود» وانفصلوا لينضموا إليَّ.

أخبرت الضيوف بأن تلك أول مرة أسمع بهذه الحادثة وبأنني لا أستغرب لبروز العنف فجأة في أي من جيتوات أمريكا السوداء حيث يعيش السود محشورين كالحيوانات ويعاملون كمن بهم جزام . قلت أن الاتهامات ضدي متوقعة ومصدرها تهرب الرجل الأبيض من مواجهة الحقيقة وبحثه عن مطية – وأنه كلما حدث شيء في المجتمع الأسود يستاء منه البيض، فإن اهتمامهم ينصب ليس على السبب الأساسي بل في البحث عن مهرب من ذلك .

أما عن « إخوان الدم » فإنني أعتبر كل الزنوج أخوة في الدم . ومحاولة الرجل الأبيض أن يجعل اسمي سمًا زعافاً يتحاشاه الناس ، نجحت في أن تجعل ملايين من الزنوج ينظرون إليَّ وكأنما أنا جولويس (أول بطل ملاكمة زنجي) .

تحدثت في قاعة ترنشارد في جامعة عبادان وأكدت للمستمعين أن على الدول

الأفريقية المستقلة أن تنظر في ضرورة رفع قضية الأفرو – أمريكي إلى الأمم المتحدة . ضربت لهم مثل يهود أمريكا الذين تجدهم في تعاضد سياسي واقتصادي وثقافي مع اليهود في كل العالم وقلت لهم أن على الأفرو– أمريكيين أن يتحذوا مع الدعوة الأفريقية العالمية . أضفت أننا نحن الأفرو – أمريكيون قد نبقى في أمريكا جسديًا نكافح من أجل حقوقنا الدستورية ولكننا فلسفياً وحضارياً في أشد الحاجة لأن « نعود» إلى أفريقيا وأن ننمي صلات وحدة عملية في قالب الأفريقية الجامعة .

سألني الشبان الأفارقة أسئلة سياسية لماحة أكثر مما يفعل رصفاؤهم بل الكبار في أمريكا . فجأة حدث شيء غريب عندما وقف رجل عجوز من جزر الهند الغربية وبدأ يهاجمني لهجومي على أمريكا . صرخ الطلاب في وجهه ، « اسكت ! اسكت !» وبدأوا يهوشون عليه ويقاطعونه . حاول العجوز الهندي الغربي تحديهم فقفز نحوه فجأة عدد من الطلبة فجرى أمامهم وبالكاد هرب منهم . لم أر في حياتي مثل ذلك المنظر . جروا من ورائه وهم يصرخون خلفه حتى اختفى من الحرم الجامعي (بعد مدة عرفت أن ذلك الرجل متزوج من امرأة بيضاء وأنه كان يجري وراء وظيفة في وكالة يسيطر عليها البيض فزرعته في وسط الحضور ليهاجمني . عندها عرفت السبب) .

لم تكن تلك آخر مرة أرى فيها إيمان الأفارقة السياسي الذي يصل درجة التعصب . بعد ذلك وفي مبنى اتحاد الطلاب غمروني بالأسئلة كذلك نصبتني «جمعية الطلاب المسلمين النيجيرية » عضو شرف بها وبطاقة العضوية مازالت في جيبي : « الحاج مالكوم اكس ، عضوية رقم م – ١٢٨.» مع العضوية أعطوني اسماً جديداً : « أوموال » وهي تعني بلغة قبيلة اليروبا « الابن الذي عاد » وكنت صادقاً حينما قلت لهم أنني لم أحظ بتشريف أكثر من ذلك من قبل .

هنالك ستمائة عضو من منظمة « جنود السلام» الأمريكية كما علمت وبعض البيض منهم الذين تكلمت معهم عبروا لي عن خجلهم من خطيئة قومهم في أمريكا ومن بين العشرين زنجيًا الأعضاء في المنظمة الذين تحادثت معهم أعجبني كثيراً واحداً منهم يدعى لاري جاكسون ، خريج من جامعة مورجان ستيت من فورت لودرديل بولاية فلوريدا انضم « لجنود السلام » عام ١٩٦٢ .

تكلمت من المذياع وظهرت على التلفاز في نيجيريا وشعرت بالنشوة تسري في عروقي وأنا أرى رجالاً سوداً يديرون وكالاتهم الإخبارية ومن بين الصحفيين الذين أجروا تحقيقاً معي هنالك زنجي أمريكي يعمل مراسلا لمجلة نيوزويك يدعى وليامز كان يتجول في أفريقيا عندما أجرى تحقيقاً صحفيًا مع كوامي نكروما قبل عهد

قريب.

في حديث على انفراد مع عدد من المسئولين النيجيريين أخبروني عن كيف تحاول وكالة الاستعلامات الأمريكية بمهارة أن تعطي الانطباع بأن الزنوج الأمريكيين يتقدمون بخطى ثابتة وأن القضية العنصرية في طريقها إلى الحل. إلا أن أحد كبار المسئولين أسرَّ لي: «أن معلومات زعمائنا وشواهد أخرى كثيرة تشير إلى غير ذلك.» قال:إن وراء الواجهة الدبلوماسية التي يبديها مسئولو الأمم المتحدة الأفريقيون علم تام بنفاق الرجل الأبيض وتآمره لمنع سكان العالم ذوي التراث الأفريقي من التلاحم، جسدياً وعقلياً، مع بعضهم البعض.

سألني أحدهم: «كم شخص أسود في بلدك يعرفون أن الأمريكيتين تحتويان على أكثر من ثمانين مليون نسمة من أصل أفريقي؟». .

«إن مجرى التاريخ سيتغير في اليوم الذي تتحد فيه الشعوب ذات الأصل والتراث الأفريقي!» .

لم أسمع بمثل هذا التفكير العالمي من أي رجل أسود في أمريكا.

من لاجوس في نيجيريا ركبت الطائرة إلى أكرا في غانا. ولا أعتقد أن هنالك دولة أفريقية تجد بها الثروات الأفريقية وجمال أهليها أكثر مما تجد في غانا وهي فخورة كونها منبع الدعوة الأفريقية.

خرجت من الطائرة لتقابلني مفاجأة غير لطيفة. تقدم مني رجل أمريكي أبيض محمر الوجه، تعرف عليَّ ووجد الجرأة ليمسك بيدي وليقول لي بلكنة جنوبية ثقيلة أنه من ولاية الباما ثم دعاني للعشاء في منزله!

غرفة الطعام في الفندق ملأى بأمثال ذلك الأبيض – يتحدثون عن كنوز أفريقيا المدفونة وكأنما ليس للنادلين الأفارقة آذان. كدت أُن أترك الأكل وأنا أفكر في أولئك البيض في أمريكا يطلقون الكلاب خلف السود ويرمون القنابل على كنائس السود بينما يسدون في وجوههم أبواب كنائسهم.والآن ها هنا هم، مرة أخرى في الأرض التي نهبها أجدادهم وخطفوا أهليها ورموهم في الأسر – هل هؤلاء نفس البيض ؟

في تلك اللحظة وأنا على مائدة الإفطار الغانية قررت في نفسي أنني طوال بقائي في أفريقيا وفي كل مرة أفتح فيها فاهي – سأجعل الأمور شاقة على هذا الرجل الأبيض الذي يبتسم وهو يحاول استغلال أفريقيا . في المرة الماضية جرى خلف ثروتها البشرية والآن يجري وراء ثروتها المعدنية .

كنت أدرك ألا تناقض بين قناعاتي تلك وبين الإيمان بالإخاء الذي تعلمته في

الأراضي المقدسة . المسلمون بيض البشرة الذين غيروا أفكاري كانوا رجالاً يمارسون ما يقولونه عن الإخاء الصادق وأنا أدرك أنه من الصعب العثور على أمريكي أبيض يكن إخاءً مخلصاً للرجل الأسود مهما ابتسم ذلك الأبيض .

الكاتب جوليان مايفيلد كان يبدو بمثابة قائد المجموعة الأفرو- أمريكية من المغتربين في غانا . عندما اتصلت به هاتفياً وجدت نفسي في غمضة عين وأنا جالس في منزله يحيط بي حوالي أربعين أمريكي أسود من المغتربين كانوا في انتظار وصولي . كانوا رجال أعمال ومهنيين مثل طبيب متحمس من بروكلين يدعى دكتور روبرت لي وزوجته وكلاهما أطباء أسنان تنازلا عن جنسيتهم الأمريكية . كان هنالك أيضاً اليس وندوم ، مايا أنجلو ماك ، فكتوريا جارفن وولزلي ليسي الذين كونوا لجنة أسموها « لجنة مالكوم إكس» لتنظيم جدول محاضراتي المزدحم والدعوات الاجتماعية المتلاحقة .

ما زلت أحتفظ في حقيبة يدي ببعض تعليقات الصحف الأفريقية التي ظهرت وأنا في طريقي إليهم .

« اسم مالكوم إكس معروف للغانيين معرفتهم للكلاب الجنوبية وخراطيم المياه والعصى ووجه العنصرية الأبيض القبيح .... » .

« قرار مالكوم اكس بدخول معترك النضال السياسي إشراقة أمل وسط المنظر القبيح لمقاومة اللاعنف السلبية المتعرضة للشراسة ... » .

« الحقيقة المهمة جداً هي أن مالكوم هو أول زعيم أفرو – أمريكي ذو مكانة قومية ، يقوم بزيارة مستقلة لأفريقيا منذ أن حضر دكتور دو بوا إلى غانا . ربما تكون هذه بداية صفحة جديدة في نضالنا فدعونا ألا ندعها تمر من غير أن نوليها اهتماماً أكثر على الأقل مما توليه لها وزارة الخارجية الأمريكية الآن بُدون شك . »

وتعليق آخر : « مالكوم إكس واحد من أهم زعمائنا اليوم وأكثرهم جسارة . أننا في معركة وحتماً ستبذل جهود للإساءة إليه والانتقاص من قدره .... » .

بصراحة لم أتوقع مثل هذا الاستقبال الحار وأنا على بعد خمسة آلاف ميل من أمريكا . محررو الصحف أصروا على سداد فاتورة الفندق ولن يقبلوا أي رفض مني لذلك . كان من بينهم ث. د. بافو رئيس تحرير **غانيان تايمز** ، ج. ت. أنيم المدير العام لوكالة أنباء غانا ، كوفي باتسا محرر سبارك والسكرتير العام لنقابة الصحفيين الأفارقة والمستر كاميرون دودو وآخرون . ليس عندي إلا الشكر لهم جميعاً . تناولنا العشاء الجميل الذي أعدته زوجة جوليان مايفيلد المليحة من بورتوريكو ، أنا ليفيا (كانت تدير برنامجاً صحيًّا في آكرا). وبعد العشاء غمرني المغتربون السود المتشوقون بأسئلتهم .

ليس أمامي إلا التمني لو أن كل أمريكي أسود سمع بأذنيه ورأى بعينيه ما سمعت ورأيت أو لو شاطرني الشعور وأنا أتحرك في غانا من موعد لآخر من الزيارات والدعوات والمقابلات التي نظمت لي . وأنا هنا لا أقصد الترحيب الذي لقيته كفرد سمعوا عنه ، ولكني أعني الترحيب الذي لقيته كرمز لنضال الرجل الأسود الجسور والذي شرفوني به باعتباري كذلك.

في مؤتمر صحفي مزدحم بنادي الصحفيين أول سؤال وجه لي كان عن سبب انفصالي من الإيجا محمد وجماعته الإسلامية وكانت وصلتهم إشاعات عن كيف أن إلايجا محمد أشترى قصراً في أريزونا. نفيت ذلك وتفاديت أي انتقاد له وقلت : إننا اختلفنا في أسلوب العمل السياسي والدخول في النضال من أجل الحقوق الإنسانية. قلت إنني أحترم جماعة الإسلام لأنها حركة ذات بُعد نفساني حيوي ومصدر للإصلاح الاجتماعي والخلقي وأن أثر إلايجا محمد على الرجل الأمريكي الأسود أثر أساسي.

أكدت للصحفيين الموجودين على ضرورة إنشاء قنوات اتصال وتعاضد بين الأفريقيين والأفرو -أمريكيين الذين تداخل نضالهم. أذكر أنني استعملت كلمة نيجرو (زنجي) فنبهوني بحزم: «هذه الكلمة غير محبوبة هنا ولكلمة أفرو- أمريكي معنى واحترام أكبر » اعتذرت بصدق ولا أظن أنني استعملت كلمة زنجي بعد ذلك طالما أنا في أفريقيا. قلت لهم إن الاثنين والعشرين مليون أفرو -أمريكي يمكن أن يكونوا مصدر قوة إيجابية لأفريقيا في الولايات المتحدة وبالمثل يمكن للدول الأفريقية بدورها أن تمارس ضغوطاً دبلوماسية ضد التفرقة العنصرية في أمريكا. أكدت لهم: «أن كل أفريقيا متحدة ضد سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وضد الاضطهاد العنصري في المستعمرات البرتغالية. لكنكم تضيعون وقتكم أن لم تدركوا أن فيروود وسالازار وبريطانيا وفرنسا لا يمكن أن يستمروا يوماً واحداً لولا الدعم الأمريكي. لذلك وإلى أن تفضحوا ساكن البيت الأبيض لن تحققوا شيئاً».

كنت أعلم أن ج.منين وليامز من وزارة الخارجية الأمريكية كان في زيارة رسمية إلى أفريقيا فقلت: «خذوا كلمتي وعليكم أن تتشككوا في مرامي كل هؤلاء المسئولين الأمريكيين الذين يأتون إلى أفريقيا وهم يبتسمون علماً بأنهم لا يبتسمون لنا في أمريكا» قلت لهم : إن أبي قُتل في ولاية ميشجان، نفس الولاية التي كان ج. منين وليامز حاكماً لها.

كُرِّمت في نادي غانا بوجود عدد أكبر من مندوبي الصحف والشخصيات المهمة . كذلك كنت ضيف الشرف في منزل ابنة الكاتب الأمريكي الأسود الراحل رتشارد رايت المليحة الرشيقة جوليا ذات الصوت الهادئ والتي كان زوجها الفرنسي ناشراً

لصحيفة غانية . بعد ذلك بمدة قابلت أرملة رتشارد رأيت في باريس ، إلين ، وابنته الصغرى ، راشيل .

تحدثت مع سفراء في سفارات بلادهم . ترك السفير الجزائري انطباعاً في ذهني كرجل مخلص ملتزم بالكفاح من أجل الثورة العالمية كأسلوب لحل مشاكل جماهير العالم المسحوقة ونظرته لم تكن محدودة بالجزائر بل تشمل الأفرو-أمريكيين والمسحوقين في جميع أنحاء العالم . سفير الصين - مستر هوانج ها ، رجل لماح ومحارب من الطراز الأول ، ركز على الجهود التي يبذلها الغرب للتفريق بين الأفارقة وبين ذوي التراث الأفريقي في الأنحاء الأخرى من العالم . سفير نيجيريا عبر عن قلقه العميق نحو مأزق الأفرو- أمريكيين في أمريكا والتي له بها معرفة شخصية إذ أنه عاش ودرس في واشنطن د. س. كذلك كان قد سبق لسفير مالي المتعاطف جداً ، أن عاش في نيويورك عندما كان يعمل بالأمم المتحدة . تناولت طعام الإفطار مع دكتور ماكونن من غيانا البريطانية وناقشنا الحاجة لنوع من الوحدة الأفريقية تضم الأفرو - أمريكيين كما تحدثت طويلاً عن مشاكل الأفرو- أمريكي مع نانا نكتسيا ، وزيرة الثقافة الغانية.

وبمجرد عودتي إلى الفندق وجدت بانتظاري محادثة هاتفية من مدينة نيويورك من مال جود الذي يعمل في شبكة الإذاعة الأمريكية . سألني مال جود على الهاتف عدة أسئلة عن « إخوان الدم» ونوادي السلاح الزنجية وعن مواضيع أخرى ربطتني بها الصحف الأمريكية فأجبته وشعرت به يسجلها على شريط .

في القاعة الكبرى في جامعة غانا خاطبت أكبر تجمع وأنا في أفريقيا وكان جله من الأفارقة مع بعض البيض من الحضور . أمام ذلك الجمع بذلت جهدي لأحطم الصورة الخاطئة عن العلاقات العنصرية التي كانت تنشرها وكالة استعلامات الولايات المتحدة . حاولت أن أعطيهم الصورة الحقيقية لمصيبة الإنسان الأفرو-أمريكي التي يعانيها على يد الرجل الأبيض كما أنني هاجمت البيض الحضور :

« لم أر أبداً من قبل بيضاً بمثل هذه الكثرة واللطف نحو الرجل الأسود مثلكم أيها البيض في أفريقيا . على الأفرو- أمريكي الذي يكافح من أجل الاندماج أن يحضر إلى أفريقيا ليراكم تبتسمون في وجوه الأفارقة . هل تستطيعون أن تخبروا الأفارقة أنكم في أمريكا تعبسون في وجوه السود ؟ لا ، لن تفعلوا وأنتم بصراحة لا تحبون هؤلاء الأفارقة وأكثر ما تحبونه هو المعادن التي تحت تراب أفريقيا ».

احمرت وجوه البيض بين المستمعين لأنهم يعلمون أنني أقول الحقيقة . قلت لهم : « لست ضد أمريكا ولم آت إلى هنا لأُدين أمريكا وأرجو أن يكون ذلك جليا . جئت لأفصح بالحقائق وإذا كانت الحقائق تدين أمريكا فأمريكا إذن مذنبة ».

في إحدى الأمسيات قابلت معظم المسئولين الغانيين الذين كنت تحدثت إليهم قبلا ، وذلك في حفل على شرفي في إقامة السيد كوفي باكو وزير الدفاع الغاني ورئيس الجمعية الوطنية. أخبروني أن تلك كانت أول مرة يحظى فيها أجنبي بمثل هذا الشرف منذ مجيء دكتور دوبوا إلى غانا. كانت هنالك موسيقى ورقص والطعام الغاني الشهي. بعض المدعوين في الحفلة كانوا يضحكون فيما بينهم ويروون قصصاً عن كيف أن السفير الأمريكي في حفلة سابقة في نفس اليوم، كان يجهد نفسه محاولاً التودد والتلاطف معهم وفي رأي بعضهم أن كل ذلك إنما كان محاولة من السفير لأن يقلل من أثر أحاديثي التي كنت أرددها على الناس في كل فرصة.

ثم وصلتني دعوة فاقت أحلامي . لم أكن أتخيل أبداً أنني فعلاً سأُدعى لمخاطبة أعضاء البرلمان الغاني . أوجزت الحديث أمامهم ولكني كنت واضحاً وصريحاً . قلت لهم : « كيف لكم أن تدينوا البرتغال وجنوب أفريقيا بينما الكلاب تتعقب والهراوات تضرب أهلنا السود في أمريكا ؟ » قلت لهم أن السبب الوحيد لسكوت الأفارقة السود - أخوتنا السود – هو المعلومات الخاطئة التي تنشرها الحكومة الأمريكية ووكالاتها .

عند نهاية حديثي سمعت كلمات التأييد ، « نعم ، أننا نؤيد الأفرو– أمريكيين معنوياً ومادياً وجسدياً إذ لزم الأمر ».

أعظم شرف نلته في غانا بل في كل أفريقيا السوداء هو لقائي في القلعة مع المرشد دكتور كوامي نكروما .

قبل الدخول إليه تم تفتيشي بإتقان الشيء الذي جعلني أحترم النظام الأمني الذي يقيمونه حول زعيمهم وزاد ذلك من احترامي لاستقلالية السود – ومن ثم دخلت المكتب الكبير فقام واقفاً وتقدم نحوي من وراء مكتبه في آخر الغرفة .

كان دكتور نكروما يرتدي زيًّا عاديًّا فمد لي يده والابتسامة تضيء وجهه . شددت على يده بشدة ثم جلسنا على الأريكة نتبادل الحديث . كنت أدرك أنه ملم بمشكلة الإنسان الأفرو – أمريكيين إذ أنه عاش ودرس بأمريكا لسنوات . ناقشنا وحدة الأفريقيين مع ذوي الأصل الأفريقي واتفقنا أن الأفريقية الجامعة هي المفتاح لمشاكل كل أصحاب التراث الأفريقي . لمست عن قرب صفاته المتواضعة وشخصيته الدافئة المحبوبة وانقضى وقت الزيارة بسرعة فوعدته بإخلاص أنني سأنقل تحياته العطرة إلى الأفرو– أمريكيين عندما أعود إلى الولايات المتحدة .

بعد الظهر وعلى بعد تسعة وثلاثين ميلاً في مدينة ونيبه خاطبت الدارسين في

معهد كوامي نكروما الفكري حيث يتدرب مائة دارس على مواصلة الثورة الغانية وهناك أيضاً رأيت مثلاً مذهلاً على حماس وحرارة الشباب الأفريقي السياسية . في فترة النقاش بعد حديثي وقف شاب أفرو_ أمريكي لا يبدو أن أحداً يعرفه ، وأعلن ، « أنا زنجي أمريكي» ثم حاول بخبث أن يدافع عن الرجل الأبيض فما كان من الطلبة الأفارقة إلا أن قاطعوه وصاحوا في وجهه وما أن انتهى النقاش إلا وأحاطوا به وأمطروه بالإساءات : « هل أنت أحد عملاء روكفلر ؟» « لا تفسد عقول أطفالنا !» (اتضح أن الزميل كان مدرساً وضعته إحدى الوكالات الأمريكية في المدرسة الثانوية بالبلد) « تعال إلى معهدنا وتلقى بعض التنوير !» تمكن أحد الأساتذة من إنقاذه مؤقتاً قبل أن يطرده الطلاب ويطاردوه إلى الخارج وهم يصرخون « أداة ! » .... « المخابرات الأمريكية » « عميل أمريكي ! » .

أقام السفير الصيني وزوجته مسز هوانج ها حفل عشاء على شرفي وكان من بين الضيوف السفير الكوبي وسفير الجزائر كما قابلت هنالك مسز و. أى . ب. دو بوا. بعد العشاء الممتاز عرضت ثلاثة أفلام . أحد تلك الأفلام عرض احتفالات جمهورية الصين الشعبية بعيدها الرابع عشر وظهرت في ذلك الفيلم بوضوح صور روبرت وليامز ، الأفرو– أمريكي من ولاية كارولينا الشمالية الذي لجأ إلى كوبا بعد ذلك إذ كان يدعو إلى أن يحمل السود السلاح لحماية أنفسهم والدفاع عنها . ركز الفيلم الثاني على تضامن الشعب الصيني مع نضال الأفرو – أمريكيين وظهرت لقطات للرئيس ماوتسي تونج وهو يلقي خطاباً بذلك كما عرضت صور أليمة توضح قسوة رجال الشرطة والمدنيين ضد الأفرو– أمريكيين في تظاهرات في مدن أمريكية مختلفة وهم يطالبون بحقوقهم المدنية أما الفيلم الثالث والأخير فقد كان عرضاً درامياً للثورة الجزائرية .

أسرعت بي « لجنة مالكوم إكس» من السفارة الصينية إلى حفل مسائي على شرفي في نادي الصحفيين فوجدناه قد بدأ . كانت تلك أول مرة أرى فيها الغانيين وهم يؤدون رقصة الهاي – لايف المشهورة والكل يستمتع بوقته فأصروا على أن ألقي خطبة قصيرة . أكدت مرة أخرى في حديثي على ضرورة الوحدة بين الأفارقة والأفرو– أمريكيين ثم هتفت من قلبي: « عليكم الآن بالرقص ولكن تذكروا وأنتم ترقصون ، تذكروا مانديلا ، تذكروا سبوكوي ، تذكروا لوممبا في قبره! تذكروا الذين في سجون جنوب أفريقيا ! » .

قلت لهم : « قد تتساءلون لماذا لا أرقص أنا ؟ ما ذلك إلا لأني أريدكم أن تتذكروا الاثنى والعشرين مليون أفرو– أمريكي في الولايات المتحدة ».

لكنني لا أكذبكم فقد شعرت بالرغبة في الرقص وأنا أرى الغانيين يؤدون

رقصة الهاي – لايف وكأنما تملكتهم ثم غنت فتاة أفريقية جميلة أغنية « القمر الأزرق» كما تؤديها سارة فون . كذلك ذكرني عزف الفرقة الموسيقية بأداء ملت جاكسون وأحياناً بدت الفرقة وكأن شارلي باركر يقودها .

في صباح اليوم التالي ، السبت ، سمعت أن كاسياس كلاي وجماعته قد وصلوا أكرا واستُقبل استقبالاً حافلاً في المطار . فكرت في أننا لو تقابلنا أنا وكاسياس فقد يسبب ذلك بعض الحرج لكاسياس لأنه اختار البقاء مع إلايجا محمد وإسلامه . من جانبي لم أكن لأحرج ولكنني قدرت أن كاسياس لابد قد منع من الارتباط بي بأية درجة إلا أنني كنت موقناً أن كاسياس يعلم أنني أيدته وآمنت بقدراته ووقفت بجانبه عندما كان من يحتضنونه الآن يرون ألا مستقبل أمامه . قررت أن أتفادى لقاءه حتى لا أسبب له حرجاً .

بعد الظهر أقام لي المندوب السامي النيجيري سعادة الحاج عيسى والي حفل غداء . كان رجلاً قصيراً يضع نظارات على عينيه ، ودوداً ولطيفاً جداً ، عاش سنتين في واشنطن د. س. بعد الغداء خاطب الضيوف وحدثهم عن تجاربه مع التفرقة العنصرية والصداقات التي كونها مع عديد من الأفرو– أمريكيين وأكد على الروابط بين الأفريقيين والأفرو– أمريكيين.

كان سعادته يحمل نسخة كبيرة أنيقة ومجلدة من أحد أعداد مجلة **هورايزون** (الأفق) الأمريكية فرفعها أمام الضيوف وهي مفتوحة على مقال فيها عن أمة الإسلام كتبه دكتور بيرجر من جامعة برنستون . أراهم صورة لي بحجم الصفحة في المجلة وعلى الصفحة المقابلة رسم بالألوان وبحجم الصفحة أيضاً لأمير نيجيري ، مسلم طويل ، قوي البنية ووسيم من الزمن الغابر .

« عندما أنظر لهذين الرسمين أدرك أنهما لشخص واحد . الفرق الوحيد هو فيما يرتدون وكون أحدهما ولد بأمريكا والثاني ولد بأفريقيا» قال سعادته ذلك ثم أضاف : « ولكي يعلم الجميع أننا أخوة فأنني أقدم ثوباً من النوع الذي يرتديه الأمير النيجيري كهدية للحاج مالكوم إكس.»

غمرتني روعة الثوب الأزرق والعمامة البرتقالية اللذين قدمهما لي سعادته . انحنيت حتى يستطيع وهو قصير القامة أن يخلعه علي . كذلك أهداني سعادته ترجمة للقرآن المجيد في مجلدين .

بعد ذلك الغداء الذي لا ينسى أخذتني مسز شيرلي جراهام دو بوا إلى منزلها لأرى والتقط بعض الصور التذكارية للمنزل الذي قضى فيه زوجها المشهور والمتوفى أيامه الأخيرة . مسز دو بوا امرأة كاتبة وتعمل مديرة للتلفزيون الغاني المخصص

للأغراض التعليمية . علمت منها أن دكتور نكروما عامل زوجها العالم والمحارب الأفرو – أمريكي معاملة الملوك وأعطاه كل ما يتمناه كذلك أخبرتني أن دكتور نكروما زار دكتور دور بوا عندما بدأت صحة الأخير تتدهور بسرعة وودع الرجلان بعضهما وكلاهما يشعر بدنو الأجل – ذهب دكتور نكروما والدموع في عينيه .

آخر نشاطاتي الاجتماعية كانت حفلة أقامها على شرفي سعادة مستر ارماندو جونزاليس سفير كوبا في غانا . في صباح اليوم التالي كانت « لجنة مالكوم إكس» تنتظر في بهو الفندق لتقودني إلى المطار وقابلنا خارج الفندق كاسياس كلاي ومرافقيه عائدين من جولة صباحية . للحظة بدأ التردد على كاسياس ثم تمتم ببعض الكلمات قائلاً : « كيف حالك ؟» قفزت إلى ذهني صورة ارتباطنا الشديد ببعض قبل المباراة التي غيرت مجرى حياته . أجبت أنني بخير أو شيء من ذلك القبيل وأنني أتمنى أن يكون هو على ما يرام وعنيت ذلك بصدق . بعد ذلك بمدة أرسلت له برقية قلت فيها أنني أرجو أن يعرف مدى حب المسلمين له في كل مكان وأن لا يدع أي شخص يجعله يقول أو يفعل أشياء تضر باسمه .

بينما أنا أودع « لجنة مالكوم إكس» في مطار أكرا وصل فجأة رتل من السيارات به خمسة سفراء حضروا لوداعي .

لم تعد الكلمات تجدي لتعبر عن شعوري .

وأنا في الطائرة في طريقي لقضاء يوم في في مونروفيا عاصمة ليبيريا ، أدركت أن التجربة الثانية التي لا تمحي من الذاكرة ، بعد زيارة الأراضي المقدسة ، إنما هي زيارتي لأفريقيا وصورتها وهي تفور وعياً جاداً بنفسها وبثروتها ونفوذها ودورها المحتوم في العالم.

من مونروفيا إلى داكار عاصمة السنغال وعندما سمع السنغاليون في المطار بالمسلم الأمريكي وقفوا صفا لمصافحتي وأمهرت باسمي على عدة كتب . قال لي سنغالي منهم : « أهلونا لا يتحدثون العربية ولكن الإسلام في القلوب هنا » قلت ذلك بالضبط هو شعور إخوانهم المسلمين الأفرو– أمريكيين .

من داكار طرت إلى المغرب حيث قضيت يوماً في التجوال والسياحة . زرت القصبة وهي الجيتو الذي نتج من حرمان الفرنسيين البيض للأهالي السمر من السكن في أحياء معينة من كازابلانكا . كانت ألوف مؤلفة من الأهالي المستضعفين محشورة في ذلك الجيتو بنفس الطريقة التي صارت بها هارلم في مدينة نيويورك قصبة أمريكا .

في يوم الثلاثاء ١٩ مايو ١٩٦٤ – عيد ميلادي التاسع والثلاثون – وصلت إلى مدينة الجزائر. من بعض النواحي لدي تجربة أكثر مما يتيسر لعشرة رجال. وصف

لي سائق التاكسي أثناء الطريق إلى فندق اليتي، الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون ضدهم والانتقام الذي قام به هو شخصيًا. تجولت في شوارع الجزائر وسمعت تعليقات العامة من كراهيتهم لأمريكا لدعمها من يضطهدون الجزائريين. كانوا ثوارا بحق لا يخشون الموت فقد واجهوه زمناً طويلاً .

أخذتني طائرة بان أميركان النفاثة إلى الوطن – سفرية رقم ١١٥ – وهبطت في مطار كندي الدولي بمدينة نيويورك في ٢١ مايو الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة بعد الظهر . نزلنا من الطائرة ووقفنا في صف أمام مكتب الجوازات عندما رأينا قرابة الخمسين أو الستين ما بين صحفي ومصور وتساءلت بأمانة في نفسي عمن تكون الشخصية المهمة من بيننا نحن الركاب التي ينتظرها أولئك .

لكني كنت « الشرير» الذي أتوا لمقابلته .

في هارلم خاصة وفي عدد من المدن الأمريكية الأخرى بدأ صيف ١٩٦٤ الطويل اللاهب بانفجاراته المتوقعة . وفي مقال أثر آخر بدأت صحف الرجل الأبيض تصورني كرمز – إن لم أكن السبب الفعلي في رأيهم – «لعنف» و «تمرد» الرجل الأمريكي الأسود حيثما انفجر.

في أكبر مؤتمر صحفي مرَّ بي في أي مكان كانت أنوار الكاميرات تومض والصحفيون يمطرونني بالأسئلة.

«مستر مالكوم إكس، ماذا عن (إخوان الدم) أولئك الذين يفترض ارتباطهم بمنظمتك ويفترض تدريبهم على العنف، والذين قتلوا بيضاً أبرياء؟» .... «مستر مالكوم إكس، ماذا عن تعليقك الذي قلت فيه أن على الزنوج أن ينشئوا أندية للسلاح؟...» .

أجبت على تلك الأسئلة وأنا أدرك أنني عدت إلى أمريكا لأسمع مرة أخرى الأسئلة غير الموضوعية الباحثة عن مهرب من الحقيقة. عندما يقتل شباب نيويورك البيض، فتلك مشكلة «اجتماعية» ولكن عندما يقتل شباب سود شخصاً ما، تبحث مراكز السلطة البيضاء عمن تشنقه. عندما يعلق السود من الأشجار أو يقتلون عمداً كانوا دائماً يقولون لنا :«إن الأمور ستتحسن.» وعندما يحتفظ البيض بالسلاح في بيوتهم يعطيهم الدستور الحق لحماية منازلهم ولكن عندما يبدأ السود في الحديث عن حفظ السلاح في منازلهم يصبح ذلك نذير شؤم.

سريت إلى الصحفيين شيئاً لم يتوقعوه وقلت لهم أن ما يحتاجه الرجل الأسود هو أن يهجر ما علمه له الرجل الأبيض من أنه لا بديل أمام السود إلا استجداء «حقوقهم المدينة». قلت لهم أن على الرجل الأسود أن يدرك أن بيديه دعوى حق قوية لأن يشتكي

الولايات المتحدة أمام الأمم المتحدة ويتهمها «بإنكار حقوقه الإنسانية» – وأننا إذا نظرنا لانجولا وجنوب أفريقيا كسوابق، فإن الولايات المتحدة لن تتمكن من تفادي إدانتها هنا في عقر دارها.

وكما توقعت حاول الصحفيون جرّي بعيداً عن ذلك الموضوع وبدأوا يسألوني عن «خطابي من مكة» إلا أنني كنت مستعداً لهم:

«أرجو أن يكون حجي لمدينة مكة المكرمة قد ثبت نهائيًّا ارتباط مسجدنا المسلم الحقيقي مع السبعمائة والخمسين مليون مسلم أصيل في العالم الإسلامي. وأنا أدرك للمرة الأخيرة أن شعوب أفريقيا السوداء تنظر إلى الاثنين والعشرين مليون أمريكي أسود كأبنائها المفقودين منذ زمن. أنهم يحبوننا ويتابعون كفاحنا من أجل الحرية. لقد سعدوا بسماعهم عن يقظتنا من غفوتنا الطويلة – بعد أن علمتنا أمريكا البيضاء المسماة (بالمسيحية)، الخجل من ذكر أخوتنا الأفارقة ووطننا الأم!

«نعم كتبت خطاباً من مكة. تسألونني: ألم تكتب وتقول : إنك الآن تتقبل البيض كأخوة؟ حسناً، إجابة لهذا السؤال سأقول إنني رأيت وسمعت في العالم الإسلامي وكتبت عن كيف توسع إدراكي ومثلما كتبت فأنني تبادلت حباً أخوياً حقيقياً مع مسلمين بيض لم يهتموا للحظة واحدة لعنصر أو لون بشرة مسلم آخر.

«الحجْ وسع مداركي وأنعم عليَّ برؤيا جديدة. في أسبوعين في الأراضي المقدسة رأيت ما لم أر في أمريكا لتسعة وثلاثين عاماً هي عمري. رأيت كل الأجناس وكل الألوان، شقراً ذوي عيون زرقاء و أفريقيين سود البشرة – في تآخٍ حقيقي ! في وحدة! يعيشون كشخص واحد ويتعبدون كشخص واحد ! لا انفصاليون و لا ليبراليون وقد لا يعرفون معنى هاتين الكلمتين حتى.

«نعم، في الماضي أطلقت الإدانات جزافاً ضد كل البيض بلا استثناء ولكنني لن أُتهم بمثل ذلك القول مرة ثانية إذ أنني اليوم أدرك أن هنالك بيضاً مخلصين حقاً وأن لبعضهم المقدرة النفسية لمعاملة الرجل الأسود كأخ. أراني الإسلام الحقيقي أن وصم كل البيض خطأ مثل وصم البيض لكل السود.

«نعم وصلت إلى قناعة أن بعض الأمريكيين البيض يودون المساعدة لعلاج العنصرية المتفشية والتي في طريقها لدمار هذا البلد.

«هنالك في الأراضي المقدسة تغير موقفي بفضل الواقع الذي عشته وبفضل ما شاهدت هنالك من تآخٍ حقيقي – ولا أعني الإخاء نحوي أنا – بل بين كل البشر من كل الجنسيات والألوان الذين كانوا هنالك والآن وأنا هنا في أمريكا تحكم نظرتي نحو البيض مواقفهم ومعاملتهم لنا وما نجده منهم من أخاء. المشكلة أننا هنا في أمريكا لا نجد إلا أقلية صغيرة من البيض الذين يمكن أن نسميهم (طيبين) أو (أخويين) هنا في

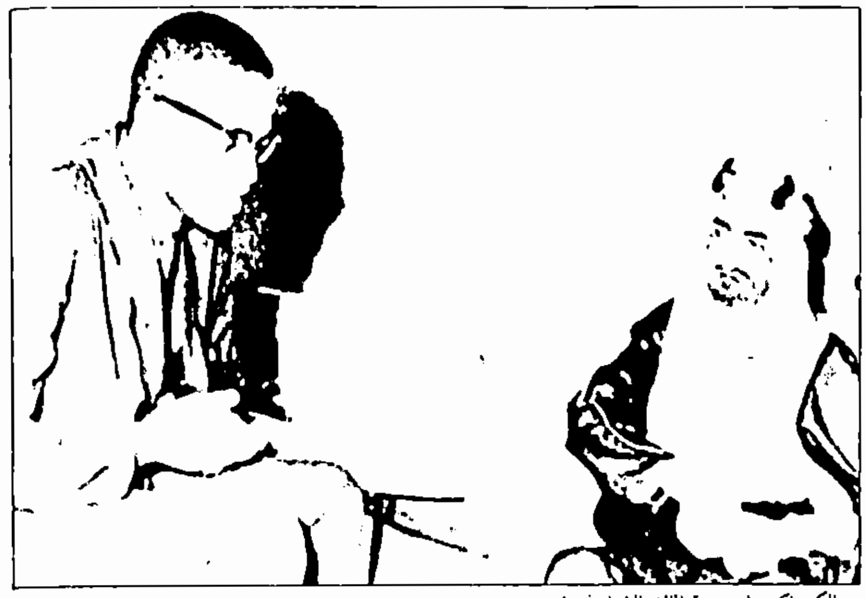
أمريكا وبالرغم من وجود الأقلية (الطيبة) من البيض فإن ما يتعامل معه الاثنين والعشرين مليوناً أسود مجتمعين هو المائة والخمسين مليون أبيض مجتمعين.

«ولم ؟ ! هنا في أمريكا بذور العنصرية ضاربة في أعماق نفسية البيض الجماعية واعتقادهم بأفضليتهم ضارب الجذور في العقل الباطن للأمة الأمريكية وكثير من البيض لا يعون بعنصريتهم حتى يواجهون اختبارا ما وحينها تطفو عنصريتهم إلى السطح في شكل أو آخر.

«اصغوا إليَّ ! عنصرية الرجل الأبيض نحو الرجل الأسود هنا في أمريكا هي التي أودت بالبيض إلى المشاكل والصراعات في كل أرجاء العالم ومع الأجناس غير البيضاء. الرجل الأبيض لا يستطيع أن يفصل نفسه من الشعور الذي ينتابه آلياً نحو أي شخص أياً كان يختلف عنه لوناً. لقد مل وسئم الإنسان غير الأبيض من معاملة الإنسان الأبيض له التي ظاهرها اللطف وباطنها الشعور بالتفوق وذلك هو السبب وراء كل هذه المشاكل في أماكن مثل فيتنام. أو حتى هنا في نصف الكرة الغربي حيث نجد ما يقارب مائة المليون شخص من سلالة أفريقية منقسمين على أنفسهم بعد أن علمهم الرجل الأبيض أن يكرهوا وألا يثقوا يبعضهم البعض. في جزر الهند الغربية، كوبا، البرازيل، فنزويلا وفي كل جنوب ووسط أمريكا ! كل هذه الأماكن ملأى بأناس يجري الدم الأفريقي في عروقهم. وحتى في القارة الأفريقية نجح الرجل الأبيض في أن يفرق بين الأفارقة السود والعرب السمر، وأن يفرق بين ما يسمى بالأفريقي المسيحي وما بين الأفريقي المسلم. لكم أن تتخيلوا ما يمكن أن يحدث، ما سيحدث حتماً إذا تنبه كل ذوي التراث الأفريقي إلى رابطة الدم التي تجمعهم، إذا ما اكتشف كل أولئك أن هدفهم واحد - إذا اتحدوا أبدا.

لابد أن الصحفيين تنفسوا الصعداء بعد أن انتهيت وأعتقد أن الإخوة السود الذين قابلتهم لتوي في أفريقيا سيشعرون أنني أوفيت الموضوع حقه. طوال الليل ظل هاتف منزلي يرن إذ كان إخوتي السود يتصلون بي من نيويورك ومن مدن أخرى ليهنئونني على ما سمعوا في نشرات الأخبار في المذياع والتلفاز كما كان بعض الناس وأكثرهم من البيض يتصلون ليعرفوا أن كان بإمكاني أن أحضر للحديث في هذا المكان أو ذاك.

في صباح اليوم التالي كنت أقود سيارتي في طريق السفر السريع عندما توقفت عربة أخرى بجانبي عند إشارة المرور. كانت تقودها امرأة بيضاء بينما يجلس بجانبها وفي الجانب القريب مني رجل أبيض. هتف الرجل « مالكوم اكس !» وعندما نظرت ناحيته أخرج يده ومدها في لتجاهي قائلاً وهو يبتسم: « هل تمانع في مصافحة رجل أبيض ؟» تخيل ! ومع تغير ضوء الإشارة إلى أخضر قلت له: « لا أمانع في مصافحة أي بشر. هل أنت بشر ؟ »



مالكوم اكس في حضرة الملك الراحل فيصل .



من اليسار لليمين مع زوجته بتي وبناته أتيلا، فيلة و اليسع ومحمد علي كلاي

■ الباب التاسع عشر

١٩٦٥

ينبغي أن أكون صريحاً فالزنوج - الأفرو أمريكيون - لم يظهروا ميلاً للاندفاع نحو الأمم المتحدة والمطالبة بالعدل لأنفسهم هنا في أمريكا وكنت أعلم سلفاً أنهم لن يفعلوا ذلك. لقد غسل الرجل الأبيض مخ السود تماماً لينظروا إلى أنفسهم كمسألة «حقوق مدنية» داخلية وسينقضي عمري قبل أن يفكر الزنوج في عالمية نضال الرجل الأمريكي الأسود. كنت أدرك أيضاً أن الزنوج لن يندفعوا خلفي وراء الإسلام الأصيل الذي منحني البصيرة والقدرة على رؤية إمكانية أن يحيا الرجل الأبيض والأسود كأخوة، لأن المسيحية مسحت بقيمها الاضطهادية المزدوجة عقول زنوج أمريكا خاصة كبار السن منهم.

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X



لذا تجدني في «دعوة للجمهور» التي كنت أعقدها ظهر أو مساء كل أحد في قاعة أودوبون بهارلم لا أركز على الدعوة الإسلامية في أحاديثي أمام الحضور الذين كان أغلبهم من غير المسلمين وبدلاً من ذلك كنت أحاول احتضان كل من يحضر من غير اعتبار لدينه.

«لا نقتصر على المسلمين أو المسيحيين ، كاثوليك، أم بروتستانت، معمداني أم منهجي، ديمقراطي أو جمهوري، ماسوني أو الكي ! أنني أنادي كل السود في أمريكا والشعوب السوداء في كل أرجاء العالم ! لأننا حرمنا كمجموعة سود ليس من حقوقنا المدنية فحسب، بل من حقوقنا الإنسانية وحقنا في الكرامة كبشر ...».

❖❖❖

في الشارع وبعد خطبي كنت أرى في وجوه وأصوات الناس الذين يقابلونني، حتى من يشد منهم على يدي بقوة أو وأنا أمهر لهم باسمي على كتبهم – كنت أرى موقف «سننتظر ونرى.» كنت أشعر وأتفهم عدم تأكدهم من موقفي، فمنذ الحرب الأهلية طرق الرجل الأسود عدة طرق وعاد منها بخفي حنين وقادته كثيراً ما خانوه وكذلك لم تقده المسيحية إلى الخلاص. الرجل الأسود جرح من قبل ولذا فهو حذر ومتردد وأنا أتفهم ذلك الآن أكثر من ذي قبل. في الأراضي المقدسة بعيداً عن أمريكا ومشاكلها العنصرية وجدت الفرصة لأفكر بصفاء لأول مرة في أنماط الرجل الأبيض الأساسية وكيف تؤثر دوافعهم ومواقفهم على الرجل الأسود وصلتها به. وقفت في مكة المكرمة لأول مرة في أعوام عمري التسعة والثلاثين أمام خالق كل شيء وشعرت بأني بشر تام.

في صفاء الأراضي المقدسة وفي نفس الليلة التي ذكرت أنني أستلقيت فيها على الأرض وحولي أخوتي الحجاج يشخرون – رجعت بي الذاكرة إلى ذكريات شخصية كنت أظنها انمحت من ذاكرتي إلى الأبد ... رجعت بي إلى سنوات طفولتي وأنا يافع صغير ذو ثماني أو تسع سنوات. خارج منزلنا الريفي وبعيداً عن لانسينج في ولاية ميشجان كان هنالك تل أخضر صغير كنا نسميه «تل هكتور» وربما كان موجوداً حتى اليوم. وأنا في الأراضي المقدسة في تلك الليلة تذكرت كيف كنت وأنا طفل صغير استلقي على قمة ذلك التل وعيناي تنظران إلى السماء والسحب المتحركة وتسيطر عليّ أحلام اليقظة من كل نوع. ثم وفي تناقض ذكريات، انتقلت بي الذاكرة إلى السجن بعد سنوات من ذلك وكيف أنني كنت أستلقي على سريري المبيَّت في الزنزانة، كان ذلك يحدث على وجه الخصوص خلال الحبس الإنفرادي الذي كنا نسميه الحجز – وأتخيل نفسي وأنا أخاطب جماهير غفيرة. ليست لدي أدنى فكرة لماذا كانت هذه الرؤى تمر بمخيلتي ولكن ذلك هو ما حدث. لم أكن أجرؤ على إخبار أي شخص بذلك لأنهم سيظنون بي الجنون وحتى أنا نفسي لم يكن لدي أدنى فكرة عما يخبئه لي المستقبل....

في مكة أيضاً أعدت في ذهني شريط الاثني عشر عاماً التي قضيت مع إلايجا محمد وكأنها فيلم سينمائي. ظني أنه سيكون من المستحيل على أي شخص تخيل درجة إيماني بالايجا محمد في ذلك الزمن. كنت أؤمن به ليس كزعيم بالمعنى العادي للكلمة بل كنت أرى فيه زعيماً مقدساً وأعتقد أنه منزه عن الخطأ والضعف البشري وهو لذلك لن يخطئ أبداً. هنالك في الأراضي المقدسة وعلى رأس الجبل اكتشفت خطورة مثل ذلك التفكير وتوقير أي بشر بتلك الدرجة أو الافتراض بأن قيادة إنسان ما مقدسة أو منزهة.

تفتح عقلي وتفكيري في مكة وحاولت أن أنقل تلك الرؤيا الجديدة في خطاباتي إلى أصدقائي عن كفاح الرجل الأمريكي الأسود وأن أجعلهم يحسون عمق بحثي عن الحق والعدالة. كتبت لهم: «لقد سئمت من تبني إدعاءات الآخرين وأنا الآن أسعى إلى الحق بدون إعتبار لمن قائله. أنني أنشد العدالة كانت مع زيد أم ضد عبيد فأنا بشر أولاً وأخيراً ولذلك فأنا مع أي شخص وأي شيء ينفع الإنسانية كل واحد».

رفضت الصحف الأمريكية البيضاء في مجملها أن تنقل لقرائها حقيقة أنني كنت أحاول السير بالزنوج في اتجاهات جديدة. ومع صيف ١٩٦٤ «الطويل اللاهب» يحمل يومياً وقائع انفجارات جديدة كنت دوماً محط اتهام بإثارة الزنوج. كنت في كل مرة يسألونني في المذياع أو التلفاز عن «إثارة الزنوج» أو «استنفارهم للعنف» أنفعل وأغلي من الغضب.

«الديناميت الاجتماعي الذي زرعته العطالة والإسكان الرديء والتعليم المتردي في الجيتوات، ليس بحاجة إلى من يشعله. هذه الحالة الإجرامية القابلة للانفجار موجودة منذ زمن وليست بحاجة إلى فتيل يفرقعها، فهي تفرقع نفسها وتأكل من النار التي بداخلها ... »

وصفوني بأني «أكثر زنوج أمريكا غضباً» فلم أرفض ذلك الاتهام وأفصحت بما أحس به «إنني أؤمن بالغضب والإنجيل يقول هنالك وقت للغضب » سموني بالداعية الذي يبذر بذور العنف فكنت أجيب بلا مداراة: «تلك كذبة فأنا لست مع العنف الاعتباطي بل مع الحق... لو هاجم الزنوج البيض ولم تستطع أو ترغب قوى القانون حمايتهم فللبيض الحق في الدفاع عن أنفسهم وحمايتها من الزنوج – باستعمال السلاح إذا دعا الأمر. وبنفس المنطق أرى أن على الزنوج استعمال السلاح إذا دعا الأمر لحماية أنفسهم في حالة إذا ما هاجمهم البيض وفشل القانون في حمايتهم».

«مالكوم إكس يدعو إلى تسليح الزنوج».

ما الخطأ في ذلك. الخطأ هو في كوني أسود يتحدث عن الدفاع الجسدي ضد الرجل الأبيض. للرجل الأبيض الحق في أن يشنق ويحرق ويضرب ويفجر الزنوج – لا ضير في ذلك: «عليكم بالصبر»... «هذه العادات متأصلة وتتطلب وقتاً»... «الأمور في تحسن».

حسناً، إنني أعتقد أنها جريمة في حق أي إنسان يتعرض للأذى ثم يستمر في قبول ذلك بدون أن يفعل شيئاً لحماية نفسه. إذا كانت تلك تفسيراتهم للفلسفة «المسيحية»، إذا كان ذلك ما تنادي به فلسفة غاندي، حسناً، فهي في رأيي فلسفة إجرامية.

حاولت في كل خطبة أقولها أن أوضح موقفي الجديد نحو البيض - «إنني لا أهاجم البيض المخلصين الطيبين ذوي النية الحسنة فلقد تعلمت أن بعض البيض كذلك. تعلمت أن ليس كل البيض عنصريين. لكنني أهاجم وأحارب العنصريين البيض وأؤمن بأن للزنوج الحق في محاربة هؤلاء العنصريين، بأي وسيلة تمليها الضرورة».

إلا أن الصحفيين البيض تمادوا محاولين ربطي بكلمة «العنف» وفي كل مقابلة صحفية كنت أجد نفسي أتعامل مع هذا الاتهام.

« إنني مع العنف إذا كان اللاعنف يعني أن نستمر في تأجيل حل مشكلة الرجل الأمريكي الأسود المستعصية من أجل تفادي العنف فقط . لست مع اللاعنف إن كان يعني أيضاً تأخير الحل وفي نظري أن الحل المؤجل ليس حلاً على الإطلاق . وبكلمات أخرى إذا كان لابد من العنف حتى يتحصل السود على حقوقهم الإنسانية في هذا البلد ، فإنا مع العنف تماما مثلما سيكون الآيرلنديون والبولنديون واليهود إذا ما تم التمييز ضدهم بطريقة فاضحة . أنا مثلهم في تلك الحالة لأنهم سيكونون مع العنف مهما كانت النتائج وبدون اعتبار لمن يتأذى منه ».

المجتمع الأبيض يكره أن يسمع أي شخص خاصة إذا كان أسود ، يتحدث عن الجرائم التي ارتكبها الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود . لقد كنت دائما أفهم لماذا ينعتوني « بالثوري » تكراراً وكأنني ارتكبت جريمة ما ! حسنًا ، ربما كان على الأمريكي الأسود أن يقوم بثورة حقيقية . كلمة ثورة باللغة الألمانية هي أموالزنغ وهي تعني انقلاباً كاملاً وتبديلاً تاماً للأمور . خلع الملك فاروق في مصر وقدوم الرئيس عبد الناصر مثال للثورة الحقيقية . إنها تعني تحطيم النظام القديم وإحلال نظام جديد مكانه . الثورة الجزائرية التي قادها بن بيللا مثال آخر – لقد طردوا الفرنسيين الذين كانوا هنالك فوق المائة سنة . لذا كيف يبدو أي شخص وهو يتكلم عن الزنجي الأمريكي يشعل « ثورة » ما ؟ نعم ، أنه يدين النظام الحالي ولكنه لا يحاول أن يقلب الأمور ويحطم النظام الحالي . إن ما يسمى «بتمرد» الزنوج ليس إلا استجداء للقبول في الوضع الحالي . أما التمرد الحقيقي للزنوج فسيعني على سبيل المثال ، المطالبة بولاية منفصلة للزنوج داخل هذه الولايات المتحدة الشيء الذي دعا إليه عدد من الأفراد والجماعات قبل ظهور الإيجا محمد بزمن .

عندما أتى الرجل الأبيض إلى هذا البلد ، حينها لم يبد أي ميل نحو « اللاعنف » وفي حقيقة الأمر نفس الرجل الذي يعد اسمه رمزاً للاعنف هنا اليوم قال :

« أمتنا ولدت من الإبادة الجماعية حينما احتضنت الفكرة القائلة بأن الأمريكي

الأصلي ، الهندي الأحمر ، جنس وضيع وحتى قبل وجود أعداد كبيرة من الزنوج بين سواحلها ، شوهت وصمة الحقد العنصري مجتمع المستعمرات . ابتداء من القرن السادس عشر سالت الدماء في معارك أفضلية الأجناس ونحن ربما نكون الأمة الوحيدة التي اتخذت من إبادة السكان الأصليين سياسة لها . ليس ذلك فحسب بل أننا مجدنا تلك المأساة وجعلناها تبدو وكأنها حملة ذات هدف سامي . في حقيقة الأمر أننا حتى اليوم نمنع أنفسنا من رفض ذلك الماضي أو الشعور بالخجل من تلك الأفعال المخزية . أدبنا وأفلامنا ، مسارحنا وأساطيرنا الشعبية كلها تمجده . أطفالنا في المدارس يتعلمون احترام العنف الذي أحال أمة حمراء البشرة ذات حضارة سابقة إلى مجموعات قليلة مشتتة تساق كالشياه إلى معسكرات بائسة ».

« التعايش السلمي » ، تلك حيلة أخرى يلجأ إليها الرجل الأبيض دائماً. حسنا ! ولكن كيف كانت أفعال الرجل الأبيض ؟ خلال كل تقدمه في التاريخ البشري كان دائماً يرفع علم المسيحية ... وفي اليد الأخرى يحمل السيف والبندقية ذات الزند المصون .

يمكنك أن ترجع إلى البدايات الأولى للمسيحية ، إلى الكاثوليكية أصل المسيحية كما نعرفها اليوم مع تنظيمها الذي بدأه في أفريقيا من تسميهم الكنائس المسيحية « آباء الصحراء ». استشرى داء العنصرية في المسيحية عندما دخلت أوروبا البيضاء ثم عادت الكنيسة المسيحية إلى أفريقيا تحت راية الصليب . تغزو وتبطش ، تستغل وتنهب ، تغتصب وتضرب وتلقن عظمة الجنس الأبيض . تلك هي الطريقة التي سيطر بها الرجل الأبيض على العالم ، باستخدام القوة العارية بينما كانت روحه فقيرة . التاريخ البشري من حقبة لأخرى يرينا أن معيار القيادة والسيادة الحقيقي هو معيار روحي ومعنوي فالبشر تجذبهم القوة الروحية ، أما القوة المادية فهي تُفرض قسراً . الحب يولد من الروح أما القوة المادية فتؤدي إلى الخوف والقلق .

إنني أتفق تماماً مع العنصريين الذين يقولون أن القوانين الحكومية يستحيل أن ترغم البشر على التآخي وفي الوقت الحاضر الحل الحقيقي الوحيد لمشاكل العالم هو حكومات تهتدي بالديانة الحقة — بالروح . أما هنا في أمريكا الممزقة عنصرياً فأنا مقتنع تماماً أن الحاجة إلى الإسلام ماسة ، خاصة من جانب الأمريكي الأسود وعلى الرجل الأسود أن يفكر ملياً في أنه كان أكثر مسيحيي أمريكا إخلاصاً وإلى أين قاده ذلك ؟ بالأحرى إلى أين قادت المسيحية على أيدي الرجل الأبيض وطبقاً لتفسيره ، وما الذي جلبته على هذا العالم ؟

قادت ثلثي هذا العالم غير الأبيض إلى الثورة . ثلثا سكان هذا العالم حاليًا يقولون للأقلية البيضاء ، ثلث هذا العالم : « اخرجوا من أرضنا !» والرجل الأبيض

يغادر ومع خروجه تشاهد الشعوب غير البيضاء وهي تعود بسرعة إلى دياناتها الأصلية ، التي وصمها الرجل الأبيض الغازي بأنها « وثنية .» هناك ديانة واحدة هي الإسلام ، استطاعت أن تصمد في وجه الرجل الأبيض لمدة ألف عام ، الإسلام وحده هو الذي استطاع أن يوقف المسيحية عند حدها .

الأفريقيون يعودون اليوم إلى الإسلام وإلى دياناتهم الأصلية والآسيويون إلى الهندوسية والبوذية والإسلام وكما اتجهت الحملات الصليبية في الماضي نحو الشرق يتجه الإسلام اليوم نحو الغرب . ومع آسيا الشرق مقفولة في وجه المسيحية وأفريقيا تتحول بسرعة نحو الإسلام ومع أوروبا بسرعة تغدو لا- مسيحية ، أصبحت حضارة أمريكا المسيحية التي ترفع من قدر الجنس الأبيض في العالم ، هي قلعة المسيحية والقوة الأخيرة .

إذا كان الأمر كذلك ، إذا كان ما يسمى بالمسيحية التي تمارس في أمريكا اليوم هو خير ما بقى للمسيحية لتقدمه للعالم ، فلا أعتقد أن أي شخص عاقل في حاجة إلى دليل أكبر من ذلك يوضح أن نهاية المسيحية قد دنت . هل تعلمون أن بعض علماء اللاهوت البروتستاني يستخدمون في كتباتهم عبارة « ما بعد العصر المسيحي» عندما يتحدثون عن العصر الحاضر . وما هو أهم سبب لفشل الكنيسة المسيحية هذا ؟ أنه الحكمة القديمة : «أنك تحصد ما تبذر! » الكنيسة المسيحية زرعت العنصرية والآن تحصد العنصرية .

لكم أن تتخيلوا الضمير المسيحي في صباح أيام الآحاد وجماعات المصلين يحرسها شماس الكنيسة عند الباب وهو يقف في وجه السود الذين يودون الدخول للعبادة قائلاً : « لن تدخلوا بيت الله هذا !» هل هنالك سخرية محزنة أكثر من أن سانت أوغسطين في فلوريدا ، المدينة التي أطلق عليها اسم القديس الأفريقي الأسود - الذي أنقذ الكاثوليكية من الزندقة - كانت مسرحاً لأعمال شغب عنصرية دامية قبل مدة ؟

أؤمن تماماً بأن الله يعطي الآن لما يسمى بمجتمع العالم المسيحي الأبيض آخر فرصة ليرعوي ويكفر عن جرائم استغلال واسترقاق شعوب العالم غير البيضاء ، تماماً مثلما أعطى فرعون فرصة ليتوب . لكن فرعون تمادى في رفضه منح العدالة لمن يضطهدهم فدمره الله في النهاية كما نعلم .

هل تتأسف أمريكا البيضاء على جرائمها ضد السود ؟ هل تملك المقدرة على التوبة والكفارة ؟ هل لدى أغلبية المجتمع الأبيض المقدرة على التوبة والكفارة ، وهل يملكها نصف أو ثلث ذلك المجتمع ؟

كثير من ضحاياه السود بل أغلبهم يودون لو يستطيعون أن يغفروا وينسوا هذه

الجرائم ، لكن لا يبدو أن أغلب الأمريكيين البيض على استعداد ليكفروا عن خطاياهم وأن ينصفوا الرجل الأسود . وفي الحق كيف للمجتمع الأبيض أن يكفر عن استرقاق واغتصاب ، بل خصي وتعذيب ملايين البشر لعدة قرون . ماذا سيطلب إله العدل مقابل سرقة عرق وحياة الشعب الأسود ، هويته وحضارته ، تاريخه بل كرامته الإنسانية ؟.

شرب القهوة في مكان مختلط أم دخول المسرح والمراحيض العامة مع البيض وكل سلسلة أساليب النفاق « الاندماجي » كل هذه ليست تكفيراً يعتد به .

بقيت في أمريكا فترة ثم عدت للخارج وفي هذه المرة قضيت ثمانية عشر أسبوعاً في الشرق الأوسط وأفريقيا . كانت لي مقابلات خاصة مع زعماء عالميين هم : الرئيس جمال عبد الناصر في مصر ، الرئيس جوليوس نايريرى ، رئيس تنزانيا ، الرئيس ناموى أزيكوى رئيس نيجيريا ، المرشد دكتور كوامي نكروما رئيس جمهورية غانا ، الرئيس سيكو تورى – غينيا ، الرئيس جومو كينياتا – كينيا ، ودكتور ملتون ابوني – رئيس وزراء يوغندا . كذلك قابلت عددا من الزعماء الدينيين : أفارقة ، عرباً وآسيويين ، مسلمين وغير مسلمين . وفي كل هذه البلدان تكلمت مع أفرو– أمريكيين وبيض من مهن وخلفيات مختلفة .

أحد سفراء أمريكا البيض في أفريقيا كان أكثر سفير أمريكي محترم في أفريقيا ويسرني أن أروي ذلك القول عن واحد من أهم زعماء أفريقيا . تحدثت مع ذلك السفير ساعات طويلة في أحد الأمسيات وبناءً على ما سمعت عنه صدقته حينما قال أنه طوال الوقت في أفريقيا لا يفكر على الطريقة العنصرية وإنما يتعامل مع الناس على أنهم بشر وينسى لون بشرتهم . قال أنه أكثر إحساساً بفارق اللغة منه بفارق اللون وأنه لا يعي الفوارق اللونية إلا عندما يعود إلى أمريكا .

قلت له : « ما تقوله لي إذن هو أن العنصرية ليست من الرجل الأمريكي الأبيض ولكنها من النظام والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يغذي آليا النزعة العنصرية في الرجل الأبيض » فوافق على ذلك .

اتفقنا كلانا أن المجتمع الأمريكي يجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على البشر الأمريكيين أن يتقابلوا من دون أن يحسوا بالفوارق اللونية وأنه إذا أزيلت العنصرية فيمكن لأمريكا أن تقدم للعالم مجتمعاً يحيا فيه الفقراء والأغنياء ويتعاملون كبشر.

نقاشي مع السفير أعطاني رؤيا جديدة راقت لي وهي أن الرجل الأبيض ليس شريراً بطبعه لكن مجتمع أمريكا العنصري يجعله يسلك سلوكاً شريراً. المجتمع

يولد ويغذي نزعة نفسية تظهر أحط ما في الإنسان .

كان لي حديث مختلف تماماً مع رجل أبيض آخر قابلته في أفريقيا وهو صورة حية للنوع الذي كنت أتحدث عنه مع السفير. خلال رحلتي وفي أي مكان ذهبت كنت أعلم أنني تحت مراقبة دائمة. مراقبي كان شخصية واضحة وبغيضة ولست أدري اسم الوكالة التي يعمل لها لأنه لم يقدم لي نفسه وإلا لكنت ذكرت اسمها. على أية حال ضقت ذرعاً به في النهاية عندما اكتشفت أنه معي في كل مكان ولا أكاد أجلس لأتناول وجبة ما إلا وهو يراقبني من مكان حولي وكأنني جون دلنجر (زعيم عصابات) أو شيء من ذاك القبيل .

قمت من حيث كنت أتناول إفطاري ذات صباح ومشيت نحو مكانه وقلت له أنني أدرك أنه يراقبني وأنه إذا كان يريد أن يعرف شيئاً فعليه أن يسألني. حاول أن يعطيني انطباعاً من نوع « لن أنزل إلى مستواك » فقلت له في وجهه أنه مغفل وأنه لا يعرفني ولا يعرف ما أنادي به وأن ذلك يجعله واحداً من الذين يتركون الآخرين يفكرون لهم ومهما كانت وظيفة الإنسان فإن عليه أن يفكر لنفسه. أغاظه ذلك وانفجر. قال لي عني أنني لا– أمريكي ومخرب متآمر وربما أكون شيوعيًا. أجبته بأن قوله يبرهن على جهله بي وأن كل ما تستطيع أن تتهمني به الـ سي.آي.أيه. (المخابرات المركزية) أو الـ أف. بي.آي (المباحث الفدرالية) أو أي شخص آخر هو أن عقلي متفتح. قلت له أنني أسعى وراء الحقيقة وأنني أحاول أن أزن بموضوعية كل شيء على حسب ميزاته ومضاره. أخبرته أنني ضد التفكير المتحجر وإطلاق الصفات جزافاً على الناس وأنني أحترم أي شخص يؤمن بما يمليه عليه عقله وذكاؤه وأنني أتوقع من الآخرين أن يحترموا حقي في التفكير بحرية.

بعد ذلك بدأ هذا المخبر يتحدث عن عقيدتي في «المسلمين السود» فسألته، ألم يشأ رؤساؤك أن يخبروك عن موقفي ومعتقداتي التي تغيرت. أخبرته أن الإسلام الذي أؤمن به الآن هو الإسلام الذي يدرس في مكة وأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، محمد الذي عاش في مكة قبل أربعمائة وألف عام، آخر الرسل والأنبياء.

منذ البداية خمنت شيئاً ما وغامرت فكان أن هززت ثقة ذلك المخبر في نفسه. عدم موضوعيته المتكرر في كل ما يقول ويسأل جعلني أستنتج شيئاً فقلت له: «أتعرف ! أعتقد أنك يهودي باسم مسيحي » رده الطوعي أكد لي ظني إذ سألني كيف عرفت ذلك. أجبته بإن لي تجربة مع طريقة مهاجمة اليهود لي تجعلني أعرفهم بسهولة وقلت له أن ما أحمله ضد اليهود هو أن كثيراً منهم منافقون في ادعائهم بأنهم أصدقاء السود في أمريكا وأن ما يغيظني كثيراً هو اتهامهم لي بمعاداة السامية عندما أتحدث بصراحة وأقول ما أعرف أنه الحقيقة المطلقة عن اليهود .

أخبرته بأنني أوفي اليهود حقهم كونهم من بين كل البيض في أمريكا أكثرهم نشاطاً وأشدهم دفاعاً وتمويلاً وقيادة وليبرالية في حركة الحقوق المدنية من أجل الزنوج ، ولكنني في نفس الوقت أدرك أنهم إنما يقومون بذلك لأسباب إستراتيجية : كلما تركزت كراهية المسيحيين البيض على الزنوج كلما عنى ذلك أن تلك الكراهية لن تطال اليهود .

أضفت بأن أكبر دليل على نفاق كثير من اليهود في حديثهم عن الحقوق المدنية هو أننا في الشمال نجدهم أسرع من يؤيد الانفصال . أنظر إلى كل الأماكن التي يحاول الزنوج دخولها فستجد أن اليهود إن لم يكونوا يملكونها أو يتحكمون فيها فإن لهم نصيباً كبيراً في ملكيتها – كما أننا نجدهم في مراكز حساسة ولهم فيها نفوذ كبير ومع ذلك هل حاولوا استغلال ذلك لمصلحة الزنوج ؟ لا ثم لا !

واصلت قائلاً ، وعندي أن أكثر الدلائل وضوحاً عن نظرة اليهود للزنوج هو ما يحدث عندما ينتقل زنجي ليسكن في حي غالبيته من اليهود. من سيقود هجرة البيض الجماعية من الحي ؟ إنهم اليهود ! في مثل هذه الأوضاع عامة يصر بعض البيض على البقاء وإذا نظرت فستجد أنهم من الكاثوليك الايرلنديين ومن الإيطاليين ونادراً ما تجد يهوداً من بينهم. والسخرية في الأمر هو أن اليهود أنفسهم يجدون صعوبة في قبول المسيحيين لهم.

أدرك وأنا أقول ذلك أن ستأتيني الاتهامات بمعاداة السامية من كل اتجاه . أواه ، نعم ! ولكن الحقيقة هي الحقيقة.

سيطرت السياسة على المسرح الأمريكي وأنا في الخارج هذه المرة في القاهرة ومرة أخرى في أكرا وصلتني وسائل الإعلام بمحادثات هاتفية عبر الأطلنطي. كانوا يودون معرفة من أفضل، جونسون أم جولدوتر. أجبتهم بأن شعوري هو أنهم سواء فيما يختص بالرجل الأسود في أمريكا وقلت أنهم بالنسبة للسود مجرد اختيار بين الثعلب جونسون وبين الذئب جولدوتر.

«المحافظون» في السياسة الأمريكية تعني من يؤيدون دعوة «دعونا نبقي النيجرز في مكانهم» والليبرالية تعني «دعونا نبقي الزنوج في مكانهم ولكن لنقل لهم أننا سنعاملهم أحسن، دعونا نخدعهم ببعض الوعود.»

ومع هذه الخيارات كل ما يفعله الرجل الأسود هو أن يختار آكله. هل سيأكله الثعلب «الليبرالي» أم الذئب «المحافظ» لأن كليهما سيقضي على الرجل الأسود.

لست مع جولدوتر أو مع جونسون ولكنني عندما أكون في وكر الذئب وأعرف موقفي منه سأراقبه بحذر أكثر مما سأراقب الثعلب الماكر. هرير الذئب نفسه

سيجعلني متيقظاً وسأحارب من أجل النجاة ولكني مع الثعلب قد انخدع وأطمئن له. سأعطيكم مثالاً للثعلب. بعد الإغتيال الذي جعل من جونسون رئيساً، من كان أول شخص اتصل به جونسون ؟ صديقه الحميم، «ديكي» – ريتشارد رَسِل من ولاية جورجيا. أعلن جونسون للعالم أن الحقوق المدنية أصبحت موضوعاً أخلاقيًّا بينما صديقه الحميم رَسِل العنصري الجنوبي هو الذي قاد الحملة ضد الحقوق المدنية. كيف يبدو لكم شريف المدينة (العمدة) وهو يصرح بأنه ضد النهب بينما جيسي جيمس (زعيم عصابة) أعز أصدقائه.

جولدوتر يلقى احترامي كرجل لصراحته في إعلان قناعاته الشيء الذي يندر أن يفعله أي سياسي اليوم. لم يكن يهمس للعنصريين في جانب ويبتسم لدعاة الاندماج في الجانب الآخر. جولدوتر لم يكن ليغامر بإشهار موقفه غير الشعبي من غير اقتناع وقد قالها للسود بصراحة أنه ليس في جانبهم. هنا علينا أن نفكر في التالي: أن السود ما حققوا شيئاً إلا عندما رأوا أن عليهم أن ينهضوا ضد نظام صريح في عداوته لهم ولكنهم تحت تخدير المهدئات التي يقدمها لهم ليبراليو الشمال تحولوا إلى متسولين. في الجنوب نهض الزنوج وهم يواجهون الذئب الأبيض المزمجر في وجوههم وحاربوا من أجل الحرية قبل حدوثها في الشمال بزمن.

كنت دائماً أرى أن جولدوتر ليس أفضل من جونسون بالنسبة للسود أو العكس، ولم أكن موجوداً بأمريكا في وقت الانتخابات ولكني لو كنت حضرت لم أكن لأصوت لأي منهما ليصبح رئيساً أو أنصح أي أسود ليصوت لواحد منهما. في النهاية دخل جونسون البيت الأبيض وكانت أصوات السود عاملاً مهماً في فوزه الحاسم كما أراد. أما إذا ما فاز جولدوتر لكان السود عرفوا أنهم إنما يتعاملون مع ذئب له هرير بدلاً من تعاملهم مع ثعلب سيكون قد إزدرد نصفهم قبل أن يكتشفوا ما حدث.

كانت الصعوبات تتري من كل جانب وأنا أحاول بناء نوع من المنظمات القومية السوداء التي كنت أريدها للزنجي الأمريكي. ولم القومية السوداء ؟ حسناً، كيف يوجد تضامن بين السود والبيض في هذا المجتمع الأمريكي التنافسي قبل أن يوجد تضامن بين السود أنفسهم أولاً ؟ إذا كنت تذكر فقد تعرضت في طفولتي لتعاليم ماركوس جاري عن القومية السوداء وهي في الحقيقة السبب في قتل أبي كما أخبروني وحتى عندما كنت تابعاً لالايجا محمد كنت أعي بشدة أن الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للقوميين السود لها المقدرة أن تغرس في نفس الرجل الأسود الكرامة العنصرية والثقة بالنفس والدوافع التي يحتاجها لينهض ويقف على قدميه حتى يتخلص من جروحه ويحارب من أجل نفسه.

إحدى العقبات التي كانت تواجهني في بناء المنظمة التي أريد – منظمة سوداء صرفة هدفها النهائي هو المساعدة في خلق مجتمع يعمه التآخي الخالص الصريح بين السود والبيض – إحدى تلك العقبات كانت صورتي العامة السابقة. صورة «المسلم الأسود» ظلت تقف في طريقي. كنت أحاول تدريجياً محو تلك الصورة وأسعى إلى تغيير صورتي في أذهان الجمهور خاصة أذهان الزنوج. لم أعد أقل غضباً مما كنت في الماضي لكن التآخي الحقيقي الذي رأيته في الأراضي المقدسة أثر عليَّ لأدرك أن الغضب قد يعمي بصيرة الإنسان.

كل فرصة وكل دقيقة أجدها، كنت أقضيها في الحديث مع الشخصيات الرئيسية التي أعرفها في هارلم وقد ألقيت كثيراً من الخطب وأنا أقول: «الإسلام الحقيقي علمني أن المجتمع الإنساني يتكون من كل الديانات وشتى المذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبه شعوب وقبائل وعناصر وخصائص مختلفة.

«منذ أن انجلى لي الحق في مكة، أصبحت أعد من أعز أصدقائي أناساً من جميع الأنواع – مسيحيين ويهود، بوذيين وهندوس وبعضهم من مذاهب اللا– أدري، وملاحدة حتى. لي أصدقاء يعرفون بأنهم رأسماليون، اشتراكيون أو شيوعيون ! وبعضهم من نوع العم توم. أصدقاء سود، سمر، حمر، صفر وبيض».

قلت مرة أمام جمهور في هارلم: إنه فقط عندما تخضع الإنسانية للإله الواحد الذي خلق كل شيء، عندها فقط يمكن أن يتحقق السلام الذي كثر عنه الحديث... ولكن لا يفعل إلا القليل من أجله. قلت لهم :إنه على المستوى العنصري الأمريكي يجب علينا أن نعالج صراع الرجل الأسود ضد عنصرية الرجل الأبيض على أنه مشكلة إنسانية وأن علينا أن ننسى سياسة النفاق والإدعاءات. ذكرت لهم أن كلا الجنسين عليه مسئولية والتزام في أن يساعد في حل مشكلة أمريكا الإنسانية. على البيض حسني النية أن يكافحوا العنصرية بين قومهم البيض بجد ومباشرة كما أن على السود أن يزيدوا من وعيهم بأن الحقوق المتساوية يجب أن يصحبها تحمل المسئوليات المتساوية.

كنت أعرف أكثر من أي زنجي آخر أعداد البيض التي تود بإخلاص أن ترى مشاكل أمريكا العنصرية قد حُلت وكثير منهم مصاب بالإحباط مثلهم مثل الزنوج. كان البيض يحيطون بي في مقابلاتي مع المستمعين ويسألونني بعد نهاية حديثي في مكان ما : « ماذا يمكن لأبيض مخلص أن يفعل ؟ » .

وأنا أقول هذا تقفز إلى ذهني الآن صورة الطالبة الجامعية التي حدثتكم عنها والتي طارت من جامعتها في نيوانجلاند إلى نيويورك وتقدمت مني في مطعم أمة

الإسلام في هارلم لأخبرها أن ليس بإمكانها أن تقدم أي شيء . أشعر بالأسف الآن لأني قلت لها ذلك وأتمنى لو أنني أعرف اسمها وأين يمكنني أن أتصل بها هاتفياً أو أكتب لها لأقول لها ما أقوله للبيض حالياً حينما يتقدمون مني بإخلاص ويسألونني بطريقة أو بأخرى نفس السؤال الذي سألتني إياه.

أول شيء أقوله لهم أنهم وفيما يختص بمنظمة القومية السوداء ، منظمة الوحدة الأفرو – أمريكية ، لن يستطيعوا الانضمام إليها. أحس في داخلي أن البيض الذين يودون الانضمام للجماعات والمنظمات السوداء إنما يتبعون طريق الهروب لإراحة ضمائرهم وهم يعتقدون أنهم بحومهم حولنا أمام الملأ ، إنما « يبرهنون» أنهم «معنا ». لكن الحقيقة العارية هي أن ذلك لم يساعد ولن يساعد في حل مشاكل أمريكا العنصرية. العنصريون ليسوا الزنوج والمكان الذي يستطيع فيه البيض المخلصون أن « يبرهنوا » على عدم عنصريتهم ليس وسط الزنوج ولكن في الخطوط الأمامية للمعركة حيث تكمن عنصرية أمريكا – وذلك بين البيض أنفسهم ، عنصرية أمريكا تعشعش بين رفقائهم البيض. ذلك هو الوسط الذي على البيض المخلصين أن يعملوا فيه إن أرادوا تحقيق أي شيء في هذا الموضوع.

وبصرف النظر عن ذلك فأنا لا أقصد الإساءة لأي أبيض مخلص حينما أقول أن وجود البيض سيبطئ من حركة الزنوج في تعرفهم على احتياجاتهم بأنفسهم خاصة التعرف إلى مقدراتهم وما يمكن أن ينجزوه وهم يعملون بأنفسهم وبين قومهم ومجتمعاتهم.

حتمًا لا أريد إيذاء شعور أحد لكنني سأزيد وأقول : إنني لا أثق حقيقة بالبيض الذين يتلهفون على التجول وسط الزنوج ، لا أثق بالبيض الذين يعشقون البقاء دائماً وسط الزنوج. لا أدري فقد يكون ذلك من مخلفات سنوات الصعلكة في هارلم مع كل أولئك البيض السكارى ، حمر الوجوه ، في النوادي غير المشروعة وهم يمسكون بتلابيب بعض الزنوج ليقولوا لهم : « أريدك فقط أن تعرف أنك لست أقل مني» ثم بعد ذلك يعودون في عربات الأجرة أو الليموزين الأسود إلى مناطقهم في وسط البلد حيث يسكنون ويعملون في مناطق يخاف الزنوج من الوجود فيها إن لم يكونوا خدماً. على أية حال أنا أعلم أنه إذا انضم البيض في أي مرة إلى منظمة سوداء ، فلك أن تنظر وترى السود بعد قليل وقد بدأوا يعتمدون على دعم البيض وقبل أن نحرز ما حدث ستجد أن أحد السود وقد تبوأ منصباً ولقباً بينما البيض في الخلف يتحكمون فيها بفضل أموالهم.

أقول للبيض المخلصين : « تعاونوا معنا ولكن ليعمل كل واحد وسط قومه. فليبحث البيض المخلصون كأفراد وليعثروا على كل البيض الآخرين الذين لهم نفس الشعور ليتحدوا معهم ويحاولوا تغيير تفكير البيض ذوي السلوك العنصري.

فليذهب البيض المخلصون ويلقنوا اللا عنف للبيض الآخرين ! » .

عند ذلك سنحترم زملاءنا البيض احتراماً تاماً فهم يستحقون كل ثناء وسنعزو لهم ما يستحقون من فضل. في غضون ذلك سنكون نحن نعمل وسط قومنا وداخل مجتمعاتنا السوداء نلقن ونوضح للسود بطرق لا يعرفها إلا السود أن على الرجل الأسود أن يساعد نفسه بنفسه. وهم يعملون منفصلين ، سيكون البيض المخلصون وكأنما هم يعملون سوياً.

في إخلاصنا المتبادل قد نُري أمريكا الطريق لخلاص روحها التي لن تجد الخلاص إلا عندما تمتد الكرامة الإنسانية الكاملة والحقوق الإنسانية لتشمل السود. هذه الأساليب ذات المعاني التي تنبع من إحساس إنساني عميق ومسئولية أخلاقية ، هي وحدها التي تستطيع أن تسبر غور الأسباب التي تقود إلى الانفجارات العنصرية في أمريكا اليوم. ما عدا ذلك فستزداد هذه الانفجارات سوءً. وحتما لن يتحقق أي تقدم ولن تحل المشكلة بإلقاء اللوم على شخصي وعلى من ينعتون « بالمتطرفين » و « الديماجوجيون» من أمثالي على عنصرية أمريكا.

أحياناً أتجرأ وأحلم بأنه سيأتي يوم ما وأن التاريخ قد يقول إن صوتي — الذي عكر صفو اعتداد الرجل الأبيض بنفسه وأقلق غطرسته واطمئنانه — إن صوتي ساعد في إنقاذ أمريكا من قبرها وربما من كارثة لا تبقى ولا تذر.

هدفنا كان دائماً واحداً مع اختلاف الأساليب بين أسلوبي وأسلوب دكتور مارتن لوثر كنج وهو يقود مسيرات اللاعنف التي تظهر وحشية وقسوة الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود الأعزل. وفي الجو العنصري الذي يخيم على هذه البلاد اليوم ، من الصعب القول أي الأسلوبان « المتطرفان» لحل مشاكل الرجل الأسود سيلقى شخصياً حتفه أولاً: « لا عنف » دكتور كنج أو أسلوبي أنا الذي ينعت «بالعنف ».

إنني أنظر إلى كل ما أقوم به اليوم كأمر عاجل وليس من إنسان يجد الوقت الكافي ليحقق ما يريد في حياته. حياتي أنا خاصة لم تبق على وضع واحد لمدة طويلة ولقد رأيتم كيف مررت بتغيرات عنيفة كثيرة وغير متوقعة في حياتي . وعندما أقول أن أية لحظة ، أي يوم أو أي ليلة قد تجلب لي الموت فأنا لا أفعل سوى مواجهة الحقيقة. هذا الأمر صار أكثر حقيقة خاصة بعد زيارتي الأخيرة للخارج. لقد شاهدت طبيعة ما يجري وسمعت أشياء من مصادر لا يرقى إليها الشك.

التفكير في الموت لا يخيفني كما يخيف الكثيرين فأنا لم أؤمن أبداً بأنني سأعيش حتى أغدو رجلاً عجوزاً. وحتى قبل أن أصبح مسلماً ، عندما كنت أزعراً في الجيتو ثم مجرماً في السجن ، كنت دائماً أعتقد أنني سأموت موتاً عنيفاً. في

حقيقة الأمر ذلك أمر توارثناه في عائلتنا – أبي وأغلب أخوانه ماتوا مقتولين – أبي بسبب معتقداته. وإذا ما دخلنا إلى صلب الموضوع وأخذنا نوع المعتقدات التي اعتنقها أنا وأضفنا إلى ذلك نزوعي إلى التمرد على القواعد مع التكريس التام الذي أوليه لما أعتقد فيه – هذه هي العناصر التي تجعل من المستحيل عليَّ أن أموت بداء الهرم.

لقد أعطيت لهذا الكتاب كل وقتي لأني أؤمن وآمل بأنني أذا حكيت قصة حياتي كاملة وبصدق وإذا ما قرأها الناس بموضوعية فقد تبرهن ـ أن لها قيمة اجتماعية ما. القارئ الموضوعي سيرى أنني مع الحياة التي عشتها كشاب أسود في أمريكا كان لابد أن أنتهي إلى السجن وذلك ما يحدث لآلاف مؤلفة من الصبيان السود.

القارئ الموضوعي سيرى حتمية استجابتي الإيجابية عندما سمعت لأول مرة جملة « الرجل الأبيض هو الشيطان» واستعدت في ذهني شريط تجاربي الخاصة. ثم قضيت الاثني عشرة عاماً التالية من عمري مكرساً وقتي وجهدي بإخلاص لترويج تلك العبارة ونشرها بين السود. أنني آمل أن ستكون للقارئ الموضوعي وهو يتابع حياتي – حياة زنجي واحد من مخلوقات الجيتو – صورة أوضح وتفهم أحسن من ذي قبل للجيتوات السوداء التي تشكل حياة وتفكير كل الاثنين والعشرين مليون زنجي تقريباً الذين يعيشون في أمريكا.

وفي كل عام يزداد عدد هذا النوع من المراهقين يمجدون أبطالاً مزيفين ويتعرضون للأثر السيئ. لا أقول أن كلهم سيصبحون طفيليين مثلما كنت ومن حسن الحظ أن كثيرين منهم لا يصبحون كذلك. ومع ذلك فالنسبة البسيطة منهم تزداد لنجد أعدادا أكبر وأكبر من الشباب الإجرامي الخطر. في تقرير لـ أف. بي. آي. قبل عهد قريب نشروا أن هنالك ارتفاعاً مرعباً في الجريمة كل سنة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية – من عشرة إلى اثنى عشر بالمائة كل عام. لم يقلها التقرير صراحة ولكني أقول أن تلك الزيادة تتمركز في الجيتوات السوداء التي يسمح لها المجتمع الأمريكي بالاستمرار. وفي أحداث الشغب التي حدثت في صيف ١٩٦٤ الطويل اللاهب في أهم المدن في أنحاء أمريكا ، كان شباب الجيتو المحروم دائماً في مقدمتها.

وفي هذا العام ، ١٩٦٥ ، أنا متأكد أن حوادث أكثر – وأسوأ – ستنفجر في مدن أكثر بالرغم من قانون الحقوق المدنية والسبب هو أن جذور هذا الشغب ، تكمن في الداء العنصري المتمكن من أمريكا الذي قضى زمناً طويلاً بدون علاج.

لا أظن أنك ستجد في أي مكان في أمريكا رجلاً أسود غاص في وحل المجتمع الإنساني أعمق مني ، أو عمه في الجهل أكثر مني ، أو عانى من الغضب أكثر مني. لكن أعظم البهجة تأتي بعد الضلوع في الظلام ، وفقط بعد السجن والعبودية تستلذ لطعم الحرية.

ومن أجل حرية الاثنين والعشرين مليوناً من إخوتي السود ، أؤمن بأنني حاربت جل مقدرتي وبكل ما أعرف أن أحارب مع القصور الذي لدى شخص مثلي.

أكثر ما أفتقده وأتحسر عليه في حياتي هو أنني لم أواصل تعليمي النظامي لأمتهن المهنة التي كنت أتمنى – وهي أن أصير محامياً ، لعل وعسى ! لقد كنت دائماً أعشق المعارك والتحديات الكلامية. صدقني لو قلت لك أنني إذا كنت وجدت الوقت اليوم فلن أخجل من أن أعود إلى أية مدرسة حكومية في مدينة نيويورك وأن أبدأ من الصف التاسع حيث انتهيت وأواصل حتى أحصل على درجة جامعية لأن هنالك أشياء كثيرة أهواها ينميها التعليم. أنا مثلاً أحب اللغات وأتمنى أن لو كنت لغويًا متمكناً فليس هنالك شيء يثير إحباط الشخص أكثر من الوجود مع أناس يتكلمون لغة لا يفهمها خاصة إذا كانوا أناساً يشبهونك في عدة أشياء. في أفريقيا سمعت أناسا يتحدثون اللغات الأم مثل لغة الهوسا والسواحيلي وأنا أقف كالطفل منتظراً أن يشرح لي شخص ما يقولون ، لن أنسى أبداً كيف شعرت بالجهل حينها. وإلى جانب اللغات الأفريقية الأساسية أتمنى أن أتعلم اللغة الصينية لأنها ستكون فيما يبدو أهم لغة سياسة في المستقبل وقد بدأت في دراسة اللغة العربية التي أعتقد أنها ستكون أهم لغة روحية في المستقبل.

أن أدرس وحسب وبذلك أعني دراسات مختلفة لأن لي عقلاً متفتحاً ولي اهتمامات بأي فرع من فروع المعرفة تذكره. ذلك هو السبب إنني أحببت كأفراد بعض مقدمي برامج المذياع والتلفاز التي اشتركت فيها واحترمت عقولهم لأنهم حتى وإن اختلفوا معي على طول الخط فيما يختص بموضوع العنصرية ، فقد كانوا دائماً موضوعيين وعقولهم متفتحة لسماع الحقائق عما يجري في العالم. منهم على سبيل المثال أرف كوبسنت في شيكاجو وباري فابر ، باري جراي ومايك والاس في نيويورك. أنهم أيضاً أروني أنهم يحترمون عقلي بطرق لم يشعروا بها انفسهم. ما يجعلني أعتقد ذلك هو أنهم كانوا أحياناً يسألونني عن رأيي في مواضيع أخرى عدا العنصرية عندما كنا نجلس ونتحدث بعد نهاية البرنامج عن مواضيع شتى في الأمور الجارية لمدة ساعة أو أكثر. كثير من البيض حتى عندما يعترفون لزنجي بالذكاء يظلون يعتقدون أن كل ما يجيد الحديث عنه ذلك الزنجي هو الوضع العنصري وكثيرون لا يخطر ببالهم أبداً أن الزنوج يمكن أن يساهموا بشيء في مجالات الفكر الأخرى. لك أن تلاحظ كيف أن البيض نادراً ما يسألون زنجياً عن رأيه في مشاكل الصحة العالمية أو سباق الفضاء لإنزال رجل على سطح القمر.

كل صباح حينما أصحو من النوم هذه الأيام أعتبره يوما مستلفا وفي كل مدينة اذهب إليها وأنا ألقي الخطب واعقد الاجتماعات لمنظمتي أو أنا في أي عمل آخر ،

أحس برجال سود يقتفون اثري ويراقبون كل خطوة أخطوها مترقبين الفرصة لقتلي . لقد قلتها علنا ومرارا أنني أعرف من أعطاهم الأوامر وكل من لا يصدقني في قولي هذا لا يعرف مسلمي أمة الإسلام . لكن الله أيضا انعم على باتباع مخلصين في رأيي ، كرسوا حياتهم لي مثلما كرست حياتي في السابق لألايجا محمد . وعلى الذين يتصيدون الرجال أن يدركوا أن الغابة ملأى بمن يتصيدون الصيادين .

أدرك أيضا أنني قد أموت فجأة على يد واحد من العنصريين البيض أو على يد زنجي أستأجره الرجل الأبيض . وربما تأتي نهاية حياتي على يد زنجي مغسول الدماغ يبادر من تلقاء نفسه بالتخلص مني ظنا منه أنه بذلك يساعد الرجل الأبيض ، لأنني أتكلم عن الرجل الأبيض بالطريقة التي أتكلم بها.

على أية حال أنني أحيا كل يوم وكأنني مت وأقول لكم ما أرجو أن تفعلوه . عندما أصبح ميتا – وأنا أقول ذلك لأني اعلم مما يجري حولي أنني لن أعيش طويلا حتى اقرأ هذا الكتاب الذي بين أيديكم – أريد لكم أن تراقبوا وتروا صحة قولي وهو أن الرجل الأبيض في صحفه سيربطني مع « الحقد».

سيستغلني ميتا كما استغلني حيا وسيجعلني رمزا مناسبا « للبغضاء » وسيساعده ذلك على الهروب من مواجهة الحقيقة. في حين أن كل ما فعلته هو أنني وضعت أمامه مرآة عكست وأوضحت تاريخ الجرائم التي تعجز معها الكلمات والتي ارتكبها قومه في حق قومي.

عليكم أن تراقبوا وتروا كيف سينعتونني في أحسن الأحوال كرجل أسود غير مسئول . لقد كنت دائما أوقن من هذا الاتهام أن « الزعيم » الأسود الذي يصفه البيض دائما «بالمسئول» لا يحقق شيئا لقومه والطريقة الوحيدة التي يحقق بها الرجل الأسود أية نتائج هي حينما يصفه البيض بأنه «غير مسئول » في الحقيقة تعلمت ذلك منذ طفولتي ، منذ أن صرت بعض « زعيم » للسود في هذا المجتمع الأمريكي ، يتأكد لي ذلك في كل مرة يقاومني فيها الرجل الأبيض أو يشتد في هجومه علي – لأني في كل مرة يهاجمني فيها أوقن بأنني على صواب من وجهة نظر ومصالح الرجل الأمريكي الأسود . معارضة العنصري الأبيض لي أقنعتني آليا أنني أقدم شيئا للرجل الأسود .

نعم ، استمتعت بدور « الديماجوجي » (الدهماوي) وأنا أدرك أن المجتمعات البشرية كثيرا ما قتلت أناسا ساعدوا في تغيير تلك المجتمعات . وإذا كان لي أن أموت وقد جلبت بعض النور وكشفت شيئا ذا معنى من الحقيقة التي قد تعجل بسحق السرطان العنصري المتمكن من جسد أمريكا – يكون كل الحمد والثناء لله . فقط على الأخطاء .

تعقيب : بقلم إلكس هيلي

THE AUTOBIOGRAPHY OF
MALCOLM X



في غضون عام تسع وخمسين وتسعمائة وألف عندما بدأ الجمهور يعرف شيئا عن المسلمين السود بعد إذاعة برنامج نيويورك التلفازي « البغض الذي أولده البغض » كنت في سانفرانسيسكو وعلى وشك التقاعد من حرس السواحل الأمريكي بعد عشرين عاماً من الخدمة. قفل في ذلك الوقت صديق لي عائداً من ديترويت وهو يتحدث عن ديانة مذهلة للرجل الأسود وعن أمة الإسلام التي انضم إليها لدهشته جميع أفراد عائلته. أصغيت غير مصدق لكيف أن « عالم مجنون يدعى مستر يعقوب » هجن وراثيًا الجنس الأبيض من قوم سود أصليين. زعيم تلك المنظمة وُصف لي « بصاحب الشرف الإليجا محمد » ورئيس الأركان فيما يبدو يدعى « منستر مالكوم إكس» .

عندما عدت إلى الحياة المدنية ودخلت دنيا الكتابة في مدينة نيويورك جمعت من حول هارلم مادة مثيرة وتقدمت باقتراح إلى مجلة ريدرز دايجست للكتابة عن تلك الطائفة. وأنا أزور المطعم الإسلامي في هارلم استفسرت عن كيف يمكن لي مقابلة منيستر مالكوم إكس فأشاروا لى إليه وهو يتحدث داخل كشك الهاتف من خلفي مباشرة. بعد فترة وجيزة خرج من الكشك ، شخص طويل مهاب، برونزي البشرة وعمره حينها خمسة وثلاثون عاما. عندما أوضحت له غرضي تصلب وعيناه تتفحصني من خلف

نظاراته السميكة. اتهمني بحدة قائلا: « إنك واحد من أدوات الرجل الأبيض أرسلك لتتجسس علينا » أجبته بأن لي مهمة أدبية مشروعة وأريته خطاباً من المجلة يوضح أن المطلوب هو مقال موضوعي يزن ما يقوله المسلمون عن أنفسهم مقابل ما يقوله عنهم منتقدوهم. قال مالكوم إكس ساخراً « وعد أي رجل أبيض لا يساوى الورق الذي كتب عليه » ثم أضاف أنه سيحتاج لبعض الوقت ليقرر إن كان سيتعاون معي أم لا. واقترح على أنه بإمكاني في أثناء ذلك أن أحضر بعض اجتماعات المعبد رقم سبعة (أعيدت تسمية المعابد إلى مساجد بحد ذلك) الذي كان مفتوحا أمام غير المسلمين.

حول المطعم قابلت بحض المنضوين الجدد وكلهم أنيقون ونظيفو الملبس وتهذيبهم يخجل التواضع. سلوكهم وسيماهم يعكسان الانضباط الإسبرطي الذي تتطلبه منهم المنظمة ولا ينبس الواحد منهم إلا بكلمات أمة الإسلام. حتى الطقس الجميل كانوا ينظرون إليه كنعمة من الله ويرجعون الفضل الثانوى « لصاحب الشرف الإليْجا محمد ».

وأخيرا أعلمني منيستر مالكوم إكس أنه شخصيا لن يتحمل المسئولية واقترح عليَّ أن أتصل بمستر محمد نفسه لمناقشة موضوع المقال . لم أمانع في ذلك فحددوا لي معه موعدًا وطرت إلى شيكاجو . دعاني مستر محمد ، الرجل دقيق الجسم الخجول ذو الصوت الهادئ ، إلى أن أتناول العشاء معه وعائلته في منزله:أصغيت له باهتمام مدركاً أنهم سيتفحصوننى بدقة ، وهو يتحدث أساساً عن الرقابة الدقيقة التي تفرضها ال إف. بي. آي. (المباحث الفدرالية) ومصلحة الضرائب على منظمتهم وعن إشاعة تحقيق الكونجرس المرتقب عنها ، « لكنى لا أخاف من أي منهما ، أن عندي كل ما أحتاج إليه– الحق » كان ذلك تعليقه . لم يثر موضوع كتابتي للمقال إطلاقا لكن مالكوم إكس أظهر أنه متعاون تماما حينما عدت إلى نيويورك .

كان يجلس معى عند طاولة بيضاء في مطعم المسلمين ويرد بحذر على أي سؤال أثيره بينما المحادثات الهاتفية في الكشك من صحف نيويورك تقاطعنا بين الفينة والأخرى . عندما سألته إن كان بإمكاني أن أشاهد نشاطات المسلمين في المدن الأخرى نظم لي حضور اجتماعات مع أكثر من منستر في معابد ديترويت وواشنطن وفيلادلفيا.

ظهر مقالي وعنوانه « مستر محمد يتكلم » في أوائل عام ١٩٦٠ وكان حينها أول مقال طويل يعلن في مجلة عن تلك الظاهرة . وصلني بسرعة خطاب من مستر محمد يبدى فيه تقديره لموضوعية المقال وحفظي لوعدي كما اتصل بي مالكوم إكس هاتفيًا بتعليق مماثل . في مثل هذا الوقت نشر كتاب دكتور سي . إريك

لنكون « **المسلمين السود في أمريكا** » وأصبح المسلمون السود مثار اهتمام متزايد . خلال عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ جمعتنى مجلة **ساتردى إيفننج بوست** في فريق مع كاتب أبيض يدعى آل باك لكتابة مقال . بعد ذلك أجريت تحقيقا مطولا لباب شخصية الشهر وعدت فيه مجلة **بلاي بوي** ، أن تنشر حرفيًا أي إجابة يقدمها مالكوم لأسئلتي خلال تلك المقابلة التي استغرقت عدة أيام ، كان مالكوم إكس يكرر بصوت عال بعد تعليقات متصلبة ضد البيض وضد المسيحية : « أنت تعلم أن الشرير لن ينشر ذلك. » ودهش بشدة حينما أوفت مجلة **بلاي بوي** بوعدها.

بدأ مالكوم بعدها يثق بي نوعاً ما فقد كان عارفاً بقوة نفوذ المجلات القومية وأصبح ينظر إليَّ نظرة لا تخلو من شك كأحد الوسائل للوصول إلى صفحاتها. بدأ بين الحين والآخر يتصل بي ليخبرني عن حديث له مرتقب في المذياع أو التلفاز أو عن موعد محاضرة عامة سيلقيها أو ليدعوني إلى سوق خيري أو مناسبة ما يقيمها المسلمون السود.

كنت في تلك المرحلة من علاقتي بمالكوم إكس الذي كثيراً ما وصف نفسه بأنه « أكثر السود غضبا في أمريكا » ، عندما جمعني وكيلي بناشر أوحت له مقابلة مجلة **بلاي بوي** بفكرة نشر سيرة مالكوم إكس الذاتية في كتاب . سألني إن كنت أستطيع أن أقنع الزعيم النارى الذي أصبح شخصية قومية معروفة بالموافقة على رواية أدق خصائص حياته . قلت لا أدرى ولكنني سأحاول وأسأله . سألني المحرر الذي عين لذلك الكتاب أن أخطط هيكلا للأشياء الرئيسة التي سيشملها الكتاب وعندما بدأت في ذلك أدركت قلة معرفتي بالرجل شخصياً بالرغم من المقابلات التي أجريتها معه . أفدتهم بأن ذلك الطلب جعلني أدرك الدرجة التي كان مالكوم بها يقلل من قدر نفسه ويعظم من أهمية زعيمه إلايْجا محمد .

قلت لهم : إن كل ما أعرفه حقيقة هو ما أشار إليه مالكوم عرضاً عن حياة الإجرام والسجن التي كان يعيشها قبل أن يصبح مسلماً أسود وأنه ذكر لي عدة مرات « لن تصدق ماضيي» ، كما سمعت آخرين في أحدى المرات يذكرون أنه باع المخدرات والنساء وارتكب جرائم النهب المسلح .

كنت أدرك اهتمام مالكوم بالوقت لدرجة التعصب وكان ذكر لي مرة « لا صبر عندى مع من لا يرتدى ساعة لأن ذلك النوع لا يعرف قيمة الوقت ، في كل أفعالنا يحدد احترامنا للوقت الفرق بين الفشل والنجاح » كما أنني أعلم بما قالوه من أن عضوية المسلمين السود تزيد كلما ألقى مالكوم إكس محاضرة وأشعر بافتخاره لكون السجناء السود كانوا يكتشفون ديانة الإسلام مثله عندما كان سجينا. أعرف أيضاً أنه يعلن أنه لا يأكل إلا ما يطهوه المسلمون (وزوجته على

الأفضل) وأنه يشرب كثيراً من القهوة التي يحبها بالحليب معلقا بسخرية: « القهوة هي الشيء الوحيد الذي أفضله مختلطاً » كلمت المحرر ووكيلي ونحن نتناول طعام الغذاء عن كيف أن مالكوم إكس يروع غير المسلمين وحكيت لهم على سبيل المثال ما قاله لي عندما عرض توصيلي في عربته وأشعلت سيكارة بداخلها: «ذلك يجعلك أول شخص يدخن داخل هذه السيارة ».

نظر إليَّ مالكوم باندهاش عندما سألته إن كان على استعداد لأن يروى لي قصة حياته لكي تنشر في كتاب . كانت تلك من المرات القليلة التي بدأ عليه فيها عدم التأكد وأخيراً رد عليَّ: « يجب عليَّ أن أفكر في هذا الموضوع بروية » بعد يومين من ذلك اتصل هاتفيا لأقابله مرة ثانية في مطعم المسلمين السود وعندها قال : « موافق . أعتقد أن قصة حياتي ستساعد الكثيرين ليقدروا كيف ينقذ مستر محمد حياة السود . إلا أني لا أريد أن يساء تفسير دوافعي في ذلك - وأمة الإسلام يجب أن تتحصل على كل فلس يربحه ذلك الكتاب » طبعا موافقة مستر محمد ضرورية وعليَّ أن أسأله بنفسي .

ومن ثم طرت لمقابلة مستر محمد مرة ثانية ولكنها هذه المرة في مدينة فينكس بولاية أريزونا حيث ابتاعت له أمة الإسلام منزلا في طقسها الحار الجاف ليلطف من أزمته الصدرية . تحدثنا على انفراد هذه المرة وأخبرني كيف أن منظمته حققت ما حققت بالرغم من أن أغلب أعضائها غير متعلمين وأنها بالإمكان أن تقفز قفزات هائلة لو ساعدها بعض ذوي المواهب الموجودين بين السود . قال ذلك ثم أضاف ، «وأكثر ما نحتاجه هو الكتاب » لكنه لم يُلح عليَّ بالانضمام لهم . فجأة بدأ يسعل بشدة وبدأت حالته تسوء إلى أن قمت من مقعدي نحوه بانزعاج ولكنه أشار إليَّ أن أبتعد وقال لي وهو يلهث أنه سيكون على ما يرام . بين اللهثان ذكر لي أنه يشعر بأن الله يبارك الكتاب وأضاف: « مالكوم من أحسن المنسترز عندي. » وبعد أن أمر سائق عربته أن يحملني إلى مطار فينكس ودعني بسرعة وأسرع خطاه نحو غرفته وهو يسعل .

عدت إلى نيويورك وقدمت عقد النشر مكتوبا فقرأه مالكوم بدقة ثم أخرج من حافظة نقوده قطعة من الورق عليا كتابات من خط يده تقول: « أهدي هذا الكتاب لصاحب الشرف الإيْجا محمد الذي وجدني في قذارة مستنقعات أحط حضارة ومجتمع على وجه الأرض وانتشلني منها وغسلني وأوقفني على قدمي وجعل مني الرجل الذي أنا هو اليوم ».

يشترط العقد أن يدفع الوكيل إى أرباح يستحقها مالكوم إكس من الكتاب لمسجد محمد رقم اثنين لكنه شعر أن هذا غير كاف فأملى عليَّ خطابا لأطبعه

حتى يوقع هو عليه ففعلت : « أي وكل أموال تمثل نصيبي المتفق عليه يجب أن تدفع بواسطة الوكيل الأدبي لمسجد محمد رقم اثنين . ترسل هذه الأموال بالبريد على العنوان التالي: مستر رايموند شريف ، ٤٨٤٧ شارع وودلون ، شيكاجو ١٥ ، الينوي » .

أملى مالكوم عليّ خطابًا آخرا عبارة عن اتفاق بيني وبينه يقول: « ينبغي ألا تظهر في مخطوطة هذا الكتاب إى عبارة لم أقلها وألا يحذف أي شيء أرغب تضمينه في الكتاب » في المقابل طلبت منه أن يوقع على تعهد شخصي أنه سيعطيني أسبقية حصة محددة من وقته لإكمال المائة ألف كلمة التي ستظهر «كما رواها لـ ... » في كتاب يحكي تفاصيل قصة حياته كاملة. بعد شهور من ذلك وفي وقت عصيب في علاقتنا طلبت إذنه ووافق على أن أكتب أنا تعليقاً في نهاية الكتاب لا يخضع لمراجعته .

بعد ذلك مباشر بدأ مالكوم يزورني بانتظام ويقضي ساعتين أو ثلاث ساعات معي بعد أن يترك عربته الأولدزموبيل الزرقاء خارج الأستديو الذي كنت أعمل بداخله في جرينوتش فيلدج في مدينة نيويورك . كان دائما يحضر حوالي التاسعة أو العاشرة مساءً حاملاً حقيبة من الجلد البني المسطح التي ، مع هيئته الأكاديمية ، كانت تعطيه شبهاً بالمحامي المثابر . طبعاً كان يشعر بالتعب بعد يوم طويل مزدحم وأحياناً كان إرهاقه بادياً .

بدأنا بداية فقيرة وكلانا « جافل » نوعًا ما ، طبقاً للتعبير الذي يفضله مالكوم . ها هنا يجلس ويحدق أمامي الناري مالكوم إكس الذي يستطيع أن يكون سما زعافاً في وجه الزنوج الذين يثيرون غضبه تماما مثلما يكون مع البيض عموما . سمعته في التلفاز وفي المؤتمرات الصحفية يهاجم بعض الكتاب الزنوج بمرارة وينعتهم « بالعم توم » و « زنوج الساحة »و « سود في ثياب البيض» وأنا هنا جالس أحدق فيه واقترح عليه أن نقضي سنة نبحث في خبايا حياته وأسراره وهو الذي تعلم أن يكون حريصا على الكتمان أثناء حياته الإجرامية وسنواته في منظمة المسلمين السود. سنواتي العشرون في البحرية وعقيدتي المسيحية لم تسعفاني إذ أنه كثيراً ما كان يسخر من انتظام السود في هذه المؤسسات وبالرغم من أنه كان يحثني بطريقة غير مباشرة أن اكتب عن المسلمين في المجلات القومية ، إلا أنه ذكر لي أكثر من مرة وبطرق مختلفة : « أنتم أيها السود أصحاب الكفاءات المهنية المختلفة ستصحون يوما وتجدون أن عليكم الاتحاد وراء قيادة صاحب الشرف الإيْجا محمد لخلاص أرواحكم. » كان مالكوم مقتنعا أن مكتب المباحث الفدرالية وضع جهازا لاسترقاق السمع في الأستديو الذي اعمل فيه وربما بتعاون منى . في الأسابيع الأولى كان

لا يدخل الغرفة إلا وهو ينادى : « واحد... اثنان... ثلاثة... هذا اختبار... » .

وقعت بعض الحوادث المربكة أثناء زياراته لي وفي إحدى هذه الزيارات كان معى صديق حينما وصل مالكوم إكس قبل ميعاده وتقابلا في الممر. كان سلوك مالكوم خلال تلك الليلة يوحي بأن أسوأ مخاوفه قد تأكدت له. في مرة أخرى وبينما كان مالكوم يتحدث بحماس عن عظمة منظمة المسلمين السود وهو يلوح بجواز سفره، ضبطني وأنا أحاول أن أقرأ رقم الجواز المخروم عليه فرمى بالجواز أمامي فجأة وأحمرت عنقه - من جريان الدم: « تفضل خذ الرقم بتمهل لكن ذلك لن يكون شيئا جديدا للشيطان لأنه أصدر هذا الجواز ».

لمدة شهر بعد ذلك كنت خائفا إننا لن ننتج أي كتاب فمالكوم كان مازال يناديني «أيها السيد» بطريقة رسمية جافة ودفتر مذكراتي ليس به أي شيء سوى فلسفة المسلمين السود والثناء على مستر محمد «وشرور الشيطان الأبيض.» كان مالكوم يتصلب حينما أحاول تذكيره أن الكتاب المقترح هو عن حياته. بدأت أفكر في الاتصال بالناشر لأفيده بعجزي عن السير في موضوع الكتاب عندما ظهرت أول بارقة أمل. بدأت ألاحظ أن مالكوم وهو يتكلم كان يخربش بقلم أحمر جاف على أي ورقة يجدها أمامه، أحيانًا كان يخط على هامش صحيفة أحضرها معه وأحيانا على كروت بيضاء يضعها خلف مفكرته الحمراء. بدأت أترك اثنين من مناديل الورق الابيض بجانبه في كل مرة اقدم له فيها القهوة وبدأت الحيلة تثمر فقد كان يترك كلمات هنا وهناك على المناديل التي كنت اجمعها بعد أن يخرج. وهاكم بعض الأمثلة.

« هنا يرقد ر.ص.، قتله ر.س.، يحارب من أجل ر.ب. الذي قتل ر.ح. » (فك هذه الرموز لم يكن صعبا لمن يعرف مالكوم إكس ر.ص. تعني الرجل الأصفر، ر.س. تعنى الرجل الأسود، ر.ب. تعني الرجل الأبيض و ر.ح. تعني الرجل الأحمر ».

« لا شيء يحدث بدون سبب. ر.ب. لا يواجه سبب مشكلة ر.س. لأن هاجس ر.ب. هو إخفاء ذنبه».

« لو وقفت المسيحية في وجه هتلر في المانيا، لعاش ستة ملايين يهودي ».

« ر.ب. دائما يقول ل ر.س. (انظر ما فعلته لأجلك!) لا ! (انظر ما فعلته بنا) ».

« ر.س. يتعامل مع ر.ب. الذي عمى أعيننا ويأتي الآن يلومنا لأننا لا نستطيع أن نرى ».

« الرجال الوحيدون الذين غيروا التاريخ غيروا نظرة البشر لأنفسهم. هتلر ويسوع، ستالين وبوذا ... صاحب الشرف الإيْجا محمد... »

بواسطة واحدة من هذه الخربشات المتفرقة رميت أخيرا طعمًا لمالكوم فتلقفه.

أحد الجمل التي خطها كانت: « المرأة التي تبكي طول الوقت تفعل ذلك فقط لأنها تعلم أنها بذلك ستحصل على ما تريد. » بطريقة ما أثرت موضوع النساء معه. فجأة وما بين رشفات القهوة والخربشة على منديل الورق نفث عن انتقاده وشكوكه في النساء. « لن تستطيع أبدًا الثقة الكاملة بالنساء والتي معي هي المرأة الوحيدة التي أثق بها خمساً وسبعين بالمائة ولقد قلت لها ذلك. أخبرتها مثل ما أقول لك الآن انني رأيت رجالا كثيرين حطمتهم زوجاتهم أو نساؤهم» .

« إنني لا أثق كلية بأي شخص » استمر مالكم مواصلا ثم أردف : « بما في ذلك نفسي. لقد رأيت رجالا كثيرين يحطمون أنفسهم ، وثقتي في الناس تتراوح ما بين من لا أثق فيهم إطلاقا إلى من أثق فيه بدرجة عالية مثل صاحب الشرف الإلِيْجا محمد » نظر إلي مالكوم بجدية وأكمل : « أما أنت فإني أثق بك خمساً وعشرين بالمائة » .

في محاولة لجعله يواصل الكلام استغللت موضوع المرأة إلى النهاية . هتف مزهوا وقال : « أتدري لماذا تحول بنديكت ارنولد إلى خائن – بسبب امرأة . مهما كانت المرأة ولا يهمني من هي ، فالقصة تبدأ بالغرور وسأبرهن لك ذلك بشيء تستطيع أن تفعله وقتما تشاء وأنا أعرف ما أتحدث عنه فقد جربته . فكر في أكثر امرأة صعبة و متشددة تعرفها ، واحدة من هؤلاء اللائي لا يبتسمن أبدًا . في كل يوم تراها انظر إليها في عينها وقل لها (أرى أنك جميلة) ولاحظ ما سيحدث . ستلعنك وتسبك في أول يوم وربما في اليوم الثاني أيضا واستمر في ذلك وبعد مدة سيأتي يوم تبتسم فيه بمجرد رؤيتك في طرف الشارع ».

عندما غادرني تلك الليلة جمعت مناديل الورق فأثبتت لي الكلمات التي عليها كيف أن مالكوم قد يكون يتحدث في شيء ويفكر في شيء آخر : « للزنوج استقامة أكثر من اللازم . ر . ب . يقول:(إنني أريد هذه الأرض . كيف لي أن أخرج منها الألفى ر . س) ».

« لي زوجة تفهمني وحتى إذا لم تكن تفهم فهي على الأقل تتصنع ذلك» .

« نضال ر. س. لن يجد الدعم الخارجي المفتوح الذي يحتاجه إلا عندما يوحد جبهته الداخلية ».

« أجلس ، أتحدث إلى أصحاب العقول الذين أحترمهم. كلنا يبغي نفس الشيء. أشحذ الأذهان».

« سيصدمون إذا كشفت أسماء ر . س . الذين اجتمعوا معهم في السر» (معهم ترجع إلى الإلِيْجا محمد) .

ثم حدث ذات ليلة أن وصل مالكوم وهو يجرجر رجليه من الإعياء وبدأ يجوب الغرفة جيئة وذهاباً وهو يلقي خطبة ضد قادة الزنوج الذين كانوا يهاجمون مستر محمد وينتقدونه. لا أدري ما الذي أوحى لي في إحدى وقفاته ليلتقط أنفاسه أن أسأله: « هل لك في أن تحكي لنا شيئا عن أمك؟ ».

توقف فجأة ونظرته إلي جعلتني أحدس بأن سؤالي العشوائي أصاب منه مقتلا وحينما أسترجع الأمر الآن أعتقد أنني لا بد قد فاجأته وهو في حالة من الإعياء ضعفت معها دفاعاته . بدأ مالكوم يتكلم ببطء وهو يمشي في دائرة ضيقة . «كانت دائما واقفة أمام الموقد تحاول أن تعد ما عندنا للأكل . كنا نكاد يغمى علينا من الجوع . وما زلت أذكر لون الرداء الذي كانت ترتديه ، كان رماديا باهتا . . . » استمر يتحدث حتى الفجر في تلك الليلة وقدماه الكبيرتان تكادان تصطدمان ببعضهما من المشي حول الغرفة . من ينبوع الذكريات اليقظ هذا ، أخيرًا استخرجت الأساس لأول فصلين في هذا الكتاب ، « الكابوس » و « جالب السعد » . منذ تلك الليلة لم يتردد خلال العامين التاليين في رواية أدق تفاصيل حياته الشخصية لي ويبدو أن حديثه عن أمه فجر شيئا ما في داخله .

مزاج مالكوم إكس كان يتفاوت ما بين كئيب إلى متجهم وهو يتذكر أيام طفولته . ما زلت اذكر تأكيده على نقطة معينة توضح كيف وعى لحقيقة مهمة في الحياة اثرت عليه منذ ذلك الزمن : « المفصلة التي لها صرير هي التي تحصل على الزيت. » عندما وصل في سردها لانتقاله إلى بوسطن ليقيم عند أخته غير الشقيقة ، اللا ، بدأ مالكوم يضحك على جهله في شوارع الجيتو حينها . « لِمَ ؟ ! أنني احكي لك أشياء لم أفكر فيها منذ أن انقضت » وعندما بدأ يحكي عن أيامه الأولى في هارلم ، أطلق العنان لشعوره . ذات ليلة فجاة وبجنون قفز من كرسيه وبدأ الديماجوجي الأسود المهاب يدندن ببعض الأغاني ويفرقع أصابعه ، « رى – بوب – دى - بوب -بلاب - بلام - » وأنا لا أصدق ، ثم أمسك ماسورة مستقيمة بيديه (كشريكة في الرقص) وبدأ يرقص اللندى في نشوة ومؤخرة سترته وساقاه الطويلتان وقدماه الكبيرتان يطيرون كما فعلوا في أيام هارلم تلك . ثم انتبه إلى نفسه فجأة وجلس في حالة نكد حتى نهاية تلك الجلسة . بعد ذلك بمدة حلت به حالة الكآبة وهو يحكي عن هارلم . « خطأي الوحيد في رأيي هو أنهم قبضوا عليَّ وأنا أرتكب خطأ. لقد كنت أعيش في غابة وبعقل الغابة وأي شيء فعلته كان بغريزة البقاء » ، ولكنه أكد أنه ليس بنادم على جرائمه ، « لأنها ليست إلا حصيلة ما يحدث لألوف فوق ألوف من الرجال السود في عالم الرجل المسيحي الأبيض » .

عادت إليه النشوة وهو يحكي عن أيامه في السجن « دعني أحكي لك كيف كنت أجعل هؤلاء الأشرار البيض ، سجناء وسجانين ، يفعلون أي شيء أطلبه . كنت أهمس في أذن الواحد منهم (إذا لم تفعل ما أطلب فسأبدأ نشر إشاعة أنك زنجي فاتح اللون يظنه الناس أبيض) . ذلك يريك نظرة الشيطان الأبيض إلى الرجل الأسود . إنه يفضل الموت على أن يقال عنه إنه زنجي. » كلمني أيضا عن قراءاته في السجن . « لم أعرف كنه ما أفعل لكنني وجدت نفسي أميل إلى الكتابات التي بها فيتامينات ذهنية » وفي مرة أخرى : « في عالم اليوم القلق ليس هنالك وقت للتعمق في الأمور أو التفكير الملي . أما السجين فعنده الوقت الذي يمكنه أن يحسن استخدامه . السجن يأتي بعد الجامعة في نظري كأحسن مكان يذهب إليه الإنسان ليقوم ببعض التفكير إذا كان لديه الحافز فقد يغير من حياته » .

في مرة أخرى بعد ، فكر مالكوم : « إذا دخل الرجل السجن مرة فستتغير نظرته نحو نفسه ونحو الناس . البسطاء خارج السجن الذين تسير سفينتهم فوق مياه هادئة دائما يشمئزون من السجين سابقا لكن ذلك السجين سيرفع رأسه عاليًا بينما تغرق سفينة البسطاء. »

في تلك الليلة خربش (كنت أؤرخ مفكرتي ومناديل الورق) ما يأتي : « هذا ال ر. ب . صنع وألقى القنبلة الذرية على غير البيض ، ر . ب . حاليًا يسمي البعض « حمر» ويعيش في خوف من ر . ب . آخر يعلم أنه قد يلقي عليه قنبلة » .

أيضا : « تعلم الحكمة من إنسان العين الذي يرى كل شيء ولكنه أعمى من رؤية نفسه . شاعر فارسي ».

في فترات التوقف كان مالكوم يضع نبرة ويؤكد لي : « لا أريد الآن لهذا الكتاب أن يظهر وكأنني أظن أنني شخص مهم » . فكنت أقول له: إنني سأجتهد ألا يحدث ذلك وأنه على أية حال سيراجع المخطوطة صفحة صفحة ثم بعد ذلك يراجع بروفة المطبعة . في مرات أخرى كان ينهى هجوما على الرجل الأبيض ليتوقف ويعلن بقوة : « ذلك الشيطان لن يطبع هذا مهما قال ! » فكنت أذكره بأن الناشر ملزم بعقد مكتوب وأنه دفع مبلغًا كبيرًا نظير ذلك مقدما . كان يرد علي ، « أنت تثق بهم أما أنا فلا . لقد درست ما أراد لك أن تعرفه عنه في المدرسة وأنا درسته في الشوارع والسجون حيث لا تُحجب الحقيقة ».

التجارب التي يمر بها مالكوم أثناء اليوم كانت تعطي نكهة لمزاجه أثناء الجلسة والقصص اللطيفة الطريفة كانت تسرد في الأيام التي تكون فيها حادثة ما قد مست شعوره . ذات مرة على سبيل المثال أخبرني أنه علم أن رجلا من هارلم

وزوجته ، ولم يكونا من المسلمين السود ، قد أسميا طفلهما الوليد « مالكوم » تيمنا به . كان يهتف قائلا :« ماذا تعرف عن ذلك ! » تلك كانت الليلة التي رجع فيها بعقله إلى أيام طفولته مرة أخرى واسترجع كيف كان يستلقي على ظهره في تل هكتور ويفكر . وفي تلك الليلة أيضا تذكر : « لن أنسى أبدًا اليوم الذي انتخبوني فيه عريفا للصف . رشحتني صبية تدعى اودرى سلاو كان أبوها يملك محلا لإصلاح العربات واثنى على ترشيحي صبي يدعى جيمس قطن . طلب مني المدرس أن أغادر الغرفة بينما بقية الصف تقترع وعندما عدت أصبحت عريف الفصل - لم أصدق ذلك ».

أي كتاب مثير ممتع يقرأه مالكوم كان يجعله يسرف في الحديث عن ولعه بالكتب « الناس لا تعرف المدى الذي يمكن أن يغير به كتاب حياة إنسان . » كان يعود مرارًا وتكرارًا لموضوع الكتب التي قرأها في السجن ، سألني مرة « هل قرأت أبداً نسيج اللغة؟» فقلت لا لم أقرأه . « ينبغي أن تقرأه . الفيلولوجيا ، علم اللغات علم صعب وهو التعرف على الكلمات حيثما وجدت . خذ كلمة سيزر (قيصر) مثلاً فهي لاتينية وتنطق كيسر ولكننا ننطقها بالسين في الإنجليزية. أما الروس فيقولون :(ظار) وهي تعني نفس الشيء وفي رواية أخرى (تظار). جاكوب جريم كان من ألمع علماء اللغات وقد درست نظريته في السجن وكلها عن الحروف الساكنة . الفيلولوجيا ذات صلة بعلم الأتيمولوجيا التي تعنى بجذور الكلمات وتاريخها ».

عندما أرجع إلى تلك الصفحة في مذكرتي أجد أن الصفحة التالية بها مذكرة تقول: اتصل بي مالكوم هاتفياً ليخبرني أنه « مسافر خارج المدينة لعدة أيام ». افترضت أن لديه ارتباطا بمحاضرة في مكان ما مثل مرات كثيرة سابقة أو أنه سيعتني ببعض أمور المسلمين هنالك فكنت أستغل تلك الفرصة لأرتب أوراقي حسب عناوين الفصول التي تلائمها . ولكنه حينما عاد هذه المرة أخبرني مزهوًا : «عندي لك خبر سيدهشك . منذ أن تحدثت معك عن أمي ، أصبحت أفكر فيها كثيراً واكتشفت أنني منعت نفسي من التفكير إذ التفكير فيها وهي تقضي بضعاً وعشرين سنة في مصحة عقلية لم يكن أمراً مبهجاً . لا أود أن أدعي الفضل لنفسي لأن من فكر في إخراجها كانت أختي يفون . جمعت يفون أخوتي ولفرد ، وزلي و فلبرت مع بعض وانضممت أنا إليهم أيضاً وفلبرت هو الذي عالج الموضوع.

« لقد جعلني ذلك أواجه شيئاً عن نفسي وهو أنني أزحتها عن تفكيري لأنني ببساطة لم أشعر أن المشكلة يمكن أن تحل ولذلك منعت نفسي من تذكرها وذلك بعقلي الباطن . الرجل الأبيض يفعل ذلك فهو ينحي الأمر عن عقله ويبني في

عقله الباطن سدوداً فكرية حول أي شيء لا يريد أن يواجهه . لقد وعيت لذلك لتوي وعرفت كيف كان عقلي مسدوداً نحوها بعد أن أثرت أنت الموضوع . تلك خصلة لا أحبها في نفسي فأنا عندما تواجهني مشكلة أعجز عن حلها أنفيها من عقلي وأتظاهر أنها غير موجودة لكنها موجودة ».

كان الدور عليَّ أن أتأثر بذلك . بعد ذلك بفترة ليست طويلة غادر مالكوم المدينة لعدة أيام وعندما عاد هذه المرة قال أنهم « تناولوا العشاء في منزل فلبرت مع والدتهم لأول مرة منذ سنوات طويلة.» أخبرني أن « عمرها ستة وستين عاماً وذاكرتها أحسن من ذاكرتي وتبدو شابة وفي صحة جيدة . كانت محتفظة بأسنانها الطبيعية أكثر من الذين تسببوا في إرسالها للمصحة ».

كان مالكوم عندما يغضبه شيء أثناء اليوم يأتي وهو محمر الوجه ويقضي جل وقت اللقاء في هجوم مرير. عندما أطلقت الشرطة في لوس أنجلوس النار على بعض المسلمين وأردت أحدهم قتيلاً ، عاد مالكوم من رحلته إلى هناك وصار قليل الكلام لمدة أسبوع . هنالك في لوس أنجلوس وهو في ذلك المزاج أطلق مالكوم جملته التي أثارت عليه حنق الناس من الجنسين ، البيض والسود . قال: « لقد سمعت لتوي أخباراً جميلة » وهو يشير إلى حادث انفجار طائرة في مطار أورلى بباريس توفي منه للتو بعض وثلاثون أمريكي أبيض مغظمهم من مدينة أطلانطا بولاية جورجيا . لم يعترف مالكوم أبداً بخطئه أمام الجمهور عن تلك الجملة فيما أعرف ولكنه قال لي بعدها بمدة طويلة « تلك واحدة من الأشياء أتمنى لو أني لم أقلها أبداً ».

في أي مرة نذكر فيها القاضي الفدرالي ثيرجود مارشال (عضو المحكمة الأمريكية العليا اليوم) ، كان مالكوم يهيل النار على ما قاله ذلك القاضي قبل سنوات عندما كان كبير المستشارين القانونيين لمنظمة تقدم الملونين القومية: «المسلمون يدير أمورهم مجموعة من اللصوص من داخل السجون وأنا متأكد أن إحدى المجموعات العربية تمولهم » المرة الوحيدة التي سمعت فيها مالكوم يقول كلمة يمكن أن تفسر على أنها سباب هي كلمة « الجحيم » التي قالها تعليقاً على تصريح قاله الدكتور مارتن لوثركنج فحواه أن خطب مالكوم « جلبت الشقاء على الزنوج » انفجر مالكوم أمامي : « بحق الجحيم كيف لحديثي أن يفضي إلى ذلك ؟ دائماً يلومون الزنوج وينسون ما فعله الرجل الأبيض ». اتهامه « بالدهماوى » و« المتطرف » كانا دائماً يهيجانه « نعم ، أنا متطرف. الرجل الأسود هنا في أمريكا في حالة متطرفة السوء . أرني رجلاً أسود ليس متطرفاً وسأريك واحداً في حاجة إلى علاج نفسي ! ».

ذات مرة قال « أرسطو صدم الناس ، داروين أثار غضبهم ، الدوس هوكسلي فضح الملايين .» أتبع مالكوم ذلك مباشرة بقوله :« لاتكتب هذا وإلا لظنوا أنني أشبه نفسي بهؤلاء . في مرة أخرى استفزه شيء ما فصاح قائلاً :« هؤلاء (الأعمام توم) يذكرونني كيف هوجم المسيح وسط أهله » ثم قفز مباشرة بعد ذلك وخطف مني الورقة ، مزقها ثم فركها بيده ووضعها في جيبه واستمر خامداً بقية اللقاء.

أذكر مرة أنه أراني أثناء الحديث ورقة من صحيفة بها خبر عن وليد زنجي عضه جرذ . علق مالكوم بالتالي : « اقرأ هذا الآن وفكر فيه لدقيقة ! لنفترض أنه كان طفلك ! أين مالك ذلك المبنى – على البلاج في ميامي ! » استمر يغلي طول الوقت في تلك الليلة . لم أذهب معه في صباح اليوم التالي حينما ذهب وخاطب مجموعة من الزنوج في هارلم ووقعت حادثة سجلتها هيلين دودار في صحيفة نيويورك بوست كالتالي :

« نظر مالكوم وهو يتحدث إلى أحد الصحفيين البيض أمامه وكانوا البيض الوحيدين بين الحضور وقال :« أمامنا الآن أحد من الصحفيين الذي لم يكتب كلمة في مفكرته لأكثر من نصف ساعة ولكن ما إن يسمعني أقول شيئاً عن اليهود إلا ويبدأ في الكتابة والاهتمام ليبرهن إني معاد للسامية ».

« من خلف الصحفي ارتفع صوت رجل يقول : اقتلوا ابن الزنا ، اقتلوهم كلهم . الصحفي الشاب من خوفه ابتسم بعصبية فسخر منه مالكوم قائلاً : انظروا إليه وهو يضحك . إنه لا يضحك حقاً فهو يضحك بأسنانه . سيطر على حافة الجو توتر قبيح فاستمر مالكوم : الرجل الأبيض لا يعرف كيف يضحك ، أنه فقط يظهر أسنانه ، لكننا نعرف الضحك ونضحك من أعماقنا حتى شعر رأسنا. انفجر المستمعون ضاحكين من أعماقهم حتى شعر رأسهم ومثلما أهاج مالكوم الجمهور فجأة ، هدأه بحنكة وسرعة كانت ضربة معلم وتعليقا جائراً في نفس الوقت ».

سمعت في مكان ما بعد ذلك أو قرأت أن مالكوم إكس اتصل بالصحفي هاتفيًا ليعتذر له . إلا أن هذا النوع من الحوادث هو الذي دعا الكثير من مراقبي الظاهرة المالكومية أن يعلنوا بجدية مطلقة أنه كان الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يشعل شغباً عنصرياً أو يوقفه. عندما قلت هذه الجملة أمامه مرة بطريقة تستدعي تعليقه من غير أن يشعر علق بطريقة لاذعة « لست أدري إذا كان باستطاعتي أن أشعل شغباً ولست أدري إن كنت سأود أن أوقف شغباً ».

مع مرور الشهور بدأت أؤسس نوعا من العلاقة الهاتفية مع زوجة مالكوم إكس التي كنت أناديها « الأخت بتي » كما سمعت المسلمون يفعلون . أعجبت بطريقة إدارتها للمنزل مع وجود ثلاثة أطفال صغار ثم تتمكن بعد ذلك من الرد على كل

المحادثات الهاتفية التي تأتي لمالكوم والتي كان عددها حتما يكفي ليشغل عاملة تشغيل هاتف . أحيانا عندما يكون معي يتصل بالمنزل هاتفيًا ويقضي ما يصل خمس دقائق وهو يكتب بسرعة على مفكرة الرسائل المختلفة التي تركت له .

الأخت بتي كانت عامة ودودة وهي ترد على الهاتف لكنها أحيانا كانت تهتف بغضب: « هذا الرجل لا ينام أبدًا . » مالكوم كان نادرًا ما يعمل أقل من ١٨ ساعة في كل يوم من أيام الأسبوع . أحيانا كان يبقى معي حتى الرابعة صباحًا في الأستديو و مع أن المسافة إلى بيته في أيست المهيرست بلونج آيلاند تستغرق أربعين دقيقة ، كان يطلب مني أن أتصل به في التاسعة صباحا . كان ذلك يحدث عندما كان يريدني أن أذهب معه لمكان ما وكان يحب أن يراجع التزاماته في البيت أولا قبل أن يحدد لي أين ومتى سنتقابل (هنالك أيام لا ألقى فيها أنا نفسي نوما كافيا .) كان يصحبه دائما بعض زملائه المسلمين مثل جيمس ٦٧ إكس (المسلم رقم ٦٧ الذي انضم إلى مسجد هارلم رقم ٧ وهو يحمل اسم جيمس أيضا) . أو تشارلس ٣٧ إكس ، أو أنا لكنه لم يطلب مني أبدا أن أنضم إليه عندما يكون أي منهم موجوداً . ذهبت معه إلى محاضرات في الكليات والجامعات ، إلى أحاديث في المذياع والتلفاز وإلى محاضرات عامة في أماكن وظروف متباينة .

كنا حين نكون سائرين بالسيارة في مكان ما يلوح سائقو العربات لمالكوم ، بيضًا وزنوجًا ، ووجوههم تشرق بالانبهار الذي تثيره في الناس مقابلة المشهورين . كثير من مضيفات الطائرات أصبحن يعرفنه لأنه يسافر بالطائرة كثيرا . كن يبتسمن بإشراق نحوه. هو من ناحيته كان عصارة التهذيب وما أن ينتشر خبر وجوده في الطائرة إلا وتشتد الحركة في الممر إلى المرحاض مارة به . وعندما نصل إلى أي مكان اعتدنا أن نسمع جملة« ذلك مالكوم إكس ! » أين ؟ « الطويل القامة » المارة من اللونين كانوا يحملقون فيه وبعضهم ، وأكثر ذلك البعض من الزنوج ، يكلمونه أو يومئون برؤوسهم نحوه محيين و نسبة كبيرة من البيض كان يبدو عليهم عدم الارتياح لوجودهم في حضرته خاصة في الأماكن الضيقة مثل المصاعد . « أنا الرجل الأسود الوحيد الذي يقول الحق يجدون أنفسهم على مقربة منه » ذلك ما وضحه لي مالكوم ذات مرة . « أن ما يزعجهم هو شعورهم بالذنب وليس أنا. » في مرة أخرى قال ، « الرجل الأبيض يخاف من الحقيقة فهي تأخذ بخناقه وتنهك قواه – لاحظ كيف يحمر وجهه في أي مرة تقول له فيها حقيقة صغيرة ».

كان هنالك شيء ما حول هذا الرجل حينما يكون موجودا في غرفة مع آخرين فهو يسيطر على الغرفة أيما شخص آخر كان حاضرًا . وحتى في خارج الغرف ، أذكر مرة في هارلم أنه كان يجلس في مدرج بين المتحدثين عضو الكونجرس آدم

كلايتون باول ورئيس مجلس قسم مانهاتن السابق ، هولان جاك ، في تظاهرة في الشارع ، وعندما انتهت كانت أنظار الجمهور مركزة أساسًا على مالكوم إكس

أذكر مرة أخرى أننا سافرنا بالقطار من مدينة نيويورك إلى فيلادلفيا حيث ظهر في قاعة المؤتمرات في المدينة في برنامج إذاعي لمحطة دبليو . سي.أيه.يو. يقدمه إد هاريف . سأله هاريف وهو يقدمه « أنت الرجل الذي قال كل الزنوج غضبي وأنا أكثرهم غضبا على الاطلاق ، هل هذا صحيح ؟ » أجاب مالكوم بهدوء :« هذه الرواية صحيحة ! » فتفرس جمهور الواقفين فيه متسمرًا .

ركبنا القطار إلى فيلادلفيا في مقاعد محجوزة في عربة ممتازة وكان تعليقه على ذلك ، « لا أستطيع أن اركب في عربة سياحية لأن ذلك يسبب لي متاعب عندما تكتشف جمهرة الركاب وجودي . » ونحن في الطريق داخل القطار إلى العربية المترفة مررنا بعربة الطعام فعلق ، « لقد كنت أعمل في هذه العربة » وفي الطريق إلى وجهتنا اخبرني عرضًا أن أل إف . بي . آي (مكتب المباحث الفدرالية) حاول أن يرشوه ليتحصل على معلومات عن الإليجا محمد وأنه يود لي أن أتأكد وأقرأ كتابًا جديدًا اسمه أزمة بالأبيض والأسود ألفه تشارلس سيلبرمان ، «من قلائل الكتاب البيض الذي أعرفهم له شجاعه ليقول ما يراه حقيقة » ، كما طلب مني أن أتذكر واتصل هاتفيا بهيلين دودار المحررة في صحيفة نيويورك بوست لأقول لها أنه أعجب كثيرًا بسلسلة التحقيقات الأخيرة التي قامت بها . لم يكن يود أن يعبر لها عن ثنائه شخصيا .

بعد انتهاء برنامج إد هاريف رجعنا بالقطار لمدينة نيويورك . العربة الممتازة وهي مزدحمة بالرجال العائدين من العمل ووجوههم خلف صحفهم كانت وكأنما أصابها تيار كهربائي لوجود مالكوم إكس و بينما الحمال الزنجي بردائه الأبيض يمشي ويجيء في الممر همس مالكوم إكس في أذني : « كان يعمل معي ولكني نسيت إسمه إلا أننا كنا نعمل سويًا في نفس القطار . أنظر إليه فهو يعرفني ولكنه يفكر فيما يفعل إزاء هذا الموقف . » فات الحمال من أمامنا ووجهه لا تبدو عليه أي عاطفة ولكن حينما مر بقربنا في المرة التالية ، مال مالكوم إكس فجأة من مقعده وهو يبتسم نحوه ، عندها هتف الحمال فجأة ، وبصوت عال ، « لم ! أنا أعرف من أنت . لقد كنت تغسل الأطباق في نفس هذا القطار وقد أخبرت بعض الزملاء بذلك . كلنا نتتبع أخبارك ».

ازداد التوتر في العربة كثافة ثم عاد النادل بعد فترة وجيزة ليقول لمالكوم إكس . « أحد ضيوفنا يود التعرف إليك » بعد ذلك حالا نهض شاب ابيض أنيق الهندام وتقدم من مالكوم مادا يده فنهض مالكوم وهز على اليد الممدودة بشدة.

الصحف في أيدي الركاب تدلت قليلا لتظهر عيونهم . أوضح الشاب الأبيض بجلاء وبصوت عال أنه كان في الشرق لمدة وهو الآن يدرس في جامعة كولومبيا وأضاف لمالكوم إكس : « لا أتفق معك في كل ما تقوله ولكنني معجب بطريقة عرضك».

صوت مالكوم وهو يرد كان الود مجسما إذ قال « لا أعتقد أنك ستجد في طول أمريكا وعرضها رجلين يتفقان في كل شئ .» تلى ذلك ما قاله لرجل آخر ، رجل أعمال عجوز جاء وهز على يدي مالكوم ، « سيدي ، أنا مدرك لما تشعر به . أنه من الصعب أن تهاجمني في حين أنك تتفق معي في كثير مما أقول » ثم استمرينا إلى نيويورك .

في واشنطن د. س. هاجم مالكوم الحكومة لتمنعها في اتخاذ خطوات ايجابية في صالح الزنوج . في ظني أنه حتى البيت الأبيض اهتم بما قال لأنني بعد ذلك بمدة تركت مقابلاتي مع مالكوم لعدة أيام وذهبت إلى البيت الأبيض لكتابة مقابلة صحفية مع السكرتير الصحفي للبيت الأبيض حينها بيير سالنجر الذي كشر وجهه عندما ذكرت له أنني أعد كتاباً عن سيرة مالكوم إكس الذاتية في مرة أخرى تركت مالكوم لعمل مقابلة صحفية مع جورج لنكون روكويل قائد الحزب النازي الأمريكي الذي قال لي بصراحة أنة أعجب بشجاعة مالكوم إكس ويرى أن كليهما يجب أن يلقيا محاضرات سويًا في كل أرجاء الولايات المتحدة وبذلك يبدآن في تقديم حل حقيقي للمسألة العنصرية – حل ينطوي على الانفصال طوعيا بين الجنسين الأبيض والأسود يعود بموجبه الزنوج إلى أفريقيا . ذكرت ذلك لمالكوم فتنهد قائلا : « لابد أنه يظنني مخبولاً. كيف أبدو وأنا أتنقل مع الشيطان نخطب من مكان لآخر .» في مرة أخرى بعد ، ذهبت إلى أطلانطا وعملت مقابلة صحفية مع دكتور مارتن لوثر كنج الذي بدا عليه الفضول وهو يسمع مني بعض الأشياء الصغيرة غير المعروفة عن مالكوم إكس ، أما للنشر الصحفي فقد تحدث عن مالكوم بتحفظ وقال أنة يود أن تسنح له فرصة ليتحدث معه في المستقبل . عندما سمع مالكوم ذلك قال بجفاء: « هل تعتقد أن علي أن أبرقه برقم هاتفي ؟ » (لكن من الأشياء الأخرى التي قالها لي مالكوم في مرات مختلفة ، استخلصت أن مالكوم يكن لدكتور كنج إعجاباً متمنعاً) .

مالكوم إكس وأنا وصلنا في الآخر إلى تبادل إخاء ما وبالرغم من أن أيًا منا لم يقلها شفاهه فقد كانت علاقتنا دافئة . كان بالنسبة لي واحدا من أكثر الشخصيات إثارة للاهتمام بين كل من عرفت إطلاقا ومن جانبه استخلصت أنني كنت شخصا يستطيع أن يفتح له قلبه من غير أن يخاف أنني سأنقل ما قاله إلى شخص أخر ومثل أي شخص يعيش في توتر كان يسره أن يكون مع شخص ، رجل

أخر ، يمكنه أن يسترخي في حضرته . أصبح عندما أسافر في مهمة يطلب مني أن أتصل به لأخبره بميعاد عودتي إلى نيويورك وعادة كان يحضر لمقابلتي في المطار إذا وجد الوقت . كنت أراه سائرًا نحوي بخطواته الواسعة وعلى وجهه الابتسامة العريضة الطيبة وعندما نركب عربته يحدثني في الطريق عن آخر الأخبار المثيرة التي حدثت في غيابي . أذكر واقعة معينة في المطار أرتني أن مالكوم لم يفقد أبداً إحساسه بالعنصرية . كنا في انتظار وصول العفش فشاهدنا لقاء أفراد عائلة يلمس أوتار القلوب وبينهم أطفال صغار يقفزون ويلعبون وينادون بعضهم في لغة أجنبية . علق مالكوم ، « غدًا مساء سيتعلمون أولى كلماتها باللغة الإنجليزية : نيجر ! » .

عندما يسافر مالكوم في رحلة طويلة إلى بلد مثل سان فرنسيسكو أو لوس أنجلوس لم أكن أصحبه ولكنه كان كثيرًا ما يتصل بي هاتفيا في آخر الليل ليسأل عن سير الكتاب وقد يحدد ميعاد جلستنا التالية وهنالك اتصال هاتفي معين لن أنساه أبدًا أتاني في الرابعة صباحا ولابد أنه استيقظ لتوه من النوم في لوس انجلوس . أتاني صوته يقول :« إليكس هيلي ؟ » وقلت وأنا شبه نائم « نعم ، أوه ، هاي ، مالكوم ! » فأجابني :« إنني أثق بك سبعين بالمائة » ثم أقفل الخط . استلقيت لفترة أفكر فيه ثم قفلت عائدًا إلى النوم مع حرارة ذلك الشعور التي مازلت أحس بها عندما أتذكرها . لم يذكر أينا تلك المحادثة أبداً بعد ذلك .

احترام مالكوم المتزايد لبعض البيض الأفراد كان يسبغه على من كانوا لا يأخذون ما يقوله كمسألة شخصية ويتعاركون معه فكريا كرجل لرجل . بالإضافة إلى ذلك صارت لديه قناعة بأنه يستطيع أن يعرف أشياء كثيرة عن أي شخص بالإصغاء إلى صوته . « أنني تنصت جيدا لصوت الرجل حينما يتكلم وأستطيع من ذلك أن أحدد مدى إخلاصه » أما أكثر صحفي أعجب به مالكوم في النهاية أكثر من أي شخص آخر فقد كان م . س هاندلر من صحيفة نيويورك تايمز (لقد سعدت جدا عندما علمت بموافقة هاندلر على كتابة مقدمة هذا الكتاب وأنا متأكد أن مالكوم سيسر بذلك) . المرة الأولى التي سمعت فيها مالكوم وهو يتحدث عن هاندلر الذي كان قد قابله حديثا ، بدأ كالتالي ، « لقد كنت أتحدث مع هذا الشرير » ثم توقف فجأة في خجل من نفسه واردف « إنه صحفي يدعى هاندلر ، من التايمز » بدأ احترام مالكوم للرجل يزداد بانتظام وعلق مالكوم عنه بعد شهور من ذلك : « إنه أقل رجل أبيض قابلته تحاملا على الإطلاق وبصدق . لقد أخبرته وسألته عن عدة أشياء كما أنني استمعت له يتحدث عن قرب ».

لقد رأيت مالكوم مرات كثيرة وهو منتشياً في فترات النقاش بعد المحاضرات

في الجامعات والكليات التي أغلب طلابها من البيض مما يجعل من الصعب علي أن أصدق أنه في أعماقه يكره كل البيض بلا استثناء . « أمل أمريكا الوحيد هو في شبابها الأبيض وكذلك الأسود أما بقيتنا فقد كنا دوما نعيش كذبة » [illegible] ذكره لي مرة .

هنالك عدة زنوج يأتون إلى الذاكرة الآن بهروا مالكوم إكس بشدة (وآخرون أتذكرهم لعلمي بأنه كان يمقتهم بشدة ولكني لن أذكر الأسماء) من الذين كان يقدرهم ويضعهم في مرتبة عالية كان المصور العظيم ، جوردون باركز ، الذي ارتبط اسمه بمجلة **لايف** . من خلال نفوذ مالكوم إكس مع الإيْجا محمد ، سمح لباركز أن يدخل ويصور بغرض النشر في مجلة **لايف** ، تدريبات الدفاع عن النفس السرية التي يقوم بها شباب ثمار الإسلام مما جعل من باركز فيما أعلم أول شخص غير مسلم ، ماعدا رجال الشرطة والجواسيس الحكوميين ، يشهد ذلك . قال عنه مالكوم ذات مرة :« نجاحه مع البيض لم يجعله ينسى حقيقة أنه أسود » .

وشخص آخر كان مالكوم إكس يكن له نفس الشعور هو الممثل الزنجي أوسي ديفز . مرة وبينما كنا في منتصف الحديث في إحدى المقابلات توقف فجأة ليسألني ، « هل تعرف أوسي ديفز؟ » وعندما أجبت بالنفي قال « عليّ أن أعرفك به ، فهو واحد من أروع الرجال السود» . و من تعامله الطويل مع محرري صحيفة هارلم الأسبوعية أمستردام نيوز حاز كل من المحرر التنفيذي ، جيمس هيكس ، وكاتب التحقيقات جيمس بوكر ، على إعجاب مالكوم . عن هيكس قال « إن عقله متفتح وهو لا يخشى الرجل الأبيض أبداً ». و رأيه في بوكر كان أنه مراسل ممتاز وكذلك بهرته مسز بوكر حينما قابلها .

بواسطة مالكوم تعرفت إلى اثنين من أعز أصدقائي اليوم فقد قدمني إلى دكتور سي . إريك لنكون الذي كان وقتها يعد كتابه المسلمون السود في أمريكا و إلى لوي لوماكس الذي نشرت له وقتها عدة مقالات عن المسلمين . احترم مالكوم بشدة الاهتمام والتعمق الذي كان دكتور لنكون يؤدي بهما بحثه . أما ما كان يعجب به في لوماكس فهو جريه خلف الأخبار بعين مفتوحة وأذن مترقبة للأخبار الساخنة . كان يقول عنه :« لو رأيت ذلك الوغد يجري إلى مكان ما ، فسأجري خلفه لأني سأتيقن أنه وراء شيء مهم ». أعجب مالكوم أيضًا بالكاتب جيمس بالدوين « إنه ذكي لدرجة أنه يشوش على تفكير الرجل الأبيض بالكلمات » ، وفي مرة أخرى قال عنه ، « لقد أقلق الرجل الأبيض أكثر من أي شخص ما عدا الإيْجا محمد ».

مالكوم لم يكن يثني على القساوسة السود ربما لأنهم كانوا دائما يهاجمون

الإيجا محمد . ما عدا احترامه المتمنع لدكتور كنج ، سمعته يذكر بخير قسًا واحدًا فقط هو الأب يوجين ل. كالندر من كنيسة المشيخانيين ، « إنه واعظ ولكنه محارب من أجل الرجل الأسود ». ذلك ما صرح لي به مالكوم عنه مرة . علمت بعد ذلك أن الأب كالندر ، الرجل الصريح ، قابل مالكوم في مكان ما مرة وأخذه جانبا وقرأ له شيئا من هجومه العام على القساوسة السود عاتبا عليه . مالكوم كان معجبًا أيضًا بالأب آدم كلايتون باول في دوره كعضو بالكونجرس الأمريكي ، « سأفكر بالتقاعد إذا كان للرجل الأسود عشرة من أمثاله في واشنطن . » كان له شعور مماثل نحو محامي المنظمة القومية لتقدم الملونين ، بيرسي سطن ، الذي يعمل الآن كعضو في مجلس نواب ولاية نيويورك وفي مستقبل الأيام احتفظ به كمستشاره القانوني . ومن بين رجال التعليم الزنوج الذين قابلهم مالكوم في الجامعات و الكليات لم أسمعه يذكر واحدا منهم بخير ماعدا دكتور كينيث كلارك الذي قال عنه : « هنا رجل اسود له عقل مستريح » كانت له تحفظات واضحة عن طبقة المهنيين الزنوج عمومًا حيث أنهم كانوا مصدر أغلب الهجوم على المسلمين السود ولهذا السبب كان يهاجمهم مر الهجوم ويقول عنهم أمام المستمعين في مؤسسات التعليم العالي الزنجية :

« هؤلاء المنافقون الذين يسمون بالمتعلمين ، حملة الدكتوراه ».

كان مالكوم أكثر ما يكون انبساطاً وسعادة عندما يكون بين بني جلدته وقد صادف أن صحبته بعض المرات فيما يسميه « جولاتي اليومية الصغيرة » في شوارع هارلم وبين الزنوج الذي يتحدث عنهم من يدعون بالزعماء السود في نظره «كإحصاءات جماهير سوداء » في هذه الجولات كان مالكوم يتفادى المنعطف الرئيسي في الجادة ١٢٥ في هارلم ويتجول في الشوارع الجانبية خاصة التي بها كثافة سكانية ممن يصفهم « بالرجل الأسود في قاع البالوعة من حيث أتيت » ، الفقراء الذين يكثر بينهم مدمنو المخدرات والخمور.

في هذا الوسط كان مالكوم بطلاً حقيقيًا . كان يتمشى في الأرصفة ويغمر كل من يلاقيه بابتسامة طفولية عريضة وحديثه مع من يتقدم إليه كان هادئًا وبشوشًا . قد يقول لمدمن خمر : «ذلك بالضبط ما يريده لك الشيطان الأبيض . يريدك أن تصبح مخمورا حتى يهوي عليك بهرواته » أذكره مرة وقد وقف في منحنى ليحيي عدة نساء طاعنات في السن وقال لهن : « دعوني أسألكن عن شيء ، يا أخوات . هل رأيتم أبدًا رجلاً أبيض واحدًا لم يفعل لكن شيئا أو يأخذ منكن شيئًا ؟ » واحدة من بينهن هتفت بعد لحظة « أنا حتما لم أر » وعند ذلك ضحكن كلهن واستمررن في المشي ومالكوم يلوح لهن وهن يهتفن « إنه محق ! ».

أذكر ذات مرة في أول المساء أن مررنا في ركن برجل رث الثياب يلقي خطبة رنانة على جمهرة من الناس من فوق صندوق خشبي والعلم الأمريكي بجانبه وهو يقول :« إنني لا أؤمن في هذا العلم اللعين ولكني أضعه لأنني ممنوع من عقد اجتماع عام بدونه إلا إذا كنت أريد أن يضعني الرجل الأبيض في السجن . وهذا ما أريد أن أتحدث عنه . هؤلاء العنصريون الذين يغتنون من دم وعظم أهليكم » علق مالكوم: « إنه يعمل ! » .

نادرًا ما تكلم مالكوم مع الزنوج أصحاب الشعر المكوي اللامع من غير أن يوكزهم قائلاً : « أها ، يا أخ ، الشيطان الأبيض علمك أن تكره نفسك للدرجة التي معها تضع محلول القلي الساخن على شعرك حتى يشبه شعره ».

أذكر مجموعة أخرى من النساء في محل بقالة صغير ذهبت إليه لأبتاع شيئًا وتركت مالكوم في الجانب الآخر من الشارع . عندما خرجت من المتجر وجدت امرأة تصف للأخريات بحماس أحدى محاضرات مالكوم التي سمعتها في المسجد رقم سبعة في أحد أيام الآحاد. « أوووه ، لقد أحرق الرجل الأبيض ، أحرقه من عل ، فلفل ... فلفل ... قال لنا: إننا سلالة ملوك وملكات سود، يا إلهي ، لم أكن أعرف ذلك ! » سألتها أخرى « أتصدقين ذلك ؟ » فأجابتها بحماس « نعم ، أصدق ذلك ».

أذكر أيضا عازف غيثار وحيد جاثما في شارع جانبي يغني لنفسه عندما رفع رأسه وتعرف في التو على الشخص القادم ذي الخطوات الواسعة . صرخ عازف الغيثار « هاه – هو! » وقفز ثم أدى تحية عسكرية قائلا :« رَجُلي ! » .

مالكوم أحب ذلك التمشي بينهم و من جانبهم أحبوه . لم يكن هنالك أدنى شك في جاذبيته : وهو يقف طويلا تحت عامود نور يتحدث إلى سكيرين ، أو هو يفجر الكلمات لملايين المستمعين الذين لا يراهم ، أو وهو يدغدغ شعور المجموعات البيضاء الصغيرة المتعلمة بكلام مثل « هوايتي هي إثارة الزنوج (النيجروز) وهي تنطق نييجروز مثلما تنطقونها انتم الليبراليون . » لم يكن عندي أدنى شك أن الرجل كان ساحرًا للجماهير ، كانت له قدرات خارقة . وأنا لست الوحيد الذي تعجب في مرات مختلفة كيف يستمر هذا الرجل في تلقي كمية هائلة من الدعاية الشخصية عالميا ومع ذلك يستمر عمليا في كل ما يقوله ، أمام العامة والخاصة ، يعزي الفضل والأمجاد « لصاحب الشرف الإيْجا محمد ». كثيرا ما كتبت لنفسي شيئا جانبيا عن ذلك . إنني كنت فعليا أحتفظ بدفترين منفصلين . في مرة لاحظ مالكوم انتقالي من دفتر لآخر فسألني السبب بفضول وقلت له عذرًا ما ، لكني لم أخبره أن أحد الدفترين كان للكتاب والثاني لملاحظاتي الخاصة عنه ، كان غالبا سينكمش في حديثه لو عرف ذلك . « لابد أنك كتبت مليون كلمة حتى

الآن» علق مالكوم فأجبته « ربما » قال متأملا:« الرجل الأبيض مجنون وسأبرهن لك ذلك . هل تعتقد أنني سأنشر كلام شخص يقرعني مثلما أفعل أنا عن الرجل الأبيض ؟ » .

سألني مالكوم في أحدى الأمسيات « انظر ، قل لي الحقيقة فأنت تسافر أماكن كثيرة . هل سمعت شيئا ؟ »

أجبته بأمانة :إنني لا أدري عماذا يتكلم فترك الموضوع وتحول إلى الحديث عن شيء آخر .

من مالكوم شخصيًا رأيت أو سمعت بعض الأشياء الغريبة التي جعلتني أتساءل في داخل نفسي ولكني حينما لم أجد ما أربطه بها نسيت الموضوع . في أحد الأيام ونحن داخل سيارته وقفنا عند التقاطع أمام الإشارة الحمراء فوقفت بجانبنا سيارة أخرى يقودها رجل أبيض الذي ما إن رأى مالكوم إكس حتى صرخ مناديًا : « لا ألوم قومك في لجوئهم لك ولو كنت أنا زنجيا لفعلت مثلهم . واصل النضال ! » رد عليه مالكوم بإخلاص:« ليت لي فرعا للبيض الذين أقابلهم من أمثالك » تغيرت الإشارة وتحركت السيارة فالتفت مالكوم إلى بسرعة قائلا بحزم ، «ليس عليك ألا تكتب ذلك فحسب ، بل لا تحكه أمام أحد . سيجن مستر محمد لو علم بذلك » المهم في هذه الحادثة حينما أستعيدها الآن هو أن تلك كانت أول مرة أسمعه يقول عن الإليجا محمد شيئًا يقل عن التوقير.

في حوالي نفس تلك الأيام كانت الخربشة على أحد مناديل الورق التي استعيدها تقول « حياتي دوما حافلة بالتغييرات . » بعد ذلك بزمن وفي سبتمبر ١٩٦٣ كان مالكوم منزعجاً جداً من شيء ما طوال الأمسية وعندما قرأت صحيفة أمستردام نيوز لذلك الأسبوع ، خمنت أن ما أزعجه هو بند في العمود الذي يكتبه جيمي بوكر ذكر فيه الكاتب أنه سمع شيئا عن خلاف وقع بين مالكوم إكس والإليجا محمد . (كشف بوكر بعد ذلك بزمن أنه كان في عطلة بعد كتابة ذلك العمود ولكنه علم أن مالكوم وثلاثة من الأتباع دخلو مكاتب الجريدة هائجين . . . « أين جيمس بوكر ؟ أنني أؤمن بمستر محمد وأنا على استعداد للتضحية بحياتي من أجله ») .

كذلك كنت بين الفينه والفينة وحينما يصدف أن أقابل بعض مسئولي المسلمين الكبار وأنا مع مالكوم ولكنه ليس على مقربة ، كنت الاحظ في عباراتهم أو سلوكهم نقصًا ما في إعجابهم الكامل بزميلهم المشهور – لكنني كنت أقول لنفسي :لا تتظنن وتسيء تفسير الأمور . في غضون تلك الأيام كنا أنا ودكتور سي . إريك لنكون كثيرا ما نتحدث هاتفيا ودائما نذكر أن بذور الخلاف موجودة في

كون مالكوم الزعيم الدرامي الذرب اللسان هو محط تركيز واهتمام الصحافة والجمهور ومهما أثنى هو على الإليْجا محمد ، في ذلك مصدر حتمي للخلاف . و مع ذلك لم أع ولم أحلم بما كان يدور في عقل مالكوم تلك الأيام فهو لم يتفوه لي بكلمة عنه أبدًا إلى أن أصبح خبر الشقاق على كل لسان .

وعندما ترك مالكوم الاستديو حوالي الثانية صباحا طلب مني أن أتصل به في التاسعة صباحا ، وعندما فعلت وجدت أن جرس الهاتف في بيته في ايست المهيرست يستغرق وقتًا أطول من العادة في الرنين قبل أن يرد أحد وان الأخت بتي تبدو قلقة من صوتها وتكاد تخنقها العبرة حينما ترد وكذلك كان صوت مالكوم متغيرا . سألني : « هل سمعت المذياع أو قرأت صحف الصباح ؟ » أجبت بالنفي فقال « حسنا ، عليك بذلك ! » وأخبرني أنه سيتصل بي فيما بعد .

خرجت وأحضرت الصحف وقرأت فيها باندهاش أن إلايْجا محمد علق عضوية مالكوم إكس والسبب المكتوب هو جملة « رجعت العرجاء لمراحها » التي تفوه بها كتعليق على أغتيال الرئيس كندي .

اتصل بي مالكوم فعلا بعد ساعة من حديثه ومن ثم ذهبت لمقابلته في مكتب صحيفة المسلمين السود في هارلم على بعد مربعين من المسجد والمطعم في شارع لينوكس . كان يجلس وراء مكتبه المعدني البني وقبعته البنية أمامه على المفرش الأخضر وكان يرتدي بذلة ذات صديري داكنة اللون مع قميص أبيض ومشبك على شكل سمكة عائمة على ربطة عنقه وقدماه الكبيرتان داخل الحذاء الأسود تهزان المقعد الدوار يمينًا ويسارًا بينما هو يتحدث على الهاتف .

« إنني دائما أتألم من أي فعل ينم عن عدم الانصياع من جانبي لمستر محمد . . . نعم ، سيدي، كل ما يفعله صاحب الشرف صواب في رأيي وأنا مؤمن تماما بحكمته وسلطانه . » جرس الهاتف كان يرن مرة أخرى بمجرد أن يضع السماعة . « مستر بيتر جولدمان ! لم أسمع صوتك منذ فترة ! نعم كان علي ألا أتفوه بشيء » .ولصحيفة نيويورك تايمز قال : « سيدي ! نعم ، منعني من الظهور أمام الجمهور حاليا ، الشيء الذي أتفهمه تماما وسأقول لك ما قلته للآخرين وهو أنني ممتثل تماما لحكم مستر محمد لأنني وجدت أحكامه دائما مبنية على أسس سليمة . » ولمندوب شبكة التلفاز ، سي . بي . إس ، قال : « أعتقد أن أي شخص يطلب الانضباط من الآخرين عليه أن يقبل ضبط نفسه . »

خلال الأسابيع العصيبة التالية حمل مالكوم صورة النادم على إثمه لكن مؤخر عنقه كان محمرًا في كل مرة رأيته فيها حتى في تلك الأوقات لم يفصح عن غضبه

الواضح من أذلاله العلني كما أننا لم ننجز أية أحاديث للكتاب فقد كان مشغولا بالهواتف التي ترن في كل مكان لكن ذلك لم يعد مهما إذ أنني كنت قد تحصلت من أحاديثه السابقة على جل مادة قصة حياته . كان عندما يجد وقتاً ليزورني يبدو عليه الانشغال وكنت أحس بما يعتمل في نفسه من الغضب والاستياء لحرمانه من العمل لكنه كان يحاول جهده أن يخفي ذلك .

في أحد الليالي كانت خربشته كالتالي : « لن تغير رجلا بإسكاته . جون فيسكاونت مورلي » وفي نفس الليلة بخط غير واضح « كنت في طريقي إلى الحضيض حين التقطني ، ولكني كلما أفكر في ذلك أكثر أرى أننا التقطنا بعضنا البعض » .

وعندما لم أقابله لعدة أيام وصلني منه خطابا : « لقد ألغيت كل مواعيد أحاديثي العامة لعدة أسابيع وفي غضون تلك الفترة يجب أن نتمكن من إكمال هذا الكتاب . مع سرعة تطور الأمور هذه الأيام من السهل أن يصبح ما يقال أو ما يفعل اليوم غير ذي بال بغروب شمس ذلك اليوم نفسه . مالكوم إكس ».

أجهدت نفسي حتى يغدو الفصل الأول في شكل صالح للمراجعة . وعندما أصبحت مسودته مقروءة اتصلت به هاتفيا . فأتاني بسرعة وفي وقت لا يتعدى ما تستغرقه السيارة من منزله لمكاني – مما جعلني أرى ما يقاسيه من البقاء خاملا في المنزل ولمعرفتي بمزاجه كنت متعاطفا مع الأخت بتي .

أنهمك مستغرقاً في قراءة صفحات المخطوطة بانتشاء في البداية ثم أخرج قلمه الأحمر وبدأ يؤشر به على الورق وهو يعيد قراءة الفصل وأحيانا يضغط به على جملة أو كلمة . هتف : لا نقول :« أبارك الله » وغيرها إلى « أثني عليه » . في مكان آخر يشير الفصل فيه إليه وإلى أخواته وأخوانه ، شطبها بالأحمر ووضع مكانها « نحن الأطفال » وهتف بصوت عال « الأطفال ».

بعد ذلك بفترة وجيزة سافر مالكوم وأسرته بالطائرة إلى ميامي بدعوة من كاسياس كلاي وكهدية من الأخير بمناسبة عيد زواجهم السادس قبلوها بشكر جميل فقد كانت أول إجازة لبتي بعد ست سنوات من النظام الصارم كزوجة لمسلم أسود وبالنسبة لمالكوم كانت حفظا لماء الوجه وشيئا ينشغل به .

حالما وصل إلى هنالك بعث لي برقية بها رقم هاتف غرفته في الفندق . اتصلت به فقال لي ، « أريد أن أدلك على شيء. لم أعد من المراهنين وإذا كنت ستراهن فأنصحك بأن تراهن على فوز كاسياس على لستون وستكسب » ضحكت وقلت له أنه منحاز فأجاب : « تذكر ما قلته لك عندما تنتهي المباراة . » وصلتني منه بعد ذلك بطاقة بريدية عليها صورة قرد حية الألوان في غابة الشمبانزي بفلوريدا وقد

كتب على جانبها الآخر : « مائة سنة بعد الحرب الأهلية وهاهي القردة تجد اهتماما وحرية في أمريكا أكثر مما يجد أهلونا . أخوك ، مالكوم إكس » بعد ذلك بفترة وصلني منه خطاب مظرف وجدت بداخله قصاصة من جريدة صن - تايمز عليها عمود إرف كوبسنت في شيكاجو وقد وضع مالكوم خطا بقلمه الأحمر حول جملة تقول : « العالمون ببواطن الأمور يتوقعون انشقاقا وسط المسلمين السود قد ينشئ مالكوم إكس ، الرجل الثاني في المنظمة ، بمقتضاه جماعة تعارض الإلايْجا محمد » . وقد كتب مالكوم بجانبها « تخيل ذلك ! ».

في الليلة التي خيب فيها كاسياس توقعات الكثيرين وهزم لستون اتصل بي مالكوم إكس هاتفيا وأصوات جلبة فرح تسمع وراء صوته ليخبرني أن حفل الانتصار يقام في جناحه بالفندق ووصف لي ما يحدث كما ذكر أسماء بعض الحاضرين وأخبرني أن ملك الوزن الثقيل الجديد كان في الغرفة المجاورة ، غرفة نوم مالكوم ، وقد راح في إغفاءة صغيرة . بعد أن ذكرني مالكوم إكس بتنبؤاته قال لي أن علي أن أتطلع لأن « يصبح كاسياس شخصية عالمية مهمة . لا أدري أن كنت تدرك المعنى العالمي لكون هذا أول بطل مسلم » .

في صباح اليوم التالي أعلن كاسياس كلاي في مؤتمره الصحفي الأخبار التي حملتها الصحف بعناوين بارزة من أنه فعلا « مسلم أسود » وبعد ذلك حملت الصحف صور مالكوم إكس وهو يقدم بطل الملاكمة للوزن الثقيل إلى مختلف الدبلوماسيين الأفارقة في ردهات رئاسة الأمم المتحدة بنيويورك . أخذ مالكوم إكس كاسياس كلاي في جولة حول هارلم و أماكن أخرى على أنه في حد قوله « صديق و مرشد ديني » لكلاي .

في ذلك الوقت كنت قد انتقلت إلى صعيد ولاية نيويورك لاكمال العمل في الكتاب وكنا نتحادث هاتفيا كل ثلاثة أو أربعة أيام . قال لي أشياء توحي بأنه قد لا يعود لمركزه السابق وسط المسلمين السود ثم بدأ يقول أشياء بها انتقادات خفية لإلايْجا محمد . طلبت مني مجلة بلاي بوي أن أجري مقابلة مع كاسياس كلاي البطل الجديد وعندما طلبت من مالكوم بثقة أن ينظم لي مقابلة مع كاسياس ، رد مالكوم :« أعتقد أنه من المستحسن أن تسأل شخصا آخر » ، الشيء الذي أدهشني ولكنني تعلمت ألا أصر عليه ليقول كل شيء . ثم وصلتني بعد ذلك بمدة وجيزة جدا رسالة مكتوبة منه تقول : « عزيزي اليكس هيلي ، هذه مذكرة سريعة . هل لك في أن تعد خطابا مكتوبا بعناية يمكنني من أن أغير فقرة في العقد بحيث تذهب عائدات الكتاب إلى مؤسسة المسجد الإسلامي أو ، في حالة وفاتي ، إلى زوجتي مباشرة ، مسز بتي إكس لتل . وكلما تم ذلك بسرعة كلما زاد

اطمئناني ». تحت إمضاء مالكوم إكس ، كتب : « ملحوظة : كيف يمكن أن يكتب الإنسان سيرته الذاتية في عالم يتغير بمثل هذه السرعة ؟ » .

لم يمض زمن طويل قبل أن أقرأ في الصحف المختلفة عن إشاعات سُمعت بتهديدات على حياة مالكوم إكس ثم ظهر مقال في صحيفة **أمستردام نيوز** عنوانه « مالكوم إكس يحكي عن تهديد بالموت. » تقول القصة أن بعض رفاقه السابقين في مسجد نيويورك قد أرسلو « فرقة خاصة » لتحاول « قتلي عمدا وعن سبق الترصد . ولكني والحمد لله ، سمعت عن الخطة من نفس الأشخاص الذين أرسلوا لقتلي . هؤلاء الأخوة كثيرًا ما سمعوني و أنا أمثل مستر محمد وأدافع عنه الشيء الذي صعب عليهم معه أن يصدقوا الأكاذيب عني من غير أن يستوضحوا مني بعض الأشياء ».

اتصلت بمالكوم إكس هاتفياً معبراً عن قلقي الشخصي عليه . أتاني صوته منهكا وأكد لي مرة أخرى أن أكثر ما يهمه الآن هو أن تذهب كل عائداته من الكتاب رأسا إلى منظمته الجديدة أو إلى زوجته مثلما حدد في الخطاب الذي وقعه وأرسله لي . أضاف أيضا :« إنني مدرك أن علي أن أكتب وأوثق وصية باسمي . لم أكتب واحدة في السابق لأنه لم يكن عندي ما أوصى به لأحد ولكنني إذا حدث لي شيء الآن بدون أن تكون عندي وصية فقد يحدث ما لا تحمد عقباه . » عبرت له عن قلقي بشأنه فطمأنني بأن لديه بندقية معبأة في المنزل و أن « بإمكاني الاعتناء بأمر نفسي ».

مؤسسة المسجد الإسلامي التي أشار إليها مالكوم إكس كانت منظمة جديدة أنشأها هو وكانت تتكون حينها من حوالي أربعين أو خمسين مسلما من الذين هجروا قيادة الإلْيجا محمد .

من خلال أحد رجال كاسياس كلاي المقربين الذين اقترحهم علي مالكوم إكس في النهاية ، تم ترتيب موعد لمقابلتي الصحفية مع بطل الملاكمة للوزن الثقيل لتنشر في مجلة **بلاي بوي** فركبت الطائرة لمدينة نيويورك . أخبرتني الأخت بتي على الهاتف بلهجة جافة أن مالكوم إكس خارج المدينة لفترة قصيرة . تحدثت مع سيدة من المسلمات السود كنت أعرفها قبل دخولها في الجماعة وهي من المعجبات بمالكوم إكس لكنها اختارت البقاء مع جماعة الإلْيجا ، « لكن دعني أقول لك ، أيها الأخ ، ما يقوله الكثيرون داخل المسجد . الأمر شبيه بطلاق الزوج إذ أن الشريكة السابقة تتمنى دائما أن تراه من حين لآخر». خلال المقابلة الصحفية مع كاسياس كلاي في جناحه ذي الثلاث غرف في فندق تيريزا بهارلم ، كان من المحتم أن تتعرض الأسئلة لعضوية كلاي مع المسلمين ثم لاستفسار عما حدث

لعلاقته السابقة الحميمة مع مالكوم إكس . أجاب بصراحة قائلا : « كيف لشخص أن ينتقد مستر محمد ثم يتوقع ألا يحدث له شيء . وأنا لا أحب أن أخوض في هذا الموضوع على أية حال » .

حدثني أحد الأشخاص من حاشية كاسياس كلاي إن الإليْجا محمد في رئاسته في شيكاجو كان ينفعل عاطفيا في أي مرة يذكر فيها اسم مالكوم إكس في حضوره ويروي أنه قال ، « الأخ مالكوم غدا شخصية كبيرة . أنا الذي جعلت منه شيئا وكنت أنوي أن أخلق منه رجلا عظيما » المسلمون السود المخلصون لإلايجا محمد تنبأوا بأن المنشقين من المسجد رقم سبعة الذين انضموا لمالكوم سينقلبون عليه بعد حين . «سيشعرون أنه هجرهم » ، وفي قول آخرين ، « لعنة الله ستحل على المنافق . » في رواية ثانية يقال أن مستر الإيْجا محمد قال : « مالكوم يحطم نفسه » ، وأنه ليست لديه أية رغبة في أن يراه ميتا و أنه « يفضل أن يراه يعيش حتى يتعذب ».

أما الشعور العام بين الهارلميين من غير المسلمين الذين تحدثت إليهم فقد كان أن مالكوم شخصية قوية وذات نفوذ كاف لشق عضوية المسجد إلى فريقين متحاربين وأن تحكم الإيْجا محمد الذي لا يجادل فيه ، سينتهي ، على الأقل في مدينة نيويورك .

رجع مالكوم إكس وقال أنه كان في بوسطن وفيلادلفيا و أصبح يقضي معي وقتاً كافيًا أثناء ساعات النهار في الغرفة رقم ١٩٣٦ بفندق أمريكانا . فارقته راحة البال القديمة وأصبح ينتفض فجأة من آن لآخر ويسير نحو الباب ثم يفتحه وينظر خارجه يمينا ويسارا ثم يوصده ويعود وكأنما ذلك شيء عادي . قال مرة على سبيل التوضيح : « ستكون معجزة لو نشر هذا الكتاب و أنا ما زلت حيًّا . لا أقول ذلك بانزعاج ولكنني أقوله تقريريا مثل قولي هذه ملاءة » قال ذلك وهو يلمس جانب الملاءة على السرير .

صرح لي لأول مرة بتفصيل ما حدث وقال أن تصريحه عند اغتيال الرئيس كندي ليس سببًا في إخراجه من الجماعة . « ذلك لم يكن السبب على الإطلاق فلقد أدليت بتصريحات أشد من ذلك قبلا ولم يعترض أي شخص . السبب الحقيقي هو الغيرة في شيكاجو و اعتراضي على الممارسات غير الأخلاقية من الرجل الذي يدعي أنه أكثر أخلاقية من أي إنسان » .

أخبرني مالكوم إكس أنه شخصيا ضاعف عضوية أمة الإسلام من أربعمائة إلى أربعين ألف . « لا أعتقد أنه كان هنالك أكثر من ٤٠٠ عضو في كل أرجاء القطر عندما انضممت . حقا لا أظن ذلك ، وجلهم كانوا من المتقدمين في السن وكثير

منهم لم يكن يستطيع نطق اسم مستر محمد صحيحا بينما ظل هو في المؤخرة أغلب الوقت».

حاول مالكوم إكس جهده ألا يبدو عليه الاستياء الذي يعتمل داخله . ليس هنالك شيء مخيف أكثر من الجهل وهو يتحرك . غوته » ، ذلك ما خربشه في أحد الأيام . لمح مرتين إلى كاسياس كلاي أثناء الحديث فكنت أسرد عليه بعض القصص من المقابلة الصحفية التي أجريتها مع كلاي و أخيرا سألني عن ما قاله كلاي عنه . أخرجت الورقة التي عليها الأسئلة مطبوعة وإجابات كلاي مكتوبة باليد وناولته إياها فحملق فيها برهة ثم نظر من النافذة ونهض و تمشى في الغرفة وكانت تلك أول مرة يفضح فيها صوته عمق جرحه إذ قال : « لقد كنت أشعر وكأني أخوه الأكبر. » توقف ثم أضاف ، « لست ضده الآن فهو شاب ممتاز وذكي لكنه تركهم يلعبون به ويقودونه إلى الضلال ».

في مرة ثانية هناك في غرفتي بالفندق رأيته وعيناه تكادان تدمعان وتلك كانت المرة الأولى التي أراه فيها كذلك وهي أيضا المرة الوحيدة التي يتلفظ فيها بكلمة معينة في وصف قومه . كان يتحدث عن كيف كان يعمل بدون كلل في بناء منظمة المسلمين في الأيام الأولى عند نقله إلى مدينة نيويورك ثم هتف فجأة بصوت أجش : « كانت لدينا أحسن منظمة تملكها الرجل الأسود في تاريخه – فحطمها النيجرز» .

بعد عدة أيام من ذلك على أية حال كتب في مفكرته شيئا سمح لي بقراءته يقول : « على الكبار أن يتعلموا درساً من الأطفال وهو ألا يخجلوا من الفشل ، بل عليهم أن ينهضوا ويحاولوا ثانية. أغلبنا نحن الكبار خائفون وحريصون على السلامة و لذلك نضمحل ونتجمد ونخاف وذلك سبب فشل كثير من البشر. أغلب البالغين متوسطي العمر وطدوا أنفسهم على قبول الفشل » .

الاتصالات الهاتفية بمالكوم إكس كانت تتواتر عندما يكون معي بالغرفة وأحيانا كان هو الذي يبادر بالاتصال وكان دائما يتحدث بصوت حذر خفيض مما يجعل عدم رغبته في متابعتي لحديثه واضحة . أصبحت أتظاهر بالذهاب للحمام موصداً الباب من خلفي لأخرج وأعود فقط حينما أشعر أن همهمة صوته قد توقفت حتى أجعله يسترخي بعض الشيء في حديثه الهاتفي . بعد ذلك بمدة أخبرني أنه سمع بعض المسلمين الذين ما زالوا ظاهريا يتبعون الإيْجا محمد . ذكر لي مرة بعد إحدى تلك المحادثات الهاتفية ، « أنني رجل مستهدف . لقد اتصل بي بعض من يحتلون مناصب مهمة ينصحوني بالحذر في كل خطوة أخطوها . » فكر بعض الشيء ثم أضاف ، « طالما لا يمس أسرتي أي أذى فليت خائفا لنفسي . » كان لدى انطباع بأن

مالكوم سمع سلفا أن منظمة المسلمين تنوي أن ترفع ضده دعوى لإخلاء المسكن الذي يقيم فيه مع أسرته .

صار القلق ينتابني من أن مالكوم مع شعوره بالمرارة التي يعاني منها سيطلب مني مراجعة الفصول التي يحكي فيها عن أيامه مع المسلمين السود لإعادة كتابتها بشكل ما . أثرت معه الموضوع وما ينتابني من قلق حوله قبل أن أغادر مدينة نيويورك قاصداً صعيد الولاية فكان رد مالكوم كالاتي : « لقد فكرت في ذلك الموضوع . هنالك أشياء كثيرة مرت بذهني حتى عندما كنت أحكي لك في البداية يمكنني أن أقولها ، أشياء سمعتها وشاهدتها ولكنني طردتها من ذهني . سأترك كل شيء على ما رويته لك لأنني أريد للكتاب أن يظهر بالطريقة التي هو عليها الآن ».

فجأة وفي ٢٦ مارس ١٩٦٤ وصلتني مذكرة من مالكوم إكس تفيد ، « هنالك احتمال بقيامي برحلة سريعة إلى عدة بلدان مهمة في أفريقيا وأن تشمل رحلتي أيضا الحج إلى مدينة مكة المكرمة و المدينة ابتداء من يوم ١٣ أبريل . أبق هذا سرًّا . » وهو في الخارج أرسل مالكوم إكس خطابات وبطاقات بريدية إلى كل من يعرفه تقريبا وكان يوقعها بـ « الحاج مالك الشباز ».

ثم اتصلت بي فجأة الأخت بتي هاتفيًّا في منتصف مايو والفرح في صوتها لتقول : مالكوم إكس في طريقه للعودة ، فركبت أنا الطائرة إلى مدينة نيويورك . وفي يوم ٢١ مايو رن جرس الهاتف في غرفتي بالفندق ورفعته لأسمع صوت الأخت بتي : «دقيقة ، من فضلك » ، ثم أتاني صوت عميق ليقول : « كيف حالك ؟ » « حسن ! الحاج مالك الشباز ! كيف حالك أنت ؟ » أجاب « مجرد إعياء بسيط » وصل على طائرة البان أميركان في الرابعة و النصف و سيواجه مؤتمرًا صحفيًا في السابعة مساء في فندق تيريزا . « سألتقيك في الساعة ٦:٣٠ عند تقاطع شارع لينوكس مع الجادة ١٢٥ في الجانب الذاهب لأعلى المدينة -هل يوافقك ذلك؟ » .

عندما وقفت السيارة الأولزموبيل الزرقاء و دخلتها كان الحاج مالك الشباز مشرق الوجه وهو يرتدي بذلة قطنية مخططة و يبدو علي شعره انه يحتاج لزيارة الحلاق كما أنه صارت له لحية . الأخت بتي كانت داخل العربة أيضا . كانت تلك أول مرة أقابلها فيها بعد أكثر من عام من الحديث هاتفياً عدة مرات في الأسبوع . ابتسمنا لبعض . كانت تضع نظارة سوداء و ترتدي زي الحوامل و في أحشائها ما سيصبح طفلها الرابع .

كان هنالك على الأقل خمسون مصور تلفازي وعادي و المراسلون الصحفيون

يتزاحمون للاقتراب من المنصة و بقية القاعة الزرقاء ملأى بالزنوج من أتباع مالكوم إكس ومحبيه والفضوليين . عامت الغرفة في الأضواء ووميض الكاميرات حينما دخل مالكوم برفقة الأخت بتي و يدها تمسك بذراعه في حنان و ابتسامة كبيرة على وجهها فخورة بأن ذلك الرجل كان زوجها . تعرفت الى م.س.هاندلر من صحيفة التايمز و قدمت له نفسي فشددنا على أيدي بعضنا بحرارة و اخترنا طاولة صغيرة جلسنا عليها . الصحفيون كانوا مازالو يتزاحمون في شكل نصف دائرة حول مالكوم إكس الجالس على المنصة وهم يصوبون الأسئلة نحوه وهو يبدو وإنما كل خبرة أعوامه الاثني عشرة الخطابية إنما هي تحضير لصورته الجديدة ؟

« هل نفهم من حديثك أنك لم تعد تعتقد أن كل البيض أشرار ؟ ».

« حقاً سيدي. رحلتي إلى مكة فتحت عيوني و لم أعد أؤمن بالعنصرية . لقد عدلت من تفكيري الى الدرجة التي أعتقد فيها أن البيض بشر » وقفة قصيرة أتبعها بالآتي ، « طالما انعكس ذلك في موقف إنساني نحو الزنوج ».

ركز الصحفيون على صورته العامة كعنصري فرد عليهم « لست بعنصري ولا أدين البيض لمجرد أنهم بيض و لكني أدينهم لأفعالهم . أنني أدين البيض كمجموعة لما فعلوه لقومي كجموعة ».

كان يبتسم باستمرار و تضيء وجهه تلك البسمة الصبياية الرضية و يلمس اللحية الحمراء الجديدة بيديه - سألوه عنها و هل ينوي الاحتفاظ بها فأجاب بأنه لم يقرر بعد و سينتظر ليرى إذا كان سيعتاد عليها أم لا . هل يحاول الآن الانضمام إلى كبار زعماء الحقوق المدنية الذين هاجمهم بحرارة في السابق ؟ رد بإجابة عائمة : « دعوني أشرح ذلك بالآتي ، إذا كان بعض الرجال داخل سيارة متجهة إلى وجهة معينة واتضح لك أنهم سائرون في اتجاه خاطئ و لكنهم مقتنعون أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح فتركب معهم و تسير العربة و تتبادلون الحديث في الطريق . وأخيرا عندما يصلون نهاية الطريق و يكتشفون خطأهم وأن الطريق الذي سلكوه لا يقودهم إلى حيث يريدون ، هنا تكلمهم و سيصغون إليك حينها و أنت تدلهم على الطريق الصحيح » كان في أحسن حالاته و أحسن كثيرا من ذي قبل و هو يزن الأمور و يقارع بالحجج و يجيب على الأسئلة.

بجانبي كان محرر التايمز ، هاندلر ، يسجل بعض النقاط و يردد لنفسه: « هذا لا يصدق! لا يصدق! » و نفس الفكرة كانت تحوم في ذهني . مرت في ذهني خاطرة فحواها أننا لو رمينا حصاة من النافذة خلف مالكوم إكس لوقعت من الطابق الثامن على الرصيف في نفس النقطة التي كان مالكوم يبيع عندها المخدرات قبل سنوات .

بعد أن عدت إلى صعيد نيويورك لمواصلة الكتابة كانت تصلني منه مذكرة من آن لآخر . « أرجو أن يكون الكتاب سائرًا بخطى حثيثة لأن الحوادث التي تمر بها حياتي تتسارع للدرجة التي معها يصبح ما يكتب الآن شيئا غير ذي بال بعد شهر من كتابته وفي هذه الحياه لا شيء يدوم ، حتى الحياة نفسها لا تدوم (ابتسم!) . لذا فإني أنصحك بأن تستعجل إخراج هذا الكتاب بأسرع ما يمكن » في مرة أخرى وصلتني منه بالبريد المستعجل رسالة بها نبرة انزعاج مني : وصلته رسالة من الناشر تشير إلى أنه استلم صكا بمبلغ ٢٥٠٠ دولار عند توقيع عقد الكتاب « ولذلك يفترض على أن أدفع الضرائب المستحقة على ذلك المبلغ علما بأنني كنت قد حددت مكررا في ذلك الحين أن كل تلك المدفوعات تكتب باسم و ترسل إلى المسجد . حقيقة الأمر أنني لم أر ذلك الصك حتى اليوم. »

سوى ذلك الأمر ثم أرسلت لمالكوم إكس بعض الفصول ليقرأها . روعت عندما أعادها في فترة وجيزة والقلم الأحمر على أماكن كثيرة في الجزء الذي يحكي فيه عن العلاقة الأبوية التي كانت بينه وبين الايجا محمد . اتصلت به هاتفيا و ذكرته بوعده السابق و أكدت له أن وضع إشارات في الفصول لما سيحدث في الفصول التالية يضر بالكتاب و يزيل عنصر التشوق المتراكم من بنائه الدرامي . أجاب مالكوم إكس بفظاظة: « كتاب من هذا؟ » فرددت عليه « كتابك طبعا » وأنني أثرت ذلك الاعتراض من وجهة نظري ككاتب . أخيرا قال انه سيفكر في ذلك . كنت منزعجا جدا من احتمال إعادة تحرير الكتاب ليصبح كله مجرد هجوم على إلايجا محمد إلا أن مالكوم غكس اتصل بي هاتفيا في أواخر تلك الليلة ليقول لي: « أنا متأسف و أنت على حق . لقد كنت متضايقا من شيء ما فأنس ما أردت تغييره و دع الكتاب على حالته التي وضعتها أنت » بعد ذلك لم أعطه أبدًا فصولا للمراجعة إلا حينما نكون سويا و في عدة مرات كنت أراقبه وهو يقرأ و تعابير وجهه تتجهم و تجفل أثناء القراءة إلا انه لم يطلب تعديل أي شيء ذكره أصلا . الجزء الوحيد الذي أشعرني أنه يتمنى أن لو كان مختلفا عما حدث أشار إليه و هو يقرأ في الفصل الرابع « لورا » قال : « كانت فتاة ذكية و طيبة . حاولت جهدها أن تجعل مني شيئًا وانظر ما قادتها أفعالي إليه – البغاء و المخدرات . لقد حطمت تلك الفتاة » .

كان مالكوم مشغولا ، مشغولا ، مشغولا و لم يعد بإمكانه التردد على غرفتي في الفندق كثيرا وعندما يفعل كانت الغرفة تتحول بسرعة إلى ما يشبه محطة جراند سنترال في نيويورك . كان إما يتلقى محادثة من شخص أو يتصل بشخص آخر أو يحاول الاتصال بثالث وهو يراجع مفكرته الجاهزة دائما . أصبح

يتحدث كثيرًا مع أناس مختلفين من الشرق الأوسط وأفريقيا الذين كانوا في نيويورك . بعضهم كان يحضر لزيارته في الفندق . وأحيانا كنت أجلس بقرب النافذة منهمكا في القراءة بينما يتحدث هو مع زواره عند الباب في صوت خفيض . كان يعتذر لي عند حدوث ذلك ولكنني أخبرته أن ليس لدي حساسية ضد ذلك ثم صرت بعدها أخرج إلى الممر أو أنزل بالمصعد إلى ردهة الفندق حيث أبقى أراقب المصعد إلى أن يخرج الضيف ثم أعود . أذكر أن الهاتف في أحد الأيام كان يرن بانتظام ويتصل به مراسلون من شبكات التلفاز القومية الثلاث وكا صحف نيويورك و**الديلي إكسبرس** من لندن وأفراد متعددون ولم نتمكن مع كل ذلك من إنجاز أي شيء للكتاب . فجأة دخل طاقم مصوري تلفاز وملأوا الحجرة لتسجيل حديث مع مالكوم إكس يقدمه بيل بوتيل المعلق الإذاعي المعروف لشبكة تلفاز إيه بي سي «شركة الإذاعة الأمريكية » وبينما الطاقم يرتب آلات تصويره وأضوائه الكاشفة في متكاها اتصلت محطة إذاعية من دايتون بولاية أوهايو تطلب عمل مقابلة إذاعية مع مالكوم إكس بواسطة الهاتف فأمرني أن أبلغهم بأن يتصلوا به هاتفيا في اليوم التالي عند أخته إيللا في بوسطن – اتصل بعد ذلك وزير الإعلام الغاني فاستدرت نحو مالكوم بمذكرة عن ذلك حينما وجدت المعلق بيل بوتيل يقول لمالكوم إكس : « لن آخذ كثيرا من وقتك وكل ما لدي هو بعض الأسئلة الغبية » وهو ينظر إلى مذكرتي الممدودة أجاب مالكوم: « الأسئلة الغبية فقط هي تلك التي لم تسأل » .

ثم أضاف قائلا لي: « قل لهم أنني سأتصل بهم » وما إن بدأت آلات التصوير التلفازي تعمل وبوتيل ومالكوم إكس يتكلمان ، إلا أن رن جرس الهاتف مرة ثانية وهذه المرة كان المتكلم مارك كراوفورد مراسل مجلة لايف فوشوشت له بما يحدث فما كان منه إلا أن طلب بدون تردد أن توضع سماعة الهاتف قريبا من المتحدثين حتى يسمع ما يقال . فانصعت لذلك مسرورا بأنني بتلك الطريقة لن أدع أحدًا يقاطع المقابلة التلفازية .

المخطوطة التي أعطيتها لمالكوم لمراجعتها كانت في صورة أحسن الآن وانكب على قراءتها صفحة صفحة بانهماك وهو يرفع رأسه بين الفينة و الأخرى ليقول بعض التعليق . قال مرة: « أتدري أن السبب في أن لي بعض الفاعلية هو أنني أدرس نقاط الضعف في هذا البلد وكلما عوى الرجل الأبيض كلما أدركت أنني أصبت منه وترًا حساسًا » في مرة أخرى وضع المخطوطة التي كان يقرأها على السرير ثم نهض من مقعده وتمشى في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يمسح لحيته نظر لي ثم قال : «أتدري أنني في ذلك الفصل من الكتاب الذي أخبرتك فيه كيف وضعت المسدس

على صدغي وظللت أضغط على الزناد حتى أدخلت الروع في قلوبهم عندما كنت أنظم عصابة للسرقة – حسنا » توقف ثم أضاف « لا أدري إن كان علي أن أكلمك بهذا أم لا ، لكنني أود أن أصارحك بالحقيقة . » نظر إلي في فضول ثم قال : « لقد أخفقيت الرصاصة في راحة يدي » علقت بقولي : «حسنا ، أعطني هذه الصفحة وسأعدلها لك » فكر برهة ثم قال : « لا ، دعها كما هي . كثيرون سيقولون بسرعة أن ذلك ما أفعله الآن ، الخداع ».

في مرة أخرى عندما كان يراجع الفصل الذي يتحدث فيه عن إكتشافه لمكتبة السجن ، رفع مالكوم إكس رأسه فجأة : « لن أنسى ما حييت ذلك الأردفاك » في الأمسية التالية حضر إلى غرفتي و أخبرني أنه ذهب إلى متحف التاريخ الطبيعي «وتعلمت شيئا عن ذلك الحيوان . آردفاك حقيقة تعني خنزير الأرض . ذلك مثل جيد على جذور الكلمات كما كنت أقول لك وعندما تدرس علم الفيلولوجيا فسترى القوانين التي تتحكم في كيفية فقدان الحرف الساكن لشكله الأصلي مع احتفاظه بهويته من لغة لأخرى » ما أدهشني هو أنني كنت أعرف أن يومه كان مزدحما بما فيه ظهوره على التلفاز ومحادثة اذاعية ثم محاضرة مفتوحة ومع ذلك وجد الوقت ليذهب ويتعلم شيئا عن حيوان الأردفاك .

لم يمض وقت طويل حتى دعا مالكوم إكس إلى مؤتمر صحفي أعلن فيه : «منظمتي الجديدة ، منظمة الوحدة الأفرو أمريكية هي مجموعة لا دينية ولا حزبية تهدف إلى توحيد الأفرو – أمريكيين حول برنامج بناء لتحقيق الحقوق الإنسانية . من لهجته بدى أن المنظمة الجديدة هي منظمة للقومية السوداء النشطة . أجاب على أسئلة الصحفيين المختلفة في مقابلات تالية بأن المنظمة الجديدة تسعى إلى تحويل السكان الزنوج من اللاعنف إلى الدفاع الإيجابي عن النفس ضد العنصريين "البيض في كل أرجاء أمريكا. فيما يختص بموقفه السياسي فقد كان غامضا إذ قال: «لا يهم استخدام الاقتراع أو الرصاص ، المهم أن تصوب جيدًا ، لا تصوب نحو الألعوبة بل نحو من خلفها . » هل يتصور مجالا خاصا لنشاطه ؟ « سأنضم للكفاح في أي مكان يطلب الزنوج فيه إقدامي » ، ماذا عن التحالف مع المنظمات الزنجية الأخرى ؟ أجاب بأنه سينظر في تكوين جبهة متحدة مع بعض زعماء الزنوج المختارين . سلم عند سؤاله بأن « المنظمة القومية لتقدم الملونين » تقوم « ببعض الأعمال الجيدة » هل يستطيع أي أبيض الانضمام إلى منظمة الوحدة الأفرو – أمريكية ؟ « إذا كان جون براون مازال حيا ، ربما سمحنا له . » أجاب على بعض نقاده بتصريحات مثل أنه سيرسل « رجال حرب عصابات مسلحين إلى ولاية ميسيسبي » ، « إنني جاد جدًّا في ذلك . وسنرسلهم ليس إلى ميسيسيبي فحسب بل

إلى أي مكان يهدد فيه العنصريون البيض حياة السود ، وفيما أرى ، ميسيسيبي هـي أي مكان جنوب الحدود الكندية » في وقت آخر حينما طلبت منه ايفيلن كنغهام وهي نصف هازلة « قل شيئا مثيرا لأكتبه في عمودي » ، أجابها :«على كل من يريد أن يتبعني ويتبع تحركاتي أن يكون مستعداً لأن يذهب إلى السجن ، إلى المستشفى وإلى القبر قبل أن يكون حرا بحق . » طبعت أيفيلن ذلك في عمودها معلقة ، « ضحك وابتسم ولكنه كان جادا كل الجد . »

ولد طفله الرابع وهو ابنة اخرى فاسمتها الأخت بتي جميلة لوممبا . احدى النادلات الشابات في نادي هارلم رقم اثنين وعشرين الذي صار المكان الذي يطلب فيه من الناس مقابلته ، وتدعى هيلين لانيير ،أهدته مفرشًا للوليد الجديد . لمست تلك اللفتة أوتار قلبه فقال ، « لم ! إنني لا أعرف اسمها حتى ».

بدا عليه الانزعاج بوضوح عندما أظهر استطلاع لزنوج مدينة نيويورك نشرته صحيفة نيويورك تايمز أن ثلاثة أرباعهم يرون أن دكتور مارتن لوثر كنج هو أحسن من يخدم قضيتهم ، بينما صوت خمسهم لمستر روي ويلكنز ، الأمين العام للمنظمة القومية لتقدم الملونين ، وصوت ست بالمائة منهم فقط لصالح مالكوم إكس . قال لي بعد ذلك : « أتعرف يا أخ أن بعض أعظم عظماء التاريخ لم يعترف قومهم بفضلهم إلا بعد أن تواروا في الثري آمنين ».

في صباح أحد أيام صيف عام ١٩٦٤ إتصل بي مالكوم هاتفيا ليخبرني أنه سيغادر خلال اليومين أو ثلاثة الأيام القادمة إلى رحلة مخططة لقضاء ستة أسابيع بالخارج . أول ما سمعت منه بعد ذلك كان من القاهرة في حوالي الوقت الذي بلغ فيه « الصيف الطويل اللاهب » الذي تنبأ به ، أشده وعمت حوادث الشغب والانتفاضات ضواحي فيلادلفيا وروتشستر ، بروكلين وهارلم وعدة مدن أخرى . كتبت صحيفة نيويورك تايمز أن اجتماعا للمثقفين الزنوج اتفق أن مارتن لوثر كنج يستحوذ على ولاء الطبقات العليا والوسطى بين الزنوج لكن مالكوم هو الوحيد الذي تدين له جماهير الطبقات الدنيا بالولاء . « يجل الزنوج الدكتور كنج ومالكوم إكس لأنهم يرون فيهما رجالا ذوي كرامة مطلقة ويعلمون أنهما لن يخوناهم أبدًا . مالكوم إكس لا يمكن شراؤه والزنوج يدركون ذلك ويحترمونه لذلك . أنهم أيضا يدركون كون أنه مثلهم ، أتى من الحضيض ويعتبرونه واحداً منهم . سيلعب مالكوم إكس دورًا عظيمًا لأن الصراع العنصري بدأ يتحول نحو مدن الشمال . . . وإذا كان دكتور كنج مقتنعًا أنه ضحى بعشر سنوات من القيادة الملهمة فإنه سيضطر الآن لمراجعة أفكاره . هنالك اتجاه واحد يمكنه التحرك نحوه ، وهو اتجاه مالكوم إكس » قطعت تلك القصاصة من الصحيفة وأرسلتها

لمالكوم إكس في القاهرة .

في واشنطن د . س . وفي مدينة نيويورك على الأقل كانت هنالك عدة منظمات أهلية ومدنية خاصة ذات نفوذ ووكالات حكومية وأفراد آخرون متشوقون ومتربصون لمعرفة ما يقوله مالكوم إكس في الخارج ويتساءلون عما يمكن أن يقوله ويفعله عندما يعود إلى أمريكا . وأنا في صعيد نيويورك وصلتني مكالمة هاتفية من صديق حميم أخبرني أنهم طلبوا إليه أن يسألني إن كان بإمكاني الحضور في يوم معين إلى مدينة نيويورك لمقابلة « مسؤول كبير جداً في الحكومة » يود أن يعرف شيئا عن مالكوم إكس . ركبت الطائرة إلى المدينة واصطحبني صديق إلى مكاتب واحدة من كبرى المؤسسات الخيرية الخاصة المشهورة بنشاطها واسهامها المالي في مجال الحقوق المدنية . قابلت رئيس تلك المنظمة الذي قدمني إلى رئيس دائرة الحقوق المدنية بوزارة العدل الأمريكية ، بيرك مارشال ، وكان أكثر ما يهم بيرك هو أوضاع مالكوم إكس المالية خاصة كيف يمول سفره الدائب منذ أن ترك المسلمين السود . أجبته أن هنالك طبقاً لمعلوماتي ، عدة دفعات من الناشر تموله بالإضافة إلى الرسوم التي يتقاضاها من بعض محاضراته العامة وربما بعض التبرعات التي وصلت إلى منظمته ، وأنه أخبرني أنه اقترض مالا من أخته إللا لرحلته الحالية ، كما أن مجلة ساتردي إيفننج بوست اشترت حديثاً حق نشر ملخصات للكتاب بمبلغ محترم سيستلمه بعد قليل . أصغى مارشال لي بهدوء واهتمام ثم سألني بعض الأسئلة التي تختص بجوانب عن حياة مالكوم إكس ثم شكرني . كتبت إلى مالكوم إكس وهو في القاهرة في تلك الليلة عن تلك المقابلة لكنه لم يذكرها لي أبدا .

سافر مصور مجلة ساترداي ايفننج بوست جون لونوي إلى القاهرة ليبحث عن مالكوم إكس ويلتقط له بعض الصور الملونة وفي ١٢ سبتمبر ظهر العدد الجديد من المجلة فارسلت نسخة منه بالبريد الجوي إلى مالكوم إكس . بعد ايام قليلة من ذلك وصلتني منه مذكرة جارحة تعبر عن غضبه من محرري المجلة لما كتبوه في مقدمة قصة حياته . (كانت الافتتاحية كالتالي ، « لو لم يكن مالكوم إكس زنجياً لكانت سيرته الذاتية لا تعدو أكثر من مفكرات في علم النفس الغريب ، قصة حياة لص ، بائع مخدرات ، مدمن وخريج سجون – مع جنون موروث في عائلته – يدعي رسالة أوهام تبشيرية وينطلق يدعو إلى دين مقلوب عن العداء – الأخوي . » كتبت لمالكوم أنه ليس من العدل أن يحملني مسؤولية ما يكتبه محررو المجلة في تعليق منفصل – كتب معتذرا « لكن علينا أن نكون أكثر حرصاً في المستقبل . »

عودته من أفريقيا كانت مبشرة أكثر حتى من عودته من الحج . ظل عدد

كبير من أتباعه الزنوج و المهنئون يتوافدون في مبنى الركاب الخارجي في مطار كندي وعندما دخلت أنا ، رأيت عددًا من البيض يحملون آلات التصوير في الطابق الثاني يلتقطون صور كل الزنوج الذين يدخلون كما أن عددًا من الشرطة السرية الزنوج بالملابس العادية كانوا واضحين للعيان وهم يتحركون حول المكان . وضع مستقبلو مالكوم إكس لافتات كبيرة من القماش على الحائط الزجاجي المواجه لنقطة الجمارك مكتوب عليها بخط واضح « مرحبا بعودتك ، يا مالكوم » ، ثم ظهر مالكوم وهو يتقدم في صف الجمارك وعندما سمع الهتافات والتحيات نظر نحو الجمهور ثم ابتسم في سعادة .

أراد مالكوم أن يجتمع بي ليكلمني عن بعض تفاصيل رحلته التي يريد لها أن تُضمَّن في الكتاب وأخبرني أنه سيعطيني الخطوط العريضة فقط لأنه يرى أن ما تحويه مفكرته ، التي كان يسجل عليها الأحداث يوميا ، كاف لعمل كتاب آخر . قضينا جلسات مكثفة في غرفتي بالفندق حيث قرأ لي مختارات من مفكرته بينما سجلت أنا بعض الملاحظات . قال: « ما أريد أن أؤكد عليه هو محاولتي لتدويل مشكلتنا ، أن أجعل الأفارقة يشعرون بقرابتهم منا نحن الأفرو أمريكيين ، لقد جعلتهم يفكرون في الأمر ، في قرابة الدم التي تربطنا وبأننا كلينا أتينا من نفس الجدود . لذلك أحبني الأفارقة مثلما أحبني الآسيويون لديني ».

في الأيام التالية لم أعد أراه كثيرًا لازدحام وقته . كان يتصل معتذرًا إذ أنه كان يجابه عقبات بعضها ذكره وبعضها سمعته من آخرين . كان هنالك عدم رضا داخل منظمته ، منظمة الوحدة الأفر أمريكية فبقاؤه خارج البلاد مدة طولها ثلاثة أضعاف ما قال أنه سيبقى ،هز الروح المعنوية لبعض أعضاء المنظمة الأساسيين وكان هنالك شعور عام بينهم أن اهتمامه بالمنظمة غير كاف ولا يتوقع معه أن يظل اهتمام الآخرين عاليا.سمعت من أحد الأعضاء أن هنالك قلقًا متزايدًا يمكن تحسسه في المنظمة.

في هارلم عامة،في الحانات والمطاعم،في أركان الشوارع والأرصفة بدأنا نسمع انتقادات صريحة لمالكوم لم يسبق أن قيل مثلها من قبل على الإطلاق.كان هنالك أساسا انتقادان عُبر عنها بطرق مختلفة أولهما هو أن كل ما يفعله مالكوم هو الكلام بينما منظمات الحقوق المدنية تعمل « كل ما يفعله هو مجرد الحديث بينما منظمات كورو إسْنِك وبعض رجال دكتور كنج في الخطوط الأمامية يتلقون الضربات على رؤوسهم . الانتقاد الثاني هو أن مالكوم نفسه أصبح مشوش الفكر للدرجة التي يصعب معه أتباعه بجدية » أنه لا يدري ما يؤمن به وما أن تسمع أنه أمن بشيء ما ،ألا وقد تحول إلى شيء آخر.« هذه الانتقادات أضرت بصورة الزعيم الناري

ولم تساعده في توليد الاهتمام والإثارة محليًّا ،وذلك ما تحتاجه منظمته الصغيرة الوليدة بشدة.

حكمت أحد المحاكم حكمًا بائنًا أن على مالكوم وعائلته أخلاء ذلك المنزل في المهيرست وإعادته لمن رأت المحكمة أنهم أصحابه قانونا ، الإيجا محمد وجماعته.ومن بين مشاكل مالكوم الملحة الأخرى كانت المادة، كان عليه الإنفاق على نفسه وعلى موظف متفرغ للمنظمة بالإضافة إلى أسرة من زوجة و أربع طفلات.عند عودته من أفريقيا سلمني وكيل الناشر صكا بمبلغ محترم لأسلمه بدوري لمالكوم إكس، وبعد ذلك بأيام قليلة أخبرني مالكوم وهو يضحك باشمئزاز « لقد تبخر.لا أدري في ماذا!»

بدأ مالكوم يغرق في النشاطات المختلفة.كان يكتب بنفسه أو يتصل هاتفيا لقبول عشرات الدعوات المحلية للحديث أكثرها في الجامعات والكليات -وذلك لنشر وتوضيح فلسفته ولاكتساب بعض المال حيث يتلقى ما بين ١٥٠ الى ٣٠٠ دولار فوق تكاليف السفر لكل محاضرة وعندما يكون بمدينة نيويورك كان يقضي جل وقته في مكتب منظمة الوحدة الأفرو أمريكية القليل الأثاث في طابق الميزانين في فندق تيريزا محاولا حل مشاكل المنظمة المعقدة.سأله مراسل فتهرب من الإجابة قائلا :« لن أكشف لكم عن عدد أعضاء منظمتنا.وكما تعلم جذور الشجرة هي أقوى ما فيها ولكنك إذا كشفت عن الجذور ،ستموت الشجرة.ولم لا؟إن لنا أعضاء سريين من كل الأنواع.وخلافا للزعماء الآخرين فلقد تمرست على المرونة التي جعلتني على صلة مع كل زنجي في هذا البلد».

وحتى في أوقات تناول الوجبات في ناديه المفضل في هارلم، نادي اثنين وعشرين، أو في أي مكان أخر في هارلم لم يكن ليجد الوقت ليكمل وجبة من فرط أعداد الناس الذين يأتون اليه لمناقشته في موضوع ما قد يتصل بأشياء شخصية أو لمعرفة رأيه في بعض الشئون العالمية ولم يكن ديدنه رفض أي طلب.مساعدوه الذين تبرعوا بوقتهم كانوا يجدون أن عليهم الانتظار لفترات طويلة قبل أن يتمكنوا من مناقشته في أي أمور تهم منظمة الوحدة الأفرو أمريكية أو تهمه شخصيًّا ومع ذلك كثيرًا ما أبدى ضيقا كغير عهده من أسئلتهم أو اقتراحاتهم وظهر عليهم الاستياء من ذلك. مرة في الأسبوع على الأقل ، في أمسيات الآحاد عامة كان يخاطب عددا من الزنوج بقدر ما تأتي به الأفيشات الصغيرة أو من يبلغهم الخبر شفهيا ، للاستماع إليه في قاعة أودوبون في هارلم في الجادة ١٦٦ ما بين شارع برودواي وشارع سانت نيكولاس بالقرب من مركز جامعة كولمبيا الطبي المشيخي المشهور في مدينة نيويورك.

لسبب ما بدأ مالكوم إكس فجأة يصب هجومه على الإيجا محمد ويلقي باتهامات مرة عن« الخداع الديني» و «اللاأخلاقية» أكثر مما فعل في السابق.يحتمل أنه بدأ يستاء بشدة من قرب موعداخلائه الجبري هو وزوجه وطفلاته الأربع الصغيرات للمنزل المريح الذين أقاموا فيه عدة سنوات في المهيرست علما بأن الأخت بتي كانت حبلى لمرة أخرى.«البيت كان الشيء الوحيد الذي هيأته لبتي منذ أن تزوجنا ، والآن يريدون أخذه منا. لقد عرضتها لتغيرات كثيرة وذلك كل ما قدمته لها.ينبغي على أن أحب تلك المرأة ». ذلك كان تعليقه ذات مرة على أمر المحكمة.

تواترت هاتفيا سلسلة من التهديدات بالموت من مجهولين للشرطة ولصحف مختلفة ولمكتب منظمة الوحدة الأفرو أمريكية ولبيت الأسرة في المهيرست وعندما ذهب للمحكمة ليستأنف الحكم صحبة ثمانية من رجال المنظمة وعشرون رجل شرطة واثنا عشر شرطة سرية.إلا أن قرار المحكمة كان أن الحكم لا يمكن تغييره وعندما عاد الى المنزل اتصل به أحد اتباعه ليجد رسالة مسجلة على الهاتف تقول أن الرقم ٦٣٢٠ - ٢٥٦ قد قطعت عنه الخدمات. عندها ركبت مجموعة من أتباع منظمته إلى لونج أيلاند وهم يسابقون الريح خوفا عليه ليجدوا أن مالكوم وأسرته كانوا في سلام تام.وعند سؤال شركة الهاتف اتضح أن امرأة تدعى «مسز سمول» قد اتصلت بشركة الهاتف تطلب منها إيقاف الخدمات الهاتفية لذلك الرقم لأن صاحبه سيكون في أجازة.عاد بعد ذلك أتباع منظمة الوحدة الأفرو أمريكية إلى هارلم وحدثت مواجهة بينهم وبين أتباع الإيجا محمد أمام مطعم للمسلمين السود بين جادة ١١٦ وشارع لينوكس وانتهى الحادث بحضور الشرطة الذين أسرعوا إلى المكان ووجدوا بندقيتين في عربة منظمة الوحدة الأفرو أمريكية واعتقلوا رجال المنظمة الست.

كان لدى مالكوم إكس ميعاد للحديث في بوسطن وبما أنه كان مشغولا جدا فقد أرسل أحد مساعديه الذي تكلم في مكانه إلا أن عربة أخرى اعترضت عربة المساعد في الطريق وهو عائد من بوسطن.على حسب الرواية هرع رجال خارجين من العربة المعترضة يحملون مدى إلا أن رجال مالكوم إكس شهروا سلاحا ناريا فهرب المهاجمون.

أصبح مالكوم يشير بأصابع الاتهام وبانتظام نحو المسلمين السود كمصدر للتهديدات والمهاجمات الوختلفة. « ليست هنالك مجموعة أخرى في الولايات المتحدة أكثر قدرة على تنفيذ تهديداتها من المسلمين السود وأنا أعي ذلك لأني درستهم بنفسي » وعند سؤاله لماذا هاجم المسلمين السود و الإيجا محمد عندما بدأ أن الأمورقد هدأت أجاب «لم أكن لأكشف عن ذلك إذا تركوني لحالي.» كما أنه

ترك المصورين يصورونه أمام منزله وهو يحمل بندقية كارباين آلية ملأى بعدد مضاعف من الرصاص قائلا :إنها جاهزة للإطلاق ضد أي محاولة اغتيال محتملة، «لقد علمت زوجتي استخدامها وأمرتها بأن تطلق النار على كل من يحاول الدخول عنوة أبيض أم أسود كان أم أصفر».

رجعت إلى مدينة نيويورك في ديسمبر حتى يتسنى لمالكوم قراءة الإضافات الأخيرة للمخطوطة بعد إضافة أخر التطورات. بدا لي بعيدا جدا عن حالة الاطمئنان والثقة بالنفس التي عهدتها فيه قبلا وظل يردد أن الصحافة لا تأخذ تصريحاته عن التهديد لحياته مأخذ الجد. « إنهم يظنون أنني أتلاعب بالكلمات » أخرج تعليق مجلة ساترداي ايفننج بوست مرة أخرى وقال« لا يمكن الثقة بأصحاب دور النشر ولا يهمني ما يقولونه لك ». أرسل وكيل الكتاب إليَّ في الفندق عقداً جديداً يختص بالنشر والتوزيع في الخارج يتطلب توقيعي وتوقيع مالكوم إكس.وقعته ومالكوم يراقبني ثم ناولته القلم فنظر إلى العقد متشككا ثم قال: « ينبغي أن أُري ذلك العقد لمحاميي أولا ، ثم وضعه داخل جيب معطفه. وبينما هو يقود السيارة بعد ساعة من ذلك ، إذا به يعطل السيارة فجأة عند منتصف الجادة ١٢ بالقرب من مبنى جماعة الشباب المسيحي ثم أخرج العقد ووقع عليه ورماه لي قائلا : « غنني أثق بك » ، ثم واصل السير.

مع اقتراب عيد الميلاد وامتثالا لخاطرة اشتريت لطفلتي مالكوم إكس الكبيرتين عروستين كبيرتين لونهما بني ومن النوع الذي يمشي حينما تمسك بيدها اليسرى ، وعندما حضر إليَّ في غرفتي في فندق ولنجتون بادرته قائلا « عندي لك شيء لتأخذه لأتيلا وقبيلة كهدية عيد الميلاد » ثم أخرجت العروستان تمشيان .اندهش وأشرق وجهه بابتسامة عريضة ثم قال: «حسنا ، ماذا تعرف عن ذلك، حسنا ، ماذا عن ذلك! » تقدم وفحص اللعبتين والتعبير الذي على وجهه ينم عن سعادة مست أوتار قلبه. بعد هنيهة « لست أفخر بما أقول ولكني لا أذكر أنني اشتريت أية هدايا لأطفالي قط. كل لعبة لديهم أما أحضرتها لهم بتي أو أعطاها لهم شخص آخر إلا أنا. ذلك ليس جميلا مني وأنا أدرك ذلك. لقد كنت دائما مشغولا أكثر من اللازم ».

في أوائل يناير طرت من صعيد ولاية نيويورك لمطار كندي حيث اتصلت هاتفيا بمالكوم إكس في منزله لأخبره أنني بانتظار طائرة أخرى لتقلني إلى مدينة كانساس وذلك لحضور مراسم أداء القسم لأخي الذي أُنتخب في مجلس شيوخ ولاية كانساس .أوصاني مالكوم بأن أذكّر أخي ، « قل لأخيك أن يتذكر وهو في الطريق إلى ذلك أنه هو وكل المعتدلين الزنوج ما وصولوا إلى مثل هذه المراتب إلا

بسببنا نحن المتطرفين » طلب مني أيضا أن أخابره هاتفياً عندما أعرف ميعاد عودتي إلى نيويورك وأنه إذا تمكن فلربما قضينا بعض الوقت سويا. فعلت ذلك فقابلني في مطار كندي ولم يكن أمامه الكثير من الوقت إذ أنه كما قال كان عليه المغادرة بعد ظهر ذلك اليوم لإلقاء محاضرة في مكان ما ولذلك حجزت على أول طائرة ذاهبة إلى الصعيد ثم خرجنا وجلسنا نتحادث داخل عربته في الموقف. حدثني عن الضغوط التي تواجهه أينما اتجه وعن الإحباط الذي يعانيه ومن بينها إلا أحد على استعداد للتعامل معه إلا على أساس صورته القديمة عن « العنف » و « الكراهية » ، وأن من يسمون « بالمعتدلين » في منظمات الحقوق المدنية يتفادونه على أساس أنه « متطرف » بينما من يسمو ن « بالمتطرفين » يتفادونه على أساس أنه معتدل أكثر مما يجب « إنهم لن يدعونني أميز وجهتي فأنا في مأزق ».

من الجانب السعيد تحدثنا عن وليده المتوقع وضحكنا عن قدوم أربع بنات واحدة إثر الأخرى و« القادم هذا سيكون ولدًا » أشرق وجهه ثم أردف « وإذا لم يكن ، فالذي بعده » وعندما ذكرت أن ميعاد طائرتي قد قرب أجاب بأنه سيتحرك أيضا فودعته قائلا: « أحسن التحايا للأخت بتي » فقال أنه سيبلغها ذلك ثم شددنا على أيدي بعضنا البعض وخرجت من العربة ووقفت أراقبه وهو يقود الأولزومبيل الزرقاء خارج موقف العربات. هتفت «أرجو أن أراك! » لوحنا لبعضنا وقد بدأ يقود السيارة بعيدًا. لم يكن يدر بخلدي أبدًا أن تلك ستكون آخر مرة أراه فيها حيًا.

في ١٩ يناير ظهر مالكوم إكس في برنامج تلفازي في كندا يقدمه بيير بيرتون وقال في استجابة لسؤال عن الاندماج والزواج المختلط :

« إنني أؤمن بقبول كل إنسان كبشر بدون اعتبار لكونه أبيض أو أسود، أسمر أم أحمر وعندما تنظر إلى البشرية ككل فليس هنالك ما يمنع الاندماج أو الزواج المختلط.كل ما في الأمر أن إنسان ما تزوج من إنسان ما آخر أو إنسان يعيش بين أو مع آخرين -ومع ذلك فإنني أقول أن عبء الدفاع عن هذا الموقف أو ذاك ليس على الرجل الأسود ويجب ألا يطلب منه تبرير موقفه لأن الرجل الأبيض في مجموعه هو الذي يعادي الاندماج والزواج المختلط وكل خطوة نحو الوحدة. لذا وبصفتي رجلا أسود ، وبخاصة أمريكيًا أسود ، لا أعتقد أن على الدفاع عن أي موقف اتخذته في السابق لأنه لم يكن إلا رد فعل لموقف الرجل الأبيض وما زال كذلك ، رد فعل قاد إليه المجتمع. وإذا كنا سنهاجم وننتقد علينا أن نهاجم المجتمع الذي قاد إلى ذلك وليس المواقف التي يتخذها ضحايا ذلك المجتمع السلبي».

مع هذا يمكن القول أن مالكوم ، قبل شهر من وفاته، قد راجع رؤيته للزواج المختلط إلى حد الاعتبار أنها مجرد مسألة شخصية.

في ٢٨ يناير كان مالكوم على ظهر طائرة خطوط تي دبليو.ايه سفرية رقم ٩ التي غادرت نيويورك لتهبط في لوس أنجلوس الساعة الثالثة بعد الظهر.وقفت فرقة شرطة خاصة على بعد بينما استقبله اثنان من أصدقائه المخلصين، غدوارد برادلي وألان جمال ثم صحباه على عربة أحدهما إلى فندق ستاتلر هيلتون حيث تسجل مالكوم إكس فس غرفة رقم ١١٢٩.أخبرني برادلي بعد ذلك ، « ونحن ندخل ردهة الفندق أتى خلفنا ستة رجال فتعرفت إليهم كمسلمين سود وعندما عاد مالكوم إكس للردهة من غرفته كاد أن يرتطم جسديًا بمجموعة المسلمين. ذهل المسلمون وعندما تجمد وجه مالكوم إكس لكنه لم يفقد أعصابه أبدًا فتأكد لنا أننا سنواجه مصاعب » صديقا مالكوم أخذاه لإحضار اثنين من سكرتيرات الإليجا محمد السابقات اللتين كانتا قد رفعتا دعوة أبوة ضد الإليجا محمد ثم ذهب الجميع إلى مكتب المحامية اللامعة ، جلاديس روث ، قالت مسز روث إن مالكوم إكس وجه اتهامات عن سلوك الإليجا محمد مع مختلف سكرتيراته السابقات.

بعد العشاء ساقه صديقاه الاثنان عائدين به إلى الفندق . « المسلمون السود كانوا في كل مكان . بعضهم داخل عربات وبعضهم واقف حول الفندق الذي كان محاطا تماما بهم. نظر مالكوم حوله وتحقق من الوضع ثم قفز خارجًا من السيارة وحذرني أن أراقب حولي ثم هرول إلى ردهة الفندق. هنالك دخل غرفته ولم يغادرها إلا وهو في الطريق إلى المطار خارجاً من لوس أنجلس» تلك كانت رواية ادوارد برادلي.

العربة التي ركبها مالكوم إكس من الفندق إلى المطار كانت تحت الرقابة كما قال برادلي :« لم نكد نصل طريق السفر السريع إلا ورأينا سيارتين ملأى بالمسلمين السود تتعقباننا. بدأت السيارتان تقتربان منا فالتقط مالكوم عصاتي ووضع مؤخرتها في النافذة الخلفية لتبدو وكأنها بندقية فأبطأت السيارتان وزدنا من سرعة سيارتنا ثم خرجنا عند المنفذ المؤدي للمطار وأسرعنا إلى مقدمة مبنى الركاب. هنالك كانت الشرطة في انتظارنا فاصطحبت مالكوم إلى الطائرة من خلال ممر أرضي وودعته هنالك ».

عندما هبطت الطائرة في مطار شيكاجو أوهير في الثامنة من مساء تلك الليلة كانت الشرطة في الانتظار فاصطحبت مالكوم إلى فندق بريستول حيث نزل مالكوم وشغلت الشرطة الجناح الذي بجانبه حيث وضعته تحت حمايتها لمدة ثلاثة أيام قضاها في شيكاجو.أدلى مالكوم بشهادته في مكتب المدعي العام لولاية الينوي الذي كان يجري تحريات عن أمة الإسلام في يوم آخر ظهر على التلفاز في برنامج ارف كوبسنت حيث وصف محاولات اغتياله كما ذكر أنه وجد على

مكتبه خطابا فيه أسماء من سيقومون بمهمة قتله. وعندما أعاد البوليس مالكوم إلى الفندق « كان هنالك حوالي ١٥ زنجيا متجهمي الوجوه يتحاومون حول المبنى.همس مالكوم في أذن الملازم المخبر ، إدوارد ماكلان « كل هؤلاء مسلمون سود ، اثنان منهم على الأقل أعرفهم من نيويورك. يبدو أن الإيْجا محمد على علم بكل خطوة أخطوها». داخل غرفته قال للمخبر بعد ذلك ، « إنها مسألة وقت قبل أن يلحقوا بي لأني أعرف كثيرًا من أسرار المسلمين إلا أن التهديدات لن تثنيني عن القيام بما أنا مصمم عليه». بعد تلك الليلة اصطحبت الشرطة مالكوم إكس إلى مطار اوهير حيث ركب الطائرة الى مطار كندي في مدينة نيويورك.

بعد وصوله مباشرة وصله أمر قضائي بإخلاء منزله في المهيرست. اتصل بي في صعيد الولاية والتوتر في صوته وأخبرني أنه قدم استئناف لذلك الحكم وأنه ذاهب في اليوم التالي لولاية ألباما ثم إلى فرنسا وانجلترا بعد ذلك لإلقاء أحاديث تحدد ميعادها مسبقا وبعد أن يعود سيذهب إلى مدينة جاكسون بولاية ميسيسبي لمخاطبة حزب الحرية الديمقراطي في الولاية في التاسع عشر من فبراير. بعد ذلك أباح لي لأول مرة معترفا بحالته النفسية « أن أعصابي هالكة يا هيلي ، وعقلي مرهق» ثم أخبرني أنه يود بعد عودته من ميسيسبي أن يحضر ويقضي معي يومين أو ثلاثة في المدينة التي أنا فيها ويقرأ فيها مخطوطة الكتاب مرة أخرى. « تخبرني أنها بلدة هادئة. كل ما أحتاجه هو قضاء بضعة أيام في مكان هادئ ». أجبته مرحبا إلا أنني أفدته بأنه ليست هنالك من حاجة لأن يرهق نفسه بقراءة كل المخطوطة مرة ثانية إذ أنني لم أضف إلا تعديلات طفيفة منذ أن قرأها آخر مرة. رد عليَّ بقوله ، « إنني أريد فقط أن أقرأها مرة إضافية إذ أنني لا أتوقع أن أقرأ الكتاب في شكله النهائي. » عند ذلك اتفقنا مبدئيًا على أنه بعد عودته من ميسيسبي سيسافر إلى صعيد ولاية نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معي والتاريخ المتوقع لذلك سيكون يومي السبت والأحد، ٢١ -٢٢ من فبراير.

سجلت مجلة جت رحلة مالكوم إلى مدينة سلما بولاية الباما مدعوا من اثنين من أعضاء اللجنة الطلابية لتنسيق اللاعنف « إسْنِك » كان دكتور مارتن لوثر كنج حينها سجيناً في سجن سلما مما اضطرب معه مسئولو منظمة دكتور كنج «مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية » .تقابل مديرها التنفيذي الأب أندرو يونج « ممثل أمريكا في الأمم المتحدة في عهد الرئيس جيمي كارتر بعد ذلك » ، تقابل هو والأب جيمس بيفيل مع مالكوم وطلبا منه إلا يثير المتاعب وحذراه أن وجوده قد يتسبب في العنف. أصغى إليهما وهو يبتسم طبقاً لرواية مس فاي بلامي سكرتير منظمة أسنك ، التي اصطحبته إلى إحدى الكنائس حيث سيخاطب اجتماعاً جماهيرياً .قال لها

«تذكري هذا: لا أحد يضع كلمات في فمي» وأخبرها بأنه يخطط ليقوم برحلة جنوبية في حملة لتجنيد أعضاء جدد لمنظمة الوحدة الأفرو أمريكية التي قاعدتها هارلم. داخل الكنيسة التي سيتحدث فيها جلس مالكوم خلف المنصة بجانب مسز مارتن لوثر كنج ومال نحوها هامساً « إنني أحاول المساعدة » كما روت لمجلة جت بعد ذلك. « قال أنه يود أن يقدم بديلا وأنه سيكون من السهل على البيض تقبل مقترحات مارتن بعد أن يسمعوا منه مالكوم إكس. «لم أفهم ذلك في البداية «روت مسز كنج» كان يبدو متلهفاً نوعاً ما لإبلاغ مارتن أنه مالكوم لا بسبب المشاكل أو يعقد الأمور بل يحاول تيسيرها....أعاد ذلك على مسامعي ونحن في الممر بعد المحاضرة وكان يبدو عليه الإخلاص ».

يقال أن مالكوم ، في أثناء مخاطبته لذلك الجمهور هتف بحدة : « إنني لا أدعو إلى العنف ولكن إذا داس رجل على قدمي.فسأدوس أنا على قدميه »... « على البيض أن يسروا بأن مارتن لوثر كنج يستنفر الناس لأن هنالك قوى أخرى في الانتظار وعلى استعداد أن تحل محله إذا ما فشل ».

عاد مالكوم إلى نيويورك ثم سافر بعد فترة وجيزة من ذلك إلى فرنسا حيث كان مخططا له مخاطبة مؤتمر الطلبة الأفارقة هنالك في باريس أبلغته السلطات رسميا أنه لن يسمح له بالكلام هنالك كما أبلغوه أن عليه أن يعتبر نفسه ممنوعاً رسميًا وإلى الأبد من دخول فرنسا « كشخص غير مرغوب فيه. » طلبوا إليه مغادرة فرنسا ففعل وهو يغلي من الغضب. طار إلي لندن وهنالك أخذه بعض مذيعي هيئة الإذاعة البريطانية في جولة في مدينة سمثويك بالقرب من برمنجهام التي يقطنها عدد كبير من الملونين.أثار بعض السكان زوبعة متهمين هيئة الإذاعة البريطانية بأنها طرف في إثارة القلاقل العنصرية في مدينة تعاني سلفاً من القلاقل العنصرية. في زيارته إلى لندن تلك تحدث مالكوم أيضا في كلية جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية.

عاد مالكوم إلى مدينة نيويورك في صباح السبت الثالث عشر من فبراير وكان نائمًا في بيته مع أسرته عندما استيقظ في الثالثة إلا ربع من صباح الأحد على صوت انفجار رهيب. أخبرتني الأخت بتي لاحقاً أن مالكوم إكس استيقظ وهو يصرخ بالأوامر ثم خطف أطفاله الباكين المذعورين وأخرج أسرته كلها للأمان في الحديقة الخلفية للدار. رمى أحدهم بزجاجة مولوتوف مشتعلة من النافذة الأمامية واستغرق رجال المطافئ ساعة قبل أن يقضوا على النار. احترق نصف المنزل الذي لم يكن مؤمناً عليه من مالكوم.

حبلى وفي غم أخذت الأخت بتي الطفلات الأربع إلى منزل صديق حميم للعائلة

بينما حزم مالكوم من أمر نفسه وركب طائرة إلي ديترويت للقيام بحديث صباحي خطط له من قبل. كان يرتدي كنزة صوفية مفتوحة الرقبة تحت سترته. بعد الحديث طار مباشرة عائدا إلى نيويرك وفي صباح الاثنين، وهو في زحمة التخطيط لإعادة إسكان عائلته، هاج مالكوم غضبا عندما علم أن جيمس إكس، منيستر مسجد الإيْجا محمد رقم سبعة، زعم للصحافيين أن مالكوم رمى قنبلة المولوتوف في منزله ليلقى بعض الدعاية.

في مساء الاثنين تحدث مالكوم الى جمهور في قاعة أودوبون المألوفة وإذا كانت أعصابه الحديدية منعته في السابق من أن يضعف أمام الجمهور إلا أنه هذه المرة هتف أمام خمسمائة مستمع: « لقد وصلت نهاية حبلي.لكني لن أهتم لنفسي إذا كانوا لن يؤذوا أسرتي » ثم أعلنها صريحة ولمح إلى الانتقام قائلا :« لقد حرق المسلمون السود بيتي ولكن فليعلموا ! هنالك صيادون وهنالك من يتصيدون الصيادين».

في يوم الثلاثاء السادس عشر من فبراير اتصل بي مالكوم هاتفيا ليبلغني باختصار أن التعقيدات الناجمة عن إحراق منزله عبثت بخططه وأنه لذلك لن يستطيع زيارتي في صعيد ولاية نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع كما وعد مسبقا وأنه ألغى أيضًا رحلته إلى مدينة جاكسون في ولاية ميسيسبي التي سيحاول القيام بها مستقبلا. أضاف بأنه على استعجال للوفاء بارتباط سابق ثم قفل الخط.قرأت لاحقًا بعد ذلك أنه ذكر لأحد أتباعه المقربين ، « لقد وسموني للموت في خمسة الأيام التالية ولدى أسماء خمسة مسلمين سود اختيروا لقتلي وسأعلن ذلك في المحاضرة. » باح مالكوم إكس لصديق أنه سيقدم طلبا للشرطة ليسمحوا له بحمل مسدس « لا أدري إن كانوا سيوافقون لي بحمل واحد أم لا ، إذ أنني دخلت السجن في السابق ».

في يوم الخميس قال لصحفي في مقابلة لم تنشر إلا بعد موته: « إن لدي الشجاعة الأدبية الكافية لأقول أنني لا أستطيع تحديد فلسفتي السياسية بدقة في الوقت الحالي، ولكنني مرن في ذلك ».

على السبورة في مكتب منظمة الوحدة الأفرو أمريكية إعلان للأعضاء والضيوف فحواه التالي: « سيتحدث الأخ مالكوم من محطة إذاعة دبليو.آي.إن.إس. في العاشرة والنصف مساء الخميس ١٨ فبراير ». قبل ذلك وفي أثناء الصباح ناقش مالكوم موضوع بيت لأسرته مع وكيل عقارات وفي يوم الجمعة كان لديه ارتباط مع غوردون باركز، المصور الصحفي والكاتب في مجلة لايف الذي كان مالكوم يحترمه ويعجب به. روى باركز لمجلة لايف بعد ذلك قائلا ، « بدأ مالكوم هادئًا

ومتألقًا بعض الشيء بلحيته تلك وقبعته المصنوعة من فرو الحملان. بدا وكأن كثيرا من الحقد والمرارة قد زالا عنه لكن الثقة والنار ما زالتا فيه » قال مالكوم وهو يتحدث عن أيام المسجد رقم سبعة الخوالي : « ذلك كان منظراً سيئاً يا أخ. جنون ومرض تلك الأيام العليلة. إنني سعيد بتخلصي منها. هذا الوقت وقت الشهداء وإذا كان لي أن أصبح واحداً منهم، فسيكون ذلك من أجل التآخي. ذلكم هو الشيء الوحيد الذي سينقذ هذا البلد. لقد دفعت ثمناً غالياً لتعلم ذلك -ولكنني تعلمته.. » .

سأل باركز مالكوم هل حقيقة يتعقبه قتلة؟أجابه مالكوم « ذلك حق كحقيقة وجودك معي. لقد حاولوا ذلك مرتين في الأسبوعين المنصرمين. » وعندما سأله باركز لماذا لا يطلب حماية الشرطة ضحك مالكوم قائلا: « أخي، لا أحد يقدر على حمايتك من مسلم أسود الا مسلم -أو شخص تدرب على أساليبهم. أدرك ذلك لأنني اخترعت كثيرًا من أساليبهم ».

تحسر مالكوم إكس لباركز وهو يتذكر حادثة الفتاة الجامعية البيضاء التي حضرت له في مطعم المسلمين السود وهي تسأل « ماذا يمكنني أن أفعل؟ » وكيف أنه أجابها : « لا شيء » فذهبت باكية: « حسنا ، لقد عشت وندمت على ذلك. في كثير من بلدان أفريقيا رأيت طلاباً بيضاً يساعدون السود ومثل ذلك الشيء يدحض أي حجة. لقد فعلت أشياء كثيرة كمسلم أسود أندم عليها الآن. لقد كنت مثل الزومبي -ككل المسلمين السود -كنت منوما مغناطيسيا أروني اتجاهًا معينًا وطلبوا مني السير فيه.حسنًا، أعتقد أنه من حق الإنسان أن يعمه في الجهالة إذا كان على استعداد لدفع الثمن. لقد كلفني ذلك اثنى عشر سنة ».

في صباح السبت قاد سيارته ومعه الأخت بتي ليقابلا وكيل العقار.المنزل الذي آراهم له الوكيل والذي أعجب مالكوم إكس كان يقع في حي أغلب سكانه من اليهود وفي لونج أيلاند أيضا ويتطلب مقدما قيمته ثلاثة ألاف دولار. بتي أشارت بموافقتها أيضا فأخبر مالكوم وكيل العقار بأنهم سيشترون المنزل ثم عادا وفي الطريق إلى بيت صديقهم الذي تنزل فيه بتي مع الأطفال، قدروا أنهم سيحتاجون إلى ألف دولار أخرى للانتقال. بقى مالكوم مع الأخت بتي في منزل ذينك الأصدقاء إلى ما بعد منتصف الظهر وهو يبادلها الحديث.قال لها أنه يدرك أنها تعيش تحت ضغوط شديدة ومطولة وأنه يعتذر عن كل ذلك وعندما أخذ قبعته وهو خارج في طريقه إلى مانهاتن (حي في نيويورك) وقف في منتصف الصالة وقال للأخت بتي : «سنكون كلنا معا. أريد لأسرتي أن تبقى معي فالأسر يجب ألا تفترق . لن أقوم برحلة طويلة بعد اليوم بدونك وسنجد شخصًا يعتني بالأطفال في غيابنا. لن أبرحك

لمدة طويلة مرة ثانية على الإطلاق ».

« لم أتمالك نفسي من السعادة فانفجرت ضاحكة » ، حكت لي ذلك الأخت بتي لاحقاً.

خمنت بتي أن مالكوم قد توقف عند متجر بقال ليستخدم الهاتف عندما أخبرتها أن مالكوم اتصل بي في صعيد ولاية نيويورك في حوالي الثالثة والنصف من ظهر نفس اليوم ولأول مرة في غضون عامين لم أدرك توًّا أن الصوت في الجانب الآخر كان صوت مالكوم. كان وكأنما ألمت به نزلة برد شديدة ثقيلة. أخبرني أن بعض الأصدقاء ساعدوا مندوبي شركة ترحيل عند منتصف الليل لإخراج كل أثاثهم وما تبقى من ممتلكات أسرته خارج المنزل القديم ووضعوها على الرصيف. « أنا وبتي كنا نعاين منزلا نرغب بشرائه » حاول ضحكة خفيفة ثم واصل، « كما تدري لا أحد على استعداد لتأجير منزله هذه الأيام، ليس لي أنا. وكل ما عندي مائة وخمسون دولار »، وأنه يحتاج ثلاثة آلاف دولار تدفع مقدما زائداً ألف أخرى تكاليف الترحيل وسألني إن كان الناشر يمانع في منحه ٤٠٠٠دولار مقدما من أرباح الكتاب المتوقعة. أخبرته بأني سأتصل بالوكيل صباح الاثنين الذي بدوره سيستفسر من الناشر ليرى أن كان ذلك ممكنا وسأتصل به في مساء نفس اليوم لأعلمه بما جرى.

أعلمني أنه والأخت بتي إتفقا على تسجيل البيت باسم أخته إيللا في بوسطن علما أنهم سيدفعون أقساطه وذلك لنجنب المشاكل وأضاف أنه ما زال مدينا لأخته إيللا بمبلغ ١٥٠٠دولار أعارتها له لواحدة من رحلاته إلى الخارج وفي المستقبل سيكتبون البيت باسم بتي أو ربما باسم كبرى بناته، أتيلا.

بعد ذلك استدرك ليتحدث عن الأخطار المحدقة به « سأقول لك شيئا لو تدري أيها الأخ -كلما أفكر أكثر في هذا الموضوع ونوع الأشياء التي حدثت مؤخرا، لا أعود متأكدا أنها من المسلمين. أنني أعرف ما يقدرون وما لا يقدرون عليه وبعض الأشياء التي حدثت مؤخرا، ليس بمقدورهم فعلها.الآن سأقول لك أنني عندما أفكر فيما حدث لي في فرنسا، أفكر في التوقف عن اتهام المسلمين » ثم وفي تغيير فاجأني وغريب للموضوع ذكر ، « أتدري أنني سعيد بكوني أول من بدأ اتصالات رسمية بين الأفرو أمريكيين وإخواننا في الدم في أفريقيا » ودعني ووضع سماعة الهاتف.

بعد تلك المحادثة قاد مالكوم سيارته إلى مانهاتن وإلى فندق هلتون نيويورك بين الجادتين ٥٣ و٥٤ عند مركز روكفلر.أدخل عربته في موقف سيارات الفندق ثم طلع إلى ردهة الفندق يطلب غرفة وسُجل في الطابق الثاني عشر في غرفة اصطحبه إليها أحد الحمالين.بعد ذلك بفترة وجيزة دخل بعض الزنوج إلى ردهة الفندق الضخم المزدحمة وبدأوا يستفسرون من الحمالين عن رقم الغرفة التي يقيم فيها مالكوم

إكس.الحمالون طبعًا لا يجيبون على مثل تلك الأسئلة عن أي نزيل دعك من نزيل مثل مالكوم إكس الذي يعرف كل من يقرأ صحف نيويورك أنه تلقى تهديدات بالقتل ، ولذا أبلغ الحمالون إدارة الفندق بذلك بسرعة منذ تلك اللحظة وحتى اليوم التالي الذي غادر فيه مالكوم الفندق فرضت حراسة مشددة وعلى مدار الساعة على الطابق الثاني عشر. وفي غضون ذلك الوقت لم يترك مالكوم غرفته إلا مرة واحدة فقط وذلك لتناول طعام العشاء في الطابق الأرضي في غرفة بوربون ذات الضوء الخافت.

صباح الأحد التاسعة صباحا فوجئت الأخت بتي في لونج أيلاند عندما اتصل بها زوجها هاتفيا ليسألها أن كان سيشق عليها جعل كل أطفالهم يرتدون ملابسهم وأن تأتي بهم لمحاضرة الساعة الثانية من بعد ظهر نفس اليوم في قاعة أودبون في هارلم.أجابت: « بالطبع لا! » علما بأنه كان قد طلب منها يوم السبت ألا تحضر. قال لها :« أتدرين ما حدث قبل ساعة؟ في الساعة الثامنة بالضبط أيقظني رنين الهاتف وعندما رفعت السماعة سمعت صوت رجل يقول استيقظ أيها الأخ ثم أقفل الخط » . ودع مالكوم إكس زوجته ثم أقفل الخط.

بعد أربع ساعات من ذلك بالضبط ترك مالكوم غرفته ودخل المصعد لينزل إلى ردهة الفندق حيث راجع موظف الاستقبال خارجا من الفندق. ركب عربته وخرج بعيدا في منتصف يوم أحد دافئ يوافق الواحد والعشرين من فبراير وتحرك إلى أعلى المدينة قاصدًا قاعة أودوبون..

تقع قاعة أودوبون ما بين شارع برودواي وشارع سانت نيكولاس ، في الطرف الجنوبي غرب الجادة ١٦٦ وهي مبنى من طابقين كثيرًا ما يؤجر لحفلات الرقص واجتماعات المنظمات والأغراض المماثلة الأخرى. أخبرتني فتاة رشيقة سوداء مليحة تعمل موظفة استقبال وعضو نشط ومساعدة لمالكوم إكس في منظمة الوحدة الأفرو أمريكية ، أخبرتني أنها حضرت مبكرة ذلك اليوم في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر لأنه كان عليها عمل بعض الترتيبات الأولية للمحاضرة في طريقها لدخول القاعة لاحظت أن أربعمائة الكرسي الخشبية قد رصت بحيث لا يكون بينهما ممر في الوسط، فقط في الجنبين ، كما لاحظت تلك الشابة (التي ترغب في أن يبقى اسمها سرا) أن بعض الناس وصلوا مبكرين وجلسوا على المقاعد الأمامية لكنها لم تعر ذلك اهتماماً لعلمها أن بعض الناس دائما يأتون مبكرين ليجدوا مكانا في المقاعد الأمامية ليتشربوا إلى أقصى حد الحديث الدرامي للخطيب الذرب اللسان، مالكوم إكس. على المسرح وخلف منصة المتحدثين وضعت ثمانية مقاعد بنية اللون في صف واحد وخلفها حائط المسرح المطلي بصورة منظر الريف الهادئ . كان من بين مهام تلك الشابة لذلك اليوم

الاتصال بالمتحدث الآخر ثم تأكيد حضوره والمفترض على حسب الاتفاق أن يكون ذلك المتحدث الأب ميلتون جالاميسون وهو المشيخي من بروكلين الذي قاد في عام ١٩٦٤ مقاطعة الزنوج لمدارس مدينة نيويورك الحكومية لمدة يومين اعتراضا على « عدم توازنها عنصريا » .كان عليها أيضا الاتصال ببعض الزنوج المشهورين الذين كان عليهم الظهور لحث المستمعين ليتبرعوا بأكبر قدر ممكن لدعم العمل الذي يقوم به مالكوم ومنظمته.

لم يتم تفتيش الداخلين إلى القاعة عند الباب. في الأسابيع الأخيرة أصبح مالكوم ينزعج من ذلك قائلا :« إن ذلك يضايق الناس » ويذكره بالإيْجا محمد. قال ذات مرة بنزق : « إذا لم أجد الأمان عند قومي، فأين يمكنني أن أجده؟ » في ذلك اليوم أيضا أمر بمنع الصحفيين من الدخول ، بيضاً أو سوداً. كان مستاءًا مما أعتقد أنها معالجة صحفية معوجة لأقواله في الأيام الأخيرة وشعر بخاصة أن الصحف لم تأخذ تصريحاته الأخيرة عن الخطر المحدق حوله مأخذ الجد. سمح لمراسل يونايتدبرس الزنجي، ستانلي سكوت، بالدخول وأفهمه أحد مساعدي مالكوم : « سيسمح لك بالدخول كمواطن زنجي ولكن عليك إزالة شارة الصحافة. » نفس المنطق طبق على هيوسيمبسون من محطة إذاعة دبليو.ام.سي.إيه. وكلاهما كان قد حضر مبكرا بوقت كاف ليحصل على مقعد أمامي.

دخل مالكوم إكس القاعة قبل الساعة الثانية بقليل وهو يمشي متثاقلا كغير عادته كما قالت لي مساعدته الشابة وفي تلك اللحظة كان عدد من مساعديه يدخلون ويخرجون من غرفة صغيرة بجوار المسرح. جلس جانبا على مقعد ورجلاه الطويلتان ملتفتان حول قاعدة الكرسي ثم وضع إحدى ذراعيه بميلان على نضد أمام مرآة متداعية يستخدمها الممثلون أثناء حفلات الرقص. كان يرتدي بذلة داكنة اللون وقميصا أبيض مع ربطة عنق دقيقة وداكنة. كلم مجموعة صغيرة من مساعديه أنه لن يتكلم عن مشاكله الشخصية، « لا أريد أن يكون موضوع شخصي السبب في أن يأتي شخص ليسمعني». وقف على قدميه ودار حول الغرفة الصغيرة ثم أضاف أنه سيصرح بأنه تسرع في اتهام المسلمين السود بحرق منزله. «لقد حدثت أشياء منذ ذلك الحين أكبر مما يستطيعون فعله. أدرك حدود ما يقدرون عليه والأمور فاتت تلك الحدود » .

يستطيع من بداخل الغرفة الصغيرة سماع صوت الجمهور المتزايد وهم يأخذون مقاعدهم. قال مالكوم :« قلبي يحدثني بألا أتقدم نحو المسرح إطلاقاً اليوم. لكنني سألطف من هذا التوتر اليوم بأن أنصح الرجل الأسود ألا يحارب بعضه البعض. ذلك جزء من مخطط الرجل الأبيض، أن يجعلنا نتحارب فيما بيننا وضد بعضنا البعض.

لن أحارب أي شخص فذلك ليس ما أتيت من أجله » ظل ينظر في ساعة يده الفينة بعد الأخرى متوقعا وصول الأب جالاميسون.« في أي وقت تأخذين موعدا مع قسيس» قال موجها حديثه لمساعدته الشابة: « عليك إعادة الاتصال به قبل ساعتين أو ثلاثة من الموعد لأنهم سيغيرون رأيهم. تلك هي عادتهم ».

حدثتني السكرتيرة بعد ذلك قائلة: « شعرت باستياء وأنني السبب في تأخير وصول القس وها قد أزف وقت الحديث » .التفتت الشابة نحو مساعد مالكوم الطويل الضخم بنجامين إكس وهو متحدث مقتدر في ذاته وسألته « هل ستتكلم أيها الأخ؟ » - ثم التفتت نحو مالكوم :« هل سيكون من الخير أن ندعه يتحدث أولا وربما قدمك إلى الجمهور بعد ذلك؟ » اكفهر وجه مالكوم فجأة وصرخ فيها فجأة :« تدركين أنه لا ينبغي لك أن تسألين في حضوره! » ثم هدأ وقال : أوكي. سأله الأخ بنجامين عن طول الوقت الذي عليه أن يستغرقه فرد مالكوم وهو ينظر إلى ساعة يده «اجعلها نصف ساعة » خرج الأخ بنجامين من الباب المؤدي إلى المسرح وبعد مدة بدأ من بداخل الغرفة الصغيرة يسمعونه وهو يتكلم بدراية وخبرة محدثا الجمهور عما يحتاجه الرجل الأسود في هذه الولايات المتحدة اليوم .

بلغت الساعة الثالثة ولم يحضر بعد الأب جالاميسون والإعلام الآخرون. « بدأ الأخ مالكوم وقد خاب أمله » ، كما تروي المساعدة الشابة.« قال لي :لا أظن أنهم سيأتون فاستأت من أجله وشعرت وكأنما لا أحد يهتم.قلت له، «لا تقلق، مجرد تأخير وحتما سيحضرون إلى هنا ». (تقول إحدى الروايات من مصدر آخر أن الأب جالاميسون الذي لم يستطع الحضور اتصل فعلا مسبقا وأن مالكوم أخبر بذلك قبل نهوضه للحديث مباشرة).

انتهى الأخ بنجامين إكس بعد نصف ساعة وسمعته المساعدة الشابة ومالكوم إكس في الغرفة الصغيرة وهو يقدم خطيب الساعة « الآن وبدون تطويل أقدم لكم رجلا على استعداد ليضع نفسه تحت خدمتكم، رجلا على استعداد لأن يموت من أجلكم - أريد لكم أن تستمعوا وتصغوا وتتفهموا رجلا طروادي في عزمه من أجل الرجل الأسود! ».

علا التصفيق والهتاف من الجمهور وفي داخل الغرفة الصغيرة وقف مالكوم ثم استدار مواجها مساعدته الشابة قائلا: « أرجو أن تعذريني لصراخي في وجهك - أنني فقط متوتر الأعصاب ».

« أواه! انس ذلك فأنا أتفهم » ، ردت الشابة بسرعة. « أتعجب أن كان هنالك شخص يتفهم حقا ».قال ذلك بصوت وكأنه أت من بعيد ثم خرج إلى المسرح وسط

الهتاف والتصفيق وهو يبتسم ويؤمىء برأسه نحو الأخ بنجامين إكس الذي مر به في الطريق إلى الغرفة الجانبية.

بدأت الشابة في القيام ببعض الأعمال المكتبية عندما دخل بنجامين إكس وهو يتصبب عرقا فربتت على يده قائلة :« أحسنت! ». ومن خلال باب الغرفة الذي انفتح لتوه سمعا ،هي وبنجامين، صوت التصفيق ينخفض ثم التحية المألوفة الرنانة:« السلام عليكم، أيها الأخوة والأخوات » « عليكم سلام » رد بعض الجمهور التحية.

ثم حدث تشويش على بعد حوالي ثمانية صفوف وفي جلبة مفاجئة ارتفع صوت أحدهم عالياً وبغضب: « أخرج يدك من جيبي! » وهنا استدار كل الحاضرين ليروا ما يحدث.عند ذلك ناداهم مالكوم إكس بصوت واضح « عندك !توقف! لا تتهيج ودعونا نهدئ الموقف يا أخوان ».

مع انصراف انتباه مالكوم لتلك الجلبة هنالك احتمال بأنه لم ير الرجال المسلحين. وكما روت سيدة كانت جالسة في الصف الأمامي ، « الضجيج في المؤخرة شغلني للحظة وعندما أدرت رأسي لأنظر صوب مالكوم رأيت ثلاثة رجال في الصف الأمامي يقفون ويصوبون نحو مالكوم مطلقين النار في وقت واحد وكأنهم فرقة إعدام . أناس كثيرون قالوا بعد ذلك أنهم رأوا رجلين يجريان نحو المسرح أحدهما يحمل بندقية والآخر مسدسين . وفي قول مراسل اليونايتد برس ،ستانلي سكوت، « انفجر صوت الرصاص وجرى الرجال والنساء والأطفال بحثاً عن ساتر. تمددوا على الأرض تحت الطرابيز » . أما رواية هيو سمبسون من محطة إذاعة دبليو.إمسي.أيه فهي: « ثم سمعت صوتا مكتوماً ورأيت مالكوم مصابًا ويداه ما زالت مرفوعة ثم سقط إلى الوراء على المقاعد من خلفه.الكل كان يصرخ ثم رأيت رجلا يصوب من بندقية داخل معطفه وهو خلفي بينما وقعت على الأرض أنا أيضا.كان يطلق النار وكأنه في فيلم رعاة بقر، يجري وظهره نحو الباب ويطلق النار في نفس الوقت ».

الشابة في الغرفة الجانبية خلف المسرح حكت لي، « بدا وكأنما تولى جش زمام الأمور. وبطريقة ما خمنت ما وقع ولذا رفضت أن أعود لأرى ما حدث . كنت أريد أن أبقي صورته حية في مخيلتي ».

انتفضت يد مالكوم بسرعة على صدره عندما فاجأته الأولى من بين ستة عشر خردقة بندقية أو رصاصات مسدس ثم انتفضت يده الأخرى. حطم الرصاص إصبع يده اليسرى الأوسط وتدفق الدم بغزارة من تحت لحيته فقبض على صدره. تهاوى جسمه الضخم متصلبا واصطدم بمقعدين ثم ارتطم رأسه بأرض المسرح بصوت داو.

في ذلك الهرج والمرج والصراخ والعويل جرى بعض الناس نحو المسرح. تدافعت الأخت بتي وسط الزحام بعد أن قامت من حيث رمت بجسدها فوق أطفالها الذين

كانوا يصرخون. جرت في عويل وهستيريا زوجي! إنهم يقتلون زوجي! « التقط مصور غير معروف صورا لمالكوم إكس وهو ملقي على أرض المسرح والناس من حوله يفتحون قميصه ويحلون ربطة عنقه وهم يحاولون التنفس الصناعي معه، قامت بذلك امرأة أولا ثم رجل. حكت تلك المرأة التي عرفت نفسها بأنها ممرضة وكفى « لا أدري كيف وصلت إلى المسرح ولكنني رميت بنفسي من فوق من ظننت أنه مالكوم لكنه كان شخصا آخراً. لقد كنت على استعداد للموت من أجله، كنت مستعدة لتلقي الرصاص فوق جسدي بدلا منه. ثم إذ بي أرى مالكوم وقد توقف إطلاق الرصاص فحاولت إعطاءه تنفساً صناعيًّا » شقت الأخت بتي طريقها وسط الناس، وهي ممرضة أيضا، وعندما تعرف عليها الناس أفسحوا الطريق . جثت على ركبتيها وهي تعاين صدره العاري الذي اخترقه الرصاص وقالت والعبرة في حلقها « قتلوه! » .

يحكي شرطي الدورية توماس هوى ، ٢٢ سنة، الذي كان واقفا في الخارج عند مدخل قاعة أودبون « سمعت صوت إطلاق الرصاص والمكان يكاد ينفجر من ذلك ».

هرع إلى الداخل فرأى مالكوم إكس ملقي على أرض المسرح ثم رأى الناس تطارد رجلا .أمسك الشرطي هوى المتهم قابضا عليه.

حكى لويس ميشوكص صاحب المكتبة التذكارية الوطنية بين الشارع السابع والجادة ١٢٥ في هارلم ، « كنت في طريقي إلى القاعة بدعوة من مالكوم ووصلت متأخرا حينما رأيت عدداً كبيراً من الناس يتدافع إلى الخارج».

العريف ألفين أرونوف ورجل الدورية لويس أنجلوس كانا يمران بالمنطقة في عربة عندما سمعا أصوات طلقات رصاص. « عندما وصلنا هنالك » روى أرونوف، « وجدنا الجماهير تتدافع خارجة وتصرخ بمثل » أطلق الرصاص على مالكوم ، اقبضوا عليه!لا تدعوه يهرب! « قبض رجال الشرطة على زنجي من ذراعيه كانت الناس تضربه وهو يحاول الهرب ثم أطلق أحدهما رصاصة في الهواء لإبعاد الناس عنه حتى لا يضيقوا عليه الخناق ودفعاه داخل عربة الشرطة ثم أخذاه بسرعة إلى المخفر.

جرى أحد الناس إلى قسم فاندربلت للحوادث في مستشفى كولومبيا المشيخي في الجادة ١٦٧ وخطف نقالة من المشمع وأحضرها إلى مسرح قاعة أودبون فوُضع مالكوم عليها بينما أخذ مصور غير معروف لقطة لمالكوم وهو في تلك الحال وفمه مفتوح وأسنانه ظاهرة.هرعوا به إلى مدخل الطوارئ في المستشفى، وصرح متحدث باسم المستشفى أن مالكوم وصل غرفة العمليات في الطابق الثالث في حوالي الثالثة والربع وأنه كان إما ميتا أو في طريقه إلى ذلك.

فتح فريق من الجراحين جرحًا في صدره محاولين دلك القلب وفي حوالي الثالثة

والنصف فقدوا الأمل وتوقفوا عن ذلك.

هبط المراسلون الصحفيون على المستشفى وبدأوا يطلقون الأسئلة على المتحدث باسم المستشفى الذي ظل يردد بفظاظة « لا أدري » ثم ركب المصعد إلى غرفة عمليات الطوارئ وكان عدد من الأصدقاء والأخت بتي قد شقوا طريقهم داخل مكتب المستشفى عندما جمع المتحدث شجاعته وأعلن: « الرجل الذي تعرفونه باسم مالكوم إكس قد مات. مات من جروح أحدثتها طلقات رصاص ويبدو أنه كان ميتا قبل وصوله إلى هنا. لقد أصيب في صدره بعدة طلقات كما أصيب بواحدة في الخد ».

خرجت المجموعة من مكتب المستشفى وكان الرجال الزنوج يغالبون العبرات ، أحدهم ظل يضرب بقبضة يده في قبضة آخر أما النساء فكن يبكين بحرقة ظاهرة.

بعد لحظات من انتشار الخبر في هارلم (ونقله إلى كل أرجاء العالم) بدأ جمهور يتجمع خارج فندق تيريزا الذي كانت به رئاسة منظمة مالكوم إكس ، منظمة الوحدة الأفرو أمريكية. سمعوا من المذياع الصغير أن الرجل الذي اقتادته الشرطة من مسرح الجريمة عرف نفسه أولا بأنه توماس هاجان ، ٢٢ سنة ، (مستقبلا عرف نفسه باسم تالمادج هاير) ، وأن البوليس وجد في جيبه شريطا به أربع رصاصات غير مستعملة ، ثم صرح الأطباء في مستشفى تذكاري يهودي أن هاير أصيب برصاصة في الفخذ الأيسر وبجروح في رأسه وأثار ضرب على كل جسده. « لولا أن أبعدناه عن الجمهور لركلوه حتى الموت » في قول العريف أرونوف ، ثم أخذ هاير إلى قسم السجناء في مستشفى بلفيو.

عندما بلغت الساعة الخامسة مساء بدا الجمهور المتجمع أمام فندق تيريزا يتفرق بهدوء وأمرت السلطات باغلاق مسجد المسلمين السود رقم سبعة والمطعم القريب منه بين شارع لينوكس والجادة ١١٦ وذلك كإجراء احترازي مؤقت بأمر مدير قسم الشرطة المحلي رقم ٢٨ ، الرائد لويد سيلي وهو أول زنجي في نيويورك تبوأ مثل ذلك المنصب. الصحفيون الذين اتصلوا بمطعم المسلمين السود رد عليهم صوت رجل يقول: « لا يوجد أحد ليدلي بأي تصريح ». أما عند الاتصال بمكتب منظمة الوحدة الأفرو أمريكية فلا أحد يرد على الهاتف الذي يظل جرسه يرن.قائد شرطة المنطقة ، الرائد سيلي ، ظهر بعد فترة وجيزة يمشي بنفسه في الجادة ١٢٥ وهو يهز عصاته ويتحدث مع من يقابله من الناس.

في داخل المخفر المحلي رقم ٢٨ في الجادة ١٢٣ طلب الى الأربعين شرطيا الذين كانوا على وشك المغادرة لانتهاء ورديتهم أن يبقوا ثم وصلت حافلتان من القوة التكتيكية الخاصة ذات التدريب الممتاز من شرطة مدينة يويورك — كما أدلى عدد من كبار رجال الشرطة بتصريحات للصحف كتصريح قائد القوة الخاصة ، هاري

قيصر الذي قال أنهم لم يلاحظوا أية حوادث غير عادية ولا يتوقعون حدوث مشاكل. كذلك صرح نائب مدير الشرطة، والتر أرم، أن مئات من رجال الشرطة الإضافيين سيوضعون في منطقة هارلم منهم مجموعة من وحدة المهمات الخاصة. كما خمن أحد مساعدي مدير الشرطة أن القاتل لم يندفع من القاعة بين الجمهور ولكنه ظل يجري مرورا بالمسرح ثم هرب خارجا إلى الجادة ١٦٥ . في مساء نفس اليوم قطع رئيس قسم المحققين في الشرطة، فيليب ج. والش، أجازته لينضم إلى البحث عن القتلة ، وقال أنه يتوقع أن يستغرق البحث والتحري زمنًا طويلا. التقطت الشرطة والمراسلون الصحفيون عدة صور للمسرح وعليه دوائر وإشارات عملت بالطباشير الأبيض حول خمس نقاط اخترقها الرصاص في منصة المتحدثين مع ثقوب أخرى في خلفية المسرح من أثر طلقات أخطأت مالكوم أو اخترقته.رفضت الشرطة مناقشة إشاعة انتشرت في هارلم تقول أن أفلاما سينمائية أخذت في قاعة أودبون أثناء الجريمة وهنالك إشاعة أخرى انتشرت بسرعة مفادها أن الأخت بتي أزالت من معطف مالكوم عندما انحنت فوقه ورقة كتب مالكوم عليها أسماء الأشخاص الذين علم بتعيينهم لقتله.

أكد نائب مدير الشرطة والتر آرم أنهم بذلوا مجهودا لحماية مالكوم إكس وأن الشرطة تقدمت أكثر من عشرين مرة وفي أوقات مختلفة عارضة حمايتها لمالكوم إكس أو لأحد من مساعديه لكن عرضهم رفض وأنهم عرضوا إحضار رجال شرطة عند تجمعات منظمة الوحدة الأفرو أمريكية للوقوف خارج قاعة أودبون سبع عشرة مرة، آخرها كانت في يوم الأحد الفائت. وعندما سئل عن طلب بحمل مسدس الذي صرح مالكوم علنًا أنه ينوي تقديمه ، أجاب نائب مدير الشرطة أن مالكوم ، فيما يعلم، لم يتقدم فعلا بمثل ذلك الطلب على الإطلاق.

أثيرت عدة أسئلة من بينها أن المتهم الذي قبض عليه شرطي الدورية هوى بينما كان الجميع يطارده، لم يُعلن اسمه رسميًا حتى كتابة هذه السطور. كما أن تصريح نائب مدير الشرطة والتر آرم بأن مالكوم رفض حماية الشرطة يتعارض صراحة مع أقوال كثير من زملاء مالكوم التي تفيد بأنه في الأسبوع السابق لاغتياله كثيرا ما اشتكى من أن الشرطة لا تعامل طلبه للحماية بجدية.أخيرًا وعلى الرغم من مزاعم مصادر الشرطة أنهم عينوا فرقة خاصة من عشرين رجلا لحفظ النظام في أثناء المحاضرة وأن بعض أعضاء وحدة المهمات الخاصة كانوا حاضرين، إلا أن أيًّا منهم لم يظهر أثناء أو بعد الاغتيال وأن تالمادج هاير الذي تم إنقاذه من الجمهور واعتقل كمتهم بعد الاغتيال ، إنما أمسك به رجال دورية كانوا يمرون في عربتهم بقرب المكان.

اتصل الصحافيون هاتفيًا ومن على بعد بقصر رئاسة الإليجا محمد في شيكاجو الذي رفض الرد على الهاتف لكن متحدثا باسمه صرح بأنه « ليس لمستر محمد تعليق اليوم

ولكنه قد يدلي بتصريح غدا ». كذلك رفض الأخ الأكبر لمالكوم ، ولفرد إكس، منستر مسجد ديترويت رقم واحد ، أن يدلي بأي تصريح وردت امرأة في بيته على الصحافيين قائلة: إن منستر ولفرد إكس غير موجود وأنه لم يذهب إلى نيويورك ولا تعتقد أنه يفكر في ذلك. (عند الاتصال بمنستر ولفرد إكس بعد ذلك قال أنه يتوقع أن يحضر مؤتمر المسلمين السود في شيكاجو يوم الأحد التالي وفيما يختص بأخيه قال «أخي قد مات وليس هنالك من شيء يمكننا أن نفعله لإعادته إلى الحياة ») .

بحلول الظلام تجمع كثير من الزنوج نساء ورجالا أمام مكتبة لويس ميشوكص حيث تتركز أغلب النشاطات العامة لجماعة الوطنية السوداء. كذلك فتحت جماعة صغيرة من منظمة الوحدة الأفرو - أمريكية مكاتب رئاسة المنظمة في فندق تيريزا وجلسوا داخل الغرفة رافضين التحدث إلى الصحفيين.

ثم ظهرت طبعة صحفية **الديلي نيوز** في أكشاك بيع الصحف وصفحتها الأولى ليس بها إلا « اغتيال مالكوم إكس » بعنوان بارز وتحته صورته محمولا على نقالة وتحت الصورة كتب « ضرب رميا بالرصاص أثناء محاضرة » .وفي لونج آيلاند حيث تم أخذ أتيلا بنت ست السنوات إلى هناك بعد اغتيال أبيها ، كتبت خطابا إليه بعناية « أبي العزيز، إنني أحبك بشدة، أتمنى لو لم تكن ميتا ».

نقل الجثمان الذي مازال مقيدا تحت اسم مجهول لأنه لم يتم التعرف عليه رسميا بعد ، نقل إلى مكتب الطبيب الشرعي لمدينة نيويورك في عنوانه رقم ٥٢٠ الشارع الخامس. هناك أكد تشريح الجثة أن مالكوم إكس توفي متأثرا بجروح من خردقة رصاصة في القلب. أوضح دكتور هيلبيرن أن الموت حدث بعد أول مجموعة من الطلقات التي تسببت في ثلاثة عشرة جرحا في القلب والصدر وأضاف أن الجروح في الفخذ والساقين التي أحدثها الرصاص من عيار ٣٨ وعيار ٤٥ تثبت أن إطلاق النار استمر حتى بعد أن سقط مالكوم على أرض المسرح.

في صباح الاثنين جرى التعرف رسميا على الجثمان في مكتب الطبيب الشرعي بواسطة الأخت بتي التي كان يصاحبها بيرسي صتون وأخت مالكوم إكس غير الشقيقة من بوسطن، مسز اللا كولينز، وجوزيف إي. هول المدير العام لمحل حانوتي الوحدة في هارلم. عند الظهر وهي خارجة من مكتب الطبيب الشرعي في طريقها لإكمال ترتيبات الجنازة، أخبرت الأخت بتي الصحفيين، « لم يصدقه أحد. لم يأخذوا تحذيراته مأخذ الجد وحتى عندما رميت قنبلة في بيتنا زعموا أنه الفاعل ».

في محل حانوتي الوحدة في الطرف الشرقي من الشارع الثامن بين الجادة ١٢٦ والجادة ١٢٧ اختارت الأخت بتي تابوتا برونزيا طوله ستة أقدام وتسع بوصات مغطى بمخمل أبيض وبناء على طلبها تقرر أن تؤجل شعائر الدفن إلى يوم السبت ، بعد خمسة أيام.

أعلن مدير محل الحانوتي ، ومستر هول أن الجثمان سيكون في بذلة كاملة وسيوضع داخل صندوق زجاجي لمن يريد أن يلقي النظرة الأخيرة عليه ابتداءً من يوم الثلاثاء وحتى يوم الجمعة ثم تعقد شعائر الدفن يوم السبت في كنيسة في هارلم .

بعد فترة وجيزة علق اسم « الحاج مالك الشباز » على واجهة محل الحانوتي. ومن بروكلين احتج مسلم أصيل من البعثة الإسلامية الأمريكية يدعى الشيخ الحاج داوود أحمد فيصل قائلا: أن تأخير مراسم الجنازة يتعارض مع سنن المسلمين التي تقول أن الشمس يجب ألا تغرب مرتين على جثمان وأن القرآن يأمر بالدفن خلال أربع وعشرين ساعة وأن المسلمين يؤمنون أن الروح تغادر الجسد عندما يبرد لتعود إليه بعد أن يوارى الثرى.

في شيكاجو حيث كانت الشرطة تراقب مواقف الحافلات المسافرة ومحطات القطار ومداخل المدينة ومطار اوهير، صرح الإيْجا محمد وهو تحت حراسة مشددة في قصره ذي الثلاث طوابق « مات مالكوم طبقا لما كان ينادي به ويبدو أنه جعل من السلاح ربًّا له ولذلك لم نستطع نحن تحمل رجل مثل ذلك. كان يدعو للحرب بينما ندعو نحن للسلام. لقد سمح لنا بالقتال إذا هوجمنا وذلك ما تجده في الكتب المقدسة، القرآن والإنجيل. لكننا أبداً لن نكون البادئين بالاعتداء وأنا لا يحق لي أن أخاف لأن الله اختارني وإذا رماني الله في يد الكائدين فأنا قابل لذلك. حياتي في يد الله » خارج القصر كانت دوريات شرطة مدينة شيكاجو وشباب ثمار الإسلام تحرس المكان وأعداد أكبر من المجموعتين كانت تحرس مدرسة جامعة الإسلام الثانوية ومكاتب صحيفة **محمد يتكلم**.

صرح محامي مالكوم إكس، النائب البرلماني بيرسي صتون أن لدي الشرطة الآن أسماء من قال أن مالكوم إكس أنهم يخططون لقتله. في كل أنحاء هارلم كان المراسلون الصحفيون يستجوبون الناس ومكبرات الصوت والمسجلات توضع أمام أفواه رجل الشارع. أما في مبني المخفر فقد كان من يستجوبهم الشرطة يخرجون من الباب الخلفي كما صرح مساعد مدير الشرطة جوزيف كويل «...أنها مؤامرة مخططة جيدا ونحن نقوم الآن بعملية مسح لأربعمائة الشخص الذين كانوا بالقاعة ساعة الجريمة » ، ثم أضاف أن خمسين محققا قد عُينوا لهذه الجريمة وأنهم على اتصال بالشرطة في المدن الأخرى.

أغلب سكان هارلم كانوا نياماً عندما مزق سكون الليل صوت انفجار بالقرب من مسجد المسلمين السود رقم سبعة في الطابق الرابع من بناية ذات أربعة طوابق عند الجادة ١١٦ وشارع لينوكس في الثانية والربع صباحا . استدعى رجال الشرطة الأربعة الذين كانوا يحرسون مدخل المكان رجال الإطفاء توا. في دقائق قليلة

انفجر لهيب النار وارتفع شاقا سطح المبنى قافزًا إلى مدى ثلاثين قدما فوقه واستمر رجال الإطفاء يصبون عليه الماء لمدة سبع ساعات. في سقف المبنى المجاور عثرت الشرطة على صفيحة بنزين فارغة، كيسا من الورق البني ملطخا بالبنزين وخرقا مبتلة به. كذلك تم تحويل حركة خدمات مترو الأنفاق في اتجاه الجنوب وكذلك ثلاثة من طرق الحافلات . وقع أحد جدران المبنى مرتطمًا بعربة الإطفاء ذات الخمس ماكنات والدرج العالي محطماً ماكينتين على الرصيف كما أصابت رجلي إطفاء بجروح وأحدهما جرحه خطير وكذلك أصابت أحد المارة الذي كان في الجانب الآخر يشتري صحيفة عند بزوغ الفجر. وعندما أعلن أن النار « تحت السيطرة » كان مسجد المسلمين السود وكنيسة « الجثمانية لله في المسيح » في الطابق الذي تحتها قد انهارتا ودمرت سبعة متاجر أرضية بما فيها معظم المسلمين السود. صرحت مصادر في إدارة المطافئ أن إصلاح آليات الحريق يتطلب حوالي ٥٠٠٠٠ دولار تقريباً كما أعلن جوزيف إكس، الذي كان مساعداً مباشراً لمالكوم في السابق، أن أمام أتباع إلايْجا محمد مسجدين بديلين ليجتمعا فيهما، أحدهما في بروكلين والثاني في كوينز. كلاهما كان تحت حراسة مستمرة من الشرطة.

في الطرف الثاني من القطر في سان فرانسيسكو اكتشف اثنان من رجال الشرطة نارًسا تحترق في مسجد المسلمين السود في يوم الثلاثاء بعد الظهر وأطفآها بسرعة. كان مصدرها جازاً صُب على الرصيف وعلى الباب.

خُطط لعرض الجثمان لإلقاء النظرة الأخيرة عليه لمن يريد يوم الثلاثاء الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. اصطف الجماهير في الخارج خلف تحصينات الشرطة منتظرة السماح لها بالدخول وحيثما نظر الإنسان رأى الشرطة وبينها عدد من عربات الدورية وحتى بعض مهرة الرماة في السطوح التي حول محل حانوتي الوحدة. إلا أن التهديدات الهاتفية المجهولة عن القنابل فرضت اخلاء المحل مرتين بحثاً عن القنابل الموقوتة التي اتضح كذبها. كذلك تم تفتيش مكتب صحيفة **نيويورك تايمز** في الجادة ٤٦ بعد أن اتصل رجل هاتفيا يشكو من مقال ظهر في الصحيفة عن مالكوم إكس ويهدد بأن « المطبعة ستحطم في الساعة الرابعة ».

فتشت الشرطة كل من يحمل لفافة وباقات الزهور المرسلة والحقائب الكبيرة عند السيدات وفي الساعة السادسة والربع وصلت قافلة من عربات الشرطة ركبت في إحداها الأخت بتي ومعها أربعة من ذوي القربى والأصدقاء الخلص فدخلوا مكان الجنازة في سيل من أضواء آلات التصوير الكاشفة. علق أحد المراسلين البيض « إنها جاكلين كندي سوداء. تمشي في مهابة وتعرف ما عليها أن تفعل ومتى تتعامل مع كل شيء بطريقة جميلة ».

في السابعة وعشر دقائق خرج أفراد العائلة وغادروا المكان وبعد ذلك بعشر دقائق سمح للجمهور المنتظر ومنذ تلك اللحظة وحتى الحادية عشرة مساء مر ألفا شخص بينهم عشرات من البيض من أمام الجثمان في بذلته الكاملة والقميص الأبيض وربطة العنق الداكنة وفوقه على لوحة نحاسية مستطيلة حفرت الكلمات «الحاج مالك الشباز -١٩يناير١٩٢٥ -٢١فبراير١٩٦٥ ».

بحث أتباع مالكوم حتى ابتدأ القلق يساورهم عن كنيسة في هارلم تقبل إقامة مراسيم الجنازة بها يوم السبت. رفض كثير من مسئولي الكنائس بما فيهم متحدث باسم أكبر كنيسة في هارلم ، الكنيسة الأثيوبية المعمدانية التي يعمل الأب والنائب في الكونجرس، أدم كلايتون بأول قسا لها ومن بين الكنائس الأخرى التي رفضت الطلب على حسب رواية صحيفة أمستردام نيوز كانت كنيسة وليام سي.إم.آي. ومعبد الملاذ لكنيسة سيدنا المسيح. وأخيرًا وافقت كنيسة الأسقف الفن أ.تشايلدز، أسقف معبد الإيمان لكنيسة «الإله في المسيح » الواقعة بين الجادة ١٤٧ وشارع أمستردام . معبد الإيمان هذا كان داراً للسينما حُول قبل خمسة عشر عاما إلى كنيسة تتسع لألف شخص في قاعتها الرئيسية وسبعمائة آخرين في السرداب. صرح الأسقف تشايلدز الذي انتخب في عام ١٩٦٤ كعمدة للمنطقة، صرح للصحافة أنه قدم خدمات كنيسته « كلفته إنسانية » وعن مالكوم إكس قال:«...جسور وصريح . لم أتفق معه في كل فلسفته ولكن ذلك لم يفسد الود بيننا».ما أن أعلن عن ذلك الا وتلقى الأسقف تشايلدز وزوجته سلسلة من تهديدات هاتفية عن قنابل موقوتة في الكنيسة وفي بيته.

بدأت وسائل الإعلام المختلفة تنشر تصريحات الشخصيات الزنجية المشهورة.قال العالم النفساني المشهور دكتور كينيث ب.كلارك لمجلة جت، « كنت أكن احتراماً عميقاً لهذا الرجل وأعتقد أنه كان يبحث بإخلاص عن مكان له في الكفاح من أجل الحقوق المدنية في مستوى يجد الاحترام والفهم. لقد كنت أتطلع إلى تطوره في هذا الاتجاه ولا يعنيني ماضيه كثيراً. إنها لمأساة أن صوته أُسكت عندما كان قاب قوسين من تحقيق الاحترام الذي سعى إليه. » كتب مراسل النيويورك تايمز في لندن نقلاً عن الكاتب المسرحي جيمس بولدوين الذي رأى في موت مالكوم إكس « نكسة كبيرة للحركة الزنجية. » أشار بولدوين بأصابع الاتهام للصحفيين البيض قائلاً: « لقد فعلتموها..وأي كان من ارتكبها فقد خرج من بوتقة العالم الغربي ، بوتقة الجمهورية الأمريكية. » اغتصاب أوروبا لأفريقيا بدأ المشاكل العنصرية وبذا كانت بداية النهاية لمالكوم إكس في قول بولدوين.

كذلك صرح صاحب محل الكتب لويس ميشوكص الذي كان صاحب صوت

مهم في هارلم، لصحيفة **أمستردام نيوز** « الأشياء مثل مقتل مالكوم هي التي تجعل الجماهير تلتصق ببعضها. لقد مات بنفس النهج الذي رأى به لوممبا الموت في الكونجو...علينا أن نتحد لا أن نتصارع ».

« مالكوم إكس السبب في جعل الشباب الزنجي يغير من نظرته لنفسه » على حد تعبير بيارد رصطن أحد الشخصيات الأساسية في تنظيم المسيرة إلى واشنطن في عام ١٩٦٣.

كما اتهم المدير القومي لمنظمة مؤتمر المساواة العنصرية ،جيمس فارمر، «طرفا ثالثا » باغتيال مالكوم إكس حتى يقود ذلك إلى مزيد من العنف والثأر. بعد عدة أيام من ذلك وعندما سئل عن رأيه في الإشاعة المنتشرة عن أن مؤامرة « صينية حمراء » وراء اغتيال مالكوم ، أجاب فارمر « لن أقول أن ذلك مستحيل ».

« موت مالكوم هو أكبر نذير شؤم للزنوج في أمريكا منذ نفى ماركوس جارفي في العشرينات ، صرح بذلك للصحفيين دكتور اريك سي. لنكون مؤلف كتاب **المسلمون السود في أمريكا** في حديث في جامعة براون بمدينة بروفيدنس بولاية رود أيلاند حيث كان يعمل كأستاذ زائر وباحث. أضاف دكتور لنكون، «أشك في وجود صلة خارجية لهذا الاغتيال فالإجابة أقرب الينا من ذلك. الإجابة تقبع في الصراع المحلي بين الفئات المتنافسة على قيادة جماهير السود والتي هي أكثر مجموعة حبلى بالانفجار في أمريكا » أما روى ويلكنز، الأمين العام للمنظمة القومية لتقدم الملونين فقال: « الخطيب الساحر الذي لا يجاري والذي كان مالكوم في حياته سيخلف بمماته سحراً أشد نفوذاً وأكثر تشويشاً مما كان وهو حي ».

لم يكن المحققون في شرطة نيوورك الذين ينقبون في القضية سعداء بحقيقة ألا أحد من أتباع مالكوم تقدم لمساعدتهم في التحري وبناء على طلب الشرطة نشرت الصحف رقما هاتفيا ٨١١٧ -٥ وس لتلقي أية معلومات سرية يتقدم بها أي شخص عن الجريمة. التقطت الشرطة روبن فرانسيس الذي وصف بأنه الحارس الشخصي لمالكوم إكس ووضعته في السجن إذ يعتقد بأنه الشخص الذي أطلق النار على المتهم بقتل مالكوم إكس، تالمادج هاير، أثناء الشجار الذي حدث الأحد الماضي في قاعة أودبون. أما هاير فكان ما زال في عنبر مستشفى بلفيو للسجناء في انتظار إجراء عملية جراحية له.

بينما الآلاف تمر في صف طويل لتلقي النظرة الأخيرة على القتيل مالكوم إكس وسط تهديدات هاتفية متقطعة عن قنابل ستنفجر في محل الحانوتي وفي كنيسة معبد الإيمان التي ستقام فيها مراسم الجنازة يوم السبت ، ظهرت منظمة جديدة تدعى اتحاد العمل السياسي المستقل وهددت بإعلان المقاطعة على كل محل تجاري يرفض أن يغلق أبوابه بعد ظهر الخميس وحتى صباح الاثنين « إجلالاً لمالكوم

إكس » المتحدث باسم هذه المنظمة الجديدة كان جسي جراي المعروف بقيادته لأضراب المستأجرين المشهورين. ابتدأت تلك المنظمة توزع على المشاة في هارلم منشورات تقول فيما تقول:« إذا رفض أصحاب المتاجر إغلاق محالهم فذلك يعني أنهم مرتبطون بالعدو - ولذا ينبغي أن نغلق نحن هذه المحال - وذلك بتجاهلها. كذلك كل من يتبضع في المحال التي على الجادة ١٢٥ في الساعات التي يجب أن تقفل فيها المحال التجارية يضع نفسه موضع الأداة المجرمة التي سمحت لتركيبه السلطة في هذا البلد أن تستغله لاغتيال الأخ مالكوم » وفي تظاهرة مسائية لاتحاد العمل السياسي المستقل أمام مكتبة لويس ميشوكص أعلن جيسي جراي أنه يجب أن يرشح زنجي نفسه لمنصب عمدة مدينة نيويورك « باسم مالكوم » وقدر أن مرشحا مثل ذلك سيتحصل على مائة ألف صوت. بعد تلك التظاهرة بمدة قصيرة اجتمع تجار المنطقة وأعضاء غرفتها التجارية وبسرعة أصدروا قرارًا يحثون فيه كل محال هارلم التجارية أن تبقى مفتوحة « وتظل في خدمة زبائنها » وأوصوا بأن يمنح موظفو كل محل أجرهم كاملا إن أرادوا حضور جنازة مالكوم إكس في صباح السبت. ثم بدأ قادة هارلم واحدا اثر أخر يهاجمون اقتراح اتحاد العمل السياسي المستقل بوصفه « غير مسئول » في رأيهم. في النهاية بقيت كل المحال التجارية مفتوحة. أما منظمة اتحاد العمل السياسي المستقل فقد جمعت حوالي عشرين شخصا وقفوا أمام محل بلومستاين، أكبر متجر في هارلم، يحملون لافتات تدعو إلى مقاطعته وعلى رأس ذلك النفر كان رجلان من البيض يحملان لافتات « كل المحال يجب أن تغلق. كرموا مالكوم إكس! » .

تغير الطقس إلى بارد جدا وكانت قطع الثلج تتدلى من سقف المبنى المتداعي من تأثير القنبلة والذي كان يضم مسجد المسلمين السود رقم سبعة. كذلك كتبت صحيفة أمستردام نيوز التي كانت مكاتبها في الشارع الثامن على بعد مربع واحد من محل الحانوتي، مقالاً تحت عنوان « على يسرك يا إدي » قائلة :إن إكراما منظما لمالكوم إكس « سيريك أعداءه الذين لن يسعدهم شيء مثل أن يروا السود يحدثون شغبا فوق جثمانه».

الخوف من حدوث شغب خطير تشعله حادثة ما يصعب التنبؤ بها كان يملأ الجو كما بدأ عدد متزايد من زعماء هارلم ينحون باللائمة في كل ما يحدث على وسائل الإعلام البيضاء التي تعطي نغمة مثيرة لما يحدث في حي هادئ محترم. وأخيرًا أصدر اتحاد قساوسة الطوائف المسيحية المختلفة في هارلم بيانًا به اتهام رسمي قائلين: «العناوين الصارخة في كثير من صحفنا تجعل هارلم تبدو وكأنها معسكر مسلح جاهز للانفجار في أية لحظة، علما بأن الأغلبية الساحقة من سكان هارلم لا دخل لها بحوادث العنف المؤسفة التي بالغت الصحف بتصويرها وكثيرا ما تتسبب الطريقة المشوهة التي

تنشر بها الأخبار في خلق جو يستغله بعض الأفراد المنحرفين والمتهورين لمصلحتهم ».

« مات مالكوم معدما » ، عنوان بارز في صحيفة **أمستردام نيوز** اتى كصدمة للكثيرين. قليل من فكر مليا أن مالكوم إكس عند انضمامه للمسلمين السود وقع على قسم بالفقر ولذا لم يستحوذ في سنواته الإثنتي عشرة على أي شيء ليضعه تحت اسمه (في مكان ما قرأت أن مالكوم إكس كان يتلقى في أيامه مع المسلمين السود مبلغ ١٧٥ دولار أسبوعيًا لتغطية مصاريفه المعيشية والأخرى ماعدا تكاليف السفر). « ترك زوجته الحبلى وبناته الأربعة بدون أي نوع من التأمين وبلا مدخرات أو دخل » في رواية صحيفة **أمستردام نيوز** (ويمكن أن يضاف لذلك حقيقة أنه لم يكتب أية وصية وأن الميعاد الوحيد الذي حدده لمقابلة محاميه في شأن ذلك كان يوم الخميس ٢٦فبراير - خمسة أيام بعد مقتله). خلال الأسبوع انتظمت مجموعتان وبدأت تطلب من الهارلميين التبرع لمساعدة الأخت بتي لتربي وتعلم أطفالها (بعد ذلك أعيد تنظيم الحملة لتصبح باسم صندوق مال بنات مالكوم إكس في مصرف هارلم الوطني للحرية وعنوانه ٢٧٥ غرب الجادة ١٢٥).

في بوسطن صرحت مسز اللا كولتز، أخت مالكوم إكس غير الشقيقة، أمام مؤتمر صحفي أنها ستختار قادة منظمة الوحدة الأفرو أمريكية الذين سيخلفون مالكوم إكس . مسز كولنز كانت تدير مدرسة سارة لتل للفنون التحضيرية في بوسطن حيث يدرس فيها الأطفال اللغات العربية والسواحلية والفرنسية والأسبانية طبقا لقولها. في عام ١٩٥٩ انشقت هي أيضا من جماعة إلايْجا محمد التي أدخلها فيها أصلا مالكوم إكس.

بعيدًا عن هارلم وفي البلدان التي زارها مالكوم إكس أعطت الصحف لجريمة قتل مالكوم تغطية أغاظت مدير مكتب المعلومات الأمريكي، كارل ت. راون والذي هو زنجي. قال في واشنطن وهو يخاطب نقابة الدبلوماسيين الأمريكية أنه أدرك منذ أن سمع لأول مرة عن الجريمة أنها سيساء تفسيرها في بلدان كثيرة لا يعي أهلها حقيقة ما يمثله مالكوم إكس وأن مكتب المعلومات الأمريكية جد وثابر ليعطي الحقائق للصحف الأجنبية عن مالكوم إكس وما يدعو له وبالرغم من ذلك « كانت هنالك أكثر من ردة فعل أفريقية أساسها التضليل والتحريف » .

استمر مدير مكتب المعلومات الأمريكي روان قائلا :« أود أن أنبهكم أننا أمام زنجي كان يدعو إلى الانفصال والحقد العنصري، قتله زنجي آخر يفترض أنه من منظمة أخرى تدعو للانفصال والحقد العنصري، كلاهما لا يمثل إلا أقلية ضئيلة من سكان أمريكا الزنوج. » رفع راون أمامهم بعض الصحف الأجنبية معلقا « كل هذا عن خريج سجون، بائع مخدرات سابق تحول إلى عنصري متعصب! ليس أمامي إلا أن

استخلص أن الأمريكيين يعرفون أقل مما يظنون أنهم يعرفون عن تفكير الأمم الأخرى، وأن الحاجة إلى الإعلام أكبر مما نظن نحن في مكتب المعلومات الأمريكي».

كتبت صحيفة **الديلي تايمز** النيجيرية «مثل كل البشر، لم يكن مالكوم منزها عن الخطأ... ولكن ليس هنالك من يشك في أنه كرس حياته من أجل تحرير أخوته. ناضل مالكوم إكس ومات في سبيل ما آمن أنه صواب وسيحتل مكانه في قصر الشهداء» صحيفة **التايمز** الغانية في أكرا سمت مالكوم إكس «المناضل الأكثر شعبية بين زعماء حركة الانفصال الأفرو أمريكيين»، وأضافت اسمه إلى أسماء بعض الأفارقة والأمريكيين بينها جون براون وباتريس لوممبا «الذين استشهدوا في سبيل الحرية.» كذلك كتبت صحفية، **الديلي جرافيك** في أكرا معلنة «سيسجل التاريخ أن اغتيال مالكوم إكس كان أكبر ضربة تقاسيها حركة الاندماج الأمريكية منذ الاغتيال الشنيع الذي لاقاه مدجار ايفانز وجون ف. كندي».

أما صحيفة **حرية باكستان** فقد قالت عن مالكوم :«زعيم زنجي عظيم»، كما كتبت صحيفة **باكستان تايمز** «موته نكسة لا جدال فيها لحركة تحرير الزنوج.» وذكرت صحيفة بيبول ديلي الصينية في بكين أن الاغتيال حدث «لأن مالكوم إكس... كافح من أجل تحرير ٢٣ مليون زنجي أمريكي.» وطبقا لتقارير المراسلين الصحفيين أول عنوان بارز في الصحف الجزائرية كان «الكلوكلوكس كلان اغتالت مالكوم إكس» واتهمت صحيفة **الجر ريبليكان** الفاشية الأمريكية باغتيال مالكوم في مقال افتتاحي لها كما أن مراسل صحيفة **النيويورك تايمز** كتب أن الجزائريين أظهروا ما يوحي بأنهم يضعون مالكوم إكس في مرتبة الشهداء. في مدينة جورجتان في غيانا البريطانية تظاهر المواطنون أمام القنصلية الأمريكية متهمين الإمبريالية الأمريكية. في الصين أيضا علقت صحيفة ثانية هي صحيفة **جنمين جيهابو** قائلة أن قتل مالكوم يوضح أن التعامل مع الإمبرياليين الغاشمين يتطلب مقابلة العنف بالعنف. صحيفة **البرافدا** في موسكو حملت الخبر مع تفاصيل مختصرة ولكنها لم تعلق عليه كما جاء في برقية من مراسل **النيويورك تايمز** هناك بينما كتب مراسلها الآخر من بولندا قائلا أنه ليس هنالك رد فعل ملحوظ من أي نوع وأن «قليلاً من بين البولنديين من سمع بمالكوم أو له اهتمام بالمسألة العنصرية» وعلى حسب الرواية نُشر الخبر روتينياً وبدون اهتمام يذكر في صحف القاهرة وبيروت ونيودلهي وسايجون. في باريس وأوروبا الغربية جعلته الصحف خبرًا مثيرًا ولكن لمدة يوم واحد وعاملته الصحافة الألمانية وكأنه جزء من حرب عصابات شيكاجو. وجاء في تقرير لصحيفة **النيويورك تايمز** «صحف لندن ربما تكون أكثر من أعطى الموضوع تغطية ولمدة أطول من أية صحف أخرى مستمرة في التركيز

على تحقيقات الشرطة عن الجريمة كما حملت كل من **التايمز** اللندنية و**الديلي تلغراف** مقالات افتتاحية عن الموضوع إلا أن أي من الصحيفتين لم تُعامل مالكوم كشخصية أساسية. » كذلك حملت **النيويورك تايمز** خبرًا من مراسلها في لندن جاء فيه « هاجمت مجموعة في لندن تسمي نفسها مجلس المنظمات الأفريقية الولايات المتحدة بشدة على هذه الجريمة. تتكون هذه المنظمة من طلاب وممثلين أفريقيين غير رسميين. وفي بيان صحفي وصفت المنظمة مالكوم بأنه « قائد في النضال ضد الإمبريالية الأمريكية والطغيان والعنصرية» ، وأن جزاري باتريس لوممبا هم نفس الوحوش التي قتلت مالكوم عن عمد ومع سبق الإصرار والترصد.

العناوين البارزة في صحف نيويورك الصادرة صباح الجمعة عن اغتيال مالكوم إكس ركزت على اعتقال الشرطة لمتهم ثان في الحادث وهو خبير رياضة كاراتيه قصير وممتلئ الجسم، مستدير الوجه عمره ستة وعشرون عاما ويدعى نورمان ٣ إكس بطلر وقيل أنه مسلم أسود أيضا. تبع ذلك بعد أسبوع اعتقال توماس ١٥ إكس جونسون الذي يفترض أنه مسلم أسود أيضا. كلا الرجلين كانا قد اتهما في يناير ١٩٦٥ بإطلاق النار على بنجامين براون ضابط أحداث في مدينة نيويورك انشق عن المسلمين السود. وجه للمقبوضين الاثنين مع هاير الاتهام رسميا في ١٠ مارس بجريمة قتل مالكوم إكس.

مع إعلان اعتقال بطلر والتعرف عليه مبدئيا كعضو في جماعة محمد وصل التوتر مدى عاليا بين كل من كان له دور في الصراع. وكان قد خُطط مسبقاً لقيام المؤتمر القومي للمسلمين السود الذي سيبدأ ذات الجمعة ويستمر لمدة ثلاثة أيام في شيكاجو. في الصباح الباكر لذلك اليوم قضى عشرات من رجال الشرطة أربعين دقيقة في مطار كندي يفتشون إحدى طائرات خطوط كابيتال التي كانت قد قبلت في ديسمبر ١٩٦٤ السابق تأجير طائرة للمسجد رقم سبعة من نيويورك إلى شيكاجو وبالعكس مقابل مبلغ ٥١٧٥ دولار سددتها إدارة المسجد بعد ذلك على أقساط.

اجتمع في شيكاجو ثلاثة آلاف مسلم أسود يمثلون مساجدهم في أغلب المدن الكبيرة لحضور (يوم المنقذ) السنوي الذي عندهم بمثابة عيد الميلاد. اجتمعت عدة مجموعات على حسب ترتيب الوصول خارج أستاذ رياضي كبير في جنوب شيكاجو، الرجال منهم في سترات داكنة أنيقة وقمصان بيضاء والنساء في أثواب حريرية طويلة وغطاء للرأس وكل من هؤلاء يمر من نقطة تفتيش دقيقة قالت عنها الشرطة شيكاجو أنها لم تشهد لها مثيلاً إلا عند استقبال رئيس دولة.

التفتيش كان أكثر دقة في حالة القليلين من غير المسلمين الذين حضروا فضوليا وكذلك في حالة الصحفيين، بيضاً وسوداً. « ارفع قبعتك وأظهر بعض الاحترام »، أمر أحد حرس المسلمين السود صحفياً أبيض بذلك. وبعد أن يتم تفتيش

الشخص الداخل يقوده أحد شباب ثمار الإسلام إلى مقعد معين داخل الاستاد البارد الذي يسع ٧٥٠٠ شخص :(بعد ذلك بمدة أنحت مصادر المسلمين باللائمة لخلو نصف مقاعد الاستاد على « الرجل الأبيض الذي يفرق بين الزنوج » إلا أن المراقبين الذين شاهدوا الاستاد ممتلئاً عن آخره في المؤتمر السابق عام ١٩٦٤ قالوا أن التهديدات بتفجير قنبلة داخل الاستاد منعت كثيراً من غير المسلمين من الحضور. جلس الجمهور يهمهم تحت لافتتين ضخمتين بهما إعلان « مرحبًا بالإيْجا محمد. إننا مسرورون بوجودك معنا » و « يجب أن يكون لنا بعض هذه الأرض » إشارة إلى مطالبة الإيْجا محمد بمنح ولاية أو اثنتين للثلاثة والعشرين مليوناً الذين يُدعَوْن بالزنوج في أمريكا وذلك « كتعويض جزئي عما يفوق القرن من دمهم وعرقهم المجاني الذي بذلوه كأرقاء في تنمية هذه الدولة الغنية التي فيها مازلتم حتى اليوم تظهرون عدم رغبتكم أو نيتكم قبولنا كسواسية لكم » أمام واجهة منصة المتحدثين العريضة عُلقت صورتان بالحجم الطبيعي لإلايْجا محمد فيما وقف شباب ثمار الإسلام بين المسرح والجمهور. الآخرون منهم كانوا يجولون الممرات ويتفحصون الوجوه ومن حين لآخر يطلبون إبراز الهوية من بعض الجالسين، « من أي مسجد أنت، أيها الأخ؟ » عدد آخر منهم كان يفتش شرفة الاستاد الخالية وخلف المسرح وفي الطابق الأرضي والعارضة الخشبية والسقف.

شبح مالكوم إكس كان يخيم على المكان وبدأت فصول الدراما للمسلمين بقيام ابن الإيْجا محمد، والاس ديلاني محمد الذي سبق وأيد مالكوم في الماضي، بمواجهة الجمهور وهو يطلب العفو لمالكوم إكس بسبب انشقاقه. تلى ذلك اثنان من أخوة مالكوم إكس، ولفرد وفلبرت، وكل منهما منستر مسلم، فحثا الناس على الاتحاد خلف الإيْجا محمد. قال منستر ولفرد إكس من مسجد ديترويت «سيكون من الجهل أن نشوش على عقولنا ونستمر في الجدل والصراع بين أنفسنا وننسى من هو عدونا الحقيقي.» أما منستر فلبرت إكس من مسجد لانسنج فقال: « مالكوم كان أخي في الدم ويصغرني مباشرة..، صدمت. ليس هناك من رجل يحب أن يرى أخاه محطما لكنني كنت أدرك أنه سائر في طريق خطير متهور. حاولت أن أثنيه عن ذلك وعندما كان حيا حاولت أن أبقيه حيا ولكنه الآن قد مات وليس هنالك من شيء أستطيع فعله تجاه ذلك » أشار منستر فلبرت إكس إلى الإيْجا محمد الجالس ثم أعلن « سأتبعه حيثما يقودني » — ثم قدم للمستمعين زعيم المسلمين السود ليلقي حديثه.

لم يكن يظهر للمستمعين من الإيْجا محمد إلا رأسه فوق الحائط البشري الذي كونه شباب ثمار الإسلام بوجوههم الصارمة ومن بينهم كاسياس كلاي. الأهلة والشموس والقمر والنجوم وشت طربوش الإيْجا محمد الصغير بالذهب. قال الإيْجا

محمد: « لزمن طويل وقف مالكوم في هذه المنصة التي أقف عليها الآن. الرب نفسه كان يحمي مالكوم... لمدة عام كامل أُعطى مالكوم حريته، سافر إلى كل مكان – إلى آسيا، أوروبا، وأفريقيا وحتى إلى مكة محاولا خلق أعداء لي. عاد ليعظنا أننا لا ينبغي أن نكره عدونا... حضر إلى هنا قبل عدة أسابيع ليرميني بالكراهية ويرشقني بالطين، فعل كل ما بدا له ليسيء إليَّ. لم نرد أن نقتل مالكوم ولم نحاول قتله. أنهم يعرفون أنني لم أؤذيه. يعلمون أنني أحببته. لكن تعاليمه السخيفة جلبت عليه نهايته ».

عندما ينفعل محمد عاطفيا ويرهق جسده كان يبدأ في السعال. « على مهلك! على رسلك! » ترجاه جمهوره لكنه استمر « لا يحق له أن يأباني. كان نجما فهوى!... إنهم يعلمون أنني لم أحاول إيذاءه لكنه حاول أن يشن حربا عليَّ ؟ » قال أن مالكوم كان سيُمنح « أعظم جنازة على الإطلاق » إذا بقي مع المسلمين ومات موتا طبيعيا، « بدلا من ذلك نقف أمام قبر منافق! ... مالكوم! من كان يقود؟ إلى ماذا كان يدعو؟ جانبه الصواب! لم نرد قتل مالكوم! تعاليمه السخيفة كانت ستقوده إلى نهايته! لن أدع المعتوهين يحطمون الأشياء الجميلة التي منحها الله لي ولكم!. »

استمر الإليْجا محمد يتحدث لمدة ساعة ونصف بالرغم من وهنه البدني وتحدى أيا ممن يفكر في اغتياله، « من يريد أن يزهق روح الإليْجا محمد سيحل عليه الوبال. القرآن المعظم يدعونا ألا نبدأ بالعدوان بل أن ندافع عن أنفسنا. سنحارب! » كان الوقت قد وصل منتصف ما بعد الظهر حينما عاد الإليْجا محمد إلى مقعده وثلاثة آلاف مسلم أسود ما بين رجل وامرأة وطفل يهتفون « نعم، سيدي! أحسنت!... كل الثناء لمحمد! ».

في دار حانوتي الوحدة في هارلم بنيويورك وعند منتصف ما بعد الظهر، توقف فجأة مرور الجماهير لمعاينة جثمان الفقيد بوصول جماعة مكونة من حوالي اثني عشر شخصا على رأسهم شخص متقدم في السن يرتدي عباءة داكنة اللون ويضع عمامة بيضاء على رأسه ويحمل في يده عصاً طويلة مقبضها في شكل الرقم سبعة بينما لحيته البيضاء تتدلى فوق صدره. ازدحم الصحفيون حوله في محاولة لالتقاط حديث منه فرد عليهم رجل آخر من الجماعة قائلا: « اللسان الصامت لا يخون صاحبه » ذلك الرجل المتقدم في السن كان الشيخ أحمد حسون، سوداني الجنسية وعضو في جماعة سنية، علم لمدة خمسة وثلاثين عاما بمكة المكرمة حين قابل مالكوم إكس هناك ثم أتى إلى الولايات المتحدة بعد ذلك بفترة وجيزة ليصبح مرشدا روحيا لمالكوم إكس وليعلم في مؤسسة المسجد الإسلامي.

جهز الشيخ حسون الجثمان للدفن طبقا للتعاليم الإسلامية. أزاح اللبس الغربي

الذي أُدخل فيه الجثمان ثم غسل الجثمان بعطر مقدس خاص وبعد ذلك لفه في قطع القماش السبع البيضاء التقليدية والتي تسمى كفنا بحيث لم يظهر منه إلا الوجه بشاربه الأحمر ولحيته. اصطف المعزون الذين أتوا مع الشيخ حسون في صف خلف النعش وقرأ الشيخ وهو يقودهم آيات من القرآن ثم بعد ذلك استدار مخاطبا مندوب الحانوتي :« الجثمان جاهز للدفن » بعد ذلك بفترة وجيزة غادر الشيخ وبطانته المكان واستأنف الجمهور معاينة النعش وعند انتشار الخبر عاد بعض من عاينه قبلا ليقف في صف طويل بطيء منتظراً فرصته ليلقي نظرة على زي الدفن عند المسلمين.

كان الوقت متأخرا بعد ظهر الجمعة حينما انضممت إلى الصف البطيء وأنا أفكر في ذلك المالكوم الذي عملت معه عن قرب لمدة عامين ورجال الشرطة في زيهم الأزرق يقفون في نقاط متقاربة وهم يراقبوننا ونحن نتهادى خلال التحصينات الخشبية البنية اللون التي أقامتها الشرطة. في الجانب الأخر من الشارع كان عدة رجال ينظرون إلى الصف من خلف شباك جانبي كبير في محل « النجم المنعزل للحلاقة لصاحبه ادي جونز ومديره وليام أش » مع الشرطة كان بعض الصحافيين يتبادلون الحديث لتزجية الوقت. ثم وجدنا أنفسنا داخل المصلى الكبير الساكن ذي الضوء الخافت والهواء العليل . على جانبي النعش البرونزي الكبير الأنيق وقف رجلا شرطة داكنا اللون ضخام الجثة ينظران أمامهما طيلة الوقت ولا ينبسان ببنت شفة لكنهما يحركان شفاههما عند تلكؤ أحد الناظرين. في دقائق وصلت مكان النعش وفوق الغطاء الزجاجي لمحت القماش الأبيض الناعم الذي يلف الصدر ويرتفع مثل الحجاب حول الوجه الذي حاولت التركيز عليه لأطول مدة ممكنة. كل ما استطعت التفكير فيه كان حقا أنه هو - مالكوم إكس. « تحرك!» ، ناداني رجل الشرطة بصوت هادئ . بدا لي مالكوم - ميتا ومشمعا.أومأ رجل الشرطة إلى خصره فقلت :« حسنا، وداعا » وتحركت إلى الخارج.

ألقى النظرة الأخيرة على الجثمان في حالته تلك اثنان وعشرون ألفا عندما أوقفت المعاينة النهائية في الحادية عشرة ذات المساء. بهدوء وفيما بين منتصف الليل والفجر أحاطت اثنتا عشرة عربة شرطة بعربة الموتى التي قطعت عشرين مربعًا حتى معبد الإيمان. حمل النعش البرونزي للداخل ووضع على منبر، مكسياً بمخمل أحمر غامق أمام المذبح ثم رفع عنه الغطاء. ابتعدت عربة الموتى ووقف رجال الشرطة في يقظة داخل وخارج معبد الإيمان – الجو في الخارج كان بارداً جدًا.

عند السادسة صباحاً بدأ الناس يصطفون في الطرف الشرقي من شارع أمستردام وما أن بلغت التاسعة صباحا حتى كان عدد يقدر بستة آلاف شخص قد تجمع حول الشوارع المجاورة وخلف تحصينات الشرطة والوجوه من كل نافذة في الشقق في المباني والشوارع المجاورة ووقف بعضهم يرتجف من البرد أمام مخارج الطريق. أقفلت

الشرطة الطريق أمام حركة السيارات ماعدا سيارات الشرطة وسيارات الإعلام والصحافة فيما بين الجادة ١٤٥ والجادة ١٤٩ . كان هنالك المئات من رجال الشرطة بعضهم على أسطح المنازل في المباني المجاورة. وسط الجماهير كان الإعلاميون بمكبراتهم الصوتية وآلات التسجيل ومفكراتهم. « لقد كان رجلاً ساحراً، ساحراً بدرجة ملحوظة ولذلك حضرت أنا إلى هنا »، ذلك ما قالته فتاة بيضاء في منتصف العشرينات لأحد صحفيي **النيويورك تايمز** . وامرأة زنجية قالت « لقد حضرت لأقدم احترامي لأعظم رجل أسود في القرن العشرين . أنه رجل أسود ولا تقل ملونا. » امرأة أخرى وهي تلاحظ الخوذات الحديدية على رؤوس رجال شبكة تلفازية داخل عربة قالت وهي تضحك للسائق « أتستعد للصيف القادم؟ »

عندما فتحت أبواب معبد الإيمان في التاسعة وعشرين دقيقة دخلت فرقة من أعضاء منظمة الوحدة الأفرو أمريكية أولا وفي مدى ربع الساعة التالية أجلسوا ستمائة ممن حجزوا مقاعد مقدماً وتجمع خمسون صحفيًا ومصوراً تحت الصور الجدارية الدينية خلف المذبح ووقف بعضهم على مقاعدهم حتى يستطيعوا الرؤيا. أحد المهندسين الزنوج كان يشرف على آلات التسجيل الموضوعة ما بين المذبح والنعش الذي كان يحرسه عشرة رجال من الشرطة الزنوج في زيهم الرسمي وبينهم شرطيتان. كما جلس شرطيان بالملابس المدنية على جانبي الأخت بتي التي وضعت حجابا ثقيلا على وجهها وهي تجلس في الصف الثاني. غطاء النعش المرفوع حجب صندوق المعبد النحاسي والشمعدان إذ أن رئيس البعثة الإسلامية في أمريكا الحاج داود أحمد فيصل في بروكلين أشار عليهم بأن وضع أي شيء يوحي بالمسيحية أثناء المراسيم سيجعل من الميت كافراً. عارض الشيخ أيضا عرض الجثمان على الجماهير قائلا: « الموت موضوع خاص بين الميت وربه » .

قبل أن تبدأ المراسم أحضر شباب منظمة الوحدة الأفرو أمريكية من بين منظمي المناسبة إكليلا من الزهر مساحته اثنين في خمسة عليه الهلال والنجم بزهور القرنفل الأبيض على خلفية من زهر القرنفل الأحمر.

بدأ أوسي ديفيز وزوجته روبي دي التأبين بقراءة رسائل وبرقات التعزية التي وصلت من كل واحدة بين منظمات الحقوق المدنية ، من أفراد مثل دكتور مارتن لوثر كنج، من منظمات وحكومات خارجية مثل الجمعية الأفريقية الباكستانية الهند -غربية بكلية لندن للاقتصاد -جامعة لندن، المؤتمر الأفريقي لجنوب أفريقيا ، السفير النيجيري من لاجوس، رئيس جمهورية غانا الدكتور كوامي نكروما الذي أبرق « موت مالكوم إكس لن يضيع سدى ».

بعد ذلك وقف عمر عثمان ممثلاً مركز الإسلام لسويسرا والولايات المتحدة وقال:

لقد عرفنا الأخ مالكوم كأخ لنا في الدم خاصة بعد أن حج إلى مكة في العام الماضي. أكثر ما يطمح فيه المسلم هو أن يموت على أرض المعركة وليس على فراشه » توقف قليلا حتى ينتهي التصفيق :« من يموت على أرض المعركة ليس بميت ، بل حي!. » ارتفع التصفيق والهتاف « حق لحق! » بعد ذلك علق عمر عثمان على حديث مدير مكتب المعلومات الأمريكي ،كارل راون، الذي ألقاه في واشنطن عن ردة فعل الصحافة الأجنبية لاغتيال الفقيد وعندها سمع صوت الهسهسة استهجانا لقول راون.

مرة ثانية وقف الفنان المسرحي أوسي ديفيز ثم ألقى بصوته العميق تأبينا لمالكوم إكس جعل زنوج هارلم تجل أوسي ديفيز أكثر من ذي قبل:

« هنا في هذه الساعة الأخيرة ، في هذا المكان الهادئ تقف هارلم لتودع واحداً من أكثر آمالها إشراقا - انطفأ الآن، وذهب عنا إلى الأبد...

« كثيرون سيتساءلون ماذا تجد هارلم لتكرم في هذا القبطان الشاب، الجسور العاصف، المثير للجدل - وسنبتسم.سيقولون أنه كان يعمه في الحقد - متعصب، عنصري - لا يجلب إلا الوبال على الهدف الذي من أجله تناضلون! وسنجيب ونقول لكل منهم : هل أبدا تحدثت مع الأخ مالكوم؟ هل لمسته أبدا؟ أو رأيته وهو يبتسم؟ هل أصغيت إليه مرة؟ هل أتى فعلا دنيئا أبداً وهل ارتبط اسمه قط بحادث عنف أو شغب معين من أي نوع؟ لأنك أن فعلت فستعرفه على حقيقته وإذا عرفته على حقيقته ستعرف لماذا ينبغي علينا أن نكرمه: مالكوم كان رجولتنا ، رجولتنا السوداء الحية! ذلك كان معنى مالكوم لقومه وبتكريمه نكرم خير ما في أنفسنا..وحينها سنعرفه على ما كان وما هو كائن الآن - أمير - أميرنا الأسود الوضاء ! -الذي لم يتردد في الموت لحظة لأنه أحبنا بشدة ».

أُلقيت عدة خطب قصيرة أخرى ثم وقفت الأسرة وأعضاء منظمة الوحدة الأفرو أمريكية وبعض المسلمين الآخرين ومروا في صف من أمام النعش ليلقوا "النظرة الأخيرة على الجثمان وأخيراً قاد اثنان من رجال الشرطة الأخت بتي لتلقي النظرة الأخيرة على زوجها . مالت نحو النعش وقبلت الزجاج ثم انهمرت دموعها. حتى تلك اللحظة لم يسمع صوت نحيب لكن عبرات الأخت بتي فجرت الدموع والنحيب في مآقي النساء الأخريات.

استغرقت المراسم في المعبد أكثر قليلا من ساعة حينما قرأ الحاج هشام جابر من مدينة اليزابث بولاية نيوجرسي، الدعوات والصلوات التي تتلى عادة أمام نعش كل مسلم. وعندما وصل جملة « الله أكبر » وضع كل المسلمين في الجمهور أيديهم مرفوعة على جوانب وجوههم.

تحركت قافلة من عدة عربات، ثلاث عربات للأسرة مع عربة الموتى، ثماني عشرة

عربة من المعزين، اثنتا عشرة عربة شرطة، ست عربات صحافة وإعلام وتبع كل ذلك خمسون عربة أخرى سارت الثمانية عشر ميلاً خارجة من مانهاتن وعلى طريق نيويورك السريع ثم من المنفذ رقم سبعة لتصل إلى مقبرة فيرنكليف في آرصلي بولاية نيويورك وعلى جانبي كل الطريق كان الزنوج يرفعون قبعاتهم ويضعونها فوق قلوبهم كاحترام أخير. وعند كل جسر في مقاطعة مانهاتن كانت عربات الشرطة تراقب وفي مقاطعة وستشستر وضعت الشرطة دوريات مراقبة على طول الطريق إلى المقابر.

هنالك وفوق النعش قرأ الشيخ الحاج هشام جابر آخر دعواته وصلواته المسلمة ثم أنزل النعش في القبر ورأسه متوجه نحو الشرق على حسب التقاليد الإسلامية وصلى المسلمون من بين المعزين بالقرب من القبر. وعندما غادرت الأسرة مكان القبر رفض أتباع مالكوم إكس أن يتركوا الحفارين البيض يهيلون التراب على قبر مالكوم فوقف الأخيرون بعيداً وتقدم بدلاً منهم سبعة من أعضاء منظمة الوحدة الأفرو أمريكية وبدأوا يهيلون التراب بأيديهم في البداية ثم أتوهم بجرافات وبدأوا يملؤون القبر ثم يواسونه.

خيم الليل على ثرى الحاج مالك الشباز، الذي كان، يدعى مالكوم إكس والذي عرف قبلاً بمالكوم لتل و« احمر ديترويت »، و« الشيطان » وابن البلد وأسماء أخرى — والذي دفن مسلما.كتبت صحيفة **النيويورك تايمز** « طبقا للقرآن فآن أجساد الموتى تبقى في قبورها حتى اليوم الأخر، يوم القيامة. في ذلك اليوم تفتح السماء أبوابها وتزلزل الأرض زلزالها ويخرج الناس من قبورهم لحساب الله.

« المرضي عنهم - الذين يخافون الله، المتواضعون الأبرار الذين قاسوا وظلموا وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله لهم جنات الفردوس.

« هنالك وطبقا لتعاليم محمد النبي العربي ﷺ يعيشون وسط أنهار جارية ويتكئون على نضد من حرير وحولهم حور عين وزوجات طاهرات.

« المغضوب عليهم، الطماعون، الشريرون الذين يتبعون إلهاً آخر يرسلون إلى جحيم أبدي يسقون سعيرا من حميم، الموت الذي منه تهربون ملاحقكم، يقول القرآن ، ثم ترسلون للذي يعلم السر والجهر لينبئكم بما كنتم تفعلون ».

بعد أن وقع على عقد هذا الكتاب حدق مالكوم في وجهي ثم قال: « إنني أريد كاتبا وليس مفسراً » لقد بذلت غاية جهدي أن أكون راوية محايداً. لكنه كان أكثر شخصية كهربائية قابلت في حياتي على الإطلاق وما زلت أجد صعوبة في تخيله ميتا. ما زلت أحس وكأنه ذهب إلى فصل آخر سيكتبه المؤرخون.

نيويورك ١٩٦٥

عن مالكوم إكس

بقلم :أوسي ديفيز

كتب مستر ديفيز ما يلي في إحدى المجلات ردًا على سؤال من محررها: لماذا أبّنت مالكوم إكس؟

لست الوحيد الذي سألني في استغراب ليعرف لماذا أؤبن رجلا مثل مالكوم إكس. كثيرون ممن يعرفونني ويحترمونني كتبوا إلي خطابات عن ذلك إلا أن أكثر ما أعتز به بين هذه الخطابات هو واحد كتبته لي مجموعة صبيان وفتيات بيض بالصف السادس الابتدائي طالبين مني التوضيح وأنا الآن ممتن على إتاحتك لي هذه الفرصة لأقوم بذلك.

يمكنك توقع طبيعة دفاعي بأخذ الحقيقة التالية في الاعتبار: لم يسألني أي زنجي مثل هذا السؤال.(قسيس الكنيسة المعمدانية التي أنتمي إليها وألقي فيها دروس الأحد أحيانًا، قدم موعظة عن مالكوم وصفه فيها بأنه « عملاق في عالم مريض » وكل الخطابات التي وصلتني من قومي مجدت مالكوم كرجل وأثنت علي لأنني تكلمت في جنازته.

في نفس الوقت - وهذا مهم جدا، حاول كل منهم جهده أن يوضح أنه لا يتفق مع كثير مما قاله مالكوم أو مع كل ما كان ينادي به. هذا مع استثناء منغم، كلهم، لآخر واحد أسود محب للعظمة منهم ، كلهم كانوا يعلمون أن مالكوم مهما كان أو لم يكن هذا الشيء أو ذاك - مالكوم كان رجلاً!

البيض ليسوا بحاجة لمن يذكرهم أنهم رجال.نحن الذين نحتاج لذلك. تلك كانت حسنته لأهله التي لا يختلف فيها اثنان.

البروتوكول والبديهة يجعلان الزنوج عامة ينسحبون ويتركون الرجل الأبيض يتحدث باسمنا، يدافع عنا، يحركنا من الخلف في نضالنا. ذلك هو جوهر لسياسة الزنجية. لكن ماكلوم قال إلى الجحيم بكل ذلك! انهض من على ركبتيك وحارب معاركك بنفسك. تلك هي الوسيلة الوحيدة لاستعادة الثقة بك واحترام الناس. وإذا لم يدعك عدوك أن تحيا كرجل، فأكيد لن يستطيع أن يمنعك من أن تموت كالرجال.

مالكوم كان إثارة منعشة، أدخل الروع في قلوبنا نحن البقية الذين جبلنا على

الحذر والنفاق في وجود البيض وعلى الابتسامة التي لا تذوي قط. مالكوم كان يدرك أن كل رجل أبيض في أمريكا يستفيد مباشرة أو غير مباشرة من وضعه تجاه الزنوج، ينتفع بالعنصرية حتى وان لم يكن يمارسها أو يؤمن بها.

مالكوم كان يدرك أيضا أن أي زنجي لا يتحدى في التو واللحظة أي واقعة عنصرية، خفية أو مكشوفة، تُرتكب ضد قومه، كل من يختار أن يبتلع ريقه ويستمر في الابتسام، ليس إلا خائنا، عم توم جبان، خال من أي سمة رجولية!

كلنا يدرك ذلك تماما مثل ما أدركه مالكوم إكس ولكننا كنا ندرك أيضا ما يحدث لمن يرفع صوته معترضا على ذلك. وإذا وُضعت في كتاب كل الأكاذيب التي نخفف بها على أنفسنا وقع ذلك، لكون ذلك واحداً من أعظم فصول التاريخ في الجبن الذي له ما يبرره في مواجهة الآخرين.

لكن مالكوم ظل أبداً ينزع عنا غشاء الكذب ويصرخ من أسطح المنازل بالحقيقة المؤلمة التي لم نرد نحن، بيضاً أو سوداً، أن نسمعها. وهو لن يحيد عن ذلك حتى لو أغروه بالمال.

لك أن تتخيل كم كان ذلك الرجل يصدم ويقلق راحة البيض والسود على السواء.

وإذا ما تمكن مالكوم منك فليس من سبيل إلى الفكاك. كأن أكثر الرجال الذين عرفتهم سحراً وتلطفاً ولا يتردد في استخدام جاذبيته لينهكك بها ويهزمك. ومع ذلك فقد كان استفزازه لنا يستحق الإجلال بالرغم من إيلامه. كان يستفزك حتى تغضب من نفسك لكنك تشعر بالفخار مع ذلك. وكان من المستحيل أن تأخذ جانب الدفاع أو تخجل من كونك زنجيا في حضرته فهو لن يدعك تفعل ذلك. وعندما تغادر المكان يساورك شعور ما أنك وبعد كل شيء ربما تكون رجلاً فعلاً.

لكنني في دفاعي عن مالكوم لن أدفع عنه كل شيء.نعم، كان مجرما ومدمنا، قواداً وسجينا، وعنصريا نادى بالكراهية. كان يؤمن فعلا أن الرجل الأبيض شرير. إلا أن كل ذلك قد تغير وقبل يومين من مقتله ذكر في تعليق عن ماضيه لجوردون باركز: « ذلك كان منظراً قبيحاً، جنون ومرض تلك الأيام العليلة! إنني سعيد بأنني تحررت من كل ذلك ».

مالكوم تحرر فعلا وكل من عرفه قبل و بعد رحلته الى مكة لا يشك في أنه هجر كلية العنصرية والتفرقة والكراهية. لكنه لم يهجر تصريحاته الموجهة وضيقه ونفاذ صبره وهو يطالب بالحرية في هذا البلد ، ليس للسود فحسب بل للجميع.

وفوق كل شيء وفي مجال العلاقات العرقية، كان يجد لذة في لَيِّ ذنب الرجل

الأبيض وفي جعل « الأعمام توم » والانهزاميين ومن يقبلون الحلول الوسط، ولا أبرئ نفسي منهم ، يخجلون تماما من الابتسامة المهذبة والنفاق الذي نمارسه يوميًا حتى نعيش في عالم نحسد قيمه ونكرهها في نفس الوقت.

وحتى إذا لم يكن مالكوم قد تغير فسيبقى شخصية مهمة على المسرح الأمريكي ومقارنة بقادة حركة الحقوق المدنية « المسئولين » فهو مثل جون براون (الأبيض) بالنسبة إلى البيض دعاة الإلغاء في الحرب ضد الرق. الكل كان يختلف مع أساليب براون المتطرفة الحمقاء التي قادته إلى أن يهاجم ترسانة فدرالية في هاربر فيري ففقد في ذلك الهجوم اثنين من أبنائه ثم أعدم شنقًا بتهمة الخيانة العظمى.

إلا أن العالم اليوم ، خاصة الزنوج، لا ينظرون إلى جون براون كخائن، بل كبطل وشهيد من أجل هدف نبيل. ولذا لا أستبعد أن ينظر الناس في المستقبل إلى مالكوم إكس، في حدوده وبأسلوبه الذي لا يبارى، كشهيد من أجل نفس الغاية.

لكن الجدل حول أكثر أمريكي مثير للجدل سيستمر وأنا قانع بانتظار حكم التاريخ.

أما في حكمي عليه كفرد فلا مفر من اللجوء إلى الغريزة والشعور. لقد عرفت الرجل شخصيا ومهما اختلفت معه، لم أشك للحظة واحدة، حتى وهو على خطأ، أنه كان ذلك الشيء النادر في العالم بيننا نحن الزنوج: رجلاً بحق.

وبما أنني، أحمي علاقاتي مع كثير من البيض الطيبين الذين مكنوني من أن أرتزق كسباً وعيشاً هنيئاً في عالم المسرح والفن، كنت حذرًا، أخاف من الاعتراف بذلك في حياته، رأيت أنه يجب علي الآن وقد أمن البيض غضبه أخيرًا، أن أكون صريحا مع نفسي وأن أرفع قبعتي بالتحية الأخيرة لتلك الشجاعة الحديدية المقدامة التي كانت سمته وعلامته، وذلك اللهيب اللافح الذي يصدم بلا وجل أو اهتمام ، الصفتين اللتين نفتقدهما تمامًا في كل زنجي آخر أعرفه واللتين جلبتا حمامه قبل وقت حمامه!



المحتويات